التاريخ الإسلامي العام

الجاهلية - الدولة العربية - الدولة العباسية

تأليف

علي ابراهيم حسن

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الآداب بجامعة القاهرة
والمفتش الأول للمواد الاجتماعية بوزارة التربية والتعليم (سابقا)



ملتزم النشر والطبع
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

التاريخ الإسلامي العام

الجاهلية ــ الدولة العربية ــ الدولة العباسية

تأليف

الدكتور علي ابراهيم حسن

المفتش الأول للمواد الاجتماعية



ملتزم النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

دفعنى قيامى بتدريس مواد التاريخ الإسلامى العام ، وتاريخ مصر العام والتاريخ المصرى فى عصر الفاطميين ، والتاريخ المصرى فى عصر الأيوبيين والمماليك ، فى كلية دار العلوم وكليتى الآداب بجامعة القاهرة وبجامعة بغداد - كأستاذ للتاريخ الإسلامى ، إلى وضع هذا الكتاب الشامل

ألفت كتب كثيرة تبحث فى التاريخ الإسلامى ، سواء فيما يتعلق بناحية خاصة من نواحيه أو بالكلام إجمالا عن ظهوره وتوالى الدول التى كان لها شأن فى تسجيل أحداث ذلك التاريخ . إلا أنه على وفرة ما كتب قديماً وحديثاً ، فإن النظرة الشاملة التى تشرف على ذلك التاريخ ، بحيث تحيط به وتضم أطرافه وتفسر أحداثه ، مما يمثل أحدث الاتجاهات فى الوقت الحاضر فى تفسير التاريخ ، هو الذى دفعنا إلى تأليف هذا الكتاب على هذا النحو التركيبى الشامل ، وهو الذى جعلنا نمهد لدراسة التاريخ الإسلامى بالبحث فى العصر الجاهلى ، لأن ظهور الإسلام - وهو حدث من أخطر أحداث الإنسانية - لا يمكن أن يفهم مستقلا عن ماضى العرب فى جاهليتهم ، لا القريبة فقط بل البعيدة أيضاً ، لأن روح الأمة يمتد عبر الزمان حتى لو تقلبت عليها الأديان وتطورت فى لهجاتها ولغاتها وعاداتها .

كان الهدف الذى نرمى إليه إذن هو الكشف عن مقومات هذه الروح الإسلامية ، التى انبعثت من جزيرة العرب ، ثم اتسعت فشملت كثيراً من الشعوب غير العربية التى اتخذت الاسلام ديناً والعربية لسانا . وانضوت جميعاً تحت لواء الحضارة الإسلامية ، وكانت تلك الحضارة قوية حيناً وضعيفة حيناً آخر .

وكان لظهور الإسلام أثره الدينى : فقد أصبح القرآن والأحاديث دستور المسلمين ، كما كان له أثره السياسى كذلك إذ نجح فى تكوين أمة واحدة تخضع لحكومة واحدة بعد أن كانت القبيلة هى الوحدة السياسية التى قام عليها المجتمع العربى قبل الإسلام .

وتعد خلافة الخلفاء الراشدين : أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، شورية انتخابية واتسعت الدولة العربية فى عهد عمر بن الخطاب ، فقد ضم إلى تلك الدولة : فارس والشام وفلسطين ومصر . وكان كل خليفة منهم يتوخى أن يحكم وفق الحدود الشرعية ، إذا استثنينا عهد عثمان الذى رماه أعداؤه بأنه يقرب الأصهار ويبعثر الأموال ولا يحكم بالعدل .

وصحب تحول الخلافة من الخلفاء الراشدين إلى الأمويين ، عدة مظاهر ليست من مقتضيات الخلافة ، كمظاهر الأبهة والجبروت .

وأخذت الحضارة العربية تترعرع ويشتد ساعدها ، ويعد معاوية مؤسس دولة الأمويين ، واعتبر عهد عبد الملك بن مروان عهد إصلاح إدارى شامل فى دولة الأمويين . وأعاد عهد الوليد بن عبد الملك عهد التوسع والغزو الذى ساد الدولة العربية طوال عهد عمر بن الخطاب ، فقد فتح الوليد أقليم ما وراء النهر وحوض نهر السند وشمال إفريقية والأندلس .

ولم يأت صدر الدولة العباسية حتى كانت قد بلغت أوجها ، والتاريخ يحدثنا أن الحضارة الإسلامية فى ذلك العهد قد فاقت سائر الحضارات المعاصرة لها فى الشرق والغرب ، وحكمت الدولة العباسية العالم الإسلامى زهاء خمسة قرون . وكان خلفاؤهم من السفاح إلى الواثق رجال عظماء ، ما عدا الأمين فإنه لسوء حظه لم يساير هؤلاء فى عظمتهم ومقدرتهم السياسية ، واعتبر العصر العباسى الأول وحدة منسجمة متناسقة ، إذ لم يكن لكل خليفة سياسة شخصية ، بل سار الجميع على سياسة واحدة .

وكانت الحوادث الكبرى التى وقعت فى ذلك العهد تسير كلها فى تيارات عامة كإسقاط العرب وإيثار الفرس عليهم ، ثم تشجيع الترك على الفرس والعرب معاً ، ونهضة العلم والأدب ، وظهور حرية الفكر فى البحث والجدل والمناظرة ، وتقريب العلماء والأدباء والمغنين ، وترقية الفنون الجميلة كالعمارة والشعر والموسيقى وهو على الجملة العصر الذهبى للإسلام .

وبقيام العصر العباسى الثانى سنة ٢٣٢ هـ ، زال العصر الزاهر فى الدولة العباسية ، وشمل الضعف معظم مظاهر الحياة فى بغداد ، ويمتد هذا العصر أكثر من أربعة قرون ، كان فيها الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك أولا وبنى بويه ثانياً ، ثم السلاجقة أخيراً . وكان الخلفاء كالريشة فى مهب الرياح ، يتوقف بقاء كل منهم على العرش حسب رغبة المسيطرين عليهم من الأتراك وسلاطين البويهيين والسلاجقة .

وفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) سقطت بغداد فى أيدى التتار ، بعد أن ظلت زهاء خمسة قرون حاضرة للدولة العباسية ومركزاً للعالم الاسلامى ومهبطاً للعلماء . وبمقتل المستعصم عام ٦٥٦ هـ ، انتهت الخلافة العباسية فى بغداد ولم تقم

لما قائمة حتى أحياها بيبرس سلطان المماليك فى مصر فى عام ٦٥٦ هـ (١٢٦٠ م). واستمرت الخلافة العباسية فى مصر إلى أن فتحها العثمانيون على يد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ م وأصبحت ولاية عثمانية .

* * *

وقد قسمت الكتاب قسمين : أولهما للتاريخ السياسى ، وثانيهما لنظم الحكم والحياة الاجتماعية ، ووجهت عناية خاصة إلى دراسة التيارات الحضارية والتعليق على الأحداث التاريخية ، لما لها من أثر عميق فى تكييف التاريخ الإسلامى وفهمه على الوجه الصحيح .

والله نسأل أن يسدد خطانا ويهدينا سواء السبيل

المؤلف

الفهـرس

صفحة

مقـــدمة الكتاب ... ... (ح)

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

ا — تاريخ الجاهلية السيـــاسى

جزيرة العرب مهد الساميين ١٧
العصر الجاهلى ٢٢
العرب ٢٤
القحطانية والعدنانية ٢٧
الممالك العربية فى الجاهلية:
١ — مملكة معين ٣١
٢ — مملكة سبأ ٣٣
٣ — مملكة حمير ٤٩
الغزو الأجنبي لجنوب بلاد العرب ٤٤
الممالك العربية على التخوم :
١ — إمارة الحيرة ٥٥
البيت اللخمى ٦٢
٢ — مملكة تدمر ٧٩

صفحة

٣ ــ مملكة غسان ٨٢

مدن الحجاز :

١ ــ مكة ٩٠
علاقة قريش بقبائل العرب فى الحجاز ١٠١
٢ ــ يثرب ١١٣
٣ ــ الطائف ١٢٠

الديانات السائدة :

١ ــ الديانة الوثنية :

مظاهر الديانة الوثنية ١٢٥
(ا) الأصنام ١٣٣
هبل ١٣٧
اللات والعزى ١٣٩
أصنام أخرى ١٥٢
(ب) عبادة الحيوان ١٥٢
(ح) عبادة الأشجار ١٥٤

٢ ــ الديانة المسيحية ١٥٥

٣ ــ الديانة اليهودية ١٥٧

٤ ــ الصابئة ، والمجوسية ، والزندقة ١٦٠

الباب الثانى

الدولة العربية

من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

البعثة النبوية — الخلفاء الراشدون — الدولة الأموية

أولا — البعثة النبوية

صفحة

نشأة الرسول ١٦٤

البعثة ١٦٦

الهجرة إلى الحبشة ١٧١

مقاطعة قريش لبنى هاشم ١٧٣

بيعتا العقبة ١٧٦

الهجرة ١٧٨

الرسول فى المدينة ١٨٠

الغزوات والسرايا : ١٨٣

١ — غزوة بدر ١٨٦

٢ — غزوة أحد ١٨٨

٣ — غزو الأحزاب (الخندق) ١٩٠

صلح الحديبية ١٩٢

بين الرسول واليهود ١٩٥

٤ — غزو خيبر ١٩٩

رسل محمد عليه السلام إلى الملوك ٢٠١

عمرة القضاء ٢٠٢

صفحة

٥ – غزوة مؤتة ٢٠٣
٦ — غزوة الفتح (فتح مكة) ٢٠٤
٧ — غزوة حنين ٢٠٥
٨ – غزوة تبوك ٢٠٧
حجة الوداع ووفاة الرسول ٢٠٧

ثانياً – الخلفاء الراشدون

بدء ونهاية حكم الخلفاء الراشدين ٢١٠
أزمة الحكم بعد وفاة النبي ٢١٠
١ – أبو بكر الصديق
بيعة السقيفة ٢١١
حركة المرتدين ٢١٤
المتنبئون ٢١٥
حركة التوسع والفتح ٢١٧
٢ – عمر بن الخطاب
بيعة عمر ٢٢٢
الفتوح الإسلامية
(ا) فتح فارس ٢٢٣
(ب) فتح الشام وفلسطين ٢٢٧
(حـ) فتح مصر ٢٢٨
العوامل التى سهلت انتصار العرب على الفرس والروم ٢٣٠
منشآت عمر ٢٣٣
مصرع عمر ٢٣٤

صفحة

شخصية عمر ٢٣٥
٣ – عثمان بن عفان
انتخابه ٢٣٨
اتساع الدولة العربية زمن عثمان ٢٤٠
مقتل عثمان والأحداث التي أدت إليه :
(ا) سياسة عثمان في تولية الولاه ٢٤٥
(ب) سياسة عثمان المالية ٢٤٦
(ح) تصرفات عثمان في الأمور الدينية ٢٤٧
(ى) حركة عبد الله بن سبأ ضد عثمان ٢٤٧
(ه) اعتراض الصحابة على سياسة عثمان ٢٤٨
الحالة في الأمصار
(ا) في المدينة (ب) في الكوفة والبصرة (ح) في الفسطاط ٢٤٩
الدور العملي في الفتنة ٢٥١
شخصية عثمان ٢٥٤
٤ — علي بن أبي طالب
انتخابه ٢٥٦
بين علي وطلحة والزبير ٢٥٧
بين علي ومعاوية ٢٥٩
التحكيم ٢٦١
الخوارج في عهد علي ٢٦٢
مقتل علي ، شخصيته ٢٦٣
الحسن بن علي ٢٦٤

ثالثا — الخلافة الأموية

صفحة

الخلفاء الأمويون ٢٦٥

١ — معاوية بن أبى سفيان

انتقال الخلافة إلى معاوية ٢٦٧

أشهر الولاة فى خلافة معاوية ٢٦٨

تولية يزيد العهد ٢٦٩

الفتوح فى عهد معاوية ٢٧٤

موقف معاوية إزاء الخوارج والشيعة ٢٧٥

٢ — يزيد بن معاوية

تولية الخلافة ٢٧٧

بين يزيد والحسين بن على ٢٧٨

بين يزيد وعبد الله بن الزبير ٢٨١

٣ — معاوية الثانى ٢٨٣

٤ — مروان بن الحكم

انتقال الملك إلى الفرع المروانى ٢٨٥

سياسة مروان إزاء الأمصار ، نهاية حكمه ٢٨٦

٥ — عبد الملك مروان

الصعوبات التى واجهته

(ا) ظهور التوابين ٢٨٨

(ب) ثورة المختار ٢٨٨

(حـ) بين عبد الملك وابن الزبير ٢٩٠

(ء) القضاء على فتن العراق ٢٩٤

(هـ) القضاء على ثورات الخوارج ٢٩٥

(و) فتنة عبد الرحمن بن الأشعث ٢٩٧

صفحة

(ز) استرداد إفريقية ... ٢٩٨
تقدير عبدالملك ... ٢٩٩
٦ — الوليد بن عبد الملك
الفتوح فى عهده
(ا) إقليم ما وراء النهر ... ٣٠١
(ب) إقليم السند ... ٣٠٢
(حـ) فتح شمال إفريقية ... ٣٠٤
(ى) فتح الأندلس ... ٣٠٥
تقدير الوليد ... ٣٠٨
٧ — سليمان بن عبد الملك
سياسته ... ٣٠٩
حصار القسطنطينية ... ٣١٠
٨ — عمر بن عبد العزيز
بيعته ، سياسته ... ٣١٢
إصلاحاته ... ٣١٣
وفاته ... ٣١٥
٩ — يزيد بن عبد الملك
الفتن الداخلية والخارجية ... ٣١٥
١٠ هشام بن عبد الملك
سياسته إزاء القبائل ... ٣١٧
التوسع والغزو ، الفتن والثورات ... ٣١٨
١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك ... ٣٢١
١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك ... ٣٢١
١٣ — مروان بن محمد ... ٣٢٢
سقوط الأمويين ... ٣٢٣

الباب الثالث
الدولة العباسية

العصر العباسي الأول - العصر العباسي الثاني

أولا — العصر العباسي الأول

صفحة

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين ٣٢٦
بدء ونهاية حكم الخلفاء العباسيين الأول ٣٣٠
١ — أبو العباس السفاح :
ماذا يقصد بلفظ « السفاح » ؟ ٣٣٢
اتخاذ الأنبار عاصمة ٣٣٣
اضطهاد الأمويين ٣٣٤
عدم احترام العهود والغدر بالأنصار ٣٣٦
الثورات ضد حكم السفاح ٣٣٧
تقدير السفاح ٣٣٨
٢ — أبو جعفر المنصور :
شخصيته ٣٣٩
قضاء المنصور على المعارضة :
(ا) موقفه من عمه عبد الله بن على ٣٤٠
(ب) موقفه من أبي مسلم الخراساني ٣٤١
النحل الدينية ٣٤٣
موقفه من العلويين ٣٤٥

صفحة

تأسيس مدينة بغداد ٣٥٢
سياسته الخارجية :
(ا) بين العباسيين والبيزنطيين ، (ب) سياسته إزاء الأندلس ٣٥٨
(ح) بين المنصور والفرنجة ٣٦١
٣ — المهدى :
أعماله ٣٦٢
الحركات الدينية فى عهده ٣٦٣
صفاته ٣٦٤
السياسة الخارجية :
(ا) مع بلاد الأندلس ٣٦٥
(ب) بين العباسيين والبيزنطيين ٣٦٥
٤ — الهادى :
سياسته إزاء العلويين ٣٦٧
اضطراب نظام ولاية العهد ٣٦٩
تدخل النساء فى شئون الدولة ٣٦٩
٥ — هارون الرشيد :
عوامل شهرة الرشيد ٣٧١
الثورات ضد حكم هارون :
(ا) ثورات العرب ٣٧٢
(ب) فتنة الخوارج ٣٧٢
(ح) ثورات العلويين ٣٧٣
(ى) ثورات فى المغرب والمشرق ٣٧٥

صفحة

البرامكة ٣٧٦
نكبة البرامكة ٣٧٨
العلاقات الدولية فى عهد الرشيد :
أ — علاقته بدولة بنى أمية فى الأندلس ٣٨١
ب — علاقته بالدولة البيزنطية ٣٨١
ح — علاقته بشارلمان ٣٨٢
تقدير الرشيد :
أ — بدء ظاهرة التجزؤ ٣٨٣
ب — عقد الخلافة من بعده لأولاده الثلاثة ٣٨٤
ح — اتصافه بالغدر والقسوة ٣٨٥
٦ — الأمين :
الفتنة بين الأمين والمأمون ٣٨٦
حصار بغداد ٣٨٨
تقدير الأمين ٣٩٠
زبيدة أم الامين ٣٩١
٧ — المأمون .
سياسته إزاء العلويين ٣٩٣
المأمون فى العراق ٣٩٦
ثورات العرب ضد المأمون ٣٩٨
علاقة المأمون بالبيزنطيين ، بوران زوجة المأمون ٤٠٠
النهضة العلمية فى عهد المأمون ٤٠٢

صفحة

تقدير المأمون ٤٠٦

٨ — المعتصم :

سياسته إزاء العلويين ٤٠٨

اعتماده على الأتراك ٤٠٩

سامرا ٤١١

النحل الدينية : البابكية والمجوسية ٤١٢

علاقته بالدول البيزنطية ٤١٤

اعتماده على الاتراك . تقدير المعتصم ٤١٥

٩ — الواثق :

سياسته إزاء مسألة خلق القرآن ٤١٦

تقدير الواثق ٤١٨

ثانياً — العصر العباسى الثانى

خلفاء العصر العباسى الثانى ٤١٩

١ — الخلافة العباسية منذ وفاة الواثق إلى أن استولى بنو بويه على بغداد

(عهد سيطرة الاتراك) :

تدخل النساء فى أمور الدولة ٤٢١

الخليفه ألعوبة فى يد الاتراك ٤٢٤

تقسيم أمـلاك الدولة ٤٢٥

الخليفة يستجير بولاته ٤٢٦

ازدياد خطر التجزؤ ٤٢٨

صفحة

ظهور أم المقتدر على المسرح السياسى ٤٣٤
ازدياد شوكة الأتراك ٤٣٦
إمرة الأمراء ٤٤٠

٢ ـ الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه :

سلاطين بنى بويه فى العراق ٤٤٥
الشروع فى إقامة خلافة فاطمية فى بغداد ٤٤٨
تشهير الخلفاء العباسيين بنسب الفاطميين ٤٥٢

٣ ـ الخلافة العباسية فى عهد سلاطين السلاجقة :

ذكر اسم الخليفة الفاطمى على منابر بغداد ٤٥٤
حالة الخلفاء العباسيين ٤٥٨
تحسن العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة ٤٥٩
النزاع بين العباسيين والسلاجقة ٤٦٠
محاولة الخلفاء العباسيين استعادة نفوذهم ٤٦١
٤ ـ سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية ٤٦٥
٥ ـ الخلافة العباسية فى القاهرة والقسطنطينية ٤٧٠

الباب الرابع

نظم الحكم والحياة الاجتماعية

فى الجاهلية — فى الدولة العربية — فى الدول العباسية

أولا — عند العرب قبل الإسلام

صفحة

١ — نظم الحكم :
حكومة القبيلة ٤٨٤
نظام القضاء ٤٨٥
سلطان شيوخ العشائر ٤٨٦
واجبات رؤساء العشائر ٤٨٨
٢ — الحالة الاقتصادية :
التجارة فى جزيرة العرب ٤٩٠
معاملات العرب التجارية ٤٩٥
الأسواق ٤٩٧
٣ — الحياة الاجتماعية :
أفراد القبيلة . مكانة المرأة فى الجاهلية ٤٩٨
زواج الجاهلية ٥٠٤
وأد البنات فى الجاهلية ٥٠٧
أنواع التسلية عند العرب :
الصيد وسباق الخيل ٥١٠
لعبة الكرة ٥٢٠
الأل والجناح ٥١١
المدحاة والأرجوحة ٥١٢
الخذروف ووضاح ٥١٢
لعب الميسر ٥١٣

صفحة

ثانيا — من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

١ — النظام السياسى
حكومة الرسول ٥١٤
انتخاب الخلفاء الراشدين ٥١٥
مميزات الخلافة الأموية ٥١٦
٢ — النظام الإدارى :
الدواوين ٥١٨
الكتابة ٥٢٠
الحجابة ٥٢١
البريد ٥٢٢
٣ — النظام القضائى
ا — القضاء
فى عهد الرسول . فى عهد الخلفاء الراشدين ٥٢٣
فى عهد بنى أمية ٥٢٤
مرتبات القضاة ٥٢٥
ب — ديوان المظالم ٥٢٦
حـ — الشرطة . ى — الحسبة ٥٢٨
٤ — النظام الحربى :
ا — الجيش :
نظام الجيش ٥٣٠
أسلحة الجيش ٥٣١
إمرة الجيش ٥٣٢
ب — البحرية ٥٣٣
إمرة الأسطول ٥٣٤
٥ — النظام المالى :
مواريث بيت المال :
ا — الخراج ٥٣٥

صفحة

ب — الجزية ٥٣٨
ح — العشور والزكاة ٥٤٠
ى — الفيء والغنيمة ٥٤١
نظام الضرائب فى عهد الأمويين ٥٤٣
مصارف بيت المال ٥٤٤
٦ — الحياة الاجتماعية :
طبقات الشعب ٥٤٦
المرأة ٥٤٨
الغناء والموسيقى ٥٥٠
الطعام ٥٥١
أنواع التسلية ٥٥٢

ثالثاً — فى العصر العباسى

١ — النظام السياسى ٥٥٣
٢ — النظام الإدارى
الإمارة على البلدان ٥٥٦
الوزارة ٥٥٨
الدواوين ٥٦٢
الكتابة ٥٦٣
الحجابة ٥٦٥
البريد ٥٦٦
٣ — النظام القضائى ٥٦٧
٤ — النظام الحربى .
عناصر الجند ٥٧٠
أشهر القواد ٥٧٢
تنظيم الجيش ٥٧٣

صفحة

٥ — النظام المالى ٥٧٥

٦ — الحياة الاجتماعية :

طوائف السكان ٥٧٨

المرأة ٥٨٠

الملابس ٥٨٢

الطعام والشراب ، والألعاب ٥٨٤

الأعيـــاد والمواسم والمواكب ٥٨٥

مجالس الغناء والموسيقى فى بغداد ... ... ٥٨٦ - ٥٩٢

المصادر

مصادر الكتاب ... ... ٥٩٣ — ٦١٢

الخرائط

١ — الدولة الرومانية الشرقية ٥٣

٢ — دولة الفرس ٥٦

٣ — الحرب بين الفرس والروم ٥٩

٤ — قبائل العرب والإمارات العربية قبل الإسلام ٨٧

٥ — خريطة بلاد العرب ٨٩

٦ — الغزوات ١٨٣

٧ — فتح فارس ٢٢٥

٨ — فتح الشـام وفلسطين ٢٢٩

٩ — فتح العرب لمصر ٢٣١

١٠ — واقعة ذات الصوارى ٢٤٣

١١ — فتوح العرب فى شبه جزيرة أيبيريا ٣٠٣

١٢ — بغداد فى عهد المنصور ٣٥٦

١٣ — الحمدانيون والبويهيون والسلاجقة ٤٤٦

الباب الأول

العرب قبل الإسلام

١ – تاريخ الجاهلية السياسي

جزيرة العرب مهد الساميين :

بلاد العرب قطر فسيح تبلغ مساحته حوالى مليون ميل مربع ، وهى تقع فى الجنوب الغربى من آسيا . ويحدها الخليج العربى وبحر عمان شرقاً ، والمحيط الهندى جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً ، وبادية الشام شمالا . ويبدأ حدها الشمالى بغزة الواقعة على شاطىء البحر الأبيض المتوسط الشرقى ، ويمر بجنوب البحر الميت حتى شرق الأردن ، ثم يمر من دمشق إلى الفرات متتبعاً مجراه لينتهى عند الخليج العربى .

ومنذ العصر الجوراسى كان المحيط الهندى والخليج الفارسى يفصلان الجزيرة العربية عن الهند وفارس ، اللذين لا يزال تركيبهما الجبلى بارزاً فى منطقة عمان ، وفى العصر الثالث فصلت بلاد العرب عن شمال إفريقية بظهور البحر الأحمر ، وبذلك صارت بلاد العرب محاطة بالمياه إلا من الشمال ، ومن هنا جاءت تسميتها بشبه جزيرة العرب أو « بالجزيرة العربية » ، كما يدعوها سكانها أنفسهم .

ولم يكن داخل بلاد العرب معروفاً عند الجغرافيين القدماء ، وإنما اكتفوا بتقسيمها إلى ثلاثة أقسام :

١ — بلاد العرب الحجرية .

٢ — بلاد العرب الصحراوية .

٣ — بلاد العرب السعيدة .

أما جغرافيو العرب فلم يعدوا بلاد الحِجْر من أقسام الجزيرة العربية ، مع أن الناحية الجغرافية والناحية الإثنوغرافية تجعلان بلاد الحِجْر قسما من أقسام الجزيرة[١] . وتتألف بلاد الحجر العربية من جزيرة طور سيناء الممتدة من حدود فلسطين إلى البحر الأحمر ، ويتوسطها طود من حجر الصوان يحيط به بقاع صخرية قليلة النبات .

أما بلاد العرب الصحراوية ، فهى البادية الكبرى التى تمتد من حدود سورية والعراق إلى المحيط المندى محاذية الخليج العربى . وليست طبيعة هذه الصحراء متشابهة ، بل تتنوع إلى أنواع ثلاثة :

١ — النوع الأول : الصحراء التى يطلق عليها العرب « بادية السماوة » وتقع فى الشمال بين الكوفة والشام وهى أرض مستوية لا حجر بها[٢] وليس بها إلا قليل من آبار وعيون . ويقع جنوبى بادية السماوة جبلا أجا وسلمى ، ويعرفان اليوم بجبل شمَّر وهما نتوءان بارزان من جبال السراة الغربية ويتجهان نحو الشرق وينفذان إلى السهول الواقعة شمالى المدينة[٣] .

٢ — النوع الثانى من الصحراء هى المسماة « بالرُّبع الخالى » وهى تقع فى الجنوب ، وتتصل ببادية السماوة فى الشمال وتمتد شرقا حتى الخليج العربى ، وهى صحراء رملية كبيرة يغلب عليها الجدب والقفر . وقد اخترقها برترام توماس Bertram Thomas لأول مرة سنة ١٩٣١م ثم تبعه فيلبي St. John Philby فاخترقها سنة ١٩٣٢ م ، وفى قليل من بقاع هذه البيداء أشجار ونخيل ، وليس

---

(١) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 12.

(٢) ياقوت : معجم البلدان مادة سماوة .

(٣) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, 1

بها من الأودية ذات المياه إلا عدد قليل مثل وادى سرحان فى الشمال ووادى الرمة ووادى الدواسر فى الجنوب ، وهى تعمل جميعها على تنويع مظاهر السطح فى هذه الصحراء . وقد تسقط بها بعض الأمطار فتمتلىء الأودية بالمياه ثم لا تلبث أن تجف بعد أن تضفى شيئاً من الخصب على بعض هذه البقاع[١]. وقد أطلقت العرب على هذه الصحراء جملة أسماء : فالجزء الذى بين شرقى اليمن وحضرموت يسمى صيْهَدا ، والذى بين شمالى حضرموت وشرقيها يسمى الأحقاف ، والذى فى شمالى مهْرة يسمى الدهناء[٢].

٣ — النوع الثالث من الصحراء هى الحرار التى أحدثتها البراكين . والحرار « جمع حرة وهى كل أرض فيها حجارة سود ورمل »[٣]، وذكر ياقوت أن الحرة « أرض ذات حجارة سود نخرة كأنها أحرقت بالنار »[٤] . وتكثر الحرار فى بلاد العرب ولا سيما حول المدينة ، وعد منها ياقوت فى معجمه نحواً من ١٩ حرة أشهرها : تبوك ، وحرة سليم ، وحرة ليلى ، وحرة أوطاس ، وحرة غلاس ، وحرة واقم[٥]

أما بلاد العرب السعيدة فتشتمل على نجد والحجاز واليمن وعمان . وتقع نجد فى جنوب بادية الشام وتشتمل على وسط جزيرة العرب بين الحجاز والأحساء مع إقليم اليمامة أو العروض حيث كانت مدينة هجر ، ويفصل نجداً عن آكام عمان الجبلية صحراء الربع الخالى .

ويقع الحجاز فى جنوب جزيرة سيناء ، ويمتد على طول البحر الأحمر من أيلة — وهى المعروفة اليوم بالعقبة — إلى اليمن . وسمى حجازاً لأنه يفصل

---

(١) كما ترى فى تيماء وخيبر على طرف المناطق الحرارية الواقعة فى الشمال الغربى .
(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢ .
(٣) ياقوت : مراصد الاطلاع ج ١ ص ٢٩٣ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان . « مادة حرة » .
(٥) إحدى حرتى المدينة وهى الشرقية ، وفيها كانت واقعة الحرة فى أيام يزيد بن معاوية .

تهامة ، وهى الأرض المنخفضة على شاطىء البحر الأحمر ، عن نجد وهى الأرض المرتفعة شرقا . وقيل إن الحجاز « ما حجز فيما بين اليمامة والعروض وفيما بين اليمن ونجد »[١] ، وسمى حجازاً « لأنه فصل بين الغور والشام و بين البادية[٢] » ، و إنه « ما حجز بين تهامة والعروض »[٣] . وهو على العموم قطر فقير تكثر به الأودية التى تمتلىء بالمياه بعد سقوط الأمطار ، ومناخه شديد الحرارة ، إلا أنه يعتدل فى بعض بلاده كالطائف المعروفة بجنة مكة[٤] . ويستوقف الحجاز نظر المؤرخين ، لاشتماله على المدينتين الكبيرتين : مكة والمدينة ، وقد أصبح بحق « مهد الإسلام » والبقعة التى انتشر منها الدين الجديد ، فنال لذلك من عناية الباحثين والدارسين الشىء الكثير .

وتقع بلاد اليمن جنوبى الحجاز ، وهى قطر غنى عرف منذ القدم بالخصب ، وفيه تجود الزراعة عن طريق توفير المياه المتجمعة من الرياح الموسمية وحسن تصريفها ، وأشهر مدنها صنعاء وعدن ونجران ، وفى شرق اليمن تقع حضرموت على ساحل المحيط الهندى ، وتكثر بها الجبال والوديان . وتقع ظفار شرق حضرموت وهى من أعمال الشحر[٥] وتشتهر بالتوابل والطيب ولا سيا اللبّان ، وكان التجار يجلبون منها البخور للمعابد والهياكل المصرية

وفى أقصى الزاوية الجنوبية الشرقية من جزيرة العرب تقع عمان ، وهى كورة عربية تشتمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزروع[٦] ، واشتهر سكانها بالمهارة فى الملاحة فكانت حركة التجارة فى المحيط الهندى بين

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم جـ ١ ص ٢١٠ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة « الحجاز » جـ٣ ص ٢١٨ .
(٣) مراصد الإطلاع جـ ١ ص ٢٢٠ .
(٤) Sidellot : Histoire Generale des Arabes. tome 1. p. 12.
(٥) شحر عمان : ساحل البحر بين عمان وعدن — المنجد .
(٦) ياقوت : معجم البلدان .

سواحل الجزيرة الشرقية والهند منظمة منذ زمن بعيد وكانت السفن تحمل المنتجات الموسمية من الهند إلى ساحل عمان . وفى الشمال الغربى من عمان تقع البحرين أو الأحساء ، وتمتد على طول الخليج العربى من حـــدود عمان إلى الفرات .

هذه هى جزيرة العرب مهد الساميين ، أو البقعة التى نزحوا منها إلى ماحولهم من أقاليم . وقد انقسمت الآراء حول الوطن الأول للعنصر السامى . ويرى بعض المؤرخين « أن جميع التقاليد الساميه تدل على أن الجزيرة العربية هى المهد الأول للساميين » وأن جزيرة العرب ولا سيا الأصقاع الوسطى منها لم تكن قاحلة جرداء كما نراها اليوم ، بل كانت خصبة فى العصور القديمة تصلح للعيش والحياة والسكنى ثم اعتراها الجفاف فطمس معالمها وأزال حضارتها ، ومن هؤلاء المؤرخ كينج[١] . وليس من السهل أن نقرر أمناخ الجزير العربية — كما استنتج بعضهم — كان أكثراعتدالا خلال التاريخ ، ثم انتهى مع الأيام إلى جفاف تدريجى أم لم يكن[٢] . على أنه قيل كذلك إن نجداً هى المهد الأول الذى درج فيه الساميون[٣] وإنها هى التى وسمتهم بميسمها ، وطبعتهم بطابع الصحراء الذى لا يمحى ، وإن الأمم الزراعية لا ترجع القهقرى إلى طور البداوة والقيام على لأنعام وإن المكس فى ذلك صحيح . ورأى دى غوية De Goeij أن وسط جزيرة العرب هو المسكن الأول للجنس السامى على العموم[٤] .

---

(١) King : History of Babylon, pp. 116 —120.

(٢) Brockelman : History of the Islamic Peoples, p. 2

(٣) المرحوم محمد محمود جمعة : مهد الساميين . بحث مستخرج من صحيفة دار العلوم . السنة الرابعة ، العدد الأول ، سنة ١٩٣٧ .

(٤) فى خطابه لدى المجمع العلمى سنة ١٨٨٢ .

العصر الجاهلى :

يعرف عصر ماقبل الإسلام فى الجزيرة العربية عند جمهور المؤرخين والمحدثين وأصحاب السير «بالعصر الجاهلى» ، ويقصد به عادة « زمن الجهل وعدم المعرفة » وهو عين مانُعتت به الأزمنة السابقة للنصرانية فى الآية الثالثة عشرة من الإصحاح السابع عشر من سفر أعمال الرسل[1] . ولقد ورد لفظ الجاهلية فى أربع آيات من آى القرآن الكريم[2] ، ويتبين لنا إذا مادققنا النظر فى هذه الآيات الأربع ، أن المعنى المقصود بالجاهلية ليس هو الجهل الذى هو ضد العلم ، ولكنه الجهل الذى هو السفه والغضب والأنفة[3] . وفى الحق أن لفظ الجهل ضد العلم قد ورد كثيراً بهذا المعنى فى قول الشعراء القدماء أو الجاهليين كما يسمونهم ، والشعراء المحدثين على السواء ، ومن ذلك قول عنترة فى معلقته :

« إن كنت جاهلة بما لم تعلمى »

ويطلق لفظ « الجاهلية » على الحال التى كانت عليها العرب قبل ظهور الإسلام ، يؤيد ذلك قول المؤرخين المحدثين : يقول الدكتور فيليب حتى « تفسر كلمة الجاهلية عادة بعصر الجهل أو الهمجية ، ولكنها فى الحقيقة تعنى تلك الفترة التى كانت فيها الجزيرة العربية خالية من أى قانون أو نبى موحى إليه أو كتاب منزل »[4] :

The term Jahillia usually rendered time of ignorance or barabarism' lnrreality means the period in which Arabia had no dispension, no inspired prophet, no revealed book.

---

(١) الموسوعة الإسلامية ـ مادة جاهلية .

(٢) قال الله تعالى « أفحكم الجاهلية يبغون » المائدة آية ٥٠ ، « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية» آل عمران آية ١٥٤ ، « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية » الفتح ٢٦ « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى »

(٣) المرحوم أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٨٣ ـ ٨٤ .

(٤) Hitti, ph. : History of the Arabs, p. 37.

وأطلق المسلمون لفظ « الجاهلية » على كل الفترة الواقعة من فجر التاريخ العربي حتى ظهور الإسلام [١] .

واختلف العلماء فى تحديد العصر الجاهلى ذاته ، فذهب بعضهم إلى القول بأنه : العصر الذى خلا من الرسل بين عيسى ومحمد [٢] ، ويرى بعض المفسرين أن المراد بالجاهلية فى قوله تعالى « وقَرْنَ فى بيوتكن ولا تبرجن تبرجَ الجاهلية الأولى » إنها الزمن الذى ولد فيه إبراهيم عليه السلام حيث كانت المرأة تلبس الدرع من اللؤلؤ غير مخيط الجانبين فتمشى وسط الطريق تعرض نفسها على الرجال [٣] . وروى عن الحكم بن عُيَيْنة أن الجاهلية كانت بين آدم ونوح وهى ثمانمائة سنة [٤] ، وقال ابن عباس : مابين نوح وإدريس [٥] ، وروى عن ابن خالوية أن هذا اللفظ أطلق فى الإسلام على الزمن الذى كان قبل البعثة [٦] ، ويرى نيكلسون أن الجاهلية تشمل فى الحقيقة كل الفترة منذ آدم إلى محمد ولكنها قد تستعمل فى دائرة محدودة للإشارة إلى عصر ماقبل الإسلام للأدب العربى [٧] .

بذلك يتضح صعوبة تحديد العصر الجاهلى كعصر معين من عصور التاريخ ، لأنه ليس زمناً متصلاً بعضه ببعض ، بل هو فترات منقطعة تقع حيناً بعد حين ، وكل فترة منها تكوّن طائفة وثنية لها شعائرها ، ولها خصائص عباداتها التى تعبر عن شعور الأمة حسب دواعى البيئة [٨] .

---

(١) Nicholson : Literary History of Arabs, p. 30

(٢) الموسوعة الإسلامية ــ مادة جاهلية

(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٧٩ .

(٤) الألوسى : بلوغ الأرب فى أحوال العرب ج ١ ص ١٧ .

(٥) القرطبي : نفس المصدر والجزء ج ١٤ ص ١٧٩ :

(٦) الألوسى : نفس المصدر ج ١ ص ١٥ .

(٧) راجع مقدمة نيكلسون فى كتابه المسمى « تاريخ العرب الأدبى » .

(٨) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٣ .

العرب :

يظهر أن المعنى الحقيقي للفظ عرب « Arab » هو صحراء « desert » كما يظهر أن كلمة « Arabya » — كما جاءت في نقوش الملك داريوس هيستاسبيس Darius Hystaspes — تعني صحراء الجزيرة وسورية وشبه جزيرة سيناء »[١].

وكثيراً ما نصادف في المؤلفات اليونانية لفظي « Arab » و « Arabia » وإن كانت أفكار الشعراء عن موقع ذلك القطر خيالية كلها. وكان هيرودوت عارفا بالجزيرة العربية ، كما درس معاصروه من المؤرخين من أمثال اكزينوفون Xenophon لفظ « عرب » وقالوا إنه يطلق على صحراء الجزيرة العربية بوجه خاص كما يطلق على البدو كلمة أعراب ، وكان أهل التاريخ القديم من الفراعنة والآشوريين والفينيقيين يريدون بالأعراب أهل البادية في القسم الشمالي من جزيرة العرب وشرق وادي النيل في البقعة الممتدة بين الفرات في الشرق والنيل في الغرب[٢].

وفي العصور المتأخرة نسبياً كان أهالي الجزيرة العربية يعرفون عند الغربيين باسم « Saracens » ، وأطلق أهالي الولايات البيزنطية هذا اللفظ على القبائل العربية بسبب تعديهم على القوافل المارة ببلادهم أو فرضهم الضرائب الفادحة عليها ، واستمر أهالي الجزيرة يعرفون عند الغربيين بهذا الاسم ، نظراً لكثرة استعماله في آدابهم ، حتى إن المسلمين لم يسلموا من النعت به فيما بعد[٣]. على أن لفظ Saracens قد يكون اسم قبيلة من سكان أعالي الجزيرة ، يظن أنها منحوتة من « الشرقيين » لأن تلك القبيلة كانت تقيم في شرق جبل السراة[٤].

---

(١) Noldeke : Historians' History of he World, Vol. 8, p.2

(٢) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣١ .

(٣) Noldeke : Historians' History of the World, Vol. 8 p. 4.

(٤) جرجي زيدان : نفس المصدر ص ٣١ .

وأطلق الروم على العرب لفظ « ساراقينوس » ، ومعناه عبيد سارة ضغنا منهم على هاجر وابنها إسماعيل . وقيل إن هـذا اللفظ قد يكون محرفا عن Sarakins اليونانى ، وأن هذا اللفظ الذى استعمل فى آداب القرن الأول الميلادى يدل على اسم شعب كان يسكن سورية أو شرق الأردن أو شبه جزيرة سيناء ، ثم توسع المؤرخون اليونان فى استعماله حتى شمل كل الشرقيين ، وأصبح اسم Saracens يطلق على العالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، وهو تحريف للفظ Sarakinos اليونانى [١] .

وعرف العرب كذلك بلفظ « Taits » الذى أطلقه السريانيون من أهل الرها وسكان بابل على جميع العرب ، والظاهر أن المقصود بهذا اللفظ قبيلة طىء لشهرتها فى الجاهلية ، والتى كانت تقيم أصلا فى شمال نجد ثم انتشرت فى جهات خارج بلادهم [١] .

وينقسم العرب إلى قسمين عظيمين أو طبقتين كبيرتين : أما الطبقة الأولى فهى العرب البائدة ، ويريدون بها القبائل التى هلكت ودرست آثارها وانقطعت أخبارها ، وهى عندهم تسع : عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وجرهم وجاسم وعمليق ، وأشهرها الأربعة الأولى ويسمونها العرب العاربة . أما الطبقة الثانية فهى العرب المتعربة أو المستعربة وهم أبناء إسماعيل بن إبراهيم : ويذهب بعضهم إلى تقسيم العرب إلى عاربة وبائدة وهم عاد وثمود وطسم وجديس ، وتسمى قحطان عربا متعربة وعدنان عربا مستعربة .

أما العرب العاربة فسموا بذلك لرسوخهم فى العربية ، ويعتبرهم المؤرخون أقدم سكان جزيرة العرب ، كما يعدونهم ساميين من نسل إِرَمْ بن سام ،

---

(١) حسن ابراهيم حسين : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٧ ـ ١٨ .

Noldeke : Histrorians' History of the World, Vol. 8 p. 4,(٢)

إلا العمالقة فيقولون إنهم من نسل لاوذ بن سام أخي إرم [1] ، ويقال إن قوم عاد ومعظم العمالقة القدماء من نسل حام [2] ، وقد ورد ذكرهم في القرآن مثلا للكبرياء والجبروت اللذين أديا بهم إلى التهلكة . ولا تتعرض التوراة لأصل هذه القبائل ، وقد حاول بعض مفسريها تطبيق أسماء هذه القبائل البائدة على بعض الأسماء الواردة بالتوراة فلم يستطيعوا ذلك إلا بتكلف ملحوظ .

أما عاد ، فكان موطنها حضرموت التي تتاخم بلاد اليمن على حدود الصحراء المسماة بالأحقاف ، ولا يمكن تحديد ما إذا كان قوم عاد من الجنس السامي من سلالة الإرميين ، أم أنهم ممثلو ثقافة غير سامية خلفت إرم ذات العماد ؟ وكان قوم عاد من أشد الناس بطشاً ، شيدوا أبنية شاهقة تدل على حضارتهم ومدنيتهم ، وكانوا يعبدون الأصنام ويقترفون شتى الموبقات ، فلما بعث الله فيهم أخاهم هوداً نبياً ورسولا لم يؤمن به إلا القليل ، وقالوا له « ياهود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك ، وما نحن لك بمؤمنين ، إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » [3] ، ثم نزل بهم قحط شديد ، وساق الله عليهم العذاب فأفناهم جميعاً إلا فئة قليلة لبت نداء هود وأجابته إلى دعوته ونبذت عبادة الأوثان . وعلى مر الزمان ظهر شعب آخر يدعى بقوم عاد الثانية ، وكان مقرهم اليمن ، وينسب بناء سد مأرب إلى ملكهم لقمان بن عاد الذي حاك حوله المؤرخون العرب طائفة من الخرافات .

•

وكان ملك ثمود في شمال بلاد العرب بين الشام والحجاز ، وكانوا يسكنون بيوتا نحتوها في الجبال ، ولا تزال آثارهم المنحوتة في الصخور قائمة في مدائن

---

(١) جرجي زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣٧ .

(٢) Caussin de Perceval : Histoire dee Arabes, Vol.1 p. 7.

(٣) سورة هود : ٥٢ ـ ٥٤ .

صالح على مسيرة أسبوع من شمال المدينة والتى تدل عليها النقوش النبطية[١] التى عثر عليها فى القبور. ولما طغوا أرسل الله إليهم صالحاً نبياً، فهزأت ثمود من نبيها صالح وأبت أن تطيعه حتى يأتى بمعجزة خارقة، فأخرج لهم صالح من الصخر ناقة وفصيلها وأمرهم ألا يمسوها بسوء، بيد أن أحد أشرارهم عقرها وذبحها، فأرسل الله عليهم صيحة من السماء فأصبحوا فى ديارهم جاثمين، وسار صالح إلى فلسطين ثم إلى الحجاز مع من بقى من قومه المؤمنين.

وأشار ديودور الصقلى و بطليموس وغيرهم من القدماء إلى وجود آل ثمود، ما عاد فلم نجد لهم أثراً يذكر خلال العصور التاريخية، مع أن آل ثمود قد عاشوا حتى القرن الخامس والتحقوا بجيش الدولة البيزنطية كفرسان ثموديين[٢]. وكانت مساكن طسم وجديس فى اليمامة، والملك عليهم من طسم، ثم انتقل الملك إلى جديس، ولم يدون عن هاتين القبيلتين شىء إلا حقيقة هلاكهما والأسباب التى أدت إليه. ويقصد بالعمالقة، أهل شمال الحجاز مما يلى جزيرة سيناء، الذين فتحوا مصر باسم « الهكسوس »، وملكوا بابل أولا ثم نزحوا منها إلى جزيرة العرب، وقيل إن لفظ « العمالقة » منحوت من اسم قبيلة مواطنها بجهات العقبة أو شمالها حيث كان العماليق[٣].

القحطانية والعدنانية:

كان موطن شعب قحطان بلاد اليمن، وهو ينسب إلى قحطان بن عابر ابن شالح الذى يقال إنه أول من ملك أرض اليمن ولبس التاج[٤] وأطلق على نسل

---

(١) Doughty : Documents epigraphiques recueillis dans le Nord de L'Arabie, p. 12 sui

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 3.

(٣) جرجى زيدان : العرب قبل الإسلام ص ٣٨ :

(٤) أبكاريوس : نهاية الأرب فى أخبار العرب ص ٦ (طبع مرسيليا).

قحطان اليمنيين أو القحطانيين ، بينما أطلق على نسل إسماعيل بن إبراهيم العدنانيين أو النزاريين ، وصار هذان اللفظان يرادفان عرب الجنوب وعرب الشمال . وخلف قحطان – جد أعراب الجنوب – ابنه يعرب الذى يقال إنه أول من اتخذ العربية لساناً ولقبه الشعراء « رب الفصاحة » ، قال بعضهم :

فما مثل قحطان السماحة والندى ولا كابنه رب الفصاحة يعرب

ومن هنا أطلق على القحطانيين العرب المتعربة ، أما العدنانيون فيقال لهم العرب المستعربة ، لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية . فلما نزلت جرهم من القحطانية بمكة وسكنوا مع إسماعيل وتزوج منهم ، وتعلم هو وأبناؤه العربية فسموا المستعربة ، وهم جمهور العرب من البدو والحضر الذين يسكنون أواسط جزيرة العرب و بلاد الحجاز إلى بادية الشام[1] .

وكان أهل الجنوب يعيشون عيشة قرار ، أما أهل الشمال فغلبت عليهم البداوة والارتحال . وكانت لغة اليمنيين تخالف لغة العدنانيين فى أوضاعها وتصاريفها ، وكما كان لسان أهل الجنوب يشمل لهجات شتى أهمها : المعينية والسبئية والقتبانية والأوسانية والحضرمية ، وهى قريبة من اللهجات الحبشية السامية ، كذلك كان لسان أهل الشمال يشمل أيضاً عدة لهجات نستطيع أن نميز بين أربعة أنواع منها وهى اللحيانية[2] والثمودية[3] والصفوية[4] والنبطية . وتمتاز اللهجات الثلاث الأولى بخطوطها المشتقة من الخط العربى الجنوبى ، بخلاف اللهجة الرابعة المنقوشة بخط آرامى ، كما تمتاز اللحيانية والثمودية أيضا باشتمالها على كلمات وصيغ لا تختلف كثيراً عن اللغة العربية الفصحى ، على حين أن

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٥

(٢) سمى العلماء هذه اللهجة العربية الشمالية باللحيانية لأنه ذكر فيها بنو لحيان .

(٣) سميت بهذا لشهرة بنى ثمود قبل الإسلام فى نجد وشمال جزيرة العرب .

(٤) إسمها مأخوذ من جبل الصفاء الموجود فى بادية الشام .

اللهجة الرابعة هى لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية[1] .

ولقد سبق عرب الجنوب عرب الشمال فى إنشاء حضارة خاصة ، بينما ظل معظم الشماليين يعيشون فى بيوتهم التقليدية المصنوعة من الشعر ، وينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للعيش والحياة ، ولم يظهر عرب الشمال على المسرح العالمى إلا ببزوغ شمس الإسلام الذى تعتبر أرضهم مهده الأول . وهناك فرق بين عرب الشمال ـ بما فيهم عرب نجد ـ وبين عرب الجنوب ، من الناحية الجنسية : فعرب الشمال ينتسبون لجنس البحر الأبيض المتوسط ، أما عرب الجنوب فينتسبون للجنس الألبى المسمى أيضا بالجنس الحيثى أو العبرى ومن مميزاته الفك العريض والأنف الأقنى والخد المنبسط والشعر الكثيف[2] .

وكان العداء مستحكما بين العدنانيين والقحطانيين منذ القدم حتى أن كلا منهم اتخذ لنفسه شعاراً فى الحرب يخالف شعار الآخر ، فاتخذ المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر ، واتخذ أهل اليمن العمائم الصفر والرايات الصفر[3] . وكان توالى الحوادث والوقائع الحربية يزيد فى العداء بينهم ، ولم يزل الاختلاف واضحا بينهم على الرغم من محاولة الإسلام توحيد الأمة العربية وجمع شملها تحت لوائه ، وقد كان لهذا الاختلاف شأن كبير فى إضعاف معنويات الدولة العربية .

الممالك العربية فى الجاهلية

لم تعرف بلاد العرب قبل الإسلام نظام الدولة السياسى ، ولم يكن بها حكومة مركزية تهيمن على كافة شؤونها ، وإنما اكتظت بالوحدات السياسية

---

(١) أنوليتمان : لهجات عربية شمالية قبل الإسلام ، بحث مستخرج من مجلة مجمع اللغة العربية الملكى . ج ٣ ، ١٩٣٦ .

(٢) Hitti History of the Arabs, p. 30

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٧ .

المستقلة التى عرفت بالقبائل . والظاهر أن العرب فى جاهليتهم لم يكن لهم شعور بأنهم أمة بالمعنى الصحيح ، إنما كان الشعور القوى عندهم شعور الفرد بقبيلته ، التى يتبعها حلت أو رحلت ، ويذب عنها غارة المغير وظلم المعتدى . والشعر الجاهلى مملوء بالشعر القبلى ، فالعربى يمدح قبيلته ويعنى بانتصارها ، ويعدد محاسنها ، ويهجو القبيلة الأخرى من أجل قبيلته ، ولكن قل أن نجد أن شعراً يتغنى فيه العربى بأنه عربى ويفخر فيه على غيره من الأمم(١) .

لم تكن الجزيرة العربية قبل الإسلام وحدة متماسكة من الناحية الجنسية واللغة الدينية ، فضلا عن وسائل المعيشة التى كانت تختلف فى جهة عن الأخرى . فمن الناحية الجنسية نجد أن عرب الجنوب قد اختلطوا منذ القدم بالأحباش وشعوب إفريقية الشرقية ، حتى تميزوا عن عرب الشمال فى خلقتهم ولونهم . ومن الناحية اللغوية نرى أن لغة الجنوب التى اتسمت بالطابع الحبشى السامى ، كانت تخالف لغة الشمال القريبة من اللغة العبرية والنبطية . ومن ناحية الدين نشعر بالاختلاف البين بين عبادة أهل الجنوب وأهل الشمال : فأهل الجنوب كانوا يعبدون الأجرام السماوية . أما أهل الشمال فقد عبدوا الأصنام المنحوتة . وخلت الجزيرة العربية من وجود هيئة خاصة من كبار زعمائها ، تكون بمثابة الحكومة فى العصر الحديث ، لها قوة تنفيذ أوامرها على كافة الأفراد . واستعان زعماء العرب فى الجاهلية بالفُتّاك والخلعاء والصعاليك على تنفيذ خططهم أو نصب المهالك لأعدائهم ، وكانت القبائل كثيراً ما تخلع هؤلاء الشُّذّاذ ، فتتبرأ من جرائرهم ، وتتخلص من تبعة أعمالهم(٢) .

وقد نشأ بأطراف جزيرة العرب قبل الإسلام بعض الدويلات ، مثل : ممالك اليمن فى الجنوب ، ومملكة الحيرة فى الشمال الشرقى ، ودولة الغساسنة

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ١٧ .

(٢) Lammens : Le Berceau de L' Islam, Vol. 1.p 193—194.

فى الشمال الغربى . أما وسط بلاد العرب فقد سادت فيه الحياة القبلية بأجلى مظاهرها ، حيث كانت القبائل تحيا حياة سياسية فطرية . وامتاز الحجاز عن غيره باشتماله على عدة مدن ذات حيـــاة سياسية خاصة مثل مكة والمدينة والطائف .

ولم تكن الجزيرة العربية خالية من طبقة الحكام ، وإنما كان يحكمها بعض الملوك المتوجين مثل ملوك معين وسبأ[1] من أولاد قحطان ، كما كان رؤساء العشائر يقومون بما يقوم به الملوك تماما ، وكان لهم ما للملوك من الحكم والسلطان . وكان ببلاد العرب بعض البيوتات المشهورة بالكبر والشرف مثل : بيت هاشم بن عبد مناف بيت قريش ، وبيت آل حذيفة بن بدر الفزارى بيت قيس ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بيت شيبان ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بيت اليمن . وكان لرؤساء هذه البيوتات مكانة مرموقة بين العرب سكان البادية والحضر . ولم يعد العرب قبيلة كندة المشهورة بين أهل البيوتات ، وإنما عدوهم من الملوك[2] ، وكان موطنهم حضرموت الواقعة فى الجنوب الشرقى ، وقد امتد سلطانهم إلى الحجاز واليمن ، على أن أمر هذه المملكة لم يدم طويلا ، إذ سرعان مادب الضعف إليها واختفت من مسرح الجزيرة العربية تماما .

١ — مملكة معين :

ازدهرت فى جنوب بلاد العرب منذ الألف الثانى قبل الميلاد ، حضارة راقية ، حيث كان المناخ ملائماً كل الملاءمة للزراعة والرى ، كما اعتمدت تلك الحضارة على التجارة أيضاً . ومن بين الممالك التى نشأت فى هذه البقعة من جزيرة العرب : مملكة معين وتقـــع فى جوف اليمن بين نجران

(١) سبأ اسمه عبد شمس وقيل اسمه عامر وهو ابن يشجب بن يعرب بن قحطان وسبأ اسم يجمع القبيلة كلها كما يكون اسم رجل بعينه . راجع ابن دريد : كتاب الاشتقاق ص ٢١٧ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى ١٧ ص ١٠٦ — ١١٠ .

وحضرموت[١] ، وكانت سبأ تقع بين معين فى الشمال وقتبان فى الجنوب ، أما حضرموت فتقع شرقى هذه الممالك الثلاث[٢] .

نزح المعينيون مع غيرهم من القبائل إلى جزيرة العرب حيث استوطنوا منطقة الجوف ، وما أن أطل عليهم الألف الثانى قبل الميلاد حتى كانوا قد توسّعوا فى مستعمراتهم التجارية بعيداً نحو الشمال[٣] . على أنه إذا كان المؤرخون القدماء لم يذكروا أسماء ملوك معين أو شيئاً من أخبار وأحوال مملكتهم، فإن رجال الآثار أزاحوا شيئاً من الغموض الذى خيم على هذه المملكة ، ومنهم من قام بالبحوث الطويلة عن نظمها السياسية والاجتماعية معتمدين على النقوش وحدها التى كشفت حديثاً فى جنوب جزيرة العرب ، حتى كشفوا عن أسماء ستة وعشرين ملكا من ملوك معين[٤] ، واستدل من النقوش المعينية على أن نظام الحكم فيها كان ملكيا وراثيا ، حيث كانت السلطة تنتقل من الأب إلى الابن ، وقد يشترك الاثنان معا فى الحكم .

وكانت منتجات معين الوطنية وهى البخور والمر عظيمة القيمة فى مصر ، وكان موقعها الجغرافى العظيم على البحر الأحمر مركزاً تجاريا هاما منذ القدم[٥] ، وامتد مجال نفوذها حتى بلغ غزة شمالا على البحر الأبيض المتوسط ، وانتشرت محطات تجارتها ومخازن أسلحتها على طول الطريق . ومن ثم كانت مملكة معين من القوة والغنى مايفوق مملكة سبأ ، التى اشتهر أمرها فى التاريخ ، لأنها ظهرت

---

(١) Hitti : History of the Arabs, p. 52

(٢) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhamed, p. 93.

(٣) Brockelman : History of the Islamic Peoples, p. 3.

(٤) Hitti : History of the Arabs, p. 45.

(٥) Hell : Die Kultur der Araber, English Translation by Khuda Bukhsh, p. 4.

فى وقت كان فيه الجزء الجنوبى الغربى من الجزيرة العربية مزعزعاً وأقل أمناً فى عالم التجارة . ولقد أشار ديودور الصقلى إلى المعينيين بأنهم كانوا يجلبون البخور من جنوب جزيرة العرب إلى شمالها ، ثم حذا حذوهم السبئيون فمدوا الهيا كل المصرية بالبخور فى عهد البطالسة[1] .

٢ — مملكة سبأ :

ترجع إلى أقدم معلوماتنا عن ممالك جنوب جزيرة العرب إلى الجغرافى اليونانى إراتوسثنس Eratosthenes الذى ذكر أسماء سكانها ، وهم : المعينيون والقتبانيون وأهل حضرموت . وكان السبئيون أكثرهم شهرة ، إذ كان لفظ « سبىء » يطلق عادة على جميع تجار العرب كما كان يستعمل كثيراً فى العهد القديم . وقد تتبع استرابون أسماء المعينيين والسبئيين والقتبانيين ، من الشمال إلى الجنوب[2] .

امتد حكم سبأ حول سنة ٩٥٠ إلى سنة ١١٥ ق . م ، وقد حكم ملوكها الأول فى نفس الوقت الذى حكم فيه آخر حكام معين ، ولم تلبث أن انتزعت سبأ سلطان معين ، وآلت إليها السيادة على الجزء الجنوبى من جزيرة العرب ، وأصبح ملوكها حكاماً على هذه البلاد فى أزهى فترة تاريخها[3] . ولا يصح أن يطلق اسم سبأ على بلاد العرب السعيدة ، لأنها لم تكن سوى إقليم منها وإن كانت أقوى تلك الممالك شكيمة وأهمية[4] وتنسب مملكة سبأ إلى سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان جد عرب الجنوب ويسمى سبأ عبد شمس ، وكان ملكا

---

(١) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhamad, p. 94.
(٢) De Lacy, O'Leary : Arabia before Muhamad, p. 86.
(٣) Hitti, ph : History of the Arabs, p. 54.
(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 4.

مهيباً كثير الغزوات وإن سكتت الآثار عن ذكر غزواته ، ويقال إنه حمل السبايا إلى بلاد اليمن فقيل له لذلك سبأ [1] ، وهو الذى أغار على بابل وفتحها وأخذ أتاوتها ، وفيه يقول بعض الشعراء :

لقد ملك الآفاق من حيث شرقها ... إلى الغرب منها عبد شمس بن يشجب
سعى بالجياد الأعوجية والقنا ... إلى بابل فى مقنب بعد مقنب

وكان لسبأ عدة أولاد ، أشهرهم : حمير وكهلان ، وقبل موته قسم الملك بينهما ، ونصب ولده حمير مكانه بعد أن جمع أهل مملكته وأجلس ولده حمير عن يمينه وكهلان عن يساره ، وطلب من شعبه أن يعطى حمير من ملكه مايصلح لليمين وكهلان مايصلح للشمال [2] ، ومن ثم كانت لحمير السيادة والملك ، أما كهلان فكانت له حراسة التخوم وشن الغارات على الأعداء ، ويرى بعض المؤرخين ، ومنهم فون كريمر ، أن هذه القصة رمز إلى تشعب السبئيين إلى فريقين هما : حمير وكهلان حيث كانت القوة فى يد الأول .

مرت دولة سبأ فى حقبتين انتهت الحقبة الأولى سنة ٥٠٠ ق . م . وكان الملك رأس الدولة يلقب فى تلك الحقبة « مكرب سبأ » ولقد عثر فى النصوص على نحو سبعة عشر ملكا نعتوا بهذا اللقب ، وكان حاضرة سبأ فى تلك الفترة « صراوح » التى تقع على مسيرة يوم غربى مأرب [3] .

وامتدت الحقبة الثانية حول سنة ٦٥٠ إلى ١١٥ ق . م . وفيها كان الحكام يحملون لقب « ملك سبأ » ، وأصبحت حاضرتهم مدينة مأرب التى تبعد ستين

---

(١) أبكاريوس : نهاية الأرب فى أخبار العرب ص ٨ (طبع مرسايا) .
(٢) خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار ملوك التبابعة ص ٩ ، وهى شرح على القصيدة الحميرية لأبى الحسن نشوان بن سعيد . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢٩٧ ج
(٣) Hitti : History of the Arabs, p. 45,

ميلا شرق صنعاء ، وترتفع ٣٩٠ قدما على سطح البحر[١] . يقول الهمدانى « قد نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها ، سوى غمدان فإنه لم يبق منه سوى قطعة من أسفل جدار فلم أر مثل ناعط ومأرب وضهر »[٢] ولقد زار مأرب بعض الباحثين من الأوربيين مثل أرنود Arnaud وهليفى Halévy وجلازر Glaser ، فوصفوها وصفا دقيقاً وعينوا أماكنها وقصورها القديمة[٣] .

ساعد سبأ وخليفتها حمير على الاستقرار وبناء حضارة راقية ، ذلك الخصب الذى امتاز به إقليمهم منذ القدم . ولا تزال بقايا تلك الحاضرة ممثلة إلى اليوم فى السدود التى أنشئت لخزن المياه والمدن المحصنة والقصور والمعابد . ولقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الإقليم الجنوبى من جزيرة العرب كان فى عصر مملكة سبأ أكثر خصباً مما هو اليوم . يقول كنج « لا شك فى أن الرمال المنقولة التى اكتنفت هذه المنطقة تحت تأثير رياح السموم ، قد لعبت دورها فى إخفاء معالم الحياة الزراعية فيها »[٤] .

ولقد قامت السفن منذ زمن بعيد تمخر عباب المياه محملة بالبضائع والمنتجات الموسمية بين موانىء بلاد العرب الشرقية وبين الهند . ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد ، كان لأهالى جنوب الجزيرة العربية دراية بالخليج العربى ، حيث كانوا ييممون شطر مصر يبيعون فيها بضائعهم . وكانت صعوبة الملاحة فى البحر الأحمر سبباً فى تفضيل الطريق البرى للتجارة بين اليمن وسورية ، وكانت القوافل تقوم من حضرموت وتذهب إلى مأرب عاصمة سبأ ثم تتجه شمالا إلى مكربة[٥] ،

(١) Hitti : Ibid, p. 55.

(٢) الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ٤١ ، نشر الأب أنستاس الكرملى .

(٣) راجع الموسوعة الإسلامية ، مادة Ma'rib .

(٤) King : History of Babylon, 121.

(٥) مكة فيما بعد .

وتظل فى طريقها من بترا حتى غزة على البحر المتوسط . ويقول نيكاسون « من المؤكد أن سبأ كانت دولة تجارية زاهرة لمدة قرون قبل ميلاد المسيح»[١]، كما أن السفن التى بناها البطالمة للسير فى البحر الأحمر لم تستطع أن تؤثر تأثيراً كبيراً فى مصالح أهل سبأ التجارية فقد ظلوا يمدون جميع الهيا كل المصرية بالبخور . وظل رخاء السبئيين قائما حتى أخذت التجارة الهندية تهجر البر وتسلك الطرق البحرية على طول شواطىء حضرموت وخلال مضيق باب المندب . وكانت نتيجة هذا التغير ، الذى ظن نيكلسون أنه حدث فى القرن الأول الميلاد ، أن أخذت قوتهم تضعف شيئاً فشيئاً ، حتى اضطر جزء كبير من السكان للبحث عن مأوى جديد فى الشمال .

ويظهر أن الأقاصيص الشائعة بين الأمم الغربية عما بلغته مدن سبأ وحمير من الأبهة والعظمة ، لها أساس من الحقيقة[٢] . وقام نظام الحكم فى سبأ على الأسر الأرستقراطية القوية التى حالت دون نشوء أى سلطة مركزية قوية[٣] .

وقد كثر كلام الباحثين والمؤرخين حول شخصية « ملكة سبأ » التى ورد أمرها فى القرآن الكريم والتوراة ، وهل كانت هذه الشخصية هى نفس بلقيس ابنة شرحبيل كما تقول ذلك المصادر العربية ، أم لم تكن ؟ حدثتنا الكتب المقدسة أن ملكة سبأ قد سمعت عن سليمان الحكيم الجالس على عرش أورشليم، فأتت من بلادها إلى عاصمة ذلك العاهل العظيم فى قافلة محملة بالطيب والذهب والحجارة الكريمة ، مالا يقع تحت حصر أو يحيط به وصف ، وبعد أن أتمت زيارتها عادت إلى بلادها حاملة أطيب الذكريات . ويرى بعضهم أن تلك الزيارة

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 4.

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٣٧ .

(٣) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 3.

قد أوحت إلى سليمان « بنشيد الأناشيد »[1] . وأكب المؤرخون على دراسة أحاديث الكتب المقدسة عن زيارة ملكة سبأ للملك أورشليم ، على أمل أن يمزقوا الستار عن شخصية هذه الملكة .

يظن بعض المؤرخين أن المرأة التى اتصلت بأعظم شخصية عرفها العالم وقتذاك كانت حبشية الجنس، وأنها قد أتت من جنوب جزيرة العرب . ويذهب بعض المؤرخين مثل « جلازر » و «شريدر » وغيرهم إلى أن الملك سليمان دعا ملكة سبأ للإقامة مدة من الزمن فى مكان ما من هضاب أروم ، لمشاهدة عمال الملك يستخرجون النحاس من المناجم الممتدة هناك . ولم يتفق علماء العرب على نسب بلقيس[2] ، التى رأوا أنها الملكة العربية المعاصرة لسليمان الحكيم . غير أن الأب أنستاس الكرملى يرى « أن المحققين من أبناء العصر قد أثبتوا أن بلقيس لم تكن أبداً فى عهد سليمان الحكيم »[3] . ولم يتعرض القرآن الكريم لاسمها، كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشر إلى اسمها أو نسبها ، فاعتبرها المفسرون « بلقيس ابنة شرحبيل »[4] ، ولم يفرقوا بينها و بين شخصية ملكة سبأ المعاصرة لسليمان . وهذه الملكة كانت من أشهر ملوك سبأ ، بل من أشهر ملوك الجاهلية أيضاً .

ومن أهم الأعمال التى تقترن بتاريخها ، أن بعض علماء الآثار نسبوا سدود عدن إليها . إذ أن ملكة سبأ قد راقتها عدن على ما فيها من وحشة وجفاء ، فشاءت أن تعيد إليها الحياة ، ولذلك أمرت بصنع سدود هائلة لا يزال علماء

---

(١) راجع « نشيد الأناشيد » فى التوراة .

(٢) جاء فى الموسوعة الإسلامية ، مادة « بلقيس » ، أن اسم هذه الملكة عرف عن نوقليس Naukalis الذى أطلقه يوسفوس على ملكته ، ملكة سبأ ، التى كانت فى اعتباره حاكمة على مصر وأثيوبيا .

(٣) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ٢٤٣ ، راجع تعليقات الأب الكرملى .

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 18.

الآثار يحاولون تأريخها علمياً فتضطرب تقديراتهم على مدة ألف سنة ما بين القرن الخامس عشر والقرن الخامس قبل الميلاد ولا يتفقون إلا على الإعجاب بها، إعجابهم بأثر من أورع الآثار الهندسية فى العالم[١]. وكانت تلك السدود تقع فى مضيق منحدر، فتستند إلى الجبلين محفوراً بعضها فى الصخور، وتتدرج هابطة الواحد تحت الثانى، حتى إذا امتلأ الحوض الأعلى صب فضله فى التالى، وهكذا حتى الخزان الأخير القائم فى سفح الجبلين[٢].

أما عن سقوط دولة سبأ، فقد نسبه مؤرخو العرب إلى حادث تصدع سد مأرب، الذى قيل «إنه يؤرخ فترة من تاريخ بلاد العرب الجنوبية»[٣]، ولا جدال فى أن سد مأرب كان من أهم مرافق حياتهم الزراعية، واستطاعوا بواسطته أن يتغلبوا على صعوبة الرى الدائم الذى تحتاج إليه التربة اليمنية[٤]، ومن ثم أصبح هذا السد من أهم أسباب رخائهم وتقدم بلادهم. ولقد ذهب بعض المستشرقين إلى أن انكسار سد مأرب كان فى حدذاته نتيجة إهمال من جانب أمة آخذة فى الانحطاط، وأن الخراب الذى حل بسبأ لا بد أن يكون قد حدث تدريجياً قبل انهيار السد بزمن طويل، ومن ثم هاجر عدد كبير من أهل هذه البلاد إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب[٥]. ومما لاريب فيه أن انكسار السد، حادث تاريخى لا يتطرق الشك إلى حدوثه، كما أن علماء الآثار وبعض المنقبين فى خرائب بلاد العرب الجنوبية — وعلى رأسهم

---

(١) فؤاد أفرام البستانى: عدن الفردوس السابر، بحث مستخرج من مجلة الشرق الكاثوليكية.

(٢) راجع وصف هذه السدود فى، أمين الريحانى: ملوك العرب ج ١ ص ٢٤٤ (الطبعة الثانية).

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs. p. 16.

(٤) Gustav : La Civilisation des Arabes, p. 6.

(٥) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٨.

جلازر – قد أثبتوا أن حادث السد قد وقع فعلا ، ولكنه لم يحدث مرة واحدة بل حدث عدة مرات متعاقبة .

على أن بعض المؤرخين الأوربيين ذهب إلى أن السبب في اختفاء السبئيين من الجزيرة العربية ، إنما يرجع إلى ما أصاب بلادهم من الضعف التجارى بين القرن الثالث والقرن الرابع قبل الميلاد ، على أثر النشاط التجارى الذى قام به الرومانيون فى البحر الأحمر .

٣ – مملكة حمير :

لما سقطت الدولة السبئية ، وتلاشت مدينة مأرب عاصمة ملكهم ، صارت السلطة ببلاد اليمن متفرقة فى أيدى من بقى فيها من الحكام أو الأمراء الأقوياء ، وكان لكل قصر من قصور اليمن حاكم مستقل يعرف بإضافة قصره إليه ، فيقال « ذو ريدان » أى حاكم ريدان ، و « ذو ناعط » و « ذو ظفار » وهكذا . وكان القصر وقتئذ كالحصن أو القلعة يقيم فيه صاحبه مستقلا بشؤونه ، كما عرف أصحاب تلك القصور بلفظ « الأذواء »[١].

ومن أشهر القصور التى وصلت إلينا أسماؤها ، وبالغ شعراء العرب ومؤرخوهم فى وصفها : قصر ناعط وقصر سلحين[٢] وقصر غمدان الذى وصفه الهمدانى بقوله إنه أول قصور اليمن وأعجبها ذكراً وأبعدها صيتا ، وكان عشرين سقفا غرفا بعضها على بعض . . . وكان فيما بين كل سقفين عشرة أذرع »[٣].

---

(١) البتانون : الرحلة الحجازية ص ١٥ .

(٢) كان سلحين بمأرب وهو قصر بلقيس . الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ٥٩ . وقد ضبط اللغويون سلحين بفتح السين . وقال الهمدانى فى كتابه : صفة جزيرة العرب ص ٢٠٣ إن سلحين من مشاهير محافد اليمن ، وضبط الكلمة بفتح السين وكسرها معا . ويرى الأب أنستاس الكرملى أنه ضبطها بالكسر ليلحقها بالأوزان العربية ، وضبطها بالفتح إبقاء لها على أصلها الحميرى .

(٣) الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ١٥ .

أما ياقوت فقد ذكر أن غمدان كان سبعة سقوف بين كل سقفين منها أربعون ذراعا[1] وهو أقرب إلى الحقيقة من وصف الهمدانى .

كان القوى من أدواء اليمن يتغلب على بعض البلاد التى فى جواره ويكون له الحكم فيها ، وعندئذ يسمى مجموع مملكته مخفداً وهو قيلا . وإذا ما اجتمعت عدة مخافد مع ما يلحقها من القرى والمزارع فى حكم شخص واحد ، سميت مخلافا وحاكمها ملكا ولقد استطاع صاحب ريدان — التى عرفت فيما بعد باسم ظفار — وفى نهاية القرن الأول قبل الميلاد أن يتغلب على جملة مخاليف ويضمها إلى مخلافه ، وعندئذ تكونت دولة حمير وظهرت إلى عالم الوجود ، وما زال خلفاؤه يعملون على توسيع تلك الدولة حتى استطاع الملك « شمر يرعش » أن يضم إليها حضرموت وما والاها من البلاد شرقا فى نهاية القرن الثالث الميلادى[2] .

كانت دولة حمير تقع بين سبأ والبحر الأحمر وقد حلت محل قتبان التى ظهرت قبلها والتى كانت تشغل أقصى الركن الجنوبى الغربى من بلاد العرب[3] . ولم تلبث حمير أن استوعبت سبأ وريدان ، وأصبح لقب كبيرهم « ملك سبأ وريدان » ، وظهرت حمير سنة ١١٥ ق م واستمرت حتى سنة ٣٠٠ م[4] .

ويقسم حكم حمير إلى طورين أو عصرين : فقد عرف ملوك العصر الأول باسم « ملوك سبأ وريدان » ، أما ملوك العصر الثانى الذين تغلبوا على حضرموت وضموها إلى ملكهم فقد عرفوا باسم التبابعة أو ملوك سبأ وريدان وحضرموت . وقيل إن لفظ « تُبع » لا يطلق إلا على كل من ملك اليمن مع الشحر

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) البتانونى : الرحلة الحجازية ص ١٦ .

(٣) De Lacy. O'Leary : Arabia before Muhammad, p. 96,

(٤) Hitti, ph, : History of the Arabs, p. 55.

وحضرموت[١] ، وليس معنى ذلك أن التبابعة قد اقتصروا فى فتوحهم على جنوب الجزيرة العربية ، بل امتد ملكهم إلى بلاد الحجاز واليمامة وما بينهما من قبائل العرب العدنانية ، بغض النظر عن تلك الفتوحات الخرافية فى إفريقية وآسيا التى ورد ذكرها فى بعض المصادر . وكان التبابعة يقيمون على العرب حكاما منهم يسمونهم ملوكا[٢] ، وأصبح الحميريون تحت حكم ملوكهم المعروفين بالتبابعة ، قوة يرهب جانبها فى الجنوب من بلاد العرب ، كما ظل نفوذهم — ولو ظاهريا — على القبائل الشمالية حتى القرن الخامس بعد الميلاد ، عندما ثاروا بزعامة كليب بن ربيعة وأزالوا قوة اليمن المسيطرة عليهم[٣] .

أما تبّع الأول الذى أطلق لقبه على من خلفه من ملوك حمير ، فهو الحارث الرائش الذى سمى بذلك لأنه زين بيوت قومه بالغنائم والأسلاب مما جلبه معه الهند وأذربيجان[٤] ، وقد جمع الحارث كل سلطة بيده وتغلب على حضرموت ومهرة وعمان[٥] ، وافتتحت جيوش الحارث ، الهند والسند وأرض بابل وخراسان والشام والمشرق[٦] .

خلف الحارث ابنه الصعب ذو القرنين ، وهو من أشهر ملوك التبابعة وأبعدهم صيتا ، ونسب إليه الكثير من الفتوحات العظيمة فى الشرق والغرب ، مما يصعب معه التأكد من صحتها . وروى أبو محمد بن هشام عن وهب بن منبه[٧] أن عرشه

---

(١) ابن كثير القرشى : البداية والنهاية جـ٢ ص١٥٩ ، السهيلى : الروض الأنف جـ٢ ص١٥

(٢) البتانونى : الرحلة الحجازية ص ١٧ .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p.5.

يرى المستشرق نولدكه « فى المعلقات الخمس » ص ٤٤ من الجزء الأول ، Fiinf Mo'allaqat. Vol 1. p. 44 أن الأخبار العربية التى تمثل كليباً قائداً لفرسان ربيعة فى نزل قوى اليمن لا تمت الى التاريخ بصلة .

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 61.

(٥) Sedillot : Histoire Generale des Arabes. Vol. 1. p. 36.

(٦) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ٢٨٧ نشر الأب الكرملى .

(٧) كان وهب من علماء التابعين وهو من الأبناء — أبناء فارس المبعوثين مع سيف =

كان من ذهب صامت مرصع بالدر والياقوت والزمرد والزبرجد[١]. ويرى نيكلسون أن الصعب شخصية خرافية ، خلط نسابة العرب بينها و بين ذى القرنين العجيب الوارد نبؤه فى القرآن والذى يعتبره غالبية المفسرين نفس الإسكندر الأكبر ، وأن ذا القرنين إنما يقصد به الإلهة السبئية عشتر التى تمثل نجمة الصباح الجميلة ، وأن « ذا القرنين و بلقيس » ، ما هما إلا إلهان وثنيان من الآلهة الوثنية التى ظلت قائمة فى العهد الإسلامى بعد أن تنكرت بأسماء مختلفة[٢] .

وهناك رأى آخر ، ذكره الأستاذ حبيب الله المقدسى ، حول « اسكندر ذى القرنين والقرآن » ، قال : « لفت نظرى أثناء قراءتى قصة إسكندر ، بضع صفحات أذكرتنى بما ورد فى سورة الكهف ، الآيات ٥٩ — ٩٨ ، عن اسكندر ذى القرنين وعن موسى وفتاه ، فقابلتهما على بعضهما فإذا بينهما قرابة ظاهرة ، بل اتفاق غريب يكاد يكون فى بعض السطور حرفيا مع اختلاف بيّن فى تفاصيل القصة ، مصدره على ما رأى ، أن صاحب القرآن (كذا) لم يأخذ روايته عن اسكندر عن الأصل اليونانى توآ ، أو عن أقدم تراجم هذه القصة ، وهى ولاشك الترجمة السريانية التى شاعت ، بل أخذ إما عن أحد الرواة الذين تعرف عليهم صاحب الشريعة الإسلامية فى أحد الأديرة ، أو فى تلك المدن التى كان ينزل عندها أو يمر بها فى رحلتى الشتاء والصيف ، أو فى مكة نفسها وهو الأرجح لأنه قد عرف من محمد بن عبد الله أنه كان يتردد ، بُكرة وأصيلا ، على شخص أو أشخاص يسمع منهم أساطير الأولين وقصص أبطال فارس واليونان ، وأن هؤلاء الأشخاص أو ذلك الشخص كانوا من الأعاجم بشهادة محمد نفسه (كذا)

= ابن ذى يزن لقتال الحبشة فى اليمن ، فهو على الأرجح فارسى الأصل وهو صاحب كتاب « التيجان » الذى رواه أبو محمد عبد الملك بن هشام .

(١) وهب بن منبه : التيجان فى ملوك حمير ، ص ٨١ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 17—18.

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)[١].

على أنه من المعروف عند المؤرخين والباحثين ، أن المقصود بذى القرنين الواردة قصته فى القرآن الكريم ليس الإسكندر الأكبر المقدونى ، بل هو شخصية عربية صرفة لعبت دوراً هاما فى تاريخ بلاد العرب الجنوبية . أما القول بأن صاحب الشريعة الإسلامية قد أخذ رواياته عمن تعرف عليهم فى الأديرة أو المدن التى كان ينزل عندها أو يمر بها ، فهو بعيد عن الصواب . وقد نسب بعض الإخباريين ، الكثير من الأخبار إلى ذى القرنين العربى ، وهى فى الحقيقة من أخبار ذى القرنين اليونانى ، وإن كان ذلك لا يعنى أن المقصود بذى القرنين فى القرآن هو الإسكندر الأكبر[٢].

ومن أشهر ملوك حمير « شمر يرعش » بن مالك ناشر النعم ، الذى غزا العراق وفارس وخراسان وبلاد الصين ، وخرب مدينه الصغد فى بلاد ما وراء النهر وسميت « شمر قند » بلغه العجم أى شمر خربها ، فعربتها العرب إلى سمرقند[٣] بعد أن بناها ثانية . وروى أبو محمد عبد الملك بن هشام أن

---

(١) حبيب الله المقدسى : قصة اسكندر ذى القرنين والقرآن . بحث مستخرج من مجلة المشرق سنة ١٩٣٧ ص ٨ — ١٢ .

(٢) جاء اسم ذى القرنين فى العربية لعدة رجال منهم تبع الأقرن (شمس العلوم ص ١٩) وهو والد تبع الأكبر ، وقال نشوان فى مادة صعب من شمسه ص ٦١ : الصعب إسم ذى القرنين السيار ، ويقول عبيد بن شرية ص ٤٣٣ من أخباره : تبع الأقرن وهو ذو القرنين المذكور فى القرآن الكريم وسمى الأقرن وذا القرنين لشيب كان فيه وهو على قرنيه « أى ذؤابتيه » . راجع تعليقات الأب الكرملى ، ناشر كتاب الإكليل للهمدانى ج ٨ ص ٢٢٢ ، ٢٣٢ .

(٣) خلاصة السيرة الجامعة لعجائب ملوك التابعة ص ٧٠ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٢٩٧ ، أخبار عبيد بن شرية ص٤٣٢ ، والتيجان فى ملوك حمير لوهب بن منبه ص٢٢٧ طبع الدكن سنة ١٣٤٧ هـ .

« شمر يرعش جعل على فارس ألف درع يؤدونها كل عام ، وجعل على الروم ألف درع أيضا ، وكذلك على كل من أهل بابل والبحرين وعمان وأهل اليمن ألف درع »[١] . ويظهر أن مرجع هذه المبالغات التى بالغها اليمنيون ، هو التنافس بينهم و بين العدنانيين الذى استمر حتى صدر الإسلام ، ولما كان النبى العربى الجديد من العدنانيين ، اضطر اليمنيون إلى مطاولتهم بذكر فتوحاتهم القديمة و بالغوا فيها مبالغة كبيرة ، ووضعوا أسفاراً وفتوحات ليس لها ظل من الحقيقة .

وكانت حمير دولة حربية بخلاف سبأ التى اهتمت بمصالحها التجارية ، كما كان موقع حمير البحرى من أسباب سقوطها فى يد الأحباش ، بعد أن ضعفت قوتها الحربية وأصبحت عرضة لغارات الأحباش الذين تم لهم النصر على آخر حكام اليمن وأصبحوا سادة البلاد الحقيقيين .

الغزو الأجنبى لجنوب بلاد العرب

إن بلاد العرب بما فيها بلاد الحجر العربية بموقعها الجغرافى الممتاز بين الشرق والغرب ، كانت مطمعاً لكل من يستولى على مصر أو العراق ، وفتنت ملوك نينوى Ninive وبابل Babylone . غير أن العرب قاوموا هؤلاء الأعداء ، ونجحوا فى ذلك نجاحا كبيراً ، وحررت كتائبهم العبرانيين من ربقة الآشوريين أكثر من مرة[٢] .

ولما غزا الإسكندر بابل وتقدم إلى ما وراء نهر السند ، شعر بأهمية الجزيرة العربية من الوجهة الاستراتيجية ، لذلك رأى أن فتح تلك الجزيرة يتم انتصاراته ويجعله سيد آسيا الغربية ، بيد أن الموت الذى عاجله ، حرمه من تنفيذ ذلك المشروع وأنقذ جزيرة العرب من الوقوع فى قبضته .

---

(١) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ٢٥

(٢) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p. 25.

وعند ما قُسمت إمبراطورية الإسكندر ، أصبحت البقاع القريبة من حدود مصر وفلسطين والتى كان العرب يسكنونها من نصيب بطليموس[١] . وقد شايع الأنباط بطليموس على أنتيجون Antigone الذى فتح أحد قواده بلاد الحجر العربية ، بيد أن الأنباط أبادوا بعدئذ جيش أنتيجون المؤلف من ٤٦٠٠ جندى ، فأرسل إليهم جيشاً آخر بقيادة ديمتريوس Démétrius ولـكنه لم يظفر ـ مثل أنتيجون تماما ـ بأى نجاح فيما قام به من محاولات ضد بلاد الحجر العربية[٢] .

غزا بومبيوس الشام وفلسطين عام ٦١ ق . م . وعقد حلفا مع الحارث . وقد بقيت الجزيرة العربية طوال العصر الجاهلى بعيدة عن أيدى الغزاة ، و بدأ العالم الخارجى يمد بصره نحو تلك الأصقاع فى الربع الأخير من القرن الأول قبل الميلاد فى عهد العاهل الرومانى أغسطس Augustus الذى فـكر فى مد أطراف الإمبراطورية الرومانية منذ أن أصبحت مصر خاضعة لنفوذه ، وذلك بالاستيلاء على كل من شبه جزيرة العرب وإثيوبيا ، لأنه كان يظن أن الأولى تنتج التوابل والثانية الذهب[٣] . وعلى هذا الأساس ساق أغسطس جيشاً رومانيا تحت قيادة أيلوس جالوس Aelius Gallus حوالى عام ٢٤ ق . م[٤] ليرتاد هذين القطرين الغنيين ، وكان غرضه من هذه الحملة أن يعقد العهود مع العرب يغزوهم إذا ما جرأوا على الوقوف فى وجه التوسع الرومانى[٥] .

و بعد مسيرستة أشهر . استطاع الجيش الرومانى أن يصل إلى أقصى جنوب شبه الجزيرة بفضل إرشاد دليل من الأنباط ، ولـكن شمس الجزيرة المحرقة ومياه الآبار التى لم يتعود عليها الرومان ، كانت من العوامل التى أحبطت المشروع

---

(١) Le Bon Gustave : La Civilisation des Arabes p, 64.
(٢) Sedi'lot : Histoire Generale des Arabe, 1. pp. 26—75.
(٣) Playfair, R. L. : History of Arabia Felix, p. 45.
(٤) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p. 82.
(٥) Arthur Gilman : History of the Saracens. p. 26.

الرومانى وقضت عليه ، إذ سرعان ماضعفت قوة الرومان تحت وطأة الأمراض التى حلت بهم ، ولم يستطع أيلوس جالوس أن يغزو العرب ، وفشل فى مهمته واضطر إلى العودة مسرعا .

وإذا كانت حملة جالوس قد فشلت من الناحية الحربية فقد كانت لها نتائج أبعد مدى من ذلك ، إذ أنها استطاعت أن تمد العالم المتحضر بمعلومات جديدة عن الجزيرة العربية ، لأن جالوس قائد الحملة قد اصطحب معه صديقه الحميم سترابون Strabon [1] ، ولما عاد هذا الكاتب المشهور إلى مصر استطاع أن يصف جزيرة العرب وصفاً دقيقاً وأن يصور البيئة العربية تصويراً شيقاً ، فى الفصل السادس عشر من كتاب هذا الجغرافى العظيم .

نجا جنوب جزيرة العرب من الغزو الرومانى الذى لم تستطع بلاد الحجر العربية أن تسلم منه ، فضمت إلى الإمبراطورية الرومانية فى عهد تيبريوس Tiberius ، وأضحت بذلك بلدة رومانية زاهية كما تدل بقاياها[2] .

ولا مراء فى أن التنافس الاستعمارى الذى نشأ بين الدولة الساسانية فى فارس والدولة الرومانية الشرقية ، قد ظهر أثره فى جنوب بلاد العرب ، وإن ظهر بمظهر الصراع الدينى . فلقد عمد ملوك الدولة الرومانية الشرقية — فى سبيل تنفيذ غرضهم السياسى وهو الاستيلاء على ذلك الجزء الجنوبى من جزيرة العرب لما له من موقع ممتاز — إلى إرسال وفود من الرهبان إلى تلك البلاد وأمروهم أن يبثوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر والبادية من جهة ، ويمهدوا الأفكار والنفوس لقبول

---

(١) هناك من المؤرخين من يرى أن سترابون لم يذهب إلى جزيرة العرب ، وإنما جمع معلوماته هذه من قصص التجار والمغامرين ، وممن سبقه من كتاب الإغريق ، ويبين استرابون فى هذا الفصل الذى كتبه عن جزيرة العرب أن الماء ينقصها فى جميع أجزائها ، ولعله قصد بذلك أن يبرر إخفاق جالوس أمام قبائل العرب لأنه كان صديقه على ما يقال . راجع :
Kiernan : The Unveiling of Arabia, p. 28.

(٢) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, p. 65.

التسلط السياسى الرومانى من جهة أخرى ، كما أنهم استطاعوا أن يجعلوا من الحبشة المواجهة لبلاد اليمن ولاية رومانية مسيحية .

ولقد تنبه ملوك حمير لحيل الرومان وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسى من الخطر الشديد بسببها ، فنشطوا لإحباطها وفكروا فى أمضى الأسلحة التى تمكنهم من القضاء عليها ، فهداهم فكرهم إلى أن يعتنقوا الديانة اليهودية ليقاوموا ديناً توحيدياً بدين توحيدى آخر[١] . كما أن الفرس قد أيقنوا أن الرومان يرمون من وراء نشر المسيحية فى بلاد اليمن إلى غرض سياسى ، فوجهوا عنايتهم إلى تشجيع ملوك حمير على اعتناق الديانة اليهودية . ولا جدال فى أن اليهودية قد كسبت بعض النفوذ فى دولة حمير ، كما أن الدعاية الرومانية قد أثمرت فيها ، فأصبح فى نجران جالية نصرانية قوية استطاعت أن تثبت للخطوب حتى ظهور الإسلام[٢] .

وقد قيل إن أول من تهود من حمير هو الملك تبان أسعد أبو كرب الذى كان كثير الغزوات والحروب ، وإنه غزا أذربيجان وهزم ملك الفرس ، وعمل بقول حبرين يهوديين من قريظة ، فطاف بالبيت العتيق بمكة بعد عودته من إحدى غزواته . ولقد أحس زعماء حمير أن الحملات الحربية التى ساقها الملك أسعد أبو كرب ، إنما هى عبء ثقيل عليهم ، فدبروا مؤامرة لقتله وتولية أخيه عمرو مكانه ، فامتنع عمرو أول الأمر ، وأبى الخضوع لرؤساء حمير ، غير أنهم استطاعوا التغلب عليه فطعن تبع بيده ، وخلف أخاه فى الحكم وهو آخر ملوك التبابعة[٣]

وكان الملوك الذين خلفوا عمرا على اليمن ، يختارهم ثمانية أذواء يقال لهم « المثامنة » . وفى عهدهم غزا الأحباش بعض أجزاء مملكة حمير وأرسل

---

(١) الدكتور إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٣٦ .

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 3.

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 91 - 52.

النجاشي ولاته المسيحيين ليحكموا باسمه ، حتى قام أخيراً ذو نواس وهو من سلالة تبع أسعد ، وطرد الأشراف الثائرين ، وأصبح حاكما لليمن . وكان يهودياً متعصباً ، فعقد عزمه على أن يستأصل النصرانية من نجران ، فسار إليها على رأس قوة كبيرة ممن دخلوا فى دينه أفواجاً وهناك احتفر عدة أخاديد فى الأرض وملأها ناراً ، فمن تابعه على دينه خلى عنه ، ومن أقام على النصرانية قذفه فيها[1] .

غير أن ذا نواس دفع ثمن نصره غالياً ، فقد هرب رجل يقال له ذو ثعلبان إلى إمبراطور الروم ، وأخبره بما فعل ذو نواس بأهل دينه . وعندئذ كتب الإمبراطور جستين Justinus رسالة إلى نجاشي الحبشة يطلب منه غزو اليمن وإنقاذ المسيحيين . لذلك أرسل النجاشي سبعين ألفاً من الأحباش تحت قيادة أرياط لغزو بلاد اليمن التى كان يتوق إلى فتحها منذ زمن بعيد ، فلم يستطع ذو نواس أن يعتمد على أشراف حمير ، وانتهى الأمر بخذلانه ، ووقوع اليمن فى قبضة الأحباش . وأصبح أرياط حاكماً حبشياً على اليمن من قبل النجاشي بعد موت ذى نواس .

قامت المنافسة بين أرياط وبين أبرهة أحد قواد الأحباش ، ولم يلبث أن قتل أرياط وخلفه أبرهة على اليمن . وفى هذه المعركة التى قامت بين القائدين ، جرح أبرهة وشقت شفته ، ولذلك قيل له « أبرهة الأشرم » ، وما لبث أن أطلق على نفسه « الأمير التابع لملك الحبشة ملك سبأ وريدان وحضرموت ويمنات وعرب النجاد وعرب السواحل »[2] ، مما يدلنا غاية الدلالة على أن الأحباش قد سيطروا تماما على أهم جهات جنوب جزيرة العرب .

عزم أبرهة والى الحبشة على اليمن على أن يصرف الحجاج العرب عن الكعبة إليه ، فكتب إلى قيصر الروم يخبره بما اعتزمه ، وأنه يريد بناء كنيسة فى صنعاء

---

(١) وهب بن منبه : التيجان فى ملوك حمير ص ٣٠١ .
(٢) بول Buhl : الموسوعة الإسلامية ، مادة Abraha .

فأرسل إليه القيصر الصناع وأمده بكل ما يحتاج إليه فى هذا البناء ، ولما تم بناء الكنيسة كتب أبرهة إلى النجاشى أنه يريد أن يحول تجارة قريش إلى صنعاء ، بعد أن بنى بها القليس[1] وأعدها لحج العرب ، ولما سمع بذلك رجل من النساءة[2] من كنانة ، أتى القليس ولطخها بالأقذار ، فغضب أبرهة وأقسم ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه[3] . وعد تدنيس كنيسة صنعاء فى نظر بعض المؤرخين هو سبب حملة أبرهة على مكة ، وقد يكون كما يقول نيكلسون « سبباً يتخذه أبرهة لغزو مكة ، وإن كان يريد من غير شك الاستيلاء على مكة والإفادة بما تدره تجارتها »[4] .

على أنه يمكن القول أنه لم يكن من السهولة بمكان ، تحويل العرب عن الكعبة — التى يشتركون جميعا فى تقديسها — إلى كنيسة جديدة فى صنعاء وإن أسرف أبرهة فى تزيينها بالرخام والفسيفساء ، فالعرب لا يخرجون من دين إلى دين آخر ولا يتحولون من عبادتهم إلى عبادة أخرى بمثل هذه السهولة . ثم ان تجارة قريش وما تدره على القرشيين من أرباح ، لم يكن مصدرها وجود الكعبة فى بلدهم فقط ، وإنما يرجع ذلك إلى وقوع مكة على الطريق التجارى بين اليمن وبلاد الحجر العربية ، وهذا الموقع الفريد الذى منحته لها الطبيعة لم يكن من اليسير على أبرهة أن يتحكم فيه ، خاصة إذا علمنا أن مكة تقع فى منتصف

---

(١) القليس : هى الكنيسة التى بناها أبرهة فى صنعاء ، وهو لفظ أخذه العرب عن الروم ثم حرف فيما بعد إلى « كنيسة » ويظن بعضهم أن القليس لفظ عربى مبنى ومعنى . يقول عبد الرحمن بن محمد « سميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوها ، ومنه القلانس لأنها فى أعلى الرؤوس » . معجم البلدان : مادة « قليس » .

(٢) النساءة : هم الذين كانوا ينسؤون الشهور على العرب فى الجاهلية ، فيحلون الشهر من أشهر الحرم ويحرمون مكانه الشهر من أشهر الحل .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٢٩ .

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 66.

الطريق تقريباً بين الشمال والجنوب ، وأصبحت بذلك محطة تجارية طبيعية للقوافل المارة فى هذا الاتجاه .

ويمكن اعتبار هذه الحملة محاولة من محاولات الدولة الرومانية الشرقية للاستيلاء على بلاد العرب ، بعد أن فشلت بيزنطة فى نشر دينها فى جنوب جزيرة العرب ، إذ ليس ببعيد أن تكون بيزنطة قد كلفت أبرهة القيام بهذه الحملة ، بعد أن ثبت أنها كانت ترسل تجارها إلى مكة للتجسس على أحوال العرب . وأثبتت نقوش سد مأرب أن الدولتين المتنافستين : بيزنطة وفارس ، قد أرسلتا وفودهما إلى مأرب ، لمحاولة كسب أبرهة إلى جانب كل منهما . ولما شبت الحرب بين هاتين الدولتين سنة ٥٤٠ م ، لم يشترك أبرهة فيها أول الأمر ، رغم ما بذله إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية من جهد فى سبيل كسبه إلى جانبه .

ولم يلبث أبرهة أن حارب الفرس بجانب الروم ، ولكنه سرعان ما ترك الحرب . يقول بول Buhl : «نستطيع أن نجد صلة بين هذه الحرب التى لا يمكن أن تكون قد حدثت قبل عام ٥٧٠ م وبين تلك القصص العربية التى تعتمد على القرآن ، والتى تشير إلى حملة أبرهة الفاشلة على مكة والكعبة »[١] .

جرد أبرهة جيشاً عظيما من الأحباش ، سير أمامه الفيلة ، ويمم شطر الكعبة لهدمها ، ولما اقترب من مكة عسكر فى مكان يقال له المغمس[٢] . ثم بعث أبرهة إلى مكة رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود ، فلما وصل إليها ، ساق إليه أموال أهل تهامة من قريش وغيرهم وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، وهمت قريش وكنانة وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله ، غير أنهم رأوا أن لا طاقة لهم به ، فعدلوا عن قتاله. ثم بعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة ليسأل عن سيدها وشريفها ويخبره بأن أبرهة

---

(١) بول Buhl : الموسوعة الإسلامية ، مادة « أبرهة » Abraha .

(٢) المغمس : موضع على ثلثى فرسخ من مكة ، فى طريق الطائف .

لم يأت إلا لهدم البيت وليس لحرب أهل مكة ، فلما دخل حناطة مكة سأل عن سيد قريش ، فقيل له عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، فجاءه وقال له عبدالمطلب ما أمر به،فقال لهعبد المطلب : «والله ما نريد حربه ، وما لنابذلك من طاقة ، هذابيت الله الحرام و بيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه ، و إن يخل بينه ، فوالله ماعندنا دفع عنه »[1] ، وعندئذ أمره حناطة بالانطلاق معه إلى الملك ، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر ، فلما رآه أبرهة أجله وأكرمه ، ثم قال لترجمانه : قل له ماحاجتك ، ففعل الترجمان ، فقال عبد المطلب : حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى ، فقال أبرهة لترجمانه « قل له كنت قد أعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه لاتكلمنى فيه ؟ ، فقال عبد المطلب : « إنى أنا رب الإبل و إن للبيت ربا سيمنعه ، فرد أبرهة على عبد المطلب الإبل التى أصابها الأسود بن مقصود ، ولكن عبد المطلب لم يفلح فى رده عن غزو مكة ، فخرج حانقا إلى الكعبة ومعه جماعة من قريش ، فأنشد :

يارب لا أرجو لهم سواكا   يارب فامنع منهم حماكا
إن عدو البيت من عاداكا   إمنعهم أن يخربوا قراكا[2]

فخذل أبرهة وهزم جيشه ، ومما لا شك فيه أن وباء الجدرى قد انتشر فى جيش أبرهة ، وفتك برجاله فتكا ذريعا حتى أن بعضهم يقول إنه لم ينج من هذا الجيش سوى أبرهة نفسه ورجل آخر من الأحباش عاد إلى اليمن وتحدث بما صنع الله بأصحاب الفيل . ويعرف عام هذا الحادث عند العرب

---

(١) ابن هشام : السيرة ص ٢٣ .
(٢) ابن هشام : نفس المصدر ص ١٩ — ٣٥ .

بعام الفيل[1] ، نسبة إلى الفيلة التى استخدمها أبرهة فى غزوته الفاشلة للكعبة .

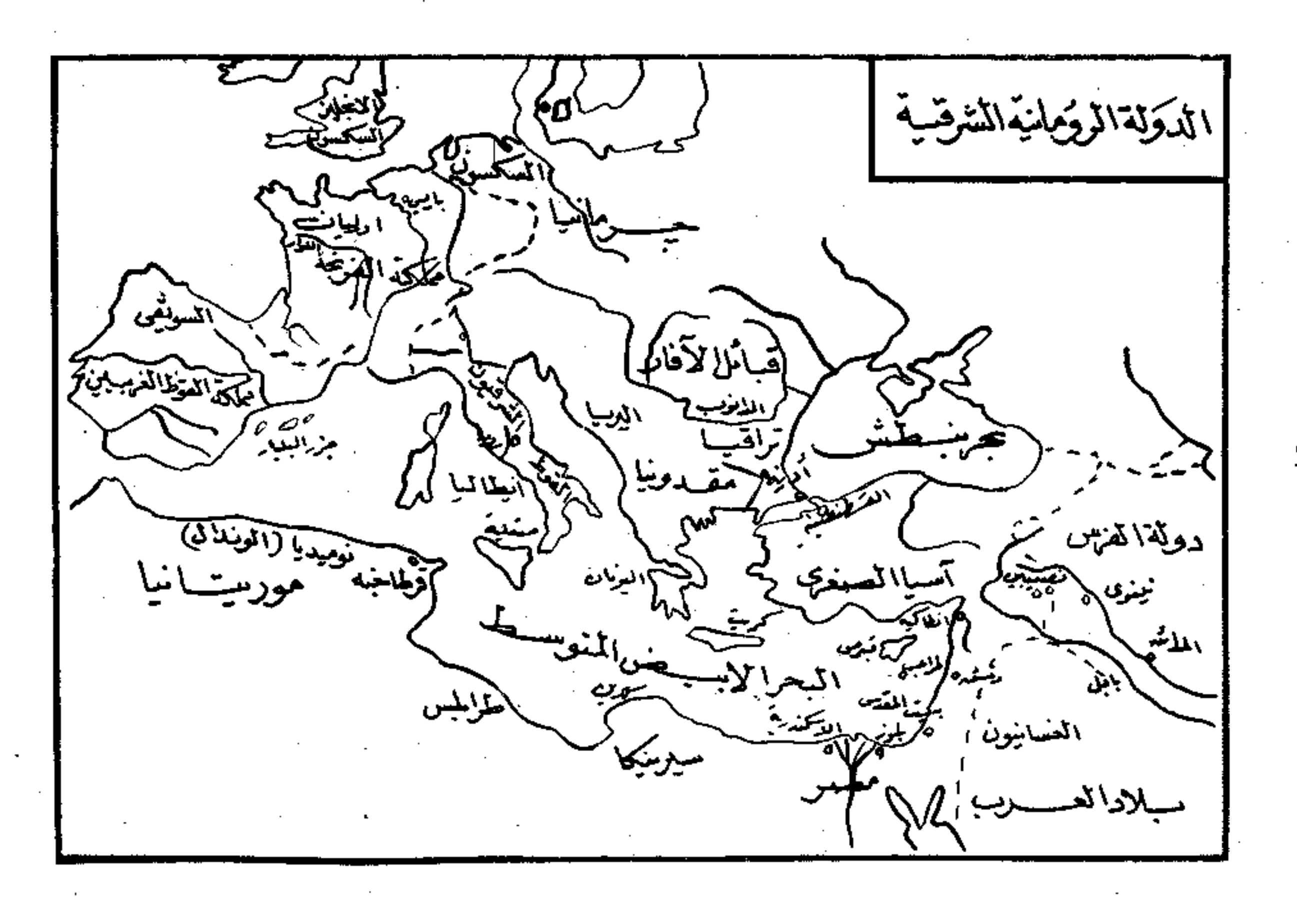
توفى أبرهة بعد أن عاد إلى اليمن بقليل ، وخلفه ولداه : « يكسوم » ثم « مسروق » ، فاشتدت وطأتهما على اليمن وعم أذاهما سائر الناس . فلجأ سيف ابن ذى يزن الحميرى إلى قيصر الروم يستنجده على إخراج الأحباش من اليمن ، غير أنه لم يجبه إلى طلبه وقال له : أنتم يهود والحبشه نصارى ، وليس فى الديانة أن ينصر المخالف على الموافق[2] . فاستنجد سيف بن ذى يزن بن ماء السماء ، وطلب منه أن يقدمه إلى كسرى أنوشروان ، فلما قابله فى إيوانه سلب منه مساعدته على استرداد بلاده : فوعده أنو شروان بالنصرة على الأحباش ، ثم صرفه بعد أن أعطاه عشرة آلاف درهم فارسى . غير أن سيف بن ذى يزن رمى الدراهم التى أخذها من كسرى للخدم ، فلما علم بذلك كسرى ، غضب وأمر بإحضاره ، فلما مثل بين يديه قال له : عمدت إلى حباء الملك الذى حباك به تنثره للناس ، فأجابه سيف بن ذى يزن ما أصنع بالذى أعطانى الملك ، ماجبال أرضى التى جئت منها إلا ذهب وفضة ؟ فلما سمع ذلك كسرى طمع فى بلاد اليمن ، فأرسل معه جيشاً فارسيا من المساجين تحت قيادة وهرز الديلمى ، الذى وصف بأنه قد بلغ من الكبر عتيا .

تمكن عرب الجنوب بالاتحاد مع الفرس تحت قيادة وهرز من إجلاء الأحباش إلى حين ، وتنصيب سيف بن ذى يزن ملكا عليهم . وفرض كسرى على ابن ذى يزن جزية وخراجا يؤديانهما إليه كل عام ، وبعد رحيل جيوش الفرس قتل سيف بيد أحد الأحباش ، فلما سمع بذلك كسرى أرسل جيشا

---

(١) يرى كوسان دى برسفال Caussin de Percval أن حادث الفيل وقع فى ٢٠ أغسطس سنة ٥٧٠ م ، ويعتقد فريمان Freeman فى كتابه Lectures on the Saracens أن سنة ٥٦٩ م هى عام الفيل ، بينما يرى بالمر Palmer أن حادث الفيل وقع فى ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م ومع ذلك فهو يرى أن عام الفيل غير مؤكد تماما .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج س ٧ .


الدولة الرومانية الشرقية
جرمانيا
السكسون
الانجلو السكسون
مملكة الفرنجة
السويفي
مملكة القوط الغربيين
جزر البليار
قبائل الآفار
الدانوب
الدلبا
تراقيا
مقدونيا
بحر بنطش
ايطاليا
صقلية
اليونان
آسيا الصغرى
دولة الفرس
نينوى
نصيبين
بابل
الغساسنة
بلاد العرب
نوميديا (الوندال)
وطانجة
موريتانيا
البحر الابيض المتوسط
كريت
قبرص
انطاكية
دمشق
بيت المقدس
الاسكندرية
طرابلس
سيرنيكا
مصر

ثانيا بقيادة وهرز ، فتلاشت مقاومة الأحباش تماما ، وغدت اليمن إمارة فارسية ، تعاقب على حكمها أولاد وهرز الديلمي من قبل كسرى ، ثم انتقل حكم اليمن إلى باذان وهو آخر وال فارسي على اليمن ، وقد عاش إلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم واعتنق الإسلام ، واعترف بسيادة النبي عليه[١] . ولم تلبث أن شبت القلاقل في اليمن بعد ذلك وانتشرت بها الفوضى سريعا ، ولم يستتب النظام إلا في عهد أبي بكر .

الممالك العربية على التخوم

في حوالي منتصف القرن الثالث المسيحي ، كانت بلاد العرب تقع بين أعظم إمبراطوريتين في ذلك الحين : هما الإمبراطورية الفارسية في الشرق والإمبراطورية الرومانية في الغرب ، تفصلهما صحراء الشام بعضهما عن بعض .

وكانت الإمبراطوريتان المتنافستان عرضة لغزوات البدو ، الذين كانوا يشنون الغارات على حدودهما بين حين وآخر ، فيستولون على مايصل إلى أيديهم من الغنائم ، ثم يختفون في الأغوار المتعددة وراء الكثبان المتشابهة بنفس السرعة التي اتسمت بها غاراتهم ، ثم لايلبثون أن يظهروا مجتاحين تلك الحدود ، مدافعين عن حريتهم التالدة .

ولقد حاول الفرس والروم أن يغزو الجزيرة العربية ، ولكنهم كانوا يعدلون عن هذا المشروع لما يستلزمه من ضحايا في الأنفس والأموال . وعندئذ رأت فارس أن الضرورة تدعوها إلى إيجاد حامية على حدودها المقابلة للصحراء ، فنجح هذا المشروع مؤقتا وصدت غزوات القبائل البدوية وغاراتها[٢] .

ولم تكن صحراء الشام التي تفصل بين هاتين الإمبراطوريتين من الامتداد حتى

---

(١) Zettersteen : الموسوعة الإسلامية ، مادة « الأبناء »

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 33.

تـكون مساحة مقفرة تفصل بين أراضيها . ولطالما سعى الرومان إلى تأمين حدودهم بخلق مساحات مقفرة تفصل بلادهم عن بلاد أعدائهم ، فاكتسحوا الأراضى على شاطىء الرين وأجلوا البرابرة من السكان على طول المناطق المحتلة حتى يكونوا أراضى خالية ، إن تألبت فيها الجموع المنقضة ، رأتها العيون وشعرت بها الأرصاد ، وقد عمدت روما إلى تعزيز حدودها الشرقية و بسط نفوذها على الإمارات المتاخمة لهذه الحدود .

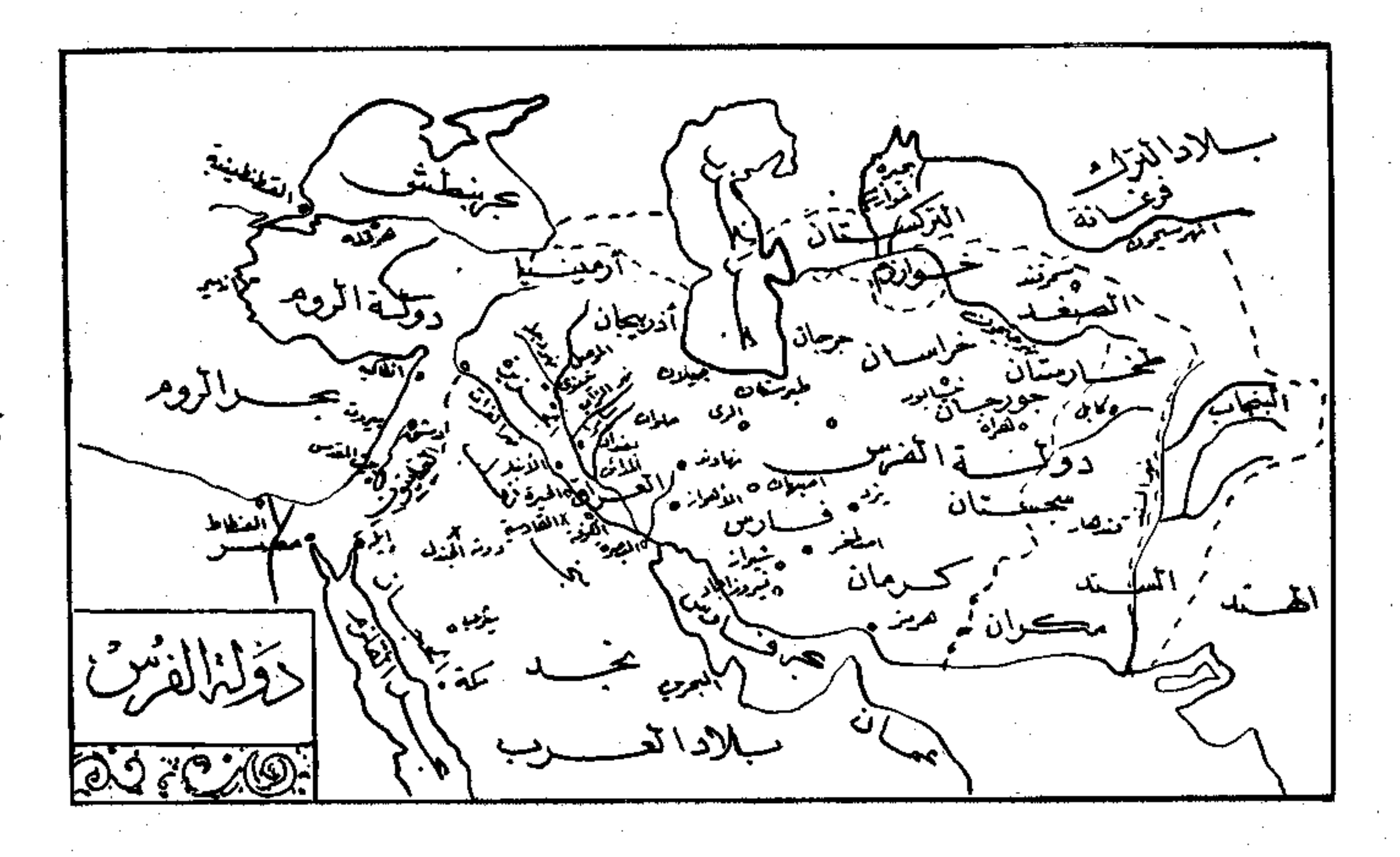
أما فارس فقد شعرت بأهمية غرض روما الذى كانت هى نفسها تهدف إليه على الفرات الأعلى ، فرأت إدخال بعض القبائل المغيرة فى خدمة الإمبراطورية ودفع قدر من المال بانتظام ، فتضبط نزعاتهم وتأمن خطر الغزو المفاجىء من جانب روما ، و بهذه الوسيلة تـكونت إمارة الحيرة على تخوم الروم ، وقد استطاع الروم أن يقفوا فى وجه الأسد الفارسى بفضل معونة عرب غسان الأقوياء .

١ — امارة الحيرة :

تقع مدينة الحيرة فى جنو بى الكوفة على بعد ثلاثة أميال منها ، فى موضع يقال له النجف . ولقد اختلف العلماء فى معنى اسم الحيرة : فقيل إنها سميت الحيرة لأن تبعاً الأكبر لما قصد خراسان خلف بعض جنده بذلك الموضع وقال لهم : « حيروا به » أى أقيموا به[١] ، وقيل إنما سميت الحيرة لأن تبعاً لما أقبل بجيوشه فبلغ موضع الحيرة ضل دليله وتحير فسميت الحيره ، ومنهم من ذهب إلى أنها من فعل « تحير الماء » إذا اجتمع وزاد[٢] ، و يرى بعضهم أنها من أصل أرامى بمعنى المعسكر والحصن ، بينما ذهبت طائفة إلى أنها من « الحير » العربى بمعنى الحمى والملجأ ، وقيل إن لفظ « الحيرة » العربى مأخوذ عن كلمة « حيرانا »

---

(١) ياقوت : معجم البلدان .
(٢) خزانة الأدب جـ ١ ص ٤٢٨ .


دولة الفرس
بلاد الترك
فرغانة
التركستان
خوارزم
سمرقند
الصغد
طخارستان
خراسان
جرجان
جورجان
نيسابور
هراة
كابل
البنجاب
دولة الفرس
سجستان
فارس
كرمان
مكران
السند
الهند
أرمينيا
أذربيجان
بحر بنطش
القسطنطينية
دولة الروم
بحر الروم
مصر
العراق
نجد
بلاد العرب
عمان
مكة
يثرب

السريانية التى أطلقت فى الأصل على معسكر عرب فارس المتنقل[١] . والحيرة الأرامية والحير العربى من أصل سامى واحد ، إذ أن المضرب والمعسكر والحمى ألفاظ يدل أصلها على معنى واحد[٢] .

سكن وادى الفراتين فى فجر التاريخ جيلان من الناس هما : الشمريون والأكديون : و يبدو أن الشمريين كانوا من سكان المناطق الجبلية الشرقية ، الذين تقدموا الأكديين فى احتلال هذا الوادى الخصيب . و يقال إن وطن الأكديين الساميين كان بلاد العرب الوسطى التى كانت تصلح للعيش والحياة والسكنى فى هذه العصور[٣] ، والراجح أنهم هبطوا بابل من أطراف جزيرة العرب[٤] ، فاجتاحوا فى هجرتهم سواحل البلاد السورية ، وخلفوا فيها جماعات منهم عرفوا بعد ذلك بالأموريين . ولم تنقطع هجرات الأكديين الساميين على العراق ، بل ازداد عددها حتى قويت شوكتهم وثبت مقامهم ، وانتهى الأمر باندثار الشمريين والقضاء عليهم قضاء مبرما .

وقد اتصل سكان الجزيرة العربية بالعراق من أقدم عصوره ، سواء أكان هذا الاتصال عن طريق التجارة أو عن طريق الهجرة والارتحال . على أن أخبار العرب فى هذه البقاع لا تزال مغمورة فى ظلمات كثيفة من الغموض و الإبهام ، ولا تخرج عن كونها أخباراً مبثوثة فى كتب الأدب والتاريخ .

وهناك جماعات من العرب نزلوا العراق منذ أقدم عصوره وأنبثوا فى شماله ووسطه وجنوبه ، ولكن أسماء قبائلهم و بطونهم غير معروفة على وجه التحديد . على أن أول هجرة عربية محققة ، هى هجرة بنى معد بن عدنان ، الذين كانوا

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p.38, Footnote 1.

(٢) يوسف غنيمة : الحيرة ص ١١ .

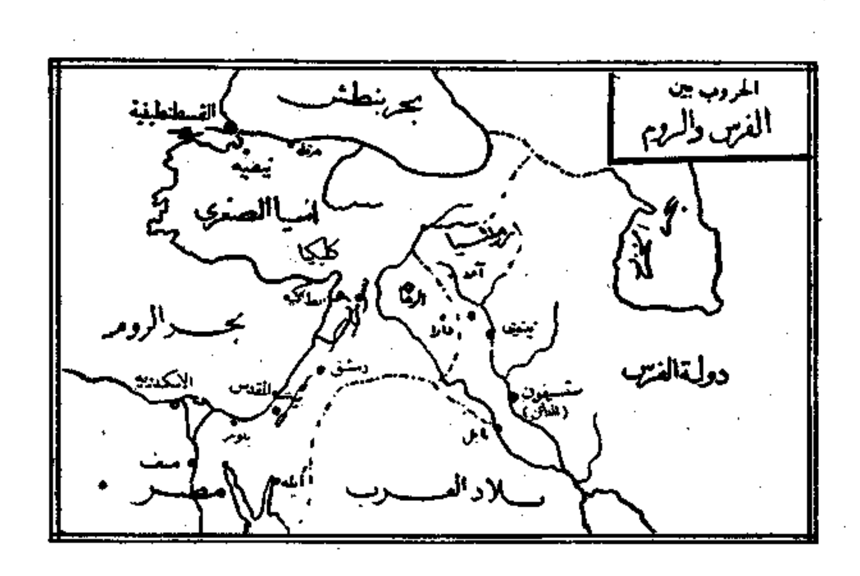
(٣) King : History of Babylon, pp. 116 — 120.

(٤) Johns : Ancient Babylonia, pp. 18—19.

ينزلون تهامة من بلاد اليمن إلى البحرين ، التى سكنها قبلهم قبائل من الأزد ، وهناك « تحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التناصر والتآزر ، فصاروا يداً على الناس وضمهم إسم التنوخ ، وكانوا بذلك الإسم كأنهم عمارة من العمائر وقبيلة من القبائل »[1] . وكان من أثر اجتماع هذه القبائل بالبحرين أيام ملوك الطوائف الذين ملكهم الأسكندر ، أن تطلعت نفوس من كانوا فى البحرين من العرب إلى ريف العراق ، واغتنموا ماوقع بين ملوك الطوائف من الاختلاف، فأجمع رؤساؤهم على المسير إلى العراق ، ونزل كثير من تنوخ الأنبار والحيرة حتى الفرات ، فسموا عرب الضاحية[2] . وكان أول من تملك على تنوخ العراق مالك بن فهم بن غَـنْم بن دوس بن عدنان الأزدى[3] . وكان منزله مما يلى الأنبار[4] واتخذ فى الحيرة قصراً و بستاناً ، وكان خليفته عمرو بن فهم .

انتقل الملك بعد عمرو بن فهم إلى جذيمة الأبرش ، وفيه يقول ياقوت « كان أول من ملك عليهم فى زمن ملوك الطوائف مالك بن فهم أبو جذيمة الأبرش ، ثم مات فملك ابنه جذيمة الأبرش »[5] ، وجاء فى خزانة الأدب «قال ابن رشيق فى العمدة : وملك بعد مالك بن فهم ، ابنه جذيمة بن مالك وهو الأبرش والوضاح وكان ملكه ستين سنة »[6] . واتصف جذيمة الأبرش برجاحة العقل والاتزان والحزم ، ويقول حمزة الأصفهانى إنه « كان ثاقب الرأى ، بعيد المغار ، شديد النكاية ، ظاهر الحزم »[7] . ويرى الطبرى أنه « من أفضل ملوك العرب رأيا ، وأشدهم نكاية ، وأظهرهم حزما »[8] .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة « حيرة »
(٢) ياقوت : نفس المصدر ، مادة « حيرة »
(٣) الأصفهانى : تاريخ سني ملوك الأرض ص ٩٤ .
(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٢ ص ٧٥٠ .
(٥) معجم البلدان ، مادة « حيرة » .
(٦) خزانة الأدب ج ١ ص ٣٢٧ .
(٧) حمزة الأصفهانى ص ٩٥ — ٩٦ .
(٨) الطبرى ج ٢ ص ٧٥٠ .


الحروب بين
الفرس والروم
بحر بنطس
القسطنطينية
آسيا الصغرى
كليكيا
بحر الروم
الإسكندرية
القدس
دمشق
منف
مصر
أيلة
أرمينيا
آمد
نينوى
طيسفون
(المدائن)
بابل
دولة الفرس
بلاد العرب

وكانت الأحوال السياسية فى العراق وقتئذ موالية لجذيمة لتوسيع مُلكه وتقوية سُلطانه ، فالفتن الداخلية التى قامت بعد وفاة الملك البرثى بلاش الرابع وتنازع أردوان و بلاش ابنى بلاش الرابع الحكم ، مهدت لجذيمة بسط سيطرته فيما بين الحيرة والأنبار و بقة[١] وهيت[٢] وناحيتها حيث شن الغارات على قبائل العرب هناك ، و يظهر أنه سيطر على معد و بعض اليمن وعلى البحرين كذلك[٣] ، وغزا جذيمة طسما وجديسا فى منازلهما : ولكنه لم يكن موفقاً فى هذه الغزوة بل قفل راجعاً بمن معه أمام خيل حسان بن تبع أسعد أبى كرب[٤] .

ومن حروب جذيمة ، حربه مع عمرو بن ظرب بن حيان بن أذينة والد الزباء المشهورة فى الأدب العربى القديم والذى كان ملكا على مشارف الشام والمضيق بين الخانوقة[٥] وقرقيسيا[٦] ، فقد قصده جذيمة بجموعه واقتتلوا قتالا شديداً ، قُتل خلاله عمرو بن ظرب وفرت جموعه ، بيد أن جذيمة لم يضم ملكه إليه وا كتفى بقتله ، فاستولت الزباء على بلاد أبيها[٧] . ولكن قلبها أفعم بحب الثأر من قاتل أبيها ، فعمدت إلى الحيلة للتخلص من جذيمة بأن كتبت إليه تخبره بأنها ترغب فى صلة بلدها ببلده وتطمع فى الزواج منه . فعقد جذيمة

---

(١) بقة : اسم موضع قريب من الحيرة ، وقيل حصن كان على فرسخين من هيت كان ينزله جذيمة الأبرش . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) هيت : بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة . ياقوت : معجم البلدان .

(٣) يوسف غنيمة : الحيرة ص ١١٩ .

(٤) حمزة الأصفهانى ص ٩٦

(٥) الخانوقة . مدينة على الفرات قرب الرقة . ياقوت : معجم البلدان .

(٦) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور ، وعندها مصب الخابور فى الفرات . ياقوت : معجم البلدان .

(٧) يوسف غنيمة : الحيرة ص ١٢٢ .

مجلسه واستشارهم فى الأمر ، فوافق رجاله على ذهابه إلى الزباء وخالفهم وزيره قصير بن سعد فيما أشاروا به عليه ، غير أن جذيمة عقد عزمه على الذهاب إليها ، فخلف ابن أخته عمرو بن عدى على حكم البلاد ، وسار مع وجوه قومه إلى الزباء ، فاستقبله رسلها بالهدايا ، ولكنها مالبثت أن قبضت عليه وقتلته شر قتلة ، انتقاما لأبيها عمرو بن ظرب .

وقد انقسم عرب الحيرة فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، إلى ثلاثة أصناف : تنوخ وينزلون غربى الفرات بين الحيرة والأنبار وهم أصحاب المظال وبيوت الشعر والوبر ، والأحلاف وهم الذين لحقوا بأهل الحيرة ونزلوا فيها ممن لم يكن من تنوخ الوبر ولا من العباد الذين دانوا لأردشير[1] ، والعباد هم الذين سكنوا الحيرة وابتنوا فيها المساكن والأديرة وعرفوا بذلك لأنهم كانوا يعبدون الله أو لأنهم اتخذوا « يا آل عباد الله » شعاراً لهم عند ما حاربهم سابور الأكبر ، وقيل أيضا فى تعليل هذا الاسم إنه وفد على كسرى خمسة منهم ، وكانت أسماؤهم تبتدىء بكلمة عبد ، وهم : عبد المسيح ، وعبد ياليل ، وعبد يسوع ، وعبد الله ، وعبد عمرو ، فقال كسرى . أنتم عباد كلكم ، فسموا العباد[2] . على أن المقصود بالعباد هم عرب الحيرة النصارى الذين كانوا يعبدون الله فى كنائسهم ، كما أن العصر الذى أطلق فيه العباد على أتباع الدين المسيحى من عرب الحيرة للتمييز بينهم و بين الوثنيين من سكانها غير محدد تماماً[3] . وقد سكن اليهود الحيرة أيضاً و بقوا بها حتى الفتح الإسلامى ، فقد قال الحجاج لأهل الكوفة « يا أهل الكوفة فلا أعز الله من أراد العز بكم ، ولا نصر من أراد النصر بكم ، أخرجوا عنا ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، ألحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى »[4] . وقد سكن الحيرة

(١) حمزة الأصفهانى ص ٢٥ .

(٢) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٢٥ .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 39.

(٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ٩٥٥ .

إلى جانب العرب واليهود ، النبط والفرس . وقد كثر النبط بها كثرة بالغة ، أما الفرس فكانوا سادة البلاد الحقيقيين الذين كانوا يحكمونها فى بعض الفترات من قِبَل الأكاسرة .

البيت اللخمى :

بعد وفاة جذيمة الأبرش ، انتقل الملك إلى ابن أخته عمرو بن عدى بن نصر الذى يعتبر رأس بيت اللخميين أو المناذره ، وقد يقال لهم « آل المحرق » ، و يظن أن المحرق اسم إله جاهلى لا نعرف عنه أكثر من ذلك[1] ، ولقد عين سابور الأول عمرو بن عدى من بنى لخم ملكا على العرب فى العراق[2] ، وامتاز عمرو عمن سبقه من ملوك الحيرة باتخاذ الحيرة عاصمة لدولته ، فكان « أول من اتخذ الحيرة منزلا من ملوك العرب »[3] . وقد حاول قصير بن سعد وزير جذيمة الانتقام من الزباء ، فجدع أنفه وهرب إليها وشكا لها حاله فلاطفته وأكرمته ، ولما تأكد من وثوقها به طلب منها أن تسمح له بالسفر إلى العراق ليجلب ماله وأمتعته ، فأذنت له وأرسلت معه عيرا ، فسار قصير بما دفعت إليه حتى قدم العراق ، وهناك أخذ من بيت مال الحيرة ما يرضى الزباء التى فرحت به بعد عودته ، وتأكدت من إخلاصه لها ، فأرته ذلك النفق الذى مدته من مجلسها إلى حصن لها داخل مدينتها ، وعندئذ عول على الانتقام منها ، فخرج فى تجارة له ، ولما علم عمرو ابن عدى بأمر تلك التجارة ، خرج إليه مع ألفى فارس على ألف بعير فى الجوالق ، وتقدم قصير يسبق الإبل حتى دخلت المدينة . ولما رأت الزباء الإبل أنشدت تقول:

ما للجمال مشيها وئيداً   أجندلا يحملن أم حديداً

---

(١) CL. Huart : Histoire de Arabes Vol. 1, p. 63.

(٢) Brockelman : History of the Islamic Peoples, p. 8.

(٣) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ٩٧ .

أم صَرَفانا تارزا شـديدا أم الرجال قبضـا قعودا

ولمـا توسطت الإبل المدينة أنيخت ، ودل قصير عمرا على باب النفق ، خرج الرجال من الغرائر وصاحوا بأهل المدينة وأعملوا فيهم السلاح ، وقام عمرو بن عدى على رأس النفق . ولما أقبلت الزباء تريد النفق لتدخله ، أبصرت عمرا فعرفت غرضه ، فمصت خاتمها وكان فيه سم ، وقالت : « بيدى لا بيد عمرو » ، وتلقاها عمرو بن عدى فجللها بالسيف ، وأصاب كثير من أهل المدينة وعاد إلى العراق[1] ، بعد أن خرب المدينة وتركها قاعا صفصفا[2] :

وبعد موت عمرو بن عدى ، تولى أبنه أمرؤ القيس الأول إمارة الحيرة ، وأمه ماوية بنت عمرو أخت كعب بن عمر الأزدى[3] ، وكانت الأحوال السياسية فى فارس ملائمة له لمد سلطانه وتوسيع ملـكه .

ذلك أنه بعد أن توفى الملك بهرام الثانى سنة ٢٨٢ م لم يحكم خليفته بهرام الثالث أكثر من أربعة أشهر ، وبعد وفاته قام النزاع على العرش بين ابنيه : نرسى Nerses وهرمزدز Hormisdas ، انتهى بانتصار نرسى واختفاء هرمزدز من مسرح المنافسة تماما . وفى عام ٢٩٦م بعد حوالى ثلاث سنوات من ارتقاء نرسى العرش، قام بغزو أرمينيا وطرد ملـكها تيريداتيس Tiridates صنيعة روما ، الذى التجأ بدوره إلى الإمبراطور دقلديانوس وكان فى أوج قوته وطلب حمايته ، فأمر جاليريوس Galerius[4] بالتوجه من الدانوب وتولى قيادة جيش الشام . وكان نرسى قد غزا الولاية الرومانية بالجزيرة ، فقابله جاليريوس فى سهولها

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ٧٦٦ .
(٢) على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ١٨ — ٢٠ .
(٣) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٠ .
(٤) فى هذه الفترة كانت الإمبراطورية الرومانية يحكمها إمبراطوران ، يخضع لهما قيصران ، أحدهما جاليريوس المذكور .

الواسعة ، واشتبك الجيشان فى واقعتين كبيرتين لم تـكن لهما نتائج حاسمة ، ولـكن فى الواقعة الثالثة تقرر مصير الجيش الرومانى حيث هُزم هزيمة منـكرة وفر كل من تيريداتيس وجالريوس بأن سبحا فى مياه الفرات ونجيا من القتل . وفى شتاء العام التالى أرسل الإمبراطور دقلديانوس ، القيصر جالريوس على رأس فرقة حربية من إقليم إلبريا Illyria لـكى ينازل الفرس ويسترد سمعته الحربية ، وقد استفاد جالريوس من هزيمته السابقة وتجنب نزال الفرس فى السهولة الواسعة ، واستطاع أن يخترق مناطق أرمينيا الجبلية ويفاجىء المعسكر الفارسى ليلا ، ولم يكن نرسس ينتظر تلك الجرأة من الجيش الرومانى ، ففر من المعركة بعد أن أصيب بجرح بالغ ، ولـكن جيشه كان قد أبيد عن آخره ، ووقعت أسرته وبعض النبلاء أسرى فى يد الجيش الرومانى ، وكانت شروط الصلح التى عقدت بين الطرفين شديدة الوطأة على الفرس ، فقد نصت على بتر عدة أقاليم من فارس وإلحاقها بممتلـكات روما[1] . ولقد انتهى هذا النزاع مع روما والذى أثاره نرسس نفسه ، بمأساة قضت على عرشه ، فقد تنازل عن الحـكم سنة ٣٠١ م ، بعد أن شاهد هذا التقدم العظيم الذى أحرزته قواته فى الدولة مما عجز عنه أسلافه[2] .

استغل امرؤ القيس الأول هذا الموقف فى فارس : فوالى الساسانيين حتى حفظ عرشه ، وفى الوقت نفسه خضع لنفوذ الرومان ،فإن النقوش التى وجدت على قبرة فى النمارة[3] تدل على أنه كان خاضعاً لنفوذ الرومان حوالى سنة ١٣٢٨ م[4] . كما أنه أخضع قبيلتى أسد ونزار ، وهزم مذحج ، ولما بلغ هذا الشأو البعيد ، عظم

---

(١) Sykes : History of Persia, Vol. 1. 441 — 442.

(٢) Sykes : History of Persia. Vol, 1. p. 443.

(٣) مدينة تقع فى الجنوب الشرقى من دمشق .

(٤) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 8.

أمره وقويت شوكته على قبائل العرب حتى استعمل بنيه عليهم وأنابهم عنه لدى الفرس والروم[1] .

تولى مملكة الحيرة بعد امرىء القيس ابنه عمرو ، ويعرف باسم « عمرو الثانى » ، وأمه هند بنت كعب بن عمرو[2] ، وقيل إن أمه أخت ثعلبة بن عمرو من ملوك غسان وتعرف بمارية البرية[3] . ولم يتناول المؤرخون حكم هذا الملك وسياسته فى شؤون بلاده بشىء من الإفاضة .

وخلفه على الحيرة ، أوس بن قلام ، ولم يكن من سلالة اللخميين ، بل قيل إنه من العماليق من بنى عمرو بن عمليق[4] ، وقد أقامه سابور ذو الأكتاف ملكا على الحيرة بعد أن رأى تنازع أولاد عمرو بن امرىء القيس على ملك أبيهم بعد موته . عمل أوس بن قلام على استتباب الأمن والضرب على أيدى أولاد عمرو الثانى حتى طردهم من الحيرة ، غير أنهم تربصوا به فى النهاية وقتلوه بعد أن حكم خمس سنوات .

وانتقل الحكم إلى امرىء القيس الثانى ، وهو محرق الأول ، وقيل إنه ملك إحدى وعشرين سنة وثلاثة أشهر[5] .

وتولى مملكة الحيرة بعد وفاة امرىء القيس الثانى ابنه النعمان الأول ، ويقال له ابن الشقيقة ، لأن أمه شقيقة ابنة أبى ربيعة بن ذهل من شيبان[6] . وكان النعمان من أشد ملوك الحيرة نكاية فى الأعداء . ولقد غزا الشام عدة مرات

---

(١) جورجى زيدان : تاريخ الآداب العربية ج ١ ص ٢٨ .
(٢) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٠ .
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣ .
(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ٨٥٠
(٥) حمزة الأصفهانى ص ١٠١ .
(٦) الطبرى ص ٨٥٠ ، حمزة الأصفهانى ص ١٠١ .

وأكثر المصائب فى أهلها ، وكانت له كتيبتان يقال لها « دَوْسر »[1] وهى لتنوخ والأخرى « الشهباء » وهى للفرس ، وكانتا أيضاً تسميان « القبيلتين »[2] ، فكان يغزو بهما من لم يدن له من العرب . وكان للنعمان الأول مقام رفيع فى بلاد فارس ونفوذ عظيم فى قصر الأكاسرة ، فطلب منه يزدجرد أن يتعهد بتربية ابنه بهرام فى الحيرة ، لأنه لم يعش له ولد قبله[3] فامتثل النعمان لمشيئة يزدجرد ، واختار له « أربع نسوة ذوات أجسام صحيحة ، وأنساب صريحة ، وأذهان ذكية وآداب مرضية ، إثنتان منهن من بنات أشراف العرب ، واثنتان من أكابر العجم »[4] ، فنشأ بهرام بالحيرة وتربى بين ظهرانيها حتى تثقف بالثقافة العربية الخالصة ، وكان ذلك سبباً فى كراهية الفرس له بعد موت أبيه يزدجرد . واشتهر النعمان بن امرىء القيس بأنه بانى الخورنق[5] والسدير[6] ، وكانت لها شهرة عظيمة فى تاريخ الحيرة حتى نسب النعمان إليهما ، ويغلب على الظن أنهما كانا فى مكان واحد من الحيرة ويطلق عليهما معاً اسم الخورنق . وذهب بعض المؤرخين إلى القول باعتناق النعمان النصرانية ، وإن كانت الدلائل لا تشير

---

(١) كانت أحسن كتائب النعمان وأشدها بطشاً ونكاية ، وسميت « دوسر » اشتقاقا من الدسر وهو الطعن بالثقل ، لثقل وطأتها . الألوسى : بلوغ الأرب ج٢ ص١٩١ ، طبع بغداد .

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٤٦ .

(٣) الطبرى ص ٨٥١ .

(٤) الفردوسى : الشاهنامة ج ٢ ص٧٥ من الترجمة العربية للبندارى ونشر الدكتور عزام .

(٥) الخورنق : قصر بظاهر الحيرة ، اختلف فى بانيه . قال الهيثم بن عدى إن بانيه هو النعمان بن امرىء القيس . وقال ابن الكلبى إن الذى أمر ببنائه بهرام جور بن يزدجرد . معجم البلدان : مادة خورنق .

(٦) السدير : قصر قريب من الخورنق ، اختلف العلماء فى أصل اسمه . قال الأصمعى : إن السدير كلمة فارسية بمعنى [ثلاث قباب متداخلة] ، وقيل إنما سمى السدير بذلك لكثرة سواده وشجره ، من قولهم [إنى لأرى سدير نخل] أى سواده وكثرته . ياقوت : معجم البلدان . مادة « سدير » .

إلى تنصره ، بل إلى عطفه على رعاياه المسيحيين و إطلاقه الحرية الدينية لهم ، دون أن يكون قد تنصر بالفعل .

خلف النعمان على عرش الحيرة ، ابنه المنذر الأول ، وأمه هند بنت زيد مناه بن زيد بن عمرو الغساني[1] ، وقد تدخل المنذر في النزاع الذي حدث في فارس عقب موت يزدجرد الأول ، إذ أنه أيد اختيار بهرام جور الذي عارض رجال الدين في فارس في توليته[2] خوفا من ممالأته للعرب المثقف بثقافتهم ، ولكن المنذر أمده بالجند حتى تمكن من استرداد ملك أبيه . وقد امتد اضطهاد النصارى الذي بدأه يزدجرد الأول خلال الأعوام الأخيرة من حكمه إلى عهد بهرام جور بحمية ونشاط ، و بلغ من قسوته أن عبر عدد كبير من النصارى حدود الدولة الفارسية ، ووضعوا أنفسهم تحت الحماية الرومانية ، فأغضب هذا العمل بهرام جور وطلب منهم أن يخضعوا لحكمه ، ولما قوبل طلبه بالرفض شبت نيران الحرب . ولقد كان الرومان هم البادئون بالعدوان ، فسارت قواتهم إلى الجزيرة تحت قيادة أردابريوس Aradaburius ، واستطاع هذا القائد أن يهزم الجيش الفارسي هزيمة منكرة[3] ، بيد أن المنذر انحاز إلى جانب الفرس و برهن على أنه تابع مخلص ، فكابد سنة ٤٢١ م شر هزيمة[4] لحقت بجيشه العربي .

انتقل الملك بعد وفاة المنذر إلى النعمان الثاني ، وذكره الطبري عند كلامه عن بهرام جور ، فقال « ثم دعا بهرام بالنعمان بن المنذر ، وأمره أن يؤذن العرب بإحضار خيلهم من الذكور والإناث على أنسابها ، فأذن النعمان للعرب بذلك »[5] .

---

(١) حمزة الأصفهاني : تاريخ سني ملوك الأرض ص ١٠٣ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 41.

(٣) Sykes : History of Persia, Vol. 1. pp. 461 — 466.

(٤) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome, 1. p. 33.

(٥) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ص ٨٥٦ .

وقد خلفه على الحيره أخوه الأسود بن المنذر ، وأمه هر ابنة النعمان من بنى الهيجانة ابنة عمرو بن أبى ربيعة من لخم[١] ، وقد كان للأسود كتيبة شديدة البأس يقال لها « الملجأ » يظن أنه استخدمها فى حروبه مع الفساسنة عرب الشام ، كما قيل إن الفرس أمرت الأسود بن المنذر [٢] عشرين سنة [٣] .

ملك بعد الأسود بن المنذر ، أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان وأمه هر[٤] ، وكانت مدة حكمه سبع سنوات فى زمن قباذ بن فيروز[٥] .

انتقل الملك بعد المنذر الثانى بن المنذر الأول إلى النعمان الثالث بن الأسود ، وقد ذكر كوسان دى برسفال « إن أبا الفداء ومعظم مؤرخى العرب قد أغفلوا ذكر هذا الملك » [٦] ، مع أن الطبرى[٧] وابن الأثير[٨] وحمزة الأصفهانى [٩] قد ذكروا النعمان الثالث من ملوك الحيرة .

كان من شروط الصلح التى عقدت بين الملك يزدجرد الثانى والإمبراطور تيودوسيوس الثانى Theodosuis II عام ٤٤٢ م ما يُلزم روما بدفع مبلغ من المال سنويا للدولة الفارسية ، ولكن الدولة الرومانية لم تدفع المبلغ طوال سنى السلام بين الدولتين . ولما جاء قباذ شعر بحاجته الشديدة إلى المال ، فطلب من الإمبراطور أنستاسAnastasius أن يفى بما تعهد به تيودوسيوس عام٤٤٢م . ولم يكن طبيعيا أن يرضخ أنستاس لمشيئته قباذ على الفور ، فاندلعت نيران الحرب

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ٨٨٢ . حمزة الأصفهانى ص ١٠٤ .
(٢) CL. Huart : Histoire des Arabes, Vol. 1, p 66
(٣) الطبرى : نفس المصدر ص ٨٨٢ .
(٤) الطبرى : نفس المصدر ص ٩٠٠ .
(٥) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٤ .
(٦) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes Vol. 2. p .67.
(٧) الطبرى : نفس المصدر ص ٩٠٠ .
(٨) ابن الأثير : الكامل ج ١ ص١٧٧
(٩) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٤ .

بين الدولتين ، وكاد أنستاس أن يجلو عن العراق بأسره سنة ٥٠٢ م[1]،ولـكن الحرب ظلت سجالا بين الدولتين حتى انتهت سنة ٥٠٥ م[2] . واشترك النعمان فى تلك الحرب وأرسل عدة حملات حربية إلى سورية على الفرات ، وأقلق الرومان وحلفاءهم العرب[3] وأبلى بلاء حسناً فى تلك الحروب ، وكان عليه أن يدفع غزو قبائل العرب الوسطى التى تعرف باسم القبائل البـكرية الذى بدأ رئيسها الحارث بن عمرو سيداً للحيرة فى فترة من تاريخها . ولما توفى النعمان ، عين قباذ خليفة له ، رجلا دخيلا ليس من آل نصر ، هو أبو يعفر علقمة .

تولى الحـكم بعد أبى يعفر علقمة ، امرؤ القيس الثالث[4] ، الذى يقترن اسمه بقتاله ربيعة بن نزار فى البحرين ونجد قبل بلوغه العرش واختطف منهم ماء السماء التى تزوجها[5] وأنجب منها ابنه المنذر أشهر ملوك الحيرة ، واسم ماء السماء : ماوية بنت عوف بن جشم بن هلال بن ربيعة ، وغلب ماء السماء على اسمها لجمالها وحسنها[6] وقيل لـكرمها ورقة طباعها[7] .

كانت روما فى أثناء حرب قباذ مع الهون قد تقدمت نحو التخوم الفارسية وأنشأت حصناً قويا فى مدينة دارا ، فأرسل قباذ سفارة إلى روما لتحتج لدى الإمبراطور أنستاس على نقض شروط الصلح التى أبرمت بين الدولتين عام٥٠٥م، ولـكن الإمبراطور لم يصغ إلى تلك الاعتراضات وسار فى سياسته العدائية حتى مات سنة ٥١٨ م ، وخلفه جستين الأول ، فتابع سياسة سلفه وعقد محالفة

---

(١) Sedillot : Histoire Générale des Arabes, tome, 1. p. 33

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 219.

(٣) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes, Vol. 2. p. 68.

(٤) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض ص ١٠٤

(٥) Caussin de Perceval : Histoire des Arabes, Vol. 2. p 73.

(٦) حمزه الأصفهانى ص ١٠٥ .

(٧) لويس شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ٨٨ .

ضد فارس مع أحد ملوك الهون ، وقبل خضوع أميرلزقا لنفوذه ، ومع ذلك لم تعلن الحرب بين الدولتين إلا عام ٥٢٦م عندما غزت روما أرمينيا الفارسية[١] . وكان قائد تلك الحملة بليزريوس الذائع الصيت ، ولكنها مع ذلك فشلت فشلا ذريعاً ، كما أخفق الرومان فى فتح الجزيرة أيضاً ، وفى عام ٥٢٨م عاود الرومان الكرة تحت قيادة بليزاريوس ، فلم يلاقوا غير الفشل .

ولقد أيقن الإمبراطور جستنيان خليفة جستين أن القوات الحربية الموضوعة تحت تصرف القائد بليزاريوس ضعيفة للغاية ، لذلك أنعم عليه بلقب «قائد الشرق» وقام بتجنيد قوة حربية بلغ عدد رجالها خمسة وعشرين ألفاً . وكان قائد الفرس فى ذلك الوقت يقال له « فيروز مهران Firuz — Mihran فتقدم صوب دارا واستولى على عدة مدن هامة ، وقبل أن يلتحم الجيشان جرت بعض المراسلات بين القائدين لم تؤد إلى نتيجة ما ، وختم فيروز مهران آخر رسائله طالباً أن يعد له الطعام داخل أسوار دارا[٢] ، ولكن الخيالة الرومانية استطاعت بعد قتال رهيب أن تشطر الجيش الفارسى شطرين وأن تنزل به خسائر فادحة .

وفى أرمينية أيضاً هزمت القوات الرومانية جيش قباذ فى معركتين فاصلتين حتى قال المؤرخ سايكس « إن عام ٥٢٩ م كان شؤما على الملك قباذ الذى بلغ من الكبر عتيا ، حتى عجز عن إدارة جيوشه بنفسه ، ولكنه كان فى الوقت نفسه عاما ذا اعتبار بالنسبة للمنذر ملك الحيرة ، ذلك الملك العربى الشديد البأس الذى جال فى سورية حتى أنطاكية والذى أثار الرعب فى الأقطار المسيحية بذبحه أربعمائة راهبة قرباناً للنجم فينوس »[٣] .

وحوالى عام ٤٨٠ م امتد نفوذ قبيلة كندة[٤] التى يظهر أن أمراءها كانوا

(١) Sykes : History of Persia, Vol, 1. p. 480—481.

(٢) Sykes : History of Persia. Vol, 1, p. 481.

(٣) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 482.

(٤) كندة : من بنى كهلان وبلادهم اليمن وكان لها ملك بالحجاز واليمن . قال الأصفهانى : « قال أبو عبيدة : حدثنى أبو عمرو بن العلاء أن العرب كانت تعد البيوتات المشهورة بالكبر =

يخضعون لتبابعة اليمن ، وشمل نفوذها جزءاً كبيراً من وسط بلاد العرب وشمالها ، وكان حجر آكل المرار هو المحرك الأول فى بسط النفوذ ، ولكن مالبث أن تفككك عند مامات حجر ، والتأم الشمل مرة أخرى على يد حفيده الحارث ابن عمرو . وفى ذلك الحين كانت تعاليم مَزْدك الاشتراكية قد اتسع نطاق دعوتها وتغلغلت بين العامة فى فارس ، وانتهى الأمر أن اعتنقها الملك قباذ نفسه[١] ، الذى دعا المنذر إلى الدخول معه فى ذلك فأبى ، بينما أجاب الحارث ابن عمرو الدعوة عند ماوجهها إليه قباذ[٢] . وقد أقصى المنذر عن مملكته زمنا ما ، وليس من البعيد أن يكون إقصاء المنذر عن مملكته راجعاً إلى عدائه للتعاليم المزدكية ، ولكنه مالبث أن عاد إليه بعد فترة قصيرة .

ولما تولى كسرى أنو شروان عرش فارس ، قتل كثيرين من أتباع مزدك ، وطلب الحارث بن عمرو ، فخرج من الأنبار هاربا فى هجائنه وماله ومر بالثَّوِيَّة[٣] وتبعه المنذر بالخيل من تغلب وبهراء وإياد ، فلحق بأرض كَلْب ، فنجا وانتهبوا ماله وهجائنه ، وأخذت بنو تغلب ثمانية وأربعين نفسا من بنى آكل المرار ، فقُدِم بهم على المنذر فضرب رقابهم بحفر الأملاك فى ديار بنى مَرينا العباديين[٤] بين دير هند والكوفة ، وفيهم يقول امرؤ القيس :

= والشرف من القبائل بعد بيت هاشم بن عبد مناف فى قريش ثلاثة بيوت ، ومنهم من يقول أربعة : بيت آل حذيفة بن بدر الفزارى ، بيت آل زرارة بن عدس الدارميين ، وبيت آل ذى الجدين بن عبد الله بن همام ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بن كعب . وأما كندة فلا يعدون من أهل البيوتات إنما كانوا ملوكا » . الأغانى ج ١٧ ص ١٠٦ — ١١٠ .

(١) Nicholson: Literary History of the Arabs, p. 42,

وتعاليم مزدك مبسوطة فى .

Browne : Literary History of Persia. Vol. 1, pp. 168—172.

(٢) الأصفهانى : الأغانى ج ٩ ص ٧٩ (طبع دار الكتب) .

(٣) الثوية : موضع قريب من الكوفة ، وقيل بالكوفة .

(٤) من أشراف أهل الحيرة النصارى ، وكانوا ينتسبون إلى لخم .

ملوكٌ من بنى حُجْر بن عمرو　　يساقون العَشِية يقْتَلونا
فلو فى يوم معركة أصيبوا　　ولـكن فى ديار بنى مرينا
ولم تغسل جماجمهم بغسل　　ولـكن فى الدماء مُرمَّلينا[1]

أقام الحارث بعدئذ بأرض كلب ، وقيل إنه قتل هناك[2] بعد أن فرق ولده فى قبائل العرب : فملك ابنه على بنى أسد وغطفان ، وملك ابنه شرحبيل على بكر بن وائل بأسرها و بنى حنظلة بن مالك بن زيد مناه بن تميم والرباب ، وملك ابنه معد بن يكرب على بنى تغلب ، والنمر بن قاسط وسعد بن زيد مناة وطوائف من بنى دارم بن حنظلة والصنائع وهم بنو رُمَية ، وملك ابنه عبد الله على عبد القيس ، وملك ابنه سلمة على قيس[3] .

ولقد ظل المنذر بن ماء السماء يتحين الفرص للانتقام من أولاد الحارث ، وسنحت له الفرصة عند ماتحزبت القبائل . ووقعت الحرب بين شرحبيل وأصحابه وسلمة وأصحابه ، فقتل شرحبيل فى يوم الـكلاب الأول[4] ، والتجأ سلمة إلى بنى تغلب فلم يقبلوه بينهم ، فلجأ إلى بكر بن وائل فأجاروه ورضوا به ملـكا عليهم ، فبعث إليهم المنذر يدعوهم إلى طاعته ، فأبوا ذلك فسار إليهم المنذر بجيشه واقتتلوا قتالا شديداً بجبل أوارة ، وأسر يزيد بن شرحبيل بعد أن هزمت بكر ، وقد عرفت هذه الواقعة عند العرب بيوم أوارة الأول[5] .

وقام المنذر بن ماء السماء حليف الفرس بدور هام فى سبيل إخضاع روما . ذلك أن كسرى أنوشروان الذى طبقت شهرته الآفاق ، كان يرغب عند ارتقائه

(١) ملطخين .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٩ ص ٨٠ — ٨١ .

(٣) الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ٨١ — ٨٢ .

(٤) الـكلاب : اسم ماء بين الـكوفة والبصرة ، وقيل ماء بين جبلة وشمام . وكان للعرب يومان مشهوران بيوم الـكلاب : أما الأول فهو ما قتل فيه شرحبيل بن الحارث ، والثانى كان بين سعد والرباب وبين بنى الحارث بن كعب وقبائل اليمن وقتل فيه عبد يغوث الحارثى .

(٥) ابن الأثير : الـكامل جـ ١ ص ٣٢٨ .

العرش فى عقد الصلح مع روما ، حتى يشعر بالطمأنينة الـكافية داخل مملـكته ، و يستطيع بذلك أن يصمد أمام الحملات الأجنبية ، وكانت هذه الرغبة متبادلة بين العاهلين الرومانى والفارسى [١] ، فإن جستنيان من ناحيته كان يود أن يأمن الجبهة الشرقية كى يتجه صوب الغرب ، ورضى بأن تـكون المعاهدة فى صالح الدولة الفارسية . لذلك وضع العاهلان حداً للحرب التى اشتعلت بين الدولتين ثلاثين عاما واتفقا على عدة شروط أهمها : أن روما حليفة فارس إلى الأبد [٢] ، وكان من نتيجة هذا الاتفاق أن تمـكن جستنيان من أن يغزو إفريقية الشمالية و يقضى على الوندال والقوط الشرقيين بإيطاليا . إلا أن أنباء هذا النصر الذى أحرزه الروم قد ساء كسرى أنو شروان ، فأوعز إلى عامله المنذر بن ماء السماء أن يغزو سورية ، وقامت الحرب بينه و بين الحارث بن جبلة أمير غسان ، الذى انتصر له الروم بينما انتصر الفرس للمنذر . ولم تـكن عاصمة سوريا من المناعة بحيث يعجز أنو شروان عن فتحها ، وما لبثت أن سقطت فى يده وراح يعمل فى مبانيها بمعوله ولم يسلم من ذلك إلا ما افتُدى بالمال [٣] .

ونسبت للمنذر بن ماء السماء حرب «يوم عين أباغ» [٤] ، وكانت بينه و بين الحارث بن جبلة الغسانى ، وقيل إن المنذر قتل فى هذه الواقعة مع ابنين له .

اختلف المؤرخون فى الـكلام عن المنذر وعما إذا كان وثنيا أم نصرانيا . فقال شيخو إنه كان نصرانيا [٥] ، وقد ذكر للتدليل على ذلك أن ساويرس البطريرك السريانى أراد أن يجتذب إلى بدعته ملك الحيرة ، فأرسل إليه أسقفين

---

(١) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 487.

(٢) Op. Cit. p. 487.

(٣) Op. Cit. p. 488.

(٤) عين أباغ ليست بعين ماء وإنما هو واد وراء الأنبار على طريق الفرات إلى الشام . معجم البلدان ، مادة : عين أباغ .

(٥) شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ٩٠ .

ليقنعاه بأن فى المسيح طبيعة واحدة ، فسمع الملك كلامهما ساكتاً ثم فض كتاباً كان فى يده فبدت الكآبة على وجهه عند قراءته ، فسأله الأسقفان : ما الأمر ؟ فقال : قد بلغنى كاتب هذه الرسالة أن رئيس الملائكة قد توفى ، فهذا الخبر قد أممضنى جداً . فضحك الأسقفان وقالا للملك : كيف يمكن أن يموت ملاك لاجسد له ، فهذا كذاب محض . فأردف الملك وقال لهما : وكيف أنتما تزعمان أن المسيح وهو ذو طبيعة إلهية مفردة قد مات ؟ أليس هذا أعظم كذبا وضلالا ؟ ثم رد الأسقفين خائبين[1] . وهذه الشهادة التاريخية هى مثل من الأمثلة العديدة التى نرى فيها اختلاط التعاليم المسيحية بالفلسفة اليونانية ، وتوضح مدى الصعوبة التى كان يلاقيها العرب فى فهمها ، وهى فى الوقت نفسه محاولة من المحاولات التى كانت تقوم بها الكنيسه لجذب الوثنيين إلى حظيرتها ، إذ لم يكن المنذر نصرانيا وإنما كان وثنيا .

وقد ذكر بعض مؤرخى العرب ـ فى سبيل التدليل على وثنية المنذر ـ أنه كان يقتل بعض أسراه ويقدمهم قربانا للنجم فينوس ، وأيدهم فى ذلك بعض المؤرخين الأوربيين ممن يعتد برواياتهم . يقول سايكس : إن المنذر قد ذبح أربعمائة راهبة قربانا للسيار فينوس[2] . وأنكر نيكلسون نصرانية المنذر بل نصرانية ملوك الحيرة ، سوى النعمان الثالث ، قال : كان اللخميون بعكس غالبية رعيتهم عريقين فى الوثنية[3] ، بينما قال شيخو : إن النصرانية عمت ملوك الحيرة وأهلها العرب ، حتى أن المسلمين لما فتحوا مملكة المناذرة وجدوها مملكة نصرانية فى دينها وآدابها وعاداتها[4] .

خلف المنذر على مملكة الحيرة ابنه عمرو الثالث ويعرف باسم « مضرِّط

---

(١) شيخو : النصرانية وآدابها حـ ١ ص ٩٠ .

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. I. p. 482.

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 49.

(٤) شيخو : نفس المصدر والجزء ص ٩٢ .

الحجارة»[١] ، واشتهر باسم أمه هند ابنة الحارس بن عمرو بن حجر آكل المرار[٢] التي تعرف عند المؤرخين باسم هند الكبرى[٣] . ويقال إن عمرو ابن هند أراد أن ينتقم من غسان بعد قتل أبيه المنذر ، فدعا بنى تغلب إلى الطلب بثأره من غسان ، ولكنهم امتنعوا ، فغضب عمرو بن هند وجمع جموعاً كثيرة من العرب غزا بها بنى تغلب وقتل منهم عدداً كبيراً .

وحكم عمرو بن هند ، ونسبت إليه الحرب المعروفة بيوم أوارة الثانى[٤] ، وسببها أن أسعد بن المنذر أخا عمرو بن هند كان مستودعاً فى بنى تميم فقُتل فيهم خطأ ، فحلف عمرو ليقتلن به مائة من بنى تميم وأغار عليهم فى بلادهم بأوارة ، فظفر منهم بتسعة وتسعين رجلا ، أوقد لهم ناراً وألقاهم فيها ، فمر رجل من البراجم[٥] وشم رائحة حريق القتلى فظنه قُتار الشواء ومال إليه ، فلما رآه عمرو قال : ممن أنت ؟ قال : رجل من البراجم ، فقال عمرو : إن الشقى وافدُ البراجم ، وأمر به فألقى فى النار[٦] .

كان عمرو بن هند — حسب رواية شيخو — على النصرانية[٧] ، مستدلا على ذلك بما رواه أبو عبيد البكرى[٨] وياقوت الحموى[٩] فى وصف دير هند الكبرى أم عمرو وابنة الحارث بن عمرو بن حجر . فقد ذكر البكرى أنه : كان فى صدر دير هند مكتوب ، بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو

---

(١) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ١٠٩ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ٩٠٠ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة دير هند الكبرى ، ج ٤ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

(٤) أوارة : اسم ماء أو جبل لبنى تميم .

(٥) البراجم : خمسة رجال من بنى تميم : قيس وعمرو وغالب وكلفة والظليم . بنو حنظلة ابن مالك بن زيد مناة بن تميم ، اجتمعوا وقالوا : نحن كبراجم الكف فغلب عليهم .

(٦) ياقوت . معجم البلدان ، مادة : أوارة .

(٧) شيخو : النصرانية وآدابها ص ٩١ .

(٨) البكرى : معجم ما استعجم ج ٢ ص ٦٠٦ نشر الأستاذ مصطفى السقا .

(٩) ياقوت : نفس المصدر ، مادة : دير هند .

ابن حجر ، الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أَمَةُ المسيح وأم عبده وابنة عبده فى زمن افرائيم الأسقف ، فالإله الذى بنت له هذا الدير يغفر خطيئتها و يترحم عليها وعلى ولدها ، و يقبل بها و يقومها إلى أمانة الحق و يكون الإله معها ومع ولدها الدهر الداهر » . على أن الحيرة كانت وقتئذ تموج بالمبشرين الداعين للمسيحية ، وليس ببعيد أن تكون هند قد لبت دعوتهم واعتنقت النصرانية ، ثم عملت جاهدة لجذب ابنها إلى دينها فكتبت على دارها ما كتبت .

ولقد بلغ عمرو بن هند منتهى العجب بعظمته وسطوته على قبائل العرب ، فأهانت أمه أم الشاعر عمرو بن كلثوم فى مأدبة أقامها بظاهر الحيرة للشاعر وأمه ورهطه ، فاستشاط الشاعر غضباً وقتل عمرو بن هند فى عقر داره بالحيرة .

تولى الحكم بعد عمرو بن هند . أخوه قابوس بن المنذر ، وفيه يقول الأصفهانى « إنه لم يملك و إنما سموه ملكا لأن أباه وأخاه كانا ملكين »[1] . وكان قابوس بن المنذر ضعيفاً لا يصلح لأعباء الحكم حتى سموه « فتنة العرس » ، فلا عجب أن تتطاول عليه الأيدى و يقتله رجل من يشكر .

و بعد قتل قابوس استولى على حكم الحيرة رجل دخيل ، ليس من سلالة اللخميين يقال له السهرب ، ولكنه لم يستمر فى الحكم طويلا .

وعاد النفوذ إلى اللخميين باعتلاء المنذر الرابع بن المنذر أريكة الحكم فى الحيرة . وقد تضاربت روايات المؤرخين حول شخصيتى المنذر بن ماء السماء وابنه المنذر الرابع ، فلم يفرقوا بين هاتين الشخصيتين ، و إنما نسبوا إلى كل منهما بعض أعمال الآخر .

بعد موت المنذر الرابع ، تولى الحيرة النعمان بن المنذر الذى يكنى بأبى قابوس ، وهو آخر ملك لخمى للحيرة ، وقد نشأ فى أسرة نصرانية فى الحيرة قامت بتربيته وتعليمه ، وكان كبيرها زيد بن حماد أبا الشاعر عدى بن زياد ، واستطاع

---

(١) حمزه الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ١١٠ .

زيد بواسطة دهقان يدعى فاروخ ماهان Farrukh Mahan أن يجتذب عطف كسرى أنو شروان بأن صار كاتب ديوانه[١] . ولما اشتد ساعد عدى أرسله أبوه مع ابن الدهقان ليتلقى العلوم والمعارف ، فأجاد الفارسية كما أتقن العربية وقرض الشعر وتعلم ركوب الخيل ، ثم صحبه إلى أنو شروان فقربه إليه واتخذه كاتباً له ومترجماً فى ديوانه . وكان أنو شروان يبعث به إلى القسطنطينية فى بعض السفارات الخاصة نظراً لحبه له وإعجابه بذكائه وذلاقة لسانه . وكان عدى يزور المدائن بين فترة وأخرى ليشرف على أعمال التحرير ، فرأى بعض زياراته للحيرة هنداً ابنة النعمان فقدرها وذلك فى خميس الفصح بعد الشّعَانين[٢] بثلاثة أيام[٣] . وكانت تبلغ من العمر وقتئذ إحدى عشرة سنة ويقال إن عديا خطبها إلى النعمان فأجابه وزوجه منها[٤] . غير أن بعض المؤرخين يرى أن هنداً التى تزوجها عدى ليست ابنة النعمان ، وإنما هى امرأة بدوية وأن زواج عدى من هند ابنة الملك النعمان قد بنى بعضها على ما رد فى قول الشاعر أن صلة عدى بالبيت المالك صلة زواج

أجْلَ نُعْمَى رَبَّهَا أَوَّلُكُمْ ودُنُوِّى كان منها واصْطِهَارِى[٥]

وجاء ذكر بيت هند فى قول الشاعر :

عرِّجا بى على ديار لهنـــد ليس إنْ عُجْتُمَا المَطِىَّ كبيراً[٦] .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 45.

(٢) خميس العهد : هو أحد أعياد النصارى وهو قبل الفصح بثلاثة أيام ، والشعانين من أعيادهم أيضا ويقع قبل الفصح بسبعة أيام .

(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) راجع قصة زواج عدى من هند ابنة النعمان ، فى الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ١٢٩ — ١٣١ (طبع دار الكتب المصرية) .

(٥) الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ١٣٣ .

(٦) الأصفهانى : نفس المصدر والجزء ص ١٢٨ . راجع حاشية (١) من كتاب Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 48.

وقد أعان عدىّ ، النعمان على بلوغ الملك ، وهو الذى غضب عليه بعد أن كاد له أتباع الأسود بن المنذر ، فألقاه فى السجن ردحا طويلا ثم قتله فى النهاية ، وكان لعدى غلام يدعى زيدا ، أشار كسرى أبرويز بأن يخلف أباه فى إدارة التحرير العربى فى ديوان الملك ، وما لبث أن أخذ زيد يترقب الفرص للأخذ بثأر أبيه بإثارة مكامن الحقد فى قلب كسرى على النعمان ، وذلك بأن ذكر لكسرى أبرويز ، محاسن نساء آل المنذر ووصفهن له ، فكتب إلى النعمان يأمره بأن يبعث إليه بأخته ولما قرأ النعمان كتابه قال لزيد بن عدىّ رسول كسرى: يا زيد أما لكسرى فى مَهاَ السواد كفاية حتى يتخطى إلى العربيات ؟ فقال زيد : « إنما أراد الملك إكرامك أبيت اللعن بصهرك ، ولو علم أن هذا يشق عليك لما فعله ، وسأحسن ذلك عنده[1] . غير أن زيداً لم يف بوعده وكاد له كذلك . ولما بلغ النعمان غضب كسرى عليه أخذ سلاحه وماله ونزل على بنى شيبان ببلدة ذى قار ، فلقيه هانىء بن مسعود الشيبانى فأودعه أهله وماله ، ثم ذهب إلى كسرى ليطلعه على حقيقة الحال ، غير أن كسرى زج به فى السجن وولى مكانه إياس بن قبيصة الطائى وهو ليس من البيت المالك ، وما لبث كسرى أن طالب هانىء بن مسعود بودائعه فامتنع ، وكان ذلك سبب يوم ذى قار[2] المشهور بين قبيلة بكر من بين الفرس ومن انضم إليهم من العرب من جهة أخرى ، وفيه دارت الدائرة على الفرس فى ذلك اليوم وصانت قبيلة بكر استقلالها فى البحرين[3] . ومع أن القوات التى اشتركت فى يوم ذى قار كانت صغيرة العدد نسبياً ، فقد عد العرب هذا النصر فاتحة عهد جديد ، كما أن قبائل الصحراء التى كانت حتى ذلك الوقت تستظل بلواء الإمبراطورية الساسانية ، ويكبح جماحها ملوك الحيرة الأقوياء ،

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٥ — ٢٧ .

(٢) ذو قار : واد متاخم لسواد العراق على طريق الفرات إلى الشام .

(٣) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, tome 1. p. 35.

قد وثقت فى قدرتها على الوقوف موقفا عدائيا ، وبدأت تظهر الكراهية والاحتقار لهذا الشبح الذى لم تعد تخشى بطشه والذى زال نفوذه منذ عدة سنوات حتى وطئوه بأقدامهم فى النهاية[١] .

وقد كان لوقعة ذى قار نتائج خطيرة ، فقد حدثت عندما بدأ محمد عليه السلام فى الدعوة لرسالته ، ولو أن النصر الذى كان حليف العرب فى هذه الواقعة انتقل إلى جانب الفرس ، لكانت متاعب المجاهدين من العرب فى فتح العراق عظيمة للغاية[٢] . وكان لهذه الموقعة فضل كبير على الإسلام ، ورنة فرح تجاوبت أصداؤها فى الجزيرة العربية ، ويتمثل لنا ذلك الفرح فى قول محمد عليه السلام عندما سمع بهذا النصر الذى أحرزته قبيلة بكر : هذا أول يوم انتصف فيه العرب على العجم .

وقد أصبحت الحيرة بعد تلك الموقعة مرزبة فارسية يدير شؤونها نائب لكسرى من الفرس ، غير أن المناذرة ما لبثوا أن استعادوا سلطتهم على الحيرة ، فولى حكمها المنذر بن النعمان بن المنذر وظل واليا عليها حتى دخلها الإسلام .

٢ — مملكة تدمر :

خضع عرب بادية الشام لتيارات السياسة العالمية قبل إخوانهم عرب الجزيرة بزمن طويل . فمنذ عهد الملك الآشورى تجلاثفلاسر Tiglath Fileser (٧٤٥ – ٧٢٨ ق . م) كان للعرب هناك مملكة عاصمتها الجوف . وكانت مقاليد أمورها بيد ملكات كن يتعاقبن على العرش ، ولكنهن كن يخضعن لمملكة آشور حتى عهد إسرحدون Esarhaddon (٦٨١ – ٦٦٩ ق . م)[٣] .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 70

(٢) Sykes : History of Persia, Vol. 1, p. 522.

(٣) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 6.

وفى عهد الآخيمنيين Achaemenians المتأخرين نشأت دولة الأنباط ، واحترف أهلها التجارة قبل ميلاد المسيح بزمن طويل ، كما سيطروا خلال الحقبة الميلينية على تجارة القوافل بين جنوب بلاد العرب وشمالها . وكان الأنباط يتكلمون اللغة العربية ، وورد فى أحد نقوشهم أنهم كانوا يستعملون اللغة الآرامية فى الكتابة[١] . ويرى أنوليتمان أن النبطية لهجة آرامية اختلط بها صيغ وكلمات عربية ، لأن الناس الذين كتبوها كانوا من العرب العاربة ، وأخذوا لغتهم المكتوبة وخطهم المكتوب من الآرام[٢] . وذكر بركلمان أن لغة الأنباط الرسمية كانت اللغة الآرامية حتى فى عهد الآخيمنيين ، وهى نفس اللغة التى وجدت منقوشة على قبورهم المنحوتة فى الصخر[٣] .

وكان للأنباط مركز محترم بين الدول الميلينية التى أعارتهم ألقاب موظفيهم وزعمائهم العسكريين . ولما ظهر الرومان فوق المسرح العالمى لم يتعرض أباطرتهم أول الأمر لاستقلال الأنباط ، إلا أنهم قضوا على هذا الاستقلال وضموا مملكتهم إلى الإمبراطورية الرومانية حيث عرفت عندهم باسم « الولاية العربية » .

هكذا دالت دولة الأنباط وتحولت إلى ولاية صغيرة تابعة للحكم الرومانى . واستطاع أذينة بن السميدع وهو شيخ عشيرة عربى ، أن ينشىء دوله عربية مستقلة فى سورية الشرقية ، أطلق عليها مملكة تدمر . واختلف المؤرخون فى عوامل تسمية هذه المملكة باسم « تدمر » : يقول الهمدانى « إنما سميت تدمر بتدمر بنت حسان بن أذينة[٤] » . وقيل إن تدمر تخفيف « تدمرتا » بالآرامية ومعناها

---

(١) راجع مقدمة كتاب Nicholson : Literary History of the Arabs

(٢) أنوليتمان : لهجات عربية شمالية قبل الإسلام . بحث مستخرج من مجمع اللغة العربية الملكى سنة ١٩٣٦ .

(٣) Brockelman : Op. cit.

(٤) الهمدانى : الإكليل جـ ٨ ص ١٣١ .

« الأعجوبة والمعجزة » لأنها كانت أعجوبة مدن الأرض كلها ، وذهب الأب أنستاس الكرملى إلى أن أصل الكلمة مأخوذ من « التمر » وكذا فى الآرامية فيكون معناه « مدينة النخل » أو « مدينة التمر » لكثرته فيها يومئذ فإن لفظ بلميرا Palmyra يعنى النخلة فتكون هذه اللفظة منقول الكلمة الشرقية[1] .

وكانت تدمر أسعد حظاً من دولة الأنباط ، إذ كانت السيادة فيها للعرب ، على الرغم من أن الآراميين المتأثرين بالحضارة الإغريقية كانوا يؤلفون غالبية سكانها[2] ولقد ساعد أذينة ، فاليران فى أثناء حربه مع كسرى سابور الأول ، واستطاع أن يطرد المغير من سورية ويقتفى أثره حتى أبواب المدائن عاصمة فارس سنة ٢٦٥م ، فأنعم عليه الإمبرار جاليانوس Gallienus بلقب أغسطس Augustus [3] واعترف به قسيما على المشرق Co-emperor of the Orient[4] .

واستطاعت دولة تدمر أن تسيطر على شؤون التجارة كما سيطر عليها الأنباط ، وعززت مركزها الاقتصادى بمد نشاطها التجارى إلى كثير من البلدان النائية مثل روما وداشيا و بلاد الغال وأسبانيا . وتدل الآثار التى خلفتها تدمر على الدور الهام الذى قامت به خلال ذلك العصر وتشير إلى عظيم اهتمامها بمرافق الحياة الاقتصادية بها ، حتى عدها بعض المؤرخين مستودعاً كبيراً لتجارة الشرق ، وذكروا أن آل أذينة كانوا معاصرين لأمراء الحيرة والأنبار الأولين[5] .

واعتلت زنوبيا عرش تدمر بعد وفاة زوجها أذينة ، فإن حكمه لم يطل ، وسرعان مااغتيل فى عامه التالى لما أحرزه من النصر العظيم على الفرس ، وكانت زوجته

(١) الأب أنستاس مارى الكرملى وحقق الجزء الثامن من كتاب الإكليل للهمدانى . راجع تعليقاته على تسمية تدمر فى هذا الصدد ج ص ١٣٢ .

Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7. (٢)

Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 33 (٣)

Brockelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7. (٤)

Sedillot : Histoire Generale des Arabs, Vol 1. p. 31. (٥)

زنوبيا المعروفة عند مؤرخي العرب باسم الزباء خير خلف له ، وتربعت على عرش تدمر سنة ٢٦٧ م واتبعت سياسة الحياد بين الإمبراطورية الفارسية وروما ، بينما كانت تسعى لتشييد إمبراطورية شرقية كبيرة . غير أن نجاحها فى هذا المشروع لم يكن أعظم من نجاح كليوباترة التى حاولت مثل هذه المحاولة[١] . وظلت زنوبيا تصرف شؤون تدمر حتى سنة ٢٧٧ م عندما خرب الإمبراطور أورليانوس Aurelianus مدينة تدمر[٢] واقتاد ملكة الشرق أسيرة أمام عربته فى شوارع روما عام ٢٧٤ م . وفوض الرومان أمور حكومة العرب فى سورية بعد سقوط زنوبيا ، إلى أمراء من التنوخيين ثم إلى السليحيين الذين أزالت قبيلة غسان ملكهم عام ٢٩٢ م[٣] .

٣ — مملكة غساں :

انتهى عهد الدول العربية المستقلة فى الشمال بقضاء أورليانوس على تدمر . ولما كانت سوريا تؤلف منطقة الحدود الشرقية فى الإمبراطورية الرومانية ، كان على قياصرة الرومان أن يهتموا بهذه المنطقة ويعطوها من عنايتهم النصيب الأوفر . ولذلك أغدقوا الأموال على بعض القبائل العربية هناك ، حتى استطاعوا اتخاذهم صنائع لهم على تخوم البادية ، يستعينون بهم فى صد غارات البدو الذين كانوا يغزون المناطق المتحضرة وينهبونها .

وكانت قبيلة قضاعة أول من قدم الشام من العرب فى صحبة مليكهم مالك ابن فهم بن تيم الله[٤] ، وقيل إن الرومان قد ملكوا القضاعيين على من ببلاد الشام من العرب بعد أن دخلوا فى النصرانية وأصبحوا صنائعهم ، ولم يلبث أن

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, pp. 33—43.

(٢) كان تخريب تدمر فى عهد أورليانوس عام ٢٧٢ م . راجع :

Gustave, Le Bon : La Civilisation des Arabes, 65.

(٣) Sedillot : Histoire Generale des Arabes, Vol 1. p. 31.

(٤) تاريخ اليعقوبى جـ ١ ص ٢٦٧ .

انتقل الملك إلى بنى سليح بن حلوان بن عمران بن لحاف بن قضاعة ، الذين استمروا على ذلك زمانا حتى تفرقت الأزد من بلاد اليمن على أثر انكسار سد مأرب ، فسار بطن منهم إلى الشام ونزلوا أرض البلقاء وأقاموا على ماء هناك يقال له غسان فسموا غسان[1] .

ولما نزلت غسان فى جوار سليح فرضوا عليهم الأتاوة ، وظل الغسانيون يؤدونها لهم حتى وقعت الحرب بينهم ، وانتصرت غسان على سليح وانفردت بالسلطان دونها . يقول الأصفهانى « إن أول من ملك من غسان ، جفنة[2] بن عمرو مزيقيا بن عامر ماء السماء ... وكان الذى ملكه على عرب الشام ملكا يقال له نسطورس ، فلما ملك جفنة قتل ملوك قضاعة من سليح الذين كانوا يدعون الضجاعمة ، ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وبنى جلَّق والقرية وعدة مصانع[3] » .

وكان الحارث بن جبلة أول أمراء بنى جفنة وأعظمهم شأنا بلا منازع ، وقد اختاره الإمبراطور جستنيان حوالى عام ٥٢٩ م ليكون بجانبه ضد المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة[4] . ولقد رفع الإمبراطور جستنيان الحارس إلى مرتبة الملوك و بسط سيادته على كثير من قبائل العرب بالشام حتى يقيم خصما قويا فى وجه المنذر بن السماء ملك الحيرة . و يستبعد أن يكون الحارث أو أحد خلفائه قد حمل رسميا لقب «ملك» ، لأن هذا اللقب كان خاصا بالقيصر وحده ، كما أن الوثائق التى تمثل لغة الحكومة الرسمية أطلقت على الحارث وخلفائه لقب بطريق Patricius أو رئيس قبيلة Phalarch[5] .

(١) حمزة الأصفهانى : تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء ص ١١٤ — ١١٥ .
(٢) حمزة الأصفهانى : نفس المصدر ص ١١٥ — ١١٦ .
(٣) كان يطلق أحيانا على جفنة مؤسس البيت الغسانى ، « ثعلبة » .
(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 51
(٥) نولدكه : أمراء غسان ص ١٤ ، ترجمة الدكتور بندلى جوزى والدكتور قسطنطين .

وكان تاريخ غسان مضطرباً أشد الاضطراب وتميز بعدم الاستقرار إذا ماقيس بتاريخ الحيرة، إذ أن هناك اختلافاً كبيراً فى عدد ملوك هذه الدولة فضلا عن مدة حكمها . يقول نيكلسون « من الصعب الاعتماد على الأخبار العربية الخاصة بدولة الغساسنة لما فيها من اضطراب ، ولأنه قل أن يجد الباحث مادة يؤلف من شتاتها صورة تاريخية تقريبية يمكن أن تضاف إلى تلك المعلومات المبعثرة فى كتب المؤلفين البيزنطيين »[١] . وسبب هذا الاضطرب فى أقوال مؤرخى العرب هو عدم استقرار حياة الغساسنة الذين لم يكن لهم ملك ثابت ، حتى أنهم اتخذوا أكثر من عاصمة .

وحالف الروم الغساسنة مخالفة الند للند ضد الفرس والعرب المغيرين على طراف مملكتهم ، واشترطوا أن يمدهم الروم بثلاثين أو أربعين ألفاً إذا حاربهم العرب ، وأن يمدوا الروم بعشرين ألف مقاتل إذا تحاربوا مع الفرس[٢] .

وفى أواخر القرن السادس الميلادى ، نشبت الحرب بين الحارث و بين المنذر أمير الحيرة على البادية الواقعة جنوبى تدمر . فقد ادعى أمير الحيرة أن القبائل العربية النازلة فى تلك الأراضى خاضعة لسلطته ، فنازعه الأمير الغسانى ، ومن ثم نشبت الحرب بينهما . وانتصر كسرى ملك الفرس لأمير الحيرة فى هذه الحرب ، ويقال إنه أوعز إليه بالتوغل فى سورية ، فامتثل المنذر لهذا الأمر وجال فى سورية حتى أنطاكية[٣] . ورأى جستنيان نفسه مضطراً لأن يكل أمر الدفاع عن هذه الأقاليم إلى الحارث بن جبلة الغسانى[٤] .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 5.

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ١ ص ٤٩ .

(٣) Sykes : History of Persia, Vol. 1. p. 482.

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 43.

وفى سنة ٥٤١ م حارب الحارث بن جبلة فى العراق إلى جانب الروم تحت قيادة بليزاريوس وعبر نهر دجلة على رأس جيشه ، ثم عاد فارتد إلى مركزه السابق ، ولم تؤد حملته إلى نتيجة تذكر . ولم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال حول سنة ٥٤٤ م ، ووقع فى هذه الحرب أحد أبناء الحارث فى يد المنذر ، فقدمه ذبيحة للعزى . وقد استمر القتال بين الأميرين العربيين حتى أحرز الحارث بن جبلة انتصاراً حاسماً فى معركة بالقرب من قنسرين سنة ٥٥٤ م . ومع أن الحارث خسر فى هذه المعركة أحد أبنائه فقد قتل من الجانب الآخر المنذر ملك الحيرة نفسه[1] .

وكان الحارث مسيحياً يعقوبيا ، وقد دافع عن مذهبه بحماسة وتوفيق عظيمين ، فى وقت كان التعلق بأهداب هذا المذهب مجازفة خطيرة . كما أنه كان لا يدخر وسعاً فى الدفاع عن أصحاب الطبيعة الواحدة وتحريرهم من الاضطهاد الذى كان يقع عليهم . وقد تمكن الحارث من تعيين يعقوب البرادعى ، مؤسس الكنيسة السورية القائلة بالطبيعة الواحدة ، أسقفا فى المقاطعات السورية العربية ، فتوطدت بذلك دعائم الكنيسة اليعقوبية بعد أن كانت مهددة بالخطر[2] . وفى أخريات أيام الحارث زار القسطنطينية ليتفق مع السلطة الحاكمة عمن يخلفه من أبنائه ، واستطاع أن يجتذب إليه عطف الكثيرين ، كما ترك أثراً كبيراً فى نفوس أهلها وخاصة جاستنيان ابن أخى الإمبراطور جستين Justinus[3] .

وتسلم المنذر بن الحارث زمام الحكم بعد وفاة أبيه ، فسارع لمحاربة عرب الحيرة الذين كانوا قد أغاروا على سورية بعد وفاة الحارث ، وانتصر على ملكهم قابوس علم ٥٧٠ م . ولم يمض على هذا النصر الذى أحرزه المنذر بن الحارث مدة طويلة

---

(١) نولدكة : أمراء غسان ص ١٨ .

(٢) نولدكة : نفس المصدر ص ٢١ .

(٣) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 52.

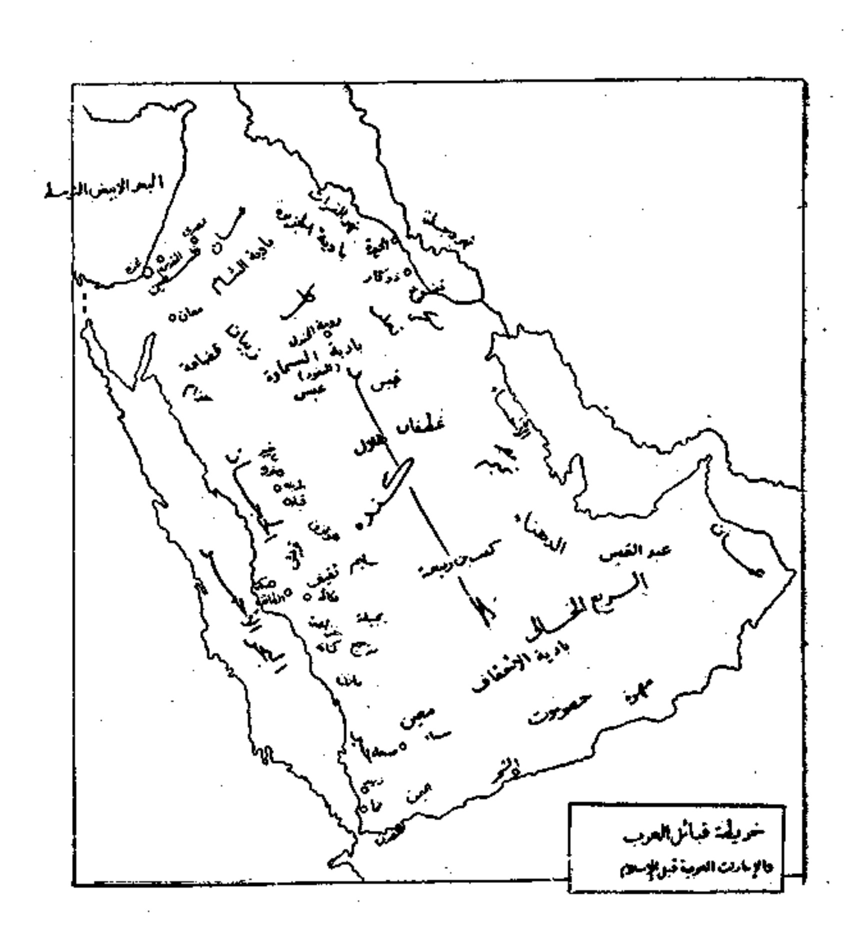
حتى كانت العلاقة بين مملكة الغساسنة والروم قد ساءت إلى حد بعيد . ولم يكن الإمبراطور جستين راضياً كل الرضى عن الأمير العربى ، ورفض إمداده بالمال ، وأوعز إلى البطريق مرقيانوس أن يحتال عليه و يقتله . ولكن المنذر أحس بهذه المؤامرة ، فشق عصا الطاعة على الروم وظل ثائراً عليهم مدة ثلاث سنوات ، فانتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سورية ، وعاثوا فيها ما شاءوا حتى اضطر الروم إلى استرضاء الأمير العربى ليقف فى وجه هؤلاء الغزاة و يُثبتَ أقدام الرومان فى سورية ، منطقة الحدود الشرقية فى الإمبراطورية الرومانية .

ولقد وصل المنذر إلى القسطنطينية ، حيث استقبل هناك بكل مظاهر التبجيل والاحترام وأطلق عليه بعض الكتاب الغربيين لقب : المنذر ملك الشرقيين[1] . غير أن المنذر لم يتمتع طويلا بهذا المركز الذى وصل إليه ، إذ سرعان ماقبضت عليه الحكومة البيزنطية ، وأرسلته أسيراً إلى القسطنطينية . و يرجع السبب فى سخط الدولة الرومانية عليه إلى فشل بعض حملاتها فى غزوة إحدى ولايات الفرس ، فعزت الحكومة البيزنطية هذا الفشل إلى المنذر واتهمته بتواطئه مع العدو .

ولم يكتف الروم بنفى المنذر فحسب ، بل عمدوا إلى قطع الإعانة السنوية التى كانوا يقدمونها لأسرته من آل جفنة . ولذلك سخط على الإمبراطور الرومانى أبناؤه الأربعة ، وشقوا عصا الطاعة على دولته ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضيها تحت قيادة أخيهم الأكبر النعمان[2] . ولكنهم لم يجنوا من وراء اتباع تلك السياسة شيئاً يذكر ، فسرعان ما تمكن القائد البيزنطى الذى أرسله الإمبراطور ضد هؤلاء الثائرين من القبض على النعمان وأرسله أسيراً إلى العاصمة كما أرسل أبوه من قبل . ومنذ ذلك الوقت حتى الفتح الفارسى لفلسطين عام ٦١٤م،

---

(١) نولدكه : أمراء غسان ص ٢٦ .
(٢) نولدكه : نفس المصدر ص ٣١ .


البحر الأبيض المتوسط
غسان
فلسطين
بادية الشام
بادية الجزيرة
الحيرة
ذو قار
معان
قضاعة
بادية السماوة
عبس
غطفان
هوازن
ثقيف
مكة
بجيلة
الدهناء
عبد القيس
الربع الخالي
بادية الأحقاف
معين
حضرموت
مهرة
صعدة
خريطة قبائل العرب
والإمارات العربية قبل الإسلام

عمت الفوضى أرجاء مملكة الغساسنة ، وصارت القبائل المختلفة تنتخب رؤساءها الذين كانوا غالباً فى بعض الأحيان من آل جفنة ، ولكن الأسرة الحاكمة كانت فى حقيقة الأمر قد اندثرت تماماً (١) . غير أن الروم ما لبثوا أن انتصروا على الفرس واستردوا بلاد الشام منهم . وفى ذلك يقول بركلمان : إن أباطرة الروم عند ما انتصروا على الفرس تركوا حكم البلاد (سوريا) إلى أهلها (٢) .

وكان جبلة بن الأيهم هو آخر ملوك غسان ، ويقال إنه أسلم فى عهد عمر ابن الخطاب على أثر انتصار العرب فى اليرموك سنة ١٣ ﻫ (٦٣٦ م) ، غير أنه مالبث أن تحول إلى النصرانية وعاد إلى جانب الروم . ويرجع سبب ارتداده إلى النصرانية ، أن أحد العامة وطىء ذيل إزاره بينما كان يطوف بالكعبة ، فما كان من جبلة إلا أن لطمه لطمة شديدة حتى هشم أنفه ، فشكاه إلى عمر بن الخطاب فأمر أن يضربه كما ضربه جبلة ، فعز عليه ذلك واحتال على الهرب مع خمسمائة رجل من قومه ، وذهبوا إلى ملك الروم حيث تنصروا عن آخرهم .

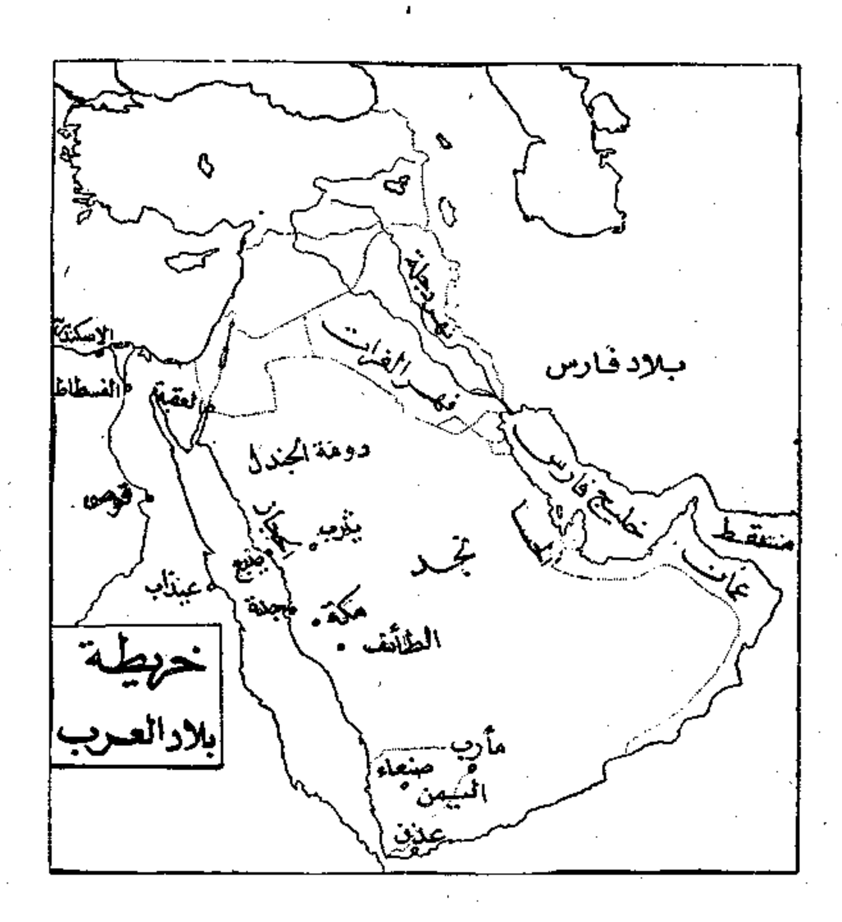
واستطاع الغساسنة أن ينشئوا حضارة أعظم من حضارة اللخميين ، وذلك لتأثرهم بالثقافة الهيلينية ، بينما تمكنت الطبيعة البدوية أن تسم اللخميين بميسمها وتؤثر فيهم أعظم التأثير (٣) .

---

(١) Niccolson : Leiterary History of the Arabs, p. 52.

(٢) Brokelmann : History of the Islamic Peoples, p. 7.

(٣) Nicholson : Op. cit, p. 54.


خريطة
بلاد العرب
بلاد فارس
نهر الفرات
خليج فارس
مسقط
عمان
دومة الجندل
يثرب
نجد
ينبع
مكة
جدة
الطائف
مأرب
صنعاء
اليمن
عدن
عيذاب
قوص
الفسطاط
العقبة

مدن الحجاز

١ — مكة :

تأسست مكة حول منتصف القرن الخامس الميلادى ، وتقع فى قلب الحجاز فى منخفض من الأرض تحيط به بعض التلال . ويمتد وادى مكة من الشمال إلى الجنوب ، وتقع معظم المدينة فيما يشبه الحوض ، ويبلغ عرضه نصف ميل وطوله حوالى ميلين [١] ، وكانت لانخفاضها عرضة لمياه السيول التى تنحدر من التلال حولها ، ومن هنا نرى أن تاريخ مكة تكثر فيه أخبار السيول . ومناخها حار ، ولهذا كان يلجأ إليها جماعات كثيرة من أهل الحجاز فيتخذونها مشتى لهم بعد أن يكون بعضهم قد قضى صيفه فى الطائف :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطائف [٢]

وكانت مرافق الحياة فى وادى مكة الضيق ـ وادى الغور ـ شاقة للغاية ، لتعرضه للفح السموم وخلوه من الماء ومن الهواء اللطيف ومن الشجر ، ونعته القرآن الكريم بأنه « غير ذى زرع » حتى ضجر بعض كبار مكة من مناخها وقالوا ماقاله صفوان بن أمية وزملاؤه من رجال مجلس الشورى القرشى « ليس لنا بها مقام » ، هذا على الرغم من أنهم كانوا يتمتعون بالراحة الطويلة مدة الصيف فى قصورهم البهجة فى الطائف [٣] وجبل السراة . قال ياقوت الحموى يصف مكة : مكة مدينة فى واد ، والجبال مشرفة من جميع النواحى محيطة حول الحرم ، وليس بمكة ماء جار ، ومياهها من السماء ، وليست لهم آبار يشربون منها ، وأطيبها

---

(١) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 115.

(٢) وصف محمد بن عبد الله النميرى زينب بنت يوسف أخت الحجاج بالنعمة والرفاهية ، فقال هذا الشعر .

(٣) Lammens : Taif à la Veille de l'Hégire, Chap. III p. 5

بئر زمزم ، وليس بجميع مكة شجر مثمر إلا شجر البادية [١] .

ومكة هى بيت الله الحرام ، ويقال مكة اسم المدينة و بكة اسم البيت . قال زيد بن أسلم : بكة الـكعبة والمسجد ، ومكة ذو طوى وهو بطن الوادى ، ولها عدة أسماء : فهى أم القرى كما سماها الله تعالى فى قوله (لتنذر أم القرى ومن حولها)، وهى البلد الأمين فى قوله تعالى أيضاً (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين).

كان العمالقة أول من سكن مكة ، ولما أنزل إبراهيم ولده إسماعيل مكة مع أمه هاجر ، كان موضع البيت رَبْوة حمراء فأمر إبراهيم هاجر أن تتخذ عليه مسكناً لها : ثم أنبع الله لها زمزم ، فتفرق العمالقة وجرهم فى البلاد ومن هناك من بقايا عاد . وذهب بنو كركر وهم من العمالقة إلى مكة واستأذنوا هاجر فى النزول بها ، فأذنت لهم . ولما علمت جرهم الثانية بنزول بنى كركر الوادى وما هم فيه من الخصب بادروا نحو مكة ، ونزلوها واستوطنوها مع إسماعيل ومن تقدمهم من العمالقة ، وتـكلم إسماعيل العربية خلاف لغة أبيه [٢] .

وقد زار إبراهيم مكة مرتين ، وفى المرة الثانية أمره الله تعالى ببناء البيت ، وساعده فى بنائه ابنه إسماعيل ، (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت و إسماعيل) و بينما كانا منهمكين فى عملهما هذا جاءهما جبريل وأوصاهما بأداء فريضة الحج . و يؤكد مؤرخو العرب أن الله تعالى قد أمر آدم بإعادة بناء الـكعبة فى وادى مكة الذى كانت الملائـكة قد شادتها فيه قبل خلق الإنسان [٣] ، وحينما طغى الطوفان وطوى فى لجته كل ما على الأرض ، ورفعت الـكعبة إلى السماء ، حتى إذا غاض الماء ، أعاد بناءها فى مكانها السابق ، إسماعيل وإبراهيم [٤] .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٣٥٨ .

(٣) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 117.

(٤) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 63

ولقد اختلف المؤرخون فى أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبين إسماعيل : فقيل المُلك كان فى جرهم ومفاتيح الكعبة وسدانتها فى يد ولد إسماعيل ، كما قيل إن قيدار بن إسماعيل توجته أخواله من جرهم وعقدوا له الملك بالحجاز[١] . وقام بأمر البيت بعد إسماعيل ابنه نابت وهو أكبر أولاده ، ثم قام من بعده أناس من جرهم ، لغلبتهم على ولد إسماعيل ، ويظن أن ولايتهم قد استمرت حتى سنة ٢٠٧ م[٢] .

ولما طالت ولاية جرهم نالوا من الحرم مالم يكونوا ينالون واستخفوا بحرمته ، وكلما عدا سفيه منهم على منكر ، وجد من أشرافهم من يمنعه ويدفع عنه[٣] . وبعد تفرق سبأ على أثر سيل العرم ، خرج عمرو بن عامر الذى يقال له مزيقياء ابن ماء السماء ، هو وقومه من اليمن وساروا من بلد إلى بلد حتى قارب مكة ، فأبت جرهم أن تسمح لهم بالإقامة فى مكة ، وقالت : لا والله ما نحب أن تنزلوا معنا فتضيقوا علينا مراتعنا ومواردنا ، فارحلوا عنا حيث أحببتم ، فلا حاجة لنا بجواركم . ونشبت الحرب بين الفريقين واستمرت ثلاثة أيام ، وانتهى الأمر بهزيمة جرهم[٤] . وبقى ثعلبة بن عمرو بن عامر بمكة وما حولها حتى أصابتهم الحمى ، فدعوا طريفة الكاهنة وأخبروها ما حل بهم ، فدعتهم إلى التفرق فى أرجاء الجزيرة العربية ، وعندئذ افترقوا من مكة : وتوجهت فرقة إلى عمان وهم أزد عمان ، وسار ثعلبة بن عمرو بن عامر نحو الشام فنزلت الأوس والخزرج ابنا حارثة ابن عمرو بن عامر المدينة ومضت غسان فنزلوا الشام ، وانخزعت خزاعة[٥] بمكة فأقام بها ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر فولى أمر مكة وحجابة الكعبة .

---

(١) صبح الأعشى : جـ ٤ ص ٢٦١ .

(٢) Sedillot : Histoire Générale des Arabes, tome, pp. 41-42

(٣) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من آثار جـ ١ ص ٤٦ (طبعة مكة) .

(٤) الأزرقى : أخبار مكة جـ ١ ص ٨ .

(٥) هم قوم ربيعة بن حارثة بن عمرو ، الذين سموا خزاعة لانخزاعهم .

وكان سبب تولية خزاعة أمر البيت أنه « لما ثارت الحرب بين إياد ومضر ابني نزار وكانت على إياد ، قلعت الحجر الأسود ودفنته فى بعض المواضع ، فرأت ذلك امرأة من خزاعة فأخبرت قومها ، فاشترطوا على مضر أنهم إن ردوا الحجر جعلوا ولاية البيت فيهم فوَفَّوا لهم بذلك ، ووليت خزاعة أمر البيت »[1].

وكان أول من وليه منهم عمرو بن لحى ، فعلت مكانته بين العرب حتى أصبح قوله دينا متبعاً لا يخالف . وكان عمرو أول من غير دين إبراهيم و بدله حين خرج إلى الشام ورأى قوما يعبدون الأصنام ، فأعطوه منها صنما نصبه على الكعبة . ولما أكثر عمرو بن لحى من نصب الأصنام حول الكعبة ، غلب على العرب عبادتها ، وانمحت الحنيفية منهم ، وفى ذلك قال سحنة بن خلف الجرهمى :

يا عمرو ، إنك قد أحدثت آلهةً   شتى بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبدا   فقد جعلت له فى الناس أربابا
لتعرفن بأن الله فى مهل   سيصطفى دونكم للبيت حجابا .

استمرت خزاعة على ولاية البيت نحوا من ثلثمائة سنة وكان آخرهم خليل ابن حبشية بن سلول الذى زوج ابنته حبي من قصى بن كلاب . ولما حضرت خليلا الوفاة جعل ولاية البيت الحرام لقصى وأسلم إليه المفتاح ، فاستولى قصى ابن كلاب على أمر مكة والبيت الحرام من يد خزاعة ، وأجلاهم عنها بما كان له من العصبية ، فرحلت خزاعة ونزلت فى بطن مر[2] ، ويقال إن قصيا كان فى زمن بهرام جور بن يزدجرد[3] .

أما قبيلة قريش فكانت وقتئذ متفرقة فى بنى كنانة . ويقول لامنس

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٣٦٦ .

(٢) وادى فاطمة .

(٣) أبو هلال الحسن العسكرى : الأوائل ص ١٣ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، محفوظ تحت رقم ٢٨٧٣ تاريخ .

إن قريشاً كانت « قبل أن ترتقى إلى مركزها الحالى[1] ترود حول منطقة الحرم فتؤجر دوابها وتسير فى خدمة القوافل هاديةً محافظةً ، هذا إذا لم ترابط متسترة فى غورى تهامة منتظرة مرور القوافل فتهجم عليها وتنهبها ، وطال عهدها بحياة التشرد ومرن أربابها على الاحتيال والنهب ، حتى أهاب بهم قصى وأخرجهم عن نطاق الفوضى والاضطراب ، وأدخلهم قلب مكة فأقامهم فيها أسياداً »[2] .

واختلف المؤرخون فى تسمية قريش بهذا الاسم . قال ابن هشام : النضر هو قريش فمن كان من ولده فهو قرشى ومن لم يكن من ولده فليس بقرشى ، وقيل إن فهر بن مالك هو قريش ، وأوضح الأكثرون من نسابة العرب أنه النضر بن كنانة[3] .

أما اشتقاق قريش فقيل من التقرش بمعنى التجمع بعد التفرق ، وذلك عندما كانت قريش متفرقة فى بنى كنانة فجمعهم قصى بن كلاب من كل أوب ، فسموا قريشا وسمى قصى مجمعاً[4] ، قال حذافة بن غانم بن عامر القرشى[5] :

قصى أبوكم كان يدعى مجمعاً　　به جمع الله القبائل من فهر

وقيل سميت قريش من التقرش وهو التكسب والتجارة . قال هشام بن الكلبى : « كان النضر بن كنانة يسمى قريشاً لأنه كان يقرش عن خلة الناس وحاجتهم ، فيسدها بماله — والتقريش هو التفتيش — وكان بنوه يقرشون أهل

---

(١) أى قبل أن تصبح سيدة مكة وحاملة زعامتها .

(٢) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militairy de la Mecque au Siécle de L'Hegire, Journal Asiatique Onzieme Série, tome VIII, 1916 pp. 525—282.

(٣) ابن كثير القرشى : البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٢ .

(٥) البلاذرى : أنساب الأشراف ج ١ ص ٢١ ، النسخة الشمسية المحفوظة بدار الكتب المصرية رقم ١١٠٣ تاريخ .

الموسم عن الحاجة ، فيرفدونهم بما يبلغهم بلادهم ، فسموا بذلك قريشاً »[1] .
وقيل أيضًا إنما سميت قريشاً بداية فى البحر تسمى « القرش » ، فشبه بنو النضر ابن كنانة لأنها أعظم دواب البحر قوة .

كذلك عرفت قبيلة قريش فى الجاهلية بعدة أسماء ، منها : العالمية ، قال أبو هلال العسكرى « كانت قريش تسمى فى الجاهلية « العالمية » ، لفضلهم وعلمهم[2] ، قال الفضل بن عباس بن عتبة :

ألسنا أهل مكة عالميـــا وأدركنا الســـلام بها رطابا

ويقول ابن عبد ربه : كانت قريش تسمى آل الله وجيران الله وسكان الله[3] .
وفى ذلك يقول عبد المطلب بن هاشم :

نحن آل الله فى ذمته لم نزل فيها على عَهْدٍ قَـدُم
إن للبيت لرباً مانعـــاً مَنْ يُرد فيـه بإثم يخـــترم

ومن أشهر الأسماء التى لُقبت بها قريش فى الجاهلية وعرفت بها لفظ « السخينة »[4] ، وظل هذا الاسم يلازمها حتى فى العهد الإسلامى ، قال كعب بن مالك :

جاءت سخينة كى تغالب ربهـــا فليغلبن مغالب الغـــلاب

وقال خداش بن زهير :

ياشدة ماشددنا غير كاذبةٍ على سخينة لولا الليل والحرم

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ٢ ص ٢٠١ .
(٢) أبو هلال العسكرى : الأوائل ص ٧٤ ، مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص٣١٣ .
(٤) السخينة : نوع من الطعام يتخذ من الدقيق ويؤكل فى شدة الدهر وغلاء السعر ، وكانت قريش تأكله فعيبت به وهجت حتى لقبت بالسخينة .
(٥) ابن هشام : السيرة ص ٧٠٤ .

ووجد عدى هذا اللقب بعد الهجرة فى أهجية مرة للنجاشى ، لذع فيها القرشيين ، حتى أن ابن قتيبة قال عنه : هجا قريشاً لعنه الله[1] ، ومن هذه الأهجية :

سخينة حتى يعرف الناس بها   قديماً ولم تعرف بمجدٍ ولا كرمْ
فيا ضيعة الدنيا وضيعة أهلهـا   إذا ولى الملك التنابلة القـدَمْ

وبعد أن جمع قصى بن كلاب قريشاً من سهول مكة ، وأسكنها منطقة الحرم أصبح سيد قريش وشريفها ، واجتمع له مالم يجتمع لغيره من المناصب ، فـكان بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة[2] .

١ — الحجابة هى سدانة الـكعبة ، فلا يفتح بابها إلا هو ، كما أنه يلى أمر خدمتها .

٢ — والسقاية هى إسقاء الحجيج الماء العذب ، وكان عزيزاً بمكة يجلب إليها .

٣ — والرفادة هى إطعام الحجاج ، حيث تمد لهم الأسمطة فى أيام الحج ، وتستمر حتى تنقضى .

٤ — والندوة هى نادى قريش ومجمع الملأ والسراة فيها ، وكانت ملاصقة للمسجد الحرام ، فسيحة وسيمة ، وفيها كانت قريش تقضى شئونها العامة .

ا — فلا تزوج امرأة إلا فى دار الندوة .

ب — ولا يعقد لواء إذا خرجت قريش للحرب إلا فى دار الندوة.

---

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ١٩٠ ، طبعة DeGoerge .

(٢) عبد الحميد العبادى : دار الندوة . إحدى موضوعات كتاب « صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى » ص ٦ — ١٢ .

حـ — ولا يعذر غلام ولا تُدرع جارية إلا فيها . وكان الغرض من ذلك هو مجرد إحصاء وتسجيل للبالغين من قريش ، الذكور والإناث[١] .

ء — ومن دار الندوة ترحل قوافل قريش للتجارة ، وفى فنائها تحط هذه القوافل حمولتها إذا رجعت .

هـ — وتعتبر دار الندوة دار مشورة قريش ، فيها يجتمع بنوها للتشاور فى أمورها ، ولم يكن يدخلها المشورة من غير بنى قصى إلا من بلغ أربعين سنة ، فى حين كان يدخلها بنو قصى وحلفاؤهم جميعا ، وقد أصبحت دار الندوة بعد بنى عبد الدار إلى حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد فباعها فى الإسلام بمائة ألف درهم[٢] .

٥ — واللواء هى راية يلوونها على رمح ، وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو ، فيجتمعون تحتها ويقاتلون عندها .

٦ — والقيادة هى تولى إمارة الجيش إذا خرجوا إلى حرب .

ولقد جعل قصى مكة أرباعاً وزعها بين قومه ، وأبقى لكل فريق منهم منازلهم التى استقروا عليها . وكان لقصى عدة أبناء ، من أشهرهم عبد الدار وعبد مناف . فأجمع قصى على أن يقسم أمور مكة الستة ، التى فيها الذكر والشرف والعز ، بين ابنيه : فأعطى عبد الدار السدانة وهى الحجابة ودار الندوة واللواء ، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة[٣] ، وبقيت قريش على ذلك زمانا . ثم أن عبد مناف رأى فى نفسه وولده ، وهم : عبد شمس وهاشم والمطلب ونوفل ، من النباهة والفضل مادلهم على أنهم أحق من عبد الدار بالأمر ، فأجمعوا

---

(١) السهيلى : الروض الأنف جـ ١ ص ٨٨ .

(٢) أبو التقا محمد بهاء الدين : تاريخ مكة المشرفة ص ٤٩ . مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية ، تحت رقم ١٥٧٠ تاريخ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان .

أمرهم على أخذ ما بأيديهم من الوظائف ، وهموا بالقتال فتفرقت قريش إلى فريقين : مال فريق منهم إلى بنى عبد مناف بن قصى ، أما الفريق الآخر فقد رأى أن لا ينزع من بنى عبد الدار ما أسنده قصى إليهم . فمشى الأكابر بينهم ودعوا إلى الصلح ، على أن تظل السقاية والرفادة لعبد مناف ، وأن تكون الحجابة واللواء والندوة لبنى عبد الدار ، وتعاقدوا على ذلك حلفا مؤكدا . فأخرجت بنو عبد مناف ومن تابعهم من قريش ، وهم : بنو الحارث بن فهر وأسد بن عبد العُزى وزُهرة ابن كلاب وتيم بن مُرة ، جفنة مملوءة طيبا وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة توكيدا على أنفسهم فسموا المطيبين . وأخرجت بنو عبد الدار ومن تابعهم وهم مخزوم بن يقظة وجمع وسهم وعدى بن كعب ، جفنة مملوءة دماً وغمسوا فيها أيديهم ومسحوا بها الكعبة ، فسموا الأحلاف « ولعقة الدم »[1] .

ووزعت الوظائف التى اختص بها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس : أما هاشم فكانت إليه الرفادة[2] مع السقاية لأنه كان موسرا ، فإذا ماحضر موسم الحج قام فى قريش وقال : « يامعشر قريش ، إنكم جيران الله وأهل بيته وإنكم يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله ، يعظمون حرمة بيته ، وهم ضيف الله ، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه ، وقد خصكم الله بذلك وأكرمكم به ، حفظه منكم وأفضل ما حفظ جار من جاره : فأكرموا ضيفه وزواره ، فإنهم يأتون شُعْثاً غبرا من كل بلد على ضوامر[3] كالقداح[4] وقد أزحفوا وتفلوا وقملوا وأرملوا[5] ، فأقروهم وأغنوهم وأعينوهم »[6] ، وكان هاشم يأمر بحياض من

(١) ياقوت : معجم البلدان .

(٢) الرفادة : من الرفد وهو الإعانة ، وقد يرفده رفداً أى أعطاه .

(٣) ضوامر : جمع ضامر وهو الجمل الذى هزل .

(٤) القداح : مفردها قدح وهى السهام .

(٥) أزحف الرجل إذا أعيت إبله ، وتفل إذا ترك الطيب ، وقمل أى كثر قمله ، وأرمل أى احتاج فيقال رجل أرمل أو امرأة أرملة أى محتاجة .

(٦) المقريزى : النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم ص ٨ ، تاريخ اليعقوبى ج ١ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

أدم فتجعل فى موضع زمزم ثم يستقى فيها من الآبار التى بمكة فيشرب الحاج ، وما يزال يطعم حجاج البيت ويسقيهم حتى يتفرقوا لبلادهم!.

أما عبد شمس فإنه نظرا لكثرة أسفاره وقلة إقامته بمكة ولأنه كان رجلا مقلا وله ولد كثير ، فقد تولى القيادة دون الرفادة ، وتولاها من بعده ابنه أمية ابن عبد شمس ثم حرب بن أمية ، فقاد الناس يوم عكاظ وغيره . ثم قاد أبو سفيان ابن حرب قريشا بعد أبيه حتى كان يوم بدر ، فقاد الناس عتبة بن ربيعة ابن عبد شمس ، فلما كان يوم أحد قاد الناس أبو سفيان بن حرب ، وقاد الناس يوم الأحزاب وكانت آخر واقعة لقريش حتى جاء الله تعالى بالإسلام[١] .

كان هاشم بن عبد مناف يسمى عمرا ، وإنما قيل له « هاشم » لهشمه الخبز لقومه بعد أن حدث جدب شديد فى مكة ، فخرج هاشم إلى الشام واشترى خبزا وأتى به إلى مكة ، وصار يهشمه لقومه ، فسمى هاشماً . ولقد حدثت منافرة[٢] بين هاشم بن عبد مناف و بين ابن أخيه أمية بن عبد شمس ، وسببها أن أمية كان ذا مال فتكلف أن يفعل كما فعل هاشم من إطعام قريش ، فعجز عن ذلك ، وشمت به ناس من قريش وعابوه ، فنافر هاشما على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة وعلى جلاء عشر سنين ، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعى جد عمرو بن الحق وكان منزله عُسْفان ، وخرج مع أمية أبو همهمة حبيب بن عامر ابن عميرة ، فقال الكاهن الخزاعى : « والقمر الباهر ، والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر »[٣] ، فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر ،

---

(١) أبو البقا محمد بهاء الدين : تاريخ مكة المشرفة ص ٥٨ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ تاريخ .

(٢) المنافرة أى المحاكمة ، يقال : نافرت فلانا إلى فلان فنفرنى عليه أى غلبنى . وكانت المنافرة عند العرب أن يسأل الخصمان الحكم : أينا أعز نفرا وأكثر نفرا ؟

(٣) الإبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف ج ١ ص ١٠٠ .

وخرج أمية إلى الشام فأقام به عشر سنين ، فكان هذا أول عداوة وقعت بين بيت هاشم و بيت أمية[1] . ولما توفى هاشم خلفه أخوه المطلب فى إقامة الرفادة والسقاية وكان ذا شرف فى القوم وفضل ، وكانت قريش تسميه « الفيض » لسماحته وفضله[2] . وقد خلف المطلب فى الرفادة والسقاية ابن أخيه « شيبة » ابن هاشم المشهور بعبد المطلب الذى لقب « بشيبة الحمد » لكثرة حمد الناس له ولأنه كان مفزع قريش فى النوائب وملجأهم فى الأمور ، فكان شريف قريش وسيدها كمالاً وفعالاً غير مدافع[3] . ولما توفى عبد المطلب قام بالرفادة والسقاية العباس بن عبد المطلب ، ولم يزل يتولاهما حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة سنة ٨ هـ فأبقاهما فى يده .

أما بنو عبد الدار فقد اختصوا بالحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة . ولم تزل الحجابة بيد عبد الدار حتى توفى ، بعد أن جعل الحجابة بعده إلى ابنه عثمان ابن عبد الدار ، ودار الندوة إلى ابنه عبد مناف بن عبد الدار . ولم يزل بنو عثمان بن عبد الدار يلون الحجابة دون ولد عبد الدار حتى كان فتح مكة ، فقبضها رسول الله من أيديهم وفتح الكعبة ودخلها ، ثم خرج رسول الله من الكعبة ومعه مفتاحها ، فقال له العباس بن عبد المطلب « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أعطنا الحجابة مع السقاية » . فأنزل الله تعالى على نبيه (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) ، فدعا رسول الله عثمان بن طلحة ، ودفع إليه المفتاح وقال « خذوها يابنى أبى طلحة بأمانة الله سبحانه ، وأعملوا فيها بالمعروف ، خالدة تالدة لا ينزعها من أيديكم إلا ظالم »[4] .

---

(١) المقريزى : النزاع والتخاصم بين بنى أمية وهاشم ص ١٠ .

(٢) ابن هشام : السيرة ص ٨٨ .

(٣) قيل إنه سمى بشيبة الحمد لأنه ولد وفى رأسه شيبة ، أو سمى بذلك تفاؤلا بأن يبلغ سن الشيب .

(٤) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٦٢ (مطبعة مكة) .

أما اللواء فكان فى أيدى بنى عبدار كلهم ، يليه منهم ذوو السن والشرف حتى كان يوم أحد فقتل عليه من قتل منهم .

علاقة قريش بقبائل العرب فى الحجاز :

قام القرشيون بعدة محاولات فى سبيل السيطرة على قبائل العرب . وكان موقع مكة الجغرافى على الطريق التجارى بين حضرموت و بلاد الحجر العربية مما أعان كثيراً على ذلك . وكانت مكة مدينة تجارية عظيمة ، لأهلها رحلات تجارية شتوية وصيفية ، والقوافل تذهب إلى مختلف الجهات حاملة البضائع من قطر إلى آخر و بلغ عددها نحو ألفين وخمسمائة جمل ، فيها مابين المائة والثلثمائة رجل[1] .

و بلغ امتداد تجارة قريش بين مختلف القبائل إلى هاشم بن عبد مناف . يقول أبو هلال العسكرى : كانت قريش تجاراً ، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة وما حولها ، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام ، فنزل بقيصرية ، وكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويدعو من حوله ، فكان من أتم الناس وأجملهم ، فذُكر ذلك لقيصر فأحضره ، فقال له هاشم « أيها الأمير إن قومى تجار العرب ، فإن رأيت أن تكتب لى كتاباً تؤمنهم به فيقدمون عليك ماتستطرف من أمتعة الحجاز ، فيكون ذلك أرخص لكم فكتب قيصر كتاب أمان لمن يقبل منهم . فخرج هاشم به فكلما مر بحى من العرب أخذ من أشرافهم الايلاف (الأمان) حتى قدم مكة »[2] .

ولا شك أن الحياة التجارية قد نمت ثروة المكيين ورفعت من شأن بلدهم

---

(١) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Mecca.

(٢) أبوهلال العسكرى : الأوائل ص ١٥ . مخطوط بدار الكتب رقم ٢٧٧٣ تاريخ .

فى نظر قبائل العرب ، حتى أن لامنس ذكر أن ثروة مكة تعادل ثروة تدمر[١] ، كما كان من وراء تبادل التجارة وانتشارها فى مكة ما عاد على أهلها بالأرباح الطائلة . ولم يكن حب أبناء الأشراف وأهل الشرف فيهم ، الفروسية ، بأقل من حبهم للتجارة التى كانوا يمارسونها منذ نعومة أظفارهم .

ولم يقتصر تجار مكة على الأرباح الطائلة التى درتها عليهم التجارة والأسفار ، بل عمدوا إلى بيع الرقيق فى بلدهم . وكانت مكة فى ذلك مقصد الأثرياء وملتقى التجار ، وظلت مكة سوقا للرقيق منذ القدم ، وظلت كذلك إلى عهد قريب ولقد شاهد رتر سوق العبيد فى مكة ، فلاحظ أن أعمارهم تتراوح بين الثامنة والتاسعة إلى الخمسين من كلا الجنسين ، وكان الرجال يرتدون القمصان المكية القصيرة[٢] ، أما النساء فكن يلبسن الملاءات الواسعة التى تغطى أجسامهن بما فى ذلك أيديهن[٣]. وكانت هذه السوق تقام فى موضع يسمى « الحَزْوَرة » ، يلى البيت الحرام[٤] .

ومما ساعد على علو مكانة قريش بين قبائل العرب ، عقدها حلف الفضول[٥] . وسبب ذلك الحلف أن رجلا من زبيد قدم مكة بتجارة له ، فاشتراها منه العاص

---

(١) لامنس : الوسوعة الإسلامية ، مادة Mecca.

(٢) مما يدل على أن معظم الرقيق كان من مكة .

(٣) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 134.

(٤) الحزورة ، بفتح الزاى وتشديد الواو ، هو موضع سوق مكة . البكرى : معجم ما استعجم ص ٤ (نشر الأستاذ مصطفى السقا) .

(٥) اختلف المؤرخون فى بيان الأسباب التى من أجلها أطلق اسم الفضول على ذلك الحلف. قيل سمى بذلك لأنهم تحالفوا أن لا يتركوا عند أحد فضلا يظلمه أحد إلا أخذوه منه ، وقيل سمى به تشبيهاً بحلف كان قديماً بمكة أيام جرهم على التناصف والأخذ للضعيف من القوى والغريب من القاطن ، وسمى حلف الفضول لأنه قام به رجال من جرهم كلهم يسمى الفضل : الفضل بن الحرث والفضل بن وادعة والفضل بن فضالة ، فقيل حلف الفضول جمعاً لأسماء هؤلاء.

ابن وائل ، غير أنه حبس ثمنها عنه ، فما كان من الزبيدى إلا أن استعدى عليه الأحلاف من قريش ، فأبوا أن يعينوه على العاص لمكانته فيهم . فلما عيل صبر الزبيدى صعد أبى قبيس[١] عند طلوع الشمس ، وقريش فى أنديتهم حول الكعبة ، فصاح الزبيدى بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائى الدار والنفر
إن الحرام[٢] لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب[٣] الفاجر الغدر[٤]

فقال الزبير بن عبد المطلب : واجتمعت هاشم وزهرة وتيم فى دار عبد الله ابن جدعان ، وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى ماعليه . فسمى ذلك الحلف حلف الفضول ، وقالوا : لقد دخل هؤلاء فى فضل من الأمر ، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى وردها إليه[٥] . وقال الزبير .

حلفت لنعقدن حلفاً عليهم وإن كنا جميعاً أهل دار
نسميه الفضول إذا عقدنا يعز به الغريب لدى الجوار
ويعلم من حوالى البيت أنا أباة الضيم نمنع كل عار[٦]

وهناك أبيات أخرى لا تختلف عن سابقتها إلا فى اللفظ :

---

(١) أبو قبيس أحد أخشبى مكة أى جبلاها ، وجاء فى القاموس أن الأخشبين هما أبو قبيس والأحمر ، بينما يقول ابن بطوطة أن جبل قيقعان هو أحد الأخشبين . مهذب رحلة ابن بطوطة ج ١ ص ١١٦ .
(٢) الحرام : الاحترام .
(٣) لثوب : لشخص .
(٤) الغدر : الكثير الغدر .
(٥) الدكتور حسن ابراهيم والدكتور على ابراهيم : النظم الإسلامية ص٣٢٨ — ٣٢٩
(٦) السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ٩١ .

يالَ قُصَيٍّ لمظلومٍ بِضَاعَتُه ببطن مكةَ نائى الدار والنفَر
وَأشْعثٍ مُحْرِمٍ[١] لم تُقْضَ حُرْمَتُه بين المقامِ وبين الحِجْرِ والحَجَر[٢]
أقائمٌ مِنْ بنى سَهم بذمتهمْ أوْ ذاهبٌ في ضلالٍ مالُ مُعتَمِر[٣]

فأجابه العباس بن مِرْداس السُّلَمىّ بقوله :

إنْ كانَ جارُكَ لمْ تَنفَعكَ ذِمَّتُه وَقَدْ شَرِبتَ بِكأسِ الذّل أنفاسا
فأتِ البيوتَ وكنْ منْ أهلها صَدَداً[٤] لاَ يَلْقَ ناديهم[٥] فُحْشاً ولا باسا
وَمَنْ يكنْ بفناء البيتِ مُعْتَصِماً يَلْقَ ابن حَرب[٦] وَيَلْقَ المرء عبّاسا
قومى قرَيشٌ بأخلاق مُكَمّلة بالجدِ وَالحزمِ ما عاشا وَماساسا[٧]
ساقى الحَجيجَ وهذا ياسِرٌ فلج[٨] وَالجدُ يُوَرثُ أخماساً وَأسدسا

وقيل إن النبى صلى الله عليه وسلم قد شهد هذا الحلف ، وقال : لقد شهدت

---

(١) الأشعث : مغبر الرأس ، متلبد الشعر أو منتشره ، لقلة تعهده بالدهن ، وهو مايحرم على المحرم فعله .

(٢) المقام : مقام ابراهيم . والحجر « بالكسر » مكان سيدنا إسماعيل بالحرم . والحجر « بالفتح » : الحجر الأسود المعروف فى الكعبة .

(٣) المعتمر : هو الذى يؤدى العمرة ، وهى أفعال مخصوصة تسمى بالحج الأصغر ، وأفعالها : الإحرام والطواف والسعى بين الصفا والمروة ، والفرق بينهما وبين الحج : أن الحج يكون فى وقت معلوم من السنة ، والعمرة تكون للانسان فى السنة كلها .

(٤) الصدد « محركة » : القصد .

(٥) فى الأحكام السلطانية : لا تلق تأديبهم .

(٦) هو أبو سفيان .

(٧) ورد هذا البيت فى الأغانى ج ١٦ ص ٦٥ هكذا :

قومى قريش وحلافى ذوابتها بالمجد والحزم ما حازا وما ساسا.

(٨) الياسر : القامر . والفالج : الغالب .

فى دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حُمرَ النَّعَم لو أُدعى به فى الإسلام لأجبتُ»[1].

ولم تكن مكة مدينة تجارية فحسب ، بل كانت فوق ذلك مركزاً دينياً يؤمه فى المواسم كثير من القبائل العربية . كما كان مكانها من الحرم يضمن لها على الغالب سلامة أرزاقها ، ويضعها بعيداً عن سطوة جيرانها من ذوى المطامع الجريئة التى كانت تدفعهم أحيانا إلى غزوة منطقة الحرم . ولا مراء أن موقع مكة كان يجلب إليها عدداً كبيراً من شذاذ القفر وخلعاء العرب خاصة أيام الحج . وطالما فكر القرشيون فى استخدام شجاعة الخلعاء وقوتهم[2] فى سبيل مصالحهم التجارية ، فكانوا يستخدمونهم للمحافظة على قوافلهم فى رحلاتهم البعيدة[3] ، كما كانوا يرون فى هؤلاء الشذاذ والخلعاء زبائن ذوى أموال لم يبذلوا الجهد الكثير فى تحصيلها فينفقونها بسهولة فى حوانيت مكة .

على أن أهل مكة لم يستطيعوا التغلب على جيرانهم القاطنين حول الحرم إلا بصعوبة كبيرة ، فكثيراً ما قامت تلك القبائل الفقيرة الضاربة فى مرتفعات تهامة المجدبة ، بمختلف ضروب الاحتيال على الحياة ، بجميع الطرق المشروعة وغير المشروعة . ومن بين هذه القبائل الفقيرة التى امتازت بالخبث والدهاء وعدم التحرج ، نجد : قبيلتى بنى غفار المتصلة بجذع كنانة ، وقبيلة بنى أسلم التى تمثل فى قبيلة خزاعة ما يمثله بنو غفار فى قبيلة كنانة . وكانت قبيلتا غفار وأسلم شرَّ سكان أهل تهامة .

---

(١) ابن هشام : السيرة جـ ١ ص ٨٦ .

(٢) من أهم صفات الخليع : الجرأة والإقدام دون مبالاة بالموت . وخير ما يمثل لنا ذلك قول عباس بن مرداس :

أقاتل فى الكتيبة لا أبالى أفيها كان حتفى أم سواها .

(ابن الأثير : أسد الغابة جـ ٣ ص ١١٣) .

(٣) Lammens : Bereceau de L'Islam, Vol. 1 p. 334.

واشتهر الغفاريون بالتلصص ونهب المسافرين حتى الحجاج فسموا « سرّاق الحجيج » ، وكثيراً ما أفسدوا على تجار مكة آمالهم ومساعيهم فنهبوا تجارتهم وعرقلوا سير قوافلهم حتى أنهم كانوا يقتلون من يستفردونه من أهلها . حدثنا ابن هشام « أن ابنا لحفص بن الأخيف أحد بنى هصيص بن عامر لؤى ، خرج يبتغى ضالة له ، وكان غلاماً وضيئاً نظيفاً ، فمر بعامر بن يزيد بن عبد مناه[1] وهو سيد بنى بكر ، فرآه فأعجبه . قال : من أنت ياغلام ؟ قال : أناابن لحفص بن الأخيف القرشى . فلما ولى الغلام ، قال عامر بن يزيد : يابنى بكر ! أما لكم فى قريش من دَم . قالوا : بلى والله أن لنا منهم لدماء ، قال : ما كان رجل ليقتل فى هذا الغلام برجُله إلا كان قد استوفى دَمَه ، فتبعه رجل من بنى بكر فقتله بدم كان له فى قريش[2]

وقد ظل البراد مثالا أعلى للخلعاء الغفاريين ، وكان يقوم بمغامراته خفية ، ثم ينشرها فى أنحاء الجزيرة العربية بكل ما تقتضيه شروط التمثيل المسرحى من زهو وافتخار ، حتى ضج القرشيون من أعماله ، فاستحلفه بنو أمية وجعلوه حليفاً لهم وأنزلوه مكة . بيد أنه لم يفارق ماشب عليه من أعمال النهب والسلب ، فعاد القرشيون إلى التذمر منه ، فترك المدينة دون أن يترك حلف الأمويين ، ثم علقت الأسطورة بمغامراته وما اتصف به من جرأة وحيلة و بطش ، فولدت منها آثار أضيفت فيما بعد إلى الآثار الأدبية المختصة باللصوص[3] .

كانت غفار شوكة فى حلق قريش ، لما كان لمنزلها من موقع جغرافى بين مكة والشام ، فإن أبا ذر الغفارى لما أسلم بين يدى الرسول أتى المسجد فشهر إسلامه بأعلى صوته ، فقام القوم إليه فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العباس فأكب عليه ، وقال : ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأنه فى طريق تجارتكم إلى الشام[4] .

---

(١) كثيرا ما دعيت غفار « بكر بن عبد مناة » حتى عرفت قبيلتهم بهذا الإسم .
(٢) ابن هشام : السيرة ص ٤٣١ .
(٣) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique, 1916.
(٤) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ ص ١٨٧ .

لذلك عمل القرشيون على جذب الغفاريين إلى حلفهم ، حتى يأمنوا شرهم حرصا على مصلحة أهل مكة التجارية والسياسية ، وذلك لما عرف عن الغفاريين من الميل إلى السلب والنهب [١] .

وقد فكر سادة البطحاء [٢] وأسياد مكة فى استخدام بدو تهامة ، سواء أكانوا ينتمون إلى كنانة أو إلى خزاعة ، للدفاع عن منافعهم السياسية والتجارية ، فكان القرشيون يختارون منهم عدداً من العسكر المأجور فى جيشهم المسمى « الأحابيش » . وكما عرف أولو الأمر فى مكة شجاعة الغفاريين وغيرهم من بدو تهامة ، فإنهم قدروا كذلك جرأة ذؤبان [٣] العرب وفتّاكهم الذين خلعتهم قبائلهم وتبرأت من جرائر أعمالهم ، فكانوا يلحقونهم بهم فى نطاقهم ، ليبذلوا نفوسهم فى سبيل مصالحهم . وتاريخ مكة إبان العصر الجاهلى مفعم بذكر فتكات البرّاد وأبى الطمحان [٤] والحرث بن ظالم الذين كانوا يلقون الرعب فى أنحاء الجزيرة العربية فى سبيل مصالح الأمويين والمخزوميين والهاشميين . وتدلنا النصوص العربية التاريخية على أن القوة العسكرية التى استأجرتها مكة للمحافظة على الأمن الداخلى والدفاع عن منافعها التجارية ، كانت عبارة عن أحياء من عرب تهامة وأخرى كانت تنزل ظاهر مكة .

---

(١) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة ج ٣ س ١٩ .

(٢) كانت قريش فريقين : فريقا ببطحاء مكة فكانت بيوتهم حول بئر زمزم وقرب ساحة الكعبة فعرفوا بقريش البطاح ، والبطاح جمع بطحاء وهى الأرض ذات الحصى ، وكانت قريش البطاح عشرة أبطن : هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم . أما الفريق الآخر فهم فريق الظواهر لأنهم استقروا بظواهر مكة . ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣١٣ .

(٣) الواقدى : تاريخه (Kremer) ص ٥٨ ، الطبرى ج ٢ ص ١٤٣٨ . وقد سمى هؤلاء اللصوص ذؤبانا لأنهم يشبهون الذئاب .

(٤) كان شاعراً خلعته قبيلته فالتحق بخدمة القرشيين ، ويقال إنه كان للزبير بن عبد المطلب الهاشمى .

وقد كثر الجدل بين المؤرخين حول كلمة «الأحابيش» والمقصود بها . يقول ابن هشام فى « السيرة » عن ابن اسحق : « الأحابيش بنو الحارث بن عبد مناة ابن كنانة ، والهون بن خزيمة بن مدركة ، و بنو المصطلق من خزاعة تحالفوا جميعاً فسموا الأحابيش لأنهم تحالفوا بواد يقال له الأحبش بأسفل مكة »[١] . لذلك قيل عن الأحابيش « إنهم حلفاء قريش السياسيون » .

غيرأن لامنس ذكر أن القول بأن وصف الأحابيش بأنهم حلفاء قريش هو ماورد فى السيرة ليس إلا[٢] ، وأن أعمال البطولة المنسوبة لعلى أبى طالب وحمزة موضع شك، وأن قبيلة قريش الحضرية قد اهتمت شديد الاهتمام بأن تؤيد شهرتها فتحمى نفسها بعدد من الأقوال والوصايا منسوبة إلى الرسول ، وأن البدو كانوا يرون فى قريش تجاراً لا هم لهم إلا جمع المال والإكثار من الأرباح وهم ماعدا ذلك جبناء لا يجرأون على تسيير قوافلهم إلا إذا دفعوا لبعض سادة القفر مبلغاً من المال فى سبيل خفارة تلك القوافل[٣] ، وأن النظرية التى ترمى إلى إقرار السيادة القرشية فى العصر الجاهلى لا تستند إلى أساس ، وأن مانسب إلى خالد بن الوليد المخزومى وعمر بن العاص السهمى وغيرهما من كبار القرشيين — قادة الفتوح العربية — لا يتفق وما ذكر من ميل قريش عن الحرب والكفاح إلى التجارة وتدبير الأموال وما يتبع ذلك من تأصل الحذر والخوف الدافعين إلى الجبن[٤] ، وأن

(١) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٢٤٥ .

(٢) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique, 1916. pp. 425-482.

(٣) راجع كتاب Fatima : Berceau de l' Islam, Vol. 1. pp. 233—433.

(٤) وقد بين المرحوم الدكتور زكى محمد حسن فى دراسات فى مناهج البحث والمراجع فى التاريخ الإسلامى (مجلة كلية الآداب مايو سنة ١٩٤٠ ص ١٧٧ — ١٧٨) رأيه فى الأب لامنس ، فقال : كان الأب لامانس من أشد المتعصبين على الإسلام ، وهو بعد ذلك من المعجبين ببنى أمية ، لأن الدولة التى أقاموها كانت تعنى بمظاهر الملك وبالعصبية العربية أكثر من عنايتها بالدين وشئونه ولأنها قامت فى الشام وتأثرت بالمدنيات القديمة التى قامت فى ربوعه . =

القرشيين قد لجأوا فى الجاهلية إلى مأجورى الأحابيش فى الدفاع عنهم والمحاربة دونهم ، واعتمد لامنس فى ذلك على ماجاء فى الأغانى من قول الشاعر :

فضحتم قريشاً بالفرار وأنتم   تمدون سودانا عظام المناكب

فأما القتال ، لا قتـال لديكم   ولـكن سيرا فى عراض المواكب

واستدل من ذلك على قدم عادة استئجار الأحابيش ، وأنها ليست من الطرق التى لجأ إليها القرشيون فى عصر قريب من الهجرة ، وأنها عاطفة متأصلة فى القرشيين منذ فجر تاريخهم . ورأى لامنس أن وصف السودان بعظم المناكب إنما يطلعنا على أنهم من أبناء حام ، فيحول بذلك بيننا و بين ما قد يتوهمه البعض ، إذ ينفون وجود السودان . ويفسرون الأحابيش بالعرب المسودة وجوههم بتأثير شمس الحجاز أو المنسوبين إلى ما يتصوره اللغويون من وجود جبل اسمه الحبشى [1] .

و يرى كليان هوارت « أن العرب كلهم ـ حضرا أو بدوا ـ كانوا يولدون رجال حرب » مما يناقض ما ذهب إليه لامنس [2] . و يقول (المرحوم) الأستاذ عبد الحميد

= وكان المستشرقون أنفسهم يعرفون فى لامانس هذا العيب ويأخذونه عليه ، ولـكنه كان واسع الاطلاع ، وحسب الدارس نفعاً ومرانا فى التاريخ الإسلامى أن يقرأ لامانس وأن يهضم ما يروقه من أبحاث وأن يبحث وينقب ليستطيع الرد على الجزء الباقى فيها وأن يراجع النصوص التى كان لامانس يبنى عليها أحكامه ليرى كيف كان يجحف فى تفسير بعضها ويحمل بعضها الآخر مالا تحتمل . وقصارى القول أن قراءة لامانس ومن على شاكلته رياضة علمية ميدانها الـكتب والمـكتبات وتقرع فيها الحجة بالحجة ويدفع النص الواحد بالنصوص الـكثيرة ، ثم قال (ص ١٨٢) من بحثه المذكور « كتب لامانس كثيراً فى تاريخ بنى أمية ولـكن ما كتبه يشوبه التعصب الدينى أولا والتعصب لبنى أمية بعد ذلك »

وقال (المرحوم) الدكتور زكى حسن فى مجلة المقتطف ـ ديسمبر سنة ١٩٣٧ عن لامنس : « ومع أن هذا الراهب المؤرخ أخذ كثيراً من آرائه عن شيوخ المستشرقين فإنه انتحى ناحية ميزته عنهم وبالغ فى التعصب على الإسلام حتى أفسد ذلك عله فى بعض النواحى وجعل المؤرخين وعلى رأسهم المستشرقون يشكون فى أمانته العلمية ويتهمونه بركوب متن الشطط » .

(١) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Meque. Journal Asiatique, 1916.

(٢) Cl. Huart : Journal Asiatique, 1913, p. 216.

العبادى : إن المدلول التاريخى لـكلمة الأحباش متمش مع مدلولها اللغوى ، غير أنه يجعل مناط التسمية تحالف هذه القبائل ومحالفتها قريشا بمكان معين ، وهو أمر لا يؤثر بحال فى صحة النتيجة التى وصلنا إليها بهذه المقارنة ، وهى أن الأحابيش عرب . والحق إنا بإزاء قبيلة عربية آخذة فى التـكون بواسطة الحلف الذى كان سبباً فى تـكون كثير من القبائل العربية القديمة . ولولا مجىء الإسلام وحيلولته دون تمام المزج بين الأحياء المؤلفة للأحابيش لأصبحت هذه الأحياء قبيلة عربية صحيحة ، على نحو ما أصبحت البطون التى منها تألفت قبيلتا تنوخ والرباب[١] . وقال ابن هشام : أنه كان فى معركة أحد « أحابيش وعبدان أهل مكة »[٢] .

ولا بد أن نفرق بين عبيد مكة وأحابيشها الذين كانوا يؤلفون القوة العسكرية المدافعة عن تلك الجمهورية التجارية ، التى كثيراً ماتولى قيادتها الغفاريون لاشتهارهم بالجرأة والبطش وعدم احترامهم الـكعبة فى بعض الأحيان[٣] . كان عبيد مكة من الحبش من فلول جيش أبرهة ، أو ممن شرى بالمال لخدمة أشراف مكة وتجارتها . وكان أقيال اليمن على الرغم مما تناقلوه أباً عن جد من التذكارات المؤلمة عن احتلال الحبش بلادهم يتخذون حرسهم من رجال الحبش . وكان أحباش مكة عبارة عن حلف من العرب قوامه أحياء من كنانة وخزيمة وخزاعة . يقول ابن عبد ربه « ومن بنى كنانة الأحابيش مَبْذُول وعَوف وأحمر وعَوْن وهم بنو الحارث ابن عبد مناه ومنهم الُحليس بن عمرو بن الحارث وهو رئيس الأحابيش يوم أحد »[٤] .

روى الطبرى فى خبر الحديبية عن ابن اسحق ، أن النبى دعا خراس بن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش بمكة وحمله على جمل له يقال الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه

---

(١) عبد الحميد العبادى (المرحوم) : أحابيش قريش ، هل كانوا عربا أو حبشا ؟ بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٣٢ .
(٢) ابن هشام : السيرة ص ٥٦٠ — ٥٦١ .
(٣) ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ١٥٠ .
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٤٠ .

ماجاء له . فعقروا به جمل رسول الله وأرادوا قتله فمنعته الأحابيش وعندئذ خلوا سبيله حتى أتى رسول الله[١] . وذلك يبين أن الأحابيش كانوا نداً لقريش فى القوة والعدد وأن حلفهم معهم إنما كان يقوم على التناصر والتآزر . وروى الطبرى فى خبر الحديبية أيضاً عن ابن إسحاق « أن قريشاً بعثوا للرسول صلى الله عليه وسلم ، الحليس بن علقمة ، وكان يومئذ سيد الأحابيش وهو أحد بنى الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهَدْىَ فى وجهه حتى يراه ، فلما رأى الهَدْىَ يسيل عليه من عرض الوادى فى قلائده قد أكل أو باره من طول الحبس ، رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى . فقال : يامعشر قريش ! إنى قد رأيت مالا يحل ، صد الهدى فى قلائده قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله ، قالوا له أجلس فإنما أنت رجل أعرابى لا علم لك . . . فغضب الحليس ، وقال : يامعشر قريش ! والله ماعلى هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم أن تصدوا عن بيت الله من جاء معظماً له . والذى نفس الحليس بيده لتخلق بين محمد و بين ماجاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد ، فقالوا له : مه ! كف عنا ياحليس حتى نأخذ لأنفسنا مانرضى به »[٢] .

ورغم مارواه الطبرى ، فقد وجد لامنس أن هناك « شبهاً غريباً بين لفظ الأحابيش واسم سكان حدود أريتريا الغربية » ووجد « أن لغويى العرب أخذت تولد الشروح والمشابهات المتنوعة للفظ الأحابيش ولا شىء بعد تلك المخيلة فى سبيل الشرح والتعديل ، فكلما غرب اللفظ غرب شرحه ، و بعد استخراجه يسهل ذلك مافى أصول اللغة من مرونة وما فى تصاريفها وصيغتها من لين وتنوع »[٣] . ثم

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ص ١٤١٨ .

(٢) الطبرى : نفس المصدر ص ١٥٤٢ .

(٣) Lammens : Les Ahabies et l'Organisation Militaire de la Mecque. Journal Asiatique. 1916.

قال : إن يكن الأحابيش حلفاء قريش السياسيون ، فأى معنى محقر فى اسمهم وكيف صارت اللفظة أحابيش ، من أقذع الشتائم وأقبح النعوت كما نراها فى فم نابغة الهجاء حسان ، وهو من أعرف أبناء عصره بقيمة الألفاظ الهجائية ومواضع السباب ، إذ نراه لا يتردد فى استعمالها عند ماأراد هجو بعض أعداء النبى من البدو فقال : أنتم أحابيش جمعتم بلانسب . هذا السهم الدقيق المسدد لا يقع دون الهدف ، وبالتالى فلا يخلق بحسان إن بريشه إذا فهمنا الأحابيش مايقصد المحدثون أن يفهمونا إياه من كونهم حلفاء قريش السياسيين ، وهم لا يتعبون هذا التعب إلا فى سبيل تخليص قريش من عار الالتجاء إلى عبدان أجانب عن العرب » .

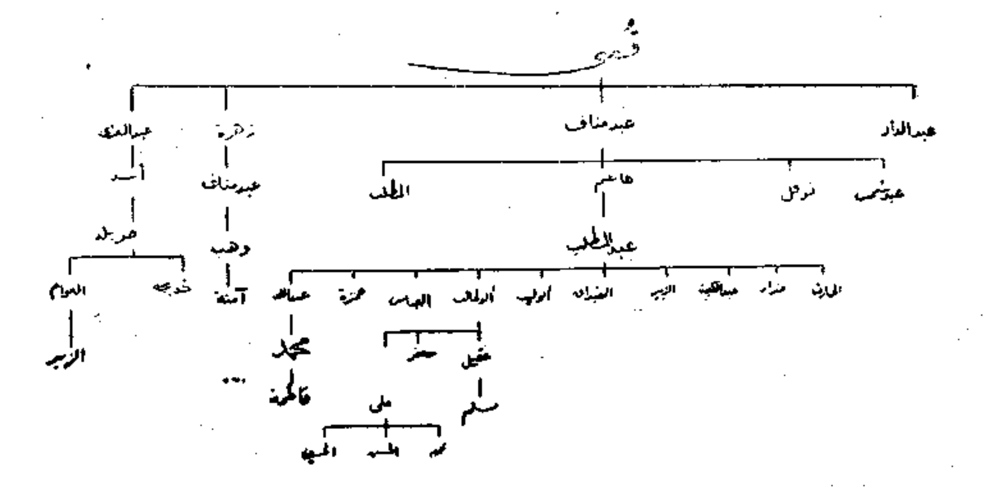
ولم يرض مؤرخو العرب أن يخلط بين العبيد الحُبْشان وأحابيش قريش الذين يعتبرون بدواً من قبائل تهامة وقبائل جنوبى الحجاز من كنانة وخزاعة . يقول ابن قتيبة « إنهم عرب خُلص[1] كانت قريش تستدعيهم للاشتراك معها فى الحروب . ولـكن الرسول صلى الله عليه وسلم عرف كيف يفل قوتهم ، بطريق السياسة وطريق العنف معاً : فأما من حيث السياسة فقد اجتذبت إلى جانبه قبائل خزاعة وكنانة التى تنتمى إليها أحياء الأحابيش . ولما كان صلح الحديبية أخذت خزاعة صراحة جانب الرسول ودخلت فى عقده كما دخلت بكر بن عبد مناه ابن كنانة عقد قريش ، وأما العنف فنتبينه فى غزوة بنى المصطلق »[2] .

هذه هى قبيلة قريش ، وهؤلاء هم الأحابيش حلفاء قريش السياسيون ، الذين كانت تستأجرهم قريش للدفاع عن قوافلها التجارية من بين بدو تهامه الضاربين بجوارها .

---

(١) ابن قتيبة : المعارف ص ٢٠٧ .

(٢) عبد الحيد العبادى (المرحوم) : أحابيش قريش ، هل كانوا عربا أو حبشا ؟



٢ — يثرب :

هى إحدى مدن الحجاز المتحضرة ، وقد ورد ذكرها بهذه التسمية فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا) ، على أنها عرفت بعد ذلك بالمدينة وظل هذا الاسم ملازما لها حتى الآن .

وتقع يثرب فوق هضبة بلاد العرب الوسطى ، وبذلك تختلف عن مكة التى تعتبر من مدن السهل الساحلى وتُحَدّ موقعها تقريباً فى منتصف مجموعة من الجبال ترتفع نحوها على شكل حدوة الحصان تاركة جهتها المفتوحة فى جنوبها الشرقى[1] . وأشهر هذه الجبال ، جبلا أحد وثور ويقعان فى الشمال .

وتمتاز معظم أراضى يثرب بسهولة التربة ، إلا أنها تنحدر نحو الشمال متفقة فى ذلك مع الانحدار العام للهضبة الوسطى من الجزيرة العربية ، وتربتها فى الجهة الجنوبية مشبعة بالمياه التى يندر وجود مثلها فى سائر الحجاز ، وتظهر هذه المياه وتكثر بعد نزول الأمطار وتحدر السيول ، وتفور بعض مياه الأمطار والسيول

---

(١) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 512.

تحت الأرض وتستقر فى جوفها[١] . وكان لذلك أثره فى انتشار الزراعة التى تعتمد على مياه الآبار بها ، وهى من هذه الناحية تختلف عن مكة التى وصفت فى القرآن بأنها (وادى غير ذى زرع) .

ولقد كان هناك فى المدينة موضع خاص يسمى « العقيق » لا يبعد عنها بأكثر من ميلين أو ثلاثة من جهتها الجنوبية الغربية[٢] . وكانت السيول الهابطة من الجبال حوله تنحدر إليه فتكثر به المياه التى تروى البساتين المنبثة هناك ، وتنعش نفوس الأعراب الذين يحلون بالمدينة بعد طول الترحال والتجول وتعقد حلقات الطرب فى ذلك الموضع الفريد ، فينشد الشعراء ويغنى المغنون تحت ظلال الأشجار والنخيل .

و « المدينة »[٣] ، بلدة زراعية تكثر بها الآبار والأشجار ، وتفوق مكة من حيث ثمارها ومنتجاتها ، ومناخها على ما فى صيفها من حر وشتائها من برد خير من مناخ مكه أيضا . ولذلك اختلف تاريخ المدينتين إبان العصر الجاهلى ، لأنهما تأثرتا بطبيعتهما الجغرافية أكثر من أى شىء آخر .

وكان أول من نزل المدينة بعد الطوفان ، قوم يقال لهم صَعْل وفالح ، فغزاهم داود عليه السلام حتى هلكوا[٤] . وكان العمالقة ينزلون غزة وعسقلان وساحل بحر الروم وما بين مصر وفلسطين ، ثم سكنوا مكة والمدينة والحجاز كله . وكان ساكنو المدينة منهم بنوهف ، و بنو سعد ، و بنو الأزرق ، و بنو مطروق ، وكان ملك الحجاز منهم رجل يقال له الأرقم ينزل ما بين تيماء وفدك[٥] .

---

(١) بول Buhl : الموسوعة الإسلامية ، مادة Al Madina

(٢) لامنس : للموسوعة الإسلامية ، مادة Akik

(٣) يقال إن المدينة تسعة وعشرين إسماً منها طيبه والمباركة والعاصمة . وروى فى قول النبى صلى الله عليه وسلم « رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق » قالوا المدينة ومكة.

(٤) أبو البقا محمد بهاء الدين : تاريخ مكة المشرفة ص ٢١٦ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ تاريخ .

(٥) الأصفهانى : الأغانى ج ١٩ ص ٩٤ .

ولم يستمر العمالقة طويلا فى احتلال المدينة لأنهم كانوا أهل عز و بغى شديد ، مما جعل موسى بن عمران يرسل إليهم بعض جنوده ليقتلوهم . و يقول السمهودى عن هذه الغزوة اليهودية : « كانت العماليق قد انتشروا فى البلاد فسكنوا مكة والمدينة والحجاز كله ، وعتوا عتواً كبيراً ، فلما أظهر الله تعالى موسى على فرعون ووطىء الشام ، وأهلك من بها بعث إليهم جندا من بنى إسرائيل للحجاز ، وأمرهم أن لا يستبقوا منهم أحدا بلغ الحلم ، فقدموا ، فأظهرهم الله ، فقتلوهم . وأصابوا ابن ملكهم الأرقم ، وكان أحسن الناس وجها فلم يقتلوه وأخذوه معهم إلى موسى الذى كان قد توفى قبل عودتهم ، فلم يسمح لهم اليهود بالإقامة بالشام لأنهم خالفوا أمر نبيهم ، فرجعوا إلى الحجاز وأقاموا به ونزل جمهورهم بيثرب »[١].

كان هذا هو أول سكنى اليهود فى يثرب ، فانتشروا فى نواحى المدينة كلها إلى العالية فاتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع . و بعد أن تغلب الرومان على بنى إسرائيل فى الشام ، تشتت اليهود فى أنحاء متفرقة حول فلسطين فى القرنين الأول والثانى الميلاديين . وكانت جزيرة العرب من أنسب البقاع للاعتصام بها من ظلم الرومان ، وذلك لبعدها عن سطوة النسر الرومانى ، ولصعوبة سير الكتائب الرومانية المنظمة فيها إذا ما فكر الرومان فى مطاردة اليهود ، وعلى ذلك فقد استوعبت بلاد العرب الشمالية عددا كبيراً من هؤلاء اليهود المضطهدين ، ونزل معظمهم فى يثرب لسهولة الحياة بها . وقد عدّد لنا الأصفهانى أحد عشر اسما من أسماء قبائل بنى اسرائيل الذين سكنوا المدينة حتى نزلها الأوس والخزرج وهم : بنو عكرمة ، و بنو ثعلبة ، و بنو محمر ، و بنو زعورا ، و بنو قينقاع . و بنو النضير ، و بنو قريظة ، و بنو بهدل و بنو عوف ، و بنو الفصيص[٢] .

---

(١) السمهودى : خلاصة الوفا بأخبار دار المصطفى ص ١٠٩ .
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص ٩٤ .

ولقد اختلط اليهود بالعرب المقيمين فى يثرب، وأشهرهم : بنو الحرمان ، و بنو مرثد ، و بنو معاوية ، و بنو الشظية . و بلغ من اختلاطهم بهم أن تكلموا اللغة العربية ، ولكنها كانت عربية مشوبة بالرطانة العبرية ، كما أنهم تأثروا بنظم العرب الاجتماعية فعاشوا معيشتهم القبلية . ولقد أدخل اليهود إلى بلاد العرب أنواعا جديدة من الأشجار ، وطرقاً للحراسة والزراعة بالآلات ، كما اشتغل اليهود بالتجارة وعنوا بها عناية كبيرة حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد كأبى رافع الخيبرى ، واشتغلوا بصناعة الأسلحة كالسيوف والدروع وسائر الآلات الحديدية المعروفة وقتذاك[١] . واشتهر بنو قينقاع بصناعة الصياغة حتى كان لهم فى يثرب حى خاص يعرف بحى بنى قينقاع[٢] .

ظل اليهود مقيمين فى يثرب مع من بها من العرب حتى حدث سيل العرم فى مأرب ونزح إليهم من بلاد اليمن الأوس والخزرج . ولقد اختلفت روايات المؤرخين فى سبب هجرة الأوس والخزرج إلى المدينة ، كما تضاربت بشأنه أقوال المحدثين : فابن هشام يذكر أن عمرو بن عامر رأى جرذاً يحفر فى سد مأرب ، فعلم أنه لابقاء للسد بعد ذلك وعزم على الهجرة ، فاختلق سبباً للرحيل بأن أوعز إلى أصغر أولاده أن يلطمه عندما يغلظ له فى القول ، وعندما حدث ذلك قال : أقيم ببلد لطم وجهى فيه أصغر ولدى ، ولهذا باع عمرو أملاكه وخرج من اليمن ، و بعد رحيله قالت الأزد : لا نتخلف عن عمرو بن عامر فباعوا أموالهم وخرجوا معه ، فساروا حتى نزلوا بلاد عك مجتازين يرتادون البلدان ، فحاربتهم عك فكانت حربهم سجالا ، ثم ارتحلوا عنهم فتفرقوا فى البلدان : فنزل آل جفنة بن عمر بن عامر الشام ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت خزاعة مراً ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان[٣] . أما السمهودى فيرى أن عمرو بن عامر قد توفى

(١) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٧ .
(٢) ولفنسون : نفس المصدر ص ١٩ .
(٣) ابن هشام : السيرة ص ٨ .

قبل سيل العرم وصارت الرئاسة إلى أخيه عمران بن عامر ، وقد أنذرته طريفة الـكاهنة أن ماء غامرا سيغمر البلادَ ويحولها إلى خراب بلقع . ولما سألها عن موعده أخبرته بأن ذلك سيكون عندما يرى جرذاً يحفر سد العرم ، ولما رأى عمران أن الجرذ تحفر فى السد أيقن أن الأمر قد وقع وأن الخراب حل على مأرب ، فاحتال مع بنى أخيه على الهجرة[1] . ويرى الأصفهانى أن الهجرة إنما حدثت بعد حدوث السيل الذى خرب السد[2] .

ولما طال الزمن على هذا السد وأهمله الملوك ، تصدعت جوانبه ، ولم يعد يحتمل تدفق السيول ، ففاضت مياهه على ماحوله من القرى والمزارع . ويظهر أن السيل قد حدث وأهل البلاد مقيمون بها ، كما يستدل من قوله تعالى فى سورة سبأ (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم ، وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل) . وكان من أثر ذلك الحادث الذى لا يتطرق الشك فى حدوثه[3] أن هاجر عدد كبير من بلاد اليمن إلى الجهات الشمالية والشرقية من جزيرة العرب : فنزل آل جفنة الشام ، ونزلت خزاعة مراً[4] ، ونزلت أزد السراة السراة ، ونزلت أزد عمان ، ونزلت الأوس والخزرج يثرب .

نزل الأوس والخزرج على اليهود فى المدينة ، فأقاموا معهم وعاشوا بجوارهم ، وكانت علاقتهم بهم أول الأمر علاقة ود وصفاء ، حتى أثرى الأوس والخزرج

---

(١) السمهودى : خلاصة الوفا ص ١١٢ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٩ ص ٩٥ .

(٣) O'Leary de Lacy : Arabia before Muhammed, p. 89.

(٤) يقول ابن هشام « خزاعة بنو حارثة بن عمرو بن عامر ، وإنما سميت خزاعة لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمر الظهران وأقاموا بها » . السيرة ص ٥٩ .

لاشتغالهم مع اليهود بالتجارة والزراعة وسائر مرافق الحياة الاقتصادية فى المدينة . وفى ذلك يقول السمهودى : « وجد الأوس والخزرج الأموال والآطام بأيدى اليهود والعدة والقوة معهم ، فمكثوا ماشاء الله ، ثم سألوهم أن يعقدوا بينهم جواراً وحلفاً يأمن به بعضهم من بعض ، ويمتنعون به ممن سواهم . فتحالفوا وتعاملوا وظلوا كذلك زماناً طويلا ، وأثرت الأوس والخزرج وصار لهم مال وعدة ، نخافت قُرَيظة والنضير[١] أن يغلبوهم على دورهم فتنمروا لهم حتى قطعوا الحلف »[٢] .

وظل الأوس والخزرج أهل عز ومنعة فى بلادهم ، حتى وقعت بينهما حروب طويلة اشتركت فيها بعض القبائل العربية ، ومن هذه الحروب : يوم الصفينة وهو أول يوم جرت الحرب فيه ، ويوم السرارة ، ويوم وقاق بنى خطمة ، ويوم حاطب ويوم حضير الكتائب ، ويوم أطم بنى سالم ، ويوم البقيع ، ويوم بعاث ، ويوم مضرس ومعبس ، ويوم الدار ، ويوم بعاث الآخر ، ويوم فجار الأنصار[٣] . وأدت الحروب التى وقعت بين الأوس والخزرج بسبب مابينهما من دماء وثارات إلى جعل الحياة فى المدينة مضطربة أشد الاضطراب . وكان النصر فى أول الأمر حليف الخزرج على الأوس ، حتى اضطرت الأوس حوالى السنة العاشرة قبل الهجرة أن تسعى لمحالفة قريش على الخزرج . على أن قريشاً كانت أحرص من أن تزج بنفسها فى حرب لا تعود عليها بفائدة . لذلك أبت أن تتورط فى ذلك الحلف وردت رسل الأوس خائبين .

عادت الأوس تلتمس الحلف من يهود يثرب الذين كانوا قد وقفوا فى تلك الحرب موقف الحياد ، واستطاعت أن تعقد حلفاً مع بنى قريظة والنضير ، فلما

---

(١) كان يقال لبنى قريظة وبنى النضير خاصة من اليهود ، الكاهنان ، نسبوا بذلك إلى جدهم الذى يقال له الكاهن . الأغانى جـ ١٩ ص ٥٩ .

(٢) خلاصة الوفا ص ١١٥ .

(٣) اليعقوبى : تاريخه جـ ٢ ص ٢٧ .

بلغ أمر الحلف الخزرج ، أرسلت إلى اليهود تحذرهم عاقبة هذا الحلف . غير أن اليهود أخبروا الخزرج أنهم لا يرغبون فى الحرب ، وعندئذ طلبت منهم الخزرج رهناً أربعين غلاما من غلمانهم ليضمن حيادهم ، فامتثل اليهود لأمرهم وسلموا لهم الضمان المطلوب . وما ابثت الخزرج أن خيَّرتهم بين الجلاء عن يثرب والنزول لهم عن أرضهم أو قتل غلمانهم . وقد اعتزم اليهود الجلاء فعلا عن المدينة ، بعد أن رأوا أن الخزرج قد لجت فى طغيانها ، إلا أن كعب بن أسد القرظى حملهم على العدول عن موقفهم وطلب منهم محالفة الأوس صراحة ، فما كان من الخزرج إلا أن قتلوا الغلمان وعقدوا حلفاً مع قبيلة بنى قينقاع اليهودية .

وهكذا انقسمت يثرب إلى معسكرين كبيرين ، انحازت القبائل اليهودية إلى كل منهما . ولم يلبث أن التقى أولاد قيلة[1] ببعاث ، قبيل الهجرة بنحو خمس سنين ، وانتهى الأمر فيه بانتصار الأوس على الخزرج بعد أن قتل من الفريقين عدد كبير من أشرافهما . وتصافح الأوس والخزرج بعد بعاث ، واتفقا على إقامة حكومة فى يثرب ، ممثلة فى شخص عبد الله بن أبى الخزرجى وهموا بتتويجه فعلا ، وأقبلوا ينظمون له الخرز ـ شارة الملك عندهم ـ ولكن حدث مالم يكن يدور بخلدهم ، إذ بينما كانوا يتأهبون لهذا الحدث الكبير ، هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب ، فَدَان له أهلها بالطاعة والولاء ، وعدلوا عن تولية عبدالله بن أبى الخزرجى ، ولذلك ظل معارضاً للنبى فى نزاعه مع قريش وسمى هو وأتباعه ، فى القرآن الكريم ، باسم « المنافقين » .

---

(١) هم الأوس والخزرج . وأمهما قيلة بنت كاهل بن عذرة بن سعد . وقال ابن الكلبى : قيلة بنت الأرقم بن عمرو .

٣ — الطائف :

تقع الطائف في الجنوب الشرقي من مكة على نحو خمسة وسبعين ميلا ، وترتفع عن سطح البحر نحو خمسة آلاف وأربعمائة قدم[١] ، وتمتاز بخصوبة تربتها وجودة مناخها ، وثمارها لا تختلف عن ثمار الشام حتى قيل إنها كانت قرية بالشام نقلت إلى الحجاز[٢] . ويقول بركهارت[٣] عن الطائف : « إنها أجمل بقعة في الحجاز وأبهج موضع شاهدته في طريقي إلى الحجاز بعد رحيلي من لبنان »[٤] ، ولا غرو فقد أعجب بالطائف كل من زارها وقضى بعض أيامه بين ربوعها . يقول رتر Rutter : « لما أصبحت فعلا بين رياض الطائف ، تحققت مما لم تكن تألفه عيناي في الجزيرة العربية ، فقد كانت أشجار الخوخ واللوز محملة بأزهارها المتفتحة ، وما أعجب أن تجد جمال الربيع في هذه البقعة من جزيرة العرب المحرقة المجدبة، حتى قلت لرفيقي أن ما يزعمه أهل مكة عن الطائف بأنها كانت فردوساً من رياض الشام ، حمل على أجنحة الملائكة إلى الحجاز ، حقيقة واقعة »[٥] .

وكان من أثر ارتفاع الطائف عن سطح البحر وكثرة المزارع والنخيل بها ، أن اتخذها أشراف مكة مصيفاً لهم ، حيث كانوا يتمتعون بالراحة مدة الصيف في قصورهم التي أنشأوها هناك[٦] ، وكانت حاصلاتها تشمل العسل والبطيخ والموز والتين والعنب والزيتون والسفرجل[٧] ، ويقول ياقوت « إنها ذات مزارع ونخل وأعناب وموز وساير الفواكه ، وبها مياه جارية وأودية تنصب منها إلى تبالة . . . وفي أكنافها كروم على جوانب ذلك الجبل ، فيها من العنب العذب

---

(١) الموسوعة الإسلامية ، مادة Taif

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٣) ولد جون لويس بركهارت السويسري عام ١٧٨٤ ، وسافر إلى الحجاز عام ١٨١٤ حيث جال بين ربوعه ، ثم رجع إلى القاهرة حيث توفي عام ١٨١٦ ونشر كتابه المسمى « أسفار في الجزيرة العربية » في لندن عام ١٨٢٩ .

(٤) Burckhardt : Travels in Arabia, p. 65.

(٥) Rutter : Holy Cities of Arabia, p. 331—332.

(٦) Lammens : Taif à la Veille de l'Hegire, p. 45.

(٧) ابن بطوطة : تحفة النظار ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ (طبعة باريس ١٨٩٣م) .

مالا يوجد مثله فى بلد من البلدان ، وأما زبيبها فيضرب بحسنه المثل ، وهى طيبة الهواء شامية ربما جمد فيها الماء فى الشتاء ، وفواكه أهل مكة منها »[١] .

وقد زاد موقع الطائف الطبيعى على طريق القوافل — الممتد من جنوب بلاد الحجر — من أهميتها كمركز تجارى ، فضلاً عن كونها مدينة صناعية ، يقول الهمدانى : « الطائف مدينة قديمة جاهلية وهى بلد الدباغ يدبغ بها الأهب الطائفة المعروكة »[٢] ، واشتهرت ورود الطائف بالعطر الذى كان يمد أهل مكة بما يحتاجون إليه من طيب ، أما خمر الطائف فقد كان برغم كثرة الطلب عليه أقل ثمناً من النوع الذى كانوا يجلبونه من الشام والعراق .

كانت الطائف تسمى قديماً وجا بوج بن عبد الحى ، أحد العمالقة الذين نزلوها وهو أخ لأجاء الذى سمى به جبل طىء[٣] . وقد ذكر على بن عراق عن صاحب كتاب المطالع « أن وادى وج هو أرض الطائف جميعها »[٤] . على أن هذا الاسم لم يذكر فى القرآن الكريم ، وإنما ورد بعض أحاديث العرب مثل قول خولة بنت حكم «إن آخر وطأة وطأها الله بوج » ، وقيل إن المراد بالقريتين فى قوله تعالى (لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ، إنهما مكة والطائف[٥] .

كانت قبيلة ثقيف تقيم فى الطائف ، ولقد أوضح البكرى سبب إطلاق هذا الاسم عليها بقوله : « بعد أن افترق قسى[٦] والنخع ، مضى قسى حتى

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٢) الهمدانى : صفحة جزيرة العرب ص ١٢٠ (طبع ليدن) .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .

(٤) على بن عراق : نشر اللطائف فى قطر الطائف ص٨ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٣٣ تاريخ .

(٥) على بن عراق : نفس المصدر ص ٣ .

(٦) هو قسى بن منبه بن بكر بن هوزان .

أتى وادى القرى فنزل بعجوز يهودية كبيرة لا ولد لها ، فكان يعمل بالنهار ويأوى إليها بالليل ، فاتخذها أماً واتخذته ابنا . فلما حضرتها الوفاة ، قالت له : يا هذا لا أحد لى غيرك وقد أردت أن أكرمك لإلطافك إياى ، فإذا أنت واريتنى فخُذ هذا الذهب وهذه القضبان من العنب ، فإذا أنت نزلت وادياً تقدر على الماء فيه فاغرسها فيه ، فإنك تنتفع بها ، وماتت . فأخذ الذهب والقضبان ثم خرج إلى وج وهو الطائف ، وهنالك أمّنه عامر بن الظرب العدوانى سيد قيس وحكمها ، وزوجه ابنته زينب فولدت له عوفا وجشم ودارساً ، ثم هلكت زينب فزوجه ابنة له أخرى يقال لها آمنة ، فولدت له ناصر بن قسى والمسك بنت قسى ثم غرس قسى تلك القضبان بوادى وج فأنبتت ، فقال أهالى وج : قاتله الله ما أثقفه ، حين ثقف عامراً حتى أمّنه وزوجه ، وأنبت تلك القضبان حتى أطعمت ، فسمى ثقيفاً يومئذ »[1] .

وأقامت ثقيف مع عدوان بن عمرو بن قيس إلى جانب الطائف ، وتكاثر نسلها حتى أضحت قبيلة كبيرة فى العدد والمنعة ، وحدث أن نزلت عامر بن صعصعة ناحية من الطائف مجاورين لعدوان ، ثم استطاعوا أن يخرجوا عدوان من الطائف ويستولوا عليها . أما كيفية استيلاء ثقيف على الطائف جميعها ، فقد ذكر البكرى «عرفت ثقيف فضل الطائف فقالوا لبنى عامر : إن هذه بلاد غرس وزرع ، وقد رأيناكم اخترتم المراعى عليها فأضررتم بعمارتها وأعمالها ونحن أبصر بعملها منكم فهل لكم أن تجمعوا الزرع والضرع وتدفعوا بلادكم هذه إلينا ، فنثيرها حرثاً ونغرسها أعناباً وأشجاراً . . . فإذا بلغت الزروع وأدركت الثمار شاطرناكم ، فكان لكم النصف بحقكم فى البلاد ولنا النصف بعملنا فيها . فدفعت بنو عامر الطائف إلى ثقيف بذلك الشرط ، فأحسنت ثقيف عمارتها ، فكانت بنو عامر تجىء أيام الصرام ، فتأخذ نصف الثمار كلها كيلا وتأخذ ثقيف النصف الثانى ،

(١) البكرى : معجم ما استعجم ج ١ ص ٦٥ — ٦٦ ، نشر الأستاذ مصطفى السقا .

وكانت عامر وثقيف تمنع الطائف ممن أرادهم فلبثوا بذلك زماناً من دهرهم ، حتى كثرت ثقيف فحصنوا الطائف وبنوا عليها حائطا يطيف بها ، فسميت الطائف ، فلما قووا بكثرتهم وحصونهم امتنعوا من بنى عامر فقاتلتهم بنو عامر فلم تصل إليهم ولم يقدروا عليهم »[١] .

وهكذا انتصرت ثقيف وتفردت بملك الطائف ، فضربتهم العرب مثلا ، قال أبو طالب بن عبد المطلب :

منعنا أرضنا من كل حى   كما امتنعت بطائفها ثقيف
أتاهم معشرٌ كى يسلبوهم   فحالت دون ذلكم السيوف[٢]

كانت الطائف من مدن الحجاز القوية حتى قرنت بمكة وأصبحت تدانيها فى القوة والأهمية ، ولا غرو فقد ورد ذكرها فى عدة أحاديث منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم ، تبين مقدار أهميتها وعظيم مكانتها . روى أحمد بن حاتم الموصلى أن الرسول رأى عبد الله بن عباس فقال : لو كان بعدى نبى مرسل لكان عبد الله بن عباس ، اللهم فقهه فى الدين وانشر منه وعلمه التأويل وبارك فيه إنه سيدفن بالطائف ، فمن زاره بها فكأنما زار قبرى . وعن عبد الله بن عباد ابن جعفر ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أول من أشفع له يوم القيامة أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف[٣] .

وقال كنانة بن عبد ياليل بن عمرو يفخر بالطائف ويذكر فضلها :

كأن الله لم يؤثر علينا   غداة تُجزِّئُ الأرض اقتساما
عَرَفْنا سهمنا فى الكف يهوى   لدى وَجٍّ وقد قسمَ السهاما

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم جـ ١ ص ٧٧ — ٧٨ .
(٢) ياقوت : معجم البلدان ، مادة الطائف .
(٣) على بن عراق : نشر اللطائف فى قطر الطائف ص ٢ مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٢٣٣ تاريخ .

فلما أن أبان لنا اصطفينا سَنامَ الأرض إن لها سناما
أسافلها منـــازل كل حى وأعلاها لنا بلداً حراماً[١]

وصارت الطائف بعد الفتوحات الإسلامية تابعة لمكة ، وانحط شأن البلدين معا ، بينما اتسع نفوذ المدينة وصارت الزعامة إليها على مدن الحجاز[٢] ، واستمرت الطائف محافظة على مركزها القديم ، وعدت مصيفاً لأشراف العرب كما كانت فى الجاهلية تماما ، وكانت زينب بنت يوسف أخت الحجاج تشتو بمكة وتصيف بالطائف . كما روى الأصفهانى : أن عائشة بنت طلحة لما تأيمت[٣] كانت تقيم بمكة سنة وبالمدينة سنة وتخرج إلى مال لها عظيم بالطائف وقصر كان لها هناك فتتنزه فيه وتجلس بالمشيات فيتناصل بين يديها الرماة[٤] .

وتدين الدولة العربية للطائف بما أخرجته لها من رجالات فى الشؤون الإدارية والحربية ، منهم زياد بن أبية والمغيرة بن شعبة وهما القائدان المحنكان فى جيش معاية ، والحجاج بن يوسف الثقفى عامل عبد الملك على العراق ، ومحمد ابن القاسم الذى تغلغل فى قلب آسيا وضم هذه المناطق إلى حوزة الإسلام . وعلى أكتاف هؤلاء ، ازدهرت الدولة الأموية ، واستطاعت أن تقضى على كثير من العقبات التى قامت فى وجهها .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم جـ ١ ص ٧٨ ، نشر الأستاذ مصطفى السقا .
(٢) لامنس : الموسوعة الإسلامية ، مادة Taif .
(٣) تأيمت المرأة : مات عنها زوجها ولم تتزوج بعده .
(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ ٦ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ (طبعة دار الكتب) .

ب – تاريخ الجاهلية الديني

تعددت الديانات في بلاد العرب قبل الإسلام واختلفت اختلافاً متبايناً ، وتأثرت عادة بما جاورها من البلاد ، فقد ذكر اليعقوبي « أن أديان العرب كانت مختلفة بالمجاورات لأهل الملل والانتقال إلى البلدان والانتجاعات »(١) ، كما أخذ العرب عن الأمم التي اتصلوا بها كثيراً من آلهتها . وأثبتت الدلالات في بلاد العرب وجود ديانات سماوية كالمسيحية واليهودية ، وغير سماوية كالمجوسية والصابئة والوثنية التي كانت العامة والغالبة في شبه جزيرة العرب .

١ – الديانة الوثنية

مظاهر الوثنية الجاهلية :

اختلفت مظاهر الوثنية في بلاد العرب قبل الإسلام باختلاف الأمكنة والبقاع : فهي عند البدوي الضارب في فيافي جزيرة العرب تمثل أول أشكال المعتقدات السامية وأبسطها وأكثرها سذاجة ، ولكنها عند عرب الجنوب بما فيها من المظاهر الفلكية والهياكل المزخرفة والشعائر الدينية الخلابة وتقديم الذبائح والقرابين تمثل مرحلة من التطور راقية محدثة وهي مرحلة أدت إليها حالة الاستقرار والتحضر في المجتمع(٢) .

وديانة البدوي — شأنها في ذلك شأن غيرها من الديانات البدائية — مبنية على الإيمان بوجود أرواح في الأشياء المادية ، مما يرى الإنسان حوله كالأشجار والرمال والحجارة ، أو مما في مظاهر الطبيعة كالرياح والأمطار والنجوم والشمس والقمر ، فاعتقد البدوي أن لكل من هذه الأشياء روحاً تحركها ، وبالتدرج أصبحت القوى الطبيعية العليا آلهة ، أما القوى السفلى فأحيلت إلى مراتب الجن والشياطين . ثم تكاملت صورة الألوهية في مخيلة الجاهلي ، إلا أن

---

(١) تاريخ اليعقوبي : ج ١ ص ٢١١ .

(٢) تاريخ العرب ص ١٣٣ .

المحسوسات الطبيعية كالأشجار والآبار والكهوف والحجارة بقيت مقدسة تعد وسائط يتقرب العابد منها إلى المعبود[١] .

نزع العرب فى منطقة الحجاز وما يجاورها من أنحاء نجد إلى تكريم الحجارة المقدسة أو المؤلهة — على قول بعض المؤرخين — تكريماً لا يختص بقبيلة دون أخرى ، ولاينفرد به بلد دون آخر ، وهذا القرآن الكريم والشعر الجاهلى القديم شاهدان على انتشار الأصنام فى أنحاء الجزيرة . ونسب بعضهم هذا الانتشار إلى شهرة المعبدين القرشيين : الصفا والمروة وكلاهما من أسماء الحجارة[٢] ، حتى قيل إن ذلك أدى إلى إيهام الرواة وجماع الأحاديث النبوية بأن عبادة الحجارة كانت عامة فى بلاد العرب . وأول مؤرخو العرب بوجه عام والعارفون بتاريخهم الدينى على وجه الخصوص ، مثل هذين الاسمين : فقد ذكر ابن دريد « ربما سُميت الحجارة الرقاق البيض التى تبرق فى الشمس مروا والمروة المعروفة بمكة »[٣] ، وقال فى موضع آخر : الصفا الحجارة[٤] ، وذهب إلى أن الشخص من البدو « وكان إذا وجد حجراً أخذه وعبده »[٥] .

وكانت الحجارة التى تكرمها القبائل مأخوذة فى أصلها من الحرم المكى . وفى ذلك يقول ابن هشام عن ابن إسحق « ويزعمون أن أول ما كانت عبادة الحجارة فى بنى إسماعيل أنه لا يظعن منهم ظاعن من مكة حينا ضاقت عليهم والتمسوا الفسح فى البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم »[٦] .

(١) فليب حتى : تاريخ العرب ص ١٣٤ .
(٢) ابن دريد : الاشتقاق ص ٤٦ . ابن الأثير : أسد الغابة ج ٣ ص ٣٢٥ .
(٣) ابن دريد : نفس المصدر ص ٤٧ .
(٤) ابن دريد : نفس المصدر ص ٨ .
(٥) ابن دريد : نفس المصدر ص ٧٦ . السمهودى : وفاء الوفاء ج ٢ ص ٣٧٣ .
(٦) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٥١ .

والحجارة المؤلهة نوعان : النوع الأول هو الحجارة المحمولة أو المنقولة ، والنوع الثانى هو الحجارة الثابتة التى لاتتزحزح من محالها كالمعابد الخاصة بالحجاز ولاسيما معبد مكة ، وفى كتب سير الرسول صلى الله عليه وسلم شواهد كثيرة على نقل هذه الحجارة المكرمة ، ومن ذلك شهادة ابن سعد بشأن الحجر الأسود فقد ذكر أنه « لما حج آدم وضع الحجر الأسود على أبى قبيس ، فكان يضىء لأهل مكه ليالى الظلم كما يضىء القمر ، فلما كان قبيل الإسلام بأربع سنين ... أنزلته قريش من أبى قبيس »[1] ، ويعلق الأب لامنس على شهادة ابن سعد بقوله « إن ما يهمنا من هذا الحادث هو أن المؤرخين إذا ما عرضوا لهذا الموضوع فى العصر الجاهلى المتأخر — ولا سيا فى العصور التى تقدمته — يميزون بسهولة فى القول عن الحجارة المؤلهة أو تلك الأصنام التى تمثل المعبودات الجاهلية : الحجارة المحمولة أو المنقولة ، والحجارة الثابتة ، وهذه الحجارة الأخيرة كانت وحدها مركوزة لاتتزحزح من مجالها ، وقد تكون منها المعابد الخاصة بالحجارة ولا سيما معبد مكة[2] .

واشترك الصنم « يغوث » ، على ماورد فى بعض أساطير الأدب الجاهلى فى حروب العرب القبلية ، ، كما نرى العربى يستغيث ويستنصر هبل فى غزوة أحد . وأوضح الطبرى أن أبا سفيان كان فى هذه الغزوة ، يحمل اللات والعزى[3] ، وكان أبو سفيان فى ذلك الوقت سيد مكة المطاع وقائد الناس[4] بل « رب تهامة » . وهكذا جمع أبو سفيان بين أعمال السيد المدنية والدينية التى اختص بها فى القبائل العربية الكبرى من جمعوا بين صفة الرب أو السيد وصفة الكاهن[5] ،

(١) ابن سعد : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢ .

(٢) لامنس : الحجارة المؤلهة وعبادتها عند العرب الجاهليين . بحث مستخرج من مجلة المشرق الكاثوليكية ، ١٩٣٨ .

(٣) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ١٣٩٥ .

(٤) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٥٥٧ .

(٥) لامنس : المصدر السابق .

ووجد فى حوزته فى آخر يوم بدر ، تلك الرموز الدينية ، أى الحجرين المقدسين ، وصاح مخاطبا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : ألا لنا العزى[١] ولاعزى لكم[٢].
وتشير أخبار الطائف فى الجاهلية إلى وجود اللات فى إحدى المعارك المهمة من حرب الفجار ، ونصب قبل المعركة خباء أو بيت ليتخذ محلا لآلهة الطائف أو « ربة الطائف » ، وكان مدار الخباء يمثل حد حرم منيع لا يمكن حرقه فيظل ملاذاً آمنا للاجئين . و يشير الشاعر الجاهلى عبيد بن الأبرص إلى أن بنى جديلة تركوا معبودهم الخاص فى ساحة القتال ، فيقول :

وتبدلوا اليعبوب بعد إلاههم   صنما فقرّوا ياجديل وأعذبوا[٣]

وكان العرب الجاهليون لا يقومون بغزوة مهمة إلا إذا اصطحبوا معهم : كاهنا يصل بينهم و بين إرادة الله ، وسادنا يخدم هيكل ذلك الإله ، و بعض العائفين والقائفين[٤] من المهرة فى معرفة الغيب وتأويل الإشارات واطلاع القبيلة على حركات أعدائها . وكان هؤلاء الموهوبون يفيدون المحاربين بمعلوماتهم الطيبة ومقدرتهم السرية، قبل الرحيل وطول الطريق ولا سيما فى أثناء المعركة . ولم يكن غريباً أن يجمع الشخص نفسه فى أيام الجاهلية البعيدة بين رتبتى الكاهن والسيد ، وكأن الكاهن يرأس الجيش المحارب فيقود الغزوة إلى حيث شاء ، ومن هؤلاء القواد الكهان : زهير بن جناب الكلبى وزهير بن جذيمة العبسى[٥] .

وليس فى بلاد العرب ، ولاسيا فى منطقة الحجاز ونجد طبقة « إكليريكية » خاصة ،

---

(١) معنى « العزى » القوية والقادرة ، وقد يكون هذا هو السبب فى ذكرها هنا مفردة ، وهى تجمع عادة مع اللات بل تقدمها اللات فى الإيمان .
(٢) ابن دريد : الاشتقاق ص ٣١٦ . الطبرى : نفس المصدر ج ١ ص ١٤١٨ .
(٣) ديوان عبيد بن الأبرص ، القصيدة ٢ بيت ٦ وجاء فى شرحه ، اليعبوب : صنم . قال ابن كناسة ، أعذبوا : كفوا .
(٤) يذكر ابن دريد فى كتابه : الاشتقاق ص ٢٨٨ أن بنى لهب كانوا أعيف العرب وأزجرهم للطير .
(٥) لامنس : الحجارة المؤلهة وعبادتها عند العرب الجاهليين .

إنما يقوم مقامها طائفة العرافين والزاجرين والقائفين والسدنة ، ولم يكن لهذه الطائفة مايميزها أو يرفعها عن سائر الناس : فلا مسحة خاصة لها ولا رتبة ، ولا فرق فى أساليب المعيشة بينهم وبين أبناء قبيلتهم ؛ لهم ما لها وعليهم ما عليها لا يتراجعون عن غزوة ولا يتأثمون من إهراق دم ، بل كان منهم من يقود الجيوش فينعت كثير الغارات »[1] ، ويمتطى متن الصافنات فيجمع بين الكهانة والفروسية[2] حتى كان اسم الفرس رفيق البطل فى غزواته المشهورة يظل مقرونا باسمه : فعمرو بن الجعيد الملقب بالأفكل[3] كان له جواد ذائع الصيت نادر الصفات اسمه هبود ينسب إليه فيقال «فارس هبود »[4] وقتل هذا الكاهن الفارس فى إحدى الغزوات[5] فقد عرف بالبطش واشتهر بالعسف مدة سيادة بنى ربيعة[6] .

وقد يدعى الكاهن أحيانا « الحكم » وهى رتبة تستتبع عادة رتبة السيادة ، وتدعو الناس إلى استشارة صاحبها قبل القيام بأية غزوة أو غارة ، ولذا كان نفوذ هؤلاء الكهان غير محدود ، ولأقوالهم وإشاراتهم الأثر البعيد ، وكان لابد لهذه الاستشارة فى مكة من أن تكون قرب الكعبة أى على مقربة من المعبود الخاص بالقبيلة ، وكانوا لذلك إذا سافروا اهتموا بنقل « بيت إيل» أو « الحجر المؤله » .

---

(١) Lammens : Le Berceau de L'Islam, Vol. 1. p. 251.

(٢) فى كتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٣٩ ذكر كاهن فارس و « الفارس » من مرادفات « السيد » فى اللغة القديمة .

(٣) راجع نقائض جرير والفرزدق طبعة Bevan ص١٥٤ . والاشتقاق ص١٩٧ ، والأفكل اسم لاصفة . راجع ابن السكيت : تهذيب الألفاظ (طبعة شيخو) ص ١٨٣ ، وأسد الغابة لابن الأثير ج ٣ ص ٢٦٣ .

(٤) كثيراً ما اشتهر الفارس بجواده فى العصر الجاهلى . الاشتقاق ص ٨٥ ، ٨٦ ، ١١٦ ، وذلك أن الجواد حيوان ثمين عزيز لا يمكن من اقتنائه إلا الأغنياء المترفون ، ولم يكن العربى يملك إلا جواداً واحدا . وإذا زاد فجوادين .

(٥) الأصفهانى : الأغانى ج ١٥ ص ٧٥ — ٧٧ .

(٦) قال عنه ابن دريد ص ١٩٧ « كان سيد ربيعة وكان ذا بغى » .

وفى ساحة الوغى ، كان الجاهليون يعمدون إلى وضع جمل وقبة في صفوف المحاربين ، بقصد إهاجة حمية القوم فى الدفاع عن القبة والموت فى سبيلها ، حتى كانوا يقسمون بأن لا يتراجعوا إلا إذا تحركت القبة ، وكثيرا ما كان السيد يحلف عنهم «أن لا يفر حتى تفر القبة»[1]. وتساءل الأب لامنس : لم هذه الحماسة فى الدفاع عن القبة ، وهذه التضحيات فى سبيلها ، ولم تر البكريين يوم ذى قار يستعيدون حميتهم وشجاعتهم أمام الجيوش الفارسية المنظمة لمجرد ظهور القبة ؟ ثم أجاب على ذلك : بأننا نشهد حفلة دينية تظهر رمزاً مقدساً ، فإن نصب القبة فى ساحة الحرب دليل على أهمية المعركة وخطورة الحالة التى تتعلق بها سلامة القبيلة بل كيانها نفسه ، ولم تكن القبة لتنصب إلا فى مثل هذه الخطوب ، لا فى غزوة بسيطة أو غارة عادية أو ثأر فردى وإن تعلق بشخص السيد نفسه .

وهذه الصفة المقدسة كان العرب يولونها القبة والجمل الذى ترفع عليه ، لأنهما يحملان الحجر المؤله أو الشىء الرامز إلى الإله المعبود ، وأوضح الشاعر الكميت ابن زيد الذى كان « خبيرا بأيام العرب » أن القبائل أجمعت أمرها فى الحرب أن لا تولى ظهرها الصنم مناة الوجود فى المعركة فيقول الكميت بن زيد :

وقد آلت قبائل لا تولى مناة ظهورها متحرفينا[2].

على أن اللات والعزى — دون الآلهة الوثنية الأخرى — تؤلفان زوجاً يمثل وحده أفضل تمثيل لآلهة العرب المشركين جميعهم . يؤيد ذلك ، فضلا عن النصوص القديمة ، حديث ينسب إلى النبى صلى الله عليه وسلم أورده مسلم فى صحيحه وفيه يقول « لا ينقضى الليل والنهار حتى يعود الناس إلى عبادة اللات والعزى »[3]. وقد أراد الرسول عليه السلام أن يصور عودة الناس

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٢٠ ص ١٣٦ ، الطبرى ج ١ ص ١٠٢٨ .

(٢) طالما أنعم « الكميت » النظر هو وزملاؤه من الشعراء فى منظومات الشعر الجاهلى ، ولم يورد ابن هشام إلا هذا البيت المفرد من قصيدة الكميت .

(٣) صحيح مسلم ج ٢ ص ٥٠٤ .

إلى الشرك أو الوثنية قبل نهاية العالم ، فلم ير أفضل من أن يمثل هذا الشرك بعبادة اللات والعزى[١] . كذلك ليس ثمة من صدفة عارضة فى ازدواج الآلهتين فى موقعة أحد ، وذكر فى بعض الأحيان الصنم مناة إلى جانب هاتين الآلهتين ، كما جاء فى حديث الغرانيق الذى أورده المفسرون وكتاب السيرة وأخذ به جماعة من المستشرقين أن محمدا عليه السلام لما رأى من تجنب قريش إياه قرأ بعد « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى » ، « تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى[٢] » .

وكان للآلهة مقامات ثابتة ، حتى إذا ارتحلت القبيلة ، قامت بخدمة المقام وعبادة آلهة القبيلة التى تحل محلها ، وجرت العادة أن تزور القبيلة المرتحلة المقام مرتين فى العام أيام الأعياد ، وفى هذه الزيارات كانت القبائل تكرم معبودها أو إلاهها بذبائح تتقرب بها إليه ، وتسمى هذه الذبائح « العتائر[٣] » . وكان لحم الضحية يظل متروكا للكواسر ووحوش القفر ، ولم يكن محرما على الحاضرين أن ينالوا من هذا اللحم ، وهو ما حدث فى الأضحية التى فدى بها عبد المطلب ابنه ، فبقيت على قول ابن هشام « لايصد عنها إنسان ولايمنع »[٤] .

---

(١) فى دمشق قطعة خزفية مكتشفة وفيها صورة جمل يحمل الهين فى محل الهودج وقرب سنام الجمل ثم على مؤخر عنقه وعلى الشخصين الإلهيين نفسيهما يخال للناظر أنه يرى شبه خيمة ابتدىء بتمثيلها أو شبه قبة على شكل نصف دائرة . وفى سورية قطعة أخرى زخرفية مكتشفة ومحفوظة فى متحف اللوفر تمثل كذلك امرأتين على ظهر الجمل تنفخ أحدهما بالمزمار وتضرب الأخرى على الدف وعلى رأسيهما تنتصب خيمة نصف مستديرة أو قبة من جلد تحفظهما من وقع حرارة الشمس . Cumont : Etudes Syriennes, 265—273 وعند لامنس : « أننا لو كنا نعرف الشىء الواضح عن الحالة الوثنية فى بلاد الغساسنة ، لكان من الممكن أن نرى اللات والعزى ممثلتين فى هذه القطعة الدمشقية » .

(٢) محمد حسين هيكل : « حياة محمد » ، حيث تجد تفصيلا عن قصة الغرانيق .

(٣) أورد ابن هشام فى سيرة الرسول ص ٦٥٩ هذا البيت :

كأنهم عتائر يوم عيد   تذبح وهى ليس لها نكير

(٤) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ١٠٠ .

ولما كانت مكة قلب الجزيرة العربية النابض تمج داخل حرمها بالأصنام ، فقد اشتهرت إبان العصر الجاهلى بكثرة حفلاتها الدينية وخصوصا فى أيام الأعياد ، فتزدحم شوارعها الضيقة بالعابدين والمتفرجين ، وتسير مواكبها الدينية متتابعة لتطوف بحجارة الأحياء وفيها ترى جمالا مترنحة حاملة القباب المتمايلة الفاقعة الألوان يقودها زعماء القوم ويسير وراءها على الجمال أيضا نساء قريش وقد حللن الشعور وضربن الدفوف والفرابيل[١] وصحن بأصوات الفرح والحماسة ، إلى أن يصل الجميع إلى الكعبة ، حتى أن القرشيين قد هجوا بأنهم لا يحسنون إلا السير فى هذه المواكب الدينية ، فقيل :

فأما القتال لا قتال لديكم   ولكن سيراً فى عراض المواكب

وكانت الآلهة فى نظر البدوى تهيمن على الأراضى الآهلة بالسكان ، كما كانت قوى أخرى أطلق عليها الجن والعفاريت تسيطر فى اعتقاده أيضا على البرارى والقفار ولا تختلف عن الآلهة فى طبيعتها بل فى كنه علاقاتها بالإنسان ، على اعتبار أنها تخاصمه وتؤذيه حتى نسب إليها أهوال البادية[٢]. وآفاتها وحيواناتها البرية المخيفة[٣]. وقد قيل إن الشاعر الجاهلى تأبط شراً — وهو من نماذج الفروسية فى الجاهلية — بات ليلة ظلمة وبرق ورعد فلقيه الغول ، فمازال يقاتلها إلى أن أصبح وهى تطلبه حتى قتلها وتأبطها وسار ، وفيها يقول .

فلم أنفك متكئا عليها   لأنظر مصبحاً فإذا أتانى

---

(١) لا نسمع عن هذه الآلات الموسيقية عند العرب ، إلا عند ما يتبع النساء الرجال إلى ساحات الحرب ، ولولا الدين لما خرجت حرائر مكة فى هذا المشهد تنشد على أنغام الموسيقى تلك المقطوعات التى نسبت إلى الكائنات فى موقعة ذى قار وأيام بكر وتغلب .

(٢) إن الصورة التى تخيلها العربى الجاهلى للجن والعفاريت لم تصل فى بشاعتها حداً يمكن أن يقارن بصورة الجن عند غير العرب كاليونان والهند والفرس ، فإن صورة الجن عند هؤلاء رهيبة مخيفة ومبنية على مغالاة بعيدة عن القياس وتركيب أجسادها على خلاف المعهود وأعمالها خارقة للعادات . فيليب حتى : تاريخ العرب ص ١٣٦ — ١٣٧ .

(٣) حتى : تاريخ العرب ص ١٣٦ — ١٣٧ .

إذا عينان فى رأس قبيح كرأس الهر مشقوق اللسان
وساق مخدج وشواة كلب وثوب من عباء أو شنان

وتجمع مظاهر الديانة الوثنية عند العرب ، إلى جانب عبادة الأحجار والأشجار والآبار والكهوف ، عبادة النار كذلك ، فقد كانوا يعمدون إلى حفر أخدود مربع فى الأرض يملأ وقودا ، ثم لا يدعون طعاما ولا شرابا ولا عطرا ولا جوهرا إلا طرحوه فيها تقربا إليها ، وحرموا إلقاء النفوس فيها وإحراق الأبدان بها . ويرجع مؤرخو العرب عبادة النار فى الجزيرة العربية إلى أسطورة فحواها أنه « لما قتل قبيل أخاه هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن جاءه إبليس وقال له : إنما قبل قربان هابيل وأكلته النار لأنه كان يخدمها ويعبدها ، فانصب أنت أيضا نارا تكون لك ولعقبك ، فبنى بيت نار »[1].

(ا) الأصنام :

كان لكل قبيلة من قبائل العرب ، إله خاص تتعبد له ، ومن هنا كثرت الأصنام فى بلاد العرب ، حتى قيل إن عددها بلغ ٣٦٠ صنما على مارواه ابن هشام ، وكانت فى الوقت نفسه تعترف بسلطة الإله الأكبر . ولم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين إلاهها وثيقة كما كانت الصلة عند بنى إسرائيل مثلا بين يهوه[2] وشعبه .

وكان الأساس فى معتقدهم ، الذى جعل لكل بئر أو صخرة أو تل من الرمال إله خاص ، أن الله قد خلى لنفر من الآلهة بعض تصرفات مثل : شفاء المرضى ، والإتيان بالذرية والنسل ، وإبعاد المجاعة وإقصاء الوباء ، ولم يكن من

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ ١ ص ٨٢ .
(٢) يهوه : أى الله ، باللغة العبرية .

اليسير الحصول على المنة السماوية إلا بعد وساطتهم وشفاعتهم[١].

اختلف المؤرخون فى أصل عبادة الأصنام : فمنهم من زعم بأنها محلية ، ومنهم من قال بأنها مجلوبة من الخارج . ويذكر مؤيدو الرأى القائل بأنها محلية أن أهل الموتى من العرب أرادوا إحياء ذكراهم ، فنحتوا صوراً من الحجر على شكلهم تمثلهم ، وعبدوها بعد ذلك . يقول السهيلى عن البخارى عن ابن عباس «صارت الأوثان التى كانت فى قوم نوح ، فى العرب بعد ، وهى أسماء قوم صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن نصبوا فى مجالسهم التى كانوا يجلسونها أنصابا وسموها بأسمهم ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك وتنوسخ العلم عبدت »[٢].

على أن العرب لم ينحتوا الأصنام لجهلهم بالفنون الجميلة ، فالظاهر أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج[٣]. ويؤكد ذلك ما ذكره مؤرخو العرب فى قصة عمرو بن لحى . يقول ابن هشام أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ،فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق ... رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم : ماهذه ؟ قالوا : نستسق بها المطر ونستنصر بها على العدو ، فسألهم أن يعطوه منها فأجابوا طلبه »[٤]، فقدم مكة بهبل ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية ، فأجابه الجمهور وأكره من لم يجبه حتى تم له ما أراد[٥]. ويقول الأزرقى : « أحضر عمرو بن لحى هبل من هيت من أرض الجزيرة »[٦]، مما يبين أن الأصنام المنحوتة مجلوبة من الخارج .

---

(١) مولاى محمد على : رسول الله ص ١٥ .
(٢) السهيلى : الروض الأنف ج ١ ص ٦٣ .
(٣) عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١١٣ .
(٤) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٥١
(٥) أبو هلال العسكرى : الأوائل ص ٦٩ .
(٦) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٦٨ .

وهناك رأى يذهب إلى أن الأصل فى عبادة الأصنام أن قوما من الأوائل اعتقدوا أن الكواكب تفعل أفعالا لاتجرى فى النفع والضرّ مجرى أفعال الإله ، على حسب ما يعتقده بعض أهل التنجيم فاتخذوا عبادتها دينا[1] . على أن نولدكه يذكر أنه مما لا نزاع فيه أن العرب عبدوا الشمس والنجوم الأخرى فى عصر متأخر جداً ، أما الأوثان المتحدة غير النجوم فلا يمكن تفسيرها بأنها شكل من أشكال النجوم[2] .

وكان العربى إذا سافر حمل معه حجرا ، وإذا أزمع العودة تركه ، وفى ذلك يقول ابن الكلبى . « كان الرجل إذا سافر فنزل منزلا أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربًا وجعل ثلاث أثافى لقدره ، وإذا ارتحل تركه ، فإذا نزل منزلا آخر فعل مثل ذلك »[3] ، وعلل سبب ذلك بأنهم كانوا يفعلونه تعظيما للحرم وصبابة بمكة . وقيل من ناحية أخرى إن عادة حمل الأحجار ، إنما هى بقية من ديانة الساميين الأولى وأن قدماء العرب إنما يحملون الأحجار فى أسفارهم لاعتقادهم أنها جزء من تربة تلك الواحة الخصبة التى يسكن الإله جذوع أشجارها ، يروى بمائه مدرها وأحجارها . وبما أن الحجر جزء من تلك التربة ، ففيه شىء من روح الإله ، ولذا كان العربى القديم يحمله معه فى أسفاره تيمناً به وتفاؤلا ، حتى كان إذا وقع على بئر أو شجرة روى بمائها أو تغذى بثمرها ، ثم رفع عقيرته بالدعاء والتهليل بل كان حينما حل يضع الحجر ويطوف به دلالة على الشكر والحمد والتعظيم والتوقير[4] .

وعبد العرب الأحجار ، ولكنهم لم يعبدوا كل صنف من الحجر بل ما استحسنوه وما أعجبهم منها . وكانت معظم تلك الحجارة المختارة بيضاء

---

(١) العسكرى : الأوائل ص ٦٩ ، مخطوط بدار الكتب المصرية .

(٢) Ency. of Religion & Ethics «Arabs»

(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ٣٣ .

(٤) محمد محمود جمعه : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٣٩ .

اللون ، ولها علاقة بالغنم والجمل ولبنهما[١] : وتعددت أقوال المؤرخين فى هذا الصدد : يقول ابن الـكلبي « وكان لأهل كل دار فى مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً »[٢] . ويقول أبو عثمان النهدى[٣] « كنا فى الجاهلية نعبد حجراً ونحمله معنا فإذا رأينا أحسن منه ألقيناه وعبدنا الثانى ، وإذا سقط الحجر عن البعير قلنا سقط إلهـكم فالتمسوا حجراً ... »[٤] . ويقول ابن دريد صاحب الاشتقاق « كان الرجل منهم إذا وجد حجراً أحسن من حجر أخذه وعبده[٥] .

ولم يكن الوثن فى تصور العرب رباً إلى القرن السادس قبل الميلاد ، لأن عرب الحجاز ونجد لم يكونوا متصلين بالوثنية المجاورة ، ولم يتأثروا بالوثنية البابلية أو الرومانية أو اليمنية قبل ذلك القرن[٦] . كما أن الأساطير التى نسجت حول النصب تدل صراحة على أن العربى لم يعبد الوثن معتقداً أنه خالقه أو خالق الـكائنات لأنه تارة يستسقم عند الوثن ، وتارة أخرى يسبه ويشتمه ، ومرة ثالثة يأكله وقت المجاعة[٧] . وعلى ذلك ، لم تـكن الوثنية الخارجية ، حتى القرن السادس قبل الميلاد ، قد دخلت بلاد العرب أو تأثر بها العرب أنفسهم ، أو إذ لم تـكن هناك سوى الوثنية المحلية التى تنحصر فى تقديس الأشياء التى استفاد بها العربى البدوى واستمرت وتطورت تحت تأثير الحضارة المجاورة[٨] .

---

(١) الدكتور محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ٩٧ .

(٢) ابن الـكلبي : الأصنام ص ٣٣ .

(٣) نهد : قبيلة من قضاعة .

(٤) ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة جـ ٣ ص ٣٢٥ .

(٥) ابن دريد : الاشتقاق ص ٨٦ .

(٦) محمد خان : الأساطير العربية ص ١٠٧ .

(٧) محمد خان : نفس المصدر والصفحة .

(٨) محمد خان : نفس المصدر ص ١٠٦ .

تأثر العرب بوثنية الأمم المجاورة ، فالثابت أن مردوخ والزهرة عبدا فى جزيرة العرب وأنهما من الأصنام البابلية وانتشرت عبادتهما فى بلاد العرب جميعاً[١] . وتأثر العرب كذلك بكلديا وآشور ، فقد كان من عادة العرب تقديم الليالى على الأيام ، كما قال البيرونى فى كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية « أن العرب فرضت أول مجموع اليوم والليلة نقطة المغارب على دائرة الأفق ، فصار اليوم عندهم بليلته من لدن غروب الشمس عن الأفق إلى غروبها من الغد » ، وهذا يخالف نظرية الروم والفرس ويوافق نظرية الكلدان الذين كانوا يقدمون إله القمر على الشمس . كذلك قيل إن كلمة « صنم » أصلها صُلْم Solm وهى كلمة آرامية دخلت البادية العربية[٢] . وهنا نستعرض أهم الأصنام الجاهلية :

هبل :

كان هبل من أعظم أصنام قريش ، نصبه عمرو بن لحى على البئر الذى حفره إبراهيم عليه السلام فى بطن الكعبه ، وأمر الناس بعبادته ، فكان الرجل إذا قدم من سفر ، بدأ به على أهلة بعد طوافه بالبيت ، وحلق رأسه عنده[٣] . وعنده فى الكعبه سبعة قداح ، كل قدح منها فيه كتاب ، وكان قربانه مائة بعير[٤] وعبدته قريش واستقسمت عنده بالأزلام[٥] وكانوا إذا أرادوا أن يختنوا غلاما أو يزوجوا أحداً أو يدفنوا ميتاً أو شكوا فى نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هبل وبمائة درهم وجزور فأعطوها صاحب القداح الذى يضرب بها ثم قربوا صاحبهم

---

(١) محمد خان : الأساطير العربية ص ١٠٩ .
(٢) محمد خان : نفس المصدر ص ١١٢ .
(٣) الأزرق : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار جـ ١ ص ٦٨ .
(٤) الأزرق : نفس المصدر والجزء ص ٦٨ .
(٥) الأزرق : نفس المصدر والجزء ص ٦٧ .

الذى يريدون به مايريدون ، ثم قالوا . يا إلهنا ! ! هذا فلان أردنا به كذا وكذا فأخرج الحق فيه[١] ، وكانت له خزانة للقربان وله حاجب .

واختلف المؤرخون فى سبب تسميته بهذا الإسم : يقول ياقوت « هبل أظنه من الهابل وهو الكثير الشحم واللحم ومنه حديث عائشة : والنساء يومئذ لم يهبلن اللحم أى لم يسمن ، أو من الهبل والشكل يراد به أن من لم يطمه هبله أى شكله أو من الهبل والهبالة وهو الغنيمة أى يغتنم عبادته أو يغتنم من عبده[٢] . وذهب جورجى زيدان إلى أن لفظ هبل لا اشتقاق له فى العربية من معناه فهو غير مشتق من لفظ عربى ، ويقول إنه عبرانى أو فينيقى ، أصله هبعل ومعنى بعل (السيد) ، وزاد على ذلك فقال . إن الهاء فى العبرى أداة التعريف مثل « الـ » العربية فبإضافة هذه الأداة إلى بعل يريد الأكبر ، وقال : أما العين الزائدة فسهل إهمالها بالتخفيف ثم ضياعها بالاستعمال وخصوصا فى لفظ بعل لأن الكلدانيين كانوا يلفظونه « بل » بإهمال العين وهو اسم هذا الإله عندهم . وقول إن هبل القرشى هو بعل الإسرائيلى ، وعلى ذلك إذا صح تعليل الأستاذ جورجى زيدان اللغوى فلا يبقى شك فى أن هبل هو بعل . ويقول الدكتور محمد عبد المعيد خان « والذى قد يؤكد صحة هذا الرأى أن الله سبحانه وتعالى أورد فى التنزيل : أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين ، فقال الله سبحانه بعلا ولم يقل هبلا ، وفى هذا ما يدل على أنه كان يسمى بعلا عند بنى إسرائيل »[٣] .

وتشير إقامة هبل على البئر الكائن فى بطن الكعبة إلى أنه كان ذا علاقة بالرزق والخصب فى عقيدة العرب أيضا ، كما كان اليهود يعتقدون أنه إله النعمة والسعادة . يقول محمد عبد المعيد خان : « لا أتردد أن أقول إن هبل

---

(١) الأزرقى ، أخبار مكة ج ١ ص ٦٨ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان .

(٣) محمد خان : الأساطير العربية ص ١١٥ .

كان إله الخصب والرزق ومن ثم إله السعادة وشبه رب الأرباب فى عقيدة العرب[١] » . وهبل هو الإله الذى عناه عمرو بن لحى حينما قال : إن ربكم يتصف باللات ابرد الطائف ويشتو بالعزى لحر تهامة[٢] .

وهبل هو أعظم الأصنام التى كانت لقريش فى جوف الكعبة وحولها ، وكان من عقيق أحمر على صورة إنسان مكسور اليد اليمنى ، فجعلت له قريش يدا من ذهب ، وكان لإصلاح اليد المكسورة أثر خالد فى العقلية العربية التى أخذت منذ ذلك الحين تتصور الإله فى صورة إنسان حقيقى كما يظهر من الخرافة التى صورت العزى فى صورة امرأة[٣] .

اللات والعزى :

واتخذ العرب فى الطائف معبود « اللاّت » ، وهى أحدث من مناة وكانت صخرة مربعة بيضاء ، وسدنتها من ثقيف بنى عتاب بن مالك . وكانت قريش تطوف بالكعبة وتقول : واللاّت والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، فإنهن الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى[٤] . وكان العرب يحلفون بها ، يقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهن أكبر

وانتشرت عبادة اللات بين العرب ، بدليل كثرة الأسماء المركبة من إسمها ، مثل تيم اللات وعمرو اللات وزيد اللات وغيرها[٥] واختلف المؤرخون فى سبب تسميتها بهذا الاسم . يقول ياقوت : إن اللات كان رجلا من ثقيف ، ويقول الأزرق : إن

---

(١) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ١١٧ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة ج ١ ص ٧٤ .
(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ٢٧ .
(٤) ابن الكلبى : نفس المصدر ص ١٦ — ١٩ .
(٥) لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ٨٤ .

رجلا ممن مضى كان يقعد على صخرة ثقيف يبيع السمن للحجاج إذا مروا فيلتُ سويقهم وكان ذا غنم فسميت صخرة اللات . فلما مات وفقده الناس قال لهم عمرو بن لحى : إن ربكم كان اللات فدخل فى جوف الصخرة[1] ، أما الأستاذ رشدى صالح ناشر ومحقق كتاب الأزرقى فيقول إنها كانت بالطائف فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم ، فلم تزل كذلك حتى أسلمت ثقيف فبعث رسول الله المغيرة ابن شعبة فهدمها وحرقها بالنار[2] ، ويذهب محمد عبد المعيد خان إلى أن اللات كلة قديمة وردت فى الأدب البابلى الذى يرجع عصره إلى ثلاثة آلاف سنة تقريبا وهى إسم إله من آلهة البابليين الذين رأوا فيها تمثال فصل الصيف[3] .

واللات من الأصنام التى جاء بها عمرو بن لحى ، أخذها العرب من النبطيين الذين كانوا يعتبرونها إله الشمس ويلقبونها بربة البيت ، ونسب العرب إليها — كالبابليين — فصل الصيف وقالوا : ربكم يتصيف باللات لبرد الطائف .

أما العُزّى فكانت من أعظم الأصنام عند قريش ، حتى إنهم كانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح ، وكان لها منحر ينحرون فيه هداياهم يقال له الغبغب ، وبها كانت العرب وقريش تسمى عبد العزى[4] ، وكانت قريش تخصها بالإعظام . قال زيد بن عمرو بن نفيل ، وكان قد تأله فى الجاهلية وترك عبادتها وعبادة غيرها من الأصنام :

تركت اللات والعزى جميعا كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها ولا صنمى بنى غنم أزور

---

(١) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٨٤ .
(٢) الأزرقى : نفس المصدر والجزء ص ٧٤ حاشية ٥ .
(٣) الأساطير العربية ص ١١٧ — ١١٨ .
(٤) ابن الكلبى : الأصنام ص ١٨ .

ولا هبلا أزور وكان ربا لنا فى الدهر إذ حلمى صغير[1]

واختلفت المؤرخون فى ماهية العزى : فذهب الأزرقى إلى أن العزى كانت ثلاث شجرات سمرات فى وادى نخلة ، وأن أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة والحارث بن كعب ، وأن قريشا وبنى كنانة كانت كلها تعظم العزى مع خزاعة وجميع مضر ، وسدنتها بنو شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم[2] . أما ياقوت فيذكر أن العزى سمرة كانت فى غطفان يعبدونها وكانوا قد بنوا عليها بيتا وأقاموا لها سدنة ، وقال عن اشتقاق إسمها : والعزى تأنيث الأعز مثل الكبرى تأنيث الأكبر ، والأعز بمعنى العزيزة ، والعزى بمعنى العزيزة . يقول درهم بن زيد الأوسى للعزى :

إنى ورب العزى السعيدة والله الذى دون بيته شرف[3]

وللعزى أسماء كثيرة تختلف باختلاف الألسنة : فاليونان دعتها إفروديت ، والكلدانيون بلتى ، وطىء عوزى ، مما يظهر لنا أن كلمة العزى من لغة بنى طىء[4] . وقيل إن أحد ملوك الحيرة قد ضحى للعزى عددا من البتولات المسيحيات[5] ، ولعلهم كانوا يرون فى سفك الدماء وسيلة لإخماد غضب الآلهة وللتقرب منهم وطلب رضاهم . وقد تطورت العزى عند العرب ، فقد مثلت فصل الشتاء كما مثلت اللات فصل الصيف ، ويظهر ذلك من قولهم : إن ربكم يشتو بالعزى لحر تهامة ، وصارت إلهة الخصب والرزق حينما قامت على ثلاث شجرات سمرات فى وادى نخلة وصعدت إلى السماء فى صورة إمرأة حسناء ،

---

(١) ابن الكلبى : الأصنام ص ٢١ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٧٤ — ٧٥ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان .
(٤) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١٢٠ .
(٥) شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ١١ .

وأصبحت نجم الصباح حينما ظهرت اللات فى صورة الشمس ، وسميت الزهرة كما قال البلخى فى قصة هاروت وماروت فى كتابه : البدء والتاريخ[١] .

أصنام أخرى :

وعبد العرب عدة أصنام أخرى ، من بينها « مناة » وهى أقدم الأصنام عند العرب ، جاء بها عمرو بن لحى ، دخلت عبادتها بلاد الحجاز ولم تولد فيها ، وكانوا يسمون بها عبد مناة وزيد مناة ، وقيل إنها كانت صخرة لهذيل ، وكانت العرب جميعا تعظمها وتذبح حولها ويهدون لها ، وخاصة الأوس والخزرج ومن ينزل المدينة ومكة . وقيل إن مناة كانت للأزد وغسان ، يحجونها ويعظمونها ، فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا إلى عند مناة[٢] .

وتمثل مناة عند العرب ، الموت لا الدهر ، لأن الدهر فى تصورهم ذكر ، ومناة أنثى ، ولعل هذا هو ما دعا العرب أن يستقسموا عند هبل وذى الخلصة ولم يستقسموا عند مناة ، بل حلفوا أمامها . يقول عبد العزى بن وديعة المزنى :

إنى حلفت يمين صدق برة بمناة عند محل آل الخزرج[٣]

ويؤكد صفة مناة ما قيل من أن سيفين وجدا عند مناة حينما هدمت عام فتح مكة[٤] ، لأن السيف رمز العدالة والإنصاف عند أهل البادية[٥] ، وقيل إن مناة كانت إلهة القضاء والقدر التى تقابل إلهة الحظ المخلص عند الإغريق .

وكان لقريش أيضا صنم عرف باسم « وَدّ » ، وكان بدومة الجندل ، وسدانته فى بنى القرافصة بن الأحوص الكلبيين ، واشتقاق ود فى اللغة

---

(١) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١٢١ .
(٢) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ج ١ ص ٢٣ .
(٣) ابن الكلبى : الأصنام ص ١٣ — ١٤ .
(٤) ابن الكلبى : نفس المصدر ص ١٥ .
(٥) محمد عبد المعيد خان : نفس المصدر ص ١٢٩ .

العربية هو من ودد بمعنى أحب ، ومثّل ود دور الحب عند العرب ، وكان أول من أجاب دعوة عمرو بن لحى إلى ذلك الصنم هو عوف ابن عُذرة[١] الذى تعد قبيلته المثل الأعلى للحب[٢] حتى قيل « الحب العُــذرى » نسبة إليها ، قال الشاعر :

حياك وَد فإنا لا يحل لنـا   لهو النساء وإن الدين قد عزما[٣]

وكان « يغوث » من أصنام العرب فى الجاهلية ، وهو من غثتُ الرجل أغوثُه من الغوث أى أغثته ، وقيل إنه كان صنما لمذحج وأهل جرش وإنه كان على هيئة الأسد[٤] ، وقيل أيضا إن يغوث مجلوب من مصر ، وعلل جرجى زيدان ذلك بقوله : « وقد وجدنا بين آلهة المصريين صنما على صورة أسد أو لبؤة يسمونه تفنوت ولا يخفى ما بين هذا اللفظ واللفظ يغوث من المشاكلة الصورية إذا اعتبرنا أن العرب كانوا يكتبون بلا نقط » . وقد وقعت حرب بين بعض قبائل اليمن لاقتناء ذلك الصنم ، من بينها واقعة رزَم بين بنى الحارث وحمدان ومعهم سدنة الصنم من جهة وبين مراد من جهة أخرى ، وإلى هذه الواقعة أشار الشاعر بقوله :

وسار بنا يغوث إلى مراد   فناجزناهم حتى الصباح

واتخذت خَيْوان « يعوق » ، وقيل إنه كان على صـورة الفرس[٥] . واتخذت حمير « نسرا » وكان قبل ذلك من أصنام قوم نوح عليه السلام ، وكان على صورة النسر[٦] .

---

(١) ابن الـكلبى : الأصنام ص ٥٥ .
(٢) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ١٣١ .
(٣) ياقوت : معجم البلدان .
(٤) الزمخشرى : الـكشاف عن مغالق التنزيل ج ٢ ص ١٥٣٢ (طبع كلـكتا) .
(٥) الزمخشرى : نفس المصدر الجزء والصفحة .
(٦) ابن الـكلبى : نفس المصدر ص ١١ .

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الأصنام فى كتابه العزيز حيث قال (وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرُن ودّا ولا سُواعاً ولا يَغوث ويَعوق ونسْرًا)[١].

ويتفق صاحب كتاب النصرانية وآدابها ، أن هذه الأصنام قد عبدت فى جزيرة العرب ، فيقول « ولعل كثيراً من هذه الأصنام لم تعبد فى جزيرة العرب كوَد وسواع ويغوث ويعوق ونسر ، الذين يقال عنهم إنهم من آلهة قوم نوح »[٢].

وقد اقترن اسم نسر بالعزى فى الأبيات الآتية التى أوردها ياقوت :

أما ودماء مائرات تخالها	على فتنة العزى أو النسر عندما
وما قدس الرهبان فى كل هيكل	أبيل الأبيلين المسيح ابن مريما
لقد ذاق منا عامر يوم لعلع	حساماً إذا ماهز بالكف صمما

وكانت قبائل هذيل هى أول من اتخذ « سواعا » للعبادة ، وقيل إن موضع هذه القبائل إما فى أرض ينبع ، أو فى رهاط من بطن نخلة ، إذ أن قبائل هذيل و بنى لحيان كانت تقيم فى ضواحى مكة ، ورهاط واد كبير تقع فى غربيه قرية الحديبية[٣].

ومن أصنام العرب المعروفة ، إساف ونائلة كانا رجلا وامرأة فمُسخا حجرين ، فأخرجا من جوف الكعبة وعليهما ثيابهما ، فجعل أحدهما يلصق الكعبة والآخر عند زمزم وكان يطرح بينهما ما يهدى للكعبة . وتشير قصة مسخ إساف ونائلة إلى تقديس العرب وتعظيمهم لمكة والبيت الحرام . وكان أهل الجاهليـة يمرون بإساف ونائلة ويتمسحون بهما ، فإذا طاف أحدهما بالبيت يبدأ بإساف فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة . ثم اتخذهما قصى بعد ذلك

---

(١) سورة نوح ، آية ٢٣ .

(٢) شيخو : النصرانية وآدابها جـ ١ ص ٦ .

(٣) الأزرق : أخبار مكة جـ ١ ص ٧٨ حاشية ٧ .

ليذبح عندها عند موضع زمزم ، بدليل ماذكره صاحب « كتاب الأعلام » عن نذر عبدِ المطلب حيث قال : عيّر عدى بن نوفل بن عبد مناف ، عبد المطلب بقلة أولاده ، فقال له عبد المطلب : أو بالقلة الأولاد تعيرنى . . . ؟ فو الله لئن أعطانى الله عشرة من الولد لأنحرت أحدهم عند الكعبة ، فلما كمل له عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، فقالوا له أوف بنذرك وافعل ماشئت ، قال : ليأخذ كل واحد منكم قدحا فيكتب فيه اسمه ثم إيتونى به ، ففعلوا ودخلوا على هبل . . . وضرب صاحب القداح ، فخرج السهم على عبد الله فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة ثم أقبل على إساف — وهو صنم كان على الصفا ليذبحه عنده[1].

ولإساف ونائلة ، يقول أبو طالب ، وهو يحلف بهما حين تحالفت قريش على بنى هاشم :

وأحضرت عندالبيت رهطى ومعشرى ... وأمسكت من أثوابه بالوصائل

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم ... بمفضى السيول من إساف ونائل

وقال بشر بن أبى خازم الأسدى فى إساف :

عليه الطير مايدنون منه ... مقامات العوارك من إساف

واختلفت الروايات فى شأن صنم « ذى الخُلَصة » فقيل : إنه بيت أصنام كان لدوس وخثعم وبجيلة ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة ، ثم أحرقه جرير ابن عبد الله البَجَلى حين بعثه النبى صلى الله عليه وسلم[2]، وقيل إنه كان لعمرو بن لحى بن قمعة نصبه بأسفل مكة حين نصب الأصنام فى مواضع شتى ، فكانوا يلبسونه القلائد ويعلقون عليه بيض النعام ويذبحون عنده ، وكانوا يعنون بتسميتهم له بذلك الاسم أن عباده والطائفين به من الخلاصة[3]، وقيل هو

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٤٦ . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٤٧ تاريخ .

(٢) ياقوت معجم البلدان .

(٣) تاريخ مكة المشرفة . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٠ ، تاريخ ورقة ٣٢ .

الكعبة اليمانية التى بناها أبرهة بن الصباح الحميرى وكان فيه صنم يدعى الخلصة فهدم ، وقيل إن ذا الخلصة كان بيتا تعبده بجيلة وخثعم والحارث بن كعب وَجرْم وزُبيد والغَوْث بنُ مر بن أد و بنو هلال بن عامر وكانوا سدنته بين مكة واليمن بالعَبْلاء على أربع مراحل من مكة[1]، وقيل إن ذا الخلصة كان صنما بتبالة كانت العرب جميعاً تعظمه وله ثلاثة أقداح : الآمر والناهى والمتربص[2].

أما « رئام » فكان بيت نُسُك يُستنسك عنده ويحج إليه ، وينسب إلى رئام بن نهفان بن تبع بن زيد بن عمرو بن همدان ، وعلى مقربة منه جبل « أقوى » من بلد همدان ، وعلى مقربة منه قصر المملكة . وأمام باب القصر حائط فيه بلاط ، فيها صور الشمس والهلال ، فإذا خرج الملك ورآها كفر لها بأن يضع راحته تحت ذقنه عن وجه يستره ثم يخر بذقنه عليها . يقول الشاعر :

إنا بنو أود الذى بلوائه صعبت رئام وقد غزاها الأجرع[3]

وكان بحضرموت صنم يدعى « الجلْسَد » تعبده كندة وحضرموت ، وسدنته بنوشكامة بن الشبيب بن السكون ، ثم بنو علاق ويسدنه منهم الأخرز ابن ثابت . وكان للجلسد حمى ترعاه سوامه وغنمه ، وكانت هوافى الغنم إذا رعت حمى الجلسد حُرِّمت على أربابها . وكان كجثة الرجل العظيم وهو من صخرة بيضاء ، وإذا تأمله الناظر رآه كصورة وجه الإنسان[4]، قال الشاعر :

فبات يجتاب شقارى كما بيقر[5] من عشى إلى الجلسد[6]

(١) ياقوت : معجم البلدان .
(٢) ابن الكلبى : الأصنام ص ٤٧ .
(٣) الهمدانى : الإكليل ج ٨ ص ٨٢ .
(٤) ياقوت : نفس المصدر .
(٥) البيقرة مشية يطأطىء الرجل فيها رأسه .
(٦) ياقوت : نفس المصدر .

وكان لمالك وملكان ابني كنانة بساحل جدة صنم يقال له « سعد » ، وكان صخرة طويلة[١] . وقيل إن هذا الصنم كانت تعبده هذيل[٢] . ولدينا قصة رجل من بني مالك وملكان أقبل بإبل له ليقفها عليه « يتبرك بذلك فيها ، فلما أدناها منه نفرت فذهبت في كل وجه و تفرقت إليه فتناول حجراً فرماه به ، وقال لابارك الله فيك إلها ، أنفرت علىّ إبلى » ، ثم خرج في طلبها حتى جمعها وانصرف عنه وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد
وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من أرض لا يدعى لغي ولا رشد[٣]

وكان للعرب أيضا « مناف » ومنه كانت تسمى قريش عبد مناف ، ولا يعرف أين كان ولا من نصبه وقيل إنه صنم عبد في الجاهلية[٤] . يقول ياقوت « إنه كان مستقبل الركن الأسود وله غبغبان أسودان من حجارة تذبح بهما الذبائح[٥] .

ومن الأصنام المعرفة في الجاهلية : « بَذل » ، و « أوال » الذي كان لبكر بن وائل وتغلب بن وائل ، و « بلج » وكان في عميرة وغفَاية من عنزة ابن ربيعة[٦] ، و « جهار » وهو صنم كان لهوازن بمكاظ وسدنته آل عوف النصَريين[٧] : أما « بساء » فهو بيت بنته غطفان وسمته كذلك مضاهاة للكعبة وهو من قولهم : لا أفعل ذلك أبسّ عبد « بناقته » وهو طوفانه حولها ليحلبها ، وأبَس الإبل عند الحلب إذا دعا الفيصل إلى الناقة ليستدرها به ، فكأنهم

(١) ابن الكلبي : الأصنام ص ٣٦ .
(٢) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٤ .
(٣) ابن الكلبي : نفس ص ٣٦ — ٣٧ .
(٤) الشدياق : الساق على الساق ص ١٥٥ — ١٥٨ .
(٥) ياقوت : معجم البلدان .
(٦) ياقوت : نفس المصدر .
(٧) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٥ — ١٥٨ .

كانوا يستحلبون الرزق فى الطواف حوله . وسمى هذا الصنم كذلك باسم « بس » وهو بيت لغطفان بناه ظالم بن أسعد لما رأى قريشا يطوفون بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، فذرع البيت وأخذ حجراً من الصفا وحجراً من المروة ، فرجع إلى قومه فبنى بيتاً على قدر البيت ووضع الحجرين وقال : هذا من الصفا والمروة ، واجتزأ به عن الحج فأغار زهير بن جناب الكلبى ، فقتل ظالما وهدم بناءه[١].

و « الكعبات » هو بيت كان لربيعة يطوفون به ، وقيل إنه كان لبكر وتغلب ابنى وائل وإياد فى سنداد[٢]. قال الأسود بن يعفر :

أهل الخورنق والسدير وبارق   والبيت ذى الكعبات من سنداد

ومن أصنام العرب فى الجاهلية : « زُون » وهو صنم كان بالأُبلة ، وشمس صنم كان لبنى تميم وله بيت وتعبده بنو أدّ وضبة وتيم وعدى وثور وعكل ، وسدنته فى بنى أوس ، وكسره هند بن أبى هالة وصفيان بن أسيد[٣]. وذكر الأب لويس شيخو تلبية هذا الصنم وهى . لبيك اللهم لبيك ! ما نهارنا نجره لامه وحره وقره ، لا نتقى شيئاً ولا نضره ، حجاً لرب مستقيم بره[٤]. وكان « الضمار » صنما فى ديار سُلَيم بالحجاز ذُكر فى إسلام العباس بن مرداس السلمى[٥]، وكان لخولان صنم يقال له « عَمّ أنس » بأرض خولان يقسمون له أنعامهم وحرثهم قسما بينه وبين الله وسمى كذلك عُميانس[٦]، و « المدان » هو اسم

(١) الشدياق : الساق ص ١٥٥ — ١٥٨

(٢) ابن هشام : السيرة ج ١ ص ٥٧ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان .

(٤) شيخو : النصرانية وآدابها ج ١ ص ١٥ .

(٥) ابن هشام : نفس المصدر والجزء ص ٥٣ .

(٦) الشدياق : صاحب الساق ص ١٥٥ .

صنم ومنه عبد المدان ، و « المحرّق » صنم كان بسلمان لبكر بن وائل وسائر ربيعة وكانوا قد جعلوا له فى كل حى من ربيعة ولدا وسدنته أولاد الأسود العجليون[١] .

أما « الغبغب » ، فقد اختلف فى كونه صنما أو موضعاً للنحر . يقول ياقوت : الغبغب هو الموضع الذى كان ينحر فيه اللات والعزى فى الطائف وخزانة مايهدى إليها ، وقيل هو بيت كان لمناف وهو صنم كان مستقبل الركن الأسود وله غبغبان أسودان من حجار تذبح بينهما الذبائح ، وللغبغب حجر ينصب بين يدى الصنم . . . وكانوا يقسمون لحوم هداياهم فيمن حضرها وكان عندها[٢] . وذكر صاحب الساق : أن الغبغب هو صنم ليس إلا[٣] . أما ابن سيدة فقد أطلق عليه « غبغب » وذكره على أنه صنم كانت تعبده قضاعة[٤] .

ومن أصنام العرب فى الجاهلية صنم عرف باسم « مَرْحَب »[٥] . وكان « الضيزن » صنما يعبد فى الجاهلية[٦] ، وقيل إنه كان لدوس[٧] ثم لبنى منهب ابن دوس[٨] ، ذكره الأزرقى عند ماتكلم عن كسر الأصنام بعد فتح مكه[٩] . أما « الضيزنان » فهما صنمان كانا للمنذر الأكبر اتخذها بباب الحيره ليسجد لهما كل

---

(١) ياقوت : معجم البلدان.
(٢) ياقوت : نفس المصدر .
(٣) الشدياق : الساق ص ١٥٥ .
(٤) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٥ .
(٥) الشدياق : نفس المصدر ص ١٥٠ .
(٦) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٠٠٤ .
(٧) كانت دوس تنزله فى قسم من جبل السراة ، يسمى سراة دوس .
(٨) ابن الكلبي : الأصنام ص ٣٠ .
(٩) الأزرقى : أخبار مكة ج ص ٧٨ .

كل من دخل الحيرة امتحانا للطاعة[١]، وفيهما قال صاحب كتاب الحيرة « كان لجذيمة الأبرش التنوخي صنمان يقال لهما الضيزنان وكان جذيمة قد تنبأ وتكهن وكان يستسقى بهما و يستنصر بهما على العدو »[٢].

ونصب عمر بن لحى على الصفا صنما يقال له « نهيك مجاود الريح » ونصب على المروة صنما يقال له « مطعم الطير »[٣]. كما أن « الشارق » كان صنما فى الجاهلية به سمى عبد الشارق[٤]. وكان « الفلس » صنما » لطيء فى الجاهلية وهو على هيئة جمل أسود ثم تآكل بفعل المؤثرات الجوية حتى بدا للرائى كأنه تمثال إنسان[٥].

ومن أصنام الجاهلية « العتر » ومعناه فى اللغة الذبيحة التى كانوا يذبحونها فى الجاهلية فى رجب ، و « عَوْض » وهو صنم لبكر بن وائل ، و « نهم » صنم لمزينة و به سموا عبدنهم ، و « السكُسُعة » وثن[٦] كان يعبد ، و « كثرى » صنم لجديس وطسم كسره نهشل بن الرئيس ولحق بالنبى صلى الله عليه وسلم فأسلم ، و « الأشهل» صنم عبد فى الجاهلية ومنه بنو الأشهل وهم حى من العرب وعبد العرب فى الجاهلية أصناماً منها : البجة والسجة وآزر وباجّر والدّوار والدار وسفير والأقيصر وجريش والعوف ونصر وشريق وَودْع وذو الشرى والجبهة وعائم والأسحم وياليل والبعيم ومنهب[٧].

---

(١) ابن سيدة : المخصص ج ١٣ ص ١٤٠ .

(٢) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٢٩ .

(٣) الفاكهى : تاريخ مكة ص ٦ .

(٤) ابن سيدة : نفس المصدر والجزء ص ١٠٥ .

(٥) محمد محمود جمعة : النظم السياسية والاجتماعية ص ١٢١ .

(٦) إذا كان الصنم من خشب أو فضة أو ذهب على صورة إنسان فهو » صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن . ياقوت : معجم البلدان .

(٧) الشدياق : الساق ص ١٥٦ ـ ١٥٨ .

كان للعرب بيوت تحج إليها ، مثل اللات وذى الخلصة وكعبة غطفان التى بناها ظالم بن سعد بن ربيعة ، فسار إليها زهير بن حباب الكلبى وهدمها ، فقال الرسول عليه السلام : لم يكن شىء من أمر الجاهلية وافق الإسلام إلا ما صنع زهير بن حباب[١] .

أما بنو الحارث بن كعبة ، فكانت لهم كعبة فى نجران يعظمونها ، وقد قيل إنها لم تكن كعبة عبادة ، وإنما كانت غرفة لأولئك القوم[٢] ، دعاها بعضهم دير نجران « وتسمه العرب كعبة نجران ، وهو لبنى الحارث ابن كعب »[٣] . وممن دعاها ديراً ، ياقوت ، فقال : « هو باليمن لآل عبد المدان ابن الديان من بنى الحارث بن كعب ، كانوا قد بنوه مربعا مستوى الأضلاع والأقطار مرتفعا عن الأرض ، يصعد إليه بدرجة على مثل بناء الكعبة ، فكانوا يحجونه هم وطوائف من العرب ممن تحل عليهم الأشهر الحرم ولا يحج الكعبة وتحجه خثعم قاطبة »[٤] . وكان لإياد كعبة أخرى بسنداد من أرض بين الكوفة والبصرة[٥] .. وعدت كعبة شداد الإيادى من البيوت التى كانت العرب تحج إليها[٦] .

أما أهل الحيرة ، فقد كان لهم صنم أطلق عليه اسم « سُبُد »[٧] يحلفون به ويقولون به « حق سبد »[٨] وذهب أنستاس الكرملى إلى أنه ربما كان من الأصل ، إذ عند أبناء وادى النيل إله يعرف باسم « سوبدو »[٩] .

---

(١) الهمدانى : الإكليل ج ص ٨٤ .
(٢) ابن الكلبى : الأصنام ص ٤٤ .
(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ٣٥٨ .
(٤) ياقوت : معجم البلدان ج ١٧٨ .
(٥) ابن الكلبى : الأصنام ص ٤٥ .
(٦) الهمدانى : نفس المصدر والجزء ص ٨٤ .
(٧) الأصفهانى : الأغانى ج ص ١٠٢ .
(٨) يوسف غنيمة : الحيرة ص ٣٠
(٩) صحيفة دار السلام البغدادية : عدد تشرين الثانى ، سنة ١٩١٩

(ب) عبادة الحيوان :

وكما عبد العرب فى الجاهلية الحجارة والبيوت والأصنام ، عبدوا كذلك الحيوان . قال السهيلى : خرج نفر من طىء يريدونَ النبى عليه السلام بالمدينة وفودا ، ومعهم زيد الخيل ووز بن سروس النبهانى فعقلوا رواحلهم بفناء المسجد ودخلوا فجلسوا قريباً من النبى صلى الله عليه وسلم حيث يسمعون صوته ، فلما نظر النبى صلى الله عليه وسلم إليهم ، قال : إنى خير لـكم من العزى ولاتها ، ومن الجمل الأسود الذى تعبدون من دون الله ، ومما حازت مناع من كل ضار غير نفاع »[1] . واختلف الباحثون فى تفسير ماذهب إليه السهيلى : فقد قيل إنه طيئاً كانت تعبد صنما لها يقال له « فلس » ، وأن ذلك الجمل الأسود الذى أورده السهيلى فى روايته لم يكن إلا صورة لذلك الصنم « فلس »[2] . وقيل إن العرب عبدوا الحيوان الحى نفسه ولم ينحتوا الأصنام على صورته[3] .

وكانت الآرام والظبيان والغزلان بأنواعها المختلفة مقدسة عند العرب ، وظلت تعبد إلى عصر متأخر فى بيوت الأصنام فى مكة وتبالة وغيرها ، فقد كان العرب فى الجاهلية يعتقدون أن لتلك الحيوانات قوة خفية وأنها قادرة على البطش والانتقام ، وذلك ظاهر من الأساطير التى ظلت متداوله إلى مابعد ظهور الإسلام[4] . وكان الحمام كذلك من بين الطيور التى عبد العرب أصنامها فى الجاهلية ، وقد أقاموا له صنما فى الـكعبة[5] ، فقـد ذكر ابن هشام

(١) السهيلى : الروض الأنف جـ ٢ ص ٣٤٢ .
(٢) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٢١ .
(٣) محمد عبد المعيد خان : الأساطير العربية ص ٨١ .
(٤) Robertson : The Religion of Semites, Note F.
(٥) محمد محمود جمعة : نفس المصدر ص ١٤٠ .

أن رسول الله لما ترك مكة وأتم طوافه « دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له فدخلها فوجد فيها حمامة من عيدان فكسرها بيده ثم طرحها[1].

ويظهر أن العربى قد عبد الحيوان الحى نفسه ، ولم ينحت الأصنام على صورة الحيوان ، لأنه كان جاهلا بصناعة الرسم والنحت ، وكان معظم الأصنام ، التى وجدت على صورة الحيوان فى شبه جزيرة العرب ، مجلوبة من البلاد المجاورة ، وعددها ثلاثة :

١ — النسر : وكان على صورة النسر ، ولقد ورد ذكره فى النقوش القتبانية والسبئية ، ويظهر أن عبادته قد دخلت جزيرة العرب من مصر ، ويرى فلهوزن أن عبادته كانت متصلة بالكواكب وأنها كانت تشير إلى مجموعة الكواكب القريبة من المجرة[2].

٢ — يغوث : وكان على هيئة الأسد .

٣ — يعوق : وكان على هيئة الفرس .

ومنها عَوْف ، وهو اسم طائر صياد وأحد أسماء الأسد ، ورد ذكره كإله فى الأعلام ، فقالوا : عبد عوف[3] . ولكن هذه الأصنام الحيوانية لم تترك أثراً فى حياة العرب[4] .

وهناك ارتباط وثيق بين أرض الحى وبين الحيوان والطير . فمن حقوق الحى أن لا يظلم الناس فى تلك الحدود ، وأن لا يقتنص الصياد الحيوان ولا الطير فى هذه الأرض المقدسة . وليس ببعيد أن يكون ذلك هو السبب فى أن عمرو بن لحى قد قام بتنصيب الأصنام على مواطن المياه والآبار وساحل

---

(١) ابن هشام : سيرة رسول الله ص ٨٢٢ .
(٢) محمد محمود جمعه : النظم السياسية والاجتماعية ص ١٣٩ .
(٣) شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ١٣ .
(٤) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ٨١ .

البحر ، كما قيل إنه نصب هبل على البئر التي كانت في جوف الكعبة وسميت « الأخسف »[١] .

قدس العربي الحيوان وعبده ، تحصيلا للبركة، وشكرا لاستفادته منه ، جريا على عادة الرعاة قديماً[٢] ، أو لاعتقادهم أنها تشترك مع الإنسان في بعض الصفات الشخصية ، ومن أجل ذلك كانوا يمتنعون عن أكل لحومها[٣] .

وذهب فريق من العلماء إلى أن العرب لم يقدسوا أو يعبدوا الحيوان من أي نوع كان ، لأن أقدم آلهة العرب كانت آلهة أرضيـة متصلة بالتربة والسقي والخصب والنتاج ، وهو أمر طبيعي لسكان البيد والصحراء ، وصار لذلك صدى في تعظيم الأشجار والعيون والآبار[٤] .

(ب) عبادة الأشجار :

لم يكن نصيب الأشجار من العبادة والتقديس بأقل من نصيب غيرها مما قدسه العرب وعبدوه ، وقد يكون مرجع ذلك إلى ندرة الأشجـار في الجزيرة العربية . وكان لكفار قريش شجرة عظيمة خضراء يقال لهـا « ذات أنواط » ، يعلقون عليهـا كل سنة أسلحتهم ، ويذبحون ويعكفون بجوارها يوما ، وكان من حج منهم وضع زاده عندها ودخل بغير زاد تعظيما لها[٥] ، وكما قيل عن ذات أنواط ، كذلك قيل عن العزى إنها كانت ثلاث شجيرات سمرات بنخلة . وكان أول من دعا إلى عبادتها عمرو بن ربيعة والحرث بن كعب[٦] . وجاء في بعض المصادر ، أن العربي كان يعبد الأشجار ويرى فيها روح الشر ، مثل شجرة الحاطة ، وهي أحب الشجر إلى الحيات[٧] .

---

(١) محمد خان : الأساطير العربية قبل الإسلام ص ١٠٢ .

(٢) محمد خان : نفس المصدر ص ٨٣ .

(٣) محمد جمه : النظم السياسية والاجتماعية ص ١٠٤

(٤) محمد جمة : نفس المصدر ص ١٣٩ .

(٥) الأزرقي : أخبار مكة ج ١ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٦) القرشي : تاريخ مكة المشرفة ، ورقة ٣٢ (مخطوط) .

(٧) محمد خان : نفس المصدر ص ٥٢ .

٢ – الديانة المسيحية

كان لابد للمسيحية أن تنتشر فى بلاد العرب انتشاراً ، أقل ما يقال فيه ، إنه استطاع أن يجذب العديد من القبائل العربية إلى النصرانية ، وذلك لأنها كانت تحيط بتلك البلاد من الشمال حيث يوجد الروم ، ومن الجنوب حيث الأحباش .

أخذ المبشرون يجوبون بلاد العرب للتبشير بهذا الدين ، يعزز نشاطهم ويشد أزرهم ، النفوذ السياسى للدولتين المسيحيتين المجاورتين لبلاد العرب وهما : مملكة الحبشة فى الجنوب والدولة الرومانية فى الشمال . وذكر المؤرخون الكثير من القصص عن المبشرين الذين كانوا يدعون للمسيحية سراً ، فإذا عرف أمرهم تركوا تلك البلاد وانتقلوا إلى غيرها . ومن بينها ، قصة فيمون ، الذى نشر دين النصرانية فى نجران حسب رواية مؤرخى العرب ، الذين يذكرون أنه كان رجلاً صالحاً مجتهداً فى العبادة مجاب الدعوة . وكان يتعمد الخفاء عن الناس ، ولكن فطن لشأنه رجل من أهل الشام يدعى صالح ، فلزمه ، وخرجا فارين بأنفسهما حتى وطئا بلاد العرب ، واختطفتهما قافلة وبيعا فى نجران ، وحين كان يؤدى الصلاة فى الليل ، سأله سيده عن دينه ، فأخبره به ، وقال له ، إنما أنتم على باطل ، وهذه الشجرة لا تضر ولا تنفع[1] ، ولو دعوت عليها إلهى الذى أعبده لأهلكها ، وهو وحده الذى لا ند له ودعا فيمون ، فأرسل الله ريحا جففت النخلة من أصلها . وأقبل أهل نجران على دين عيسى ، وانتشرت النصرانية[2] .

---

(١) كان أهل نجران فى ذلك الوقت يعبدون نخلة طويلة لهم .
(٢) ياقوت : معجم البلدان .

وهناك شواهد ثابتة نقلها مؤرخو العرب ، تدل دلالة واضحة على أن المبشرين المسيحيين لم يحجموا عن الدعوة لدينهم في الحجاز : فذكر ابن خلدون في تاريخه بعثة برثلماوس إلى أرض الحجاز والعرب[١] ، وسبقه الطبرى إلى ذلك فقال : وكان ممن توجه من الحواريين . . . ابن ثلما (برثلماوس) إلى العرابية وهي أرض الحجاز[٢] ، وكذلك ورد في سيرة الرسول لابن هشام عن ابن اسحق : وكان ممن بعث عيسى بن مريم عليه السلام من الحواريين والأتباع الذين كانوا بعدهم في الأرض ، ابن ثلما ، إلى الأعرابية وهي أرض الحجاز[٣] . ويقول شيخو : ومما زاد النصرانية ترقياً في بلاد العرب عدد كبير من الكهنة والأساقفة والرهبان كانوا في أيام الاضطهادات على عهد القياصرة الوثنيين أو ملوك الرومان المتشيعين لا يجدون أماناً لحياتهم إلا بأن يهجروا بلادهم ويفروا إلى بلاد العرب حيث كان يصعب على المغتصبين أن يدركوهم ويلحقوا بهم الأذى[٤] ، كما كان القسس والرهبان يردون أسواق العرب يعظون ويبشرون[٥] .

ولم تكن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية ، تجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها ، لا تصالها الدائم بقبائل الشمال التي كانت تدين بالنصرانية . كما أن الرهبان الذين انتشرت صوامعهم في فلسطين وشبه جزيرة سينا حتى قلب الصحراء ، كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية . أضف إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق النصرانية المضطهدة من الكنيسة الرسمية ، فكان طبيعياً أن تكون أقدر على النجاح في نشر تعاليمها من كنيسة الدولة الرسمية .

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٢ ص ١٤٠ .
(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٧٣٨ .
(٣) ابن هشام : السيرة ص ٩٧٢ .
(٤) لويس شيخو : النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية ج ١ ص ٣٦ .
(٥) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٣١ .

٣ـ الديانة اليهودية

بلغت اليهودية أقاصى الجزيرة العربية، مجتازة أواسطها، ولكن فى نفوذ قليل وتأثير أقل : ولعل ذلك راجع إلى نظرة عرب الجزيرة فى ذلك الحين إلى الديانة اليهودية ومعتنقيها، وإلى عدم وجود دولة أخذت على عاتقها نشر الديانة اليهودية فى بلاد العرب كما فعلت الدولة الرومانية الشرقية حين روجت للمسيحية بإرسالها الرهبان والمبشرين هناك .

غير أن الديانة اليهودية عندما دخلت بلاد العرب لم يأخذ تلك الصورة التى أخذتها الديانة المسيحية فى تلك البلاد ، فإن الأحبار اليهود لم يأخذوا على عاتقهم نشر الديانة اليهودية بين العرب كما فعل المبشرون المسيحيون ، بل إن الديانة اليهودية دخلت فى بلاد العرب على يد جماعات من اليهود انتقلت بأمرها إلى بلاد العرب واستوطنوها وسكنت فى أراضيها ، وترتب على ذلك أن العرب المجاورين لتلك الأقوام تهودوا تبعاً لمجاورتهم تلك الجماعات اليهودية .

وجدت الديانة اليهودية ـ أول ماوجدت ـ فى بلاد اليمن ، ويدعى يهود اليمن أن أجدادهم ظعنوا إلى ذلك القطر منذ عهد سليمان الحكيم ، ويذهب بعض المؤرخين إلى أن اليهودية كانت منتشرة فى اليمن على عهد الملك ياسر أنعم (وهو ناشر النعم) ، وقيل إن انتشارها كان فى عهد تبان أسعد أبو كرب وهو خليفة ياسر أنعم [1]

أما عن كيفية ظهور اليهودية فى بلاد الحجاز ، فقد أوضح ياقوت أن «سبب نزول اليهود فى المدينة ، أن موسى بن عمران عليه السلام بعث إلى الكنعانيين حين

---

(١) يوسف غنيمه : نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق ص ٨٨ — ٩٩.

أظهره الله تعالى على فرعون ، فوطىء الشام وأهلك من كان بها منهم ثم بعث بعثاً آخر إلى الحجاز وأمرهم الا يستبقوا أحداً ممن بلغ الحلم إلا من دخل فى دينه ، فقدموا عليهم فقاتلوهم فأظهرهم الله عليهم فقتلوهم وقتلوا ماسكهم الأرقم » (١) .

ويمكن القول أن جموعاً كثيرة من اليهود فى القرن الأول والثانى بعد الميلاد أخذت تهاجر إلى الأرجاء العربية عموماً وإلى الربوع الحجازية بنوع خاص . ولا شك أنه كانت هناك أسباب أخرى دعت هذه الجموع إلى ترك أوطانها والنزوح منها إلى البلاد العربية ، وأهم هذه الأسباب .

١ ـ زيادة عدد اليهود فى فلسطين زيادة مضطردة ، فقد قيل إنهم بلغوا أربعة ملايين .

٢ ـ اضطهاد الرومان لليهود فى القرن الأول قبل الميلاد ولجوءهم إلى أرض الجزيرة العربية التى كانت أحب إليهم من غيرها لأنظمتها البدوية الحرة ، ونظراً لوجودها فى أقاليم رملية بعيدة تعوق سير القوات الرومانية المنظمة وتمنع توغلها .

٣ ـ بعد حرب اليهود والرومان سنة ٧٠ م التى انتهت بخراب بلاد فلسطين ودمار هيكل بيت المقدس وتشتت اليهود فى أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة أخرى من اليهود بلاد العرب (٢) .

وجد اليهود فى بلاد العرب ونشروا فى البلاد التى نزلوها فى جزيرة العرب تعاليم التوراة وما جاء فيها من تاريخ خلق الدنيا ومن بعث وحساب وميزان وجنة ونار . كذلك كان لليهود أثر كبير فى اللغة العربية ، فقد أدخلوا عليها كلمات كثيرة لم يكن يعرفها العرب ومصطلحات دينية لم يكن لهم بها علم مثل جهنم

(١) ياقوت : معجم البلدان

(٢) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ٨ — ٩ .

والشيطان وإبليس [١] . واقتبس عرب الحجاز من اليهود أموراً كثيرة : كالحج والذبائح والزواج والطلاق والكهانة والاحتفال بالأعياد [٢] . ولما استقر اليهود ، وعملوا على حفر الآبار فى الأراضى العالية واشتغلوا بتربية الماشية والدجاج ونسج الأقمشة ، وكانت التجارة من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز [٣] .

وقد استطاع هؤلاء اليهود ، رغم ماقيل من أنهم كانوا قليلى الدعوة لهذا الدين ، أن يؤثروا على بعض العرب ويهودوهم ، فقد قيل إنه تهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير [٤] . كما دانت بعض القبائل باليهودية ومنها بنو نمير وبنو كنانة ، ولعلها سرت إليهم من مجاورة اليهود لهم فى تيماء ويثرب وخيبر [٥] ، وصالح النبى صلى الله عليه وسلم أهل مقْنَا على ربع عروكهم وغزولهم وعلى ربع ثمارهم وكانوا يهودا [٦] . ومع ذلك لم تستطع اليهودية أن تتغلب على الوثنية فى بلاد العرب ، لأن كثيراً من أحكامها مبنى على المشقة ولأنها إن أباحت قتال الوثنيين — والقتال دين العربى — فإنها لا تبيح الانتفاع بغنائمهم بل تحرقها ، والعربى إنما يقاتل لينتقم من عدوه فى نفسه وينتفع بماله وأهله [٧] .

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ٢٧ .
(٢) جرجى زيدان . تاريخ التمدن الإسلامى جـ ١ ص ١٥ .
(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٠ — ١٩ .
(٤) اليعقوبى : تاريخه جـ ١ ص ٢١٣ .
(٥) محمد نعمان الجارم : أديان العرب فى الجاهلية ص ٢٠١ .
(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٦٠ .
(٧) محمد نعمان الجارم : نفس المصدر ص ٢٠١ .

٤ – الصابئة والمجوسية والزندقة

(ا) الصابئة :

يُنسب الصابئة دينهم إلى سيدنا نوح وإلى إبراهيم الخليل ، بالتلقى عن نوح وعن إدريس ، ومنهم عبدة الأصنام والكواكب . ويعتقدون أن الثواب والعقاب إنما يلحق الأرواح ، وأن النبي هو البرئ من المذمومات ، والصابئة تمنع توريث الفاسق ويعتقدون فى بعث الأرواح لا الأجسام وطهارة النفس العاصية بعد ثلاثة آلاف سنة وأن الرسل لم يبعثهم الله بل هم ملهمون من المجردات ، وحرموا تعذيب الحيوان وقتله إلا ما أحل أكل لحمه[1] . وهم ينقسمون إلى كافر ومؤمن . ولذلك ذكرهم الله تعالى فى الأمم الأربع ، التى تنقسم كل أمة منها إلى ناج وهالك[2] .

وهم يعظمون الكواكب وينقسمون فى ذلك إلى ثلاث فرق : الأولى : ذهبت إلى أن الكواكب واجبة الوجود لذاتها غير محتاجة إلى مخصص ، والثانية : ترى أن الكواكب آلهة ولكل منها عمل قائم به فى هذا العالم يصدر عنه لا يقدر عليه غيره ، وأنها أبدية الوجود أزلية الأولية تجرى أحكامها لا لغاية ، والثالثة : ترى أن لهذه الكواكب والأفلاك إلها مبدعا أعطاها قدرة وإرادة ذاتية نافذة فى هـــذا العالم وفوض إليها تدبيره . وهذه الطوائف كان لها عصبيات فى بلاد العرب فدانت العرب بهذا الدين واعتنقته

---

(١) نعمان الجارم : أديان العرب ص ١٨٥ .
(٢) الجارم : نفس المصدر ص ١٧٦ .

و بنوا الهيا كل العظيمة وقدموا لها القرابين وحجوا إليها وذبحوا لها الذبائح . وأول من دان بهذا الدين من العرب قبائل الحيرية[1] . ولقد كانت كنانة تعبد القمر ، وحمير الشمس ، وميسم الدبران ، ولخم وجذام المشترى ، وطيء سهيلا ، وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارد . وكان بعضهم أيضا يكرم زحل والجوزاء والجبار أو الثريا و يستدل عليه من بعض أعلامهم كعبد الثريا وعبد نجم وعبد الجبار[2] .

وأخص أنواع عبادتهم الشمس ، كانت بالسجود لها عند شروقها وعند غروبها وعند توسطها السماء ، ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن صلاة النوافل فى هذه الأوقات قطعاً لمشابهة الكفار ظاهراً وسدا لذريعة الشرك . أما آثار عبادتهم للكواكب فمنها تسميتهم أنفسهم بأسماء مضافة لها بالعبودية كعبد شمس وعبد المشترى . ومن الصابئة أخذ العرب علم النجوم واشتغلوا به كثيراً حتى أن ابن قتيبة ذهب إلى تفضيلهم فيه عن العجم[3] .

(ب) المجوسية :

تدور عقائد المجوسية على قاعدتين : إحداها بيان سبب امتزاج النور بالظلمة ، والثانية سبب خلاص النور من الظلمة . وهم يعتقدون بوجود فاعلين أزليين يصدر عن أحدهما الخير وعن الثانى الشر ، فاعتقدوا بوجود إلهين : أحدهما نور ومبدأ الخير كله و يسمونه أهورا مزدا ، والثانى ظلام ومبدأ الشر كله و يسمونه أهرمان أو أهرمن .

ولقد تحكم سدنة هذا الدين فى رقاب الناس وتصرفوا فى معتقداتهم[4] . وقد دخلت المجوسية بلاد العرب ، يثبت ذلك ما أورده البلاذرى فى « فتوح

(١) نعمان الجارم . أديان العرب ص ١٧٦ .
(٢) لويس شيخو : النصرانية وآدابها جـ ١ ص ١١ .
(٣) البتنونى : الرحلة الحجازية ص ١١١ .
(٤) روفائيل بابو اسحق : تاريخ نصارى العراق ص ١ — ٢ .

البلدان ، حيث قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الجزية من مجوس هجر ومجوس أهل اليمن ، وفرض على كل من بلغ الحلم من مجوس اليمن من رجل وامرأة ديناراً .

(ح) الزندقة :

هؤلاء الزنادقة هم أتباع مزدك الذى خرج فى أيام قباذ بن فيروز بن يزدجرد ملك الفرس ، فدعا الناس إلى الزندقة ، فأجابه قباذ إلى ذلك ، ولم يلبث قباذ أن دعا الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار ملك نجد إلى ذلك الدين ، فأجابه إلى طلبه واستعمله قباذ على الحيرة وطرد المنذر من مملكته ، ويقول اليعقوبى فى ذلك « وتزندق حجر بن عمر الكندى »[1] . وقيل إن الزندقة فى العرب كانت فى قريش ، أخذوها من الحيرة[2] . وخلط بعض المؤرخين بين الزندقة والمجوسية فقد جاء فى « بلوغ الأرب » : أن المجوس يلقبون بالزنادقة ، لأن الكتاب الذى زعم زرادشت أنه نزل عليه من عند الله ، سمى بالزند ، والمنسوب إليه يسمى زندى ، ثم عُرب فقيل زنديق ثم جمع فقيل زنادقة »[3] . على أن الزنادقة هم أتباع مزدك ، والمجوس تختلف كل الاختلاف عن الزنادقة . وهذا يثبت عدم صحة هذه الرواية .

ووجد كذلك بين العرب من أخذ بالمانوية ، وهؤلاء هم أصحاب مانى ابن فاتك الحكيم ، الذى ظهر فى زمن سابور أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور وذلك بعد عيسى عليه السلام . وقد أخذ دينا بين المجوسية والنصرانية ، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام[4] .

---

(١) اليعقوبى : تاريخه جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) محي الدين العطار : بلوغ الأرب فى مآثر العرب ص ٨٨ .

(٣) العطار : نفس المصدر ص ٦٩ .

(٤) ابن حزم : الملل والنحل ص ٨١ .

ولم يقدر لدين من هذه الأديان الفوز والغلبة فى بلاد العرب ، وفطن المستنيرون العرب إلى سوء حالتهم الدينية ، وعمدوا إلى التخلص من الوثنية وعبادة الأوثان وعادات الجاهلية ووأد البنات وشرب الخمر ولعب الميسر ، ودعوا إلى دين توحيد جديد ، ونادوا بوجود إله واحد يحاسب ويجازى الناس على أعمالهم من خير وشر. وكان ضعف شأن الوثنية وانتشار الآراء المسيحية واليهودية والمذاهب الفارسية ، مما مهد الطريق لظهور النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

الباب الثانى

الدولة العربية

من ظهور الإسلام وسقوط الأمويين

البعثة النبوية — الخلفاء الراشدون — الدولة الأموية

أولا — البعثة النبوية

نشأة الرسول :

اختار عبد المطلب لابنه عبد الله — وكان فى الرابعة والعشرين من عمره — فتاة من أسرة عريقة فى الجاهلية ، هى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وكان وهب سيد بنى زهرة. و بعد أن أقام عبد الله مع زوجه فى ديار أهلها ثلاثة أيام ، انتقل بها إلى منازل بنى عبد المطلب ، وأقام معها أياما قليلة ، ثم خرج فى تجارة إلى الشام وتركها حاملا ، ولكنه لم يعد من تلك الرحلة ، حيث مات فى يثرب ودفن ، وتقدمت بآمنة أشهر الحمل ، حتى كان مولده عليه السلام فى صبيحة يوم الأثنين الموافق ٢٠ إبريل سنة ٥٧١ م ، وهى السنة التى يطلق عليها « عام الفيل » : وعهدت أمه إلى حليمة السَّعْدِيّة بإرضاعه ، فرحلت به إلى البادية حيث تقيم مع بنى سعد ، و بعد أن بقى عندها خمس سنوات ردته إلى أمه ، و بذلك نشأ محمد فى جو بدوى ، وكان لذلك أثره فى تعلمه لغة أهل البدو الفصيحة[1] .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٧٣ .

ومحمد عليه السلام من قبيلة قريش ، القبيلة العربية التى ترأسها قصى ، من أبوين فقيرين فى مالهما ، غنيين فى جاههما وحسبهما . وقد مات أبوه قبل أن يولد ، فكفلته أمه . ولما بلغ السادسة من عمره خرجت به لتزور أخواله فى يثرب ، فمكثت هناك شهراً ، ثم عزمت على العودة إلى مكة ، وبينما هى فى الطريق توفيت . فكفله جده عبد المطلب ، ولم يمض على ذلك سنتان حتى توفى جده ، وكفله عمه أبو طالب ومحمد فى التاسعة ، وصار منذ ذلك الوقت يحنو عليه ويعنى به ويخرجه معه فى أسفاره ، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء والبر وطيب النفس ما جعله يزداد به تعلقا ، بذلك نشأ محمد يتيما فقيرا ، وفى ذلك يقول تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى ، ووجدك ضالا فهدى ، ووجدك عائلا فأغنى)[1] .

وكان رسول الله يرعى الغنم وهو طفل ، ثم اشتغل بالتجارة وسافر إلى الشام ، وعندما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، جمعته بالسيدة خديجة بنت خويلد المصالح الاقتصادية ، إذ وجدت فيه الشخص الأمين على مالها وبضاعتها ، فأرسلته مع خادمها ميسرة ليتاجر لها بالشام ، فجنى ربحاً كثيراً مما جعل السيدة خديجة تعجب بهذا الشاب الأمين ، وزاد إعجابها به أن ميسرة قص عليها من أخباره قصصا حببتها فيه ، فرأته شابا يختلف عن غيره من الشباب ، فهو إلى جانب طيب سمعته وقوة شخصيته ، يمتاز بجمال الخلقة وجمال النفس ووقار الشيوخ ، حتى تمنت أن تتزوجه . ولكن كيف السبيل إليه ، وهو الذى لم يفكر فى التزوج منها ، يمنعه فارق كبير فى السن فقد كان فى الخامسة والعشرين وهى فى الأربعين ، وفارق أكبر فى المركز الاجتماعى فقد كان فقيراً يتيما وهى ابنة خويلد من كبار أشراف مكة وأغنيائهم .

---

(١) سورة الضحى ، آية رقم ٦ — ١١ .

وحارت السيدة خديجة فى أمرها : تمنعها التقاليد والحياء من مكاشفة محمد بالأمر، فأرسلت إليه صديقتها نفيسة كى تعرف دخيلة نفسه ، فسألته عن السبب الذى يمنعه من الزواج ، فاعتذر بقلة ماله ، فقالت : فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة ، ألا تجيب ؟ فسألها : مَنْ ؟ ، فقالت : خديجة ، وقبل محمد وتم الزواج[1] . ودفع صداقه عمه أبو طالب ، وخطب خطبة أوضح فيها فضائل محمد ونبله رغم قلة ماله ، قال : الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وزرع إسماعيل ، وجعل لنا بيتا محجوجا وبلدا حراما وجعلنا الحكام على الناس . ثم إن محمد بن عبد الله ابن أخى ، من لا يوازن به فتى من قريش ، إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجدا ونبلا ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلىّ .

عاش محمد عيشة المتعبدين ، يتردد على غار حراء على مقربة من مكة ، يتعبد فيه شهرا من السنة ويصلى لإله لا يعرفه العرب . وهكذا كانت حياته مثالا للأمانة والإخلاص ، حتى لقب بالأمين ، ووصفه ربه بأنه على خلق عظيم .

البعثة :

كان عليه الصلاة والسلام لا يعتقد فى دين أهله ، وإنما كان يتردد على غار حراء يتعبد فيه ويصلى ، وشجعته السيدة خديجة على ذلك وكانت ترسل إليه الطعام فى الجبل ، وفى يوم الإثنين ١٧ رمضان وكان قد بلغ الأربعين من عمره، نزل عليه الوحى ، إذ رأى جبريل الذى ظهر أمامه ، وقال له : إقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، فضمه حتى بلغ منه الجهد ثم أرسله وقال له : إقرأ ، فقال : ما أنا بقارىء ،

---

(١) على ابرهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب من ٢١ — ٢٢ .

فضمه مرة ثانية وثالثة وقال له : (إقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، إقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان مالم يعلم)[١] . فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجفُ فؤاده إلى منزله ، وقال لزوجه : زملونى زملونى (لفونى) فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، وقص على السيدة خديجة ماحدث ، فقالت له : والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الدهر ، ثم انطلقت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وهو شيخ أعمى ، قد درس النصرانية ، فقال له : هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك ، قال : أو مخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل بمثل ما أوتيت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . فاطمأن الرسول .

وبعد فترة عاد محمد إلى الغار ، فنزل عليه جبريل مبشرا أنه رسول الله ، فرجع الرسول إلى داره وقال لزوجه : دثرونى ، فنزلت عليه الآية (يا أيها المدثر قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر)[٢] . ثم نزل قوله تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين)[٣] .

عندئذ صعد الرسول إلى جبل الصفا ، ونادى أهله وعشيرته وقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونى ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قط ، قال إنى نذير لكم ، بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبا لك ! ألهذا جمعتنا ؟ فقال عليه السلام : ما أعلم إنسان فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به ، فقد جئتكم بخير الدنيا والآخرة ، وقد أمرنى ربى

---

(١) سورة العلق ، آية رقم ١ — ٥ .
(٢) سورة المدثر ، آية رقم ١ — ٨ .
(٣) سورة ٢٦ آية ٢١٤ — ٢١٦ .

أن أدعوكم إليه ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر يكون أخى ووصى وخليفتى فيه ؟ فلم يجبه أحد ، فقال على بن أبى طالب : أنا يارسول الله عدتك ، أنا حرب على من حاربت . فقال أبو لهب تبا لك ولمن اتبعت[١] . فأنزل الله قوله تعالى (تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب فى جيدها حبل من مسد)[٢] . ثم خطب الرسول قائلا : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو ، إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة[٣] .

أخذ الرسول عليه السلام ينشر الدعوة الإسلامية لأقرب الناس إليه : كزوجته خديجة التى كانت أول من آمن به من النساء ، وعلى بن أبى طالب ابن عم الرسول ، ومولاه زيد بن حارثة ، وأبى بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ابن عبيد الله ، وأبى عبيدة بن الجراح ، كما أسلم الأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره مركزا لبث الدعوة الإسلامية . واستمر الرسول فى نشر الإسلام سرا بين العرب جميعا[٤] ، وظل على تلك الحال حوالى الثلاث سنوات حتى نزل قوله عز وجل : (فاصدع بما تؤمر به وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين)[٥] . فجهر رسول الله بالدعوة للإسلام ، وصدع لأمر ربه . وكان عليه أن يوجه الناس نحو عبادة إله واحد لا شريك له وهذا هو أساس الإسلام ، وأن يعتقد العرب كذلك فى نبوة محمد عليه السلام وأنه مرسل من قبل الله ،

---

(١) الطبرى ج ١ ص ٢١٧ .
(٢) سورة المسد رقم ١١١ آية ١ — ٥
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢١٧ .
(٤) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٧٠ .
(٥) سورة ١٥ ، آية رقم ٩٤ .

وأن هناك بعثاً وعقاباً وثواباً ، كما كان على الرسول أن يصلح من شأن المجتمع العربى الفاسد .

كان العرب قبل الإسلام يعبدون الأصنام فى الكعبة وهى عبارة عن أحجار لا تضر ولا تنفع ، لا تروى ظمآنا ولا تشبع جائعاً ، ولا تغنى فقيراً ، ولا تسقى زرعاً . ولكنها مع ذلك كانت قبلة العرب وأساس الحياة عند قريش زعيمة العرب ، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام التى دان لها العرب ، وفى هذا مصلحة اقتصادية ومنفعة أدبية لقريش ، فقد كانت قريش هى التى تحمى الدار ، فالقضاء على هذا الدين إنما هو قضاء على هذه المنافع وهذه الزعامة .

لذلك كانت مهمة الرسول فى نشر الدين الجديد مهمة شاقة ، فقد ندد بالوثنية وبالمعتقدات التى لا تؤمن بوحدانية الخالق ، أى أنه قلل من قيمة الأصنام ، ولم يكتف بهذا بل أظهر فساد نظمهم الاجتماعية . ولذا نظرت قريش إلى محمد نظرتها إلى رجل خارج على نظمها وعاداتها ، جاء يهدم أسس حياتها الاجتماعية والاقتصادية معاً . ولهذا رأت أن تقاومه مقاومة عنيفة حتى تحافظ على كيانها ، فأخذت تهزأ به وبأصحابه ، وادعت أنه شاعر ساحر ، ودعوته إنما هى محض خداع فى سبيل وصوله إلى أغراضه وهى أن يكون ملكا على العرب .

بدأت قريش بأن بعثت إليه عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً فى قومه ، فذهب إليه وهو يصلى بالمسجد وقال له يا ابن أخى : إنك منا حيث قد علمت ، من خيارنا حسباً ونسباً ، إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم . فاسمع منى ، أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال عليه السلام : يا أبا الوليد أسمع . فقال : يا ابن أخى وإن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد ملكا

ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رؤياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . فقال عليه السلام : لقد فرغت يا أبا الوليد ، قال : نعم . قال : فاسمع منى . بسم الله الرحمن الرحيم : (الم ، كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعقلون ، بشيراً ونذيراً ، فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون)[١] . وأنصت عتبة يستمع إلى أحسن الحديث حتى رجع إلى قريش قائلاً : إنى سمعت قولاً ما سمعت مثله قط : واللات ما هو بالشعر ولا هو بالسحر ولا بالكهانة ، يا معشر قريش « أطيعونى واجعلوها لى ، وخلوا بين هذا الرجل و بين ما هو فيه ، فقال النضر بن الحارث : بماذا جاءنا محمد واللات ما محمد بأحسن حديثاً منى »[٢] . فأنزل الله قوله تعالى : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا ، أولئك لهم عذاب مهين ، وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقراً ، فبشره بعذاب أليم)[٣] .

هكذا كانت مرحلة المقاومة الأولى : ولكن الله كان ينزل آياته فيدمغ بها قول الذين كفروا ، والذين هم فى ضلالهم يعمهون . فأخذت قريش فى إيذاء الرسول وأصحابه ، فكان أبو جهل إذا سمع بإسلام رجل من ذوى الشرف أنبه وقال له « تركت دين أبيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ولنُفيلَنّ رأيك ولنضعن شرفك »[٤] . ويقول ابن الأثير : « إن مشركى قريش كانوا يخرجون عمار بن ياسر وأباه وأمه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء ويعذبونهم بحرها ، فيمر الرسول فيقول : صبراً آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »[٥] . وهناك من الأمثلة

---

(١) سورة فصلت .
(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٤٨ .
(٣) سورة لقمان .
(٤) ابن هشام ج ١ ٢٧٠ — ٢٩١ .
(٥) ابن الأثير ج ٢ ص ٣٠ .

مالا يدخل تحت حصر عن تعذيب قريش للمسلمين وإهانتهم وإساءتهم حتى أنهم عذبوا النساء ، ولم يقتصروا على تعذيب الرجال ، ولم يكتف الكفار بذلك بل حاولوا أيضاً الاستعانة باليهود في التقليل والحط من شأن محمد والرسالة ، ولكن الله رد كيدهم إلى نحورهم .

الهجرة الى الحبشة :

كان من أثر شدة إيذاء قريش للمسلمين أن أمرهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة ، ولم يأمرهم بالهجرة إلى أية ناحية من شبه الجزيرة العربية ، لأن القبائل العربية سوف تجامل قريشاً زعيمة العرب ، وكانت بعض البلاد العربية مثل يثرب ونجران موطناً للديانات الأخرى كالمسيحية واليهودية[١] . كما أن هؤلاء المهاجرين كانوا يخرجون وحدانا متخفين حتى لا تشعر بهم قريش ، وقد اختار الرسول الحبشة أيضاً لما اشتهر به النجاشى من الكرم والعدل ، فهاجر عدد من المسلمين للحبشة فى رجب من السنة الخامسة للنبوة . وكان عددهم فى أول الأمر أحد عشر رجلاً وأربع نسوة ، ثم ازدادوا حتى بلغوا ثمانين رجلاً غير النساء والأطفال ، وكان من بينهم عثمان بن عفان وزوجته رقية[٢] ، فأكرمهم النجاشى وأمنهم .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٧٦ .

(٢) أنجب النبى من السيدة خديجة كل أولاده إلا إبراهيم ، وهم : رقية وأم كلثوم وفاطمة وزينب والقاسم وعبد الله . وتزوجت رقية وأم كلثوم بادىء الأمر من عتبة وعتيبة ابنى عمه أبى لهب ، ولم تبق هاتان الزوجتان مع زوجيهما بعد الإسلام فتزوجهما عثمان ، الواحدة بعد الأخرى ، وحين هاجر عثمان مع الرسول إلى المدينة واشترك فى الغزوات ، تخلف عن واقعة بدر ، إذ أبقاه الرسول فى المدينة لتمريض رقية زوجته ، ولكن روحها فاضت والمسلمون فى المعركة ، ثم زوجه ابنته أم كلثوم . ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ٢٢٣ .

كانت هجرة هؤلاء المسلمين إلى الحبشة خطوة سياسية موفقة من الرسول ، فقد ذاع بين العرب أن جماعة منهم قد فرّوا إلى الحبشة ، بدين جديد تلقوه عن محمد . فكان هذا بمثابة دعوة إلى الإسلام ، مما حدا بقريش أن ترسل عمرو بن العاص وعبد الله ابن أبى ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشى و بطارقته ، وقالا له ، أيها الملك ، إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت . وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه » .

بعث النجاشى فى طلب هؤلاء المسلمين وسألهم . ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فرد جعفر ابن أبى طالب قائلا : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده لا نشرك به شيئا ، وحرّمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان عن عبادة الله ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث . قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا و بين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا فى جوارك ورجونا ألا نظلم عندك ، فقال النجاشى : هل معك مما جاء به عن الله شىء تقرؤه على ؟ قال جعفر : نعم ، وتلا من سورة مريم إلى قوله تعالى : (فأشارت إليه ، قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ، قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيًا وجعلنى

مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حياً ، وبراً بوالدتى ولم يجعلنى جباراً شقياً ، والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا) .

دهش البطارقة وقالوا : هذه كلمات تصدر من النبع الذى صدرت منه كلمات سيدنا يسوع المسيح ، وقال النجاشى : إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة ، انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما[١] . وقد عاد هؤلاء المهاجرون إلى المدينة بعد هجرة الرسول .

مقاطعة قريش لبنى هاشم :

لما عجزت قريش عن النيل من محمد ، ذهب بعضهم إلى عمه أبى طالب قائلين له إنهم لن يصبروا على هذه الحال ، وخيّروه بين أن يمنعه عما يقول أو ينازلوه وإياه ، فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ، ولكنه قال له : « يا ابن أخى ، إن قومك جاءونى وقالوا لى كذا وكذا ، فابق علىّ وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيق ، فظن الرسول أن عمه خاذله ومسلمه وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته »[٢] .

أخذ الإسلام فى الانتشار رغم مقاومة قريش ، وقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب الذى أخذ فى الصلاة جهرا عند الكعبة ، وصلى المسلمون معه ، ولم يكتف بهذا بل أخذ يناضل قريشاً ، فاتفقت قريش على أن يقاطعوا بنى هاشم وبنى عبد المطلب مقاطعة تامة فلا يصاهروهم ولا يتاجرون معهم ، ولا يناصروهم وعلقوا صحيفة المقاطعة بالكعبة فاضطر بنو هاشم وبنو المطلب

(١) ابن هشام ج ١ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .
(٢) ابن هشام ج ١ ص ٢٤٧ .

إلى النزوح إلى شعب أبي طالب بشرق مكة ، وكانت قريش تظن أن هذه المقاطعة الاقتصادية الاجتماعية السياسية ستضطر بنى هاشم والمطلب إلى تسليم الرسول إلى الكفار ، ولم يقفوا عند حد المقاطعة بل ازدادوا فى إيذاء المسلمين بشتى الوسائل ، وظل هذا الحصار حوالى الثلاث سنوات .

لكن الرسول لم يزد مع ذلك إلا اعتصاما وتمسكا بدين الله ، وازداد أصحابه وأتباعه تعلقا بدين الإسلام ، بل إن هذه المقاطعة ساعدت على نشر الدعوة بين باقى أجزاء شبه الجزيرة العربية . وظل الرسول والمسلمون من خلفه يعانون آلام المقاطعة والجوع ، ولم يكن يتاح لهم الاختلاط بغيرهم من الناس إلا فى الأشهر الحرم ، حين يفد العرب إلى مكة لزيارة البيت الحرام ، حيث كان الرسول ينتهز فرصة الحج ويدعو القبائل إلى الاسلام . إلا أن طول مدة الحصار وما لاقاه المسلمون من ضيق وألم جعل أبناء عمومتهم وأصهارهم فى قريش يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من إثم ضد إخوانهم . فدفعت هذه العاطفة بعض شباب قريش إلى إمداد الرسول وأتباعه بالمؤن والطعام سراً ، وكان فى مقدمة هؤلاء زهير بن أمية الذى طاف بالبيت سبع مرات ونادى فى الناس : ياأهل مكة ، أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى لايبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لاأقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة . فوافقته الأغلبية الساحقة من قريش ، وكان على رأس المعارضين أبو جهل ، وهكذا نقضت هذه الصحيفة وعاد الرسول وصحبه إلى مكة مرة أخرى[1] ، ولكن العلاقات ظلت عدائية بين المسلمين وقريش .

وفى وسط هذه الظروف القاسية على المسلمين وعلى الرسول ، وبينما هو يناضل قريشاً وقريش تناضله وتؤذى صحبه ، إذ يأتيه خبر وفاة عمه أبى طالب[2] ،

---

(١) ابن هشام جـ ١ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

(٢) أبو الفداء جـ ١ ص ١٢٠ .

ولم تلبث أن لحقت به السيدة خديجة زوج الرسول . فحزن عليهما الرسول أشد الحزن [١] . وانتهزت قريش هذه المناسبة واشتدت فى إيذاء الرسول وأصحابه ، ولكن الرسول ومن حوله من المسلمين المؤمنين قابلوا الشدة بالتمسك بالدين وأهدابه .

خرج الرسول بعد ذلك إلى الطائف مستجيراً بثقيف حتى يبلغ رسالة ربه ، ولكن ثقيفاً جاملت قريشاً ، فلم تستمع لدعواه بل لم تقبل أن تجيره بعد أن فقد عمه ، ولم تكتف بذلك بل أخذ سفهاء ثقيف يسيئونه ، حتى اشتد به الكرب والضيق ، ولم يجد ملاذاً إلا أن يشكو لله قائلا : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهَوَانِى على الناس ، ياأرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى ! إلى بعيد يتجهمنى أو إلى عدو ملكته أمرى ، إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضينى ، ولا حول ولا قوة إلا بك » .

أراد الرسول عليه السلام أن يعود إلى مكة ، ولكنه لم يتمكن من دخولها إلا بعد أن أجاره المطعم بن عدى أحد أشراف قريش . ولم يلبث الرسول قليلا بعد ذلك حتى أسرى به ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى وصعد به من الصخرة المقدسة إلى سدرة المنتهى وفرضت الصلواتِ الخمس على المسلمين فى تلك

---

(١) توفيت السيدة خديجة فى السنة العاشرة من نزول الوحى ، قبل الهجرة بثلاث سنين ، بعد وفاة أبى طالب بأيام ، وعمرها خمس وستون سنة . وكان تأثر الرسول لوفاتها بالغا حتى لقد خيف عليه ، ولا غرو فقد ظلت أربعا وعشرين سنة وبضعة أشهر ، لم يتزوج خلالها عليها ، وكانت أول سيدة آمنت برسالة زوجها العظيم ، ووالته بتشجيعها . فقد كان عليه السلام يخرج يبشر قومه بالإسلام فلاينال منهم غير التكذيب والإهانة ، فيرجع الى بيته حزينا يائسا ، فتزيل خديجة أحزانه وتدعوه إلى استمرار تحمل الأذى فى سبيل دعوته . ابن سعد : الطبقات الكبيرة ج ١ ص ١ ٤

الليلة المباركة . ولم تصدق قريش حديث الإسراء ، بل إن بعض المسلمين لم تتسع عقولهم لتصديق مثل هذه المعجزات فارتدوا عن الإسلام . ولكن هذه الأزمات لم تزد الرسول إلا تمسكا بدين الله ومن حوله الراسخون فى الإسلام ، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وحمزة ، الذين كانوا منعة للرسول وحصناً للإسلام ضد الكفار .

بيعتا العقبة :

استمر الرسول ينتهز فرصة مواسم الحج ويعرض نفسه على القبائل ، فمنهم من كان يصدق دعواه ومنهم من كذبه ولم تطل هذه الحال كثيراً ، إذ أنه عند ماجاءت وفود الأوس والخزرج من يثرب لتحج إلى بيت الله الحرام فى السنة الحادية عشرة من البعثة واستمعوا إلى دعوته ، آمنوا به وصدقوا ، وقال بعضهم : إن هذا هو الذى قد وعدنا به اليهود [1] . وفى الموسم التالى للحج . التقى الرسول عند العقبة ببعض منهم فدعاهم للإسلام واستمعوا إلى آيات من القرآن الكريم ، فلقيت دعوته لديهم قبولا ورجعوا إلى يثرب حيث أخذوا يبثون الدعوة للإسلام بين قومهم . وفى العام التالى وفد إلى مكة إثنا عشر رجلا من الأوس والخزرج وبايعوا الرسول عند العقبة ، وتعرف هذه ببيعة العقبة الأولى ، وبعث معهم الرسول عليه السلام مصعب بن عمير بن هاشم ليقرئهم القرآن ، فاختار إحدى الدور فى يثرب واتخذها مركزاً للإسلام .

وفى موسم الحج التالى ، جاء من يثرب ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان من الأوس والخزرج واجتمعوا بالرسول عند العقبة وبايعوه وتعهدوا له بالدفاع عنه وطلبوا منه الهجرة إلى بلادهم ، ويقول ابن اسحق : إن أبا الهيثم بن النبهان قال : يارسول الله ، إن بيننا و بين الرجال حبالا و إنا قاطعوها (يعنى اليهود) فهل

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٣٠ — ٣٢ . الطبرى ج ٢ ص ٢٣٤ .

عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم الرسول وقال : بل الدم الدم والهدم الهدم ، أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربكم وأسالم من سالمتم [1] ، وهذه هى ما تسمى بالبيعة الكبرى أو بيعة العقبة الثانية . وإذا نظرنا إلى هذا الحلف نجد أنه يوضح لنا أن الرسول كان يريد بلداً آمناً ، يأوى إليه حتى ينشر رسالة ربه ، أما أهل يثرب فقد وجدوا فى هذه البيعة حلفا سياسيا يقوى شأنهم ضد اليهود .

ولكن لماذا كان أهل يثرب أكثر تصديقا للرسول من غيرهم ، ولماذا اختار الرسول هذه البلدة مأوى وملجأ ؟ نجد أن أهل يثرب كانوا يعلمون من اليهود أن هناك نبياً سيبعث ، كما أنه لم يكن هناك مصلحة اقتصادية لأهل يثرب فى تمسكهم بالوثنيه كقريش . وكان للنزاع بين أهل يثرب من الأوس والخزرج وبين اليهود أكبر الأثر فى محالفتهم للرسول ، إذ وجدوا فى ذلك فرصة لطرد اليهود من المدينة وإجلائهم عن أراضيهم التى تعد أخصب بقاع المدينة ، كما أن تزعم الرسول للمدينة يزيل مابين العرب من الأوس والخزرج من نفور وتنازع على السلطة والنفوذ . أما من ناحية الرسول فقد كان بينه وبين أهل يثرب صلة نسب وقرابة ، فهنالك بنو النجار أخوال جده عبد المطلب ، وهناك قبر أبيه الذى كانت تحج إليه السيدة آمنة بنت وهب ، وفى منتصف الطريق بين مكة والمدينة يوجد قبر أمه التى توفيت أثناء عودتها من زيارة قبر زوجها عبد الله . لهذه الأسباب مجتمعة التقت مصالح الرسول بمصالح أهل يثرب فتحالفا وتعاقدا على الإسلام وعلى التفانى فى نشره ونصرته .

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٤١ — ٤٢ . الطبرى ج ٢ ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

الهجرة :

عندما علمت قريش بأمر هذه البيعة ، ذهب سفراؤها إلى المدينة ، حيث قابلوا المشركين من أهل يثرب ، فأقسموا لهم بأن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يشترك المسلمون فى هذه المناقشات ، فانتاب قريشا الفزع والخوف وبالغت فى إيذاء المسلمين .

أمر الرسول أتباعه بالهجرة إلى المدينة فبدأوا يهاجرون إليها سراً ، وحدانا وززافات حتى لم يبق بمكة إلا الرسول وأبو بكر وعلى بن أبى طالب وبعض أقرباء النبى ، وأخذ الرسول يتأهب للهجرة ، وعندما علمت قريش ذلك ، اجتمعت فى دار الندوة وتشاورت فيما تفعل فاتفقوا على قتل الرسول ، وأمروا فتيانا من بطون قريش أن يضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل ويرضى بنو هاشم بديته[1] ، فنزل قوله تعالى : (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)[2] . فخرج الرسول من داره ليلا يصاحبه أبو بكر ونام علىٌّ فى فراشه ، وجعل النبى عليه السلام يتلو آيات من القرآن ويضع التراب على رؤوسهم ، فغشيت أبصارهم فلم يروا الرسول ، وسار الرسول وصديقه إلى غار بجبل ثور بالقرب من مكة .

ذهلت قريش من ذلك وراعها ماحدث ، فأخذت تقتفى أثر الرسول وجعلت مكافأة مائة ناقة لمن يدلهم عليه أو يأتى به[3] . ووصلت قريش إلى الغار الذى به الرسول وصاحبه ، ولكنهم وجدوا يمامة راقدة على بيضها

---

(١) ابن هشام جـ ٢ ص ١٤٥ — ٤٦

(٢) سورة الأنفال .

(٣) ابن هشام جـ ٢ ص ٨٢

ووجدوا العنكبوت قد نسج نسيجه على باب الغار ، وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله تعالى : (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين[1] إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم)[2] .

أمضى الرسول ثلاث ليال فى الغار ، ثم تركه إلى قباء ، فوصلها ظهر الإثنين ١٢ ربيع الأول بعد مسيرة ثمانية أيام ، وهى إحدى ضواحى المدينة . فأسس بها الرسول مسجداً وأقام بها ثلاثة أيام ، حيث لحقه على بن أبى طالب ليلا بعد أن أدى عن الرسول ما كان للناس عنده من ودائع . ثم يمم الرسول شطر المدينه يحوطه مئات المسلمين ، حتى أتى بنى سالم فصلى أول جمعة فى الإسلام وخطب المسلمين ، ودخل المدينة راكبا ناقته فى ١٦ ربيع الأول الموافق ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ م . وحاول الأنصار أن يستضيفوا الرسول عندهم ، ولكنه أمر أن تترك الناقة تسير حتى بركت أمام دار أبى أيوب الأنصارى ، فنزل به الرسول وبنى مسجد المدينة فى هذا المكان كما أقام مسكنه بجواره ، ثم أرسل إلى مكة وأحضر أهل بيته .

هكذا وصل رسول الله إلى المدينة المنورة ، مهاجرا من مكة . وتعد الهجرة أول حادث تاريخى عظيم فى الإسلام : فقد كانت محورا لتغيير مجرى الحوادث ، وبداية لذلك النصر العظيم الذى ناله الإسلام على الوثنية وغيرها من الديانات التى دان بها العرب ، وجعل عمر بن الخطاب هذه الحادثة بداية للتاريخ الهجرى . وعدت خطوة سياسية عظيمة من الرسول ، فقد نفذ برنامجه السياسى الذى وضعه وفشلت قريش فى منعه من الهجرة فخسرت بذلك خسرانا

(١) كان أبو بكر الصديق هو رفيق الرسول عليه السلام فى الغار .
(٢) سورة التوبة ، آية ٤٠ .

كبيراً ، إذ أن الرسول أصبح فى وسط أنصاره ومن آمنوا به ، بل أصبح فى وسط قوم عاهدوه على الدفاع والنصر حتى سموا الأنصار .

بذلك انتهى هذا الدور من حياة الرسول ، وترك الكفار فى مكة ليتخذ من المدينة عاصمة للإسلام ، وكان هذا الدور الأول بمثابة نضال من أجل المبدأ والعقيدة ، بل أنه كان تضحية من الرسول والمسلمين من حوله ، فقد ضحوا بأموالهم وأولادهم وأنفسهم فى سبيل نصرة العقيدة التى آمنوا بها والدين الذى اعتنقوه ، وجاهدوا باذلين النفس والنفيس ، حتى كتب لهم النصر ، وكان نصراً عزيزاً .

الرسول فى المدينة :

عندما وصل الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة المنورة ، جمع شملها ، وألف القرآن بين أهلها وأصبحت معقل الإسلام وملجأ للمسلمين جميعاً ، هاجر إليها المسلمون فراراً من ظلم قريش واضطهادها ، وأصبح بالمدينة عدد كبير من المهاجرين والأنصار وبجانبهم اليهود من بنى قريظة و بنى النضير و بنى قينقاع . فرأى الرسول أن يصلح من شأن المدينة وأن يتخذ الحيطة من اليهود حتى يعيش المسلمون فى أمان ، فيقبل على الإسلام من ظل حتى الآن يخاف بطش قريش . فلم يكن الرسول يفكر فى أن يثرى ولا أن يصبح ملكا على المدينة كما كان يظن الكفار ، ولكنه وضع سياسته منذ البداية ورسمها على أن يبلغ رسالة ربه وينشر الإسلام بين العرب والناس أجمعين ، وما كان هذا يتأتى إلا إذا شعر المسلمون بالأمن والطمأنينة حتى يجاهدوا فى سبيل الله .

شعر أهل المدينة من العرب — الأوس والخزرج — بالطمأنينة بعد هجرة الرسول إليهم ، وزال مافى نفوسهم من بغضاء وعداوة ، وأصبحوا بفضل الله إخوانا . أما اليهود ، فقد كانوا أهل نفاق وخداع ، فأراد الرسول أن يأمن

شرهم ، فعقد حلفا بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد إلى المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم ، إنهم أمة واحدة من دون الناس . وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم . . . ولليهود دينهم وللمسلمين دينهم . . . »[1] .

بذلك آمن الرسول المسلمين وأوجد التعاون والتضامن بينهم ، وجعل لكل شخص أن يقرر الدين الذى يختاره ، وهو حر فى تفكيره ورأيه . وتعتبر هذه الوثيقة بداية عصر جديد فى التاريخ الإسلامى : فإن المسلمين قد اطمأنوا إلى دينهم ، وأما اليهود فقد عاهدوا الرسول ووقعوا على صحائف مشابهة لهذه الصحيفة . فأصبحت المدينة حراماً لأهلها يدافعون عنها ويحافظون عليها ، وبذلك أصبح اليهود متساوين مع المسلمين فى الحقوق والواجبات .

ومن أهم ما قام به الرسول فى المدينة المنورة : المؤاخاة بين المسلمين من المهاجرين والأنصار ، فقد آخى الرسول بينهم وأسكن كل مهاجر مع أحد من الأنصار حتى يبنى المهاجرون منازلهم ، وكان عليه السلام يحث المسلمين على المحبة والأخوة ، فقال فى أحد خطبه : « اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، واتقوه حق تقاته ، وتحابوا بروح الله بينكم » ولم تكن أقواله تدل على المؤاخاة فحسب ، بل كانت أعماله عليه الصلاة والسلام مثلاً أعلى للإخاء والمساواة ، كان ديموقراطياً حقاً لم يفرق بين كبير وصغير ، فوضع أساس التسامح بين الناس ،

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٩٤ — ٩٨ .

لا فرق بين مسلم وسواه ، فمن دخل فى عهده فهو آمن ؛ ونادى فى أتباعه من آذى ذمياً فليس منا ، بل بالغ فى التسامح والمساواة حتى جعل للذميين ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . هذه كانت سياسة الرسول فى المدينة ، وهى الأساس الذى سار عليه الخلفاء الراشدون من بعده .

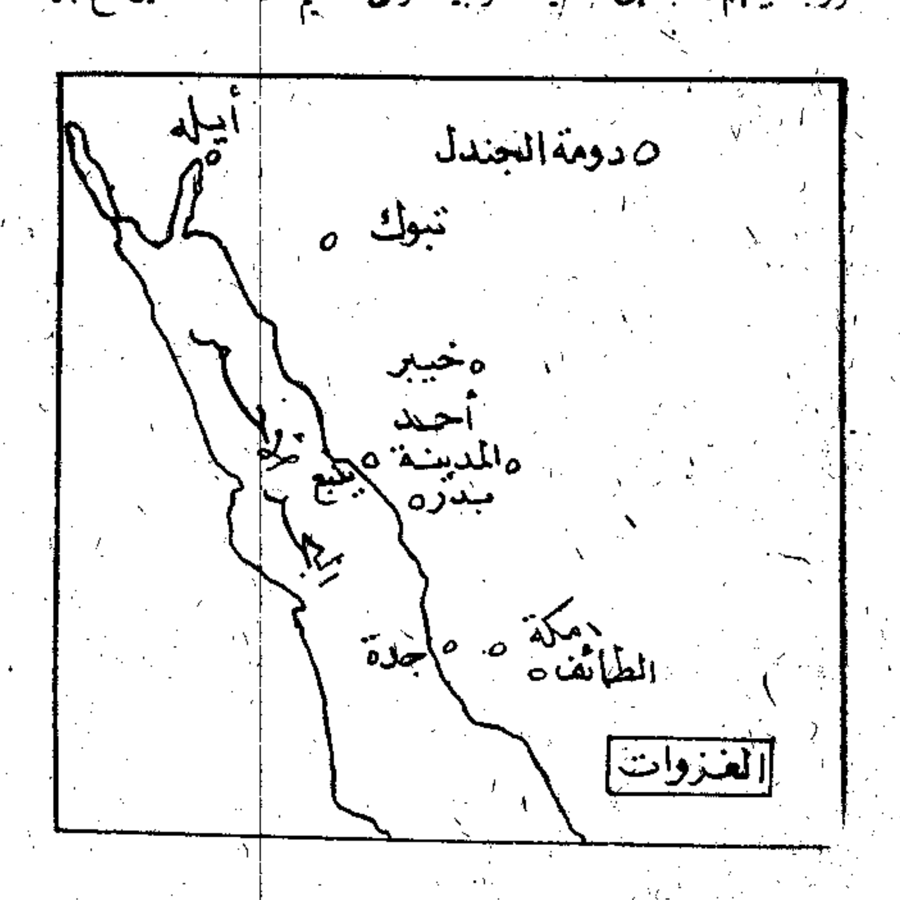
وفى وسط هذا الجو المتسامح الكريم ، ظهر فريق المنافقين يتزعمه عبد الله ابن أبى ، وهؤلاء لم يغيروا دينهم الأول وإنما أظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر ، وأخذوا يناقضون المسلمين ويخذلونهم ، حتى طلب ابن عبد الله بن أبى أن يقتل والده بنفسه ، ولكن الرسول قال له : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » .

بنى الرسول مسجده فى المدينة ، ولم يكن الغرض منه مجرد مكان لإقامة الصلاة بل جعله مركزاً لبث الدعوة ونشر الإسلام ، ومكاناً يجتمع فيه المسلمون للتشاور فى أمرهم ، وكان عليه السلام يستقبل فيه السفراء من قبائل العرب ، وأصبح هذا المسجد مركز المدينة وقلبها النابض الذى يجتمع فيه المسلمون من كافة البقاع ، فمهدت الوحدة الدينية بذلك إلى الوحدة السياسية ، وأصبح المسلمون بنعمة الله إخوانا وقوة متماسكة . وقد سادت المدينة روح الديموقراطية الصحيحة وتلاشت الفوارق القبلية بين الناس .

وفى هذا الوقت ، تزوج الرسول من السيدة عائشة بنت أبى بكر ولما تبلغ العاشرة إكراما لأبى بكر صديقه الحميم ، الذى صحبه فى هجرته من مكة إلى يثرب اتقاء لأذى قريش يوم اشتد به الكرب .

الغزوات والسرايا[1] :

عندما انتهى الرسول عليه السلام من تنظيم شئون المسلمين ، وتوثيق الروابط بينهم ، اتجه إلى الناحية الخارجية ، وهى تنظيم علاقات المسلمين مع بقية



---

(١) الغزوة هى التى خرج فيها الرسول مع المقاتلين ، أما السرية فهى ما لم يخرج فيها الرسول . حاشية رقم ٥ للدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص ٩٠ .

أجزاء بلاد العرب . وقد كان عليه السلام فى بداية أمره يعتمد على الحجة والبرهان والإقناع فى نشر الدعوة الإسلامية ، وقد اعتنق الإسلام عدد كبير من العرب خلال هذه السنوات ، رغم ما كانت تبديه قريش من مقاومة واضطهاد للمسلمين . وكان الله يحث رسوله على الصبر والثبات ويقول : (واصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم)[١] .

وعندما استمرت قريش فى إيذائها للمسلمين ، أمر الله رسوله بالنضال فى سبيل نشر الدين الإسلامى ، وأذن للمسلمين بالقتال والجهاد فى سبيل الله دفاعا عن أنفسهم ضد إيذاء الكفار (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله)[٢] ، (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل)[٣] ، (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم)[٤] . وأمر الله رسوله بكسر شوكة الكفر حتى لا يخشى من يريد الإسلام على نفسه وأن يطمئن إلى سلامته ، فأمر بأن يقاتل جميع المشركين : (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة)[٥] .

هكذا أمر الله المسلمين بالجهاد ، فبدأ الرسول فى تنفيذ أمر ربه ، وحاول استطلاع قوة قريش . فأرسل عدة سرايا منها سرية عبد الله بن جحش فى رجب سنة ١ هـ الذى نزل عند نخلة (بين مكة والطائف) ومعه ثمانية رهط من

(١) سورة الأحقاف .
(٢) سورة الحج .
(٣) سورة البقرة .
(٤) سورة الأنفال .
(٥) سورة التوبة .

المهاجرين ، وكتب له الرسول كتاباً أمره ألا يفضه إلا بعد مسيرة يومين ، وعند ما فتح عبد الله بن جحش الكتاب وجد فيه : « إذا نظرت فى كتابى هذا ، فسر حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارهم »[١] . وعندما مرت قافلة لقريش بهؤلاء المسلمين ، اعترضوها وأسروا منها عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان وقدموا بهما وبالعير على الرسول بالمدينة ، فقال لهم الرسول عليه السلام : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ، فأسقط فى أيديهم وظنوا أنهم خالفوا تعاليم الإسلام . وانتهز الكفار هذه الفرصة واتهموا المسلمين بالقتال فى الشهر الحرام مع حرمة هذا العمل ، ولكن الله تعالى أنزل قوله : (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله. والفتنة أكبر من القتل)[٢] ، فكانت هذه الآية إيذانا بقتال المشركين فى أى وقت والجهاد فى سبيل الله ومقاتلة الكفار حيثما وجدوا .

ولا شك أن حكمة تشريع القتال للمسلمين كانت لها أغراض عديدة : فالكفار يتربصون الفرص بالمسلمين ، ويحاولون جهدهم أن يقضوا على محمد وأتباعه ، وكان المسلمون بذلك معرضين لخطر كبير ، فكان عليهم أن يتخذوا الحيطة ويستعدوا للدفاع عن أنفسهم ضد الكفار ، وكان لا بد لهم أن يلتقوا مع قريش فى موقعة فاصلة حتى ينتهى ما بينهم . وفوق ذلك كله كان على محمد أن يبلغ رسالة ربه بالحجة أولا ثم القضاء على الكفار إن لم يقتنعوا بالحجة والبرهان[٣]

---

(١) الطبرى ج ص٢٦٢ .

(٢) سورة البقرة .

(٣) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

غزوة بدر سنة ٢ هـ

فى رمضان سنة ٢ هـ ندب الرسول نفراً من المسلمين لاعتراض قافلة قريش وهى قادمة من الشام ، فاستنجد أبو سفيان رئيس القافلة بقريش ثم غير الطريق الذى اعتاد أن يسلكه ، وسار بجانب ساحل البحر وتسلل إلى مكة دون أن يفقد من تجارته شيئا . وعندما علمت قريش بذلك خرج عدد كبير منهم يتراوح بين تسعمائة وألف ، وكان بينهم العباس بن عبد المطلب عم الرسول وأبو جهل ، وخرج رسول الله فى ثلثمائة وأربعة عشر رجلا وأمامهم فى مسيرهم رايتان سوداوان . وعندما وجد المسلمون أن عدد قريش يزيد عنهم كثيراً ، حاول بعضهم التراجع ، فنزل قوله تعالى : (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودّون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يُحِقّ الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين)(١) . أما قريش فكادت تنقسم إلى فريقين : فريق يريد الرجوع مادامت التجارة قد نجحت ، وفريق — يقوده أبو جهل — يريد الحرب ، ونزل هذا الفريق الأخير عند بدر خلف كثيب من الرمال ، كما بادر المسلمون إلى ماء بدر فنزلوا عنده .

بدأت الموقعة على شكل مبارزة فردية ، ثم التقى الفريقان فى صبيحة يوم الجمعة ١٧ رمضان ، وكان الرسول يحث المؤمنين على الجهاد ويحرضهم على القتال فى سبيل الله ، وكان لوجود الرسول عليه السلام بين صفوف المقاتلين أعظم الأثر فى تقوية روحهم المعنوية وشحذ عزائمهم ، فحملوا على الكفار حملة صادقة وأمدهم الله بجنود من عنده ، ونزلت الآية الكريمة : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين)(١) . وانجلت

---

(١) سورة الأنفال .
(٢) سورة الأنفال .

هذه المعركة عن قتل سبعين من الكفار واستشهاد أربعة عشر مسلما[١] ، كما نزلت فى تلك المعركة الآية الكريمة : (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ، فاتقوا الله لعلكم تشكرون)[٢] .

كانت هذه المعركة أولى معارك الجهاد فى سبيل نشر الإسلام ، وكانت ضربة قاصمة لمكانة قريش ، فقد رأى الكفار مبلغ استمساك المؤمنين بدينهم فى سبيل الجهاد ، ومقدار تفانيهم فى الذود عن الإسلام ، وأطلق المسلمون على هذه الغزوة غزوة الفرقان لأن الله قد فرق فيها بين الحق والباطل . ولقد تأثرت قريش بهذه الهزيمة ، فقد قتل فيها كبارها وكسرت شوكتها ، بل ضاعت هيبتها بين العرب . ولذلك صممت على الأخذ بثأرها ، فرصدت أموال القافلة للانتقام من محمد وأتباعه .

وفى هذه الغزوة نزلت عدة آيات قرآنية توضح للرسول كيفية معاملة الأسرى وكيفية اقتسام الغنائم . فقد اختلف المسلمون ، كلٌّ يحاول أن يستولى على ما جمعه من الأسلاب ، فنزلت الآية الكريمة موضحة ذلك : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ، ولذى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله ، وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . والله على كل شىء قدير)[٣] .

ولقد ازدادت قوة المسلمين فى المدينة بعد انتصارهم فى هذه الغزوة ، وأحس غير المسلمين فى المدينة من الكفار واليهود بقوة الإسلام ، وابتدأوا يأتمرون بالرسول وبالمسلمين ، وقام شعراؤهم يندوون بالمسلمين ويكيدون لهم ، وكان الرسول

(١) ابن هشام ج ٢ ص ١٩٦ — ٢٣٠ ، الطبرى ج ٢ ص ٢٦٧ — ٢٩٧ .
(٢) سورة الأنفال .
(٣) سورة الأنفال .

على علم بكل هذه الأعمال ، فأخذ يحتاط من الكفار واليهود حتى تمكن فى نهاية الأمر من القضاء على المشركين جميعا .

غزوة أحد (سنة ٣ ﻫ) :

لم تهدأ قريش ولم تستقر بعد هزيمتها فى بدر ، ووطدت العزم على الانتقام من الرسول والمسلمين ، وجمع أبو سفيان حوالى ثلاثة آلاف من الكفار والمشركين والأحابيش وسار متجها إلى المدينة ، وخرجت معهم نساؤهم . ولما علم الرسول عليه الصلاة والسلام بمسير قريش استشار أصحابه : فأشار بعضهم بالاعتصام بالمدينة وكان هذا من رأى الرسول ، وقال بعضهم بالخروج لملاقاة قريش ، وانضم الصحابة إلى الرأى الأول لما كان للمدينة المنورة من مناعة وحصانة ، وعندما استشار الرسول عبد الله بن أبى بن سلول رأى البقاء فى المدينة ، ولكن الرسول عليه السلام قرر الخروج من المدينة وملاقاة قريش بعيداً عنها . وسار الرسول وقت السحر من ليلة السبت فى منتصف شعبان سنة ٣ ﻫ فى ألف من المسلمين ، و بعد أن تقدم المسلمون مرحلة كبيرة من الطريق ، رجع عبد الله بن أبى بثلث الجيش ، وقال : عصانى واتبع الولدان ، وكادت تحل الفتنة بين المسلمين ، فنزل قوله تعالى : (و إذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ، والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون)[1] .

وعند ما وصل الرسول عليه السلام إلى جبل أحد نصب معسكره على سطح الجبل المواجه للمدينة ، وكانت قريش فى أسفل الجبل ، وهنا تظهر عبقرية الرسول الحربية ، فقد حصن مواقع جيشه ، واحتمى بالجبل ووضع الرماة فى أعلاه ليحموا ظهر الجيش ، وأوصى عليه السلام الرماة ألا يتخلوا

---

(١) سورة آل عمران .

عن مواقعهم ، سواء انتصر المسلمون أو انهزموا . و بدأت المعركة على عادة العرب بالمبارزة ، وتزعم المشركين أبو سفيان بن حرب ، كما كان على رأس فرسانهم خالد ابن الوليد ، ثم دارت رحى الحرب فانتصر المسلمون بادىء ذى بدء ، إلا أنهم عند مارأوا تقهقر الكفار لم يتذكر الرماة نصيحة الرسول بالبقاء فى أماكنهم ، فتخلوا عنها وأسرعوا يجمعون الأسلاب والغنائم ، وانتهز خالد بن الوليد هذه الفرصة واستولى على موقع الرماة وأثخن ظهور المسلمين من خلفهم ، فاختلط الأمر على المسلمين واضطربت أحوالهم واختل نظامهم ، ثم صاح ابن قميئة المشرك قائلا : ألا إن محمداً قد قتل ، فتخاذل المسلمون ودب اليأس فى قلوبهم ، ولكن المؤمنين وعلى رأسهم أنس بن النضر صاح يقول : « ماذا تصنعون بالحياة من بعده ؟ فموتوا على مامات عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، والتف الصحابة حول الرسول يصدون عنه سهام المشركين ، وكان على رأسهم طلحة بن عبيد الله الذى تلقى حوالى الأربعين سهماً والذى قال فيه رسول الله : من سره أن ينظر إلى رجل يمشى على الأرض قد قضى نحبه فلينظر إلى طلحة[1] . وهكذا استبسل كثير من المسلمين فى الدفاع عن الرسول ، وشج رأس الرسول وكسرت رباعيته . وانخدع الكفار بموته عليه السلام ، ووقفت المعركة واستشهد من المسلمين حوالى السبعين رجلا ، وقد مثلت نساء الكفار بجثث المسلمين ، حتى أن هنداً بنت عتبة زوجة أبى سفيان بقرت بطن حمزة عم الرسول وأخذت كبده فلاكتها حتى إذا عجزت عن أكلها لفظتها[2] .

و بعد ذلك عاد الرسول إلى المدينة ، وكان هذا أول هزيمة منى بها المسلمون،

---

(١) الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة جـ ٢ ص ٢٥٥ .

(٢) السيدة هند ، بنت عتبة بن ربيعة بن شمس بن مناف ، وهى زوجة أبى سفيان ابن حرب . ويرتبط تاريخ هند ارتباطا وثيقا بغزوة أحد ، إذ أنها عمدت خلالها إلى إيذاء المدافعين عن الإسلام ، لأنها وزوجها أبا سفيان وابنها يزيد وأخاه معاوية لم يسلموا إلا يوم فتح مكة .

إلا أنها كانت درساً قاسياً عليهم كيف يحافظون على مواقفهم ولا ينصرفون إلى جمع الأسلاب ، كما أن هذه الغزوة كشفت عن المنافقين الذين ظهر السرور على وجوههم مثلهم مثل المشركين واليهود .

غزوة الأحزاب (الخندق) سنة ٥ هـ :

فكرت قريش بعد انتصارها فى أحد ، فى القضاء على محمد قضاء نهائياً ، حتى تتخلص من المسلمين وتستعيد هيبتها ، وانتهزت القبائل الأخرى هذه الفرصة ، فأخذت تعتدى على المسلمين حيثما وجدوا مجاملة لقريش وانتقاما لدينها الوثنى ، أما الرسول فإنه عندما وجد من اليهود نقضهم للمعاهدة بدأ فى طردهم من المدينة[١] ، فلجأوا إلى خيبر حيث أخذوا يحرضون الكفار من قريش وغيرهم ضد الرسول ، واتفقت القبائل العربية واليهود من بنى النضير على المسير للقضاء على محمد . وعند ما علم الرسول بسيرهم استشار أصحابه فيما يفعل ، فأشاروا عليه بحفر خندق حول المدينة يحميها من قريش ، وكان الرسول يعمل فى حفر الخندق بنفسه ، وكان هذا الخندق فى شمال المدينة المنورة لأن باقى جهاتها كان محصناً بالنخيل والمنازل ..وعند ما أقبلت قريش والأعراب وكان عددهم يربو على العشرة آلاف ، وقف المسلمون فى ثلاثة آلاف ، ووُضِعَ النساء والأولاد فى الحصون ، والخندق يفصل بينهم و بين المشركين[٢] .

وفى أثناء ذلك نقض بنو قريظة عهدهم مع الرسول واشتد كرب المسلمين ، وظهر كثير من المنافقين الذين كان إسلامهم ضعيفاً ، واستمر حصار الكفار للمدينة شهراً كان الرسول فيه يوصى المسلمين بالصبر ويخفف من آلامهم ، وحاول الرسول أن يفاوض غطفان ليصرفهم عن قريش فيضعف بذلك من

---

(١) سيأتى تفصيل الكلام على النزاع بين المسلمين واليهود فيما بعد .
(٢) تاريخ اليعقوبى ج ٣ ص ٥٠ — ٥٩ .

قوة الكفار . وفى خلال ذلك جاء نعيم بن مسعود إلى الرسول مسلماً ، وعرض على الرسول أن يؤدى أية خدمة للإسلام ، فقال له الرسول عليه الصلاة والسلام : خذ عنا فإن الحرب خدعة ، فذهب نعيم إلى بنى قريظة ولم يكونوا قد علموا بإسلامه وأخبرهم أن قريشاً سوف تتركهم تحت رحمة الرسول وعليهم أن يأخذوا رهائن منهم ، ثم جاء إلى الكفار وأخبرهم أن بنى قريظة ندموا على نقضهم عهدهم مع الرسول وأنهم سيطلبون منهم الرهائن لإعطائها إلى الرسول . وعندما طلبت قريش من بنى قريظة أن تفى بوعدها ، قال اليهود إنهم لا يحاربون يوم السبت وطلبوا من قريش إعطاءهم رهائن ، فتأكدت قريش من صدق كلام نعيم وثبتت لها خيانة بنى قريظة ، ثم هبت ريح صرصر عاتية اقتلعت أوتاد خيام الكفار ، فقرر الكفار الرحيل ، و بذلك نجت منهم المدينة[١] .

هكذا ظهرت عبقرية الرسول العسكرية مرة أخرى ، فلم يكن العرب يعرفون حفر الخنادق قبل ذلك العهد ، حتى إن قريشاً عندما رأت الخندق قالت : « والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها »[٢] ، كما أن مقدرة الرسول السياسية ظهرت فى مفاوضة غطفان ووعدهم بثلث غلة المدينة إن هم تخلوا عن قريش ، ثم رجع الرسول عن المفاوضة فظنت غطفان أن مركز الرسول قد تحسن ، كما أن ما قام به نعيم بن مسعود كان له أكبر الأثر فى تخليص المسلمين من مأزقهم الحرج . أضف إلى ذلك ما أبداه الرسول من صبر وما ضرب به من مثل عليا فى المحافظة على الروح المعنوية بين المسلمين ، ثم انتقم الرسول أشد الانتقام من بنى قريظة . وخرج بعد ذلك لقتال بنى المصطلق الذين كانوا يضمرون له العداء فهزمهم ، ثم تزوج من جويرية بنت الحارث بنت سيد بنى المصطلق حتى لا ينضم إليها فلول قومها فتكون سبباً فى قيام نزاع جديد بين المسلمين و بنى المصطلق ،

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٩٨ .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٧٨ .

وأعتق المسلمون أقرباءها من الأسرى ، إكراماً لها لزواجها من رسول الله[١] .

وفى أثناء عودة الرسول إلى المدينة حدث ما يسمى بحادثة الإفك . ذلك أن السيدة عائشة تركت هودجها باحثة عن عقدها الذى فقدته ، ولما عادت كانت القافلة قد رحلت دون أن يشعر الركب بتخلفها ، وظلت عائشة وحيدة فى ذلك الطريق القفر حتى وجدها صفوان بن المعطل وأوصلها إلى منزلها[٢] . إلا أن حاسدات عائشة وأعداء النبى اختلقوا الإشاعات غير البريئة حول ذلك الحادث العارض فتأذى النبى ، وجافَى زوجته عائشة ، إلى أن أوحى له الله ببراءتها[٣] ، ونزلت الآية الكريمة (إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم)[٤] ، ثم نزلت آية أخرى تدافع عن المحصنات ، (والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون)[٥] .

صلح الحديبية (سنة ٦ هـ) :

فى السنة السادسة للهجرة ، خرج الرسول للعمرة[٦] فى ألف وأربعمائة من المسلمين ، ولكن قريشا وقفت فى الطريق ، فندب الرسول عليه السلام ، عثمان بن عفان لمفاوضة قريش واستطلاع أخبارهم ، فحجزته عندها ، وشاع بين المسلمين أنه قتل ، فتأهبوا لقتال قريش وبايعوا رسول الله بيعة الرضوان

---

(١) ابن سعد ج ٢ ص ٢٥ . الطبرى ج ٣ ص ٦٣ — ٦٦ .
(٢) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٣٢ — ٣٣ .
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .
(٤) سورة النور .
(٥) سورة النور .
(٦) العمرة : زيارة بيت الله الحرام فى غير موسم الحج . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٠٤ .

وقال عليه السلام « لا نبرح حتى نناجز القوم » ونزل قوله تعالى (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا)[1] . وبينما المسلمون على استعداد للقتال ، علموا أن عثمان لم يقتل ، وجاء عثمان إلى المسلمين وأبلغ الرسول أن قريشا تطلب رجوعه هذا العام ، ثم أوفدت قريش سهيل بن عمرو لمفاوضة الرسول ، وتم بين الرسول وسهيل الاتفاق الآتى ، وهو المعروف بصلح الحديبية : —

١ — أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين لمدة عشر سنوات .

٢ — أن يرد الرسول من يأتيه من قريش مسلما بدون إذن وليه .

٣ — لا تلتزم قريش برد من يأتى إليها من عند محمد .

٤ — من أحب الدخول فى عقد قريش وعهدها فله ذلك ، ومن أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل فيه .

٥ — أن يرجع الرسول هذا العام من غير عمرة ، على أن يأتى فى العام التالى فيدخل مكة مع أصحابه بعد أن تخرج منها قريش ويقيم فيها ثلاثة أيام وليس معهم من السلاح إلا السيوف .

وعندما فرغ الرسول من عقد صلح الحديبية ، رأى المسلمون أن فيه تساهلا كبيراً من ناحية الرسول وتشدداً من ناحية قريش ، فقام عمر بن الخطاب وقال للرسول عليه السلام : ألست رسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ولن يضيعنى[2] . ثم قال الرسول لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا فلم يقم منهم

---

(١) سورة الفتح .
(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٧٩ .

أحد حتى قال ذلك ثلاث مرات ، فلما لم يقم منهم أحد قام الرسول فدخل على أم سلمة[١] وذكر لها مالقى من الناس وما كان من مخالفتهم لأمره ، فقالت له : يانبي الله أتحب ذلك ؟ أخرج ثم لاتكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام الرسول ولم يكلم أحدا منهم كلمة حتى نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه ، فلما رأى المسلمون ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا[٢] . وهكذا ضربت أم سلمة مثلا أعلى فى أصالة الرأى و بعد النظر ، وتفادت فتنة كاد الشيطان يفلح فى تغذيتها ، لولا حكمة أم سلمة وتمسكها بدينها و بعد نظرها[٣] .

ولقد كان الرسول سياسياً بعيد النظر فى عقده هذا الصلح : إذ أنه أمن جانب قريش لمدة عشر سنوات ، أخذ فى أثنائها ينشر الدعوة الإسلامية فى بقية أجزاء شبه الجزيرة العربية . وكان عليه السلام عبقريا فى قبوله بعض شروط الصلح ليقينه بأنه إذا ذهب مسلم إلى قريش ليرتد عن دينه فإن الإسلام غنى عنه ، ولأنه لم يكن يهتم بدخول أفراد من قبيلة قريش فى الإسلام لأن الدين عقيدة خافية فى النفس لا تستطيع القوة منعها ولأن الرسول اتجه نحو نشر الإسلام بين القبائل الأخرى تاركا قريش جانبا بعدما أشعرها بقوة

(١) تعد أم سلمة من أشرف نساء العرب نسبا وأكرمهن أصلا . فهى زوجة رجل من المسلمين المجاهدين يدعى أبا سلمة ، وكان لها منه أبناء عدة . وشهد هذا الرجل غزوة أحد وجرح فيها ثم برىء من جرحه فأرسله النبي عليه السلام لمحاربة بنى أسد فهزمهم وعاد الرسول منتصرا ، وما لبث أن عاوده جرحه القديم وما زال به حتى قضى عليه وحضره رسول الله عليه السلام وهو على فراش الموت . وظل إلى جانبه يدعو له بالخير حتى فاضت روحه . ومرت بعد هذا أربعة أشهر خطب بعدها رسول الله أم سلمة لنفسه ، فاعتذرت بكثرة العيال وبتخطيها سن الشباب ، ولكن الرسول ، ما زال بها حتى تزوج منها . وامتد العمر بأم سلمة حتى عهد يزيد بن معاوية فى الدولة الأموية ، فشهدت الكثير من حوادث المسلمين وحضرت بعض وقائعهم .

(٢) الطبرى ج ٢ ص ٨٠ .

(٣) على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٣٨ .

المسلمين ومقدرتهم العسكرية ، وعندما بدأ الرسول فى سيره راجعا إلى المدينة المنورة نزلت سورة الفتح : (إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما وينصرك الله نصرا عزيزا) . بذلك اعتبر صلح الحديبية نصراً جديداً وفتحاً مبينا فى الإسلام ودل على مقدرة الرسول السياسية ، إذ أن هذه أول مرة تعترف فيها قريش بالرسول ، كما أنها بسماحها للرسول بزيارة مكة فى العام التالى إنما كان اعترافا منها بكيان المسلمين باعتبارهم قوة ذات خطر بعد أن كانوا يعذبون و يشردون .

بين الرسول واليهود :

عند هجرة محمد عليه السلام إلى المدينة ، عقد مع اليهود محالفة تنص على أن يتفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم ، وأنه لا يخرج منهم أحدا إلا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم . وأن من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته[1] . بذلك شرط الرسول عليه السلام لجماعة اليهود المساواة مع المسلمين من حيث المصلحة العامة ما داموا محافظين على العهود والمواثيق ، كما فتح الطريق لمن يرغب منهم فى اعتناق دين الإسلام ، وكفل لهم التمتع بجميع الحقوق التى يتمتع بها كافة المسلمين . وكان بالمدينة من اليهود بنو قينقاع و بنو النضير و بنو قريظة ، كل منهم يعيش فى بقعة من أخصب بقاع المدينة . ورغم ما عاملهم به الرسول من رفق ولين ، فإنهم دأبوا على نقض العهد : لأنهم كانوا ينظرون إلى دعوة الرسول بين الشك والريبة ، بل إنهم كانوا يصرحون بالشك فى رسالة النبى لأنه من سلالة عربية والنبوة لا تظهر إلا فيهم ، كما أن الأديان السماوية نزلت فى بلاد الشام وليس

---

(١) ابن هشام ج ٢ ٩٤ — ٩٨ :

فى بلاد العرب . وصاروا يهاجمون دعوة الرسول ، ويقللون من أهميتها ويتشككون فى قيمتها حتى قال الله تعالى : (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده)[1] .

ولم يكتف اليهود بمهاجمة دعوة الرسول عليه السلام ، بل إنهم أخذوا يذكرون بثأرهم القديم ، وبما كان بينهم من نزاع وقتال ، وبما كان بين الأوس والخزرج من تشاحن وبغضاء ، وحينما وقعت موقعة بدر ، انضم بنو قينقاع إلى الكفار من قريش ونقضوا عهدهم مع الرسول مؤملين فى نصرة الكفار ، ولكن عندما نصر الله الإسلام وأعز المسلمين وهزمت قريش فى بدر رجع الرسول عليه السلام إلى المدينة ، واليهود مازالوا يذكرون قتلى الكفار ويعرضون بالمسلمين . ولم يكن لقبيلة بنى قينقاع من حصون أو معاقل تحتمى بها بل كانت لهم بساتين وأشجار ، وكان كلما عاتبهم الرسول قالوا له : « لا يغرنك يا محمد أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن إنا نحن الناس » . ولما لم يجد الرسول بدا من إجلاء هذه القبيلة عن المدينة ، حاصرهم قرابة نصف الشهر حتى رضخوا لأمره ، وعند ما شفع فيهم عبد الله ابن أبى ، قبل الرسول عليه السلام شفاعته ، وأمرهم بمغادرة المدينة ، فأذعنوا لأمره ورحلوا عنها تاركين وراءهم سلاحهم وأموالهم ، واتجهوا إلى أذرعات بالشام . وهكذا خلت المدينة من اليهود لأن بنى النضير وبنى قريظة كانوا بظاهر المدينة ، فتمت بذلك الوحدة السياسية للمدينة .

أما بنو النضير فقد ساءت العلاقة بينهم وبين المسلمين عقب غزوة أحد ، إذ أن الرسول كان قد أوفد أربعين رجلا من الأنصار ويسمون بالقرّاء لنشر الإسلام فى نجد ، وأمّر عليهم المنذر بن عمرو فنزلوا عند بئر معونة فى أثناء

---

(١) سورة البقرة .

سيرهم ، وكان هذا البئر لبنى عامر ، وأرسل المنذر حَرام بن مِلْحان إلى عامر ابن الطفَيل بكتاب رسول الله فقتله عامر ، ثم استعان ببنى سليم لمقاتلة القراء فلم ينج منهم إلا عمرو بن أمية[1] ، وفى أثناء رجوع عمرو إلى المدينة قابله فى الطريق رجلان من بنى عامر ، كان الرسول قد أعطاهما جواراً وأماناً ، ولكن عمرو بن أمية قتلهما انتقاماً لمقتل المسلمين . ولما علم الرسول بذلك قال لعمرو : « بئس ما صنعت ، قتلت رجلين كان لهما فىّ أمان وجوار » . وأرسل عامر بن الطّفيل يطلب دية هذين الرجلين ، فذهب الرسول ومعه كبار الصحابة إلى بنى النضير يستعين بهم فى دفع دية هذين الرجلين ، لأن بنى النضير كانوا حلفاء بنى عامر فقابلوه بترحاب وبشر . وبينما كان الرسول جالساً تحت جدار أحد المنازل ، إذ خلا اليهود بعضهم إلى بعض وقالوا : ألا من رجل يعلو على هذا البيت فيلقى عليه حجرا فيريحنا منه ؟ فقال عمرو ابن جحاش : أنا لذلك ثم صعد ليلقى بالحجر على الرسول ، فأعلم الله رسوله بما يأتمر له اليهود ، فقام من فوره ورجع إلى المدينة تاركا أصحابه ولم يخبر أحداً منهم ، وعندما استبطأ الصحابة عودة الرسول ، قاموا ولحقوا به بالمسجد فى المدينة ، فأخبرهم بما رابه من أمر اليهود ، وبعث الرسول إلى اليهود محمد بن مسلمة ، وقال له : إذهب إلى يهود بنى النضير وقل لهم : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن أخرجوا من بلادى . لقد نقضتم العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى . لقد أجلتكم عشرا ، فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه » . فبدأ اليهود يجهزون لرحيلهم . ولكن رأس النفاق عبد الله بن أبى أرسل لليهود يقول لهم : لا تخرجوا من دياركم وأموالكم وأقيموا فى حصونكم ، فإن معى ألفين من قومى وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم . وتساورت بنو النضير فى قول ابن أبى ، فأرسل حيى بن أخطب

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ٤٤ — ٤٥ : الطبرى ج ٣ ص ٣٣ — ٣٦ .

زعيمهم إلى الرسول يقول له : إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا ، فاصنع مابدا لك .
ومرت الأيام العشرة دون أن تخرج بنو النضير من المدينة فحاصرهم الرسول وحاربهم عشرين ليلة وأمر بتحريق نخيلهم حتى تفل عزيمتهم عن القتال استمساكا بأموالهم ، وفى ذلك نزلت الآية الكريمة : (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين)[١] .

لما يئس اليهود من القتال طلبوا العفو من الرسول وجلوا عن المدينة ، وقسم الرسول أموالهم على المسلمين[٢] . ونزلت الآية الكريمة فى ذكر المنافقين وجلاء بنى النضير : (ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب ، لئن أخرجتم لنخرجَنّ معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، ولئن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليُوَلن الأدبار ثم لا يُنصرون لأنتم أشد رهَبة فى قلوبهم من الله ، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون)[٣] . وهكذا استراحت المدينة المنورة من بنى النضير ، كما استراحت من قبل بجلاء بنى قينقاع ولم يبق بالمدينة إلا بنو قريظة .

وعندما وقعت غزوة الأحزاب ، رأى الرسول أن بنى قريظة نقضوا عهده ونكثوا بالأيمان ، فعزم على طردهم . فلم تكد الأحزاب تجلو عن المدينة حتى أمر الرسول عليه السلام مؤذنا أن يؤذن : من كان سميعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة ، فتلاحق المسلمون وخرج على بن أبى طالب بالراية ، وحاصرهم الرسول خمسة وعشرين يوما ، حتى خضعوا لأمره ، ونزلوا على حكمه ، وسأل بنو قريظة حلفاءهم الأوس أن يتشفعوا لهم لدى الرسول ، فقال الأوس للرسول :

---

(١) سورة الحشر .
(٢) ابن هشام ج ٣ ص ٥١ .
(٣) سورة الحشر .

يارسول الله : إنهم كانوا موالينا ، فقال الرسول : ألا ترضون يامعشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم ؟ بلى ، قال : فذاك إلى سعد بن معاذ ، فلما جاء سعد ، قالوا له : يا أبا عمرو إن رسول الله قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم . فأخذ سعد عهد الله وميثاقه على الفريقين إن الحكم فيهم لما حكم ، فأجابوه وأجابه الرسول : أن نعم ، قال سعد : فإنى أحكم بأن تقتل الرجال وتقسم الأموال وتسبى الذرارى والنساء ، فقال لهرسول الله : لقد حكمت بحكم الله ، ثم حفرت الخنادق ، وضرب المسلمون أعناق اليهود جميعا وكانوا نحوا من سبعمائة ، ولم تقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة تسمى بنانة زوجة الحكم القرظى لقتلها خلاد بن سويد برحى طرحتها عليه ، فمات فقتلها الرسول[1] ، وقسمت أموال اليهود بين المسلمين .

غزوة خيبر (سنة ٧ هـ) :

لم يأمن الرسول شر اليهود بعد خروجهم من المدينة ، ذلك أن اليهود اجتمعوا فى خيبر بعد خروجهم من المدينة ، وانضمت إليهم قبائل بنى قينقاع والنضير وقرروا أن يغيروا على المدينة لمداهمة المسلمين . وكان يتزعم اليهود ، يهود خيبر وفدك وتيماء ووادى القرى . وعندما علم الرسول عليه السلام بذلك ، رأى أن يهاجم اليهود فى عقر دارهم ، واستعد لغزوهم فى السنة السابعة من الهجرة . وأمر أصحابه أن يستعدوا لغزو اليهود لإجلائهم عن شبه الجزيرة العربية جمعاء ، وأمر ألا يخرج معهم إلا كل راغب فى الجهاد ، وسار بجيش المسلمين حتى وصل خيبر ليلا[2] ، وكان اليهود فى هذه الفترة يقيمون داخل حصونهم ومعاقلهم . وعندما أصبح الصباح ، وبدأ اليهود يتأهبون لعملهم ، فاجأهم المسلمون واضطرب اليهود فولى فريق منهم هاربا[3] . ثم دارت معركة حامية

---

(١) ابن هشام ج ٣ ص ١٩٠ . الطبرى ج ٣ ص ٥٩ .

(٢) الترمذى ص ١٩٨ .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ١٧١ .

بين اليهود والمسلمين ، يدفع المسلمين للقتال حب الجهاد فى سبيل الله والقضاء على معقل اليهود الأخير ، ويدفع اليهود إليه حب العيش والبقاء . ولم يكن اليهود يتركون حصنا من حصونهم إلا بعد دفاع مستميت ، وكان منهم مرحب اليهودى الذى أخذ ينشد :

قد علمت خيبر أنى مرحبُ شاكى السلاح بطل مُجرَّبُ
أطعن أحياناً وحينا أضرب إذا الليوث أقبلت تحرب
إن حماى لحمى لا يُقرَبُ يحجمُ عن صولتى المُجَرَّبُ

فانبرى له محمد بن مسلمة وقتله ، وظلت المعركة سجالا بين الفريقين حين انتصر المسلمون فى النهاية واستولوا على أرض خيبر ، وبذلك قضى رسول الله على شر اليهود فى بلاد العرب وسمح لبعضهم بالبقاء فى خيبر ، إذ أنهم سألوا رسول الله أن يبقيهم فى أرضهم لزراعتها لأنهم أعلم بها وأعمر لها ، فقبل الرسول وسمح لهم باستغلالها على أن يكون للمسلمين نصف غلتها .

هكذا تخلص الرسول من اليهود . وتظهر هنا حكمة الرسول السياسية وبعد نظره الاقتصادى ، فإن بعض أراضى اليهود قد فتحت عنوة وبعضها قد فتح صلحا ، فأما النوع الأول فقد أصبح ملكا للمسلمين ، أما النوع الثانى فقد رضى الرسول ببقائه فى أيدى أصحابه إذ فيه مصلحته ومصلحة المسلمين لأن المسلمين لم يكن بينهم عدد كاف للزراعة والحرب فبقاء هذه الأرض فى أيدى اليهود يوفر كثيراً من المسلمين لأعمال الحرب والجهاد . وقد ظل اليهود فى هذه الأرض حتى جاء الخليفة عمر بن الخطاب فأجلاهم عن أراضيهم ، قائلا إن الرسول عليه السلام قال : لا يجتمع فى جزيرة العرب دينان ، وأعطى اليهود عوضا عن هذه الأراضى أرضاً فى بلاد الشام ، وكان الرسول عليه السلام يرسل المندوبين لجمع المحصول من هذه المستعمرات ، وبذلك تمكن عليه الصلاة والسلام من تعميم الإسلام فى شبه الجزيرة العربية كلها ولم يبق بها إلا مكة والطائف .

رسل محمد عليه السلام إلى الملوك :

انتهز الرسول فرصة المدنة مع قريش وأخذ فى إرسال الرسل والخطابات إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام والاهتداء بنوره ، والابتعاد عن الوثنية وغيرها من الديانات . فأرسل دحية بن خليفة الكلبي برسالة إلى هرقل فتقبلها هرقل قبولا حسناً ، وجاءه فى هذه الأثناء رسول من الحارس الغساني يخبره أن رسولا جاء من قبل محمد عليه السلام يدعوه إلى الإسلام وأراد الحارث أن يذهب لمحاربة النبي ، ولكن هرقل منعه من ذلك .

وأرسل الرسول عليه السلام ، عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ، ولكن كسرى ثار عند ما سمع برسالة محمد ، ذلك لأنه كان يحكم الفرس بذلك الحق الملكى المقدس ، وشعر أن هذا الدين سيهدم كيانه و يزلزل مكانته بين الشعب ، فأرسل إلى باذان عامله على اليمن يقول له : « إبعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به » فبعث باذان برجلين من عنده ، وعندما قابلوا الرسول أخبرهم نبأ مقتل كسرى على يد ابنه شيرويه ، فلم يصدق الرجلان الخبر وهددا الرسول ، ولما عادا إلى باذان علما بالنبأ ، فقال باذان إن هذا الرجل لرسول ، فأسلم وأسلم من كان معه من الفرس ببلاد اليمن[1] .

وأرسل الرسول عليه السلام ، عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ، وقد كانت العلاقات بينهما طيبة ، منذ أن هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة فرد ردا طيبا . كما أنه أرسل — بناء على طلب الرسول — المسلمون الذين كانوا بالحبشة وجهزهم بسفينتين على رأسهما جعفر بن أبى طالب ، وقد فرح الرسول برجوعهم فرحا شديداً ، حتى قال إنه لا يدرى بأى هو أشد اغتباطا : بالنصر على خيبر أم بلقيا جعفر .

(١) الطبرى ج ٣ ص ٩٠ .

وأرسل عليه السلام كذلك إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر ، فرد المقوقس رداً جميلا ، إذ أرسل إلى الرسول يخبره أنه يعتقد أن نبيا سيظهر ولكنه يعتقد أنه سيظهر فى بلاد الشام ، و بعث إلى النبي بهدية طيبة منها جاريتان و بغلة بيضاء وحمار ومقدار من المال و بعض خيرات مصر ، فتزوج الرسول من مارية التى ولدت له إبراهيم[1] ، وقد قيل إن المقوقس خشى أن يسلم خوفا من أن يسلبه هرقل مركزه وسلطانه .

هكذا أخذ الرسول ينشر الإسلام فى بقية أجزاء شبه الجزيرة وخارجها ، وكان رد معظم الملوك والأمراء طيبا ، حتى بلغ الحال ببعض المؤرخين إلى القول بإسلام النجاشى والمقوقس .

عمرة القضاء

مر العام بعد صلح الحديبية ، فأمر الرسول المسلمين أن يستعدوا للذهاب إلى مكة ليزوروا البيت الحرام ، وقد لبى نداء الرسول جمع غفير من المسلمين وخاصة المهاجرون الذين كانوا يتمنون هذا اليوم منذ أمد بعيد ، فقد ظلوا سنوات سبعاً بعيدين عن مكة ، وأما الأنصار فقد كانوا يودون زيارة المسجد الحرام كما كانت لهم تجارة مع قريش ومكة . و بلغ عدد المسلمين قرابة الألفين ، ولم يحملوا معهم

---

(١) لم يأت عفوا زواج محمد عليه السلام ، ممن تزوج بهن من فضليات النساء ، بل كان الدافع هو جمع القبائل العربية تحت لواء الإسلام وتقريب زعمائها إلى الرسول . وكان زواجه من السيدة مارية القبطية المصرية ، تأليفا لقلوب القبط وحفزا لهم على اعتناق الإسلام . ولجأ الرسول إلى نشر الديانة الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، وبعث الرسل بذلك إلى المقوقس ، الذى استقبل رسول محمد إليه بالبشر والترحاب ، ولكنه لم يجبه إلى ما طلبه الرسول من العمل على نشر الدين الإسلامى ، وأرسل له عدة هدايا من بينها السيدة مارية التى كانت من نصيب الرسول ، ووهب شقيقتها سيرين « الجارية الثانية » لشاعره المجيد حسان بن ثابت

إلا سيوفهم ، وقد احتاط الرسول خوفا من غدر الكفار فجهز مائة فارس جعل على رأسهم محمد بن مَسْلَمَة .

سار هذا الجمع الكبير من المدينة متجها إلى مكة لقضاء العمرة ، وعندما علمت قريش بقدم الرسول وصحبه تنفيذا لصلح الحديبية ، خرجت من مكة وضربت خيامها على التلال المجاورة ، واتجه المسلمون إلى مكة ، يحف كبار الصحابة بناقة الرسول . وعندما رأى المسلمون البيت الحرام نادوا جميعاً : لبيك لبيك . وكان لهذه المظاهرة الكبرى أثر كبير فى نفوس كثير من المشركين ، فلم يلبثوا أن جاءوا رسول الله مسلمين . وقد طاف الرسول والمسلمون بالكعبة ، وعندما أتموا طوافهم انتقلوا إلى الصفا ثم نحروا الهدى ، وقام بلال مؤذن الإسلام وأذن للظهر فى اليوم التالى من فوق الكعبة ، وأقام الرسول بمكة ثلاثة أيام زار فيها المهاجرون دورهم ، وتزوج الرسول بآخر زوجاته السيدة ميمونة وهى شقيقة زوج العباس . وقد أسلم بعد هذا الحادث مباشرة خالد بن الوليد سيف الله المسلول وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثير غيرهم ، ممن بهرت أنظارهم قوة الإسلام والمسلمين .

غزوة مؤتة (سنة ٨ هـ) :

رجع الرسول إلى المدينة المنورة بعد ذلك ، وأخذ فى إرسال بعض القوات الصغيرة لنشر الإسلام ، ثم وجه ثلاثة آلاف من المسلمين إلى مؤتة وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال « إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس » .

سار الجيش ومعه خالد بن الوليد متطوعا ، ولما علم الروم بقدم الجيش أخذوا يعدون له العدة ويجهزون حتى استعدوا بجيش كبير ، بلغ عدده حوالى

مائتي ألف ، والتقى الفريقان عند مؤتة ، وحمل زيد راية الرسول وحارب حرب الأبطال حتى استشهد ، فحمل الراية بعد جعفر وظل يحارب حتى قطعت يمينه ثم حارب بشماله فقطعت فاحتضن الراية بعضده حتى قتل ، فأخذ الراية ابن رواحة واستبسل فى القتال حتى استشهد بدوره ، فأخذ الراية من بعده — باختيار المسلمين — خالد بن الوليد وكان قائدا ماهراً محنكا ، فتمكن بمهارته من الانسحاب بالمسلمين بسلام حتى رجع إلى المدينة .

غزوة الفتح (فتح مكة سنة ٨ هـ) :

ظل الرسول يأمل أن يفتح الله عليه ويتم نعمته بفتح مكة ، ولكن صلح الحديبية كان يمنع الرسول من مهاجمتها . وظلت الحال كذلك حتى كانت السنة الثامنة للهجرة إذ نقضت قريش هذا الصلح باغاثتها قبيلة كنانة حليفتها ضد خزاعة حليفة الرسول فى حرب وقعت بينهما . وحين سمع الرسول باستنجاد خزاعة ، سار إلى مكة فى السنة الثامنة للهجرة ، على رأس نحو من عشرة آلاف من المسلمين ما بين فارس وراجل ، وما أن سمع كبراء قريش بمقدم هذا الجيش الكبير حتى جاءوا هائمين على وجوههم متجهين إلى الرسول فكان منهم العباس بن عبد المطلب الذى كان سفيراً لقريش عند الرسول ، وأبو سفيان زعيم قريش الأكبر الذى شفع فيه بعض الصحابة حتى قبل الرسول إسلامه بل وأكرمه النبي بقوله « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن[1] ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن » .

هكذا دخل الرسول مكة فى سهولة ويسر ، واتجه إلى المسجد الحرام حيث طاف به سبع مرات ثم أمر بإزالة التماثيل والصور وهو يقول . (وقل جاء الحق

---

(١) تتضح من ذلك قيمة أبي سفيان فى المجتمع العربى ، حتى سوى الرسول بين بيت أبي سفيان وبيت الله ، وهو شرف عظيم .

وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)[1] واجتمعت قريش بين يديه فقال لهم يامعشر قريش ! ماذا تظنون إنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فاذهبوا فأنتم الطلقاء .

بهذا عفا الرسول عنهم جميعاً ، ودخل مكة — بعد ثمانى سنوات من خروجه مهاجرا — دخول المنتصر الفاتح ، فهدم أصنامها وأزال ما بها من آثار الكفر والوثنية ، وكان ذلك تنفيذاً لكلمات ربه : (يا أيها الذين آمنوا ، إنما المشركون نجس ، فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا ، وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء ، إن الله عليم حكيم)[2] .

ولقد كان لهذا الفتح أكبر الأثر فى انتشار الإسلام : فإن استيلاء الرسول على الكعبة بعد اتجاه القبلة نحوها ، جذب كثيراً من القبائل العربية للإسلام ، كما أخضع الرسول ما تبقى من البدو من مسيحيى نجران وعمان وغيرهما . ولم يأت عام ١٠ هـ ، حتى كانت البلاد العربية كلها تدين بالإسلام ، وتدلت بذلك دولة الكفر .

غزوات حنين (سنة ٨ هـ) :

لم يكد الرسول يقضى خمسة عشر يوما فى مكة ، حتى علم باستعداد ثقيف وهوازن لمحاربته وعلى رأسهم مالك بن عوف ، ذلك الرجل الذى حشد ماله ونساءه وأطفاله خلف الجند حتى يمنعهم من الفرار ونزل عند حنين . وخرج رسول الله على رأس اثنى عشر ألفا من المسلمين من مهاجرين وأنصار وما كاد ينبعث ضوء الفجر ويلوح حتى فاجأ الكفار المسلمين ، فاختل نظامهم واضطربت حالتهم وصارت كيوم أحُد ، ويشير الله تعالى إلى هذا بقوله : (لقد نصركم الله

---

(١) سورة الإسراء .
(٢) سورة التوبة .

فى مواطن كثيرة ، ويومَ حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها ، وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين)[1] . واحتدم الوطيس وصار الرسول ينادى : أيها الناس ! هلموا إلىّ ! أنا رسول الله محمد بن عبد الله . وساءت الحال فنادى العباس بصوت جهورى وتسارع المسلمون نحو الرسول . وعند ما وضح ضوء النهار وخرج الكفار من مكامنهم استبسل المسلمون فى القتال ، حتى قال الرسول : الآن حمى الوطيس ، وتقهقر الكفار وانتصر المسلمون ، وفر مالك بن عوف ببعض الكفار إلى الطائف ، وتفرق شمل الآخرين ، فتتبع المسلمون من فر ، وذهب الرسول إلى الطائف لحاصرها ، وتراشق الفريقان بالنبال ، واستعمل الرسول المنجنيق[2] لأول مرة فى الحرب كما استخدم الدبابات والضبور وهددوا الرسول بقطع البساتين والأشجار ، ثم حل شهر ذى القعدة فرجع الرسول عنها وفك الحصار حتى تنتهى الأشهر الحرم ، ولكن ثقيفا وجدت نفسها محاصرة بالمسلمين من كل الجهات ، فلقد انتشر الإسلام وعم جميع أرجاء شبه الجزيرة فجاءت وفودهم ووفود هوازن إلى الرسول مسلمين ، وأعطى الرسول إلى هوازن ما أخذه منها من النساء والولد[3] وفرق الأموال على قريش حتى ظن الأنصار أن الرسول قد تركهم ورجع إلى أهله . ولكن النبى بحكمته رأى أن قريشا حديثة عهد بالإسلام وأن إعطاءهم مثل هذه الغنائم يشعرهم بأن فى الدين الجديد سعادة فى الدنياوالآخرة . أما الأنصار فقد قال لهم الرسول : أفلا ترضون يامعشر الأنصار

---

(١) سورة التوبة .

(٢) راجع تفسير : للمنجنيق ، والدبابه والضبور ، باب « نظم الحكم » فى هذا الكتاب .

(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٣٠٣ .

أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ! اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فقال الأنصار : رضينا برسول الله قسما وحظا [١].

غزوة تبوك (سنة ٩ هـ :) :

وفى السنة التاسعة للهجرة ، اجتمعت على حدود فلسطين قبائل عديدة من الروم لقتال المسلمين ، فخرج إليهم الرسول بجيشه حتى ترك تبوك على حدود الشام وأقام بها ، فصالحه أهلها ، ثم جاءته وفود القبائل مُسلمة ، وأرسل خالد ابن الوليد إلى دومة الجندل ففتحها وعاد الرسول بعد ذلك إلى المدينة . وتعد هذه الغزوة آخر الغزوات النبوية .

وفى سنة ٩ هـ وفدت إلى المدينة وفود كثيرة من أنحاء الجزيرة ، فسمى هذا العام بعام الوفود [٢] ، ونزلت الآية الكريمة : (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) [٣].

حجة الوداع ووفاة الرسول :

وفى السنة العاشرة من الهجرة ، خرج الرسول فى حوالى مائة ألف من المسلمين إلى المسجد الحرام ، وعندجبل عرفات ألقى على المسلمين خطبته الخالدة التى تعتبر دستور الإسلام ، فقد بين فيها رسول الله أصول الدين الإسلامى وشرعه ونادى بالمساواة التامة بين الناس بقوله : أيها الناس ؟ اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبداً ، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ١٣٩ .
(٢) ابن هشام جـ ٤ ص ٢٠٥
(٣) سورة النصر .

إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا . . . أيها الناس! إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى ، وقد تم القرآن بنزول الآية الكريمة فى ذلك الوقت : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا)(١) .

ولم يمض على حجة الوداع ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول عليه الصلاة والسلام بالحمى ، وعند ماعلم الأنصار باشتداد مرض النبى ، أحاطوا بالمسجد ، فخرج الرسول وجلس على المنبر وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : أيها الناس ! بلغنى أنكم تخافون موت نبيكم هل خلد نبى قبلى ممن بعث الله فأخلد فيكم ؟ ألا إنى لاحق بربى وأنكم لاحقون بى فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم ، فإن الله تعالى يقول (والعصر إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وإن الأمور تجرى بإذن الله ، ولا يحملنكم استبطاء أمر على استعجاله ، فإن الله عز وجل لا يعجل بعجلة أحد ، ومن غالب الله غلبه ، ومن خادع الله خدعه ، فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . . . وأوصيكم بالأنصار خيراً ، فإنهم تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم ، أن تحسنوا إليهم ، ألم يشاطروكم فى الثمار ؟ ألم يوسعوا لكم فى الديار ؟ ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخصاصة ؟ . . . إلى أن قال : ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بى ، ألا فإن موعدكم الحوض ، ألا فمن أحب أن يرده على غدا فليكفف لسانه إلا فيما ينبغى .

ثم ازدادت الحمى على رسول الله ، حتى انتقل إلى جوار ربه فى يوم الاثنين

---

(١) سورة المائدة .

١٣ ربيع الأول سنة ١١ هـ (٨ يونية سنة ٦٣٢ م) ، وهو فى الثالثة والستين من عمره[١] .

حزن المسلمون لوفاة الرسول حزنا عميقا ، ولم يصدق بعضهم وفاته حتى إن عمر بن الخطاب ذهل من هول الخبر ، فنسى آيات ربه وقال : « إن رجلا من المنافقين زعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب كا ذهب موسى ، والله ليرجعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقطع أيدى رجال زعموا أنه مات » . إلا أن أبا بكر دخل على الرسول وكشف عنه وقال : بأبى أنت وأمى ! طبت حيا وطبت ميتا ! وانقطع لموتك مالم ينقطع لموت أحد من الأنبياء من النبوة ... ولولا أن موتك كان اختياراً منك لجدنا لموتك بالنفوس ، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشجون . . اللهم فأبلغه عنا السلام ! اذكرنا يا محمد عند ربك ولنكن من بالك ، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم ما خلفت من الوحشة ، اللهم أبلغ نبيك عنا واحفظه فينا » . ثم خرج للناس وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، أشهد أن الكتاب كا نزل وأن الدين كا شرع وأن الحديث كا حدث وأن القول كا قال ، وأن الله هو الحق المبين . ثم قال : أيها الناس من كان يعبد محمداً فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وأن الله قد تقدم إليكم فى أمره ، فلا تدعوه جزعا وإن الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر[٢] . واجتمع الناس لدفن الرسول ، وقال أبو بكر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما دفن نبى إلا مكانه الذى توفى فيه ، فحفر له فيه[٣] .

(١) ابن سعد جـ ٨ ص ١٢١ .
(٢) ابن هشام جـ ٣ ص ٤٦٧ . الطبرى جـ ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨ .
(٣) ابن هشام جـ ٣ ص ٤٨٦ .

ثانياً — الخلفاء الراشدون

١١ — ٤٠ هـ = ٦٣٢ — ٦٦١ م

مبدأ ونهاية حكم الخلفاء الراشدين :

السنوات الهجرية	الخلفاء الراشدون	السنوات الميلادية
١١	أبو بكر الصديق	٦٣٢
١٣	عمر بن الخطاب	٦٣٤
٢٣	عثمان بن عفـان	٦٤٤
٣٥ — ٤٠	على بن أبى طالب	٦٥٠ — ٦٦١

أزمة الحكم بعد وفاة الرسول :

كان لشخصية الرسول أثر كبير فى نفوس العرب حتى لنهم لم يصدقوا موته عندما علموا به ، فلما تحققوا من ذلك ، شك فريق منهم فى أمر هذا الدين الذى أتى به ، وارتد كثير منهم عن الإسلام لأنه لم يكن قد تمـكن من قلوبهم بعد ، فأخذ كبار الصحابة يفـكرون فى أمر المسلمين ليواجهوا الموقف الجديد ورأوا أنه لا بد للمسلمين من رئيس يتولى شئونهم ويتدبر أمورهم .

وقد اختلفت آراء المسلمين فيمن يتزعمهم وظهرت بينهم روح التعصب القبلى ، وأخيراً استقر الرأى على أن يكون للرسول خليفة ، يأمر بالعدل وينهى عن المنـكر ويؤم الناس فى الصلاة . ولـكن الصحابة اختلفوا فى كيفية

اختياره : لأنه لم يؤثر عن الرسول نص صريح يشير فيه إلى مسألة الحكم من بعده ، كما أن القرآن لم يشر إلى نظام الحكم بعد وفاته .

وكان من أثر ذلك أن ظهر الانقسام بين صفوف المسلمين ، واشتدت وطأة هذه الأزمة السياسية ، وتسابقت القبائل والبطون ليكون لها الأمر دون غيرها وتكشف ما فى الصدور ، وتجلت النفس العربية والطبيعة القبلية ، فكان الأوس والخزرج يخشى كل منهما صاحبه ويخافون المهاجرين ، حتى إذا كثرت المناقشات تصدى لحلها بعض زعماء المسلمين من أمثال : أبى بكر وعمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح[1] .

١ – أبو بكر الصديق

١١ — ١٣ هـ = ٦٣٣ – ٦٣٤ م

بيعة السقيفة :

ذهب الأنصار إلى سقيفة بنى ساعدة ليختاروا من بينهم خليفة المسلمين ، وقد خطبهم سعد بن عبادة زعيم الخزرج فقال « ... يا معشر الأنصار ! إن لكم سابقة فى الدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب » ، وأوضح لهم أنهم أحق بالخلافة من غيرهم ، واتفقت كلمتهم على اختياره . غير أن كبار الصحابة أمثال أبى بكر وعمر وأبى عبيدة عند ما علموا باجتماع الأنصار ، أسرعوا إليهم واشتركوا معهم فى المناقشة وأقنعوهم بضرورة اختيار الخليفة من قريش بحجة أن العرب لا يدينون إلا للقرشيين . وقد حاول الأنصار أن يقتسموا السلطة بأن يكون من المهاجرين أمير ومن الأنصار أمير ، ولكن رفض طلبهم ولم يلق قبولا .

(١) حسن ابراهيم حسن وعلى ابراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٣٣ .

عرض أبو بكر على الحاضرين أن يختاروا واحداً من اثنين هما : عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح ، ولكن عمر بن الخطاب خشى أن يترك الناس فيختلفوا ويضيع الأثر الذى أحدثه كلام أبى بكر ، فقام إلى أبى بكر ، وبايعه بالخلافة(١) ، وقال له : «ألم يأمر النبي بأن نصلى أنت يا أبا بكر بالمسلمين ، فأنت خليفة ، ونحن نبايعك فنبايع خير من أحب الرسول منا جميعاً » . وقد قال عمر بن الخطاب إنه أشفق من أن يختلف المسلمون ، فقال لأبى بكر : « أبسط يدك أبايعك » ، فبسط أبو بكر يده ، فبايعه عمر ومن بعده المهاجرون والأنصار ، وقد أضاف عمر إلى ذلك قوله : « وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبى بكر ، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة ، فإما أن نبايعهم على مالا نرضى أونخالفهم فيكون فساد »(٢) .

وبعد أن بايع عمر أبا بكر ، تبعه الحاضرون فى اجتماع السقيفة ، وقد ساعد على إتمام هذه البيعة خوف الأوس من أن تكون الخلافة فى الخزرج أعدائهم القدماء ، وهذه البيعة تسمى البيعة الخاصة ، وفى اليوم التالى أخذ أبو بكر(٣) البيعة فى المسجد وتسمى البيعة العامة ، وبذلك أصبح خليفة المسلمين .

كان أبو بكر يسمى فى الجاهلية عبد الكعبة(٤) لأن الكعبة كانت رمز العبادة فى الجاهلية ، وسماه الرسول عبد الله ، وسمى بالصديق لأنه أول من صدق برسالة الرسول من الرجال . وهو من كبار رجال العرب فى الجاهلية ، وكان يفصل فى بعض القضايا ، وأنفق معظم ثروته فى نشر الإسلام ، وقد أسلم على يده كثير من العرب أشهرهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام

(١) ابن هشام ج ٥ ص ٣٣٥ — ٣٣٩ .

(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٠٠ .

(٣) هو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة التيمى . ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ١١٠ .

(٤) دحلان : السيرة الحلبية ص ١١٠ .

عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله ، وكان أبو بكر رفيق الرسول وساعده الأيمن فتحمل كثيراً من العنت وتعرض لكثير من الأخطار ، وكان رفيقه فى الغار يوم هاجر مكة إلى يثرب ، وكان الرسول يثق فيه ويستشيره فى خواص الأمور حتى أنه قال فى آخر خطبة له « . . . إنى لا أعلم أحداً كان أفضل عندى فى الصحبة يداً منه »[1] .

ورغم ذلك فقد تخلف على بن أبى طالب عن مبايعة أبى بكر ، لاعتقاده بأحقيته عنه فى الخلافة : فهو أول من اعتنق الإسلام من الصبيان ، وهو ابن عم الرسول ، وزوج ابنته فاطمة التى ولدت له الحسن والحسين ، كما أنه يمتاز بشجاعته وفروسيته . وتأخرت بيعة على لأبى بكر حتى قيل إنها حدثت بعد أربعين يوماً من اختياره خليفة ، وقيل إنها وقعت بعد ثلاثة أشهر ، وفى رأى آخر أنها تمت بعد ستة شهور . وناصر علياً فى موقفه العباس وطلحة والزبير .

وبعد أن أخذ أبو بكر البيعة فى المسجد ، خطب الحاضرين خطبته المشهورة فقال : « أيها الناس ! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدقت فقوّمونى . الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا قوم ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله » .

---

(١) الطبرى جـ ٣ ص ٩١٢ .

حركة المرتدين :

لم يصدق الناس خبر موت الرسول ، وتسرب الشك إلى نفوسهم ، واستبعدوا أن يكون الشخص الذى أحدث هذا الانقلاب العظيم فى التاريخ بشراً يجوز عليه الموت ، وحدث الهرج والمرج بين الناس لما تحققوا خبر موت الرسول ، ووجد أغلب العرب الفرصة سانحة للخروج على سلطان قريش ، فامتنعوا عن دفع الزكاة وعرف هؤلاء باسم المرتدين ، ولم يبق مخلصاً للإسلام ومطيعاً لأبى بكر إلا سكان المدينة ومكة والطائف . وينقسم المرتدون إلى قسمين : قلة تريد العودة إلى حياة الجاهلية ، وكثرة لا تعترف بالزكاة مع اعترافها بسائر تعاليم الإسلام .

وقد هزت حركة المرتدين الدولة الإسلامية ، حتى لقد أشار عمر بن الخطاب على أبى بكر بعدم محاربتهم ما داموا يدينون بوحدانية الله عملا بقول النبى عليه السلام « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله » .

ولكن أبا بكر وقف موقفاً حازماً وعزم على محاربة المرتدين ، حتى يثوبوا إلى رشدهم وتعود بلاد العرب يداً واحدة كما كانت زمن الرسول ، وقال « والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها » . وكان أبو بكر على حق فى موقفه هذا ، إذ لو تساهل فى الزكاة لفتح باباً للتهريب من تأدية فرائض الإسلام الأخرى .

وقد أرسل أبو بكر إلى كل جماعة من المرتدين يعلمهم أن وفاة النبى عليه السلام أمر طبيعى يتفق مع قول الله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » ومع قوله أيضاً « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبل الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم

على أعقابكم » ، ودعاهم أبو بكر إلى الاعتصام بحبل الله و بعد أن بعث الكتب للمرتدين سيّر الجيوش لقتالهم ، وأمر أبو بكر كل قائد بالسير إلى ناحية من بلاد العرب . ومن أشهر هؤلاء : خالد بن الوليد ، وشرحبيل بن حسنة ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وعمرو بن العاص ، وسعيد بن العياص ، والعلاء بن الحضرمى . ولم تمض سنة واحدة حتى كانت الجزيرة العربية تدين بالطاعة والولاء للإسلام ولأبى بكر خليفة رسول الله .

المتنبئون :

وقد أدت رغبة بعض القبائل فى تزعم المسلمين والتخلص من نفوذ قريش ، إلى ادعاء بعض أفرادها النبوة . فظهر فى أيام الرسول عليه السلام : مسيلمة الكذاب من بنى حنيفة ، واستطاع أن يضم قبيلته إلى جانبه ، وقد تزوج مسيلمة من سجاح التميمية و بذلك ضم بنى تميم إليه . وأرسل مسيلمة إلى الرسول كتابا يدّعى فيه النبوة ومشاركته فى الرسالة و يساومه على اقتسام الرياسة . وقد رد عليه النبي بكتاب يقول فيه « من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب سلام على من اتبع الهدى . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، وتوفى الرسول دون أن يخضع مسيلمة . فلما تولى أبو بكر الخلافة أرسل إليه عكرمة بن أبى جهل ، ولكن عكرمة هزم لتعجله وعدم أناته . فسير أبو بكر خالداً بن الوليد على رأس جيش كثيف ، والتقى جيش خالد ابن الوليد بجيش مسيلمة ، فاشتد القتال واستمات أنصار مسيلمة حتى كادت الهزيمة تحيق بجيش المسلمين ، ولكن المسلمين صدقوا فى الجهاد وصبروا فى الحرب ، وقد دعا خالد مسيلمة للمبارزة حتى يقتله ، ولكن مسيلمة لم يستطع صبرا أمام خالد فاضطر إلى الفرار ، غير أن المسلمين هجموا عليه وعلى أصحابه ، فهزموه .

وقتلوا منهم عدداً كبيراً ، كما قيل إن وحشياً[1] قتل مسيلمة شر قتلة ، وقضى بذلك على تلك الحركة الخطيرة .

ومن المتنبئين أيضاً الأسود العنسى ، وقد ظهر فى بلاد اليمن وكسب كثيراً من الأنصار ، وغزا بلاد نجران ودانت له كما دانت له مذحج وألقى الرعب فى قلوب ولاة المسلمين على اليمن حتى كتبوا بذلك للرسول ، ولكن ولاة المسلمين ائتمروا به وتوصلوا إلى قتله غيلة فى صبيحة الليلة التى مات فيها الرسول[2] . وبذلك لم يكن الأسود العنسى ، ممن قضى عليهم أبو بكر من المتنبئين ، على أن بعض المؤرخين يذكر أن الأسود قتل فى عهد أبى بكر عند بداية حروب الردة .

ومن المتنبئين كذلك طليحة بن خويلد ، أحد كهنة بنى أسد . ظهر أمره بعد النبى وانضمت إليه غطفان من حولها فبعث إليهم أبو بكر عديا ، ثم خالد ابن الوليد ، واشتد القتال حتى فر طليحة إلى الشام[3] ونزل بقبيلة كلب مقيما بين أفرادها حتى أسلمت فأسلم أيضاً ، ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أبى بكر بايعه طليحة ، ثم رجع إلى قومه فأقام بينهم حتى عاد إلى العراق وأبلى مع المسلمين بلاء حسناً .

على أن فريقا من أتباع المتنبئين لم يكونوا يعتقدون فى صدق هؤلاء المتنبئين ، بل إن منهم من دفعه إلى ذلك العصبية القبلية وكراهية الخضوع لقريش . وقد روى أن أحد بنى حنيفة من أتباع مسيلمة قال « أشهد بأن مسيلمة كذاب ، ولكن كذاب ربيعة ، خير من صادق مضر » . وروى أيضاً أن عيينة بن حصن قام خطيبًا فى غطفان بعد وفاة الرسول وقال : « ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بنى أسد ، وإنى لمجدد

(١) وحشى هذا هو قاتل حمزة عم النبى فى غزوة أحد .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ٢٤٧ — ٢١٩ .
(٣) الطبرى ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣٢ .

الحلف الذى كان بيننا فى القديم ومتابع طليحة (بن خويلد) والله لأن نتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من نتبع نبياً من قريش ، وقد مات محمد و بقى طليحة . وقد انتهت حركة المتنبئين — كما إنتهت حركة المرتدين — بالفشل ، وحافظ بذلك أبو بكر على الإسلام فى فترة تعد من أدق الفترات .

حركة الفتح والتوسع :

سير أبو بكر إلى أطراف الشام ، الجيش الذى كان النبى قد جهزه قبل وفاته تحت قيادة أسامة بن زيد . وكان عمر بن الخطاب يعارض فى إرسال هذا الجيش لاضطراب أحوال بلاد العرب وصغر سن أسامة ، فقال أبو بكر « ثكلتك أمك وعدمتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله وتأمرنى أن أعزله »[1] ثم أوصى أبو بكر أسامة فقال : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً . . . وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم[2] وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقا ، اندفعوا باسم الله »[3] .

وأنفذ أبو بكر — عقب بيعته مباشرة — الجيش الذى كان قد أعده النبى بقيادة زيد بن حارثة ، للثأر لما نزل بالمسلمين فى مؤتة ولإرهاب الروم ومنعهم من التفكير فى قتال المسلمين . ونزل أسامة بعسكره فى منطقة البلقاء بعد عشرين يوما حيث تقع مؤتة ، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج ٢ ص ١٣٩ .

(٢) يقصد بذلك رجال الدين الذين قضت العادة فى العصور الوسطى بفحص رؤوسهم ، أى بحلقها من الوسط تمييزاً لهم عن العلمانيين وهم المدنيون .

(٣) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة .

الإسلام وأحرق المدن التي قامت المسلمين ، وبذلك انتقم أسامة لأبيه والمسلمين . ولما سمع هرقل أنباء هذه الغزوة أرسل جيشاً قوياً عسكر في البلقاء ، ولكن المسلمين وعلى رأسهم أبو بكر لم يكونوا قد فكروا في ذلك الوقت في فتح الشام . ولما كان أبو بكر يريد أن يشغل العرب بأمور تصرفهم عن الفتنة ولاسيما بعد أن قضى على حركة المرتدين ، تداول مع المسلمين في الأمر ، واستقر الرأى على أن تستمر حركة الفتح ، وأمر أبو بكر بتولية المثنى بن حارثة الشيبانى قائدا ، واتبع ذلك بتولية خالد بن الوليد القيادة العامة .

وفى ذلك الوقت ، كان العلاء بن الحضرمى يقاتل المرتدين ، فانضم إليه المثنى بن حارثة ، وسار بقواته شمالا حتى استولى على القطيف وتركها ، واستمر في سيره حتى وصل إلى مصب دجلة والفرات ، وقضى في أثناء ذلك على الفرس وعمالهم ممن عاونوا المرتدين في البحرين . وأمعن السير بجيشه في دلتا الفرات ، فلقيه هرمز أحد قواد الفرس ، وحدثت بينهما عدة وقائع سمع بها أبو بكر ، فسأل عن المثنى وعرف ما عمله في البحرين أثناء حروب الردة ، وأصدر أمره إلى خالد بن الوليد كى يخف إليه ويعينه على هرمز ، ثم يسير لفتح الحيرة عاصمة العرب اللخميين .

ذهب خالد بن الوليد إلى دلتا الفرات ولم تكن له خطة مرسومة ولكنه انتصر وتقدم نحو الشمال ، وبعث إلى الخليفة بالغنائم . على أن هذه الانتصارات لم تدم طويلا ، إذ أن يزدجرد الثالث آخر ملوك آل ساسان أعد جيشاً كثيفاً من الفرس بقيادة القائد رستم ، فتقهقرت أمامه جيوش المسلمين إلى أطراف الصحراء بقيادة خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة ، ولكنها تمكنت من إخضاع القبائل العربية التي كانت تقيم جنوب نهر الفرات ، واستولت على الحيرة والأنبار . وظل الحال على ذلك إلى أواخر أيام أبى بكر ، فوجه

خالد بن الوليد لمساعدة المسلمين فى قتال الروم فى الشام وفلسطين .

أما فى الشام فقد كان للمسلمين أثناء حرب الردة عدة جيوش على حدود هذا الإقليم بقيادة خالد بن سعيد بن العاص ، لحماية تلك الحدود . وعندما علم هرقل بأمر هذه الجيوش أعد العدة لطردها ، وعلم خالد بن سعيد بذلك ، فأرسل إلى أبى بكر يستأذنه فى منازلة الروم ومن انضم إليهم من قبائل العرب بالشام واستشار أبى بكر كبار الصحابة ، ودعى الناس لغزو الشام فلبوا الدعوة فى حماسة وحمية ، تدفعهم قوة الإيمان وعدم المبالاة بالموت . وسرعان ما أنفذت الجيوش نحو الشمال عقب تجمعهم بالمدينة ، وعقد اللواء لأربعة من الأمراء هم : شرحبيل بن حسنة ووجهته وادى الأردن ، وعمرو بن العاص ووجهته فلسطين ، وأبو عبيدة بن الجراح ووجهته حمص ، ويزيد بن سفيان ووجهته دمشق . وأمر أبو بكر هؤلاء القواد أن يتعارفوا بعضهم مع بعض ، وأن يكونوا مدداً للجيوش الأخرى إذا دعت الحاجة[1] .

سار خالد بن سعيد بن العاص نحو الشام وهزم الجيوش التى جمعها الروم ، وبعد ذلك توالى قدوم الجيوش الإسلامية إلى الشام ، وانضم الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبى جهل وذو الكلاع الحميرى أحد أمراء اليمن إلى خالد بن سعيد بن العاص ، حتى تجمعت لديه قوة كبيرة وخيل إليه أنه يستطيع أن يقضى على الروم كما قضى خالد بن الوليد على الفرس ، ولكنه لم يكن قائداً محنكا ، فإن ماهان قائد جيش الروم استدرجه إلى مكان قريب من وادى الصفر إلى الشرق من بحيرة طبرية ، حتى أحاطه به وقطع عليه خط الرجعة واضطره إلى الفرار هو والوليد بن عقبة ، تاركا وراءه جيش المسلمين يقوده عكرمة وذو الكلاع متقهقراً . وبذلك فشلت حركة المسلمين الأولى فى الشام ورجعت جيوشهم إلى الحدود .

---

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ١٩٥ .

على أن هذه الهزيمة لم تخمد حماسة أبى بكر ، فسير هذه الجيوش واستطاعت أن تصل إلى حيث يقيم جيش عكرمة بدون عناء بعد أن قضت على المقاومة التى أبداها حلفاء الروم من عرب الشام . وكان عدد هذه الجيوش والجيش الذى يقوده عمرو بن العاص ، حوالى ثلاثين ألفاً ، اتخذ كل منها فى بادىء الأمر جهة خاصة . ولكن قواد المسلمين عندما رأوا أن هرقل قد سير لمحاربتهم عدة جيوش كثيفة ، تبادلوا الرأى ، وأشار عليهم عمرو بن العاص بجمع قواتهم ، وأرسل إليهم أبو بكر كتاباً يقول فيه « اجتمعوا عسكراً واحداً والقوا زحف المشركين بزحفكم فأنتم أعوان الله ، والله ناصر من نصره وخاذل من كفره » ، وعمل المسلمون بهذه المشورة واجتمعت قواتهم كلها على شاطىء اليرموك الأيسر ولما رأى الروم ذلك جمعوا قواتهم على الشاطىء الأيمن للنهر ونزلوا فى بطحاء تحيط بها الجبال من ثلاث جهات فى منطقة تسمى واقوصة[1] ، فعبر المسلمون نهر الأردن إلى شاطئه الأيمن ووقفوا أمام جيوش الروم وكان يقودها تيودريك[2]

ووقف الجيشان وجهاً لوجه ، دون أن يتغلب أحدهما على الآخر نحو شهرين مما أقلق الخليفة . فأرسل إلى خالد بن الوليد فى العراق : أن سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك ، فإنهم قد شجوا وأشجوا فليهناك أبا سليمان النية والحظوة ، أتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، و إياك أن تدل بعمل ، فإن الله له المن وهو ولى الجزاء[3] . تولى خالد بن الوليد القيادة مكان أبى عبيدة وسار على رأس جيش كبير يتكون من عشرة آلاف جندى ، أدرك به المسلمين فى اليرموك وقاتل الروم ، وصادف مجيئه أن

---

(١) على مسيرة ثلاثين أو أربعين ميلا من مصب اليرموك بالأردن .

(٢) هو أخو هرقل وكانت العرب تسميه تذارق .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٧٤ .

هرقل كان قد عزز جيشه بتعيين ماهان[1] ، الذى هزم خالد بن سعيد من قبل ، قائداً .

ولما قدم خالد بن الوليد بجيشه إلى الشام وجد المسلمين يقاتلون متساندين، فرتب الجيش وجعل أبا عبيدة بن الجراح فى القلب . وعمرو بن العاص على الميمنة ويزيد بن أبى سفيان على الميسرة ، ثم دارت رحى القتال ، واشتركت النساء مع الرجال لصد هجمات العدو ، الذى اضطرهم إلى التقهقر عدة مرات[2] . وبعد أن لحقت الروم الهزيمة ، جاء يوم الواقوصة ، وهو اليوم الذى كتب فيه النصر للعرب حيث قتل من جند الروم مائة وعشرون ألفاً[3] .

وفى أثناء قتال العرب فى اليرموك ، أتاهم نعى أبى بكر سنة ١٣ هـ وتولية عمر بن الخطاب الخلافة ، فعزل خالد عن القيادة وولى مكانه أبا عبيدة .

٢ — عمـــر بن الخطاب

١٣ — ٢٣ هـ = ٦٣٤ — ٦٤٤ م

ينتهى نسب عمر بن الخطاب إلى كعب بن لؤى ، ويشترك نسبه مع الرسول فى الجد السابع . ولد بمكة قبل حرب الفجار الأعظم بأربع سنين ، وكان فى الجاهلية سفيراً[4] لقريش إذا وقعت حرب بين قريش وبين غيرها من القبائل ، أسلم وسنه ست وعشرون سنة بعد أربعين شخصاً ، وكان لا يخفى إسلامه ، وهو الوحيد من المهاجرين الذى هاجر دون أن يتخفى ، وصار من أشد المناصرين

---

(١) يعرف أيضاً باسم ماهان وهو قائد أرمنى عرف فيه هرقل الشجاعة والإقدام .

(٢) الواقدى : فتوح الشام ج ١ ص ١٦٥ .

(٣) الطبرى ج ٣ ص ٣٠ .

(٤) السفير فى اللغة : الرسول والمصلح بين القوم ، وفى حديث على أنه قال لعثمان « إن الناس قد استسفرونى بينك وبينهم » أى جعلونى سفيراً ، والسفارة معروفة فى الجاهلية وهى من المناصب التى كانت فى يد قريش وبطونها .

للرسول والإسلام حتى صحبه فى معظم غزواته ، ولقبه الرسول عليه السلام « الفاروق » لأن الله فرق به بين الحق والباطل ، وعنه قال النبى : « لو كان بعدى نبى لكان عمر »[1] ، وكان عمر من مؤيدى أبى بكر عند بيعته ، وعاونه فى خلافته فقد ساعده فى حروب الردة وفى جمع القرآن وفى الفصل فى القضايا ، وكان عمر منه بمثابة الوزير .

بيعة عمر :

ترك يوم السقيفة أثراً واضحاً فى ذهن أبى بكر ، فلما اشتد عليه المرض خاف إن هو أمر الخلافة كما تركه رسول الله انقسم المسلمون بعضهم على بعض واقتتلوا وأصبحوا أشد خطراً على أنفسهم من أهل الردة ، فاستقر رأيه على أن يعهد بالخلافة من بعده لمن يعتقد فيه الكفاية وحسن السياسة[2] نظر أبو بكر فى أصحابه ليتخير من بينهم : رجلا حازما فى غير عنف ليناً فى غير ضعف ، فوجد أن من توفرت فيه هذه الصفة من الصحابة أحد رجلين : عمر بن الخطاب ، وعلى بن أبى طالب ، ووقع اختياره على عمر بن الخطاب ، ومع ذلك لم يشأ أن ينفرد بالرأى ويفرض إرادته دون مشورة أحد من أصحابه . فسأل عدداً من الصحابة منهم عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان عن رأيهم فى عمر بن الخطاب قبل أن يعهد إليه بالخلافة ، وتأكد أنهم جميعاً راضون عنه ، وبعد أن استقر رأيه على استخلاف عمر ، أطل على المسلمين من المسجد من حجرة بجواره ، وخاطبهم قائلا : « أترضون بمن استخلف عليكم ؟ فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ولا وليت ذا قرابة . وإنى قد وليت عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا » ، فأجابه الناس سمعنا وأطعنا . وعند ذلك رفع يديه إلى السماء

(١) ابن الجوزى . سيرة عمر بن الخطاب ص ١٥ — ٢٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٣٣ — ٣٤ .

وقال : « اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم ما أنت به أعلم ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم. وقد أملى أبو بكر على عثمان بن عفان كتاب بيمته لعمر بن الخطاب وهو يقول فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، الحال التى يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر ، إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل فذلك علمى به ورأيى فيه ، وإن جار وبدل فلا علم لى بالغيب . والخير أردت ولكل امرىء ما اكتسب (وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون) »[1].

وقد بدت سياسة عمر القائمة على الحزم والشدة فى أول خطبة خطبها إذ قال : « إنما مثل العربى مثل جمل أنف أتبع قائده ، فلينظر قائده حيث يقوده وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق »[2] . وهنا نلحظ أمرين خطيرين : أن أبا بكر علق خلافة عمر على رضاء الناس ، وثانيهما : أنه لم ينتخب أحد من أبنائه أو أقربائه بل انتخب شخصا أجمع الناس على احترامه لما امتاز به من الصفات الطيبة .

الفتوح الإسلامية ١ — فتح فارس :

كان أبو بكر قد وجه جيشاً إلى أطراف العراق بقيادة خالد بن الوليد ومعه المثنى بن حارثة . وانتصر على الفرس بعد عدة وقائع واستولى على الحيرة والأنبار وأبرم صلحاً مع أهلها تعهدوا له فيه بأداء الجزية ، ولما سمع أهل القرى القريبة من الحيرة بهذا الصلح سارعوا إلى مصالحة خالد . ولكن يزدجرد الثالث آخر

---

(١) سورة الشعراء ٢٦ آية ٢٢٧ .

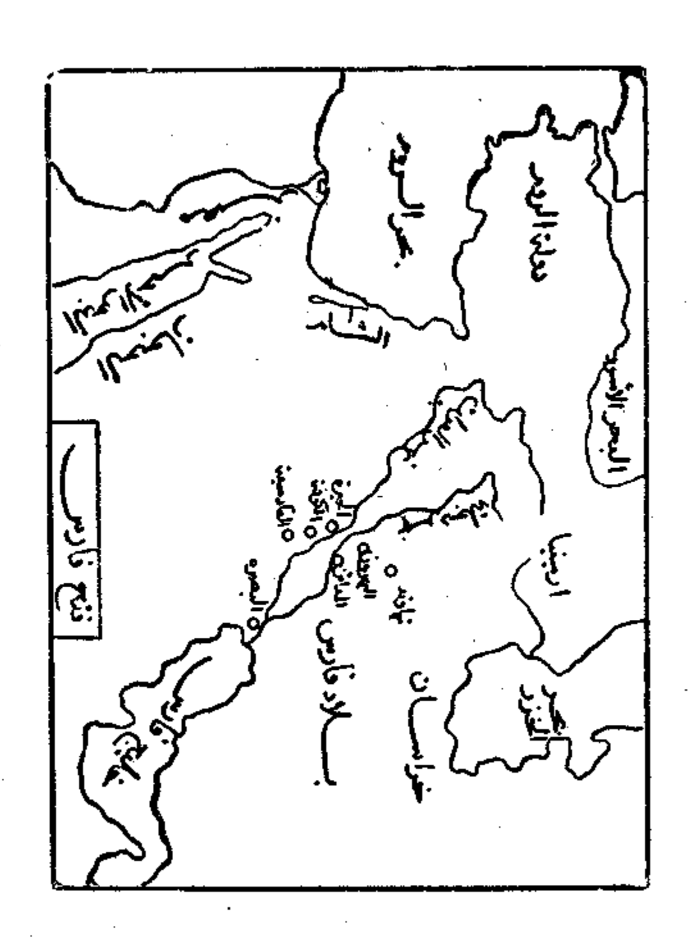
(٢) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠٨ .

ملوك آل ساسان أعد جيشاً كبيراً بقيادة رستم، فارتد العرب إلى أطراف الصحراء، ثم أمر أبو بكر، خالد أن يلحق بجيوش المسلمين لقتال الروم فى الشام وفلسطين .

ولما ولى عمر الخلافة أرسل نجدة إلى العراق تحت قيادة أبى عبيدة ابن الجراح الثقفى، فاشتبك مع الفرس فى عدة مواقع انتهت بانهزام العرب فى واقعة الجسر. وعند ما علم عمر بذلك عهد إلى سعد بن أبى وقاص أحد كبار القواد بإتمام فتح فارس، فوصل سعد إلى القادسيه، والتقى بجيش الفرس الذى بلغ ثلاثين ألف مقاتل بقيادة رستم، فى حين لم يزد جند العرب عن ثمانية آلاف مما دعا الفرس إلى الاستهتار بهم، وكان الفرس يضحكون من نبل العرب ويشبهونها بالمغازل. وأرسل سعد رسوله المغيرة بن شعبة إلى رستم يدعوه إلى الدخول فى الإسلام أو دفع الجزية، فقال رستم « وقد علمت أنه لم يحملكم على ما أنتم فيه إلا ضيق المعاش وشدة الجهد، ونحن نعطيكم ما تشبعون به ونصرفكم ببعض ما تحبونه ». وقال المغيرة. « إن الله بعث إلينا نبيه صلى الله عليه وسلم فسعدنا بإجابته واتباعه، وأمرنا بجهاد من خالف ديننا، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون. ونحن ندعوك إلى عبادة الله وحده والإيمان بنبيه، فإن فعلت وإلا فالسيف بيننا وبينكم »، فقال له رستم: « والشمس والقمر لا يرتفع الضحى غداً حتى نقتلكم أجمعين ». فقال المغيرة: « لا حول ولا قوة إلا بالله وانصرف عنه »[1].

حدثت واقعة القادسية سنة ١٥ هـ وانتهت بهزيمة الفرس وقتل رستم هو وعدد كبير من جنوده واستولى العرب على غنائم كثيرة ثم تبعهم سعد إلى « جلولاء » سنة ١٦ هـ وأوقع بهم، وأسر إحدى بنات كسرى،

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٦٥ .


فتح فارس
بحر الروم
بلاد الروم
البحر الأحمر
الشام
أرمينية
بحر الخزر
خراسان
بلاد فارس
نهاوند
البصرة

وقتل عدداً كبيراً من الفرس ، واتخذ سعد الكوفه مقراً للمسلمين وأسس بها المسجد الجامع[1] . وتابع سعد انتصاراته على الفرس ، فاستولى على المدائن حاضرة بلادهم بعد حصار شهرين ، وغنم العرب غنائم كثيرة من بينها بساط كسرى . وفر يزدجرد ملك الفرس ، ولم يستطع أن يلاقى العرب إلا بعد أربع سنوات قضاها فى الاستعداد لملاقاتهم ، وبلغ عدد جيشه أكثر من ستين ألف مقاتل . وتقابل العرب والفرس فى موقعة نهاوند سنة ٢١ هـ ، وكتب النصر للعرب . وتعرف هذه الموقعة باسم فتح الفتوح ، لما ترتب عليها من القضاء على حكم الأكاسرة ، أما يزدجرد الثالث فقد فر إلى الحدود الشرقية وقتل فى خراسان سنة ٣١ هـ فى خلافة عثمان بن عفان .

وهكذا دانت فارس جميعها للعرب وتحولت إلى ولاية عربية . وبنى المسلمون الكوفة والبصرة ، واتخذوا الكوفة مقراً لحكومتهم بدل المدائن ، واعتنق الفرس الإسلام واختلطوا بالعرب ، وأصبحوا عنصراً إسلامياً مهماً . وأظهر المسلمون معهم تسامحا وفرضوا على من لم يقبل الإسلام منهم جزية ، وفيما عدا ذلك لم يتدخل العرب فى شئون الفرس الدينية . ولا شك أن العرب قد جنوا ثمار هذه الانتصارات التى أحرزوها على الفرس : فضموا إلى بلادهم بلداً جديداً ، وأثروا وأصبحوا فى رغد من العيش بعد أن امتلكوا كنوز الفرس ، وقد بهرت تلك النفائس والأموال العرب الذين اعتادوا التقشف والبساطة . أما الفرس فقد رحبوا بالعرب : الذين خلصوهم من استبداد آل ساسان ، واعتنق عدد كبير منهم الإسلام ، ودفع غير المسلمين جزية الرءوس نظير إعفائهم من الخدمة العسكرية . أما الخراج فقد فرض على الأرض ، إذا تركها المسلمون فى أيدى أصحابها يزرعون مقابل تلك الضريبة حتى يتفرغ المسلمون للجهاد جنوداً لهم مرتبات ثابتة من بيت المال . على أن زواج الحسين بن على من ابنة يزدجرد آخر

(١) الطبرى ج ٤ ص ١٣٢ — ١٤٠ .

ملوك فارس ، كان من العوامل الرئيسية فى انتشار الإسلام فى بلاد الفرس ، فقد رأوا فى أبناء الحسين ، ورثة ملوكهم الأقدمين . وهذا أدى إلى تعلق الفرس بعلى بن أبى طالب وذيوع المذهب الشيعى فى بلادهم[1] .

٢ — فتح الشام وفلسطين :

كانت جيوش المسلمين تحت إمرة خالد بن الوليد[2] قد انتصرت انتصاراً باهراً على الروم فى موقعة اليرموك ، وبدأت تتجه لحصار دمشق . وقد توفى أبو بكر فى هذا الحين وخلفه عمر بن الخطاب فأمر بأن تستمر الجيوش الإسلامية فى القتال ، واستطاعت أن تفتح دمشق وكان ذلك فى أواخر سنة ١٣ هـ ، وبعد فتحها انتصرت الجيوش الإسلامية على الروم فى مكان يسمى فِحل[3] ، وبعد قتال شديد انهزم الروم وطاردهم المسلمون ووخزوهم بالرماح حتى أصيبوا جميعاً وكانوا ثمانين ألفاً[4] .

بعد ذلك استولى قسم من الجيش الإسلامى بقيادة أبى عبيدة وخالد بن الوليد على حمص وحماة وقنسرين واللاذقية وحلب ، فى حين ذهب جزء آخر من الجيش بقيادة شرحبيل وعمرو بن العاص إلى بيسان وطبريه وأرغموا أهلها على الصلح بعد حصار دام عدة أيام ، وتم بذلك صلح الأردن ، وكتب عمرو بن العاص إلى عمر ينبئه بالفتح[5] .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) أصبح خالد فيما بعد تحت إمرة أبى عبيدة ، إذ كان عمر بن الخطاب قد عزله وولى أبا عبيدة قيادة الجيش ، وحدث ذلك عندما كان العرب يقاتلون فى اليرموك واستحى أبو عبيدة أن يقرأ على خالد كتاب العزل حتى فتحت دمشق ، وجرى الصلح على يدى خالد وكتب الكتب باسمه . انظر — حسن ابراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٨٥ .

(٣) فحل : بكسر أوله وسكون ثانية وآخره لام ، هو موضع بالشام . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) ياقوت : نفس المصدر .

(٥) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٠١ — ٢١١ .

انتصر عمرو بن العاص على الأرطبون وإلى فلسطين الرومانى ، عند أجنادين سنة ١٥ هـ ، وانتصر عليه بعد قتال شديد لا يقل أهمية عن القتال الذى دار عند اليرموك ، واضطره أن يلجأ هو ومن بقى من الثمانين ألفا الذين كانوا يحاربون معه فى أجنادين إلى بيت المقدس ، وكان من نتائجها المباشرة أن خضعت لسلطان العرب : عسقلان ونابلس ويافا والرملة وغزة وبيروت .

وقصد عمرو بن العاص بعد ذلك بيت المقدس ، وحاصرها أربعة أشهر لم ينقطع فيها القتال ، وأخيراً رضيت المدينة المقدسة بالتسليم على أن يتم ذلك بحضور عمر بن الخطاب نفسه ، ورضى بهذا عمرو ورحل إلى الجابية ، وتم فتح بيت المقدس سنة ١٦ هـ ، وسلمت قيسارية للجيش الإسلامى بقيادة عمرو ابن العاص بعد أن غادرها قسطنطين بن هرقل خفية ، وقد ملئت نفسه خوفاً لأنه علم أن أباه قد هرب من أنطاكية وأن عمرو بن العاص قد اخترق أسوار قيسارية ، فانسل من قصره هو وأسرته ، وفى الصباح علم الأهلون بهرب أميرهم فسلموا لعمرو[1] .

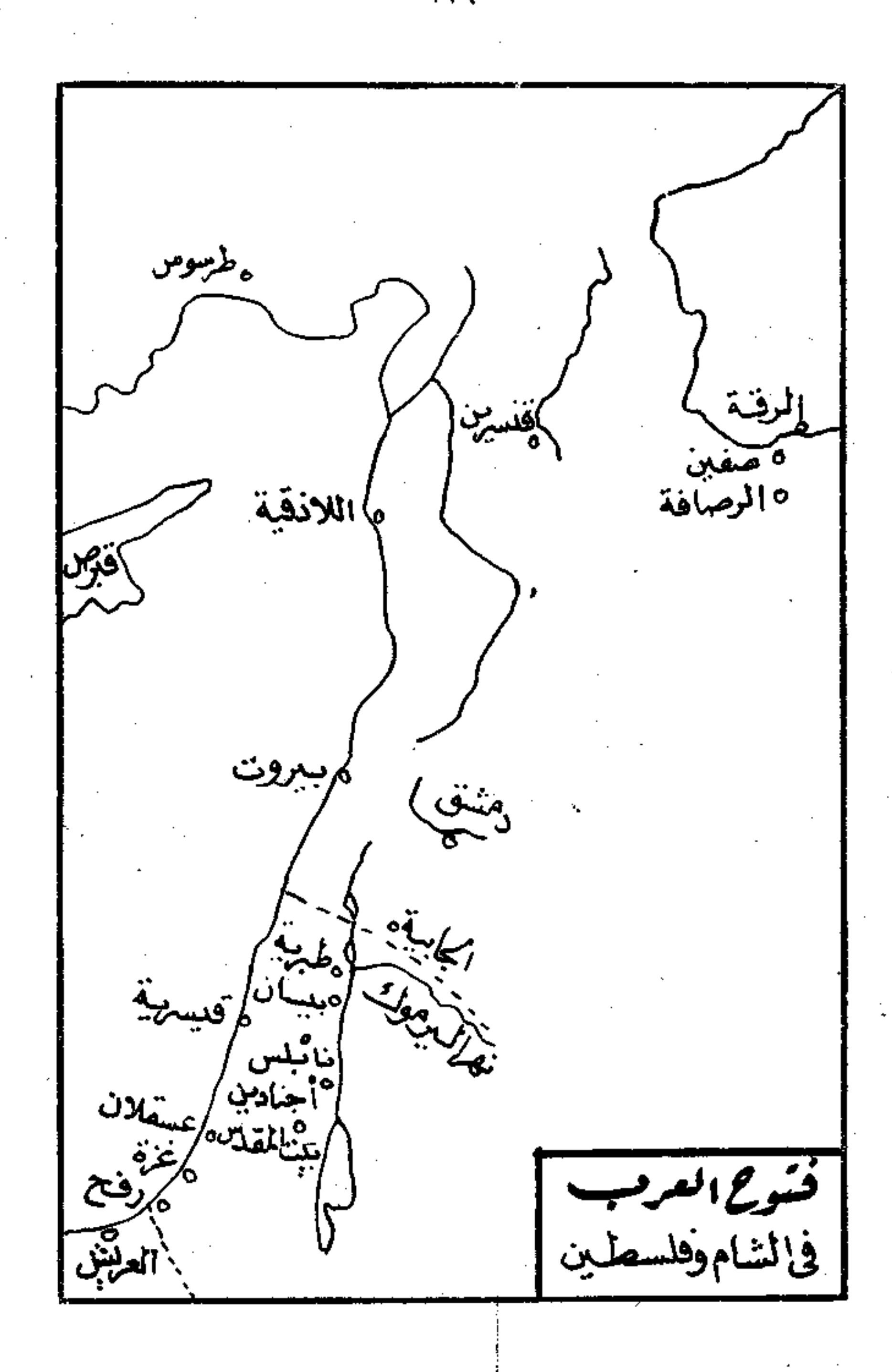
بذلك قضى على نفوذ الروم فى الشام ، ويكفى لتقدير عظم جهود المسلمين أنهم فقدوا فى حرب الشام ما يزيد على خمسة وعشرين ألف مقاتل .

٣ — فتح مصر :

ناقش عمرو بن العاص الخليفة عمر بن الخطاب عند قدومه إلى الجابية فى موضوع فتح مصر[2] ، فتردد عمر لإشفاقه على المسلمين من أن يصيبهم الفشل : فقد كانت الجنود الإسلامية فى ذلك الوقت متفرقة فى الشام والجزيرة وفارس لقتال الروم والفرس . ولم يكن فى استطاعة عمر أن يجمع لفتح هذه البلاد جيشاً

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٧٩ .

(٢) انظر — على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٥ — ٣٣ حيث تجد تفصيلا للفتح العربى لمصر .


طرسوس
قنسرين
الرقة
صفين
الرصافة
اللاذقية
قبرص
بيروت
دمشق
الجابية
طبرية
بيسان
قيسرية
نهر اليرموك
نابلس
أجنادين
عسقلان
بيت المقدس
غزة
رفح
العريش
فتوح العرب
في الشام وفلسطين

كبيراً ، كما أن عمرو كان يخشى من التوسع فى الفتح لا سيما وأن أقدام المسلمين لم تثبت بعد فى البلاد التى فتحوها .

أخذ عمرو يهوّن على عمر فتح مصر ، ويذكر له : أنه دخلها فى الجاهلية وعرف طيب تربتها وخصوبة أرضها ومقدار ثروتها وخيرها ، وأوضح له أن الاستيلاء عليها يثبت فتوح العرب فى الشام وفلسطين ، ويؤمنها من ناحية الجنوب وأن موقع مصر الجغرافى يساعد العرب على الاستيلاء على المغرب والأندلس ، فضلا عن تحقيق أهم غرض للفتوح الإسلامية وهو نشر الديانة الإسلامية فى بقعة جديدة .

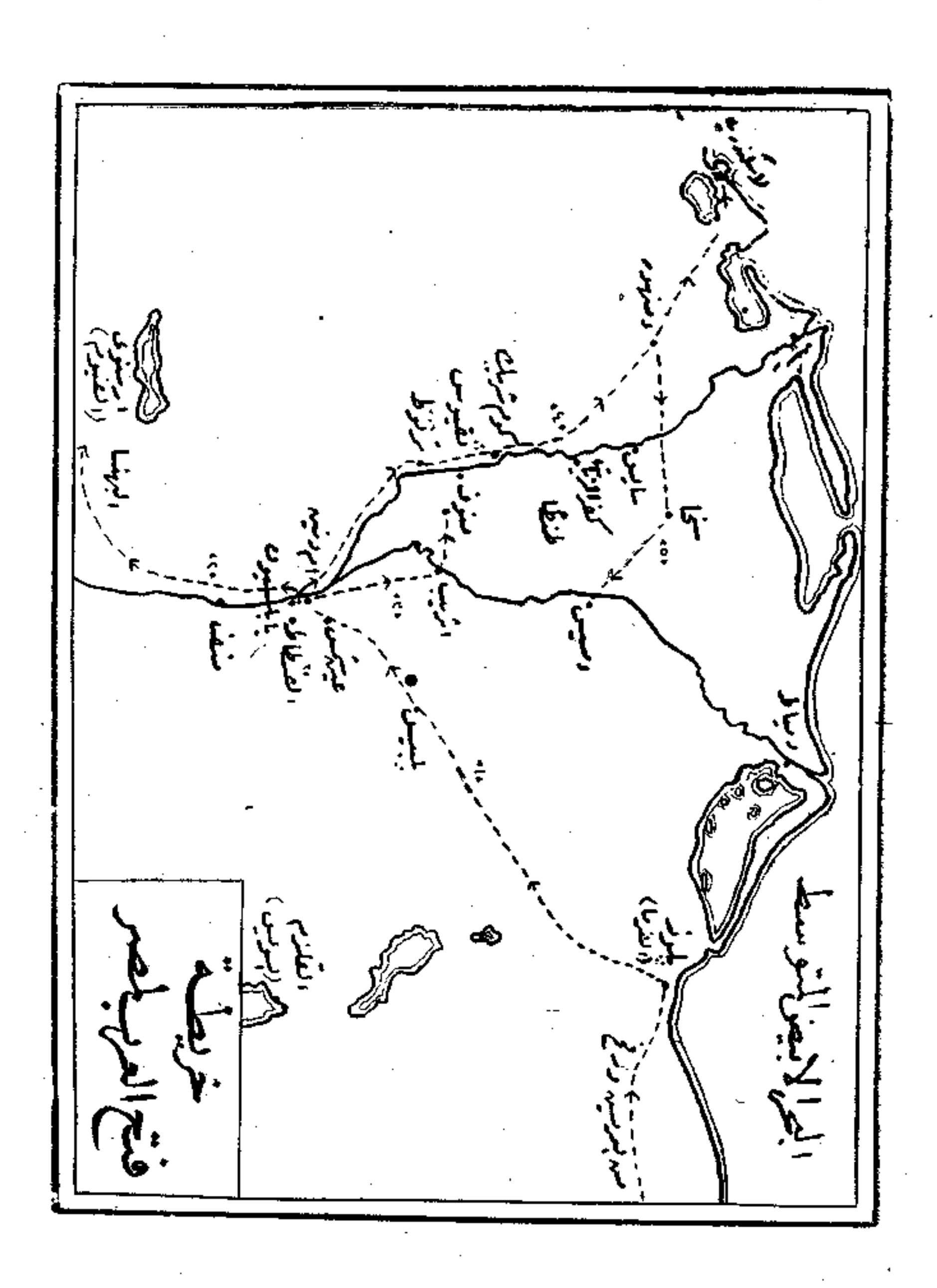
لم يزل عمرو بعمر حتى رضى وأذن له بأربعة آلاف مقاتل . وقال لعمرو : إنى مرسل إليك كتاباً فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شىء من أرضها فانصرف ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابى فامض واستعن بالله واستنصره[1] . وسواء وصل كتاب عمر لعمرو أم لم يصل ، فإنه سار فى طريقه إلى مصر وحارب الروم وهزمهم فى العريش وبلبيس ، وأم دنين ، وعين شمس ، واقتحم حصن بابليون مقر القيادة الرومانية ، وفتح الأسكندرية عاصمة الديار المصرية إذ ذاك . وواصل فتوحاته حتى تم له الاستيلاء على مصر وأصبحت ولاية إسلامية ، وقد رحب القبط بالعرب لتخليصهم من ظلم الرومان فلم يساعدوا الروم ضد العرب بل أمدوا العرب بالعلوفة والمؤن وغير ذلك .

العوامل التى سهلت انتصار العرب على الروم والفرس :

امتاز العرب على أعدائهم من الفرس والروم بالصبر على مشاق القتال والاكتفاء بالقليل من الزاد ، وامتازوا بالحماسة الدينية التى بثها النبى عليه الصلاة

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ص ٥٣ .



خريطة
فتح العرب لمصر
البحر الابيض المتوسط
دمياط
الاسكندرية
دمنهور
سخا
سايس
كفر الزيات
طنطا
كوم شريك
منوف
نقيوس
ترنوط
اتريب
بلبيس
عين شمس
ام دنين
الفسطاط
بابليون
منف
البهنسا
(الفيوم)
بلوز
(الفرما)
القلزم
(السويس)

والسلام فى نفوسهم ، وبالحرص على الخروج من دائرة بلادهم إلى بلاد أخرى كثيرة الموارد وفيرة الخيرات . وقد أفسدت المدنية ، الإمبراطورية الرومانية الشرقية : إذ انغمس أهلها فى وسائل الترف والنعيم ، وتصدعت أركانها : إذ لم يكن بين شعوبها رابطة أو تآلف لاختلافهم فى الديانة والقومية والجنسية مما جعل اتحادها لصد الفتح العربى عسيراً ، كما رحبت الشعوب الخاضعة لها بالعرب لتخلصهم من اضطهادات الرومان وضرائبهم الفادحة ، وكذلك كان العرب يجيدون بعض الفنون الحربية التى لا يجيدها خصومهم كفن الرماية . وكانت معظم الجيوش العربية تتكون من الخيالة ، أما الرومان فكانت جيوشهم تتكوّن من المشاة وكانوا يستعملون العُدد الثقيلة التى تعوق حركات الجيش ، على حين كانت عُدد الحرب عند العرب بسيطة ، فكانوا يستخدمون الرمح الذى نسمع عنه كثيراً فى تشبيهات العرب وأشعارهم ، والسيف الذى يعتبر من أشرف أسلحتهم .

ترك العرب الحرية الدينية للقبط ، وخيَّروهم بين الإسلام فيكون لهم حقوق المسلمين وعليهم واجباتهم ، أو البقاء على دينهم فتفرض عليهم جزية قدرها ديناران للقادرين واستثنى منهم النساء والشيوخ والأطفال ، و تعهد عمرو بحماية كنائسهم ، واستقبل بطريقهم عند عودته إلى الأسكندرية بالترحيب ، وأصبح اليعاقبة والملكانيون سواء أمام العرب ، وتركت الأرض لهم ، فضلا عن الإصلاحات التى تمت مما زاد فى ثروة القبط وحسّن أحوالهم ، فشعروا بالطمأنينة تحت حكم العرب [1] .

---

(١) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣١ — ٣٢ .

منشآت عمر :

١ — تأسيس البصرة . أسس عمر بن الخطاب فى سنة ١٦ هـ مدينة البصرة واتخذها مقراً لحكومة العرب فى فارس بدلا من المدائن عاصمتهم القديمة . وكانت البصرة من أول أمرها أشبه بالقرية منها إلى المدينة ، ولذلك فضلها العرب عن المدائن لأنهم لم يألفوا سكنى المدن الكبيرة ، كما أن عمر أراد ألا يكون بينها و بينه بحر إذا أراد أن يمد العرب فى فارس بالجنود[1] . وقد أصبحت البصرة بعد فترة قصيرة من أهم المراكز التجارية فى العالم وخاصة فى تجارة الشرق فى العصور الوسطى بين الهند والصين .

٢ — تأسيس الكوفة : كذلك أسس العرب مدينة الكوفة سنة ١٧ هـ عند ما ضاقوا بالبصرة لكثرة مياهها ومستنقعاتها ، واتخذها على بن أبى طالب فيما بعد حاضرة للخلافة بدلا من المدينة المنورة .

وقد أنشأ العرب مساكنهم فى البصرة والكوفة من الغاب والخيام ، ثم بنوها باللبن لما لم تقو على مقاومة النار ، ثم بالحجارة لما زادت ثروتهم ، وقد بنى فى كل منهما مسجداً ، ثم اختطت الطرق والدروب واتخذت القبائل لها خططا ومقابر ، وروعى فى بنائهما أن تكونا من الرحب والسعة بحيث لا يشعر العرب بتغيير بيئتهم السابقة ذات الهواء النقى والفضاء الواسع ، وأصبحت المدينتان بعد فترة وجيزة من أهم مراكز العلم والسياسة والاقتصاد فى العالم الإسلامى .

٣ — تأسيس الفسطاط[2] : شرع عمرو بعد فتح الإسكندرية — وكان قد نزل بجنده بجوار حصن نابليون — فى تأسيس مدينة الفسطاط سنة ٢٠ هـ

(١) الفخرى ص ٧٨ .
(٢) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٩٢ — ٤٠١ .

التى لم تلبث بعد إنشائها أن اتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة البلاد المصرية .وقد راعى عمرو فى اختياره موضع الفسطاط : أن يجعلها فى مأمن من هجمات العدو ويسهل وصول المؤن والأقوات إليها لما كان حولها من المزارع إذ كان النيل يحوطها غربا وجبل المقطم شرقا ، أضف إلى ذلك وقوعها على رأس الدلتا مما يسهل معه الإشراف على الوجهين البحرى والقبلى . واتخذ عمرو الفسطاط مقراً للحكم ، ثم جاءت القبائل العربية فتنافست على المواضع ، فعين لهم عمرو أربعة من رؤساء جنده ، جعلوا لكل قبيلة خطة ، وهى أشبه بالحارات الآن . وظلت الفسطاط تتدرج فى العمران حتى وصلت إلى درجة كبيرة من الرقى . ويرجح فى تسميتها « الفسطاط » رأى المؤرخين الذين ينسبون تلك التسمية لفسطاط عمرو (خيمته) الذى باضت فيه اليمامة ، وقد خلفه عندما ذهب لقتال الروم فى الأسكندرية . وفى تلك العاصمة أنشىء « جامع عمرو » الذى بناه عمرو ابن العاص فى خلافة عمر سنة ٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية حتى أطلق عليه المسجد العتيق وتاج الجوامع والمسجد الجامع . كما أمر عمرو بحفر خليج أمير المؤمنين لتصل الأقوات عن طريقه بالمراكب للحجاز ، وقد تم تجديده فى سنة واحدة ، سنة ٢٣ هـ ، فضلا عن مقاييس النيل وما تتطلبه الزراعة من حفر الترع وشق القنوات .

مصرع عمر :

قتل عمر على يد أبى لؤلؤة « فيروز » غلام المغيرة بن شعبة ، وقد قيل إن عمر بن الخطاب خرج يطوف بالسوق ، فلقيه أبو لؤلؤة فقال : ياأمير المؤمنين أعنى على المغيرة بن شعبة فإن علىّ خراجا كثيراً ، قال : كم خراجك ؟ قال : درهمان كل يوم ! قال : وما صناعتك ؟ قال : نجار ، نقاش ، حداد ، قال : فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الأعمال ، فقد بلغنى أنك تقول : لو أردت أن أعمل رحى تطحن الريح فعلت . قال : نعم . قال : فاعمل لى

رحى ، فقال أبو لؤلؤة موريا : « إن شئت لأعملن لك رحا يتحدث بها من فى المشرق والمغرب » ثم انصرف عنه ، فقال عمر : لقد توعدنى العبد .

وفى صباح اليوم الثالث ، ذهب عمر مبكراً كعادته وأمَّ الناس فى الصلاة ، وإذا بأبى لؤلؤة يشق صفوف المصلين وفى يده خنجر ويطعن عمر ست طعنات ، كانت إحداها هى القاتلة ، وحاول فيروز الهرب فلم يفلح ، ويقال : إنه قتل نفسه . ومكث عمر ثلاثة أيام بعد إصابته محتفظاً بقواه العقلية ، وضع خلالها نظاما ليمين بمقتضاه الخليفة من بعده ، ولما حانت منيته استأذن السيدة عائشة فى أن يدفن بجوار الرسول ، وتم له ما أراد . وعندما أحس الموت دعا ابنه عبد الله وقال له : إذهب إلى عائشة أم المؤمنين قل لها إن عمر بن الخطاب يقرأ عليك السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين فإنى لست للمؤمنين أميراً ، ويستأذنك فى أن يدفن مع صاحبه ، فذهب عبد الله فقال ذلك لعائشة وعاد إلى أبيه بإذنها ، فقال لابنه : أحملونى على سرير فإذا وصلتم إلى بيت عائشة ، فلا تدخلوا حتى تستأذنوا ، وقد حمل سرير عمر ، حتى إذا بلغوا بيت عائشة قالوا : إن عمر بن الخطاب يستأذن عائشة أم المؤمنين ، ولم يدخلوا السرير حتى أذنت عائشة. وهنالك دفن عمر بن الخطاب مع صاحبيه : محمد رسول الله وأبى بكر أول خلفاء المسلمين . ومات عمر وهو فى الثالثة والستين من عمره ، وهى السن التى توفى فيها النبى وأبو بكر .

شخصية عمر :

كان شدة عمر فى خلافته من أظهر ما امتاز به ، فقد كان إذا أمر بشىء أو نهى عنه ، بدأ بتنفيذ ذلك فى أهله أولا [1] . كما كان شديداً على ولاته ،

(١) ذكر ابن الجوزى أن عبد الرحمن بن عمر قد سكر فى مصر فى خلافة عمرو ابن العاص ، وكان عمر قد كتب لعمرو : إياك أن يقدم أحد من أهلى فتحبوه بأمر لا تصنعه لغيره ، فأفعل بك ما أنت أهله ، فجلده عمرو ، ولما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه أيضا . سيرة عمر بن الخطاب ص ٢٠٧

فكان يخشى أن يرهبوا الناس فيذلوا نفوسهم ويعلموهم الجبن ، لذلك فتح صدره لأى شكوى من عماله ، وأعلن هذه الخطة لعامة المسلمين فى خطبه ، وكان يسأل الرعية إذ وفدت عليه فى مناسبات الحج وغيرها عن حال أمرائهم ، ويتفقد بنفسه أحوال الناس ويطوف فى الأسواق وهو يقرأ القرآن .

اشتهر عمر بالشجاعة والجرأة ، لهذا رأينا المسلمين بعد أن كانوا يعبدون الله مستخفين فى دار ابن الأرقم قد خرجوا من مكمنهم ، وأعلنوا إسلامهم ودعا الناس إليه معلنين ظاهرين ، ذلك لأن عمر بارز خصوم الإسلام من قريش ، ودافع عنه بصدره وسلاحه ، وقال للمسلمين : لا يعبد الله سراً بعد اليوم ، ولما أذن الله بالهجرة لرسول الله هاجروا مستخفين إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وطاف بالكعبة قائلا : من أراد أن تثكله أمه أو ييتم ولده أو يرمل زوجته فليتبعنى وراء الوادى .

ويدلنا على حرص عمر على مال المسلمين أنه حبس أبا سفيان بن حرب وهو من سادات قريش وزعمائها ، حتى ردت زوجته هند قرضاً أخذته من بيت مال المسلمين . وكان عمر يدهن إبل الصدقة بالقار[1] ، وكانت مملوكة لبيت المال مما يجمع من الزكاة وغيرها ويتصدق بألبانها على فقراء المسلمين .

وعرف عمر بالتفقه فى الدين حتى أنه كان يفتى الناس هو وأبو بكر الصديق زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] . واشتهر برغبته فى معرفة أحوال الناس ليتعرف ما يمكن أن يكون قد أصابهم من شر أو نالهم من مكروه ، فكان بعد

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٣

(٢) النووى وتهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١٩٠ .

الصلاة يخرج فى الليل يتجسس أخبار الناس يسمع أحاديثهم مستخفياً ، ليتمكن بذلك من إصلاح حالهم .

وتلقب عمر بلقب أمير المؤمنين ، إذ ثقل عليه لقب « خليفة رسول الله » ، ومعنى لقب أمير المؤمنين أن المؤمنين قد استحالوا إلى قوة ، وأن عمر صار أميراً ورئيساً لهذه القوة ، كما كان عمر أول من اتخذ يوم هجرة الرسول مبدأ للتاريخ الإسلامى .

وكان عمر بسيطاً فى معيشته ، إذ كان فى زيه ومظهره رجلا عادياً ، وحدث أن الهرمزان كان قد أسر وجىء به إلى المدينة ، وسيق وحوله حاشيته فى أبهته وثيابه الحريرية ، إلى عمر فى المسجد حيث كان نائماً ، فأخذ الهرمزان العجب عند ماعلم أن ذلك الرجل هو الخليفة . وقيل إن قيصرا أرسل رسولا لعمر ، فلما دخل الرسول المدينة ، سأل أهلها : أين ملككم ؟ فقالوا مالنا ملك بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة ، فجد الرسول فى طلبه ، فرآه نائماً فى الشمس على الأرض فوق الرمل الحار ، وقد وضع درته كالوسادة والعرق يتصبب من جبينه حتى بل الأرض ، فكان ذلك موضع دهشته .

وقد أجمع المؤرخون من العرب والإفرنج على أن عمر كان من أعظم رجال السياسة ، فإن الدولة الإسلامية جاءت ثمرة جهود رجال ثلاثة : محمد عليه السلام وهو موجد الديانة الإسلامية ومؤسس الدولة العربية ، وأبى بكر الذى حافظ على الدين وتلك الدولة من الأخطار ، وعمر الذى أقام الدولة على أسس متينة وشيد صرحها عالياً .

٣ – عثمان بن عفان

٢٣ — ٣٥ هـ = ٦٤٤ — ٦٥٦ م

انتخابه :

طعن أبو لؤلؤة ، عمر بن الخطاب طعناته القاتلة بخنجره المسموم ، فأصبحت حياة عمر فى خطر محقق وبدأ الناس يتكلمون فى أمر الخلافة ، وطلبوا إليه أن يعهد لأحد بها ، فتردد فى الأمر ، ويظهر أنه لم يكن يفكر فى الشخص الذى يخلفه ، ولم يأخذ للأمر عدته وإنما فوجىء به ولذلك طلب مهلة يفكر فيها ، وعرض عليه بعضهم أن يعهد بالخلافة إلى ابنه عبد الله فرفض وأظهر أنه لم يكترث بالأمر . ويستدل على ذلك من قوله : وانظر فإن استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى ولن يضيع الله دينه .

خشى المسلمون سوء العاقبة إن فارق عمر الحياة دون أن يعهد لأحد ، فجاءوا مرة أخرى مكررين الرجاء ، فاختار عمر ستة من أكابر أصحاب رسول الله وهم : على بن أبى طالب ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله . ودعاهم إليه إلا طلحة فقد كان غائباً[1] ، ثم خاطبهم قائلا : إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض ، إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا إلى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلا منكم . فاجتمعوا قريباً منه ، ولم يلبث أن ارتفعت أصواتهم ، فقال لهم : ألا أعرضوا

---

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٩ — ٤٠ .

عن هذا أجمعين . فإذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصلِّ بالناس صهيب ، ولا يأتين اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله بن عمر مشيراً ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم فى الأمر فإن قدم فى الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم . وقال للمقداد بن الأسود : إذا وضعتمونى فى حفرتى : فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت ، حتى يختاروا رجلا منهم ، وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبد الرحمن بن ، عوف وطلحة إذا قدم ، وأحضر عبد الله بن عمر ولا شيء له من الأمر ، وقم على رؤوسهم : فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة رجلا منهم وأبى إثنان فاضرب رأسيهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر ، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله ابن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس[1] .

وبعد أن دفن عمر ، اجتمعوا تنفيذاً لوصيته ، وكان طلحة غائباً ، ولكن طال بهم النقاش والجدل واشتد التنافس ، حتى أصبح يخشى أن تمضى الأيام الثلاثة دون أن ينتخب الخليفة . إلا أن عبد الرحمن بن عوف أخذ يحادث كلا منهم على انفراد ، ليستطلع آراءهم ويقف على حقيقة مافى ضمائرهم ويمهد السبيل للاختيار النهائى . وقضى عبد الرحمن كل وقته مستطلعاً آراء المسلمين من الصحابة وأشراف الناس ومفكريهم . ولما انتهى من طوافه ومحادثاته ، دعا الكثير من أهل الفضل إلى المسجد حتى ازدحم بهم ، وبعد أن صلوا الصبح بدأ الجدل والكلام . فقام عبد الرحمن وقال : أيها الناس ! إن الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الأمصار بأمصارهم ، وقد علموا أميرهم ، فلما اشتد الجدل والنقاش ، قال سعد بن أبى وقاص لعبد الرحمن : أفرغ قبل أن يفتتن الناس . وأخيرا

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ٣٤ — ٣٥ .

دعا عبد الرحمن عليا وقال له : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ، قال على : أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى ، ثم أبلغ عبد الرحمن عثمان ماقاله لعلى ، فقال عثمان : نعم ، فبايعه علىّ .

وهكذا أعلن عبد الرحمن مبايعته لعثمان ، فأقبل عليه الناس جميعاً يبايعونه ، وبذلك نال عثمان الخلافة ، فقال علىّ لعبد الرحمن : لقد حبوته حبو دهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل والله المستعان ، والله ماوليت عثمان إلا ليرد الأمر إليك ، والله كل يوم هو فى شأن[١] .

وبعد أن بويع عثمان خطب فى الناس خطبته المشهورة التى تتعلق بالدين قال فيها : إنكم فى دار قلعه[٢] وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ماتقدرون عليه ، فإن أيتم صبحتم أو مسيتم . إلا وأن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . . . إرموا بالدنيا حيث رمى الله بها ، واطلبوا الآخرة فإن الله قد ضرب لها مثلا — والذى هو خير — فقال عز وجل : (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا ، المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا)[٣] .

اتساع الدولة العربية زمن عثمان :

كان ميدان الفتوح الإسلامية فى زمن عثمان فى الشرق والشمال والغرب من الجزيرة العربية . ففى الشرق خرجت فارس بعد مقتل عمر على السيادة

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٠ — ٣١ .
(٢) ليست بمستوطن .
(٣) الطبرى ج ص ٤٣ .

الإســـلامية وهمّ الفرس باسترجاع مُلكهم بقيادة يزدجرد بن شهريار آخر الملوك الساسانيين ، فعهد عثمان إلى عبد الله بن عامر عامله على البصرة لقمع هذه الثورة ، فقضى عبد الله على الفتنة فى فارس ثم تابع سيره إلى خراسان وفتحها بعد أن ترك لجنده أمر إعادة سلطان الدولة فى كرمان وسجستان ، وفى أثناء هذه الحروب طورد يزدجرد وتوفى وقيـــل إنه قتل سنة ٣١ هـ على يد بعض الفرس المسيحيين ، وبموته انتهت سلسلة ملوك الدولة الساسانية فى فارس .

وفى عهد عثمان بن عفان فتح سعيد بن العاص بلاد طبرستان ، وقيل إن جيش المسلمين كان يضم الحسن والحسين ابنى على[١] . وكذلك طلب ملك جرجان الصلح من سعيد بن العاص وتعهد بأن يدفع له مائتى ألف درهم كل عام[٢] . وعبر الأحنف بن قيس نهر جيحون فصالحه أهـالى بلاد ما وراء النهر ، ثم توغل فى طخارستان وفتحها مدينة بعد أخرى حتى أرغم أهلها على مصالحته[٣] .

وكانت الشام فى عهد عثمان مقسمة بين الأمراء المسلمين ، وكان معاوية يحكم جزءاً كبيراً منها وعرف بحسن السياسة والتدبير ، وتمكن من جمع الشام كلها تحت حكمه وأصبح أشبه بملك مستقل ، فقد مكث أميراً عليها مدة طويلة بلغت العشرين عاماً ، وصار له فى قلوب أهـــل الشام مكانة سامية كان لها أكبر الأثر فى تعضيدهم له عندما عزله علىّ ورفض معاوية أن يطيع ذلك الأمر .

وفى مصر عزل عثمان بن عفان واليها عمرو بن العاص وولى عليها أخاه

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٣٤٢ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص ١٩٨ .
(٣) البلاذرى : نفس المصدر ص ٤١٥ .

من الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، وكانت مصر إذ ذاك مهددة من الدولة البيزنطية ، ومع ذلك فقد غزا ابن أبى السرح الإقليم المسمى إفريقية[١] لتأمين حدود مصر الغربية[٢].

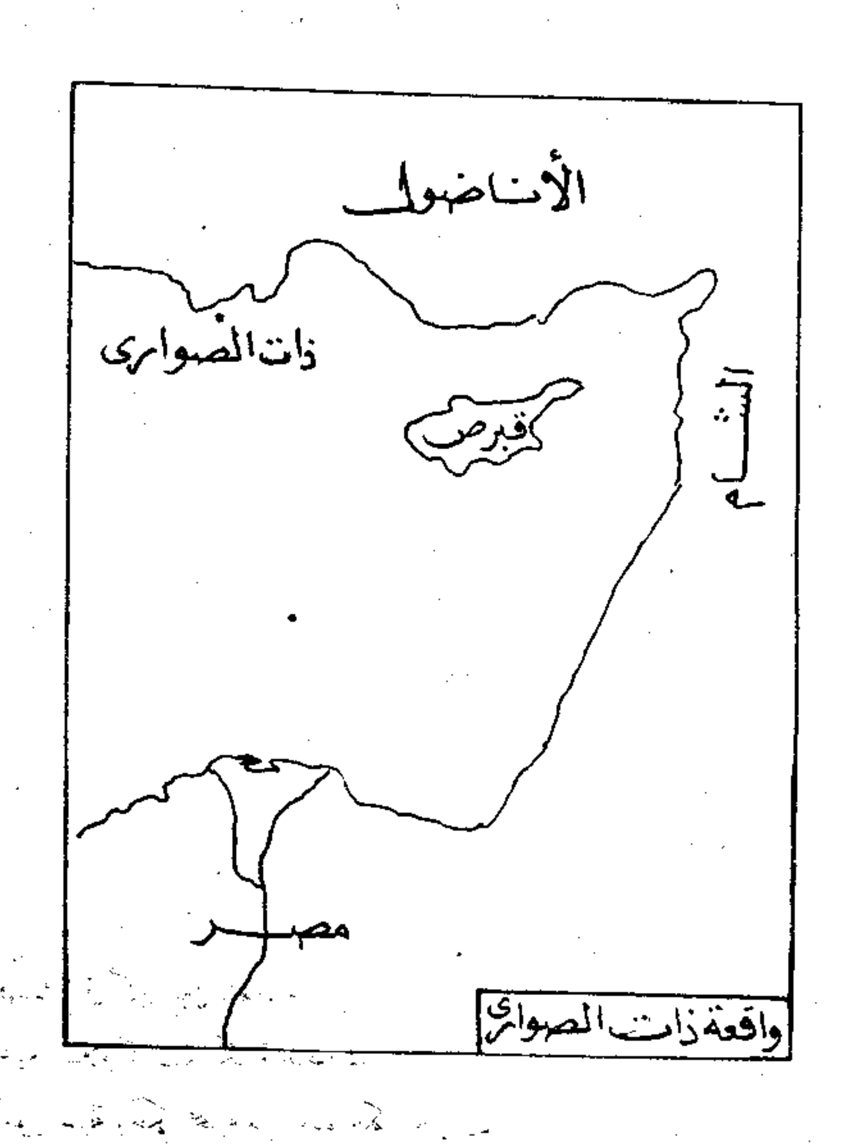
كانت الدولة العربية حتى وفاة عمر دولة برية وليست بحرية : فكانت جيوشها تحارب براً ، ولم نسمع إلى ذلك الوقت بواقعة بحرية أو بإنشاء أسطول ، ولكن فى عهد عثمان ابتدأت الدولة الإسلامية فى تكوين قوة بحرية كبيرة . ويقال إن معاوية استأذن عمر فى إنشاء أسطول يغزو به الروم فى البحر ، وذلك لأن معاوية وجد أن أساطيل الروم لا تبرح تهدد شواطىء الشام ، إلا أن عمر امتنع عن ذلك لخوفه على المسلمين من ركوب البحر ، ولكن الضرورة كانت ماسة لإنشاء أسطول ، إذ أصبح العرب أمام البيزنطيين وجهاً لوجه ، فلما جاءت خلافة عثمان عرض عليه معاوية الفكرة من جديد ، فأذن له عثمان على شرط ألا يجبر مسلما على ركوب البحر ، فجدّ معاوية فى إنشاء أسطول جعل رجاله من العرب اليمنيين ، وأمر على الأسطول الإسلامى عبد الله بن قيس الحارثى فكان أول أمراء البحر ، وقد حارب معاوية بهذا الأسطول البيزنطيين حتى وصل إلى عمورية فى آسيا الصغرى كما استولى على جزيرتى قبرص وردوس وفتح كثيراً من الحصون ، وسار إلى أرمينية الصغرى حتى وصل إلى قاليقلا[٣] فصالحه أهلها ثم استمر فى فتوحه حتى بلغ تفليس .

وفى سنة ٣٤ هـ حدث بين العرب فى مصر بقيادة عبد الله بن أبى السرح وبين قسطنطين ملك الروم ، موقعة بحرية هامة فى البحر الأبيض المتوسط ، تعرف

(١) تونس الحالية .

(٢) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٣ — ٤٤ .

(٣) هى البلاد التى فوق زاوية خليج اسكندرونة ، وهى تعرف باسم كيليكيا وتعرف عند العرب باسم قاليقلا .



واقعة ذات الصوارى

بموقعة ذات الصوارى بالقرب من مدينة الإسكندرية حين حاول الروم استرجاع مصر، وكان النصر فيها للعرب، وسميت بذلك الاسم لكثرة عدد السفن التى اشتركت فى المعركة، ومنذ ذلك الوقت بدأ الأسطول العربى يقوم بدور هام فى التاريخ الإسلامى.

وكان عمرو بن العاص قد غزا بلاد النوبة، فلما جاء ابن أبى السرح إلى مصر وتولى أمرها، وجه نظره نحو الجنوب فغزا بلاد النوبة من جديد وواصل سيره حتى بلغ دنقلة ولكنه لم يتمكن من فتحها، رغم ما بذله من جهود فى القتال، وكان ذلك سنة ٣١ هـ، فاضطر إلى مهادنة أهلها وعقد الصلح معهم[١]. وكان هذا الصلح أشبه بمعاهدة اقتصادية بين مصر وبلاد النوبة: فقد نصت على أن ترسل بلاد النوبة الرقيق إلى مصر، على أن تصدر مصر إليها الحبوب والعدس[٢].

مقتل عثمان والأحداث التى أدت إليه:

إذا قارنا بين حال المسلمين فى زمن النبى وأبى بكر وعمر وحالهم فى زمن عثمان، نجد هناك فرقاً شاسعاً: ففى الزمن الأول كان المسلمون فقراء لم يفتنهم المال والعقار وامتلاك العبيد، أما فى زمن عثمان فقد نشأ من تدفق الأموال على بلاد العرب بعد استقرار النفوذ العربى فى الأقاليم المفتوحة أن تغيرت حالة العرب الاجتماعية تغيراً ملحوظاً. كذلك تغيرت شخصية الخليفة، فهناك فرق كبير بين شخصية النبى وأبى بكر وعمر وبين شخصية عثمان: فالنبى عليه السلام كانت له مكانة خاصة ممتازة كما كان زعيما سياسياً قديراً على تصريف أمور الدولة وحكم أصحابه من بعده حكما حازما. وعرف أبو بكر وعمر بالعدل

---

(١) الكندى: كتاب الولاة ص ١٢ — ١٣.

(٢) Stanley Lane—Poole: History of Egypt in the Middle Ages, pp. 20—21.

المقرون بالشدة ، ولـكن عثمان من سوء حظه أنه حكم الدولة العربية بعد أن تغيرت أحوالها واتسعت أملاكها وكثرت أموالها وزادت مطامع رجالها ، ولذلك لم يكن موفقا فى حكمه توفيق النبى وخلفائه الأوائل من بعده .

ويمكن إرجاع الفتنة التى أودت بعثمان ، إلى الأسباب الآتية : —

١ — سياسة عثمان فى تولية الولاة :

ترك عثمان ولاة عمر بن الخطاب سنة واحدة فى مراكزهم ، ثم عزلهم الواحد بعد الآخر ، وعين بدلهم ولاة من بنى أمية كانوا حديثى السن وسيرتهم غير محمودة .

عزل عثمان ، سعد بن أبى وقاص من ولاية الـكوفة ، وولى مكانه الوليد ابن عقبة أخاه من أمه ، وكان ذا ماض سيىء إذ كان النبى عليه السلام قد ولاه على صدقة بنى المصطلق وأرسله ليجمعها فـكذب على الرسول وقال إنهم امتنعوا عن دفعها . وكذبه القرآن الـكريم حيث يقول (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين)[1] . وسماه الرسول : الفاسق ، وعند ما عزله عثمان عين مكانه أمويا آخر هو سعيد ابن العاص ابن خاله ، وينسب إليه أنه قال : إن السواد بستان قريش ، أى أنه كان يرى إيثار قريش بالأموال والأملاك دون سائر الناس . وعزل عثمان أباموسى الأشعرى عن البصرة وعين بدلا منه عبد الله بن عامر ، وهو فتى فى الخامسة والعشرين من عمره وابن خال عثمان أيضاً . كذلك عزل عثمان عمرو بن العاص من مصر وعين مكانه أخاه فى الرضاعة عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، مع أنه كان قد ارتد عن الإسلام وكان النبى عند فتح مكة قد أهدر دمه ولم يعف عنه إلا بعد أن أتى به عثمان مسلما

---

(١) سورة الحجرات

لذلك نقم المسلمون على عثمان لأنه عزل ولاة عمر من الأمصار ، وولاها ذوى قرباه ومن كانوا على صلة به رغم أنهم يكونوا من ذوى السيرة الحسنة .

٢ — سياسة عثمان المالية :

خالف عثمان أبا بكر وعمر اللذين كانا يعيشان عيشة زهد وتقشف و يسيران على سياسة ترمى إلى المحافظة على أموال المسلمين و إنفاقها بحرص ، فقد مد يده إلى بيت المال ليأخذ من أموال الدولة لنفسه ولأهل بيته و يعطيها أقاربه وكبار القرشيين ، وسمح لهم بالتملك خارج الحجاز كما سمح لكبار الصحابة بالخروج إلى الأقاليم وامتلاك الضياع فيها[1] ، بينما منع عمر بن الخطاب أعلام قريش من الخروج إلى البلدان إلا بإذن ، و بذلك أوجد عثمان طبقة أصحاب الثروات الضخمة ، وخرج هؤلاء السادة من المهاجرين والأنصار إلى تلك الأقاليم النائية عن الحجاز وأنشاوا فيها أرستقراطية دينية تمتاز بالسبق إلى الإسلام وصحبة الرسول[2] . كذلك آوى عثمان ، الحكم بن أبى العاص أبا مروان بن الحكم وأعطاه مائة ألف درهم ولم يأوه أبو بكر وعمر ، ولما فتحت إفريقية أخذ عثمان الخمس ووهبه كله لمروان بن الحكم . وطلب إليه عبد الله ابن خالد بن أسيد صلة فأعطاه أربعمائة ألف درهم .

ولم يكتف عثمان بذلك بل إنه سمح لولاته الذين عينهم فى الولايات أن ينهجوا نهجه ، فمدوا أيديهم إلى أموال المسلمين بحجة التقرب إلى الناس بالأموال والعطايا ، فأثار هذا كله الحقد عليه وقوى المعارضة ضد حكمه .

---

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٢٤ .

(٢) حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٧٤ .

٣ — تصرفات عثمان فى الدولة الدينية :

استحدث عثمان بن عفان فى الدين عدة أمور ، لم توجد من قبل عهد الرسول عليه السلام ولا فى عهد أبى بكر وعمر ، فقد جعل من القرآن نسخة واحدة رسمية هى النسخة التى جمعت فى عهد أبى بكر وأغضب بعمله هذا جماعة من المسلمين على رأسهم عبد الله بن مسعود الذى رأى فى إحراق النسخ الأخرى من القرآن ومن ضمنها نسخته خروجاً على الدين . وكان عثمان أول من قدّم الخطبة فى العيد على الصلاة وأتم الصلاة فى منى مخالفا فى ذلك النبى وأبا بكر وعمر الذين قصروها ، كما أخذ عثمان الزكاة على الخيل وخالف بذلك الرسول عليه السلام وأبا بكر وعمر .

وصرف عثمان بن عفان من موارد الصدقة فى الحروب وغيرها من المرافق ، مع أن لأموال الصدقة مصارف معينة بيّنها الله سبحانه وتعالى فى قوله : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين ، وفى سبيل الله ، وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) . وبلغ من كره المسلمين لعثمان واعتراضهم على تصرفاته ، أنهم لم يقدروا تلك الإصلاحات التى قام بها ، ومن بينها توسيع مسجد الرسول عليه السلام .

٤ — حركة ابن سبأ[1] ضد عثمان :

صادفت دعوة عبد الله بن سبأ ضد عثمان مرعى خصيبا فى البصرة ، ولكن عبد الله بن عامر والى عثمان عليها تمكن من طرده منها ، فرحل ابن سبأ من الكوفة ، وهناك ظهر استياء الناس من عثمان وواليه وطرد ابن سبأ من الكوفة أيضاً ،

(١) هو يهودى من أهل صنعاء ، أمه حبشية واعتنق الإسلام فى عهد عثمان ، وأخذ ينتقل فى البلاد الإسلامية : فبدأ بالحجاز ثم البصرة فالكوفة فالشام ومصر .

فسار إلى بلاد الشام ، وحض على عثمان ، أبا ذر الغفارى وكان من المعارضين لسياسة الخليفة . وأخيراً رحل ابن سبأ إلى مصر وأخذ ينشر دعوته ، واتصل بالثائرين فى كل من البصرة والكوفة ، وكان يتبادل مع أهلها الكتب والرسائل والرسل ، وقد سهل على ابن سبأ تنفيذ سياسته فى مصر اشتداد سخط أهلها على عثمان بن عفان وعلى واليه عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، كما ساعد انضمام محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر إليه على إذكاء نيران السخط فى مصر ونجاح ابن سبأ فى سياسته التى سارعت بخلافة عثمان إلى الزوال .

٥ — اعتراض الصحابة على سياسة عثمان[١] :

غضب كثير من الصحابة على عثمان ، لاشتطاطه فى جباية الأموال و إغداقها على أقاربه و إسراف ولاته فى سفك الدماء . وكان أبو ذر الغفارى من أشد الصحابة سخطا عليه ، فأخذ يحض الأغنياء على الرحمة بالفقراء ، ودعا إلى عدم كنز الأموال ، و إلى صرف الفائض من أموال الأغنياء على الفقراء ، متمثلا بقوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون)[٢] .

وقد غضب عثمان على أبى ذر الغفارى ، فأرسله إلى معاوية بالشام ، ولكن معاوية خاف على ولايته من دعوة أبى ذر ، وخاصة أن ابن سبأ حينما وفد إلى الشام حرض أبا ذر على معاوية ، فسيره معاوية إلى المدينة لما وجد فيه معارضا لسياسته ، فلما دخلها أبا ذر وجد المجتمعات تعقد بها للتآمر على عثمان ، فنادى فى المجتمعين : بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار[٣] ،

(١) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٦ — ٣٧ .
(٢) سورة التوبة ٩ : ٣٤ .
(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٧٥ .

وأخيراً نفاه عثمان إلى الربذة[١] حيث مات سنة ٣١ هـ[٢] .

وكان عبد الرحمن بن عوف ، وهو ممن بايعوا عثمان بالخلافة ، من بين الغاضبين على عثمان ، وأخذ فى بادىء الأمر ينصحه ، فلما ضاق ذرعاً بسياسته قاطعه وابتعد عنه . لم يرض علىّ بن أبى طالب عن عثمان واعترض علناً على سياسته وتصرفاته وأكثر من نصحه بدون جدوى ، حتى ساءت الملاقات بينهما ، وتدخل العباس بن عبد المطلب للتوفيق بين الرجلين ولكنه لم ينجح فى مسعاه . وغضب كذلك عمار بن ياسر على عثمان وناله منه أذى كثير بسبب معارضته له ، وهدد بالنفى فذهب إلى مصر وانضم هناك إلى المعارضين . وكان من بين الذين غضبوا أيضاً على عثمان بسبب تصرفاته ، عبد الله بن مسعود وطلحة ابن عبيد الله الذى قيل إنه كان من بين الذين حاصروا عثمان فى داره .

كان هؤلاء المعارضون من كبار الصحابة الذين لم تتجاوز معارضتهم حد النصح . ولا شك أن موقفهم من عثمان ، كان بسبب ما رأوه من تنكبه الطريق السوى الذى سلكه الرسول وأبو بكر وعمر .

الحالة فى الأمصار

١ — فى المدينة :

لم تكن المصلحة العامة وحدها هى التى دعت إلى الثورة على عثمان : فقد رأى على بن أبى طالب نفسه أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر ، وكذلك راعى طلحة والزبير مصالحهما . على أن كبار الصحابة جميعا كانوا خلال معالجتهم للحالة فى الأمصار يعتبرون أنفسهم حماة للمصلحة العامة ، يمثلون النظم والتقاليد التى سار عليها النبى وأبو بكر وعمر . وأنتجت معارضة هؤلاء ظهور روح الثورة

---

(١) الربذة : قرية صغيرة على مقربة من المدينة .

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ٤٣٨ .

فى المدينة ، وهى بلدة كانت فى حاجة ماسة إلى العون المادى والمدد العسكرى ، ولذلك عمد أهل المدينة إلى الاتصال بالمسلمين فى الأمصار ، وخاصة البصرة والـكوفة والفسطاط ، فيما عدا بلاد الشام التى لم تثر على عثمان بفضل سياسة معاوية .

٢ — فى الكوفة والبصرة :

ابتدأت الفتنة فى الـكوفة فى سنة ٣٤ هـ ، وكان والى الـكوفة سعد بن أبى وقاص قد عزله عثمان ، وولى مكانه الوليد ، ثم عزله وولى سعيد بن أبى العاص الذى اشتدت فى عهده الحالة فى الـكوفة حتى اضطر إلى الخروج إلى المدينة ليطلع الخليفة على حقيقة الحال ، فانتهز أهل الـكوفة فرصة غيابه ومنعوه من دخولها عند عودته إليها . وهنا يتضح ضعف عثمان ، فقد رضى بعزل سعيد وولى مكانه أبا موسى الأشعرى ، وهو رجل ضعيف لم يستطع كبح الثوار . وكانت الحالة فى البصرة مثلها فى الـكوفة ، غير أن الثورة فى الـكوفة كانت أشد منها فى البصرة لـكثرة عدد الجند بها .

٣ — فى الفسطاط :

أما فى الفسطاط ، فإن عثمان لما تولى الخلافة ، عزل عمرو بن العاص عن ولاية مصر وولى مكانه عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، فخسر بذلك صداقة عمرو وهو رجل من أدهى رجال عصره ، فقد خرج من مصر بعد عزله وسار إلى المدينة ناقماً على عثمان ، فلما اشتدت الحال فى المدينة ذهب إلى فلسطين . ولـكن حنقه على عثمان كان فى ازدياد .

وفى مصر كان على رأس الثوار المصريين رجلان من كبار المحرضين على عثمان هما : محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة ، فقد حقد ابن أبى حذيفة

على عثمان لأنه كان يأمل أن يوليه بعض أمور المسلمين ، ولكنه رفض[1] ، وظهر مسلكه المدائى لعثمان عند ماشجر الخلاف بينه وبين ابن أبى السرح فى واقعة ذات الصوارى سنة ٣٤ هـ ، وابتدأت الثورة فى مصر على الخليفة فى أثناء الغزوة التى انتهت بتلك الواقعة ، فقد خرج المصريون ومعهم محمد بن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة وانضم إليهما فريق ممن على رأيهما ، ويظهر أنهما سخطا على عبد الله بن أبى السرح لأنه استأثر بالأموال والخزائن وعاونه الخليفة على ذلك . ولما وضعت الحرب أوزارها رجع ابن أبى حذيفة وابن أبى بكر إلى الفسطاط ، حيث انضما إلى ابن سبأ[2] . وهكذا نجح ابن سبأ فى مصر فى تأليب الناس على عثمان ، وانضم إليه كثير من ذوى النفوذ والسلطان ، وبذا كانت معارضة الأقاليم لحكم الخليفة أقوى من معارضة المدينة .

الدور العملى فى الفتنة :

أوجس عثمان خيفة من المعارضة التى قامت ضده فى الأقاليم . ولذلك انتهز فرصة موسم الحج سنة ٣٤ هـ ووجود ولاته المقربين إليه وهم معاوية وابن أبى السرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص ، واستشارهم فى السياسة الواجب اتباعها إزاء أهل الأمصار . على أن المعارضين لم يعطوا فرصة لولاة عثمان لتنفيذ السياسة المرسومة : فأهل الكوفة حالوا دون رجوع سعيد بن العاص إلى ولايته واضطروا عثمان أن يولى بدلا منه أبا موسى الأشعرى ، كما أن ابن أبى حذيفة فى مصر كاتب الثوار فى البصرة والكوفة واتفقوا على الذهاب إلى المدينة .

خرج وفد مصر وكان يتألف من ستمائة شخص قاصداً المدينة ، وكذلك

(١) الطبرى ج ٥ ص ١٣٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٨٣ ، هامش رقم ١ .

سارت وفود من الـكوفة والبصرة ، ووصلت هذه الوفود إلى مكان قريب من المدينة واتصلت بعثمان ، ودارت بينه و بين هذه الوفود محادثات . وكان على بن أبى طالب هو السفير بين الثوار و بين عثمان ، وظهر ضعف عثمان من إجابته مطالب الثوار بعزل الولاة و إرجاع الأموال ، ولـكنه صمم على البقاء على عرش الخلافة عندما طلب إليه الثوار أن يعتزلها .

ظن الناس أن الثورة قد انتهت بإجابة مطالب الثوار وهموا بالرجوع ، ولـكن فى اليوم التالى هجم الثوار على المدينة واستعملوا أساليب العنف أثناء الهجوم ، و يرجع سبب ذلك إلى أن المصريين أثناء رجوعهم رأوا رجلا على جمل البريد ، ولما شكوا فى أمره فتشوه ، فوجدا معه كتابا بختم عثمان يأمر فيه واليه ابن أبى السرح بقتل كبار الثوار من المصريين ، وعنـدئذ عاد الوفد إلى المدينة ورجعت الوفود الأخرى و بدأوا يحاصرون دار عثمان . وقد ادعى عثمان أنه لم يكتب هذ الـكتاب ولم يوقع عليه ، ولـكن هذا الاعتذار لم يجد نفعاً ، وفى يوم الجمعة التالى لدخول الثوار المدينة خطب عثمان فى الناس ونصحهم بالهدوء والسكينة ، ومنذ ذلك الوقت منع عثمان من الخروج من داره ومن الاتصال بالناس .

بدأ منذ ذلك الحين حصار دار عثمان ، فقد حاصرها الثوار أربعين يوما وهددوه بالقتل ، فقال « والله لئن قتلتمونى لا تتحابون من بعدى أبداً ، ولا تصلون بعدى أبداً ، ولا تقاتلون بعدى عدواً جميعاً أبداً » . وحاول أن يقنع الثوار بما قدمه من خدمات للإسلام والمسلمين ، ولـكن الحماسة كانت قد أخذت من الثوار كل مأخذ ، فلم يعبأوا بقوله ، فاستنجد عثمان بعلى بن أبى طالب الذى حاول جاهدا أن يهدىء من حماسة الثوار ، وأن يبعدهم عن دار عثمان ولـكنه أخفق فيما أراده . ثم استنجد بمعاوية بن أبى سفيان ، فـكتب إليه كتابا قال فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم — أما بعد ، فإن أهل المدينة قد كفروا ،

وأخلفوا الطاعة ، ونكثوا البيعة ، فابعث إلىّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول » .

وأرسل الثوار يستدعون أهل مصر خشية أن تحضر قوات من الأمصار لتنقذ الخليفة . ثم تسلق المنزل محمد بن أبي بكر الذى كان المصريون يودون أن يكون والياً عليهم ومعه رجلان ، ودخلوا على عثمان وهو جالس مع زوجته ، وطرحه ابن أبي بكر أرضاً وأخذ يشد لحيته ، فذكّره بأبيه ، فتركه محمد وخرج ، فانتهز عثمان فرصة خروجه وأسرع يطلب ماء الوضوء فتوضأ وأحضر المصحف ومسك به ، حتى يجعل منه وقاية تقيه وحرزاً يحميه .

ولما صح عزم الثوار على الهجوم على الخليفة وجدوا أن أبناء الصحابة وفى مقدمتهم الحسن والحسين يقفون بباب الدار لحماية الخليفة ، فأحرق المصريون الباب والسقيفة ، فسقطت السقيفة . ودخل الثوار على عثمان ، فطعنه رجل من أهل الكوفة بسهم ذى نصل عريض ، وجاء آخر فضربه برجله ثم تتابع ستة رجال حتى دخل رجل من أهل مصر ، فنتف من لحية عثمان خصلة ، وضربه بقضيب من حديد على صدغه الأيسر ، وأرادت زوجته نائلة أن تحول بينه و بين الثوار ولكنها عجزت ، إذ دخل رجل من أهل مصر وضربه بالسيف ، فتلقت نائلة الضربة بيدها فقطعت أصابعها ، ولم تزل تدافع عن زوجها ، وتضرب أروع الأمثلة فى الوفاء والإخلاص ، حتى دخل كنانة ابن بشر التجيبى ، فوضع طرف سيفه فى بطن عثمان فبقره [1] ، وحاولت نائلة أن تمسك بالسيف فقطع أصابعها ، وأسلم عثمان أنفاسه الأخيرة ، فأخذت نائلة تصيح ، فخرج الثوار هاربين واندفع الصحابة إلى عثمان حيث وجدوه صريعاً ، فبكى كثير منهم ، وجاء على بن أبى طالب فصفع ولديه لعدم حمايتهما لعثمان .

كان مقتل عثمان يوم الجمعة ١٨ ذى الحجة سنة ٣٥ هـ . وقد رثته ابنته

---

(١) محمود الغزاوى : مقتل عثمان بن عفان ص ٨٣ .

عائشة فقالت . « رحمة الله عليك يا أبتاه . . . احتسبت نفسك ، وصبرت لأمر ربك حتى لحقت به ، وهؤلاء الآن قد ظهر منهم تراوض الباطل وكوامن الأحقاد »[١] . أما زوجته نائلة[٢] فقالت « . . . رزئت جليلا وتذوقت ثكلا من عثمان بن عفان ثالث الأركان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فليعلمن الذين سعوا فى أمره ، ودبوا فى قتله ، ومنعونا عن دفنه[٣] اللهم إن بئس للظالمين بدلا ، وإنهم شر مكانا وأضعف جندا . . . هيهات والله ما مثله بموجود ولا مثل فعله بمعدود » .

وكان مقتل عثمان بداية الفتن والانقسامات فى الإسلام حتى يومنا هذا ، وانتهت من ذلك التاريخ الخلافة الحقة القائمة على الفكرة الديمقراطية . وابتدأ ما سمى بالملك ، واعتبر عهد على بن أبى طالب الذى خلف عثمان فترة انتقال بين العهدين .

شخصية عثمان :

كان عثمان عندما اعتلى عرش الخلافة قد تقدم فى السن تقدما كبيراً ، فقد قيل إنه كان فى ذلك الحين فى السبعين من عمره ، وشفع له فى الوصول إلى الخلافة ماضيه المجيد فى سبيل الدعوة الإسلامية ، إذ كان أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض[٤] .

---

(١) أشهر مشاهير الإسلام ج ٤ ص ٨٢٢ .

(٢) صارت نائلة مثالا لوفاء الزوجة لزوجها ، ولو أدى ذلك إلى بذل دمائها رخيصة فى سبيل الدفاع عنه والمحافظة على حياته ، فقد دافعت عن زوجها دفاع الأبطال ، وقت أن حاقت بها المصائب من كل جانب ، مما خلد اسمها فى التاريخ رمزاً للبطولة وعنوانا للاخلاص . على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٦٢ .

(٣) تقصد هذه السيدة من قولها « ومنعونا من دفنه » : أن الثوار لم يكتفوا بقتله والتمثيل بجثته ورميها بالأحجار والنعش محمول على الأعناق ، بل إنهم لم يسمحوا بجنازته ولا بدفنه مع بقية الصحابة والخلفاء فدفنت جثته بمقبرة مجاورة لمقابر اليهود .

(٤) ابن حجر : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ٤ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

كان عثمان غنياً أنفق معظم أمواله فى سبيل نشر الدعوة الدينية [١] ، شديد الإيمان بصدق رسالة النبى عليه الصلاة والسلام ، وقد تزوج ببنتين من بناته ، كما كان طيب القلب خالص العقيدة سخياً ، وذاع عنه الجود والكرم والبذل للقريب والبعيد حتى قلده عماله وكثير من أهل عصره فى طريقته واقتدوا بفعله [٢] .

ومع ذلك لازمه سوء الحظ فى خلافته ، فإنه لم يؤثر عنه مواقف تدل على شجاعته فى الحروب ، ولذا كانت خدمته للإسلام بماله لا بسيفه ، كما أنه تجرد من قوة الإرادة و بعد النظر والدهاء السياسى وهى مما اتصف به أبو بكر وعمر .

٤ – على بن أبى طالب

٣٥ — ٤٠ هـ = ٦٥٠ – ٦٦١ م

ولد على قبل البعثة بعشر سنين وهو ابن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم ابن عبد مناف . وكان لعلىّ المقام الأول بين صحابة الرسول ؟ إذ آمن برسالته وهو صبى لم يبلغ الثالثة عشرة ، وعد فى طليعة الذين دافعوا عن الرسول وناصروه فقد بات فى موضع الرسول فى الليلة التى هاجر فيها النبى عليه السلام من مكة إلى يثرب [٣] ولم يهاجر علىّ إلا بعد أن أدى الودائع التى كانت عند الرسول لأهلها ، وزوجه الرسول من ابنته فاطمة فى السنة الثانية للهجرة فأعقب منها الحسن والحسين [٤] .

كان على يرى أنه أحق المسلمين بالخلافة بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام : فهو ابن عم النبى وزوج ابنته فاطمة ، وكان أبو بكر يستشيره فى مهام الأمور ،

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ١ ص ٤٣٣ .
(٢) المسعودى : نفس المصدر والجزء والصفحة .
(٣) ابن أبى الحديد : شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .
(٤) الطبرى ج ٣ ص ١٤٣ .

كما كان عمر لا يعمل إلا بمشورته لما يعهده فيه من الفقه والذكاء والدين ، وبعد مقتل عمر دخل علىّ الشورى وكان يظن أن الخلافة ستؤول إليه فلما آلت إلى عثمان بايعه على ولازمه ، وكان عثمان فى صدر خلافته يستشيره فى كثير من الأمور ، ولكن محاباة عثمان ذوى قرباه غيرت رأى على فيه فظن الناس أن العلاقة توترت بينهما [1] .

انتخابه :

بعد موت عثمان ، مال بعض الثوار الى تولية على ولكن بيعته لم تكن عن إجماع من المسلمين ، فقد كان أكثر الصحابة متفرقين فى الأمصار ، ولم يكن بالمدينة سوى عدد قليل على رأسه طلحة والزبير كما تردد فى بيعته بعض الصحابة كسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ، وتخلف عن بيعته بعض الأنصار كحسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وبنى أمية وقد لحق بعضهم بالشام ولحق البعض الآخر بمكة [2] .

ولما قتل عثمان بن عفان ، أقبل الناس على علىّ بن أبى طالب ليبايعوه ، فقال : ليس ذلك حكم ، إنما ذلك لأهل بدر ، أين طلحة والزبير وسعد ؟ فأقبلوا فبايعوا ، ثم بايعه المهاجرون والأنصار ومن بعدهم سائر الناس . وكان ذلك فى يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ . وكان طلحة أول من بايعه [3] ، وكانت المبايعة له فى المسجد لأن علياً اشترط ذلك .

وبذلك تكون خلافة على انتخابية كخلافة أبى بكر وعمر ولكنها لم تكن إجماعية ، لذلك بدأ الانقسام من عهد خلافة على . إذ قيل إنه تلقى

---

(١) ابن أبى الحديد : نهج البلاغة جـ ٣ ص ١٩٢ .
(٢) حسن ابراهيم : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ ٣ ص ٩٣

البيعة عمن اشتهرو بإيثار الفتن و إراقة الدماء ، وحط خصومه من بيعته فقد قالوا إن بيعته غير صحيحة لأن من ولوه كانوا ممن يجب على علىّ أن يقتص منهم بدل أن يقبل الخلافة عن طريقهم .

وكان على يعتبر نفسه الخليفة الحق ، ولذا حاول إصلاح المفاسد التى وقعت فى زمن سلفه عثمان ، و بدأ بعزل عمال الأمصار من أقرباء عثمان . وهذه الخطوة كانت غير موفقة ، فإن بيعته لم تـكن عامة ، وسار فى تنفيذ خطته رغم نصيحة المخلصين من أتباعه بالعدول عما اعتزمه من أمر هؤلاء الولاة ، وكان من أثر ذلك ، تلك الفتن التى أثارها فى وجهه : طلحة والزبير من جهة ، ومعاوية والزبيرمن جهة ، ومعاوية ابن أبى سفيان من جهة أخرى .

بين على وطلحة والزبير :

وجد فى عهد على فتنة داخلية ، بدأت بعزل عمال الأمصار من أقرباء عثمان: فقد أحفظ هذا العمل قلوب أولئك الولاة الذين أثروا فى عهد عثمان ، كما أن طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام بعد أن بايعا عليا نقضا بيعته وذهبا إلى مكة واتفقا مع السيدة عائشة على الخروج على علىّ[1] ، ولما ذهبت إلى مكة انضم إليها بنو أمية وطلحة والزبير[2] كما وصل إلى مكة وقتئذ ولاة الأمصار الذين عزلهم على . و بعد قليل وجدوا أن مكة لا تصلح لأن تـكون مقراً لحركتهم ، فخرجوا إلى البصرة بعد أن عمل طلحة والزبير على استمالة زعمائها ، وهم المنذر بن ربيعة سيد ربيعة والأحنف بن قيس سيد مضر وكعب بن سور سيد اليمن ، وحاولا أن يستميلا عبد الله بن عمر ولـكنهما فشلا ولم يجدا منه إلا التمسك ببيعته لعلى ،

(١) ربما كان مسلك السيدة عائشة من على راجعا إلى كراهيتها عليا منذ موقفه فى حادث الإفك .

(٢) يقال إن سبب خروج طلحة والزبير على على ، أن طلحة كان يريد الولاية على اليمن ، وكان الزبير يريد الولاية على العراق ولـكن على لم يوافقهما

وكان عبد الله بن عمر يرى فى إنزواء عائشة المحافظة على كرامتها والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم ، وقال عبد الله لطلحة والزبير : واعلما أن بيت عائشة خير لها من هودجها ، وأن المدينة خير لكما من البصرة ، والذل خير لكما من السيف ، ولن يقاتل عليا إلا من كان خير منه ، وأما الشورى فقد والله كانت تقدم وأخرتها ولن يردها إلا أولئك الذين حكموا فيها ، فاكفيانى أنفسكما[1] . على أن طلحة والزبير لم يستمعا للنصح . ولم يكن لنصيحة أم سلمة زوج الرسول أى أثر فى نفس عائشة[2] .

خرجت عائشة[3] وطلحة والزبير إلى البصرة فى ستمائة رجل ، وعمد على إلى الإقناع بالحجة والبرهان وكاد ينجح فى سياسته ، ولكن السبئية وهم أنصار عبد الله بن سبأ وكانوا فى جيش على ، خشوا حدوث الاتفاق بين الفريقين المتنازعين وانسلوا ليلا من جيش على وهاجموا جيش عائشة فى البصرة . ولم يكن على يرغب فى تطور الحوادث ، ولكن قامت حرب طاحنة بين على و بين أعدائه برئاسة عائشة فى مكان يقال له الخريبة فى منتصف جمادى الأخرى سنة ٣٦ هـ ، وقيل إن عدد القتلى من الفريقين فى يوم الجمل كان عشرة آلاف[4] . ودامت هذه الواقعة سبعة أيام ، وفيها انتصر بادىء الأمر جيش السيدة عائشة وطلحة والزبير ، ولكن عليا لم يلبث أن أخذ الراية من ابنه محمد بن الحنفية وهاجم

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٩٩ — ١٠٠ و١٠٣ .

(٢) أنظر الكتب التى دارت بين عائشة وأم سلمة ، فى العقد الفريد ج٣ ص ٩٦ — ٩٧ .

(٣) يجب أن نشير هنا إلى أن السيدة عائشة عارضت عثمان بن عفان فى حياته فقد وقفت — حين كان عثمان يخطب فى المسجد — ممسكة بيدها جلباب الرسول ، وقالت : يامعشر المسلمين ! هذا جلباب الرسول ، لم يبل ، وقد أبلى عثمان سنته » . على أن ذلك لم يمنعها من أن تعتزم الانتقام ممن تسببوا فى قتله وتهاونوا فى المحافظة على حياته ، ولما ذكرها بعض الناس بخصومتها القديمة للخليفة المقتول ، ردت قائلة : « إنهم استتابوه ، ثم قتلوه » .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

أعداءه وعاونه أصحابه حتى دارت الدائرة على الأعداء :فقتل طلحةوابنه محمد ، وأسر مروان بن الحكم والسيدة عائشة ، وأما الزبير فقد انسحب قبل بدء المعركة تنفيذاً للوعد الذى وعده لعلى ولكن عمر بن الجرموز وهو يمنى قتله وأخذ رأسه وأتى بها لعلى .

وسميت تلك الواقعة واقعة الجمل ،لأن عائشة كانت تركب جملا وتحرض الجند على القتال وهى فى هودجها المصفح بالحديد ، ولم ينته القتال إلا عند ماعقر الجمل بالسيف ، ورغم ذلك أحسن على معاملة السيدة عائشة وسيرها إلى المدينة معززة مكرمة ، ويقال إنه ودعها بنفسه وجهزها بما تحتاج إليه فى سفرها [(١)] ، وبذلك لم يعامل السيدة عائشة بما عاملته . وعقب انتهاء تلك الواقعة ومقتل طلحة والزبير ورحيل السيدة عائشة [(٢)] إلى المدينة ، استقرت الأمور وسارت الأحوال فى مجراها الطبيعى .

بين على ومعاوية :

كان معاوية والياً على الشام منذ عهد عمر بن الخطاب ، فاتسع نفوذه وسلطانه فى عهد عثمان بن عفان ، ولما قتل عثمان وبويع على ، أرسل إلى معاوية الرسل والكتب يطلب إليه مبايعته ولكنه رفض ، وبعث إلى على بن أبى طالب كتاباًيقول فيه : من معاوية إلى على ، أما بعد فإنه ليس بينى وبين قيس عتاب.. غير طعن الكلى وضرب الرقاب وبعد أن انتصر على فى موقعة الجمل، أرسل أيضاً إلى معاوية يدعوه إلى بيعته، ولكن معاوية رد عليه بكتاب عنوانه:من معاوية إلى على . وداخله : بسم الله الرحمن الرحيم ، لا غير ، ولم يكتب معاوية بالامتناع

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٢٥ .

(٢) عقب واقعة الجمل ، عدلت السيدة عائشة عن الحياة العامة إلى الحياة الخاصة ، وكان ذلك بمثابة نهاية حياتها السياسية ، وتوفيت عام ٥٧ هـ ودفنت ليلا فى البقيع . وصلى عليها أبو هريرة .

عن بيعة على ، بل يقال إنه أخذ البيعة لنفسه من أهل الشام بعد أن أقنعهم بضرورة محاربته لأنه تخاذل فى الدفاع عن عثمان ، ويقال إن على بن أبى طالب كتب إلى معاوية فى كتاب بعثه مع جرير بن عبد الله البجلى يقول فيه : وقد كثر الكلام فى قتلة عثمان ، فأدخل فى الطاعة ثم حاكم القوم ، فإنى أحملك وإياهم على كتاب الله . فلما ذهب رسول على إلى معاوية ماطله واستنظره ، وكتب إلى عمرو بن العاص : أما بعد فإنه كان من أمر على وطلحة والزبير ماقد بلغك ، فقد قدم علىّ جرير بن عبد الله فى بيعة على ، وحبست نفسى عليك حتى تأتينى ، فاقدم على بركة الله تعالى[1] .

سار على ومعه أتباعه من المهاجرين والأنصار وأغلبهم من أهل الكوفة إلى صفين على شاطىء الفرات الغربى فى تسعين ألفاً لخمس بقين من شوال سنة ٣٦ هـ[2] ، وكان جيش معاوية من أهل الشام ويربو عدده على ثمانين ألفاً قد سبقه إلى هناك حيث سهولة الأرض والقرب من الفرات ، بينما بات علىّ وجيشه فى البر عطاشا لأنه حيل بينهم وبين الماء[3] ، ولكن جنود على أجلوا جند معاوية عن الماء بالقوة ثم سمحوا لهم بالشرب منه بعد ذلك . وبعد يومين من نزول علىّ هذا الموضع ، دعا معاوية مرة أخرى إلى توحيد الكلمة ، واستمرت المراسلات بينهما مدة واتفقا أخيراً على الموادعة إلى آخر المحرم سنة ٣٧ هـ ، ثم دارت رحى الحرب بينهما من جديد .

وانقضى المحرم وبدأ صفر فل كلاهما هذه الحال ، وبدأت واقعة صفين وفيها بدأ القتال بين ميمنة على وميسرة معاوية ، فانتصرت ميسرة معاوية فى أول الأمر . ولكن عليا استأنف القتال ، وهاجم معاوية وقائده عمرو بن العاص ، فلما أحس

---

(١) اليعقوبى ج ١ ص ٣١٥ .
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٥ — ١٧ .
(٣) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٧٢ .

معاوية الهزيمة طلب إلى عمرو بن العاص أن يخلصه من هذا المأزق ، ففكر فى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح وتعليقها فى أعناق الخيل طالبين تحكيم القرآن وقد أخذ أصحاب على وبخاصة القراء (الفقهاء) بهذا الرأى ، ولم يستمعوا له عند ما حاول أن يبين لهم أنها حيلة وخديعة ، واضطروه إلى قبول التحكيم . وعلى أثر هذه الخدعة انقسم جيش على ، وانتهى الأمر بخروج بعض المتحاربين فى صف علىّ من القتال احتجاجا على وقف الحرب، وقد عرف هؤلاء باسم « الخوارج » : وعلى رأس الذين رأوا ضرورة قبول على مبدأ التحكيم ، الأشعث ابن قيس وكان والياً على أذربيجان منذ أيام عثمان ، ولما ولى على الخلافة بايعه وكان على رأس أهل الكوفة وهم غالبية أنصار على ، لذلك اضطر على إلى النزول على رأى الأشعث كارها ، مع أنه لم يكن مخلصاً للخليفة لمطالبته إياه بالأموال التى جمعها من ولايته .

التحكيم :

ارتضى الفريقان التحكيم واتفقا على أن يختار كل منهما مندوبا عنه فى النزاع ، للحكم طبقا لكتاب الله : فاختار معاوية وأهل الشام عمرو بن العاص ، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى وكان على لا يريد اختياره فقال : قد عصيتمونى أول الأمر فلا تعصونى الآن ، و بين لهم تخوفه من أبى موسى ولكنهم لم يطيعوا عليا وأصروا على انتخاب أبى موسى فأذعن علىّ على كره منه [1] .

انعقدت محكمة التحكيم فى « دومة الجندل » الواقعة على الطريق بين دمشق والمدينة ، وظل الفريقان يجتمعان و يتفاوضان فى الأمر حتى اتفقا على خلع على ومعاوية وترك الأمر شورى ، يختار المسلمون من يريدون على نحو ماحدث فى اختيار أبى بكر وعمر وعثمان ولكنهما لم يتفقا على من يخلف عليا .

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج ١ ص ٢٨٧ .

قدم أبو موسى الأشعرى للكلام من قبيل الاحترام لسنه ، حتى يبدأ أبو موسى بخلع صاحبه ثم يعمل عمرو ما يريد . نهض أبو موسى وخطب مضمنا خطابه هذا الاتفاق ، وفيه يقول : أيها الناس إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولم شعثها من أن نخلع عليا ومعاوية ، فتستقبل هذه الأمة هذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم وإنى قد خلعت عليا ومعاوية . ثم أقبل عمرو بن العاص فأكد ما قاله أبو موسى خاصا بعزل على ثم أيد صاحبه معاوية وثبت سلطانه ، فقام مقامه وحمد الله وأثنى عليه وقال : إن هذا قد قال ماسمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه ، وأثبت صاحبي معاوية فإنه ولى عثمان ، والمطالب بدمه وأحق الناس بمقامه[1]. وأخيراً تنابذا وركب أبو موسى راحلته ولحق بمكة ثم انصرف أهل الشام إلى معاوية وسلموا عليه بالخلافة[2].

وزاد موقف على حرجا أنه كان ملزماً أمام الصحابة بالخضوع لهذا الحكم ، إلا أن عليا رفض قبول التحكيم على هذا النحو واعتزال الخلافة ، وقامت على أثر ذلك اضطرابات وفتن شملت معظم أرجاء الدولة العربية . وبذلك لم يحل التحكيم النزاع بين على ومعاوية لأن الحكمين اختلفا ، وفى الوقت الذى استفاد فيه معاوية من فكرة التحكيم ومن الصورة التى تم عليها ، فإنه قد أضر بعلى ضرراً بليغاً ، لأنه فرق أتباعه شيعاً وكان سبباً فى ظهور الخوارج ، مما أضعف من قوة على وكسر من شوكته ، فلم يستطع حين أراد السير لقتال معاوية أن يجد الأنصار الذين يستطيع الاعتماد عليهم .

الخوارج فى عهد على :

رجع على إلى العراق بعد واقعة صفين انتظاراً لقرار الحكمين ، وكان الخوارج يقاطعونه عند ما يخطب على منبر الكوفة ويقولون : « جزعنا من

(١) الطبرى جـ ١ ص ٣٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام جـ ١ ص ٢٨٨ .

البلية ، ورضينا بالقضية وقبلت الدنية ولا حكم إلا لله » . وهكذا نرى أن الذين كانوا مع على فى صفين متوادين خرجوا عليه ، وعرفوا لذلك باسم الخوارج ، وكان عددهم إثنى عشر ألفا ، استطاع على أن يقنع منهم ثمانية آلاف وبقى أربعة آلاف على عدائهم له وذهبوا إلى بلدة النهروان ، واضطر على أن يذهب لقتالهم . وقد دارت فى النهروان معركة شديدة ، كان على رأس الخوارج فيها عبدالله ابن وهب ، إلا أن عليا هزمهم هزيمة منكرة وأبادهم ، وبعد أن انتهى من قتالهم عاد إلى الكوفة حيث دعا الناس إلى قتال معاوية ، ولكنهم تقاعدوا عن نصرته.

مقتل على :

أصبح موقف على بذلك فى غاية الحرج ، وسئم الناس الحالة التى كان عليها المسلمون فى ذلك الوقت وخصوصاً الخوارج ، فاتفق ثلاثة منهم على أن يقتل كل واحد منهم أحد زعماء هذه الفتنة وهم : على ومعاوية وعمرو ، غير أن من توليا قتل معاوية وعمرو لم يصيباهما ، وتمكن عبد الرحمن بن ملجم من طعن علىّ عدة طعنات مميتة وهو خارج من صلاة الفجر فى مسجد الكوفة وذلك فى ١٥ رمضان سنة ٤٠ هـ ، وتوفى بعد ذلك بيومين (١٧ رمضان) . وبوفاة على ينتهى عصر الخلفاء الراشدين ، وهو العصر التى تستند فيه الخلافة إلى الدين وتقوم على فكرة الشورى ، ويبتدىء عصر خلافة جديدة يحول الخلافة إلى ملك وراثى استبدادى . وهكذا كان عصر على هو الفارق بين العصرين .

شخصية على :

ذهبت طوائف الناس فى تحليل شخصية على مذاهب شتى : فريق يبغضه ويلعنه وينسب إليه كل نقيصة وهم طائفة الخوارج التى لم تنس لعلى خروجه من ساحة القتال وهو على وشك الانتصار فى صفين ، وفريق يذهب إلى تمجيده ويرفعه إلى مرتبة الآلهة وهم طائفة الشيعة التى تجعل الخلافة من بعد النبى عليه السلام حقاً شرعياً لعلى بن أبى طالب وذريته ، وفريق محايد يصف عليا

بالصفات التى رآها فيه دون المبالغة فى مدحه أو الإسراف فى ذمه وهم طائفة السنة التى لا تحاول الانتقاص من قدر على أو رفعه مرتبة فوق مايستحق .

كان على ذا شخصية عظيمة هى أشبه ماتكون بشخصية عمر بن الخطاب ، فقد كان يتحرى العدل ومصلحة المسلمين ، حريصاً على أموالهم ، وأبلى بلاء حسناً وأخلص فى نصرة الإسلام : فقد كان على أول من أسلم من الصبيان ، متفقها فى الدين يرجع إليه فى كثير من مسائل الدين وتفسير القرآن ورواية الحديث ، وكان يقول : « سلونى سلونى عن كتاب الله تعالى فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أو نهار فى سهل أم فى جبل » ، وكان فصيحاً ضرب بفصاحته المثل ، كما كان شاعراً حتى قيل : كان أبو بكر يقول الشعر وكان عثمان يقول الشعر وكان على أشعر الثلاثة[1] .

الحسن بن على :

بعد مقتل على ، خلفه ابنه الحسن ، وظل فى الخلافة مدة لا تزيد على ستة أشهر ، حتى أن كثيراً من المؤرخين لا يعده من الخلفاء ، وذلك للضعف الذى ظهر به أمام العالم الإسلامى .

بويع الحسن بالخلافة بعد مقتل أبيه بيومين ، وشرع فى الزحف إلى الشام لقتال معاوية ولكنه سرعان ماعدل عن ذلك : لعدم إخلاص أهل الكوفة ، ولأن رسل معاوية نشروا الدعاية ضد الحسن فى الكوفة ، فرأى أن يفاوض معاوية فى أمر التخلى له عن الخلافة . واشترط الحسن على معاوية ألا يسب أباه على المنابر وألا يطالب بالأموال التى استولى عليها من الكوفة ، وقبل معاوية تلك الشروط ، وانتهت بذلك حياة الحسن السياسية ، واجتمع رأى المسلمين على اختيار معاوية بن أبى سفيان خليفة سنة ٤١ م ، ولذلك سمى هذا العام « عام الجماعة » لاجتماع كلمة المسلمين على شخص واحد ، هو معاوية .

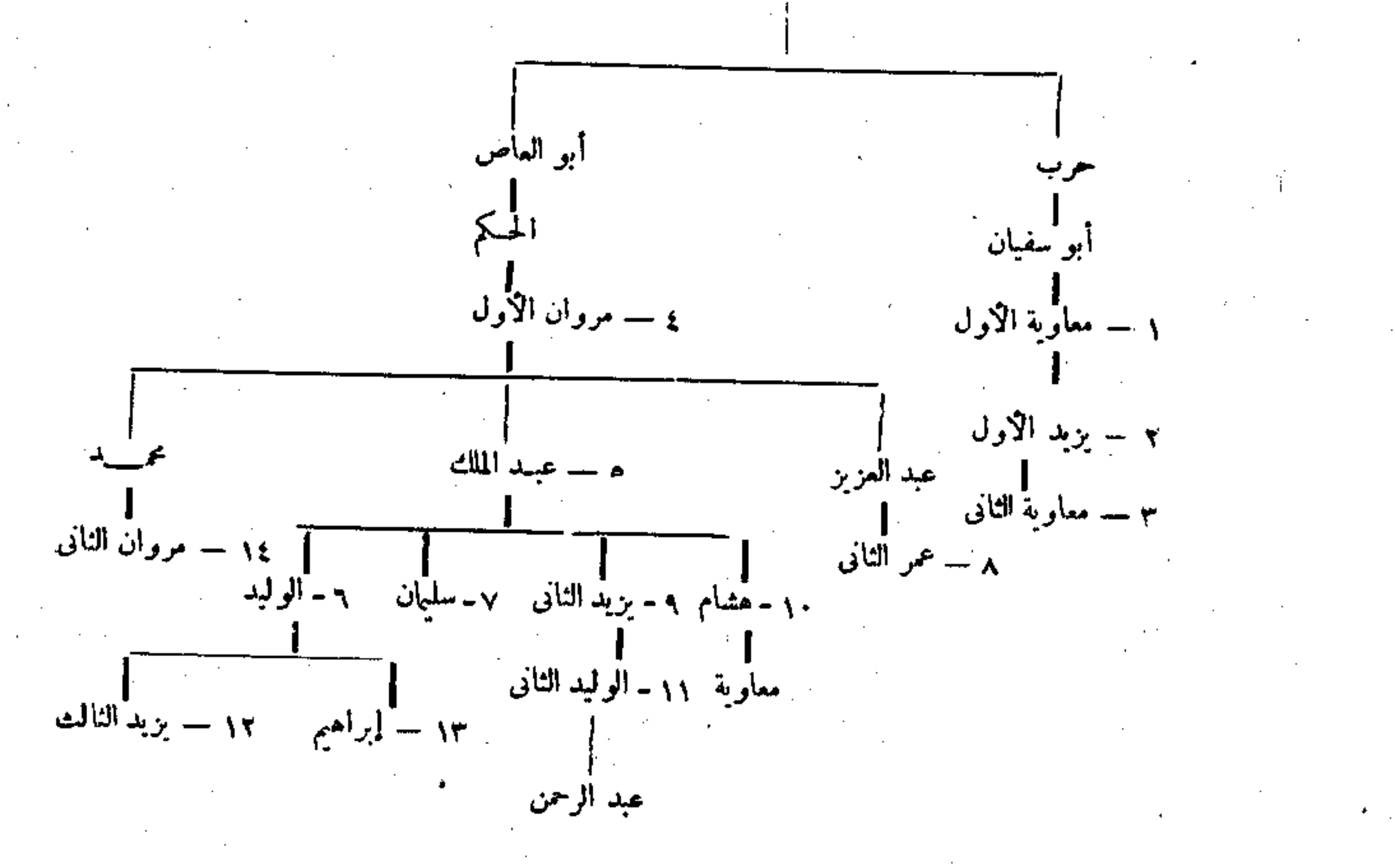
(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٢٢ .

ثالثا — الخلافة الأموية

٤١ — ١٣٢ هـ = ٦٦١ — ٧٥٠ م

الخلفاء الأمويون :

السنوات الهجرية	الخلفـاء	السنوات الميلادية
٤١ . .	معاوية بن أبي سفيان .	٦٦١
٦٠ . .	يزيد الأول	٦٨٠
٦٤ . .	معاوية الثاني . . .	٦٨٣
٦٤ . .	مروان بن الحكم . .	٦٨٣
٦٥ . .	عبد الملك بن مروان .	٦٨٥
٨٦ . .	الوليد بن عبد الملك .	٧٠٥
٩٦ . .	سليمان	٧١٥
٩٩ . .	عمر بن عبد العزيز .	٧١٧
١٠١ . .	يزيد الثاني	٧٢٠
١٠٥ . .	هشام	٧٢٤
١٢٥ . .	الوليد الثاني . . .	٧٤٣
١٢٦ . .	يزيد الثالث . . .	٧٤٤
١٢٦ .	إبراهيم	٧٤٤
١٢٧ — ١٣٢ .	مروان الثاني . . .	٧٤٧ — ٧٥٠


أميـــــــة
حرب
أبو سفيان
١ ـ معاوية الأول
٢ ـ يزيد الأول
٣ ـ معاوية الثانى
أبو العاص
الحكم
٤ ـ مروان الأول
عبد العزيز
٨ ـ عمر الثانى
٥ ـ عبد الملك
محمـــد
١٤ ـ مروان الثانى
١٠ ـ هشام
٩ ـ يزيد الثانى
٧ ـ سليمان
٦ ـ الوليد
معاوية
١١ ـ الوليد الثانى
عبد الرحمن
١٣ ـ إبراهيم
١٢ ـ يزيد الثالث

١ — معاوية بن أبي سفيان

٤٠ — ٦٠ هـ = ٦٦٠ — ٦٨٠ م

يرجع نسب معاوية بن أبي سفيان بن حرب مؤسس الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي ، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد في مكة قبل البعثة بخمس سنوات ، وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه يزيد وأمه هند وله من العمر ثلاث وعشرون سنة[١] .

انتقال الخلافة إلى معاوية :

كان معاوية أطول الحكام المسلمين عهداً ، فقد قضى في ولاية الشام نحو خمس وعشرين سنة تمكن أثناءها بسياسته ودهائه من أن يجتذب قلوب أهل الشام ويجعلهم طوع أمره ، وظل الشاميون مخلصين للأمويين حتى أواخر عهد بني أمية .

لم يستقيم الأمر لمعاوية على أثر مقتل علي بن أبي طالب مباشرة ، فقد ظل العراق يقاومه عدة شهور ، وبايع الحسن بن علي ، ولكن الحسن خاف غدر أهل العراق ، كما أنه أحس بضعفه أمام جيوش معاوية ، فأظهر استعداده للنزول عن الخلافة لمعاوية حقناً لدماء المسلمين ، بعد أن تبين له أنه قد أصبح لا قبل له بمقاومة معاوية وجنده ، على أن يكون الأمر بعد معاوية شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا ، وبذلك أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق في الولايات الإسلامية كافة ، وقيل إن الحسن اشترط

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

على معاوية أن تكون الخلافة بعده للحسين . وفى اليوم الخامس والعشرين من ربيع الثانى سنة ٤١ هـ ، دخل معاوية الكوفة حيث أخذت له البيعة بحضور الحسن والحسين ، وأصبح معاوية خليفة المسلمين . وقد حرص معاوية منذ ولى الخلافة على مزج القبائل العربية التى وفدت إلى الشام بأهل تلك البلاد ، وبذلك استطاع أن يكون آمناً فى ملكه ، كما وجه اهتمامه إلى تقريب الرجال الأكفاء إليه وتقليدهم المناصب الكبرى فى الدولة العربية .

أشهر الولاة فى خلافة معاوية :

اشتهر عمال معاوية بالدهاء وكان ذلك من أبرز صفاته ، فلا غرو فى أن يختار ولاته من المتصفين بذلك . ومن الدهاة الذين استعان بهم معاوية فى الحكم ، عمرو بن العاص ، الذى ولاه مصر . ومن سيرة عمرو نتبين أنه من الرجال الذين أثروا فى الحوادث تأثيراً عظيماً ، ويبدو ذلك من سياسته فى التحكيم التى أودت بخلافة على ، ويكفيه فخراً بلاؤه فى الفتوح الإسلامية الكبرى وإصطلاحاته الهائلة فى مصر .

ويسترعى النظر كذلك فى عهد معاوية ، شخصية المغيرة بن شعبة والى معاوية على الكوفة سنة ٤١ هـ . وكان من الطائف من قبيلة ثقيف وله ماض حافل بالأعمال الجليلة فى خدمة الإسلام : فقد اشترك فى فتوح فارس ، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة ، وفى سنة ٢١ هـ ولاه عمر على الكوفة ، وفى الفتنة التى قامت فى خلافة عثمان بن عفان اعتزل الفريقين .

وفى عهد معاوية ظهر زياد بن أبيه . وكان والياً على فارس من قبل على ابن أبى طالب ، فلما قتل على اعتصم زياد بولايته ، فبعث معاوية إليه المغيرة ليستميله إلى جانبه ، وقد استطاع المغيرة أن يثنيه عن رأيه ، وأرسل إليه معاوية كتاب الأمان . فسار إليه وسلمه ما بقى عنده من أموال فارس ،

واستلحقه معاوية بن أبي سفيان فاعترف بإخوته كما اعترف أبوه من قبل ببنوته وشهد بذلك نفر من الناس ، وإن كان البعض ينكر صحة هذا النسب ومنهم عائشة أم المؤمنين . لهذا يقال له : زياد بن سمية نسبة إلى أمه سمية ، وزياد بن أبيه لجهلهم اسم أبيه ، وبعضهم يلحقه بأبي سفيان . ومن الغريب أن يلحقه معاوية بأبيه مع مافى هذا الأمر من العار والخزى ، وإنما كان ذلك سياسة من معاوية . وقد امتاز زياد منذ نشأته بنشاطه وحزمه ، فأظهر كفاية فى العمل الذى أسند إليه فى الفتوح العربية كحاسب للغنائم مما جعل عمر بن الخطاب يثنى عليه ويتوقع له مستقبلا زهرا ، وولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ هـ حيث خطب فيها خطبته البتراء المشهورة[1] . ولما توفى المغيرة بن شعبة ضم معاوية ولاية الكوفة إلى زياد .

تولية العهد ليزيد :

أعجب معاوية بما شاهده من نظام وراثة الملك عند القياصرة والرومان ، ففكر فى نقل هذا النظام إلى الدولة العربية بعد أن رأى أن العامل الأساسى الذى أدى إلى تفرق كلمة المسلمين إنما هو المنافسة على الحكم . فكر معاوية فى ذلك ، وما لبث أن هداه تفكيره إلى أن تلافى المنازعات على الخلافة لا يتم إلا بتولية ابنه يزيد ولاية العهد من بعده .

كانت هذه الخطوة التى خطاها معاوية طبيعية ، فقد تبين له مانجم من الويلات والفتن والشرور من نظام الخلافة المتبع عند وفاة كل خليفة ، فرأى أن يعهد بالأمر فى حياته لابنه ولا يترك الأمر لجماعة من المسلمين ، حتى لا يتفرقوا ولا ينقسموا ، ولكن كان يحسن ألا يختار ابنه ، كما فعل أبو بكر

(١) سميت بالبتراء لأنه لم يبدأها بالبسملة أو الدعاء .

الذى عدل عن أولاده إلى عمر ، أو يحذو حذو عمر حين رشح للخلافة ستة من كبار الصحابة ليختار منهم المسلمون من أحبوا ولم يكن من بينهم ابنه .

واستعمل معاوية فى أخذ البيعة لابنه يزيد كل أنواع الحيل والدهاء ، فكان « يعطى المقارب ، ويداوى المباعد ويلطف به ، حتى استوثق له أكثر الناس » وبايعوا ابنه يزيد . فلما تمت بيعة أهل الشام والعراق ، ذهب إلى المدينة لأخذ البيعة له ، فقابله الحسين بن علىّ وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر ، وتكلم معهم فى شأن البيعة ، فقال له ابن الزبير : نخيرك بين ثلاث خصال ، قال إعرضهن ، قال : تصنع كما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر . قال معاوية : ما صنعوا ؟ قال : قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر ، قال : ليس فيكم مثل أبى بكر وأخاف الاختلاف ، قالوا : صدقت ، فاصنع كما صنع أبو بكر فإنه عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أمية فاستخلفه . وإن شئت فاصنع كما صنع عمر ، جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه . قال معاوية : هل عندك غير هذا ، قال : لا ، فقال معاوية : فأقسم بالله ، لئن رد علىّ أحدكم كلمة من مقامى هذا لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه . ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم ، فقال : أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، مع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد علىّ كلمة تصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفهما ، ثم خرج وخرجوا حتى رقى المنبر .

هكذا بايع الناس يزيد بن معاوية . وكان يصح أن يرتاح المسلمون لهذا الاختيار ، لو لم يكن ولى العهد من المتصفين بشرب الخمر والتهافت على اللهو والصيد ، وغير ذلك من الصفات التى كان الخلفاء الراشدون بمنأى عنها . وسار معاوية

فى تنفيذ هذه السياسة بمنتهى الحيطة والمهارة ، فضم ابنه يزيد إلى الحملة البحرية التى أنفذها لفتح القسطنطينية فى الوقت الذى رشحه فيه لولاية العهد ليرفع من شأنه أمام المسلمين .

وكان المغيرة بن شعبة والى الكوفة متحمساً لأخذ ولاية العهد ليزيد ، وذلك حين خاف أن يعزله معاوية ، فأراد بهذه الوسيلة التقرب للخليفة . وللوصول إلى ذلك ، ذهب المغيرة إلى الشام وقابل يزيد بن معاوية وأوضح له أنه من أفضل أبناء كبراء قريش وذوى السن فيهم وأنه من أحسنهم رأياً وأعلمهم بالسنة وأخبرهم بالسياسة ، وأنه ليس هناك ما يمنع أمير المؤمنين من أن يعقد له بالبيعة[1] ، فقال له يزيد « أو تر ذلك يتم ؟ قال : نعم ! » وأعلم يزيد إياه بهذه الفكرة . فأحضر معاوية المغيرة وسأله عن هذا الأمر ، فقال له يا أمير المؤمنين ! قد رأيت ما كان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان ، وفى يزيد منك خلف فاعقد له . فإن حدث بك حادث كان كهفا للناس ، وخلفا منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة . قال معاوية : ومن لى بهذا ؟ قال المغيرة : أكفيك أهل الكوفة ويكفيك زياد أهل البصرة ، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك[2] . وقد استطاع المغيرة بن شعبة أن ينجح فى نشر هذه الفكرة ، ووجد من يميل إليها بين أهل الكوفة الذين أنفذوا إلى معاوية وفدا يؤيد بيعة يزيد .

أما زياد بن أبيه فنصح الخليفة أن يتريث ويأمر يزيد بالإقلاع عن لهو الشباب ، ولما مات زياد أرسل معاوية إلى مروان بن الحكم عامله على المدينة يقول « إنى قد كبرت سنى ودق عظمى ، وخشيت الاختلاف على الأمة من بعدى ؛ وقد رأيت أن الخير لهم من يقوم بعدى وكرهت أن أقطع أمراً دون مشورة من عندك فأعرض ذلك عليهم ، وأعلمنى بالذى يردون به عليك » .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢١٥ .
(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٤

أراد معاوية بذلك أن يأخذ البيعة ليزيد من أهل الحجاز خاصة ، لما لذلك من أهمية خاصة ، ولكنه نسى أن فكرة الشورى فى اختيار الخليفة لا تزال قائمة فى أذهان الناس ، وأن أهل الحجاز لم يألفوا نظام الأكاسرة والقياصرة ، وفضلا عن ذلك فقد كان ببلاد الحجاز كبار الصحابة وزعماء العرب ومن أبرزهم الحسين بن على وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمر وعبد الله بن العباس وعبد الرحمن بن أبى بكر وكلهم ذو مكانة عظيمة . فلما قرأ مروان بن الحكم — عامل معاوية على المدينة — على الناس فى المسجد أن معاوية سيأخذ البيعة لابنه يزيد هاجوا وماجوا ، فقال عبد الرحمن بن أبى بكر « ما الخيار أردتم لأمة محمد ، ولكنكم تريدون أن تجعلوها هرقلية . كلما مات هرقل قام هرقل » ، وقام الحسين ابن على فأنكر ذلك ، وفعل مثله عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك .

قدم معاوية المدينة ، وحاول أن يقنع كبار الصحابة فيها . فخطبهم فى شأن البيعة لابنه ، ولكنهم أبوا جميعاً ، فلما رأى منهم إصراراً وعناداً ، أرسل فى طلبهم جميعاً ، ومنهم عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير والحسين بن على وعبد الرحمن بن أبى بكر ، وقد عهد هؤلاء إلى ابن الزبير فى أن يتكلم بلسانهم ، فلما دخلوا على معاوية رحب بهم وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم وصلتى أرحامكم ، ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، ثم أشار إلى ابن الزبير أن يتكلم ، فتكلم بما لا يرضى معاوية ، وأقره الآخرون على قوله ، فقال معاوية « إنى أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر ، إنى قائم فقائل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا علىّ حتى أتمها ، فإن صدقت فعلىّ صدق ، وإن كذبت فعلىّ كذبى ، وأقسم بالله

لئن رد عليّ رجل منكم كلمة حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ولا يبقى إلا عليها » .

وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم برد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه واجتمع الناس ، حتى رقى المنبر فخطبهم قائلا : « قالوا إن حسيناً وابن أبى بكر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نبرم أمراً دونهم ، ولا نقض أمراً إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين . فبايعوا وسلموا وأطاعوا» . ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا ، ثم قربت رواحله فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لا نبايع ، فلما دعيتم وأرضيتم ، بايعتم ، قالوا : لم نفعل ، قالوا : « بلى ، فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خفنا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم ! »[1] .

لم يأبه معاوية لهذه المعارضة التى قامت فى بلاد الحجاز ، فكتب لعماله أن يمهدوا لبيعة يزيد فى الأمصار ، وأن يرسلوا إليه الوفود فى دمشق لإعلان رضاهم عن تلك البيعة ، وقد تكلم فى هذه الوفود الضحاك بن قيس الفهرى ودعا لبيعة يزيد ، وتحققت بذلك سياسة معاوية ، فأعلن البيعة لابنه بعد أن خطبهم الضحاك وغيره ، فى تعظيم الإسلام وحرمة الخلافة وفضل يزيد وعلمه بالسياسة وما يترتب على بيعته من جمع كلمة المسلمين . وعلى هذا النحو تمت بيعة يزيد .

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

الفتوح فى عهد معاوية :

يمتاز عهد معاوية لا بالتطور السياسى فحسب ، بل إن همة المسلمين اتجهت أيضاً إلى الفتح ، فقد اتسعت الدولة الإسلامية فى عهد معاوية شرقاً وغرباً ، ففى الشرق قام ولاته على خراسان بفتح « هارات » و « خوارزم » ، كما استولوا على بعض بلاد الهند والسند ، بل وعبروا نهر جيحون وهاجموا بخارى[1] وسمرقند . وفى الغرب سار عقبة بن نافع من برقة واستولى على إفريقية[2] من الرومان . وأسلم على يديه كثير من البربر ، وقد عمل العرب على إدخالهم فى جيوشهم ، وبذلك تسنى لهم أن يجذبوهم إلى الإسلام ، وبنى عقبة على أثر انتصاره مدينة « القيروان » وأقام بها المسجد الجامع ، ولم يكتف عقبة بذلك بل سار سنة ٥٥ هـ حتى وصل إلى المحيط الأطلسى ، ولم ترهبه هجمات الرومان على جيوشه عند تقدمه . ولم يلبث عقبة أن عزل وولى مكانه « أبو المهاجر » مولى مسلمة بن مخلد الذى ولاه معاوية مصر وإفريقية ، وبلغ أسطول الشام فى عهد معاوية ١٧٠٠ سفينة فتح بها عدة جهات كجزيرة رودس وبعض الجزر اليونانية .

اتجه معاوية ناحية الشمال ، حيث الدولة الرومانية الشرقية ، التى كانت تغير على البلاد الإسلامية المجاورة لها . ولذلك رتب معاوية أمر غزوها براً وبحراً عن طريق الأسطول فى البحر ، كما رتب ما عرف باسم الشواتى والصوائف . وفى سنة ٤٧ هـ سار فضالة الأنصارى على رأس جيش كبير ثم أمده بقوة على رأسها يزيد بن معاوية ، وحاصر الجيش القسطنطينية نفسها سنة ٤٨ هـ وهو الحصار الأول فى خلافة معاوية ، وقد بذل القائدان العربيان

(١) دخل المسلمون بخارى بقيادة سعيد بن عثمان الذى خلف عبيد الله بن زياد على ولاية خراسان .

(٢) أى تونس الحالية .

فضالة ويزيد جهوداً جبارة ضد المدينة العظيمة ، ولكنها فشلت بسبب مناعة حصون المدينة ودفاع قسطنطين الرابع ، ولم يكن هذا الحصار للقسطنطينية هو الوحيد الذى حدث أيام معاوية ، بل إن الأسطول الإسلامى حاصر المدينة سبع سنوات ، ما بين سنتى ٥٤ ، ٦٠ هـ ، وقاست القسطنطينية كثيراً من جراء هذا الحصار ، ولكنها نجت من شره فى النهاية بفضل « النار اليونانية » ، التى كانت تشتعل حتى على سطح الماء ، وأخيراً عادت قوات المسلمين البحرية من « البوسفور » بعد أن فشلت فى فتح القسطنطينية .

موقف معاوية إزاء الخوارج والشيعة :

كانت الأمة الإسلامية حتى ولى معاوية الخلافة ثلاثة أحزاب : أتباع بنى أمية وشيعة على ، والخوارج وهم أعداء الفريقين . وكانت بلاد المشرق : العراق وفارس ، مركزاً لنشاط الخوارج الذين كانوا يثورون كلما مكنتهم الفرصة . وقد قويت شوكتهم منذ قيام الدولة الأموية ، فواجه معاوية ابن أبى سفيان معارضة قوية منهم ، وعملوا على مناوأة سلطته فى كل من الكوفة والبصرة ، كما كانوا يرون أن غيرهم من المسلمين كفار ، وأن دماءهم وأموالهم حلال . ولذلك كان لا بد من أن يتبع معاوية معهم طريق الشدة والقمع ليأمن شرهم ، ويحول دون ما يلقونه من بذور التفرقة التى كادت تودى بالأمة الإسلامية .

ولما استتب الأمر لمعاوية سنة ٤١ هـ ، عول الخوارج على قتاله ، وكان على رأسهم ورقة بن نوفل الأشجعى ، الذى اعتزل عليا فى خمسمائة من الخوارج فى « شهرزور »[1] فأرسل معاوية إليهم جيشين من أهل الشام .

---

(١) شهر : زور إقليم واسع فى بلاد الجبل من أردبيل وهمذان وأهلها من الأكراد يمتازون بالبأس والشدة . ياقوت : معجم البلدان .

ولـكنه هزم على يد الخوارج ، مما دعاه إلى أن يخاطب أهل الـكوفة قائلا : « لا أمان لـكم والله عندى حتى تـكفوا بوائقـكم[1] » . فخرج أهل الـكوفة لقتال الخوارج فقالوا لهم : « ويلـكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم ، وإن أصابنا كنتم قد كفيتمونا » . فأبى أهل الـكوفة إلا القتال حتى يغلبوهم .

وقام من بعدهم جماعة بزعامة « حيان بن ظبيان » ودخلوا الـكوفة فى عهد واليها المغيرة بن شعبة بعد أن خطبهم حيان خطبة حماسية ، واتفقوا على مناوأة الخوارج فى غرة شعبان سنة ٤٣ هـ . ولما علم المغيرة بأمرهم قبض على جماعة منهم ومن بينهم حيان وأودعهم السجن ، وضيق على الباقين الخناق حتى غادروا الـكوفة ، ثم سير ضدهم جيشاً من الشيعة يربو على ثلاثة آلاف من كبارهم فقضى عليهم قضاء تاماً . وقد ضعفت شوكة الخوارج بفضل ما أبداه زياد بن أبيه من الشدة والقسوة فى معاملتهم ، ولم تقم لهم قائمة مدة ولايته على العراق .

ولما ولى عبيد الله بن زياد بن أبيه البصرة ، تحركوا سنة ٥٨ هـ ، إذ ظنوه عينا ، ولـكنه ما لبث أن شتتهم وقتل منهم كثيرين ، ولـكن مقاومة الشيعة لم تـكلف معاوية عناء كبيرا كالخوارج ، وقد خمدت روح التشيع فى نفوس أهل الـكوفة وانضووا تحت لواء معاوية الذى أصبح صاحب السلطان المطلق على إثر نزول الحسن بن علىّ له عن الخلافة ومغادرته الـكوفة . وغضبت الشيعة فى الـكوفة عندما رأت المغيرة بن شعبة يلعن علياً كلما قام خطيبا ، وقاطعه زعيمهم « حُجْر بن عدىّ » مرة عندما سمعه يسب عليا ويمدح عثمان وقال له : إن من تذمون وتعيرون لأحق بالفضل ، وإن من تزكون وتطرون أولى

---

(١) البوائق : جمع بائقة وهى الأمر المهلك .

بالدم »[1] . فقال له المغيرة : « ويحك ياحجر ! اتق السلطان وغضبه وسطوته ، فإن غضب السلطان أحيانا مما يهلك أمثالك . وازداد غضب حجر وأصحابه لاستمرار زياد بن أبيه — عندما ولى الكوفة بعد المغيرة — فى لعن على ، وعقدوا الاجتماعات لسب معاوية ، وأدى هذا إلى أن اتبع زياد بن أبيه سياسة الحزم والشدة إزاء الشيعة ، وأرسل أخيراً صاحب شرطته فقبض على حجر وأرسله هو وأصحابه إلى معاوية ، فقتله هو ومن ثبت على ولائه لعلى بن أبى طالب وأما من تبرأ من على فقد عفا عنه ، وذلك فى سنة ٥١ هـ[2] . وصار التشيع من ذلك الحين أمراً نظرياً ، ولا غرو فقد كان ينقص بعضهم الحماس والإخلاص للمبدأ الذى كانوا يعتنقونه .

وتوفى معاوية فى رجب سنة ٦٠ هـ ، وقبره فى دمشق .

٢ — يزيد بن معاوية

٦٠ — ٦٣ هـ = ٦٨٠ — ٦٨٣ م

توليه الخلافة :

اعتلى يزيد عرش الخلافة فى دمشق بعد وفاة أبيه معاوية ، وامتنع عن بيعته : الحسين بن على ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر . أما عبد الله ابن الزبير فقد فر إلى مكة هو والحسين ، وأخذ عبد الله يعمل على بث الدعوة لنفسه ولكنه وجد فى الحسين منافسا قويا فلم يجرؤ على مناوأته ، وذلك لأن ابن الزبير يعلم أن الحسين أحق بالخلافة منه على اعتبار أنه بعد وفاة أخيه الحسن أصبح رجل الشيعة ، وهو فوق ذلك ابن على بن أبى طالب ، وحفيد النبى

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤٢ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ١٥٠ .

صلى الله عليه وسلم . ولذلك عمل ابن الزبير على إخراج الحسين من الحجاز حتى يصفو له الأمر هناك .

ولما طلب عامل المدينة من الحسين بن على أن يبايع يزيدا بالخلافة ، قال له : « أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سراً ولا أراك تجتزىء بها منى سراً دون أن تظهرها على رءوس الناس علانية . . . فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس فكان أمراً واحداً » . فقال له الوليد ، وكان يؤثر العافية : فانصرف على اسم الله . وعلى أثر هذه المقابلة توجه الحسين إلى مكة وكانت الشيعة بالكوفة فاجتمعوا وأرسلوا إليه كتابا جاء فيه : أما بعد ، فالحمد لله الذى قصم ظهر عدوه الجبار العنيد الذى اعتدى على الأمة ، فانتزعها حقوقها واغتصبها أمورها وغلبها على فيئها ، وتأمر عليها على غير رضى منها ، ثم قتل خيارها واستبقى أشرارها ، فبعداً له كما بعدت ثمود إنه ليس علينا إمام ، فأقدم علينا لعل الله إن يجمعنا بك على الهدى »[1] . ثم أتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذى حضروا الاجتماع ، وقد قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات ، وكان ذلك فى شهر ذى الحجة سنة ٦٠ هـ[2] .

بين يزيد والحسين بن على :

كان الحسين طيب رجلا طيب القلب ، اغتر بدعوة الشيعة ، فأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل إلى الكوفة ليبلغه حقيقة الأمر ، وخرج إليها مسلم والتقى بالشيعة وانخدع بما شاهد ، وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة ، والتف الشيعة حول مسلم . على أن والى الكوفة وقتئذ ، النعمان بن بشير الأنصارى ،

(١) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة جـ ١ ص ٣ — ٤ .
(١) حسن ابراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٣٢ .

لم يعمد إلى تتبع مسلم وأصحابه ، ولكن بعض أنصار الأمويين كتبوا إلى يزيد بمسلك النعمان فعزله .

ولى يزيد مكان النعمان ، عبيد الله بن زياد أمير البصرة وجعله أميراً على البلدين وعهد إليه فى قمع الشيعة ، فأخذهم عبيد الله بالشدة وذهب أولا إلى البصرة وخطب فيها ، ثم إلى الكوفة حيث قبض على كبار الشيعة وخاصة مسلم بن عقيل وأنصاره ، وهكذا قضى ابن زياد على بوادر الفتنة . ولم يدرك الحسين هذا الموقف من أول الأمر ، إذ أنه لما استبطأ أخبار مسلم عزم على الخروج فتصح له عبد الرحمن بن الحارث وعبد الله بن عباس بالتريث ، ولكنه لم يستمع إليهما .

خرج الحسين وسار إلى الكوفة على رأس فئة قليلة لم يتجاوز عددها ثمانين رجلا ، وقد قابله الفرزدق فى طريقه فسأله الحسين عن أهل الكوفة فقال له : « خلفت قلوب الناس معك ، وسيوفهم مع بنى أمية » [1] : ولما علم ابن زياد بخروج الحسين وأصحابه من الحجاز ، أمر بمراقبة الطرق المؤدية من الحجاز إلى الكوفة ، وعهد إلى قوة من ألف فارس لتأتى بالحسين وأصحابه ، فلما اقترب الحسين من الكوفة منع من دخولها فى غير عنف ، وقال له ابن يزيد التميمى قائد القوة ، إرجع فإنى لم أدع لك خلفى خيراً أرجوه ، ومن ثم داخل الحسين الشك وطلب الرجوع إلى الحجاز والذهاب إلى الخليفة فى بغداد . غير أن القائد عمر بن سعد بن أبى وقاص ، الذى خلف يزيد فى القيادة منعه من ذلك ، كما أن إخوة مسلم بن عقيل صمموا على أن يأخذوا بثأر أخيهم أو يقتلوا دونه ، فنزل الحسين عند رأيهم وسار حتى لقيته خيل ابن زياد ، فعدل إلى كربلاء حيث نشب القتال فى العاشر من المحرم سنة ٦١ هـ ، إذ أن عبيد الله بن زياد أرسل رجلا أشد بأساً من الحر بن يزيد التميمى وهو عمر بن سعد بن أبى وقاص لتأديب

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ص ٦٥ .

الحسين ، ومعه أوامر مشددة بأن يؤتى له بالحسين ومن معه أسرى ، فلما رأى الحسين ضآلة قوته وعجزه على القتال بها طلب الإذن له بالذهاب إلى الخليفة يزيد أو الرجوع إلى الحجاز فرفض طلبه . وأخيراً أراد القتال ، وقاتل الحسين وأصحابه قتالا عنيفاً . وانتهى الأمر بأن قتل وجميع من كانوا معه ولم يبق إلا النساء والأطفال ووقع النهب والسبي فى عسكره وذراريه ، ثم حملت النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق فرد نساءه إلى المدينة . وقد أدت حادثة كربلاء إلى ازدياد انتشار مذهب التشيع وخاصة بين الفرس ، أما قبل ذلك فقد كاد التشيع أن يكون قاصراً على العرب .

على أن الحسين قد خرج فى شكل عصيان للخلافة وثورة على الدولة الحاكمة دون أن يستعد بقوات كافية لمواجهة الطوارىء والأحداث ودون أن يعمل حسابا لما سيفعله الخليفة فى سبيل احتفاظه بكيانه وتوطيد ملكه ، إذ جرد أكبر عدد من قواته للضرب على أيدى الثوار . وتألم الناس لمقتل الحسين حفيد النبى عليه السلام وابن على ، وخاصة بعد أن اتضح أن عبيد الله بن زياد والى الكوفة والخليفة يزيد بن معاوية لم يعاملا أهل البيت بالإجلال والإكرام الواجبين لمقامهم .

ولقد ألقت مذبحة كربلاء الفزع والهلع فى جميع البلاد الإسلامية ، كما أشعلت فى نفوس الفرس ذلك الحماس الوطنى الذى ساعد بنى العباس على إسقاط دولة الأمويين[١] . وكما قيل إن الحسين — بصرف النظر عن مكانته ومنزلته فى قلوب المسلمين — كان خارجا على الدولة ، فإنه اعتبر شهيداً فى الوقت الذى عد فيه يزيد سفاكا للدماء[٢] وتوحدت صفوف الشيعة عقب تلك الموقعة

---

(١) Sayed Ameer Ali: A Short History of the Saracens, p37.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 198.

وصمموا على الأخذ بثأر الحسين ، وخاصة الفرس الذين كانوا يرون أن هذا الوقت فرصة تسنح لهم للتخلص من سلطان العرب وسيطرتهم والاستقلال بدولتهم .

بين يزيد وعبد الله بن الزبير :

لم يجرؤ عبد الله بن الزبير على الجهر بطمعه فى الخلافة والحسين على قيد الحياة ، لأنه يعلم أن الحسين أحق بها منه . فلما قتل الحسين أظهر ابن الزبير حقيقة ما يرمى إليه ، ولكنه فى الوقت نفسه أثار السخط على قتلة الحسين وشاد بذكره.

وفى ذلك الحين ، اجتمع أصحاب ابن الزبير حوله وأوضحوا له أنه أحق رجل بالخلافة بعد الحسين و بدءوا فى أخذ البيعة له سراً . ولما بلغ يزيد أن ابن الزبير أخذ البيعة لنفسه أقسم ليقتصن منه كما انتقم من الحسين ، ولكنه آثر أن يبعث رسولا يعرض عليه الصلح كى تصفو العلاقة بينهما فرفض ابن الزبير . ولكن يزيد مع ذلك عالج الأمر بالأناة والصبر ولم يتعجل الحوادث ، حتى اتضح له أن الأمور فى المدينة تسير من سىء إلى أسوأ وفى أشد الحالات فتنة واضطراباً بتحريض ابن الزبير ، وتحرجت الأحوال حين ثار أهل المدينة وخلعوا يزيد وطردوا عامله وضيقوا على من كان بها من بنى أمية حتى استغاثوا بيزيد . وكان أهل المدينة قد ولوا على أنفسهم « عبد الله بن حنظلة الغسيل » ، وبهذا كان هناك ثلاثة يدعون الخلافة : يزيد فى دمشق ، وابن الزبير فى مكة ، وعبد الله بن حنظلة فى المدينة .

ولم يجد يزيد بداً من أن يبدأ العمل الجدى ، فأمر الجيش بالسير إلى المدينة بقيادة مسلم بن عقبة المرى ، وكان من جبابرة العرب طاعناً فى السن مريضاً ، وما كاد الجيش الأموى يصل إلى وادى الحرة الواقع شمال المدينة المنورة حتى خرج إليه أهلها ، وهناك جرت معركة هائلة هى واقعة الحرة ، وأسفرت عن هزيمة

أهل المدينة وقتل عدد كبير منهم ، وقتل فى هذه الموقعة ألف وسبعمائة من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس وكان من بينهم ثمانون رجلا من أصحاب النبي عليه السلام كما قتل عشرة آلاف من سائر الناس من الموالى والعرب سوى النساء والصبيان ، على أن بنى هاشم لم يشتركوا فى معركة الحرة ولزموا بيوتهم ولذلك لم يقتل منهم إلا ثلاثة فقط . وبعد هذه الهزيمة استباح جيش مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام وأسرف هو وجنده فى السلب والنهب والاعتداء ، ولذلك لقبوه « المسرف »(١).

ويظهر أن العداوة بين الأنصار وبين قريش هى التى أدت فى النهاية إلى حدوث تلك الموقعة ، وقيل إنها صدى لواقعة بدر . على أن موقعة الحرة فى الواقع ، هى نتيجة للتنافس بين فريق يريد الوصول إلى الحكم ، وفريق يدافع عما صار إليه من السلطان : فالحسين والزبير يطلبان الخلافة ، ويزيد يتمسك بعرشه . وفى سبيل ذلك ، استباح كل منهما حرمة الخلافة ، وخربت المدينة بعد تلك الموقعة وفقدت رونقها ، على أنها ظلت مركزاً من المراكز العلمية الأولى فى الإسلام ومقراً لكبار المفسرين والمحدثين من أهلها .

وبعد واقعة الحرة ، أمر يزيد قائده مسلم بن عقبة المرى بالمسير إلى مكة حيث يقيم عبد الله بن الزبير ، إلا أن مسلماً أدركه الموت أثناء الطريق ، فتولى قيادة جيوش يزيد من بعده الحصين بن نمير السكونى ، وكان يزيد قد أوصى بتوليته إذا مات مسلم ، فسار بالجيش إلى مكة وحاصرها فى أوائل سنة ٦٤ هـ ، وهذه أول مرة فيها تحاصر مكة فى التاريخ الإسلامى ، وكان ابن الزبير قد آوى إليها واعتصم بها على اعتبار أنها حرم مقدس لا يحل فيه القتال ، وكان كثير من أهل المدينة قد انضوى تحت لواء عبد الله بن الزبير للدفاع عن مكة كما انضم

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٢ .

إليه بعض الخوارج ، ونصب على جبل أبى قبيس المواجه للكعبة المجانيق . أما أصحاب ابن الزبير فتحصنوا فى بيت الله الحرام ، ودار القتال فأصابت المجانيق الكعبة وهدمتها وأحرقتها حتى تواردت أحجار المجانيق على البيت مما أدى إلى هدم الكعبة فى الثالث من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ[1] .

بينما كان القتال دائراً بين الفريقين جاءهم خبر وفاة يزيد ، فأرسل الحصين إلى ابن الزبير يقول : « إن الذى وجهنا إلى محاربتك قد هلك ، فهل لك فى الموادعة وتفتح لنا الأبواب فنطوف بالبيت ويختلط الناس بعضهم ببعض » . فأجابه ابن الزبير إلى طلبه ووقفت الحرب بين الفريقين ، ثم دعا الحصين عبد الله ابن الزبير إلى الذهاب معه إلى الشام ليأخذ له البيعة من أهلها ، فأبى ابن الزبير لأنه أراد أن يعيد إلى بلاد الحجاز مجدها ويجعلها مركز الخلافة . وبذلك عاد الحصين هو وأتباعه ورفعوا الحصار عن مكة ، بعد أن ألحقوا بالكعبة الخسائر الفادحة ، وهكذا ضاعت الفرصة من ابن الزبير .

٣ — معاوية الثانى

٦٣ هـ = ٦٨٠ م

بوفاة يزيد ، انتقل الملك إلى ابنه معاوية المعروف باسم معاوية الثانى ، وكانت سنه إذ ذاك ثمانية عشرة عاما ، ولم يزد عهده فى الخلافة على أربعين يوما ، وكان انتقال الملك إليه بوصية من أبيه جرياً على السنة التى سنها معاوية ، وهى حصر الملك فى بنى أمية ، ولكن هذه الوصية لم تلق احتراماً وتأييداً ، ولذلك قام الخلاف مباشرة بعد وفاة يزيد ، فقد كان معاوية شاباً مريضاً ضعيف الإرادة ، فلم يلبث أن تنازل عن الخلافة وفكر فى ترشيح رجل للخلافة كما فعل

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٩٧ .

من قبل أبو بكر وعمر بن الخطاب ، ولكنه لم يجد الرجل الذى يصلح لها فاقتدى بعمر فى اختيار ستة ينتخب الخليفة من بينهم رجلا فلم يفلح ، فترك الأمر شورى للناس يولون أمرهم من يشاءون ، ثم لزم بيته حتى مات بعد أيام من تنازله عن الخلافة .

اضطرب أمر بنى أمية على أثر تنازل معاوية بن يزيد عن الخلافة ، ولكنهم استطاعوا أن يسيطروا على الموقف ، وعقدوا اجتماعاً فى الجابية سنة ٦٤ هـ بايعوا فيه مروان بن الحكم بالخلافة ، وجعلوا ولاية الحكم من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد ، وبهذه الطريقة أرضوا جميع الذين كانت تتوق نفوسهم للخلافة كما وحدوا كلمة أنصارهم .

٤ — مروان بن الحكم

٦٤ — ٦٥ هـ = ٦٨٣ — ٦٨٥ م

مروان بن الحكم من البيت الأموى الذى طالما عادى النبى عليه السلام أيام دعوته ، ولما ولى عثمان بن عفان الخلافة قرّب مروان إليه واتخذه مشيراً له وأصبح ساعد عثمان وكاتبه ومدبره ، وبعد مقتل عثمان بايع علياً وأقام بالمدينة واعتزل السياسة بعد واقعة الجمل ، وظل على هذه الحال حتى آلت الخلافة إلى معاوية فولاه على المدينة ، ولما مات معاوية الثانى وأصبح منصب الخليفة شاغراً احتدم النزاع بين عرب الشام على الخلافة . وساء قبيلة « قيس » حكم بنى أمية الذى اعتمد على اليمنيين ، فاجتمعت بزعامة الضحاك بن قيس الفهرى فى مرج راهط وبايعت عبد الله بن الزبير، كما اجتمعت « كلب » حيث مال فريق إلى خالد بن يزيد بن معاوية وفريق آخر مال إلى مروان بن الحكم

ابن العاص ، غير أنه ظهر لهم أن الفرع السفيانى ليس فيه من يستطيع مناهضة ابن الزبير فقد كان خالد صغيراً ، فعدلوا عنه إلى مروان بن الحكم لسنة وشيخوخته ، واتفقوا على أن يلى الخلافة من بعده : خالد بن يزيد بن معاوية ثم عمرو بن سعيد بن العاص .

نقل الملك إلى الفرع المروانى :

لم يستقر الأمر لمروان بن الحكم إلا بعد أن بذل جهداً كبيرا ، فقد سار إلى الضحاك بن قيس الفهرى وهزمه فى موقعة مرج راهط فى المحرم سنة ٦٥ هـ ، وبذلك انتصر العنصر اليمنى على المضرى ، وظاهر هذه الموقعة أنها بين الأنصار وابن الزبير وبنى أمية ، ولكنها كانت فى الواقع بين عرب الشام « القيسية » وعرب الجنوب وهم « كلب » . وقد دامت هذه الموقعة عشرين يوماً وانتهت بهزيمة القيسية هزيمة شنعاء ، وقتل فيها الضحاك بن قيس ، وهكذا انتصر مروان بن الحكم . وقد أذكت هذه الموقعة نار العصبية القبلية بين اليمنية والمضرية من جديد ، لا فى الشام فحسب ، ولكن فى سائر الولايات الإسلامية وخاصة فى خراسان ، وظهر العداء بين اليمنية والمضرية فى صورة نزاع متصل بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، وامتد لهيب العصبية إلى أقاصى البلاد التى وصلت إليها الفتوح العربية فيما شنه هؤلاء وأولئك من حروب أهلية ومعارك دموية[1] وقد أسفرت موقعة مرج راهط عن نتائج هامة : فقد انتقل الملك من الفرع السفيانى إلى الفرع المروانى ، وأصبح نظام الملك الوراثى الذى سنه معاوية حقيقة واقعة ، وبعثت العصبية القبلية التى كانت عاملا كبيرا فى مجرى الحوادث فى العصر الأموى .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٢ .

سياسة مروان ازاء الأمصار :

وجه مروان اهتمامه بعد ذلك إلى الأمصار الأخرى غير الشام ، فذهب بنفسه ومعه ابنه عبد العزيز إلى مصر ، حيث كان عبد الله بن الزبير قد أرسل إليها والياً من قبله اسمه « عبد الله بن جَحْدم » . وقد استطاع مروان أن يهزم ابن جحدم وأتباعه فى موقعة الخندق[1] قرب الفسطاط فى أول اجمادى الأول سنة ٦٥ هـ ، وبنى مروان الدار البيضاء التى اتخذها مركزاً له ، ثم أخذ البيعة من الناس ، إلا أن نفراً قليلا ظلوا على بيعتهم لابن الزبير ، ولم يجد مروان إزاء إصرارهم إلا أن ضرب أعناقهم[2] ، وولى مروان ابنه عبد العزيز على مصر وعاد هو إلى الشام . وبعد عودته إلى بلاد الشام سير حملتين : إحداهما إلى الحجاز حيث دعا عبد الله بن الزبير لنفسه بالخلافة ولكنها هزمت ، والأخرى إلى بلاد العراق حيث كان الشيعة قد قاموا فى الكوفة سنة ٦٥ هـ ، وأظهروا ندمهم على مافرطوا فى حق الحسين وتابوا إلى الله من مسلكهم إزاءه ، ولذلك سمّوا « التوابين » وقد عزموا على الأخذ بثأر الحسين وانتزاع الخلافة من بنى أمية وإسنادها إلى أحد رجال البيت ، فلم تتم الحملة بشىء يستحق الذكر .

نهاية حكمه :

لم يحكم مروان مدة طويلة ، فقد كان شيخاً مسناً ، وبعد أن تم له الأمر فى مصر والشام ، حاول تعديل ماتم فى مؤتمر الجابية ، بتحويل الخلافة من بعده لابنه عبد الملك بدلا من خالد بن يزيد ، وكان مروان قد تزوج أم خالد

---

(١) كان أصحاب ابن جحدم قد أشاروا عليه بأن يحفر خندقا وقد تم حفره فى شهر واحد وموقعه الآن بجهة القرافة .

(٢) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

« أرملة يزيد » محاولة منه فى إذلال خالد أو ليرجعه عن رأيه فى الخلافة ، وكان يحقر من شأن خالد ليصد عنه أهل الشام ، وقد دخل خالد يوماً على مروان فسبه وعيره بأمه ووصفها وصفاً قبيحاً . فغضب لذلك وأخبر أمه بما حدث ، فقالت له « لا يعرفن ذلك منك وأسكت فإنى أكفيكه » ، وقد انتقمت أم خالد من مروان بأن وضعت على وجهه وسادة لم ترفعها حتى مات ، ولما علم بذلك ابنه عبد الملك أراد أن يقتلها ، فأشير عليه بالعدول عن رأيه حتى لا يتحدث الناس بأن إمرأة قتلت أباه ، فيلحق به العار(١) .

ومات مروان بن الحكم سنة ٦٥ هـ ، بعد أن عهد بالخلافة إلى ابنه عبد الملك ، ثم لابنه عبد العزيز ، فكان ذلك توكيداً للنظام الذى وضعه معاوية وهو نظام الملك الوراثى ، وهكذا نقض مروان العهد الذى أخذه على نفسه فى مؤتمر الجابية .

٥ — عبد الملك بن مروان

٦٥ — ٨٦ هـ = ٦٨٥ - ٧٠٥ م

ولد عبد الملك بن مروان فى المدينة سنة ٣٦ هـ فى خلافة عثمان بن عفان ، ويجتمع نسبه من جهة أبيه وأمه فى أبى العاص ، وأمه عائشة بنت معاوية ابن المغيرة بن أبى العاص بن أمية . اتصف بالشهامة ، وعرف بالتدين فقد حفظ القرآن الكريم عن عثمان بن عفان ، وسمع الحديث من أبى هريرة وجابر ابن عبد الله وغيرهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم(٢) .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٣ .
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبرى ج ٥ ص ١٧٣ .

الصعوبات التى واجهته :

١ — ظهور التوابين :

وقد عمل عبد الملك منذ توليته أمر الخلافة على توطيد سلطان الأمويين فى الدولة العربية ، فبدأ بإرسال الإمدادات الوفيرة إلى عبيد الله بن زياد والى الكوفة ليتمكن بها من القضاء على نفوذ الشيعة الذين كانوا قد اجتمعوا فى الكوفة قبل وفاة مروان بن الحكم ، ونادوا بضرورة العمل على أخذ ثأر الحسين ، وأطلقوا على أنفسهم اسم « التوابين » وأمروا عليهم رجلا إسمه سليمان بن صرد ، وانضم إلى تلك الطائفة عدد وافر من الناس حتى بلغ عددهم أربعة آلاف ، واجتمع التوابون وساروا حتى وصلوا إلى « عين الوردة » سنة ٦٥ ﻫ حيث اشتبكوا بعبيد الله بن زياد الذى أرسله مروان بن الحكم للاستيلاء على العراق ، ثم أمره عبد الملك بن مروان عليها ولحق بالشيعة كثير من أهل البصرة والمدائن ، ولما تلاقى الجيشان حلت الهزيمة بالشيعيين بعد أن أبلوا بلاء حسناً وقتل رئيسهم سليمان بن صرد وفر المنهزمون إلى بلادهم[١] . وقد أدت تلك الواقعة إلى نفس النتيجة التى انتهت إليها واقعة كربلاء .

٢ — ثورة المختار :

ولم يكد عبيد الله بن زياد يفرغ من التوابين حتى فوجىء سنة ٦٦ ﻫ بظهور المختار بن أبى عبيد الثقفى ، أحد قواد الجيوش الإسلامية فى العراق زمن عمر ، إذ أنه لما اضطربت أحوال الدولة العربية بعد مقتل على ، أراد المختار أن يستعيد نفوذه ، فاتصل بالحسن بن على بن أبى طالب ، فلما تخلى الحسن عن حقه

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص٧٣ — ٧٩ .

فى الخلافة لمعاوية اتصل بالحسين ، وبعد مقتل الحسين اتصل بابن الزبير . ولكن ابن الزبير كان قليل الثقة به لما أبداه من التقلب ، فقد كان من الأمويين ثم أصبح من أصحاب ابن الزبير ، ولكنه مالبث أن سجن فى الكوفة لأن واليها أساء الظن به ، إلا أن المختار أعمل الحيلة واستمال إليه الشيعة وادعى أنه مرسل من قبل محمد بن على بن أبى طالب المعروف بابن الحنفية ، للأخذ بثأر الحسين . وبعد إطلاق سراحه استمال أيضاً فريق الموالى الذين كانوا بالكوفة وكون جيشاً من العرب والموالى وقاد حركة عدائية ضد والى الكوفة واستولى فعلا عليها . وأخذ يعد العدة لمحاربة عبيد الله بن زياد للانتقام منه : لأنه قاتل الحسين ، ولأنه هو الذى سجنه حين كان يدعو للحسين فى الكوفة ، وضربه ضربة أفقدته إحدى عينيه ، وبذلك يمكن القول أن ثورة المختار كانت لأسباب عامة وأسباب خاصة .

التقت قوات ابن زياد مع جيش المختار الذى كان يقوده إبراهيم بن الأشتر عند نهر الخازر ، أحد فروع دجلة ، ودارت الدائرة على ابن زياد ، وقتل فى تلك الواقعة هو وكثير من أشراف أهل الشام ، وكان عبد الملك قد سار فى سنة ٦٦ هـ على رأس الجنود الشامية لقتال المختار فى الكوفة ، وبينما هو فى طريقه أتاه فى إحدى الليالى خبر مقتل عبيد الله بن زياد وانهزام جنده[١] ، وبذلك ثأرت الشيعة لنفسها من مقتل الحسين . إلا أن تلك الواقعة على الرغم من أنها عدت انتصاراً لأتباع الحسين ، فإنها لم تؤد إلى ازدياد نفوذ المختار أو تقوية سلطانه فإن ابن الزبير وابن الحنفية الذين كان المختار يعلن أنه من أنصارهما ومن أتباعهما كانا يسيئان الظن به ، بل إن ابن الحنفية تبرأ منه حين علم بما يذيعه المختار من أن له نفوذاً علوياً وبما ينشره من المبادىء الغريبة كقوله : إن الله يجوز عليه البدء[٢] ، وكقوله بمبدأ تناسخ الأرواح ،

---

(١) المسعودى مروج الذهب ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢) أى أن الله عز وجل يقول قولا ثم تبين له خطؤه فى المستقبل فيعدل عنه .

وزعم أن الملائكة تقاتل معه ، وبأنه حصل على كرسى قديم لعلى بن أبى طالب ، يجلس عليه ليجتذب احترام الناس له . وأمر عبد الله بن الزبير أخاه مصعب ابن الزبير بعد أن ولاه العراق بمقاتلة المختار ، فوقعت بينهما بالقرب من الكوفة سنة ٦٧ هـ معركة كبيرة ، انتهت بهزيمة المختار وقتله هو ونحو سبعة آلاف من أتباعه ، وكانوا يطلقون على أنفسهم اسم « المختارية .

وهكذا اختفى المختار من عالم التاريخ دون أن يكون للحركة التى قادها من الموالى والعرب أية نتيجة ، بل كل ما يمكن أن يقال عنه إنه رجل قام بدور سياسى فى التاريخ الإسلامى .

٣ — بين عبد الملك وابن الزبير :

بالقضاء على ثورات التوابين والمختارية ، استؤنفت الخصومة بين ابن الزبير وعبد الملك أى بين الحجاز والشام . وللوصول إلى القضاء على ابن الزبير قضاء تاما ، لم يسرع الخليفة فى ملاقاته بل عمد إلى الأناة فى بدء المعركة معه حتى يهزم أعداءه الواحد تلو الآخر ويتفرغ للعدو الأكبر . بدأ عبد الملك بالقضاء على المختار ، وهادن إمبراطور الروم ليأمن جانبه أثناء قتاله ابن الزبير ، ثم قضى على عمرو ابن سعيد ليتخلص من أمر مطالبته بالخلافة . وأظهر عبد الملك بصبره على حركات ابن الزبير فى الحجاز إلى ذلك الوقت وعدم تعجله فى القضاء عليها أنه رجل سياسى وداهية من دهاة العرب :

بدأ الخليفة بأن هادن إمبراطور الروم سنة ٧٠ هـ حتى لا ينتهز فرصة انشغاله بقتال ابن الزبير فيغير على بلاد الشام ، وبعث إليه عبد الملك الأموال والهدايا وصالحه على أن يؤدى إليه نحو خمسين ألف دينار كل عام [1] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣ .

كذلك نكل عبد الملك بعمرو بن سعيد وهو الذى وعد فى مؤتمر الجابية بأن يأخذ الخلافة بعد موت مروان وخالد بن يزيد ، وكان عمرو بن سعيد يرى أحقيته بالخلافة دون عبد الملك فكتب إليه عبد الملك « إنك لتطمع نفسك ، بالخلافة ولست لها بأهل » ، فرد عليه عمرو يهدده ويتوعده فى كتاب ينم عن الازدراء والاستهتار[١] . وجعل عبد الملك الولاية من بعده لابنه الوليد ثم عبد العزيز ، وترك عمرو بن سعيد ، وكان هذا هو العامل الأساسى الذى دفعه إلى الانتقام من عبد الملك ، فزحف عمرو على دمشق منتهزاً فرصة غيابه عنها ، ولكن عبد الملك عاد إلى دمشق وقبض على عمرو وقتله بيده مما عده التاريخ وصمة فى جبين هذا الخليفة ، لأن عمراً لم يفعل شيئاً أكثر من أنه طالب بحق اعترف له به من قبل . بذلك قضى عبد الملك على أعدائه وتفرغ لابن الزبير .

خرج عبد الملك بعد ذلك سنة ٧١ هـ إلى العراق ، بعد أن صالح القيسيين ، لقتال مصعب بن الزبير ، فأخذ يستمد الأخير لملاقاته ولكن لم يستطع جند مصعب الوقوف أمام عبد الملك . وأرسل عبد الملك كتبا إلى قواد مصعب يمنيهم حتى استمالهم إليه ، إلا أن إبراهيم بن الأشتر أعطى مصعبا الكتاب الذى أرسله إليه عبد الملك وأبلغه خبر القواد الذين أخفوا كتب عبد الملك وطلب ابن الأشتر وقتل هؤلاء القواد جميعاً ، ولكن مصعباً رفض ذلك وأمر بحبسهم فقط[٢] . وكان لهذه السياسة أثرها فقد خان القواد مصعباً ونشب القتال بين الفريقين بالقرب من باجمرا[٣] وهزم مصعب ومن كانوا معه وقتل أخيراً بعد أن أبلى أحسن البلاء ، ودخل عبد الملك الكوفة فبايعه أهلها سنة ٧١ هـ ، وولى على البصرة والكوفة عمالا من قبله[٤] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ١ ص ١١٦ — ١١٧ .

(٢) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٠ .

(٣) بين الكوفة وواسط وهى أقرب إلى الكوفة منها إلى واسط ، وتبعد عن الأولى بسبعة عشر فرسخاً . ياقوت : معجم البلدان .

(٤) الطبرى جـ ٧ ص ١٨٧ — ١٨٨ .

وكان عبد الله بن الزبير لا يزال فى الحجاز ، حيث دعا لنفسه بالخلافة . ولما كان عبد الملك يرى أن ابن الزبير قوى الشكيمة وأن هزيمته ليست من الأمور الهينة وأنه لابد لكى تصفو له الأمور من القضاء على ابن الزبير . فقد ندب لقتاله رجلا عرف بالقسوة والصلابة هو الحجاج بن يوسف الثقفى ، الذى كان له فضل كبير فى توطيد عرش عبد الملك وعرش أولاده من بعده .

ينتهى نسب الحجاج إلى ثقيف جد القبيلة ، ولد سنة ٤١ هـ ، فى قرية الطائف فى الحجاز فى بدء خلافة معاوية بن أبى سفيان من أسرة فقيرة ، وهو ابن يوسف ابن الحكم زوج الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود . وكان أبواه يعملان فى نقل الطين والحجارة بالطائف . وكان الحجاج قبيح الوجه قميئًا دقيق الساقين أعور معروق الأصداغ ، ولما اشتد ساعده أرسله أبوه إلى معلمى القرية الذين راعهم استعداده وطلاقة لسانه ، حتى أصابت أقرانه الغيرة من براعة بيانه فأخذوا يعيرونه بقبحه ، ومرت الأيام وخرج أقرانه للجهاد إلا ابن يوسف الذى لم يجد من يختاره ، وسار لذلك كئيب النفس إذ أنه لا يحس جبناً ولا نقصًا اللهم إلا ضعف البنية . وزاول الحجاج تعليم الصبيان فى قرية ثقيف سعيًا وراء الرزق ، واكتسب من هذه الحرفة الفصاحة والقدرة على الخطابة . وواتته الفرصة ودخل فى خدمة روح بن زنباع الجذامى رئيس شرطة عبد الملك بن مروان ووزيره ، وتقدم بجرأته إلى أن أصبح من رؤساء الجند . وحين صدرت أوامر عبد الملك للجند ورؤسائهم بالسير للجهاد ، تراخى بعض جند ابن زنباع يأكلون ويسمرون ، فانتهرهم الحجاج ، فسبوه فأمر بإحراق خيامهم وضربهم بالسياط ، فاشتكوا إلى ابن زنباع ، فذهب الى الخليفة شاكيًا الحجاج . فلما سأله الخليفة عن عوامل ماأقدم عليه ، قال : ياأمير المؤمنين ! إن أمرى من أمرك وإن عصانى جندى فقد عصاك ، وأما خيام ابن زنباع فقدرتك على تعويضه عن خيامه خيامًا تغنى عن اللجاج .

لما تبين لعبد الملك عظم مقدرة الحجاج الحربية ، أرسله للقضاء على ابن الزبير فى الحجاز ، وهناك ظهرت قوة إرادة الحجاج . خرج الحجاج إلى الطائف ، ومنها إلى المدينة حيث انضم إليه عاملها ومن معه من الجند ، ثم سار إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمنجنيق ، وهى قاذفات الحجارة و بمثابة المدافع فى العصر الحاضر ، وأقبل الحجاج على المنجنيق يضرب وتره بيده فتنزل الحجارة مدمرة حول الكعبة حتى تصدعت جدرانها وما هاب ولا فرق ، حتى أيقن أهل مكة لما رأوا البرق والرعد أن غضب السماء قد حلّ . وأرغم بذلك أهلها على طلب الأمان ، فانضم بعض أتباع عبد الله بن الزبير وغيرهم من ذوى قرباه إلى الحجاج ، و بقى ابن الزبير فى عدد قليل من أنصاره وخرج ابن الزبير بعد ذلك وقاتل أهل الشام قتالا شديداً واستبسل فى الدفاع وحمل عليه العدو وقتلوه فى جمادى الآخرة سنة ٧٣ ه .

و بعد انتصار الحجاج على ابن الزبير كافأه عبد الملك بتوليته على مكة واليمن واليمامة ، ولم يمض زمن طويل حتى ولاه على المدينة أيضًا ، وبذلك أصبح الحجاز كله تحت سلطانه . وكان الحجاز موطن المعارضة الشديدة لبنى أمية ، ولذلك أتبع فى السنوات الثلاث التي أقامها فيه حكم الاضطهاد والشدة وخاصة إزاء أهل المدينة ، إذ أهان كبار الصحابة فيها حتى شكاه عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى الخليفة ، فكتب إليه الخليفة بألا يتعرضّ لعبد الله ولا لأنس بن مالك خادم النبى . ونفذ الحجاج أثناء إمرته على الحجاز سياسة الأمويين . فهدم الكعبة التى بناها ابن الزبير فصارت على النحو الذى كانت عليه فى الجاهلية للقضاء على أثر ابن الزبير .

٤ — القضاء على فتن العراق :

ظل الحجاج فى الحجاز حتى سنة ٧٥ هـ حين رأى عبد الملك أن ينتفع بشدته فى العراق ، حيث كانت الحالة فى غاية الاضطراب لوجود الخوارج الذين دانوا بالديمقراطية التامة ، فكانت الخلافة عندهم حق لكل مسلم يتصف بالتقوى والشجاعة بصرف النظر عن كونه عربيًا أو غير عربى قرشيًا أو غير قرشى .

وخرج الحجاج من الحجاز لا فى جيش ضخم بل أثنى عشر راكبًا وقصد الكوفة وصعد المنبر متلثما . وحين ارتقى المنبر أزدرته العيون ، وهمّ بعض القوم أن يرميه بالحصى ، فما لبث أن قام فألقمهم الحجارة من منطقة العنيف ، فإنه لما تكاثر الناس بالجامع كشف اللثام عن وجهه وخطبهم خطبته المشهورة فى الأدب والتاريخ ، وكلها استهتار بأهل العراق وتوعد لهم ، لما كان منهم من شق عصا الطاعة على بنى أمية ، وقد بدأها بقوله :

« أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

ياأهل الكوفة ! إنى لأرى رءوسًا قد أينعت وحان قطافها وإنى لصاحبها ، وكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحىّ . . . » وكلها وعيد لأهل العراق عامة والخوارج خاصة . ولما انتهى الحجاج من خطبته لم يعترض عليه أحد ممن كان فى المسجد ، فقد ارتاعوا وأسلسوا له فى الظاهر القياد ، لما رأوا من تهديده بجنى الثمار التى حان قطافها . وهذه الخطبة تبين سياسة الشدة التى اعتزم الحجاج أن ينتهجها مع أهل العراق ، فقد نشر بينهم حكمًا عرفيًا عسكريًا وأسرف فى القتل ، فكان يأخذ بالريبة والظنة ويقتل قوما ليرهب آخرين ، فإنه ماترك محتجًا على فعل إلا قضى عليه ، وما كان ينكر أنه أجرأ الناس على سفك الدماء .

ولما فرغ الحجاج من أهل الكوفة انتقل إلى البصرة ، وسلك نفس السبيل الذى سلكه فى الكوفة ، فخطبهم خطبة لا تختلف عن خطبته التى ألقاها فى الكوفة .

٥ — القضاء على ثورات الخوارج :

من أهم الصعوبات التى اعترضت الخليفة عبد الملك ، الثورات التى قام بها الخوارج الأزارقة ، وكانوا قد اشتهروا بحملاتهم العنيفة وبمفاجآتهم الليلية لأعدائهم ، وولى عبد الملك لقتالهم ، المهلب بن أبى صفرة[1] ولكنه استعمل الأناة ، ولم يتعجل أمر قتالهم ، وكان الحجاج إذ ذاك قد رحل من الكوفة بعد أن استخلف عليها عروة بن المغيرة بن شعبة ، وسار إلى البصرة ومنذ وصوله إليها ابتدأت المعركة ضد الخوارج الأزارقة ، وزعيمهم الشاعر المشهور قطرى بن الفجاءة . إذ أن الحجاج كتب إلى المهلب يعنفه على تباطئه فى قتالهم .

بدأت الحرب بين المهلب والأزارقة ، وفيها انهزم الأزارقة فى واقعة رامهرمز وجلوا عن العراق . ووالى المهلب زحفه حتى أجلاهم عن فارس أيضاً ، وكان الحجاج عقب جلاء الأزارقة عن الأقاليم التى كان لهم نفوذ فيها ، يرسل عمالا لجباية الخراج ، وما لبث الخليفة عبد الملك أن ولى المهلب خراج فارس للإنفاق منه على قتال الأزارقة . ويسر مهمة المهلب ما كان من أمر انقسام الأزارقة على أنفسهم فقد كانوا فى بادىء أمرهم فرقة واحدة ثم انقسموا

(١) المهلب من قبيلة الأزد (أو الأسد) ، وهى قبيلة كبيرة ، استقر بعض أفرادها فى عمان وهؤلاء أطلق عليهم أزد عمان وأقام بعضهم فى الحجاز ويقال لهم أزد سراة ، وهى قبيلة مشهورة فى دولتى بنى أمية وصدر بنى العباس ، وزادت شهرة المهلب بعد تلك الوقائع الحربية الهائلة التى خاض غمارها فى صدر التاريخ الإسلامى .

على أنفسهم : فالعرب التفوا حول قطرى زعيم الأزارقة[1] ، والموالى خرجوا عليه وعرف زعيمهم باسم عبد ربه الكبير ، وكان أنصار قطرى من العرب لا يتجاوز عددهم ربع هذه الأزارقة .

وهنا وجد المهلب الفرصة سانحة ، فحارب الأزارقة وحاصر بلدة جيرفت وكان فيها الخوارج من الفرس واشتد حصار المهلب للمدينة وهزم عبد ربه وأصحابه ، مما أدى إلى كسر شوكة الخوارج ولكن قطرى زعيم الخوارج من العرب ، سار إلى طبرستان ، فسير الحجاج جيشاً من أهل الشام بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي ، وهزم قطرى وقتل أثناء فراره بعد أن ظل نحو عشرين عاما زعيما للأزارقة ، لقب خلالها بلقب أمير المؤمنين ، ولم تجد نفعًا محاولات عبيدة ابن هلال ، الذى خلف قطرى فى الزعامة وحاصر بلدة قومس فقد قضى عليه سفيان كما قضى على قطرى ، وكان عبيدة آخر زعماء الأزارقة ، وبذلك قضى المهلب على الأزارقة وزعيمهم فى واقعة جيرفت .

وبعد أن تم القضاء على الأزارقة ، قاتل الخوارج الصفرية[2] الذين كان يتزعمهم شبيب[3] ، وأبلى الحجاج أحسن البلاء ، ولم تفت همة شبيب فى القتال فقد دل على جرأة نادرة على كثرة أعدائه وقلة أتباعه ، وحكم المنطقة التى أقاموا فيها فى الجزيرة ثم فى سهل العراق لمدة ثلاث سنوات وهزم جيوش الحجاج طوال هذه المدة الواحد تلو الآخر . زحف شبيب حتى أصبح على أبواب الكوفة ، ولكنه تراجع لكثرة جند العدو ، وما لبث أن هاجم

---

(١) كان نافع بن الأزرق أول زعيم للخوارج الأزارقة .

(٢) ظهر الخوارج الصفرية فى العراق ، ومن مبادئهم : عدم التفرقة بين الكبائر ، وجعل كل كبيرة سبباً فى الكفر .

(٣) نسب الخوارج الصفرية فى بادىء الأمر إلى صالح بن مسرح ، وخلفه فى زعامتهم شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى .

الكوفة بعد أن رحل منها الحجاج إلى البصرة ودخلها ، وكانت غزالة زوجة شبيب تحارب معه . وعلى أثر دخول شبيب الكوفة ، عاد إليها الحجاج مسرعًا ، ولكن فى الصباح خرج الحجاج ، إذ رأى أن يتراجع دون قتال ، وفى هذه المناسبة هجاه الشعراء بقولهم :

أسدٌ علىّ وفى الحروب نعامةٌ فتخاء[1] تنفر من صفير الصافر

ولكن القتال استؤنف بعد قليل بين الحجاج وشبيب ووقعت بين الطرفين عدة معارك ، من أهمها واقعة سوق حكمة عند الكوفة وواقعة دجيل ، وفيهما هزم شبيب وفر وغرق جزء من جيشه ، وبموته سنة ٧٧ هـ انحط شأن الخوارج .

٦ — فتنة ابن الأشعث :

وتفاقم خطر المشرق حين خرج عبد الرحمن بن الأشعث[2] على طاعة عبد الملك والحجاج . ذلك أن الحجاج كان قد ولى على سجستان عبيد الله ابن أبى بكرة ، وكان ملك كابل فى أرض سجستان قد ماطل فى دفع الأتاوة التى اعتاد أداءها للدولة العربية ، فأمر الحجاج الوالى ابن أبى بكرة بقتاله ، ولكن هذا الوالى قتله ، فجهز الحجاج جيشاً بلغ أربعين ألف مقاتل عرف بجيش الطواويس لحسنه وعظم استعداد رجاله ، وولى قيادته عبد الرحمن بن الأشعث ، فخرج من العراق وسار إلى الحدود الشرقية لقتال ملك كابل ، وكان ابن الأشعث شديد الزهو والحذر ، ولذا عنفه الحجاج واستبطأ الخطط الحربية التى رسمها للقتال بل رماه بالجبن . وكان عبد الرحمن حانقاً على الحجاج لشدته وقسوته . وكذلك كان الجيش . فعاد ابن الأشعث وجنده إلى العراق وعصوا

(١) فتخاء : شديدة الذعر والفزع .

(٢) هو ابن محمد بن الأشعث بن الليث بن الكندى ، من قبيلة كنده .

أمر الحجاج وخرجوا عليه دون عبد الملك ، واستوثق ابن الأشعث أن ملك كابل سيحميه فى حالة هزيمته ويأخذ بناصره .

ووقعت الحرب بين الحجاج وابن الأشعث فى منطقة البصرة ، حيث هزم ابن الأشعث فى واقعة الزاوية . ثم اتجه شمالا إلى الكوفة . وخشى الخليفة العاقبة ، فأرسل ابنه عبد الله وأخاه محمد بن رضوان لمفاوضة ابن الأشعث ، على أن يوليه أى إقليم يشاء على أن يسوى العداء بين أهل الشام وأهل العراق ، ويعزل الحجاج عن أساء إليه ، كما أن ابن الأشعث لم يقبل هذا الصلح ، ثم حدثت واقعة « دير الجماجم » سنة ٨٢ هـ وفيها هزم ابن الأشعث وفر ، وألقى بنفسه من حصن عال ومات وقبض على كثيرين من أتباعه ونكل بهم الحجاج [١] ، وبذلك انتهت حركة ابن الأشعث بالفشل .

وعلى أثر ذلك عظم سلطان الحجاج وهدأ المشرق . وبسط عبد الملك يده عليه ، وأضاف إلى أعمال الحجاج خراسان وسجستان وعمان ، وصار بذلك حاكما على نصف الدولة العربية . وضعفت ثقة الحجاج فى جند العراق وعول على جند الشام ، ولكى لا يخلط جند الشام بجند العراق ، ترك الكوفة والبصرة وأنشأ بلدة واسط [٢] ، وكان إنشاؤه ختاما للفتن التى قامت فى ذلك العصر [٣] .

٧ — استرداد إفريقية :

هذه الأحداث لم تشغل عبد الملك عما كان يدور فى إفريقية ، إذ أن البربر كانوا قد جمعوا جموعهم فى مستهل خلافته ، وهاجموا العرب فى القيروان وكانوا

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢٢٧ .

(٢) تقع واسط بين مدينتى الكوفة والبصرة . وقد سميت كذلك لتوسط موقعها بين هاتين المدينتين .

(٣) على ابراهيم حسن : الحجاج بن يوسف الثقفى ، بحث فى مجلة العلوم ، العددان الثامن والتاسع ، أكتوبر ونوفمبر ١٩٣٧ .

قليلين فهزموهم وقتلوا معظمهم ، كما قتلوا عقبة بن نافع والى إفريقية وسقطت القيروان في أيديهم . وقد أرسل عبد الملك جيشاً لاسترداد تلك البلاد سنة ٦٩ هـ ولكن البربر والرومان قضوا عليه ، كما أرسل جيشاً آخر على رأسه حسان بن النعمان ، استرد القيروان وقرطاجنة ، وهزم الرومان والبربر ، ومدّ النفوذ الإسلامى حتى شواطىء المحيط الأطلسى ، ولكن نهاية جهوده لم تكن موفقة لأن البربر استجابوا لدعوة امرأة أطلق عليها لقب « الكاهنة » . وملكوها عليهم ، واضطروا الجيش إلى الانسحاب إلى برقة ، ولقد ملكت الكاهنة خمس سنوات . وأخيراً أمد عبد الملك قائده حسان بن النعمان بمدد حربى سنة ٧٩ هـ ، فسار لاسترداد شمالى إفريقية ، وفشلت الكاهنة فى مقاومته وهزمت بعد أن خاضت موقعة هائلة على سفوح جبال أطلس . وقتلت فى تلك المعركة ، وبعد قتلها استطاع حسان أن يحكم إفريقية وأن ينشر السلام بين أهلها . .

تقدير عبد الملك :

كان عبد الملك أول من تجبر من الملوك ، وأظهر أبهة الملك بخلاف من سبقه من الأمويين ، وقد تجلى بأسه وجبروته حين منع الناس من الدخول عليه ومن التكلم بحرية فى حضرته . خطب عبد الملك الناس يوما فقال : « أيها الناس ! إنى والله ما أنا بالخليفة المستضعف[١] ولا بالخليفة المداهن[٢] ، ولا بالخليفة المأفون (الضعيف الرأى)[٣] ، فمن قال برأسه كذا قلنا بسيفنا كذا »[٤] . واشتهر عبد الملك بالحزم وأصالة الرأى كما كان أديبا فصيحا وشاعراً مجيداً .

---

(١) يقصد عثمان بن عفان .

(٢) يقصد معاوية .

(٣) يقصد يزيد بن معاوية .

(٤) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٨٨ .

وفى سنة ٨٦ هـ أراد عبد الملك أن يجعل ابنه الوليد ولياً للعهد دون أخيه العزيز ، وطلب إلى أخيه أن ينزل عن حقه بنفسه ، فرفض ، إلا أنه توفى . وتمكن بذلك عبد الملك من أخذ البيعة لابنه الوليد . وتوفى عبد الملك سنة ٨٦ هـ .

٦ – الوليد بن عبد الملك

٨٦ — ٩٦ هـ = ٧٠٥ — ٧١٥ م

اعتلى الوليد عرش الخلافة فى وقت كان أبوه قد قضى على الأزمات التى واجهت الدولة ، وثبت قواعد العرش الأموى بعد أن تزعزعت أركانها بعد موت يزيد ابن معاوية . وكان قد قضى كذلك على المنافسين أمثال ابن الزبير وابن الأشعث ، فانتهى بذلك أمر الفتن الداخلية ، ولذا تمتع المسلمون فى عهد الوليد بحياة هادئة مثمرة واتسعت أطراف الدولة الإسلامية شرقاً وغرباً . وعصره عصر التوسع والفتح ، لأنه فى السنوات العشر الذى قضاها فى الخلافة استؤنفت الفتوح الإسلامية التى وقفت منذ عصر عثمان بسبب اضطراب أحوال الخلافة ، وأضيفت إلى الدولة الإسلامية أقطار واسعة كان لها أعظم الأثر فى نشر المدنية الإسلامية والنفوذ العربى . وقامت الفتوح الجديدة على أساس كسب المال ، لا على أساس نشر الدين الإسلامى كما كان الغرض من الفتح أيام الخلفاء الراشدين . وتم فى عهده فتح : إقليم ما وراء النهر ، وحوض نهر السند ، وشمال إفريقية ، والأندلس . وقام بهذه الفتوح ثلاثة من القواد كان لهم فضل إتمامها وهم : قتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم ، وموسى ابن نصير .

الفتوح فى عهد الوليد ١ – اقليم ما وراء النهر :

طمع المسلمون منذ عهد عثمان بن عفان فى هذا الإقليم فأرسلوا إليه عدة غزوات لم تؤد إلى نتيجة ما، وكان مقسما إلى عدة وحدات سياسية مثل : سمرقند وبخارى ، وعلى رأس كل منهما ملك من الترك ، هم أشبه بمشايخ قبائل يحارب بعضهم بعضا ، مما نفع المسلمين فى غزوهم .

تم فتح هذا الإقليم على يد قتيبة بن مسلم ، وكان الحجاج قد ولاه خراسان . خرج قتيبة أولا إلى « بلخ » واحتلها سنة ٨٦ هـ ، ثم غزا « بيكند » سنة ٧٧ هـ ولكن أهلها انتهزوا فرصة غيابه فى الصغد وغدروا بعامله وقتلوه فاضطر إلى الرجوع إليهم وهزمهم وغنم منهم مغانم كثيرة بعد أن فتح المدينة عنوة ، وفى سنة ٨٨ هـ واصل فتوحاته فكان النصر حليفه فى بلاد كرمينية[١] ، وفى سنة ٨٩ هـ استولى على بخارى بعد عناء شديد واستخدم فى جيشه كثيرا من أهلها ، وفى سنة ٩٣ هـ استولى على خوارزم ، ثم فتح سمرقند بعد قتال شديد وبفتحها وطد مركزه فى بلاد لما وراء النهر وقرر مد حدود الدولة العربية فى أواسط آسيا ، وعبر نهر جيحون حيث التقى بجيش مؤلف من عشرين ألف مقاتل من بخارى وخوارزم وغيرهما ، وفى العام التالى سار إلى فرغانة وهو الإقليم المتاخم لبلاد تركستان ، ومنها تابع السير حتى وصل خجندة على نهر سيحون ولقى مقاومة ولكنه انتصر انتصارا باهرا[٢] ، وفى سنة ٩٥ هـ استولى على خوقند وقشغر .

لم يكتف قتيبة بما أحرزه من انتصارات وبما فتحه من بلاد ما وراء النهر ، بل مضى قدما يتابع فتوحاته ، وبينما هو فى الطريق جاءه خبر وفاة الخليفة الوليد

---

(١) بلدة من نواحى الصغد بين سمرقند وبخارى . ياقوت : معجم البلدان .
(٢) الطبرى جـ ١ ص ٩١ ، ابن الأثير جـ ٤ ص ٢٣٨ .

فلم يثنه ذلك عن مواصلة الغزو بل ظل فى سيره حتى قرب من حدود الصين ، وإذ ذاك أرسل إلى ملكها وفدا يعرض عليه شروط التسليم ، وبعد مفاوضات طويلة اضطر ملك الصين إلى أن يقدم له الخضوع ويدفع الجزية .

وهكذا أصبح هذا الإقليم كله تحت سلطان الدولة العربية . وسلك العرب فى معاملة أهل هذا الإقليم نفس السبيل التى سلكوها فى الأقاليم الأخرى التى فتحوها ، فشجعوا أهله على اعتناق الإسلام حتى اعتنقه كثير من الترك . وتتضح أهمية هذا الإقليم إذا علمنا أن كثيرين من علماء المسلمين من أمثال البخارى والفارابى والزندى والخوارزمى قد ظهروا فيه .

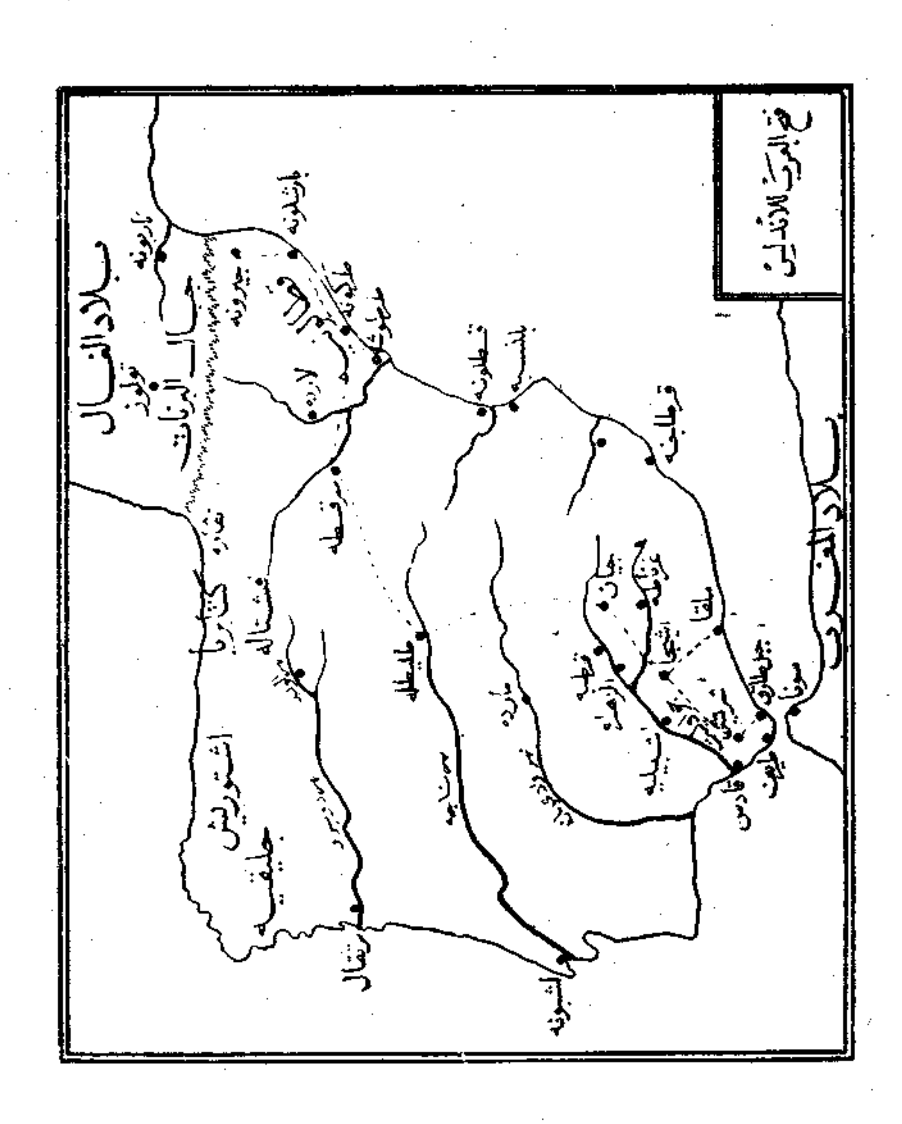
٢ — اقليم السند :

فتح هذا الإقليم محمد بن القاسم ، من أقرباء الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان عاملا على مكران . عهد إليه الحجاج فى غزو بلاد الهند ، لاعتداء بعض القبائل الهندية على العرب المقيمين هناك . فسار إليها سنة ٨٩ هـ وتمكن من احتلال أهم بلدانها حتى بلغ نهر السند ، وهناك التقى بملك السند ، حيث كان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة ، وانتهى القتال بهزيمة ملك السند وقتله . وبذلك استطاع محمد بن القاسم أن يمد فتوحه حتى وصل إلى الملتان فى جنوب بلاد البنجاب ودخلها[1] .

وكانت هذه البلاد وثنية ، ثم عم النفوذ الإسلامى بلاد الهند ، وتاخمت تلك البلاد الدولة العربية ووجد بذلك اتصال بين البلدين مما كان له أثر كبير ، فإن كثيراً من علوم العرب كالفلسفة والرياضيات نقلت من الهند واقتبست عنها .

---

(١) Muir : The Caliphate, its Rise, Decline and Fall, p. 353.



فتح العرب للأندلس
بلاد الغال
تولوز
ناربونه
جبال البرتات
جيرونه
بارشلونه
قطالونيه
لارده
طركونه
سرقسطه
كنتبريا
اشتوريش
جليقيه
قشتاله
برتقال
طليطله
بلنسيه
مارده
لشبونه
قرطبه
الزهراء
جيان
غرناطه
اشبيليه
استجه
ملقا
قرطاجنه
قادس
جبل طارق
طريف
بلاد المغرب

٣ – فتح شمال افريقية :

يعد موسى[1] بن نصير[2] بطل هذا الفتح . وكان هو ومولاه طارق بن زياد من البربر ، ويرجع السبب في غزو هذا الإقليم إلى أن العرب عولوا بعد فتح مصر على تقوية حدودهم الغربية والاستيلاء على بقية الساحل الإفريقي الشمالي . فخرج موسى بن نصير على رأس جيش قاصداً إفريقية ، فلما بلغها ضم إليه جيشاً آخر ، جعل على مقدمته طارق بن زياد ، وقاتل موسى البربر ، وبسط نفوذ الأمويين ونشر الإسلام في أرجاء بلاد المغرب ، حتى بلغ طنجة وهي قصبة تلك البلاد وأم مدائنها ، فحاصرها حتى فتحها وأسلم أهلها وقلد طارقا ولايتها[3] .

وقد لقي العرب في فتح تلك البلاد مشقات جمة ، لم يلقوها في فتوحاتهم الأخرى : إذ أنها بلاد جبلية يقيم فيها البربر من قديم الزمان ، وهو جنس ألف البداوة ومنذ القدم يعيش كما تعيش قبائل العرب محباً للحروب والغزو ، شديد التأثر بالدوافع الدينية إلى حد تصديق الخرافات والاعتقاد في الأوهام ، ولذا لقي العرب في حربهم معهم كثيراً من الصعاب لبسالتهم ولمساعدة الدولة البيزنطية لهم ومدها إياهم بالجنود والمال لقتال العرب .

استمر موسى في قتاله في بلاد المغرب حتى بلغ شاطىء المحيط الأطلسي وقضى على نفوذ الدولة البيزنطية في تلك الجهات إلى مدينة « سبتة » . ولقد أتبع موسى هذا النصر الحربي بالنصر الديني ، فقد أدخل البربر في الإسلام ونشر بينهم القراء يقرؤونهم القرآن ، وأصبحت المغرب منذ سنة ٩٠ هـ خاضعة

---

(١) ولي موسى البصرة في أوائل عهد عبد الملك ، وكان محبا لجمع المال .

(٢) كان نصير من السبي ، الذين أسرهم خالد بن الوليد ، ثم اتصل بالأمويين وأصبح من مواليهم .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٢٣٩ .

للدولة العربيـة . وهـكذا أصبح موسى شخصية عظيمة ، وذاعت شهرته في المغرب .

٤ — فتح الأندلس

بعد أن استقر أمر المسلمين فى بلاد المغرب ، اتجهت أنظارهم إلى أسبانيا التى كان قد نزل بها الوندال فى القرن الخامس الميلادى على أثر ضعف الدولة الرومانية وسميت بذلك وندلوسيا أى بلد الوندال ، وبعد ذلك نزل بها القوط الغربيون ، وكان المسلمون يسمونها الأندلس .

وكانت مساوىء الحكم القوطى فى بلاد الأندلس مما سهل أمر فتح هـذه البلاد أمام المسلمين ، ذلك أن الطبقات الممتازة من الأشراف ورجال الدين قد استأثرت فى العهد القوطى بكل المزايا ، فكانت معفاة من الضرائب كما كانت تضع يدها على معظم الأراضى ، بينما كان التجار مرهقين بالضرائب الفادحة ، وكان الزراع من العبيد هم الذين يقع عليهم عبء الحياة الثقيلة . ولما ثار نبلاء القوط والـكهنة على الملك « أخيلا » وولوا مكانه قائد الجيش القوطى « رودريك » Roderic ، انقسم الجيش القوطى إلى فريقين : فريق يشايع رودريك وآخر يعارضه ، وكان على رأس هذا الفريق الأخير أخيلا الذى حاول استرداد عرشـه المسلوب ، وقد كان هذا الفريق قوياً ، وازداد قوة حين انضم إليه الأمير جوليان حاكم « سبتة » الذى صد جيوش موسى بن نصير عنها .

وقد سنحت للعرب فرصة الإغارة على السواحل الأسبانية ، منتهزين فرصة استعانة الأمير جوليان بموسى بن نصير ضد الملك رودريك ، وذلك لما كان يضمره له من العداء ، واتصل جوليان بقوات العرب ، وأخذ يعدّ لهم وسائل الإغارة على أسبانيا والقضاء على رودريك ، ووصف جوليان لموسى ماجمعت بلاد الأندلس من شتى المنافع وهوّن عليه حال رجالها وذلك عقب عام ٩٠ هـ .

ورحب موسى بن نصير بدعوة جوليان ، واستشار الخليفة الوليد الذى تردد أولا ، ثم سمح له بمحاربة رودريك على أن يتبع طريق الحيطة والحذر ويتأكد أن جوليان لا يريد التغرير بالمسلمين . وقد أرسل موسى بن نصير ، طريفا بن مالك على رأس خمسمائة مقاتل سنة ٩١ هـ (٧١٠ م) ، فغزا بعض ثغور بلاد الأندلس الجنوبية بمساعدة جوليان وعاد بالأسلاب والغنائم .

وبعد ذلك سيّر موسى جيشاً كبيراً بلغ عدده سبعة آلاف معظمهم من البربر ، بقيادة مولاه طارق بن زياد حاكم طنجة سنة ٩٢ هـ ، وقد عبر هذا الجيش الخليج الفاصل بين إفريقية وبلاد الأندلس ، ونزل فى المكان الذى يسمى الآن « جبل طارق » ، ثم سار فى الولاية المجاورة وفرّ من قوات القوط التى اعترضته ، واتجه شمالا حيث انضمّ إليه خمسة آلاف مقاتل ووصل إليه مدد من موسى ابن نصير .

ثارت مخاوف المسلمين حين علموا بدنو جيش رودريك ، ولكن طارق خطبهم خطبته المشهورة : أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم إلا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام . قد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات لكم إلا ماتستخلفونه من أيدى عدوكم . وإن امتدت بكم الأيام على افتقادكم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم وتعوضت القلوب فى رعبها منكم الجرأة عليكم ، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة الطاغية . . . وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانا ... واعلموا إنى أول مجيب لما دعوتكم إليه ، وإنى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق فقاتله إن شاء الله [1] .

---

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١١٣ — ١١٤ .

والتقى الجيشان فى منتصف رمضان سنة ٩٢ هـ ، وكان الملك رودريك على رأس جيش يبلغ مائة ألف مقاتل وذلك على ضفاف نهر جوادى فى أسبانيا ، وانتصر جيش طارق على العدو انتصاراً باهراً ، وفر رودريك ولكنه غرق فى مياه النهر .

ويعزى هذا النجاح الذى أحرزه المسلمون فى هذه المعركة ، إلى مابذله جوليان من جهود فى استمالة كثير من جند رودريك إليه ، مما رجح كفة العرب وفرق شمل جيش رودريك(١) . وقد قسم طارق بن زياد جيشه بعد ذلك إلى أربع فرق : وجه ثلاثة منها نحو « ملقا » وغرناطة وقرطبة ، فى حين سار هو بنفسه على رأس الفرقة الرابعة نحو « طليطلة » ، عاصمة القوط واستولى عليها ، وكان طارق قد أرسل المغيث بن الحارث على رأس سبعمائة فارس إلى قرطبة واستولى عليها كذلك .

ولما سمع موسى بن نصير بانتصارات طارق ، دبت الغيرة فى نفسه وأرسل إليه أمراً بالتوقف ، ثم أعد جيشاً يبلغ عدده ثمانية عشر ألف مقاتل يتألف من العرب والبربر ، وسار به إلى الأندلس واستولى على إشبيلية ، وكانت من أعظم مدن الأندلس شأناً وأفخمها بناءاً وكانت حاضرة أسبانيا حتى غلب عليها القوط فاتخذوا طليطلة حاضرة لدولتهم ، وقد سار طارق حتى وصل إلى مدينة « ماردة » التى تمتاز بقصورها وكنائسها واستولى عليها يوم عيد الفطر سنة ٩٤ هـ .

والتقى موسى بطارق فى طلبيرة ، وأنبه على عصيانه الأوامر التى أصدرها إليه بالتوقف بل وضربه بالسوط ووبخه على استبداده برأيه ، وطالبه بالأموال والنفائس التى استولى عليها ثم سجنه . وقد استطاع طارق أن يتصل بالخليفة الوليد وشكا له سوء معاملة موسى بن نصير ، فكتب الخليفة إلى موسى يأمره بإطلاق سراح طارق ورده إلى عمله ، فرده موسى إلى قيادة المسلمين .

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٢٢ .

سارت قوات موسى وطارق من طليطلة : ففتحت أقاليم أرغونة ، وقشتالة ، وقطالونيا على الساحل الشرقى ، واستولت على مدن مهمةمنها سرقطة و برشلونة ، وأصبحت أسبانيا كلها حتى جبال البرانس فى أيدى المسلمين فى أقل من سنتين ، وذلك فيما عدا الأقاليم الجبلية فى الشمال الغربى التى تسمى جليقية ، وقد التجأ إليها أشراف القوط وكبراؤهم وصمدوا ضد التوسع الإسلامى ، وترك موسى أمر إخضاع جليقية إلى طارق وعبر البرانس إلى فرنسا وترك الجزء الجنوبى منها ، ولكن الخليفة الوليد مالبث أن دعاه إلى الكف عن التوسع ، فعاد موسى إلى أسبانيا ، وأخذ يوجه جهوده إلى إخضاع الجزء الشمالى الغربى منها ودخل جليقية واستولى على قلاعها . وأراد موسى متابعة الفتح والغزو ، ولكن الوليد استدعى موسى فى ذلك الوقت لأنه كان يخشى ازدياد نفوذه واستقلاله بتلك البلاد . ورحل موسى بن نصير إلى دمشق سنة ٩٦ هـ ، بعد أن ولى ابنه عبد العزيز على الأندلس كما ولى ابنه عبد الله إفريقية .

وهكذا تم فتح أسبانيا ، فامتدت حدود الدولة وازدهرت المدنية الإسلامية لتأثرها بالحضارة الأندلسية الزاهية ، وبذلك يعتبر عهد الوليد عهد التوسع والفتح فى الدولة الأموية .

تقدير الوليد :

كان عصر الوليد عصر عظمة ومجد للأمويين : فقد اتسعت أطراف الدولة العربية ، وبرزت مواهب قواد العرب ، كما ارتقت الفنون وازدهرت العمارة إذ أنشأ المسجد الأموى الباقى إلى اليوم فى دمشق[1] وأعاد بناء المسجد النبوى فى المدينة المنورة .

وتوفى الوليد سنة ٩٦ هـ بعد الحجاج بسنة واحدة .

(١) كان هذا المسجد فى الأصل كنيسة ، فاقتسمه المسلمون وجعلوا نصفه كنيسة للنصارى والنصف الآخر جامعا للمسلمين ، ثم اشترى النصف الذى جعل كنيسة ولكنه لم يضمه إلى مساحة المسجد.

٧ — سليمان بن عبد الملك بن مروان

٩٦ — ٩٩ = ٩١٥ — ٩١٨ م

سياسته :

ارتقي سليمان عرش الخلافة بعد أخيه الوليد طبقاً للنظام الذى كان قد وضعه عبد الملك بن مروان لولاية العهد . على أن سليمان قد غلبت عليه العصبية القبلية : فقد كانت أمه يمنية مثل يزيد بن معاوية ولذلك كان سليمان متعصباً لأخواله من اليمنيين ، وكان ذلك التعصب القبلى من عوامل سقوط الدولة .

أراد الوليد أن يجعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز من بعده ، وقد شجعه على ذلك الحجاج بن يوسف وقتيبة بن مسلم الباهلى ومحمد بن القاسم ، ولكن الوليد مات قبل أن ينفذ رغبته ، فحقدسليمان عليه . وكان الحجاج قد توفى قبل الوليد ، أما محمد بن القاسم وقتيبة فقد حلّ بهما غضب سليمان ويقال إنه لما ارتقى سليمان عرش الخلافة ولى يزيد بن أبى كبشة على السند وأمره بحبس محمد بن القاسم فحبسه فى بلدة واسط وانتهى أمره أخيراً بالقتل[1] . كذلك عزل سليمان ، قتيبة ابن مسلم ، وأساء معاملة موسى رغم كبر سنه وسوء صحته وفرض عليه مبلغاً كبيراً من المال وما لبث أن سجنه حتى مات ، كما أرسل إلى بلاد الأندلس من قتل ابنه عبد العزيز وعزل ابنه عبد الله عن شمال إفريقية ولكنه عفا عنه وسمح له بالتردد على مجلسه فظل على ذلك حتى مات فى حياة سليمان ، وهكذابدأ سليمان خلافته بالانتقام من قواد أخيه . على أن سليمان رغم ذلك كان يقدر الناس حق قدرهم ،

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ١٠٣ .

فقد أبى أن يسلم طارق بن زياد إلى موسى بن نصير بعد أن عفا عنه ، كما أنه كان يجالس العلماء من أمثال ابن شهاب الزهرى ، وقدّر عمر بن عبد العزيز حق قدره . وفى عهده ارتفع شأن أعداء الحجاج وخاصة أسرة المهلب ورئيسها يزيد ابن المهلب الذى ولاه سليمان على المشرق ، فسار إلى خراسان وغزا إقليمى طبرستان وجرجان .

حصار القسطنطينية :

استطاع سليمان فى مدة خلافته ، رغم قصرها ، أن ينفذ الحملة التى كان قد أعدها الوليد فى أواخر أيامه لفتح القسطنطينية ، فلم يتوان فى تجهيزها ومضى فى تنفيذ المشروع دون تردد ، وشجعه على ذلك أن القسطنطينية كانت فى حالة ضعف تام ، فأرسل سنة ٩٨ هـ قوة برية تبلغ ثمانين ألفاً إلى آسيا الصغرى تحت قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، كما أمّر عمر بن هبيرة قائد الأسطول العربى على القوة البحرية وأمره بالإبحار إلى القسطنطينية ، ورابط سليمان نفسه بقوة حربية عند « دابق » بالقرب من حلب ليمد الحملة بما يلزمها وقت الحاجة .

اجتاح مسلمة بن عبد الملك آسيا الصغرى ووصل إلى بلدة « عمورية » وأخذ فى محاصرتها ، وكان يتولى الدفاع عنها ليو الأزورى البيزنطى الذى عرف بمطامعه السياسة فى عرش بيزنطة ، فحاول الاستعانة بالعرب للوصول للملك ، ومن ثم دخل فى مفاوضات مع مسلمة ، ولم يكن مسلمة بالقائد الفطن ، فقد صدق ماتعهد له به ليو بأنه إذا ساعده على ارتقاء عرش الدولة البيزنطية فإنه يؤدى جزية سنوية للدولة العربية ، ورفع الحصار عن عمورية وسار إلى بلدة أبيدوس على ساحل آسيا الصغرى الغربى ، وسار ليو فى الوقت نفسه إلى القسطنطينية وأوهم أهلها أنهم إن جعلوه ملكا عليهم تمكن من صد غارة العرب لأنه قد تمكن من خديعة القائد

العربى ، فلم يشك أهل القسطنطينية فى قوله وجلس على عرش بيزنطة .

كان مسلمة إذ ذاك يرابط بجيوشه أمام القسطنطينية منتظراً أن يبر ليو بوعده ويرسل إليه الأموال ، وكان الأسطول العربى قد دخل مضيق القسطنطينية ورابط فى البسفور . ولما لم يف ليو بوعده صمم مسلمة على مداومة الحصار وأمر رجاله بزرع الأراضى وادخار المؤن والذخائر ، ولكن ليو تمكن من أن يدخل الغفلة مرة أخرى على مسلمة قائد الجيش الإسلامى . فأوهمه أن الروم قد علموا أنه لن يحاربهم مادام الطعام وفيراً ، فلو أحرق الطعام فإنهم يظنون أنه سيبادر إلى الحرب فيقدمون إليه فروض الولاء والطاعة ، وهكذا أمر مسلمة بإحراق المؤن دون أن يدرك نتيجة هذا العمل ، فلما اشتد حصار المسلمين للمدينة من البحر وهاجمها أسطول المسلمين ، استدرج ليو سفن المسلمين حتى فتكت بها النار الإغريقية ولم يبق معهم من المؤن والذخيرة مايساعدهم على مهاجمة المدينة الحصينة[1] .

وأقبل الشتاء على الجيش وقد نفدت أقواته بعد أن أحرقت ، واضطر الجند إلى أكل الدواب حتى جاءت الأخبار بوفاة سليمان فى صفر سنة ٩٩ هـ وتولية عمر بن عبد العزيز ، فعادت الحملة خائبة ، بعد أن أمرها الخليفة الجديد بالرجوع . وهكذا قدر لحملة سليمان على القسطنطينية الإخفاق .

ولا غرو فقد اشتهر سليمان بالضعف ، فقد نشر الفرقة والانقسام بين أفراد الدولة بعد أن شطرها إلى شطرين : يمنية ومضرية ، كما كان نهماً محباً للترف ، فلم يكن من المنتظر أن ينجح فى إنجاز مثل هذا المشروع الضخم .

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص ٢٤٦ .

٨ – عمر بن عبد العزيز

٩٩ – ١٠١ هـ = ٧١٧ – ٧٢٠ م

بيعته :

لما مرض سليمان بن عبد الملك عزم على مبايعة بعض أبنائه ، فنهاه أحد خاصته وأشار عليه أن يختار رجلا صالحاً [1] ، فاستشاره فى عمر بن عبد العزيز فأثنى عليه ، فكتب سليمان عهده ، ودعا أهل بيته وقال لهم : « بايعوا لمن عهدت إليه فى هذا الكتاب » ، ولم يعلمهم به فبايعوا ، ولما مات سليمان جمعهم ذلك الرجل الذى أشار بمبايعة عمر وكتم موت سليمان عنهم وقال لهم : « بايعوا مرة أخرى » فبايعوا ، ولما رأى أنه قد أحكم الأمر ، أعلمهم بموت سليمان فبايعوه ، ولم يتخلف عن بيعته إلا سعيد وهشام ابنا عبد الملك [2] . وقيل إن سليمان بن عبد الملك خبره ، فوجد أنه لم يكن من بين الأمويين من يصلح لهذا الأمر غيره : لورعه ، وتمسكه بأهداب الدين ، وحفظ العهود والمواثيق .

سياسته :

كان البون شاسعاً بين عمر و بين غيره من خلفاء بنى أمية ، حتى اعتبر حكمه : غرة فى جبين ذلك القرن الذى امتلأ بالزيغ عن الدين وتلطخ بالاستبداد وسفك الدماء [3] ، و يعد المسلمون خلافته كخلافة عمر بن الخطاب . ينتهى نسب عمر ابن عبد العزيز إلى مروان بن الحكم بن العاص بن أمية ، أما أمه فهى بنت عاصم بن

---

(١) هو رجاء بن حيوة .

(٢) الفخرى ص ١١٧ .

(٣) Nicholson : Lit. History of the Arabs, p. 209.

عمر بن الخطاب ، فلا عجب إذا اشتهر كجده بالتقوى والورع والعدل ، ومع أنه نشأ فى مصر مع أبيه ، إلا أن أباه بعثه إلى المدينة فاتصل بشيوخها وتعمق فى الفقه وبرع فى الحديث ، وولى الحجاز فى زمن عبد الملك بن مروان والوليد ، وتم على يده تجميل المسجد النبوى فى المدينة المنورة . وأبطل عمر سب على ابن أبى طالب على المنابر[1] ، وهى العادة التى كانت متبعة فى العصر الأموى ، وهذا حدا بالعلويين إلى الرضى عن خلافة عمر . وكان بلاطه مملوءاً بأهل الورع والتقوى ، حتى لم يكن للشعراء نصيب فى بلاطه .

اصلاحاته :

كان عصر عمر عصر سلم وإصلاح واستقرار ، بعيداً عن الفتن التى سادت الدولة الإسلامية منذ عهـد عثمان ، فقد عزل الولاة الذين عرفوا بالظلم وولى مكانهم الأكفاء والصالحين وجعلهم مسؤولين أمامه وحدّ من سلطتهم . ثم بدأ فى نشر الدعوة الإسلامية على النحو الذى كانت عليه أيام سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد وصل عمر بالوسائل السلمية فى نشر تلك الدعوة إلى ماعجز عنه أسلافه عن طريق القوة : فقدم لأهالى البلاد التابعة للدولة العربية هبات من المال ليدخلوا فى الإسلام ، وأرسل إلى بلاد المغرب عشرة من الفقهاء ليعلموا أهل البلاد أصول الدين الإسلامى وتعاليمه ، كذلك أرسل كتابا إلى ليو الثالث ملك الروم يدعوه فيه إلى الدخول فى الإسلام ، وكتب إلى ملوك الهند والسند وما وراء النهر والبربر بإفريقية لإقناعهم باعتناق الديانة الإسلامية على ألا يدفعوا جزية ولا يمس استقلالهم فاستجاب له أكثر هؤلاء الملوك ، وقيل إن عامله على خراسان أدخل فى الإسلام نحواً من أربعة آلاف شخص .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

وحاول عمر إصلاح حالة البلاد المالية بأن أمر عماله بأن يرفعوا الجزية عن كل من أسلم ، ولما شكا إليه بعض الولاة كثرة دخول الناس فى الإسلام ونقص إيرادات بيت المال نقصاً محسوساً تبعاً لذلك واستأذنوه فى فرض الجزية على من يعتنق الإسلام ، قبّح رأيهم ، ورد على أيوب بن شرحبيل الأصبحى والى مصر بكلمته الخالدة : ضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابياً ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه .

واستقدم عمر الجيش الذى كان يحاصر القسطنطينية ، فقد بعث بأوامره إلى مسلمة بن عبد الملك ليرفع الحصار عن القسطنطينية ، بعد أن ساءت حال المسلمين واستعصى عليهم فتح تلك المدينة .

حاول عمر إرضاء الشيعة والخوارج وإقناعهم بمناصرة الأمويين عن طريق الأدلة والحجج والبراهين ، ولم يحرك الخوارج ساكناً فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، ولما ولى عمر بن عبد العزيز ولاية العهد ظهر « بسطام اليشكرى » من بنى يشكر وكان يعرف باسم شوذب ، ولم يرد عمر أن يأخذ هؤلاء الخوارج الذين التفوا حوله بالشدة والقسوة ، فأرسل إلى شوذب كتاباً يقول فيه : « بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى بذلك منى ، فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان بيدك نظرنا فى أمرنا » . فكتب شوذب إلى عمر : « قد انفقت وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك ولم يستطع أن يرد على اعتراضهما فى شأن ولاية العهد ليزيد بن عبد الملك من بعده، فطلب إليهما أن يستمهلاه ثلاثة أيام ، ولكنه مات قبل مضى هذه المدة لأن بنى مروان دسوا له السم خوفا من أن يخلع يزيد وأن يضيع ما فى أيديهم من السلطان.

وفاته :

توفى عمر سنة ١٠١ هـ فى « دير سمعان » فى شمال الشام ، وسنه لا تزيد على تسع وثلاثين سنة ، بعد أن ولى الخلافة مدة سنتين وخمسة أشهر . وقد عدّه بعض المؤرخين من الخلفاء الراشدين وخاصة أنه رد المظالم التى ارتكبها بنو أمية ، لذلك نبشت قبور الخلفاء الأمويين بعد قيام الدولة العباسية إلا قبره لأعماله الجليلة التى قام بها فى سبيل رفع شأن الإسلام والدولة العربية .

ولكن للأسف لم يعمل بإصلاحات عمر بعد وفاته ، وسارت الأمور فى مجراها الأول من حيث تعصب القبائل العربية ، وازدياد أحوال الموالى سوءاً ، وانقسام الأسرة المالكة الأموية على نفسها .

٩ — يزيد بن عبد الملك

١٠١ — ١٠٥ هـ = ٧٢٠ — ٧٢٤ م

هو ابن الخليفة عبدالملك ، من زوجته عاتكة بنت يزيد بن معاوية . وقد اعتلى عرش الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز ، طبقاً للنظام الذى وضعه سليمان ابن عبد الملك ، وفى عهده تعرضت الدولة الأموية لبعض الأخطار ، فنجّاها منها وهزم الخارجين عليها .

الفتن الداخلية والخارجية :

سار يزيد على سياسة أخيه الوليد ، فإنه بعد أن أعلن الخوارج العصيان وهزموا الأمويين فى عدة وقائع ، ولى الكوفة مسلمة بن عبد الملك وأرسل إلى الخوارج سعيد بن عمرو الحريش فى جيش كثيف ، فتمكن من هزيمتهم وتشتيت شملهم .

وقامت فى عهد يزيد فتنة جامحة قادها يزيد بن المهلب ، وهو الذى ولاه

سليمان على المشرق ، وافتتح طبرستان ، فلما جاء عمر بن عبد العزيز طالبه بخمس الأموال التى جباها ، فعجز عن أدائها ، فسجنه فى جزيرة دهلك فى البحر الأبيض ثم نقل إلى حلب وظل فى السجن إلى أن مرض عمر مرض الموت ، ففر من محبسه معتزماً الثورة ، وذهب إلى البصرة وأسر واليها ، ثم واصل السير إلى الكوفة فانضم إليه خاصته كما انضم إليه الأزد ، وبذلك عظم أمره واشتدت سطوته . فبعث إليه الخليفة يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة وابن أخيه العباس ابن الوليد فى جيش عظيم ، فالتقى الجيشان واقتتلا قتالا شديداً ، وقتل يزيد ابن المهلب فى المعركة وتفرقت جموعه وفر إخوته إلى كرمان والسند ، ولكن يزيد بن عبد الملك تعقبهم ونكل بهم .

لم يقف الأمر فى عهد يزيد عند حد القضاء على الأخطار الداخلية ، بل أن الجيوش الإسلامية فى أسبانيا وجهت أنظارها من جديد إلى البلاد الواقعة شمال البرانس ، وتقدمت فى فرنسا بقيادة السمح بن مالك الذى ولى بلاد الأندلس (١٠٠ — ١٠٢ هـ) ، واخترقت جبال البرانس وزحف على مقاطعة بروفانس ثم أغارت على أكيتانيا وحاصرت تولوز . ولكن نهاية السمح كانت سيئة : لأن « بورد » دوق أكيتانيا قابله بجيش كبير وهزمه وقتله كما قتل معظم جيشه ، وعاد الباقون بقيادة عبد الرحمن الغافقى إلى مدينة ناربونه ، مما يدل على أن العرب وإن هزموا فى عهد يزيد بن عبد الملك فى فرنسا فإنهم لم يغادروها ، وظلت السلطة فى أيديهم فى الجزء الواقع منها شمال البرانس .

غير أن سوء أخلاق يزيد بن عبد الملك أضعفت هيبة الخلافة . فقد اشتهر باللهو والخلاعة والتشبيب بالنساء ، كما تجدد فى عهده الخلاف بين اليمنية والمضرية وأصبحت اليمنية من أعداء الدولة بعد أن كانت من أنصارها وصار العنصر المضرى حزب الأمويين ، وكذلك لم يأخذ بإصلاحات سلفه فقد نقض كل ما فعله عمر حين أمر بوضع الجزية عمن أسلم وجعل الخراج

على الأرض ، وفرض يزيد الجزية على من أسلم مما أدى فى النهاية إلى نتائج تعد على أعظم جانب من الخطورة .

وكانت وفاة يزيد فى شعبان سنة ١٠٥ هـ . وهو فى الثامنة والستين من عمره .

١٠ — هشام بن عبد الملك

١٠٥ — ١٢٥ هـ = ٧٢٤ — ٧٤٣ م

هشام هو ابن عبد الملك من زوجته المخزومية ، تولى عرش الخلافة سنة ١٠٥ هـ ، ولم يقم فى دمشق كما فعل أسلافه من خلفاء بنى أمية وإنما أقام فى الرصافة الواقعة شمالى شرق الشام . قضى مدة خلافته فى بحث حالة الموالى وفى إيجاد توازن بين اليمنية والمضرية وفى العمل على توسيع نطاق الدولة باستئناف الفتوح .

سياسته إزاء القبائل :

لم يكن موقف هشام بالنسبة للقبائل العربية ثابتاً بل كان مضطربا ، فقد لحظ هشام من بادىء الأمر ارتفاع شأن القيسية وانخفاض المضرية نتيجة لما حدث فى عصر سلفه يزيد . فأحب هشام أن يوجد التوازن بين الفريقين ، وافتتح عصره بتولية عمال من القيسية واليمنية : فولى على العراق خالد ابن عبد الله القسرى من قبيلة « قسر » وهى قبيلة ضعيفة ، وفى سنة ١٢٠هـ أخذت سياسة هشام تتغير بالنسبة للقبائل ، فتحول هشام عن اليمنية إلى المضرية وأصبحت الدولة تعول على الفريق الأخير ، فقد كان هشام محباً لجمع المال ، وكان عمال القيسية وهم من المضرية كالحجاج وزياد ، مهرة فى انتزاع الأموال على العكس من اليمنية ، كما أن هشاما تأثر بنسبه إذ كانت أمه قيسية .

التوسع والغزو :

امتاز عصر هشام بالتوسع فى الفتوح ، فقد أراد ولاة الأندلس أن يسيروا قدماً فى تنفيذ سياسة الفتوح فى فرنسا ، التى استؤنفت فى عهد يزيد بن عبد الملك وتوقفت على أثر مقتل السمح بن مالك . وقد غزا عنبسة بن سحيم الكلبى — الذى ولى على بلاد الأندلس فى أواخر عهد يزيد بن عبد الملك — بلاد الغال واستولى عليها ولكنه قتل أثناء عودته فاضطر العرب إلى التقهقر إلى ناربونة .

ولما ولى عبد الرحمن الغافقى حكم الأندلس وأصلح أحوالها وقوى الجيش ، خرج فى ثمانية آلاف مقاتل واستولى على أكيتانيا التى استعان دوقها بالفرنجة ، فقابله جيش يقوده شارل مارتل ، وحدثت بين العرب والفرنجة فى رمضان سنة ١٢٤ هـ واقعة تور أو بواتيه ، ودارت الموقعة ثمانية أيام وكاد النصر يتم للمسلمين ، ولكن فى اليوم التاسع دارت الدائرة عليهم ووجد العرب أنفسهم فى مركز حرج ، وانتهزوا فرصة الظلام وانسحبوا بعد أن أصيب عبد الرحمن بسهم أودى بحياته . وكان لهذه الموقعة أثر كبير فى سياسة الأمويين إذ لم يحاولوا بعدها الاستيلاء على بلاد الفرنجة وبدأوا يتراجعون إلى بلاد الأندلس .

الفتن والثورات :

واضطر عبد الرحمن الغافقى إلى ترك أسبانيا والذهاب إلى شمالى إفريقية ، حيث قامت الثورات ضد الحكم الأموى ، لأن العرب لم يعاملوا البربر معاملة تحمل معنى المساواة معهم ، فقد أكرهوهم على دفع الجزية وصاروا بذلك فى مستوى أقل من العرب . وساعدت هجرة كثير من الخوارج إلى بلاد المغرب إذ ذاك على إشعال نيران الثورات بها ، ولم يحاول هشام إصلاح حال البربر ، بل استخدم معهم أساليب القوة ، وسير جيشاً من جند الشام بقيادة

كلثوم بن عياض القشيرى ، ولكنه هزم فى واقعة بقدورة شمالى إفريقية وعدت أعظم هزيمة لقيها العرب .

وفى أيام هشام ، خرج زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على ، الذى تنتسب إليه طائفة الزيدية ومن كبار أهل البيت وكان يمنى نفسه بالخلافة ، وقد عرف هشام ذلك عنه . وأراد زيد الذهاب إلى المدينة ليتخذها مركزاً له وسار فعلا فى طريقه إليها ، ولكن أهل الكوفة تبعوه وكانوا زهاء خمسة عشر ألفاً وأغروه بالرجوع إليها فرجع ، وهناك أقبلت الشيعة عليه وانضموا إليه كما انضم إليه أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وأهل خراسان والرى وجرجان والجزيرة ، وإذ ذاك أعلن زيد حقيقة مراميه ، والتقى بيوسف بن عمر الوالى الأموى ودارت بينهما معركة حامية ، أبلى فيها زيد بلاء حسناً وقاتل قتالا عنيفاً ولكنه أصيب بسهم أرداه قتيلا[1] .

وثار فى عهد هشام على الدولة الأموية ، الحارث بن سريج التميمى ، وذلك لأن هشاماً فاجأ الموالى بضريبة خراجيـــــة لا قبل لهم باحتمالها ، وكان الحارث يزعم أنه المهدى الذى بعثه الله لتخليص المضطهدين والأخذ بناصر المظلومين ، وقد استغل الحارث الكراهية التى كان يضمرها الموالى للدولة الأموية ، فجمع حوله عدداً كبيراً منهم كما جمع عدداً من العرب الناقمين ، واستطاع أن يستولى على المدن الواقعة على شاطىء نهر سيحون ، ولكن أسد ابن عبد الله القسرى الذى تولى خراسان فى عهد ولاية أخيه خالد على العراق استردها منه واضطره إلى الانسحاب إلى بلاد ما وراء النهر سنة ١١٨ هـ ، وانضم الحارث بعد ذلك إلى الأتراك أعداء العرب ، ولكنه لم يفز بطائل لأن نصر بن سيار ولى أمر خراسان سنة ١٢٠ هـ وكان من الولاة الأقوياء

---

(١) حسن إبراهيم حسن : الفاطميون فى مصر ص ٤٣ — ٤٤ .

الموالين للعرش الأموى ، فاستطاع أن يوطد دعائم حكم الأمويين فى بلاد ما وراء النهر سنة ١٢٣ هـ[1] .

• • •

يعد هشام من مشهورى خلفاء بنى أمية ، بلغت مدة خلافته عشرين عاما ، اتصف خلالها بالدقة والإخلاص فى العمل . ولكن أحوال البلاد ظلت فى عهده تنتقل من سوء إلى أسوأ ، نتيجة ذلك السخط العام على السياسة الأموية فى المشرق ، وخاصة لإعادة فرض الجزية على المسلمين بعد أن كان الخليفة عمر بن عبد العزيز قد ثبت إلغاءها ، وكان انقسامُ المسلمين إلى موال وعرب وإلى يمنية ومضرية داعياً إلى إيقاف حروب الفتح والتوسع .

وكانت وفاة هشام فى شهر ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ ، فى الرصافة ، وبوفاته بدأ الضعف يدب إلى جسم الدولة الأموية .

١١ — الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثانى)

١٢٥ — ١٢٦ هـ = ٧٤٣ — ٧٤٤ م

لم يمتد حكم الوليد بن يزيد بن عبد الملك أكثر من سنة واحدة ، وفى عهده أسرعت الدولة ناحية الانحلال ، وكان أسوأ بنى أمية سيرة ، أدمن على شرب الخمر وعرف بالجور والظلم وهو لا يزال ولى عهد الدولة . ولما وصل إلى الخلافة ، بالغ فى إظهار سروره بموت هشام لأنه كان قد أراد منعه من ولاية العهد ، ونكل بأولاد هشام وبكل أموى فكر فى منعه من الوصول إلى الخلافة وسجنهم وعذبهم ، ولذلك انقسمت الأسرة المالكة على نفسها انقساما شنيعا ، وزاد هذا

---

(١) فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ص ٦١ — ٦٣ .

الانقسام أن الوليد حاول أن يجعل الخلافة لابنيه الصغيرين مع وجود الراشدين من أسرته ، فتصدى له يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، مما زاد الأمر فسادا وأدى إلى سخط بنى أمية عليه .

وسلك الوليد مسلك هشام من حيث التعصب للقبائل ، وكان هشام قد ناصر القيسية المضرية على اليمنية . واتبع الوليد هذه السنة فمال إلى القيسية وعادى اليمنية ، فكان هذا خروجا على التقاليد المرعية ، إذ كان كل الخلفاء حتى سنة ١٢٠ هـ يعولون على اليمنية .

وقد قتل الوليد بقرية من قرى دمشق فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، بسبب قبح سيرته وسوء معاملته لأكابر أهل بيته ورجالات دولته ، فاجتمعوا وهجموا عليه ، فلما أحس بهم دخل داره وفتح المصحف وقال : يوم كيوم عثمان ابن عفان[1] . ثم تقدم إليه يزيد بن الوليد بن عبد الملك وقتله ، وكانت مدة خلافته سنة وشهرين وأياما .

١٢ — يزيد بن الوليد بن عبد الملك

جمادى الآخرة — ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ

جاء بعد الوليد ، يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، ومكث فى الخلافة ستة أشهر ويختلف عن سابقه فى : أنه كان محبوبا لدى المتدينين فقد كان يزيد ورعا تقيا على عكس الوليد ، وأغضب الوليد اليمنية فى حين أن يزيد اكتسب ودهم بأن عزل ولاة القيسية وولى مكانهم اليمنية ، ومع ذلك فقد أخذ عليه بعض العامة ميله إلى القدرية أو المعتزلة التى عظم شأنها إذ ذاك وكان لها آراء فلسفية ولعل ميل الخليفة يزيد إلى القدرية يرجع إلى سعة ذهنه فى المسائل الفلسفية .

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٢١ — ١٢٢ .

وكان تحزب يزيد لليمنية دون المضرية وميله إلى طائفة المعتزلة ، داعيا إلى كرهه . وقد مات فى ذى القعدة سنة ١٢٦ هـ تاركا الخلافة لأخيه إبراهيم ولـكن لم يعترف بسلطان إبراهيم ، ولذا لم يذكر اسمه بين الخلفاء الأمويين وإنما يذكر بعد يزيد هذا مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، ولم يمكث إبراهيم ابن الوليد فى الخلافة أكثر من شهرين .

١٣ — مروان بن محمد

١٢٧ - ١٣٢ هـ = ٧٤٤ - ٧٤٩ م

لما بويع إبراهيم بن الوليد لم تأت بيعته بطائل ، ولم يلبث مروان بن محمد أن سار إليه وخلعه ، وهرب إبراهيم من دمشق فظفر به مروان وقتله وصلبه وقتل من مالأه ومن بينهم العزيز بن الحجاج ويزيد بن خالد القسرى ، وحينئذ اشتعلت نار العصبية بين المضرية واليمنية ، وتعصب مروان بن محمد للمضرية على اليمنية ، ولذلك انصرفت اليمنية عنه ومالوا إلى الدعوة العباسية[1] وبويع مروان فى دمشق فى شهر صفر سنة ١٢٧ هـ ، وهو آخر خلفاء بنى أمية .

وفى عهد مروان ، اشتدت الثورات التى قام بها اليمنية ضد الحكم الأموى فى كل أنحاء الشام وفى العراق ، إلا أن مروان بمهارته الحربية التى اشتهر بها وبإخلاص القيسية له استطاع أن يخمد تلك الثورات الواحدة بعد الأخرى .

وكانت الحالة فى العراق قد بلغت النهاية القصوى من الفساد ، ففيها تطاحنت الأحزاب السياسية كالخوارج والعلويين ، بل ظهر إذ ذاك الساخطون من بنى أمية ، ولـكن بشكل غير منظم . وكانت أعظم الفتن فى العراق فتنة الخوارج فقد سار رئيسهم الضحاك بن قيس إلى الموصل ، وكان هذا الخارجى

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١١٣ .

يسعى إلى الخلافة ، فسار الخليفة لقتاله ، وحدثت بينهما واقعة كبرى قتل فيها الضحاك . وتلا ثورة الخوارج ظهور العباسيين فى خراسان ، مما هزّ الدولة الأموية هزاً عنيفا وقرّب من نهايتها ، وقضى عليها بعد قليل .

سقوط الأمويين

على أن العامل الهام الذى أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعضعها بشكل جلى ، ما كان من تعصب الأمويين للعرب مما أدى إلى خروج الموالى على الدولة الأموية ، وهم غير العرب الذين دخلوا فى الإسلام عقب الفتح العربى فى فارس ومصر والمغرب ، وما لبث هؤلاء الموالى أن أصبحوا أعداء العرب لتفضيل العرب أنفسهم عليهم وتمتعهم بحقوق لم يتمتع بها الموالى[1] ، لذلك كان الموالى ينتهزون كل فرصة ليكيدوا للدولة الأموية وظهروا مع كل خارج على الأمويين ولم تكن حركاتهم منظمة ، ولكنها اشتدت فى أواخر العهد الأموى حين فسدت الأحوال بشكل واضح ، واستمرت الحروب بين الموالى والدولة الأموية ، مما كان له أكبر الأثر فى نجاح الدعوة العباسية حيث احتضن دعاة العباسيين قضية الموالى وأيدوهم ضد بنى أمية .

ولا يقل عن ذلك أهمية ، ما كان من انصراف بعض خلفاء بنى أمية كيزيد ابن معاوية ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك إلى اللهو والمجون والخلاعة ، حتى ضعفت هيبة الخلافة لضعف أخلاقهم وسوء تصرفاتهم .

ومما قوض أركان الدولة وعجّل بزوالها ، ما كان من تولية العهد لأكثر من واحد

---

(١) من بين الحقوق التى حرم منها الموالى فى عهد الأمويين : أنهم لم يحصلوا على عطائهم الذى يستحقونه نظير التحاقهم بالجيش كالعرب ، ولم يكن يسمح لهم بركوب الخيل أثناء القتال ، وقصر التحاقهم بالجيش على فرقة المشاة ، وحتم عليهم أن يكون لهم مسجد خاص يؤدون فيه الصلاة وجبانة خاصة يدفنون فيها موتاهم ، كما كان العربى لا يرضى أن يزوج ابنته من مولى .

مما أدى إلى جلب العداوة والخصام وإحداث القطيعة والانقسام بين أفراد البيت المالك الأموى ، وانتهى الأمر إلى تدهور الدولة وسقوطها ، وظهر ذلك بوضوح فى عهد خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان والوليد بن عبد الملك ابن مروان .

وهزّ استقرار الدولة وهد كيانها ، ظهور روح العصبية بين القبائل ، ويتبين خطر هذا التنافس القبلى الذى ظهر بشدة فى الدولة الأموية عقب وفاة عمر بن عبد العزيز : من أن يزيد بن عبد الملك أخذ جانب المضرية حتى أصبح العنصر اليمنى ضعيفا ، بينما لم تكن لهشام بن عبد الملك سياسة ثابتة إزاء كل من المضرية واليمنية إذ أنه بعد أن انحاز إلى اليمنية ورجحت كفتهم تحول عنهم إلى المضرية وعين من بينهم ولاة ، ولما جاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك تحيز للمضرية لأن أمه كانت مضرية مما أثار سخط اليمنية ودبروا المكائد لقتله وتم لهم ما أرادوا ، وانحاز يزيد بن الوليد إلى اليمنية لأنهم هم الذين ساعدوه على الوصول إلى الخلافة ، وأخذ اليمنيون ينتقمون من المضرية الذين ثاروا فى حمص وفلسطين والأردن ، ولكن الخليفة يزيد تمكن من التغلب عليهم ، وتعصب مروان ابن محمد للمضرية فثارت اليمنية ولكنه تمكن من إخماد ثوراتهم . وأصبح بذلك كل خليفة يعتمد على شيعة تؤيده للوصول إلى مآربه فى الخلافة .

وقد أعطت تلك القلاقل والاضطرابات الدعوة العباسية فرصة للظهور وتقوية دعائمها وتثبيت أركانها ، إذا شغل مروان بإخماد الفتن حتى باغته العباسيون وقتلوه ، وبمقتله قضى على الدولة الأموية .

* * *

وهكذا زالت الدولة الأموية بعد أن حكمت نحو تسعين عاما ، كان العنصر العربى خلالها هو عمادها ونصيرها وصاحب السلطان المطلق فى تصريف شئونها .

وفيها ظهر ولاة على جانب عظيم من الكفاية وقوة الشخصية كعمرو بن العاص وزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف وغيرهم . كما حكمها خلفاء أقوياء كمعاوية الأول وعبد الملك بن مروان وابنه الوليد وهم الذين أقاموا على دعائم متينة وأظهروا أبهة الملك وابتدعوا أنظمة للحكم لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وأعادوا عهد الفتح والغزو على نحو أعاد إلى الأذهان عهد عمر بن الخطاب ، لولا ظهور خلفاء ضعاف اتسموا بذميم الصفات وظهرت خلال عهودهم الفتن وشبت الثورات ، مما أدى فى النهاية إلى اضمحلال تلك الدولة ثم انهيارها وقيام الدولة العباسية على أنقاضها .

الباب الثالث

الدولة العباسية

العصر العباسى الأول — العصر العباسى الثانى

١٣٢ — ٦٥٦ هـ = ٧٥٠ — ١٢٥٨ م

انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين

يمكن اعتبار عهد مروان بن محمد (١٢٧ — ١٣٢ هـ) آخر خلفاء الأمويين، بدء سقوط الدولة الأموية وانهيارها والتمهيد لقيام الدولة العباسية. ففى ذلك العهد شبت الثورات ضد الحكم الأموى فى أنحاء الشام ودبت الفوضى فى العراق. وكانت أعظم الفتن فى العراق فتنة الخوارج بزعامة الضحاك بن قيس الذى سار لى الموصل، يسعى للوصول إلى الخلافة، ورغم أنه قتل، فإن الدولة الأموية أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الانهيار.

ولم يكد مروان ينتهى من قتال الخوارج، حتى بلغه نبأ ظهور العباسيين فى خراسان التى تقع شرق بلاد فارس. وساعد هؤلاء على الظهور، فساد أحوال الشام والعراق، وانقسام القبائل اليمنية والمضرية على بعضها، وتفكك الأسرة المالكة الأموية وسوء علاقات أفرادها بعضهم مع بعض. وانتقلت الحالة من سىء إلى أسوأ، حين ولى أمور الدولة خلفاء من أصحاب السيرة السيئة، أدمنوا الشرب وحكموا البلاد بالعسف والجبروت. وتصدعت أركان الدولة، حين نزل

خلفاؤها إلى مستوى التعصب الحزبى والقَبَلى وعجزوا عن صد تيار الانقسام بين القبائل .

ولـكن العامل الهام الذى أدى إلى سقوط الدولة الأموية وتضعضعها فى عصر مروان بشكل جلى ، ما كان من انقسام المسلمين إلى عرب وموال وهم المسلمون من غير العرب . وعداء الموالى لتلك الدولة وقيامهم ضدها ، لحرمانهم من الحقوق التى تمتع بها العرب ، فأصبح الموالى بذلك فى مستوى منحط ، و بينما الحرب بين الموالى والأمويين على أشدها ، انتهز دعاة العباسيين ذلك الظرف ونصروا الموالى . وصارت الحركة التى قام بها العباسيون لنيل الخلافة ، ما هى إلا حركة الموالى ضد العرب ، لأن العباسيين اعتمدوا على الموالى باعتبارهم حزبا كبيراً ساخطاً على الحـكم الأموى .

بدأت طلائع الدولة العباسية تظهر ، منذ أن بدأ أبو مسلم الخراسانى سنة ١٢٩ هـ — أى قبل سقوط الدولة الأموية بثلاث سنوات — ينشر الدعوة للعباسيين فى خراسان . وتداعت الدولة ، حين عقد فى الحجاز فى أواخر العصر الأموى مؤتمر ضم أقطاب آل هاشم من العلويين والعباسيين ، وتناقشوا فى الوسائل التى تؤدى إلى القضاء على الخلافة الأموية بعد أن اشتد البلاء بالمسلمين على خلفائهم ونظروا فيمن يرشح للخلافة إذا نجحت مساعيهم . فوقع اختيارهم على أحد الحاضرين وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية . ولـكن الخلافة لم تسند فيما بعد إلى هذا العلوى ، بل أسندت إلى رجل من العباسيين هو أبو العباس . ولم يعدل العلويون بعد وصول العباسيين إلى الخلافة عن المطالبة بدعواهم وظلوا يناضلون و يكافحون ابتغاء الوصول إليها فى غير طائل ، واضطهدهم العباسيون كما اضطهدهم الأمويون من قبل .

وكان ذلك التحول من الأمويين إلى العباسيين والقضاء على محاولات العلويين فى إقامة خلافة علوية ، راجعاً إلى جهود أبى مسلم الخراسانى ، الذى وجد فى الحالة السيئة التى كانت فى خراسان ، فرصة سانحة ، فأذكى

نيران الفتن ضد الأمويين ، وكللت جهوده فى هذا السبيل بالنجاح بمساعدة الموالى الذين تدفقوا من كل جانب على خراسان وانضموا إلى دعاة العباسيين والتف حول أبى مسلم مائة ألف من الموالى . وتمكن من بذر بذور الشقاق بين أنصار بنى أمية النازلين فى خراسان ، واستطاع أن يرابط عدة أشهر بظاهر مدينة مرو حاضرة خراسان ، وأن يستميل اليمنية أعداء الأمويين فى ذلك الإقليم ، وتمكن من الاستيلاء على مرو . وتخلص من شيوخ القبائل الذين كانوا ينازعونه السيادة وقتلهم عن آخرهم ، وذاع صيت أبى مسلم ، وبعث نصر بن سيار الوالى الأموى فى خراسان عدة رسائل متتابعة إلى مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين مستغيثاً ، فلم تأته نجدة ، وأخيراً هزم نصر وفر ثم مات عند مرو .

وكانت الدعوة إلى انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين سرية فى بادىء الأمر ، ثم انتقلت إلى خراسان ، وكونت فيها جمعية سرية ، قوامها إثنا عشر رجلا كان يطلق عليهم إسم النقباء ، وعدد أعضائها سبعون داعياً انتشر معظمهم فى زى التجار . وظلت الدعوة سرية ، حتى وقع فى يد مروان بن محمد ، خطاب مرسل من إبراهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس إلى أبى مسلم الخراسانى يأمره فيه بتشديد الوطأة على من يتكلم العربية فى خراسان ، لأن وجود العرب فى خراسان فى نظره سواء كانوا يمنية أو مضرية من شأنه أن يؤدى إلى فشل الدعوة العباسية ، ونصحه بالتنكيل بكل من يتهمه بالعمل ضد الدعوة العباسية ، وزج بإبراهيم الإمام فى سجن حران شمال الشام ، وقتل مسموماً فى النهاية .

وتولى الدعوة للعباسيين من بعده أبو سلمة الخلال ، واتخذ الكوفة الكوفة مركزاً لدعوته لأنها بلد شيعية ، وسار أبو العباس (السفاح فيما بعد) إلى الكوفة ومعه كبار بنى هاشم من ولد العباس ، ومن بينهم أخوه أبو جعفر

(المنصور) وابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، ومن كبار بنى هاشم أيضاً عبد الله بن على العباسى عم السفاح والمنصور . وبعد سنتين هزم ابن هبيرة القائد الأموى بظاهر الكوفة وأرغم على السير إلى واسط التى تقع بين مدينتى الكوفة والبصرة جنوبى العراق ، ونزل أبو سلمة فى أوائل سنة ١٣٢ هـ بالكوفة ، وكان أبو العباس وأخوه أبو جعفر مختفيين فى هذه المدينة قبل ذلك بزمن يسير ، وقد هربا إليها بعد مقتل إبراهيم الإمام ، واهتم أبو سلمة بأمرها ، وأبقاهما عدة أسابيع ، دون أن يكشف أمرهما ودون أن يبايع أحدهما بالخلافة ، مما أوجد الريبة فى نفوس العباسيين ، وجعلهم يظنون أن أبا سلمة يعمل على تحويل الخلافة إلى رجل من العلويين ، ولكن أشياع العباسيين أخرجوهما من مخبئهما وبايعوا أبا العباس ، وفى أواخر سنة ١٣٢ هـ رفع العلم الأسود على حصون دمشق ، وكان ارتفاعه يعنى سقوط الدولة الأموية وزوالها نهائياً .

وانتقلت جيوش العباسيين عقب ذلك من خراسان إلى العراق ، وتمكنت من أن تأخذ مدنها الكبرى مدينة تلو مدينة ، ووجد مروان نفسه بجيوشه على نهر الزاب فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ هـ ، وكان جيشه منقسماً على نفسه فى حين كان الموالى أعداؤه متحدين ، فدارت الدائرة على مروان . وقد عهد أبو العباس إلى عمه عبد الله بن على بمقاتلة الخليفة الأموى مروان بن محمد ، فتبعه عبد الله حتى أوصله إلى نهر الزاب الصغير ، وسار مروان منهزما إلى الموصل وعبر الفرات . فاضطره عبد الله إلى الهرب إلى فلسطين والأردن ، ثم فر إلى مصر حيث تعقبته جنود العباسيين وقضت عليه فى بلدة بوصير من أعمال الفيوم وأرسل رأسه إلى السفاح فى الكوفة[١] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ١٠٦ — ٢٠٨ .

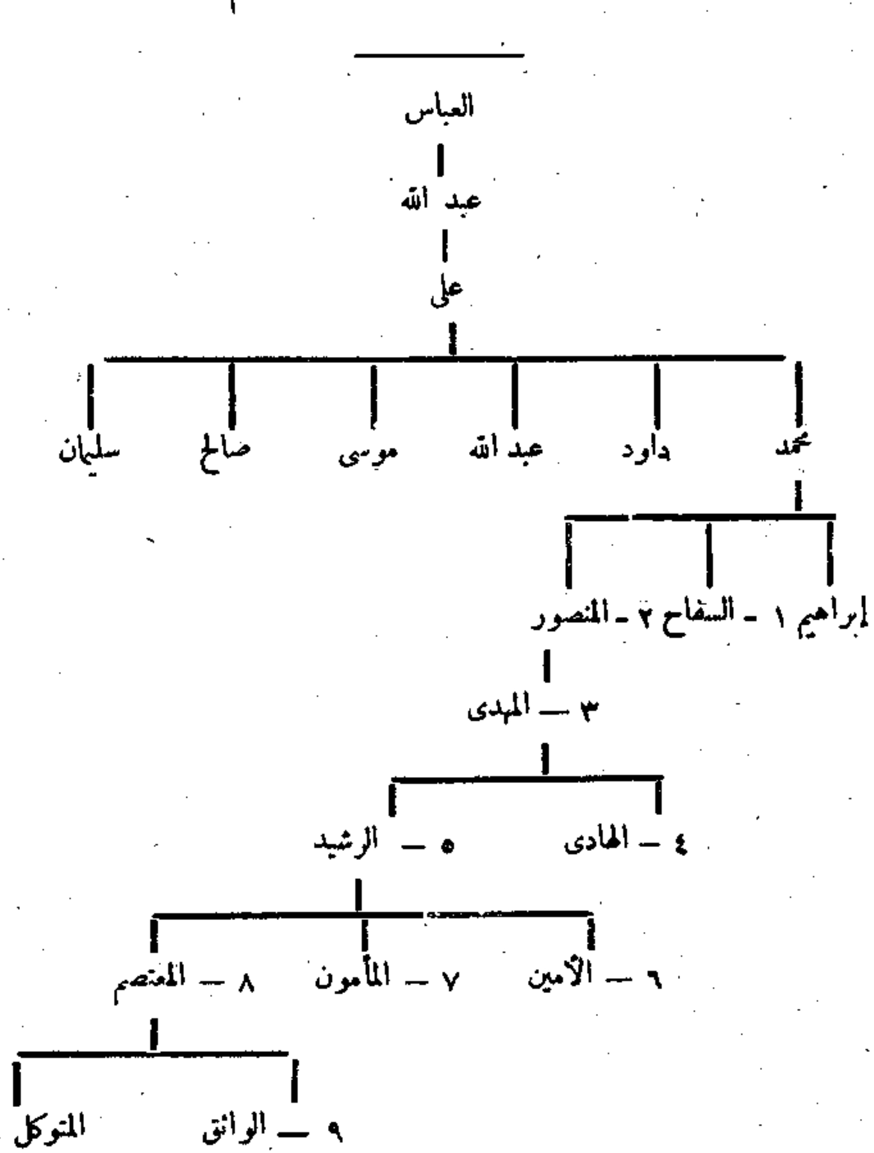
بذلك انتهى حكم الأمويين وقامت على أنقاضهم دولة العباسيين التى حكمت العالم الإسلامى زهاء خمسة قرون . وكان خلفاؤهم من السفاح إلى الواثق رجالا عظماء ، ماعدا الأمين فإنه لسوء حظه لم يساير هؤلاء فى عظمتهم ومقدرتهم السياسية ، واعتبر العصر العباسى الأول وحدة منسجمة متناسقة ، إذ لم يكن لكل خليفة سياسة شخصية ، بل سار الجميع على سياسة واحدة ، وكانت الحوادث الكبرى التى وقعت فى ذلك العصر تسير كلها فى تيارات عامة كإسقاط العرب وإيثار الفرس عليهم ، ثم تشجيع الترك على الفرس والعرب معاً ، ونهضة العلم والأدب ، وظهور حرية الفكر فى البحث والجدل والمناظرة ، وتقريب العلماء والأدباء والمغنين ، وترقية الفنون الجميلة كالعمارة والشعر والموسيقى . وهو على الجملة يعد العصر الذهبى للإسلام.

بدء ونهاية حكم العباسيين الأول :

	اسم الخليفة	بدء الحكم ونهايته
١ —	السفاح	١٣٢ — ١٣٦ هـ = ٧٥٠ — ٧٥٤ م
٢ —	المنصور	١٣٦ — ١٥٨ هـ = ٧٥٤ — ٧٧٥ م
٣ —	المهدى	١٥٨ — ١٦٩ هـ = ٧٧٥ — ٧٨٥ م
٤ —	الهادى	١٦٩ — ١٧٠ هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦ م
٥ —	الرشيد	١٧٠ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩ م
٦ —	الأمين	١٩٣ — ١٩٨ هـ = ٨٠٩ — ٨١٣ م
٧ —	المأمون	١٩٨ — ٢١٨ هـ = ٨١٣ — ٨٣٣ م
٨ —	المعتصم	٢١٨ — ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ — ٨٤٢ م
٩ —	الواثق	٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م

أولا — العصر العباسى الأول

١٣٢ — ٢٣٢ هـ = ٧٥٠ — ٨٤٧ م



١ – أبو العباس السفاح

١٣٢ — ١٣٦ هـ = ٧٥٠ — ٧٥٥ م

ماذا يقصد بلفظ « السفاح » ؟

اعتلى أبو العباس أول الخلفاء العباسيين عرش الخلافة فى ٣ ربيع الآخر سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م) ، وخطب فى صبيحة اليوم التالى لخلافته خطبة أشاد فيها بفضل آل محمد ، وندد بالأمويين لاغتصابهم الخلافة ، ولما اقترفوه من آثام وذنوب ، وأطنب فى مدح أهل الكوفة وزاد فى أعطياتهم لإخلاصهم وولائهم لبيت العباس[1] . وختم خطبته بقوله : « أنا السفاح المبيح ، والثائر المنيح » .

قال السفاح : « ... زعمت السبئية الضلال ، أن غيرنا أحق بالرياسة والسياسة والخلافة منا ، فشاهدت وجوههم . بِمَ ولِمَ أيها الناس ؟ وبنا هَدَى الله الناس بعد ضلالتهم . . . حتى عاد الناس بعد العداوة أهل تعاطف وبر ومواساة فى دينهم ودنياهم . فتح الله ذلك منةً ومنحةً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فلما قبضه الله إليه ، قام بذلك الأمر من بعده أصحابه ، وأمرهم شورى بينهم ، فعدلوا فيها ، ثم وثب بنو حرب ومروان فابتزوها ، وتداولوها بينهم ، فجاروا فيها ، واستأثروا بها ، وظلموا أهلها ، فأملى الله لهم حيناً حتى آسفوه (أغضبوه) ، فلما آسفوه انتقم منهم بأيدينا ، وردّ علينا حقنا . . . وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله . . . يا أهل الكوفة ! أنتم محل محبتنا . أنتم الذين لم تتغيروا عن ذلك ، وقد زدتكم فى أعطياتكم مائة درهم ،

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٦ .

فاستعدوا ، فأنا السفاح المبيح والثائر المنيح[1] .

وعقب هذه العبارة البليغة التى ختم بها أبو العباس أول خطبة له فى مسجد الكوفة ، شاع لقب « السفاح » عن أبى العباس ، ويظهر أنه قصد من هذا اللفظ إشعار الحاضرين بأنه عوّل على سفك دماء كل من تحدثه نفسه بالخروج عليه والوقوف فى سبيله وسبيل دولته ، وأن يتوعد أيضاً الأمويين بالتنكيل بهم وإزهاق أرواحهم ، ولكن مما يسترعى النظر أن لفظ السفاح كان يطلق فى الجاهلية على بعض شيوخ القبائل[2] .

أما لفظ « المبيح » الذى ورد كذلك فى ختام هذه الخطبة ، فقد يعنى الرجل الكثير العطايا ، وقصده من إثباته أن يبشر فى الوقت نفسه من يقوم بنصرته بإغداق الأموال عليه . وهذا يدلنا على أنه لم يكن سفاحا فى كل أدوار حياته ، فقد اتصف بالكرم والحلم والعقل والوقار والحياء وطيبة الخلق[3] ، ولكن اعتلاءه عرش الدولة العباسية فى بدء قيامها ، والأعداء يتربصون بها من كل جانب ، أوحى إليه أن ينتهج فى إدارة الدولة خطة العنف والتهديد وأن يتبع سياسة الوعد والوعيد .

اتخاذ الأنبار عاصمة :

كانت دمشق عاصمة الخلافة الأموية وظلت مقراً للخلفاء حتى اعتلى السفاح العرش ، فاتخذ الأنبار عاصمة لدولته . وهى تقع على الضفة اليسرى لنهر الفرات فى الشمال الشرقى للعراق ، على مسيرة ثمانية وستين كيلومتراً من بغداد . وقيل إن سابور الثانى من ملوك آل ساسان فى فارس هو الذى

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٩ ص ١٢٥ — ١٢٦ .

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, p. 253.

(٣) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣١٥ .

اختطها . وأطلق العرب عليها « الأنبار » وهى كلة فارسية تعنى السوق أو مخزن الغلال ، وأضحت هذه المدينة مقراً للخلافة العباسية مدة قصيرة من الزمن (١٣٢ — ١٤٥ هـ) .

واستقر المنصور الخليفة العباسى الثانى ، فى الأنبار ، إلى أن أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ هـ (٧٦٢ م) . ومنذ ذلك الحين ، أخذت المدينة تقل أهميتها شيئاً فشيئاً ، وفى سنة ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) . استولى أبو طاهر زعيم القرامطة على الأنبار وخربها ، فأصبحت كأن لم تغن بالأمس .

اضطهاد الأمويين :

كانت مهمة أبى العباس ، باعتباره أول خلفاء الدولة العباسية ، مهمة شاقة إذ كان عليه أن يثبت أقدام العباسيين فى الخلافة ويوطد أركانهم ليكون الأمر خالصاً لهم ، ومن ثم سار على سياسة الثأر والانتقام من الأعداء فى غير هوادة ، فقد عمل على القضاء نهائياً بنى أمية ، ووقعت تبعاً لذلك مذابح عديدة ذهب ضحيتها كثير الأمويين ، حتى أضطر الكثير منهم إلى التنكر والهرب . وتغلب أبو العباس حياتهم بالمكر والخديعة ، إذ أعلن صفحه العام عنهم وأمنهم على حياتهم ، فانخدع الأمويون وظهروا من مكامنهم وإذ ذاك انقض عليهم وقتلهم شر قتلة .

اشتدت حوادث التقتيل والتشريد فى مكة والمدينة ، وفى الكوفة ، وفى فلسطين . وأغرى الشعراء ورجال البلاط الخليفة باستعمال الشدة والقسوة وأن يكون رائده عدم الثقة بالأمويين ، قيل : « إن السفاح كان جالساً يوما فى مجلس الخلافة ، وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وقد أكرمه السفاح ، فدخل عليه سديف الشاعر ، وقال :

لا يغرنك ما ترى من رجال إن تحت الضلوع داء دويا

فضع السيف وارفع الصوت حتى لا ترى فوق ظهرها أمويا[1]

ودخل شاعر آخر على أبى العباس، وعنده نحو السبعين رجلا من بنى أمية، وقد قدم لهم الطعام، فأنشده قصيدة جاء فيها:

واذكروا مصرع الحسين وزيد وقتيلا بجانب المهراس[2]

والقتيل الذى بحران أضحى[3] ثاويا بين غربة وتناسى

وقد أعاد إنشاد هذين البيتين ذكرى الماضى، وما جره الأمويون على أنفسهم من سخط الناس لتمثيلهم بأهل البيت: فأمر أبو العباس بسليمان بن هشام فقتل، ثم أمر بمن كان فى داره من بنى أمية فضربوا بالسياط، وتتبع أبو العباس البقية الباقية من الأمويين وأنصارهم ولم يبق على أحد.

ولم يكتف أبو العباس بالقضاء على الأحياء من بنى أمية، بل عمد بعد ذلك إلى الأموات منهم، فأمر بالتمثيل بجثثهم وإحراقها: فنبش قبر معاوية بن أبى سفيان، وقبر ابنه يزيد، وقبر عبد الملك بن مروان، كما ضربت جثة هشام ابن عبد الملك بالسياط وذرى فى الهواء، إلا أن السفاح أمر ألا تمس جثة عمر ابن عبد العزيز بسوء اعترافاً منه بفضله وجليل صفاته.

ولما تم لأبى العباس قتل رجال بنى أمية ومصادرة أموالهم، اطمأن على دولته من ناحيتهم، وقال:

بنى أميـة قد أفنيت جمعكم فكيف لى منكم بالأول الماضى؟

يطيب النفس أن النار تجمعكم عوضتموا من لظاها شر معتاض[4]

---

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤.

(٢) ماء بجبل أحد، قتل عنده حمزة ابن عبد المطلب عم الرسول ودفن.

(٣) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس.

(٤) ابن الأثير ج ٥ ص ١٧٤.

عدم احترام العهود والغدر بالأنصار :

لم يكتف السفاح بالقضاء على أعدائه الأمويين ، الذين يصح أن يلتمس له العذر فيما فعل معهم ، بل إنه لم يرع فضل الذين ساعدوه فى إقامة الدولة العباسية ، فغدر بهم ، ولم يحترم العهود والمواثيق التى كان يعطيها لأعدائه ولأنصاره على السواء .

قضى السفاح معظم عهده فى محاربة قواد العرب الذين ناصروا بنى أمية ، ووقف لهم بالمرصاد : فإن ابن هبيرة قائد جيوش مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية ، كان مقيما فى بلدة واسط ، وأرسل إليه أبو سلمة الخلال وزير السفاح الجيوش لمحاربته ، وحاصرته فى تلك البلدة ، وطال أمد الحصار ، فأرسل السفاح أخاه أبا جعفر الذى تولى الخلافة فيما بعد باسم المنصور ، فحاصر ابن هبيرة أحد عشر شهراً ، وحين بلغ ابن هبيرة خبر مقتل الخليفة الأموى الأخير مروان بن محمد . فاوض أبا جعفر فى الصلح ، على أساس أن يسلم ويعطى له الأمان على حياته ، وانتهى الأمر بأن أعطاه السفاح الأمان ، وتسلم ابن هبيرة كتابا بذلك يحمل إمضاء الخليفة ، ولكن لم تمض على ذلك بضعة أيام حتى قتل ابن هبيرة ، وكان هذا واحداً من حوادث الغدر فى الدولة العباسية ، وتتابعت أمثال هذه الحوادث حتى أصبحت أمراً مألوفا .

وقتل السفاح وزيره أبا سلمة الخلال ، الذى كان من أهم العوامل التى ساعدت فى تأسيس الدولة العباسية . كان أبو سلمة من أهل اليسار فى الكوفة واشتهر بالكرم وكثرة البذل لرجال الدعوة العباسية . على أنه لما خبر أحوال بنى العباس ، عزم على العدول عنهم إلى أولاد على بن أبى طالب ، ولما بويع السفاح استوزر أبا سلمة على كره منه لمكانته من الساسانيين وهم عصب الدولة ومصدر قوتها ولقبه وزير آل محمد ، إلا أن هذا كله لم يكن مصدره حسن النية من جانب السفاح ، إذ خاف على نفسه إن هو قتله أن يقوم أهل خراسان

بالثأر له ، فعمل على أن يتم هذا الأمر على يد أبي مسلم ، وكتب له مع أخيه أبي جعفر كتابا يخبره فيه أن أبا سلمة الخلال يعمل على تحويل الخلافة إلى العلويين وعهد له بمعاقبته ، وأسلوب الكتاب ينم عن رغبته فى قتله . فأرسل إليه أبو مسلم رجالا من أهل خراسان ، فقتلوه ، وتخلص منه السفاح وأبو مسلم الذى كان يكرهه ويحقد عليه مقامه .

وبذلك هيأ أبو مسلم سبيل قتله بنفسه ، فقد عول السفاح على التخلص من أبي مسلم كذلك ، إذ كان شجى فى حلق دولته ، إلا أن المنية وافت السفاح قبل أن يحقق مااعتزمه من قتله .

ووضع السفاح بذلك قاعدة الغدر بالأنصار وعدم احترام العهود والمواثيق ، وسار على هذه القاعدة من جاء بعده من الخلفاء العباسيين .

الثورات ضد حكم السفاح :

. هذه المعاملة القاسية للأمويين ، لم تؤد إلى صرف العرب عن العباسيين فحسب ، بل جعلت نفوس من العرب تضطرم بالكراهية والبغضاء لبنى العباس وللفرس الذين استأثروا بالسلطة دونهم ولمالأة العباسيين لهم واعتمادهم عليهم ، وزاد الطين بلة والحالة سوءاً ، غدر السفاح بأنصاره ، لذلك قامت الثورات فى كل مكان . وكان أشدها خطراً ، الثورة التى اندلع لهيبها فى بلاد الشام بقيادة أبى الورد وهو رجل من العرب ، وتزعمها من بعده أبو محمد السفيانى . ولكن سرعان ماغلب على أمره وقتل ، وقامت ثورة فى الجزيرة ، اشتد خطرها حتى أرسل السفاح أخاه أبا جعفر وعمه عبد الله بن على للقضاء عليها ، فتمكنا من إخمادها ، وظل أبو جعفر بعد أن انتهت مهمته والياً على الجزيرة حتى تولى الخلافة بعد أخيه السفاح ، وقامت كذلك ثورات فى عمان وفى السند وفى خراسان ، وكلها تأخذ على العباسيين كثرة سفكهم للدماء وإزهاقهم الأرواح ، ولكن قضى على تلك الثورات ، كما قضى على سابقتها ، ولولا شدة السفاح فى قمع أعدائه لزالت الدولة العباسية وهى لاتزال فى مهدها .

تقدير السفاح :

حكم السفاح أربع سنوات وتسعة أشهر ، أمضاها فى القضاء على بقايا الدولة البائدة دولة الأمويين ، ولم يجد طوال هـذه الفترة وقتاً ينصرف فيه إلى النظر فى ترتيب شئون الدولة . إلا أننا نلاحظ أن السفاح ابتدع أموراً جديدة على نظام الحكم فى العصر العباسى لم يكن لها وجود فى العصر الأموى ، فقد ظهر نظام الوزارة لأول مرة منـذ ظهور الإسلام وأول من تولاها هو أبو سلمة الخلال وزير السفاح ، وأصبح النـاس يخطبون وهم وقوف بعد أن كانوا يخطبون وهم قعود . وانتقل مقر الملك من دمشق حاضرة الأمويين إلى الأنبار عاصمة الدولة الجديدة ، فانتقل بذلك مقر الدولة من الشـام إلى العراق .

اختلف المؤرخون فى تحليل شخصية أبى العباس : فوصفه بعضهم بالقسوة والميل إلى إزهاق أرواح الناس وخاصة أنه قتل عـدداً كبيراً من بنى أمية ، ولعل تلقيبه نفسه بالسفاح هو الذى حدا بهذا الفريق إلى وصفه بتلك الصفات . على أننـا نستطيع أن نقول إن الظروف هى التى أملت عليه تلك السياسة توطيداً لأركان الدولة العباسية الناشئة ، خاصة وأن مؤرخين آخرين وصفوا السفاح أنه كان شاباً يميل إلى الأدب والشعر وسماع الغناء . وكان يظهر لندمائه ويجلس معهم فى مجلس واحد ويجزل لهم العطاء[1] .

وقد توفى السفاح فى سنة ١٣٦ هـ . ودفن فى مدينة الأنبار .

(١) جاء فى مجلة الثقافة أنه لا يستبعد أن « يكون شاب جيل عفيف وفى كريم طروب كأبى العباس سفاكا للدماء » . العدد ١ ، السنة الأولى .

٢ – أبو جعفر المنصور

١٣٦ — ١٥٨ هـ — ٧٥٤ — ٧٧٥ م

شخصيته :

تعتبر الفترة التي قضاها المنصور على عرش الخلافة من أهم عصور الخلافة العباسية ، واستمرت تلك الفترة نحواً من اثنتين وعشرين سنة ؛ توطدت فيها دعائم الدولة ، وانصرفت إلى العناية بالشئون السلمية فشيدت مدينة بغداد ، وبدأت الحركة الأدبية في العصر العباسي . وساد في عهد المنصور نظام الإدارة المركزية إذ كان المنصور يقيم في بغداد عاصمة ملكه ، وأضفى على الخلافة ظلا قدسيا فأشاع أنه يحكم بتفويض من الله ، وركز جميع سلطات الدولة في يده فلم يكن للوزير من الأمر شيء ، وأصبح اختصاص الولاة على الأقاليم ضيقاً ولم يعودوا تابعين في مراكزهم حتى أنه لم يظهر طوال حكمه وال من طراز عمرو بن العاص أو زياد بن أبيه أو الحجاج بن يوسف الثقفي . والمنصور من أقوى خلفاء الإسلام ، أعاد إلى الأذهان حكم عمر بن الخطاب ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان ، فقد كان ذا شخصية ممتازة ، ووجه سياسته نحو المصلحة العامة والحرص على ما فيه تقدم العباسيين في الإدارة والحرب والثقافة والعلم .

قضاء المنصور على المعارضة :

غدر المنصور بكثير من كبار أنصاره وبعض أقربائه ، في سبيل الاحتفاظ بملكه وصار ذلك من سمات العباسيين الواضحة في طوال مدة حكمهم للعالم الإسلامي .

١ — موقفه من عمه عبد الله بن على :

أوصى السفاح بأن تكون الخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر ومن بعده لعيسى بن موسى ، إلا أن السفاح لم يراع العدل حين أسند الخلافة من بعده لهذين الشخصين ، لأن السفاح حين سير عمه عبد الله بن على إلى الشام ومصر لتتبع مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية للقضاء عليه ، وعده بأن الخلافة من بعد السفاح ستؤول إليه . وكان المنصور يعلم بأمر هذا الوعد ، ومن ثم فقد أحس الخطر من ناحية عبد الله بن على منذ بلغه نبأ وفاة السفاح ، وكاشف أبا مسلم الخراسانى بتخوفه ، فوعده أبو مسلم أن يريحه من عمه عبد الله بتدبير مقتله ، مقتدين فى ذلك بسياسة الخليفة السفاح حين أمر بقتل وزيره أبى سلمة الخلال . ولم يكن غريباً إذ ذاك أن تتبع سياسة الغدر بالأقرباء كما اتبعت مع الأنصار والأعوان مادامت تحقق للعباسيين مصلحة شخصية . ولكن موضع الدهشة أن عبد الله بن على هو الرجل الذى قضى على قوات الأمويين فى موقعة الزاب ، وتتبع الأمويين بالقتل والتشريد ، وقضى على الفتن الكبرى التى قامت فى الشام ضد حكم السفاح .

لما بلغ عبد الله نبأ اعتلاء أبى جعفر عرش الخلافة بعد السفاح ، أعلن أنه أدى ما كلف به على غير وجه وهو التنكيل بالأمويين ، ثم حرم مما وعد به وهو الخلافة ، فأعلن خروجه على أبى جعفر ، وأبى أن يبايعه ، وسار بجيشه إلى أعالى الجزيرة وحاصر حران شمال الشام ، فبعث المنصور إليه أبا مسلم الخراسانى ، نخاف عبد الله النتيجة ، وأراد الصلح ، ولكنه لم يجب إلى طلبه . وأخيراً حدثت الواقعة بين الطرفين ، ودارت الدائرة على عبد الله وفر إلى أخيه سليمان فى البصرة ، وظل مختبئاً عنده مدة من الزمن . وهنا كان يصح أن تنتهى المسألة عند هذا الحد ، ولكن انتهى أمر عبد الله بالقتل[1] ، وهو الرجل الذى أبلى أحسن بلاء فى خدمة الدولة العباسية .

---

(١) الطبرى جـ ١ ص ١٧٢ .

٢ — موقفه من أبي مسلم الخراساني :

لم يكن حظ عبد الله بن علي ، أسوأ من حظ رجل آخر كان له فضل نشر الدعوة العباسيين وقيام دولتهم ، وهو أبو مسلم الخراساني . ذلك أن العلاقات بين أبي مسلم والمنصور لم تكن يسودها الصفاء ، قبل أن يعتلي المنصور عرش الخلافة وبعد أن اعتلاها : ذلك أن المنصور حين توجه إلى خراسان بأمر أبي العباس لاستشارة أبي مسلم في أمر أبي سلمة الخلال ، لاحظ عظم نفوذ أبي مسلم واستبداده بالأمر وقتله الناس لمجرد الشك ، فعاد المنصور وحرض السفاح على قتل أبي مسلم. أضف إلى ذلك أن أبا مسلم حين استأذن الخليفة السفاح في الحج ، ندب السفاح أخاه المنصور لرياسة الحج ، حتى لايظهر أبو مسلم وحده بمظاهر الفخامة والأبهة . فغاظ ذلك أبا مسلم وانتقم لنفسه حين عودتهما من الحج هو والمنصور بأن تقدم المنصور أثناء السير بمسافة ، مما يتنافى مع التقاليد المرعية . وزاد العلاقات سوءاً بين أبي مسلم والمنصور ، أن أبا مسلم بعد أن انتصر على عبد الله ابن علي وحاز عدة غنائم ، أرسل المنصور من قِبَله رسولا ليحصي الغنائم ويسجلها ، فغضب أبو مسلم ، وقال : كيف اؤتمن على الأرواح ، ولا اؤتمن على الأموال .

لذلك رأى أبو مسلم ألا يقصد الأنبار مقر الخلافة العباسية ، بل يذهب إلى خراسان . فعمد المنصور إلى منعه من الوصول إليها ، بأن عين عليها الوالي الذي خلّفه أبو مسلم أثناء غيابه عن خراسان ، ثم عزل أبا مسلم عن تلك الولاية لرحيله إلى المشرق دون استئذانه وعينه على مصر والشام بدلا منها ، فرفض ذلك أبو مسلم ، وصمم على الرفض على الرغم من نصح المنصور له .

وسار أبو مسلم فى طريقه حتى صار على مقربة من خراسان ، وإذ ذاك رأى أن يرجع ليزيل سوء التفاهم القائم بينه وبين المنصور . على أن أبا مسلم حين عاد من خراسان ، كان المنصور قد صمم على قتله ، وتمكن منه بالفعل .

وتفصيل ذلك أن أبا مسلم سار إلى المنصور ، فلقيه فى المدائن عاصمة بلاد الفرس . فلما علم المنصور بوصوله ، أمر الناس جميعاً بتلقيه ، ولما دخل على الخليفة ، قبّل يده ، فأدناه المنصور وأكرمه ثم أمره بأن يعود إلى خيمته ويحضر فى الغد . ولما أصبح الصباح أتاه رسول المنصور يستدعيه ، وقد أعد المنصور جماعة من رجاله خلف الستور بأيديهم السلاح . وأوصاهم أنه إذا ضرب إحدى يديه على الأخرى يخرجون فيقتلون أبا مسلم . فلما دخل أبو مسلم عليه ، شرع فى توبيخه وتقريعه على ما اقترفه من ذنوب وأبو مسلم ينتحل الأعذار ، فذكر له أموراً ، فقال أبو مسلم : ياأمير المؤمنين ! مثلى لا يقال له هذا ولا تعد عليه مثل هذه الذنوب . فاغتاظ المنصور ، وقال أنت فعلت ، والله لو كانت مكانك أمة سوداء ما فعلت ما فعلت ، وهل نلت ما نلت إلا بنا وبدولتنا ؟ فقال أبو مسلم : دع هذا فقد أصبحت لا أخشى غير الله . فضرب المنصور بيده على الأخرى ، فخرج أولئك النفر وضربوه بالسيوف ، وصاح أبو مسلم : استبقنى ياأمير المؤمنين لعدوك ، فقال المنصور وأى عدو لى أعدى منك ؟ ثم أمر به فلف فى بساط ، ودخل عيسى بن موسى أمير الكوفة ، وقال : أين أبو مسلم ياأمير المؤمنين ؟ فقال المنصور : هو ذاك فى البساط ، فقال قتلته ؟ قال نعم ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! بعد بلائه وأمانته ؟ وكان المنصور قد أمنه ، وأشهد عيسى بن موسى على ذلك ، فقال المنصور : خلع الله قلبك ! والله ليس لك على وجه الأرض عدو أعدى منه ، وهل كان لكم ملك فى حياته ؟ ثم أمر المنصور بمال لجند أبى مسلم ، فتفرقوا ، وكان ذلك سنة ١٣٧ هـ .

وعقب مقتل أبى مسلم ، خطب المنصور فى الناس ، فكان مما قاله : « أيها

الناس ، لا تخرجوا عن أنس الطاعة ، إلى وحشة المعصية ، إنه من نازعنا هذا القميص ، أوطأناه مافى هذا الغمد ، وإن أبا مسلم بايعنا وبايع لنا ، على أنه من نكث بيعتنا ، فقد أباح دمه لنا ، ثم نكث بنا هو ، فحكمنا عليه لأنفسنا ، حكمه على غيرنا لنا ، ولم تمنعنا رعاية الحق من إقامة الحق عليه »[1] .

ويظهر أن المنصور إنما قام بما قام به مدفوعاً بعوامل الغيرة من أبى مسلم متأثراً بما استولى عليه من الهواجس وخامرته الريب فى إخلاصه ، وزاد أبو مسلم النار اشتعالا بتماديه فى زهوه وإسرافه فى قتل النفوس البريئة . على أن أبا مسلم إذا كان يستحق القتل . فإن قتله يجب أن لا يكون على يد المنصور[2] ، لأنه مدين لأبى مسلم بما أداه له وللخلافة العباسية من خدمات جليلة ، نقلت الإسلام من حالة إلى حالة أخرى .

بذلك استطاع أبو جعفر المنصور بما أوتيه من حزم ودهاء أن يأسر عمه عبد الله بن على ثم يقتله ، وأن يقتل أبا مسلم الخراسانى ، وكلاهما يعد من مؤسسى الدولة العباسية . وقد علق ابن طباطبا صاحب كتاب الفخرى ، على هذه الظاهرة ، بقوله : « وكان المخترع للدولة ، يكون عنده من الدالة والتبسط ، ماتأنف من احتماله نفوس الملوك ، كلما زاد تبسطه زادت الأنفة عندهم حتى يوقعوا به » .

النحل الدينية :

ظهرت فى عهد المنصور العباسى عدة نحل دينية ، من أشهرها حركة « الراوندية » ، والمعتقدات المستمدة من الأفكار الفلسفية القديمة التى نشرها الفرس ودعى إليها دعاة ظهروا على أثر مقتل أبى مسلم الخراسانى . أمثال : « سنباذ » و « إسحق » و « أستاذ سيس » .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣١٣ .
(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٠٠ .

بدأ ظهور حركة الراوندية فى قرية راوند قرب أصفهان وقلدوا الفرس الذين كانوا يقدسون ملوكهم ويعتبرونهم آلهة . ويعتقد أصحاب هذا المذهب أن الروح التى كانت فى عيسى بن مريم قد حلت فى على بن أبى طالب ثم فى الأئمة حتى وصلت إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم الرسول) ، وكانوا يعتقدون فى تأليههم ويستحلون ما حرم الله . وما لبثوا أن عبدوا الخليفة المنصور « وصعدوا إلى الخضراء (القبة التى بناها المنصور ببغداد) ، فألقوا أنفسهم كأنهم يطيرون ، وخرج جماعتهم على الناس بالسلاح ، فأقبلوا يصيحون بأبى جعفر : أنت أنت (أى أنت الله) »[1] . إلا أن المنصور عد ذلك خروجاً على الدين ، وحاربهم بنفسه وحاول القضاء عليهم ، على الرغم من تأليههم له ، وحبس عدداً كبيراً منهم ، ولكنهم تمكنوا من اقتحام السجون وإخراج من فيها ، وحاولوا قتل أبى جعفر بعد ذلك إلا أنه نجا من الموت[2] . وهم يعدون أنفسهم من أتباع أبى مسلم الخراسانى ، وحاربهم العباسيون فى عهد المنصور وفى عهد من جاء بعده من الخلفاء ، وخاصة بعد أن أخذت الراوندية تتشكل فى أشكال مختلفة كالمقنعية والخرمية ،

وظهرت كذلك على أثر مقتل أبى مسلم ، عدة نحل دينية . فإن سنباذ[3] وإسحق[4] وأستاذسيس[5] قد أعلنوا على التوالى أن أبا مسلم لم يقتل ، لأنه حين أراد المنصور قتله ردد الإسم الأعظم وتحول إلى حمامة وطار وأعلن أنه سيعود ثانية . ويبين

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٠٧ .

(٢) قيل إن المنصور فر على دابة .

(٣) سنباذ : رجل مجوس ، ظهر فى مدينة نيسابور ، ودامت الحرب بينه وبين المنصور نحو سبعين يوما .

(٤) عرف إسحق باسم اسحق التركى ، مع أنه ليس تركيا ، اعتقد أن أبا مسلم متغيب فى بلدة قريبة من مدينة الرى قرب طهران وأنه سيظهر يوما ويعيد ديانة زرادشت ، وهو رجل من إقليم أذربيجان ، نادى أن للعالم قوتين مسيرتين له أو الهين: إله الشر وإله الخير ، وأنه يجب نصرة إله الخير بالتحلى بالفضيلة والامتناع عن الرذيلة .

(٥) بنى أستاذ سيس حركته على أساس المزدكية ، وهى ديانة فارسية نادى بها مزدك الذى ظهر فى مدينة نيسابور فى فارس فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

لنا ظهور هذه الآراء الدينية أن الفرس قد اتسع سلطانهم فى دولة بنى العباس . لأن الفرس يعتقدون فى أن أبطالهم لا يموتون ولكنهم يختفون فترة يعودون بعدها إلى الظهور وفى قدرة هؤلاء الأبطال على الطير فى الهواء حين يشاءون وأنهم حين عودتهم بعد غيبتهم يعمدون إلى إصلاح ما فسد ، كما يتجلى فى حركة أستاذ سيس الذى رمى بها إلى ضرورة المساواة بين الناس و إقامة النظام الاجتماعى على أساس جديد حتى ادعى النبوة وقطع أصحابه الطرق وارتكبوا كثيراً من الآثام ولكن كان مصيره الاندحار وقتل كثير من أتباعه ، وانتهت حركته بالفشل ، كما انتهت حركة سنباذ وثورة إسحاق التركى وكما قضى على الراوندية .

لذلك يمكن القول ، أنه كما ظهرت فى أواخر عصر الخلفاء الراشدين وعصر الأمويين بعض المذاهب الدينية كالشيعة والخوارج وغيرها ، ظهرت كذلك فى العصر العباسى نحل دينية ترجع إلى أصل فارسى قديم ، وكان ظهورها نتيجة غلبة العنصر العجمى على العنصر العربى ، واصطبغت تلك النحل بصبغة دينية وسياسية معاً .

موقفه من العلويين :

العلويون هم كل من ينتمى إلى على بن أبى طالب الخليفة الراشد الرابع ، وهؤلاء اعتبروا أنفسهم أحق بالخلافة من الأمويين ، و بدأوا منذ مقتل الحسين ابن على يتذرعون إلى نيل حقوقهم بكل وسيلة ، وكانوا إذا وجدوا الفرصة سانحة لاستخدام القوة ، لم يترددوا فى انتهازها . وفى أواخر الدولة الأموية كان الدعاة قد نشطوا للدعوة للعباسيين حتى كونوا لهم عصبية قوية ، وحين غلب الدعاة على الكوفة ، ووجدوا أبا العباس بينهم وقد عهد إليه أخوه إبراهيم

الإمام بالخلافة ، لم يجدوا من بين آل على من يستطيع أن يحولهم عن بنى العباس ، إذ لم يكن للعلويين فى ذلك الوقت من القوة وكثرة الأنصار ما يعيد لهم سبيل الوصول إلى الخلافة .

لم يرق للعلويين أن يظفر العباسيون بالخلافة دونهم ويقيموا دولتهم على أنقاض دولة بنى أمية ، ولم تطب نفوسهم بقيام خلافة عباسية لأنهم اعتبروا أنفسهم أحق بها منهم ، فنابذوا العباسيين العداء ونظروا إليهم كما كانوا ينظرون إلى الأمويين من قبل . وأدرك العلويون أن العباسيين قد خدعوهم واستأثروا بالخلافة لأنهم باتحادهم مع بنى العباس ضد بنى أمية واشتراكهم معهم فى العمل على إزالة دولتهم قد مهدوا الطريق للعباسيين . ولم تكن استكانة العلويين فى بدء الخلافة العباسية معناها التسليم بالأمر الواقع ، لأنهم انتظروا حتى تتهيأ لهم الأحوال ، فيبدأوا دور الكفاح والنضال ضد العباسيين كما كافحوا وناضلوا الأمويين من قبل ، ابتغاء الوصول إلى حقهم فى الخلافة . وعملوا فى هـذه المرة فى طى الخفاء والكتمان ، وأصبح تاريخ العلويين حافلا فى ذلك العصر بضروب الخدع والمكائد ولكن العباسيين أذاقوهم مرارة الفشل ، كما سقاهم الأمويون كأس الذل والهوان من قبل .

بدأ العلويون ، من شيعة الحسنيين سلالة الحسن بن على بن أبى طالب ، فى رفع صوتهم عالياً للمطالبة بالخلافة بعد زوال الأمويين ، إذ اعتبروا أنفسهم أحق بها من العباسيين لأن الحسن تنازل عن حقه فى الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، وهذا التنازل كان للبيت الأموى لا العباسى ، ولما بدأ نجم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فى الأفول ، اجتمع الحسنيون والعباسيون للتشاور فيمن تؤول إليه الخلافة بعد القضاء على الدولة الأموية ، فتنازل العباسيون لمحمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، كذلك استندت سلالة

الحسن فى المناداة بالخلافة بعد الأمويين إلى حقهم الشرعى فيها عن طريق الحق الإلهى .

وكانت حركات الحسنيين أتباع الحسن بن على تجرى فى المدينة ، و بذلك ظهرت المدينة مرة أخرى على مسرح السياسة فى التاريخ الإسلامى . وكانت الفظائع التى ارتكبها العباسيون ، هى السبب فى ظهور المعارضة من سلالة المهاجرين والأنصار للخلافة العباسية بشكل جدى . وكان يقود بنى الحسن رجلان أحدهما يقال له محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالنفس الزكية وكانوا يعتبرونه محمداً المهدى الذى سيخلص العالم الإسلامى مما لحقه من ظلم وجور ، والثانى شقيقه إبراهيم بن عبد الله . وهذان الأخوان من نسل على وفاطمة بنت الرسول عليه السلام ، وعرفا بالعلم والزهد والورع .

قلق المنصور على ملكه من هذين الأخوين ، لأنهما كانا قد رفضا إقرار البيعة له بالخلافة ، وتبعهما أولاد علىّ وجعفر وعقيل وأولاد عمر بن الخطاب والزبير وسائر قريش والأنصار . وجدّ المنصور فى طلبهما دون جدوى ، إذ أنهما اختبآ منذ قيام الدولة العباسية ، فاهتم بأمرهما ، وعهد إلى زياد بن عبيد الله بالبحث عنهما ، إلا أنه تهاون فى الأمر بل ساعد محمد بن عبد الله على الهرب فقبض المنصور على زياد وسجنه ، وولى مكانه محمد بن خالد القسرى ولكنه عزل لأن المنصور استبطأه .

بلغ اهتمام المنصور أقصاه لإخراج محمد النفس الزكية وأخيه إبراهيم من مكمنهما ، فولى على المدينة رجلا بدوياً قاسياً وبسط له الأموال ليستخرجهما من مخبئهما ، وهو رياح بن عثمان بن حيان ابن عم مسلم بن عقبة المرى الذى نكل بأهل المدينة فى واقعة الحرة فى عهد يزيد بن معاوية ، واتبع رياح مع أهل المدينة نفس أساليب الحجاج بن يوسف الثقفى مع أهل الكوفة ، فقد

خطب فى أهل المدينة قائلا : « يا أهل المدينة ! أنا الأفعى بن الأفعى رياح ابن عثمان بن حيان ، وابن عم مسلمة بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم . والله لأدعنّها بلقعاً لا ينبح فيها كلب » ، ولكن أهل المدينة اجترأوا عليه وسبوه ولعنوه ووصفوه بأنه « المجلود حدّين لتكفنّ أو لنكفنّك عن أنفسنا » ، ولما بلغ المنصور ذلك ، أبلغ أهل المدينة أن « أمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ، ليبدلنكم بعد أمنكم خوفا ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام »[1].

وتتابعت بعد ذلك حوادث تعذيب أقرباء محمد بن عبد الله وأنصاره ، فقد حَبَس الوالى رياح إخوة عبد الله ، وأعلن سب ابنيه محمداً وإبراهيم على المنابر ، ثم شخص بنفسه إلى المدينة وأمر بأن يمثل العلويون بين يديه وهم مكبلون ، وسألهم عن مقر محمد بن عبد الله فلم يظفر بشىء ، فمنفهم وبعث بهم إلى الكوفة حيث حبسوا فى سرادب تحت الأرض لا يفرقون ، كما يقول المسعودى : بين ضياء النهار وسواد الليل[2] .

وأخيراً لما استوثق محمد النفس الزكية من أمر أتباعه ونجاح دعوته ، أعلن نفسه ، ويظهر أن محمد بن عبد الله لم يحسن اختيار الوقت الذى يخرج فيه من مكمنه ، فقد قيل إن جماعة دخلت عليه بعد أن اشتد بها البلاء ، وقالت له : « ما تنتظر الخروج ؟ ما الذى يمنعك من أن تخرج وحدك ؟ » ، واجتمع الناسَ حول محمد وبايعوه ، وفى الحال وصل خبر ظهوره إلى المنصور ، فأخذ عدته للأمر لأنه موقن من النتائج الخطيرة التى تترتب على التهاون مع مثل هذا الرجل ، إذ كان قد خرج فى مائتين وخمسين رجلا

---

(١) اليعقوبى ج ٢ ص ٣٥١ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٠ .

وتوجه إلى السجن وأخرج من فيه وأمر بحبس عامل المنصور على المدينة المنورة ، وخطب أهلها خطبة كلها طعن فى المنصور والدولة العباسية ، وفيها قال : « أما بعد ، أيها الناس ! فإنه كان من أمر هذا الطاغية عدو الله أبى جعفر ما لم يخف عليكم ، من بنائه القبة الخضراء التى بناها معانداً الله فى ملكه وتصغيراً للكعبة الحرام ، وإنما أخذ الله فرعون حين قال : أنا ربكم الأعلى ، وإن أحق الناس بالقيام بهذا الدين أبناء المهاجرين الأولين والأنصار المواسين ... »[1] .

سير المنصور إلى محمد بن عبد الله جيشاً ضخماً بقيادة ولى عهده عيسى ابن موسى ، ولكنه أحب أن يتقدم إلى محمد قبل القتال بالدعوة السلمية ، فجرت بين الرجلين مراسلات ، لم تأت بنتيجة ما ، تجد نصوصها فى الطبرى[2] . قال المنصور فى أولى كتبه إلى محمد : « لك علىّ عهد الله وميثاقه وذمته وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم ، إن تبت ورجعت من قبل ، أن أؤمنك وجميع ولدك وإخوتك وأهل بيتك ومن اتبعكم ، على دمائكم وأموالكم ... » .

لم يعبأ محمد النفس الزكية بهذه الوعود ، ورد على المنصور بكتاب أثار ثائرته ، وجاء فيه « .. وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى عرضت علىّ فإن الحق حقنا ، فإن أبانا علياً كان الوصى وكان الإمام ، فكيف ورثتم ولايته وولده أحياء . . . وإنا بنو أم رسول الله ، فاطمة بنت عمرو فى الجاهلية ، وبنو بنته فاطمة فى الإسلام دونكم ، إن الله اختارنا واختار لنا ، فوالدنا من النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ، ومن السلف أولهم إسلاما علىّ ، ومن الأزواج أفضلهن خديجة الطاهرة ، ومن البنات خيرهن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ... ولك

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٢٠٤ — ٢٠٥

(٢) الطبرى جـ ٩ ص ١١٠ — ١١٣ .

علىّ إن دخلتَ فى طاعتى وأجبتَ دعوتى ، أن أؤمنك على نفسك ومالك ، وعلى كل أمر أحدثته إلا حداً من حدود الله أو حقاً لمسلم أو معاهد ، فقد علمت ما يلزمك من ذلك . وأنا أولى بالأمر منك وأدنى بالعهد ، لأنك أعطيتنى من العهد والأمان ما أعطيته رجالا قبلى ، فأى الأمانات تعطينى ؟ أمان ابن هبيرة ؟ أم أمان عمك عبد الله بن علىّ ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ » .

وقد بلغ بالمنصور الغضب أقصاه بعد وصول هذا الكتاب إليه ، فرد بنفسه على محمد بن عبد الله ، يفند أقواله : « . . . أما ما فخرت به من فاطمة وعلىّ ؛ فخير الأولين والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . وزعمت أنك أوسط بنى هاشم نسباً وأصرحهم أما وأبا . . . فانظر ويحك أين أنت من الله غداً ، فإنك قد تعديت طورك ، وفخرت على من هو خير منك نفساً وأبا ، وأولا وآخراً ، ابراهيم ابن رسول الله ، وأما ما فخرت به من علىّ وسابقته ، فقد حضرت رسول الله الوفاة ، فأمر غيره بالصلاة ، ثم أخذ الناس رجلا بعد رجل فلم يأخذوه ، وكان فى الستة فتركوه كلهم دفعاً له عنها ولم يروا له حقاً فيهـا ، أما عبد الرحمن فقدم عليه عثمان ، وقتل عثمان وهو له متهم ، وقاتله طلحة والزبير ، وأبى سعد بيعته ، وتفرق عنه أصحابه وشك فيه شيعته ، ثم حكم حكمين رضى بهما فاجتمعا على خلعه ، ثم كان الحسن فباعها معاوية بخرق ودراهم ، ولحق بالحجاز وأسلم شيعته بيد معاوية ، ودفع الأمر إلى غير أهله ، ثم خرج عمك الحسين بن علىّ على ابن مرجانة ، فكان الناس معه عليه حتى قتلوه وأتوا برأسه إليه ، ثم خرجتم على بنى أمية فقتلوكم وصلبوكم على جذوع النخل وأحرقوكم بالنيران ونفوكم من البلدان حتى قتل يحيى بن زيد بخراسان ، وقتلوا رجالكم وأسروا الصبية والنساء حتى خرجنا عليهم ، فطلبنا بثأركم وأدركنا بدمائكم ، فاتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت إنا إنما ذكرنا أباك وفضلناه للتقدمة منا على حمزة والعباس

وجعفر ، ولكن خرج هؤلاء من الدنيا سالمين ، وابتلى أبوك بالقتال والحرب ، وكانت بنو أمية تلعنه كما تلعن الكفرة فى الصلاة المكتوبة ، فاحتججنا له وذكرناهم فضله ... ولقد علمت أن مكرمتنا فى الجاهلية سقاية الحجيج الأعظم وولاية زمزم ، فصارت للعباس من بين إخوته ... فالسقاية سقايته ، وميراث النبى له والخلافة فى ولده . فلم يبق شرف ولا فضل فى جاهلية ولا إسلام ، فى دنيا ولا آخرة ، إلا والعباس وارثه ومورثه ... » .

تحرجت النفوس وتمكنت العداوة وتأصلت فى قلوب الفريقين المتنازعين ، مما أدى إلى قيام القتال بين الطرفين ، وهنا لجأ محمد النفس الزكية إلى حيلة قديمة اتبعها فى القتال ، وهى حفر خندق ، فكان ذلك وبالا عليه ، إذ أحدق القائد وولى العهد عيسى بن موسى بالمدينة وبذل الأمان لكل من يريد أن يخرج ، فخرج منها عدد كبير وبقى محمد ومعه نفر قليـــل ، وانتهى أمر محمد بالقتل وأرسلت رأسه إلى المنصور ، وعاقب الخليفة المدينة عقابا شديداً بأن أمر بقطع المؤن عنها وصادر أموال بنى الحسن .

بقى بعد ذلك أخوه إبراهيم ، الذى استقر فى البصرة ، وكان المنصـور يخشى أمره ، لأن معظم أهل العراق كانوا من شيعة على بن أبى طالب ، وأخيراً أخذ إبراهيم البيعة سراً من الناس ، وأعلن الثورة واستولى على البصرة وعلى الأقاليم المجاورة لها فى فارس والعراق ، فاستولى الهلع على المنصور ، وبعث إليه بالجيش الذى قاتل به محمدا من قبل ، فرأى إبراهيم أن يهاجم الكوفة حتى تنضم إليه لأن أهلها شيعة ، وعندما بدأ الهجوم عليها ، التقى بالقائد العباسى عند « باخمرى » وهى بلدة واقعة بالقرب من الكوفة ، وهنا دارت الواقعة الفاصلة بين الطرفين فى ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ وهزم إبراهيم وقتل .

وهكذا قضى للمنصـور على العلويين ، ومما يدل على خوف المنصور أيام هذه الأزمة ما يرويه ابن الأثير من أنه : رمى كل ناحيـة بحجرها ،

وقعد على سجادة صلاته خمسين يوما ، وعليه جبّة متسخة لا يغيرها .
ويمكن القول بأن المعارضة قد انتهت بانتهاء حياة هذين الأخوين ، وولى العلويين وجههم شطر المغرب فى إفريقية بعد تلك المصائب التى تتابعت عليهم فى المشرق .

تأسيس مدينة بغداد :

من الأعمال الخالدة التى يحرص الفاتحون على إتمامها ، تأسيس المدن لتتخذ عواصم للأقاليم المفتوحة والعناية بأمرها وتوسيع نطاقها بمرور الزمن ، لكى تضم دواوين الحكومة الجديدة وبيوت أنصارها من القواد والجند والموظفين ، ولتكون مقراً لأرباب الحرف والصناعات . فقد اتخذت المدينة والكوفة ودمشق والأنبار عواصم للدولة الإسلامية ، حتى بنيت بغداد فاتخذت عاصمة للعباسيين فى بلاد العراق .

بنى الخليفة العباسى المنصور سنة ١٤٥ ﻫ مدينة بغداد ، وبدأ مشروعه الضخم بالبحث عن موضع يصلح لإنشاء عاصمته الجديدة . فبعث رجالا يثق بهم لاختيار مكان صالح لذلك ، فدلوه على موضع قريب من مدينة بارما الواقعة جنوبى الموصل ، وفى هذا المكان أقام المنصور يوما وليلة لتكوين رأى نهائى عنه وذلك فى فصل الصيف ، فأعجب بطيب هوائه وجودة غذائه ، واستقر رأيه على أن يتخذ ذلك الموضع لبناء مدينته الجديدة ، ويقع فى هذه الأراضى الخصيبة التى يرويها ماء الدجلة والجداول التى تأخذ ماءها من الفرات ، وهو مكان تسهل فيه المواصلات بين أجزاء دولته وتتوافر سبل المعيشة[1] .

وسميت العاصمة الجديدة باسم « بغداد » . وقد وردت عدة اشتقاقات لهذا

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٢٣٨ — ٢٣٩ .

اللفظ منها : أن بغداد تتكون من بغ ومعناها بستان ، وداد ومعناها الله ، أى أنها بستان الله . وقيل إن معنى بغ معبود أو صنم ، وداد معناها عطية ، أى أن هذه المدينة هى عطية الله . وسميت كذلك المدينة المدورة لأنها بنيت على شكل دائرة ، وأطلق عليها مدينة السلام لأن السلام هو الله ، ومدينة الإسلام ، ودار السلام تشبيهاً لها بالجنة ، وسمى الجانب الغربى منها « الزوراء » لازورار نهر دجلة عند مروره بها ، كما سمى الجانب الشرقى « الروحاء » لانبساط مجرى النهر عنده[١] .

وأمر الخليفة بضرب اللبن وطبخ الآجر استعداداً لبناء المدينة ، ووضع المنصور أول لبنة بيده : بسم الله والحمد لله والأرض لله . . . يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، ثم قال : ابنوا على بركة الله . واحتفل بوضع الحجر الأساسى احتفالا شائقاً شهده الأمراء والوزراء والقواد والأعيان والعلماء . ثم أخذ البناءون يبنون المدينة ، وفى وسطها قصر الخليفة والجامع ودار حرسه ومنازل أولاده ومنازل من يقوم بخدمتهم وقصور الأمراء ورجال الدولة ودواوين الحكومة ودور الأهالى تتخللها الأسواق[٢] ولكن البناء ما لبث أن وقف أثناء خروج محمد النفس الزكية سنة ١٤٥ هـ على المنصور ، و بعد أن تم للخليفة القضاء على هذا العلوى الثائر على الخلافة العباسية ، أمر بأن تبنى المدينة فى أقرب وقت .

وكان المنصور يشرف بنفسه على مالية الدولة و ينفق منها بحساب ، فكان يدقق فى عملية الصرف على بناء المدينة ، حتى سمى المنصور الدوانيقى ، نسبة إلى حرصه على أصغر عملة فى العراق وهى الدانق . وصرف على بنائها نحو تسعة ملايين من الجنيهات ، وخاصة أنه عمل على تحصينها لتحاكى فى العظمة والجلال ،

---

(١) البغدادى : تاريخ بغداد ص ٧٧ — ٧٨ .

(٢) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 18

الحواضر الكبيرة فى الشرق والغرب . وبخاصة القسطنطينية حاضرة الدولة الرومانية الشرقية .

وتدرجت بغداد فى العمران ، فبنت فيها المبانى الفخمة والقصور الشاهقة ، التى من أشهرها قصر « القبة الخضراء » الذى استخدم للضيافة ، إذ كان يقيم فيه السفراء الذين يفدون على بغداد من مختلف الممالك حتى يحين وقت السماح لهم بالمثول بين يدى الخليفة ، وكان على رأس هذا القصر تمثال على صورة فارس فى يده رمح ويدور التمثال مع الريح ، ووصفت قبة القصر بأنها كانت « تاج البلد وعلم بغداد» . و بنى قصر الخلد على شاطىء دجلة الغربى خارج بغداد ، فى مكان طيب الهواء ، إذ أن المدينة الجديدة قد ازدحمت بالعلماء والتجار والصناع الذين وفدوا عليها من كل صوب وحدب ، وسمى بهذا الإسم تشبيهاً له بجنة الخلد ، لأن التأنق فى بنائه كان بادياً للعيان . أما قصر الذهب فيعتبر مركز الدائرة فى المدينة الجديدة. كذلك بنى الأمير عيسى بن على عند مصب الرفيل فى دجلة قصراً فخماً يسع أربعة آلاف نفس .

ولم يحل بناء بغداد دون شغب الجند على المنصور . لذلك بنى مدينة «الرصافة» التى كانت فى الأصل عبارة عن ثكنات للجيش ، وسميت رصافة بغداد و بغداد الشرقية لأنها تقع فى الجهة الشرقية من نهر دجلة المقابلة لمدينة بغداد ، و بنى لها الخليفة المنصور سوراً وحفر حولها خندقا وجعل فيها ميداناً فسيحاً ومسجداً و بستاناً وأجرى الماء فيها . وسرعان ما عمرت الرصافة حتى قاربت بغداد فى الاتساع ، فظهرت فيها الحدائق والمتنزهات والميادين الواسعة والمبانى الفخمة ، كما كثرت بها الملاهى . واهتم اليعقوبى بوصف مدينة الرصافة ، فبين طرقها ودروبها ووصف أسواقها وتجارتها ، فقال إنه كان بها ٤٠٠٦ من الدروب ، ١٥٠٠ مسجد ، ٥٠٠٠ حمام إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مبالغة[١]

(١) اليعقوبى : كتاب البلدان ص ٢٣٨ — ٢٤٠ .

واتسعت بغداد والرصافة اتساعا عظيما ، حتى أصبحتا أشبه بمدن صغيرة متلاصقة ، وأصبحت بغداد أم مدائن الشرق فى ذلك العصر ، و بلغ عدد سكانها مليونى نسمة .

وفى سنة ١٥٧ هـ ، أمر المنصور ببناء « الكرخ » بواسطة حاجبه الربيع ابن يونس ، فى الناحية الجنوبية لمدينة بغداد . ويرجع السبب فى بناء مدينة الكرخ إلى ارتفاع الدخان المتصاعد من الأسواق واسوداد حيطان بغداد ، مما ضايق المنصور ، فأمر بنقل هذه الأسواق التى كانت تشغل جزءاً عظيما من مدينته إلى الجنوب حيث الكرخ . ووضع تصميم بناء الكرخ بعد أن وسع طرق بغداد ، حتى بلغ اتساع كل منها أربعين ذراعاً ، وعين مواضع الأسواق كما عين موضع بناء جامع يصلى فيه أهل هذه الأسواق حتى لايدخلوا المدينة ، وعهد بتنفيذ هذا المشروع إلى مولاه الوضاح ، وأفرد لكل حرفة سوقاً خاصة بها[1] .

وشهدت بغداد فى عهد منشئها أبى جعفر ، حركة تدوين العلوم والنقل عن الأمم القديمة فترجمت الكتب من الفارسية واليونانية إلى العربية : فنقل حنين بن إسحق بعض كتب بقراط وجالينوس فى الطب ، ونقل ابن المقفع كتاب كليلة ودمنة من الفهلوية ، وترجم كتاب السند هند ، وكتاب إقليدس فى الهندسة . وبذلك كانت بغداد بعد إنشائها مسرحاً لنهضة علمية واسعة النطاق ، وساعد على ذلك أن المنصور نفسه كان راوية للحديث ، بارعاً فى العلوم والفنون ، ولعاً بالطب .

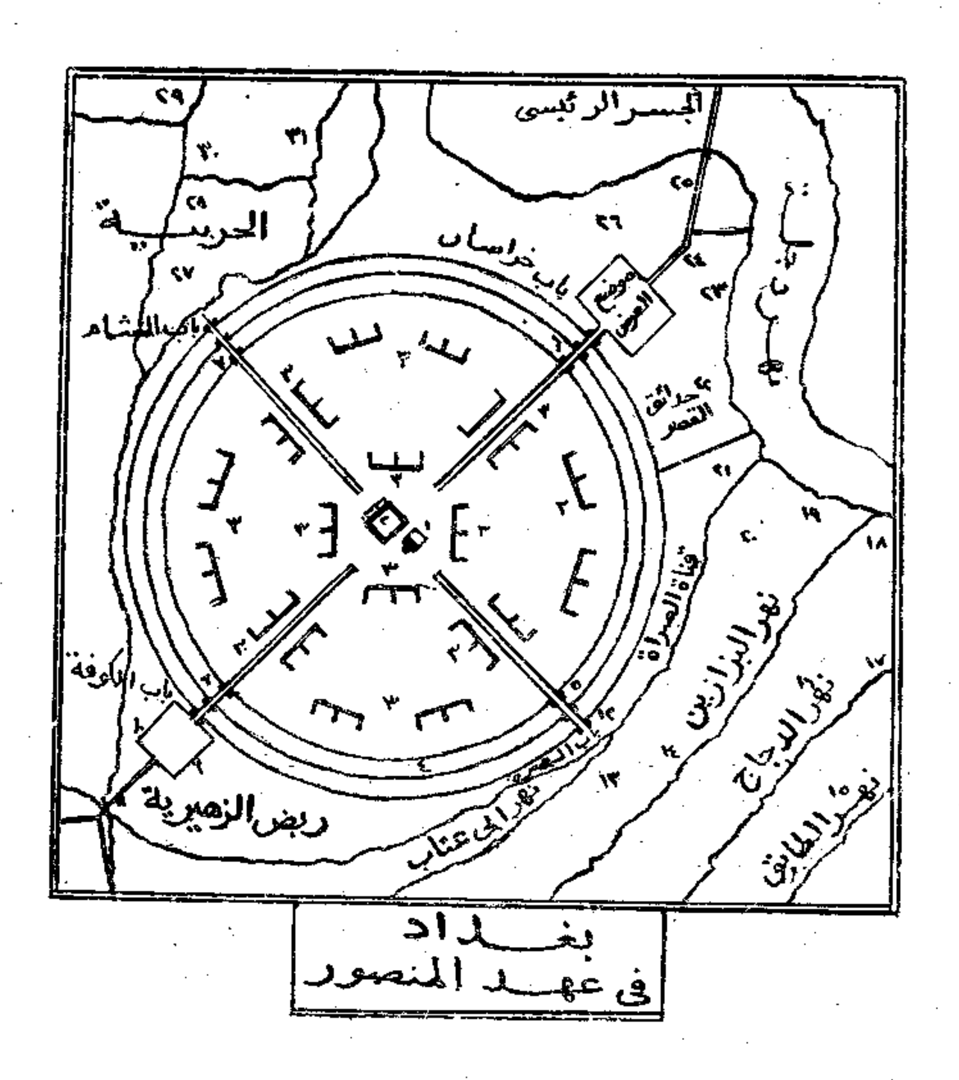
ومن بعد المنصور ، نمت بغداد نمواً عظيما ، وشيدت فيها مبان وأنشئت حدائق ، واستحال العمران من الجانب الغربى إلى الجانب الشرقى ، واشتهرت

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص ٧٨ — ٧٩ .

هذه المدينة فى التاريخ والأدب والقصص فى العصور الوسطى ، وازدهرت فيها الفنون المختلفة ، وانتشرت منها إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى[1] ، وقال عنها المؤرخون إنها : جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الإسلام » .

وظلت بغداد على ذلك منذ إنشائها سنة ١٤٥ هـ حتى كانت سنة ٦٥٦ هـ حيث خربها التتار بقيادة هولاكو بعد استيلائهم على هذه المدينة .



بغداد
فى عهد المنصور

(١) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٨٢ و ١٤٠ .

دليل خريطة بغداد :[1]

١ — جامع المنصور.
٢ — قصر باب الذهب والدهليزان المقابلان لباب الشام .
٣ — دواوين الدولة المختلفة : بيت المـال — دار السلاح — دار القضاء — ديوان الخراج — المخابز العامة — ديوان الرواتب — ديوان الحاجب — قصور أبناء الخليفة الأصاغر
٤ — السجن ويسمى المطبق
٥ — باب البصرة
٦ — باب خراسان .
٧ — باب الشام .
٨ — باب الـكوفة
٩ — مسجد المسيب
١٠ — دار الحرس وديوان الصدقة والإسطبلات وثـكنات الهجانة .
١١ — الجسر القديم .
١٢ — الجسر الجديد .
١٣ — قصر ومسجد الوضاح .
١٤ — الطريق الذى يجتـاز قوس الحرانى .
١٥ — جامع ضاحية بغداد الشرقية .
١٦ — ضريح معروف الـكرخى .
١٧ — مشهد على المعروف بمشـهد المنطقة .
١٨ — دار الجوز .
١٩ — قصر حميد بن عبد الحميد وباب الشعير .
٢٠ — قصر عضد الدين الوزير .
٢١ — الدير القديم بالقرب من ملتقى دجلة بالبصرة .
٢٢ — دار القرار : قصر زبيدة .
٢٣ — قصر الخلد .
٢٤ — إسطبلات الخليفة .
٢٥ — ديوان أشغال الجسر ودار عامل الشرطة .
٢٦ — قصر الأميرين سليمان وصالح .
٢٧ — سجن باب الشام .
٢٨ — قصر سعيد الـكاتب ومعهد الأيتام .
٢٩ — دكاكين الأبناء ـ الفرس .
٣٠ — رحبة الفرس .
٣١ — رحبة شعيب .

(١) الخريطة ودليلها :
Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate

سياسة المنصور الخارجية

١ — بين العباسيين والبيزنطيين :

حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية ثلاث مرات : الأولى فى خلافة عثمان بن عفان ، والثانية فى عهد معاوية بن أبى سفيان ، والثالثة فى عهد سليمان ابن عبد الملك . وتحولت الحرب النظامية بين الأمويين والبيزنطيين إلى غارات تخريب وتدمير فى عهد العباسيين ، وانتهز البيزنطيون فرصة عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول قوى يضارع أسطول الأمويين واعتمادهم على الجنود البرية دون القوات البحرية . وبدأوا يشنون غاراتهم على أراضى الدولة العباسية ، وذلك فى عهد الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور : فغزا قسطنطين الرابع إمبراطور الدولة البيزنطية بعض أراضى الشام سنة ١٣٧ هـ ، واستولى على ملطية فى آسيا الصغرى ، غير أن العباسيين تمكنوا من استردادها فى السنة التالية ، وأقاموا فيها حامية كبيرة من جندهم . وفى سنة ١٥٥ هـ طلب الإمبراطور قسطنطين الصلح مع العباسيين ، على أن يؤدى لهم جزية سنوية[1] .

٢ — سياسة المنصور إزاء الأندلس :

فى عهد المنصور العباسى ، استقلت الأندلس عن الدولة العباسية ، وبدأ بذلك تيار التجزؤ ، أى استقلال الولايات الخاضعة للخلافة العباسية عن سلطان الخلفاء ، واستمر هذا التيار فى الاندفاع فى عهد من جاء بعده من الخلفاء ، حتى أصبح نفوذ الخليفة الفعلى مقصوراً على بغداد ، ولكن بقى له نفوذه الروحى على العالم الإسلامى ، وفى أواخر القرن الثالث الهجرى استقلت بلاد المغرب وتلتها مصر فى منتصف الرابع الهجرى عن العباسيين ، وتأسست دولة الفاطميين التى نافست الدولة العباسية .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٩٧ .

فتح الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموى بلاد الأندلس ، ولـكن تلك البلاد فى السنوات السبع الأخيرة من عصر بنى أمية أى منذ سنة ١٢٥ هـ ، كانت تغلى كالمرجل بالفتن والقلاقل السياسية . وكان سقوط الدولة الأموية بداية للتدهور العام فى كافة أرجاء الدولة الإسلامية : فنى بلاد الأندلس ضعف سلطان الأمويين كما ضعف سلطان العباسيين من بعدهم . وقام النزاع الداخلى بين القبائل وخاصة بين المضرية واليمنية ، انتهى بتولية يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب ابن أبى عبيدة الفهـرى[(١)] وهو من المضريين ، إمرة الأندلس ، حتى جاء عبد الرحمن[(٢)] بن معاوية بن هشام . .

وقد هرب عبد الرحمن من العباسيين عندما أخذوا فى التنكيل بالأمويين ، فذهب إلى المغرب حيث لاق كثيراً من الصعاب ، بسبب محاولة عبد الرحمن ابن حبيب والى إفريقية القبض عليه ، ولـكنه لجأ إلى إحدى قبائل البربر التى حمته ، فأخذ يراسل الأمويين فى الأندلس منتهزاً فرصة النزاع بين المضرية واليمنية ، وأخيراً تمـكن سنة ١٣٨ هـ من دخول الأندلس والاستيلاء عليها والقضاء على يوسف بن عبد الرحمن والى قرطبة[(٣)] .

---

(١) حاول الخليفة المهدى القضاء على عبد الرحمن ، فأرسل جيشاً من البربر بقيادة عبد الرحمن بن حبيب الفهرى لغزو الأندلس ، فهزمه عبدالرحمن بالقرب من برشلونة وتحصن ابن حبيب فى بلنسية وأخذ يحارب عبد الرحمن الداخل إلى أن تمـكن رجل من البربر من اغتيال ابن حبيب . ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٣ .

(٢) ولد عبد الرحمن بن معـاوية بن عبد الملك بن مروان فى دمشق سنة ١١٠ هـ ، فهو من نسل الأمويين ، وتوفى أبوه معاوية وهو لا يزال طفلا ، إلا أنه نشأ نشأة أبنـاء البيت المالك وتعلم تعليمهم ، فأتقن الفروسية وركوب الخيل ، وأجاد قرض الشعر وحفظ القرآن ، وعرف باسم عبد الرحمن الداخل ، ولم تزد سنه عن الخامسة والعشرين وقت رحيله إلى الأندلس بقصد إحياء دولة الأمويين فيها .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ .

وقد أراد أبو جعفر المنصور القضاء على سلطان عبد الرحمن ، فأرسل العلاء ابن مغيث اليحصبي إلى الأندلس لمحاربة عبد الرحمن ، فاجتمع إليه نفر كثير ، ولكن عبد الرحمن هزمهم عند إشبيلية . وهكذا فشل العباسيون فى استرجاع الأندلس وضمها إلى حظيرة الدولة ، فعمل أبو جعفر المنصور على استمالة عبدالرحمن بإرسال الهدايا إليه كما كان يشيد بجليل صفاته وعظيم مقدرته ، فيقول : « . . . إقتحم جزيرة شاسعة المحل ، نائية المطمع ، عصبية الجند ، ضرب بين جندها بخصوصيته ، وقمع بعضهم ببعض بقوة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها . . إن ذلك لهو الفتى كل الفتى الذى لا يكذب مادحه »[1] .

ولما فشل المنصور فى سياسة التودد إلى عبد الرحمن ، أخذ يؤلب عليه ملوك دول الفرنجة ، مما جعل عبد الرحمن يأخذ الحيطة لنفسه من هجوم الفرنجة عليه ، وزاد من متاعبه فى ذلك الحين ، ما دبره المنصور العباسى بقصد إعلان خلافته على الأندلس ، فقد اتفق أن يغزو شارلمان الأندلس على أن تصل لمعاونته قوة من إفريقية ، ولكن هذه المؤامرة التى دبرت فى الخفاء لم تنجح : إذ أنه وقت هجوم شارلمان على الأندلس لم تكن حملة البربر قد وصلت ، ففشلت الخطة ، وقضى عبد الرحمن بذلك على خصومه وأصبح أمير الأندلس دون منازع ومحيى دولة الأمويين بالمغرب . وحكم الأندلس منذ سنة ١٣٨ هـ إلى سنة ١٧٢ هـ . وهى مدة طويلة قضاها فى توطيد عرشه فى تلك البلاد واكتساح أعدائه .

على أن المنصور العباسى ، حاول رغم ذلك استرجاع هذا الإقليم ، لأن خروجه عن حوزته وعن سلطان العباسيين معناه قيام دول أخرى تحاول عصيان النفوذ العباسى ، واتحد المنصور فى سبيل تحقيق ما اعتزمه مع ، شارلمان ، بقصد القضاء على عدوهما المشترك : عبد الرحمن الداخل ، وتزعم هذه المؤامرة إلى جانب المنصور : سليمان بن الأعرابى صاحب برشلونة ، وابن حبيب الفهرى صهر يوسف ابن عبد الرحمن آخر أمراء الأندلس وكان عبد الرحمن قد عزله من الإمارة ،

(١) المقرى : نفح الطيب ج ١ ص ١٥٧ .

فقام مطالباً بها و بإقصاء عبد الرحمن عنها . ورتبت الخطة على أن : يذهب ابن حبيب إلى إفريقية ويجمع جيشاً من البربر يركب به البحر وينزل فى الجهة الشرقية من الأندلس ، ويهاجم شارلمان فى الوقت نفسه بلاد الأندلس من الجهة الشمالية الشرقية ويعاونه فى ذلك سليمان بن الأعرابى ، ثم يلتقى ابن حبيب وابن الأعرابى وشارلمان ، وينادى بأبى جعفر المنصور خاكا . ولـكن ابن حبيب تعجل ونزل شاطىء الأندلس قبل تحرك شارلمان . كما أن جيش ابن الأعرابى لم يساعد شارلمان حين عبر الحدود وحاصر بلدة سرقسطا ، ولما بلغ مسامع شارلمان أنباء ثورة السكسونيين رحل عن الأندلس ليقضى على تلك الثورة فى بلاده ، وبذلك لم تـكلل الخطة بالنجاح . وعاقب عبد الرحمن الداخل كل من اشترك فى تلك المؤامرة ، وثبت سلطانه فى الأندلس .

ويلقب عبد الرحمن الداخل ، نتيجة أعماله الباهرة وجهوده الجبارة ، بلقب « صقر قريش » ، ويرجع سبب تلقيبه بهذا اللقب إلى أن الخليفة المنصور سأل بعض جلسائه : « منْ صقر قريش؟ » فأجاب بعضهم أنه « أمير المؤمنين » يقصدون المنصور ، وأجاب البعض الآخر أنه معاوية ابن أبى سفيان . ولـكن المنصور قال لهم إن صقر قريش هو عبد الرحمن الداخل ابن معاوية[1] ، ذلك الشاب الذى خرج إلى الأندلس ليجدد ملك أجداده ، بعد أن لم تـكن هناك بارقة أمل فى إحيائه فى أية بقعة من بقاع الأرض .

بين المنصور والفرنجة :

رغب أبو جعفر المنصور إلى ببن Pepin ملك الفَرنجة أن يعاونه على عبد الرحمن الداخل ، الذى استقل ببلاد الأندلس عن الدولة العباسية ، فأرسل أبو جعفر السفراء إلى ببن وأقاموا عنده عدة سنين عادوا بعدها إلى بغداد ، دون أن تؤدى

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

مفاوضتهم إلى نتيجة ما ، سوى أنها ولدت فى نفس عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس الخوف من هجوم الفرنجة على بلاده ، و بذلك لم يقدم على إظهار عدائه الحربى للخليفة المنصور .

* * *

توفى المنصور سنة ١٥٨ ﻫ ، على مقربة من مكة وهو ذاهب إلى الحج ، وعمره نحو ٦٣ سنة ، وترك الدولة العباسية ثابتة مستقرة وطيدة الأركان ، بعد أن قاد ذلك العراك الهائل ضد أعداء الدولة ، ووضع أسس النظم التى سار عليها خلفاء بنى عباس وعمل إصلاحات هائلة فى الدولة الإسلامية ، جعلت من المنصور حاكما مستنيراً أو مصلحاً كبيراً .

٣ — المهدى بن المنصور

١٥٨ = ١٦٩ ﻫ = ٧٥٥ — ٧٨٥ م

حكم المهدى إحدى عشرة سنة ، لم تشهد هذه الدولة الواسعة خلالها حروبا أو فتنا بالنسبة لما وقع من قبل ، وساعد على ذلك أنه كان مسالما لا يميل إلى الشدة والعنف ، وتولى الخلافة بعد أن تمهدت الأمور واستقرت أحوال الدولة .

أعماله :

اهتم المهدى اهتماما بالغا بالفنون وخاصة فن العمارة ، فقد أقام سور الرصافة و بنى مسجد الرصافة ، ووسع المسجد النبوى فى المدينة المنورة وجمله وزينه بالفسيفساء والعمد الرائعة ، وكسا الكعبة بعد أن نزع الكسوة القديمة عنها ، وزاد المهدى فى مسجد البصرة وجمله ، وأمر بأن تكون المنابر فى جميع المساجد متوسطة الارتفاع (كالمسجد النبوى) ، و بنى محطات ومنازل على جوانب الطرق التى

يسلكها الحجاج ، وأقام أحواضا لخزن المياه ليشربوا منها، ووضع علامات على طول طريق الحج ليهتدى بها المسافرون ، وأمر بمنع المرضى بالجذام من أن يتسولوا وأجرى عليهم الأرزاق ، وبأن يكون طعام المسجونين على حساب الدولة بعد أن كان يرسل إليهم من بيوتهم ، وهذا العمل يوضح لنا اتصاف حكومته بصفة البر بالفقراء والمحتاجين .

ومنذ عهد المهدى ، بدأت ظاهرة جديدة لم تكن موجودة من قبل فى الدولة العباسية ، فقد أقبل الخليفة المهدى على سماع الغناء . ولم تكن هذه الظاهرة الجديدة فى تاريخ الدولة العباسية مقصورة على الخلفاء ، بل تعدتهم إلى الأوساط الأخرى حتى اصطبغ تاريخ بغداد خاصة وتاريخ الدولة العباسية بوجه عام بمظاهر الترف والأبهة .

الحركات الدينية فى عهد المهدى :

من الظواهر الخطيرة التى أقلقت المهدى ، ظهور بعض الحركات الدينية التى كادت تزعزع خلافته ، من أهمها حركة المقنعية بزعامة المقنع الخراسانى وحركة الزندقة .

قاد الحركة الأولى رجل مولود فى خراسان موطن النحل والتقاليد الفارسية وكان أعور دميم الخلقة ، وكان ملثما حتى لا يرى الناس وجهه فسمى المقنع ، ونادى بأن الله خلق آدم فتحول فى صورته ثم فى صورة نوح وهكذا حتى أبى مسلم الخراسانى ثم تحول إلى هاشم ، وهاشم فى دعواه هو المقنع ، أى أن الله قد حل فيه بعد أبى مسلم . وبايعه خلق كثير كانوا يسجدون له ، وكان يعتقد أن أبا مسلم أفضل من النبى عليه السلام . على أن حركة هذا الرجل لم يطل أمدها وانتهت بقتله سنة ١٦١ هـ[1] .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٣٤١ — ٣٤٣ . الشهرستانى : الملل والنحل ج ١ ص ٢٠٥ — ٢٠٧ .

أما الحركة الثانية ، فهى الزندقة ، وهى كلمة تطلق على الملحد . ومبادىء هؤلاء الزنادقة على جانب عظيم من الخطورة ، إذ أنهم كانوا ينادون بالإباحة المطلقة والفوضى والتحلل من جميع الروابط الاجتماعية . وعلى الرغم من أن الخلفاء تسامحوا مع كل الفرق النصرانية واليهودية وغيرها ، فإن الزنادقة لم يلقوا شيئا من التساهل أو العطف من جانب الخلفاء ، إذ أوجد المهدى هيئة جعل اختصاصها مقصوراً على البحث عن الزنادقة والتنكيل بهم وجعل عليها رئيساً أطلق عليه اسم صاحب الزنادقة ، وتتبعتهم هذه الهيئة فقُتل منهم فى عهد المهدى عدد وفير وارتكب فى سبيل ذلك كثير من أعمال العسف والظلم ، لأن هذه الهيئة كانت تعاقب على الظن ، وتعذب وتحرق كل من يتطرق الشك إليه بأنه من الزنادقة ، وكان منهم عدد كبير من رجال العلم والأدب [1] .

صفاته :

كان المهدى من خلفاء بنى العباس الذين أحبهم الشعب ، فقد أجزل العطاء للعلماء والشعراء وذوى الحاجة حتى قيل إنه صرف جميع ما خلفه المنصور . ولقد تعلم المهدى تعليما عربياً محضاً ، فدرس القرآن وتأثر به وعكف على دراسة الأخبار والأشعار ، فنشأ فصيحاً بليغاً ، يجيد قول الشعر ، ويحفظ كثيراً من أمثال العرب ، وجمع له المفضل الضبى أمثال العرب ومختارات من شعرهم . وممن ظهر فى أيامه من الشعراء أبو العتاهية ، وكان مولاه عمرو بن زبيع يقول الشعر ويجيده . وعرف عن المهدى الحياء والعفو والجود والحلم والكرم ، والامتناع عن شرب النبيذ . وعمل على نشر العدل ، وجلس للمظالم بنفسه ، فأنصف المظلوم ورد المظالم لأصحابها .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٤٠١ . الطبرى جـ ١٠ ص ٤٢ .

السياسة الخارجية ١ — مع بلاد الأندلس

لم تجرؤ دولة على مناهضة العباسيين فى عهد المهدى ، سوى ما كان من عداء المهدى لعبد الرحمن ، وهى تلك السياسة التقليدية التى سارت عليها الدولة العباسية إزاء الأندلس منذ عهد الخليفة المنصور . ولـكن المسألة لم تتعد ذلك الحد بين الطرفين : المهدى وعبد الرحمن ، وذلك لما رآه المهدى من قوة عبد الرحمن وما قد يتكبده جند العباسيين من المصاعب والمشاق فى سبيل الوصول إلى بلاد الأندلس ، وتوترت العلاقات بين الأندلس والخلافة العباسية فى ذلك العهد .[1]

٢ — بين العباسيين والبيزنطيين

عادت العلاقات بين العباسيين والبيزنطيين فى عهد المهدى إلى أسوأ مما كانت عليه فى عهد المنصور ، فإن الحروب البرية والبحرية بينهما لم تنقطع . ذلك أنه منذ سنة ١٥٩ هـ وما بعدها توالت حملات المهدى على البيزنطيين ، فخرج قواد المهدى : العباس بن محمد ، وثمامة بن الوليد ، والحسن بن قحطبة بقصد غزو بلاد الروم ، ولـكن حملاتهم باءت بالفشل ، مما شجع الروم على الإغارة على حدود الدولة العباسية فى سنتى ١٦٢ و ١٦٣ هـ ، بل استولوا على مرعش وأحرقوها ، وخرج المهـدى بنفسه ، بعد أن استخلف على بغداد ابنـه موسى الذى تولى الخلافة بعد أبيه وتلقب بالهادى ، كما خرج ابنه هارون [الرشيد] على رأس جيش كبير سار به إلى بلاد الروم فاستولى على حمص ، بعد أن تعهد لواليها ألا يقتل أحداً من أهلها أو يكرههم على الرحيل عنها فى نظير تعهد الروم لهارون بدفع غرامة حربية و إطلاق سراح الأسرى ، ثم عاد هارون إلى حلب التى اتخذها

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٢٤ — ٢٢ .

أبوه المهدى قاعدة لأعماله الحربية ، فسر أبوه بعودته وبما أظهره من همة وإقدام فى مناجزة الروم .

ولكن الروم نقضوا شروط الصلح ، فعاد هارون لقتالهم ، كما جمع المهدى جيشاً بلغ مائة ألف جندى جعل على رأسه ابنه هارون ، فوصل هذا الجيش إلى سواحل البسفور ، وأرغم الملكة إرينى ،أرملة ليو الرابع وكانت وصية على ابنها قسطنطين السابع ، على أن تدفع للمسلمين تسعين ألف دينار جزية سنوية تقضى على دفعتين ، وأن تقيم لهم الأسواق والأدلاء فى الطريق عند أوبتهم إلى بلادهم ، وأن تسلم أسرى المسلمين ، وانتهت هذه الغزوة بعقد هدنة بين الروم والعباسيين لمدة ثلاث سنوات [1] .

٤ — الهادى بن المهدى

١٦٩ — ١٧٠هـ = ٧٨٥ — ٧٨٦م

اعتلى الهادى عرش الخلافة بعد أبيه . وكان الهادى قد قضى أكثر أيامه قبل اعتلاء العرش فى بلاد المشرق ، واستمرت خلافته سنة واحدة . وفى عهده كانت الخلافة ضعيفة ، فقد أصبحت أموال الدولة تصرف على المقربين وعلى المتصلين بالخليفة من الشعراء وغيرهم ، كذلك بدأ نساء القصر يتدخلن فى شئون الدولة مما قلل من هيبتها ، ودب الفساد فى الجيش إذ كان الجند يتعصبون بعضهم على بعض ، ووصلت الحالة إلى حد مخيف حتى أنهم طالبوا بمرتباتهم عن سنوات مقبلة ، وازدادت ظاهرة التجزؤ وضوحاً فى عصره باقتطاع أجزاء جديدة من أراضى الدولة العباسية وضمها إلى دول أخرى .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٣٤٢ .

سياسة إزاء العلويين :

اقتطع من الدولة العباسية بعض دويلات إثر حوادث معينة ، وهذه الدويلات كانت تابعة للعباسيين ، وكانت جزءاً من دولتهم ثم استقلت عنهم ، وبذلك انتابها تيار التجزؤ .

وقد أدى قيام العلويين ضد العباسيين فى عهد الهادى ، إلى فرار أحد زعمائهم إلى المغرب[1] ، حيث أسس دولة علوية شيعية . وتفصيل ذلك أن الحسين ابن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب من زعماء بنى الحسن فى المدينة المنورة ، ثار ومعه كثير من العلويين فى أوائل خلافة الهادى سنة ١٦٩ هـ على عمر بن عبد العزيز الوالى العباسى المعين على المدينة ، وهو من سلالة عمر بن الخطاب . وكان شديد الوطأة على العلويين تمشيا مع سياسة العباسيين إزاءهم ، إذ أمر بالقبض على من يشتبه فى أمره منهم وحبسه والتضييق عليه وإهانته بالضرب والتشهير والطواف به فى الطرقات . وقد اعترض الحسين على الحط من كرامة أهل بيته ، فقصد مع أتباعه دار الإمارة فى المدينة ، ولكن عاملها تحصن بها ، ثم كسروا السجون وأخرجوا من فيها وبويع الحسين[2] .

على أن ثورة العلويين لم تؤد إلى نتيجة ما ، فقد خاف زعيمهم الحسين ورحل من المدينة إلى مكة ، حيث أثار بعض الحجاج والشيعة على الخلافة العباسية . فلما اتصل ذلك بمسامع الخليفة الهادى ، بعث إليه جيشاً هزمه فى « فخ » وهو واد فى طريق مكة ، يبعد عنها بستة أميال ، حيث قتل الحسين بعد أن أبلى أحسن البلاء[3] ، وقتل معه بعض أهل بيته . وكانت هذه الوقعة من الشدة بحيث قيل

---

(١) يقصد بها شمال إفريقية.

(٢) الفخرى ص ١٧٢ — ١٧٣ .

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٢٦ .

« لم تكن مصيبة بعد كربلاء أشد وأفجع من « فخ » ، وكثر شعر الشيعة فى رثاء قتلاهم ، ومن ذلك قول أحدهم :

فلأبكين على الحسين بعولة وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة[1] الذى واروه ليس بذى كفن
تركوا بفخ غدوة فى غير منزلة الوطن
كانوا كراماً هيّجوا لا طائشين ولا جُبن
غسلوا المذلة عنهم غسل الثياب من الدرَن[2]
هُدى العباد بجدهم فلهم على الناس المِنن

وعلى أثر تلك الموقعة ، هاجر العلويون إلى المغرب ، وهناك أظهر إدريس ابن عبد الله صحة نسبه وقرابته من الرسول ، وأظهر حقه فى الخلافة . والتف حوله البربر ، وبايعوه فى يوم الجمعة الرابع من شهر رمضان سنة ١٧٢ هـ[3] .

وكانت سلطة العباسيين على تلك الجهات إسمية ، وبذا قامت هناك الدولة المعروفة باسم « دولة الأدارسة » . ومن ثم فإن موقعة « فَخ » ، على الرغم من أنها بسيطة فى حقيقة أمرها ، إلا أنها أدت إلى اقتطاع جزء من الدولة العباسية . ومهد قيام الدولة الإدريسية السبيل لظهور الفاطميين والدولة الفاطمية فى شمالى إفريقية[4] .

---

(١) هو الحسين بن الحسن بن على ، قتيل فخ .
(٢) الدرن : القذارة .
(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧ .
(٤) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ٨٦ .

اضطراب نظام ولاية العهد :

فى عهد الهادى ، اتضح بجلاء اضطراب نظام الخلافة : فقد تولى المهدى بعد أبيه المنصور ولم يخلف المنصور ولى عهده عيسى بن موسى ، و بعد المهدى كان المقرر أن يلى عيسى بن موسى الخلافة ولكن المهدى حمل عيسى على أن يخلع نفسه فصارت الخلافة للهادى ، ثم أراد الهادى أن تكون الخلافة لابنه جعفر دون أخيه هارون، ولكن الهادى مات سنة ١٧٠ هـ دون أن تتم رغبته .وهنا فلاحظ عدم وجود نظام لوراثة العرش[1] مما أدى إلى الفوضى وعدم الاستقرار .

تدخل النساء فى شئون الدولة :

وفى عهد الهادى بدأ نساء القصر يتدخلن فى الشئون السياسية ، وبدأت حياة القصر تتعقد ، وظهرت دسائس البلاط ، حتى قيل إن الهادى قتل بسبب دسائس بعض الجوارى . فقد كان للمهدى جارية يمنية تسمى الخيزران ، قيل إنه اشتراها بمائة ألف درهم ، أنجبت له ولديه اللذين وليا الخلافة العباسية من بعده وهما : الهادى وهارون الرشيد . وكان لهذه الجارية الكلمة النافذة فى بغداد تأمر وتنهى كيفما شاءت ، حتى كان الناس يتوافدون على دارها ويلجأون إليها . فلما أرادت أن تتابع نفس سياسة الأمر والنهى التى اعتادتها ، وقف منها ابنها الهادى موقفاً مغايراً لموقف أبيه منها . وذات يوم ، سألت الخيزران ابنها الهادى

---

(١) كان ذلك الاضطراب فى نظام ولاية العهد ، من أبرز عوامل سقوط الدولة الأموية : فلم يأبه مروان لترتيب وراثة العرش من بعده الذى وضع فى مؤتمر الجابية وحصرت فيه ولاية العهد فى عبد الملك ثم خالد بن يزيد ومن بعدهما عمرو بن سعيد وولى عهده ابنيه عبد الملك ثم عبد العزيز . ولما اعتلى عبد الملك العرش بعد أبيه مروان . جعلت وراثة العرش فى ابنيه : الوليد ثم سليمان ، دون أن يكترث لأحقية أخيه عبد العزيز ، لولا أن عبد العزيز توفى . وعمل الوليد على خلع أخيه سليمان من ولاية العهد وتوليتها ابنه عبد العزيز ، ولما ولى سليمان الخلافة بعد أخيه الوليد انتقم ممن اشتركوا فى إبعاده عن وراثة العرش .

قضاء مسألة رجل لم يجد إلى قضائها سبيلا ، فألحت فى الطلب ، وازداد هو فى الرفض مبينا الأسباب التى تحمله على ذلك ، ورغم هذا انصرفت غاضبة معلنة أنها لن تقصده فى حاجة بعد اليوم . ولـكنه لم يجب طلبها ولم يسترضها ، بل نهرها[١] . فلما سمع الناس ذلك انقطعوا عن سؤال أمه الخيزران ، وامتنعوا عن التردد عليها[٢] . وأثار موقف الهادى منها حفيظتها وجلب كراهيتها لابنها ، وعز ذلك عليها إذ كان لها مكان بارز فى الحياة السياسية فى بغداد ، رغم أنه قصد من إبعادها عدم دسها فى تيار الحوادث كى لا يغمرها فى طريقه .

ظل العداء بين الهادى وأمه الخيزران على أشده إلى يوم وفاته ، وتردد على صفحات التاريخ أن موت الهادى بعد مرضه كان بتدبير أمه ، إذ دست إليه بعض الجوارى لقتله بالجلوس على وجهه حتى مات . إلا أن عاطفة الأمومة أشد حنواً من أن تجعل الخيزران تقترف مثل هذا الإثم ، ولـكن رغم استبعادنا لمسألة مقتل الهادى بإيعاز أمه ، فإن محاولة الهادى عزل أخيه هارون من ولاية العهد وكان محبباً إلى أمه ، ربما جعلت الخيزران تفـكر فى قتله ، كى لا تمـكنه من إقصاء أخيه عن عرش الخلافة من بعده ، وكانت بذلك ذات أثر فعال فى إقرار ولاية العهد للرشيد حتى فى وقت انزوائها[٣] .

٥ — هارون الرشيد

١٧٠ — ١٩٣ هـ = ٧٨٦ — ٨٠٩ م

ولد هارون فى أواخر ذى الحجة سنة ١٤٥ هـ ، وهو ابن المهدى ، وأمه

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٥٧ — ٢٦١ . الطبرى جـ ١ ص ٣٣ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٣ .
(٣) على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٧٩ .

الخيزران . ويعد الشخصية الثانية البارزة فى العصر العباسى بعد أبى جعفر المنصور ، وفى عهده بلغت بغداد درجة لم تصل إليها من قبل ، فقد أصبحت كعبة رجال العلم والأدب ومركز التجارة ، واشتهر اسم الرشيد فى الغرب ، لما كان بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من العلاقات السياسية وأواصر الود .

عوامل شهرة الرشيد :

يعتبر الرشيد أشهر خلفاء بنى العباس قاطبة : لما اتصف به من الكرم والجود ، إذ كان يعطى الكثير من الهبات للشعراء الذين يمدحونه ، كما كان يغدق الأموال على الناس فى المواسم . وعرف عن الرشيد التقوى والورع ، فإنه كان فى كل سنة إما حاجاً أو غازيا ، وإذا حج حجّ معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج حج عنه ثلاثمائة بالنفقة السابغة ، وكان يحج ماشياً ولم يحج ماشياً خليفة سواه[1] . على أن ذلك لا ينفى محبته لأمور لا تتفق وورعه : منها حب الغناء والموسيقى وشرب النبيذ . واشتهر عن الرشيد الميل إلى الأدب وتقريبه للأدباء ، وإجزاله العطاء عليهم ، حتى أصبحت بغداد فى عهده مقراً لمشاهير العلماء والأدباء من أمثال أبى العتاهية والعباس بن الأحنف والأصمعى والواقدى وأبى يوسف صاحب كتاب الخراج . وعنى الرشيد كذلك برجال الفن الجميل ، وظهر فى بغداد فى عهده عدد منهم كابراهيم الموصلى وإسحق الموصلى وغيرهما[2] .

وأصبح عصر الرشيد عصراً فارسياً من حيث نظم الحكم ومظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وكان كل شىء فارسى محبوبا مرغوبا فيه : فاحتفى

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ١٨٨ .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٧٥ .

بالأعياد الفارسية القديمة كالنيروز ، وأصبحت الملابس على النمط الفارسي ، وصار الطعام والشراب فارسياً ، وأمراء الجيش وقواده صاروا كلهم من الفرس ، وتولى الوزارة رجال من الفرس هم البرامكة .

الثورات ضد حكم هارون : ١ — ثورات العرب :

كانت الدولة فى عصر الرشيد عربية من جهة اللغة والدين ، أما من جهة الإدارة والحكم والقائمين بأمرها فإنها كانت فارسية ، وبذلك كانت الغَلَبَة للفرس ، وكان اصطناع العباسيين للفرس أمراً طبيعياً ، لأن الدولة قامت على أكتافهم ، ولكن ذلك أدى إلى إقصاء العرب عن المناصب الهامة وعن الجيش ، فحدث الجفاء بين العرب والعباسيين ، وأحس عرب الشام بالحالة التى انحدروا إليها وفكروا فى الثورة وعصيان الحكم العباسى ، ومن تلك الثورات أيضاً ثورة عرب الحوف بمصر وسكان الجهة الشرقية من الدلتا ، إلا أن ثورتهم انتهت بالفشل وقضى عليها والى الرشيد فى مصر بشدة ، كذلك ثار عرب الموصل فى الجزيرة ومنعوا الخراج ، واستمرت فتنتهم وقتاً طويلا ، حتى خرج إليهم الرشيد بنفسه ونكل بهم وبمدينتهم .

٢ — فتنة الخوارج :

فى عصر الرشيد ، قام الخوارج بفتنة تزعمها الخارجى المشهور الوليد بن طريف وهو من تغلب أى من عرب الجزيرة ، وتبعه عدد كبير بلغ ثلاثين ألفاً ، فإن الوليد رمى الخليفة هارون بالظلم والجور ، ولكن الرشيد أرسل إليهم قائده يزيد الشيبانى ، وحين برز طريف لقتال جند يزيد ، ارتجز .

أنا الوليد بن طريف الشارى قسورة لا يصطلى بنارى

جوركم أخرجنى من دارى

واشتدت شوكة الوليد وكثر أتباعه ، وانتصر أكثر من مرة على جند هارون وقَتَل والى نصيبين وأذربيجان ، وعاث فيهما فساداً ، ثم عاد إلى الجزيرة ، وعبر نهر دجلة حتى وصل إلى حلوان ، ولكنه هزم وقتل على يد يزيد ، ورثته أخته بقولها :

أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناك فقدان الشباب وليتنا فديناك من فتياننا بألوف

وقد أرادت أخته الفارعة قيادة الحرب من بعد مقتل الوليد ، ولكنها كفت عن ذلك بعد قليل[1] .

٣ — خروج العلويين :

تابع العلويون ثوراتهم فى عهد الرشيد كما ثاروا من قبل فى عهد المنصور والهادى ، رغم أن الرشيد أراد أن يستميلهم إليه حتى أطلق سراح كثير ممن كان منهم فى بغداد ، ولم يعدل العلويون عن اعتقادهم الراسخ فى أحقيتهم للخلافة فقاموا بزعامة رجلين : أحدهما يحيى بن عبد الله بن الحسن العلوى صاحب الديلم أو طبرستان الواقع جنوب بحر قزوين وأحد أقاليم فارس وهو أخو محمد ابن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية الذى ثار زمن المنصور ، وثانيهما إدريس أخو يحيى بن عبد الله الذى فر إلى بلاد المغرب .

كان يحيى بن عبد الله قد اتخذ إقليم طبرستان حصناً منيعاً يتحصن فيه

(١) محمد الخضرى : الدولة العباسية ص ١٤٢ — ١٤٣ .

ويجتمع إليه هناك عدد كبير من الشيعة لتدبير أمر الثورة ضد العباسيين ، ولما استفحل أمر يحيى أرسل إليه الرشيد قائده الفضل بن يحيى على رأس جيش بلغ نحو خمسين ألف جندى ، وهذا القائد لم يحارب يحيى بن عبد الله بل فاوضه فى التسليم دون قتال ، فرضى بذلك إذا كتب له الرشيد يؤمنه على حياته ، فكتب الرشيد الأمان بخطه ، ولكنه مالبث أن نقضه وحبس يحيى وظل فى حبسه حتى مات[1] .

أما إدريس بن عبد الله أخو يحيى ، فقد فر إلى مصر سنة ١٧٢ هـ ، ثم توجه إلى بلاد المغرب الأقصى ، حيث التف حوله البربر ، وقد عجز الرشيد عن إخضاعه بحد السيف ، ففكر فى بلوغ غايته عن طريق المكائد والخدع ، فأرسل إليه رجلا عرف بالمكر والدهاء وأمره بأن يتقرب إليه وأن يظهر أمامه بمظهر السخط على العباسيين وعلى حكمهم ، ولما وصل هذا الرجل إلى بلاد المغرب ، تقرب من إدريس حتى صار من خواصه ، ثم دس له السم فمات سنة ١٧٧ هـ دون أن يترك ولداً يؤول إليه الأمر من بعده ، فانتظر أتباعه أمه وكانت حاملا ، فوضعت ولداً سموه إدريس وبايعوه بالخلافة . وبذلك ازداد خطر الأدارسة ، فأصبح الرشيد يخاف العلويين كافة ويعمل على إستئصال شأفتهم[2] .

وما عمله الرشيد مع يحيى وإدريس ، سبق أن عمله الخلفاء العباسيون الذين سبقوه مع المعارضين لسياستهم ومع من حاولوا تعريض دولتهم للخطر .

---

(١) ابن طباطبا الفخرى ص ١٧٦ — ١٨٧ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٢٦ — ١٢٧ .

٤ — ثورات فى المغرب والمشرق

نازعت قبائل البربر فى إفريقية بين سنتى ١٨٧و ١٨١ ﻫ سلطان العباسيين، فأرسل إليهم الرشيد جيشاً بقيادة هرثمة بن أعْيَن ، فهزمهم ، ولكن هذا القائد مالبث أن تخلى عن القيادة وعاد إلى المشرق . ثم قامت فى هذه البلاد دولة الأغالبة على يد ابراهيم بن الأغلب ، الذى عين أميراً على هذه البلاد من قِبَل الخليفة العباسى ، لتأديب البربر والوقوف فى وجه الأدارسة إذا ما أرادوا الإغارة على أراضى الدولة العباسية ، على أن دولة الأغالبة استقلت بعد قليل عن الخلافة العباسية فى بغداد ، ولم يصبح للعباسيين سوى السيادة الإسمية على هذه الدولة ، واتخذت مدينة القيروان الواقعة فى الجنوب الغربى من تونس الحالية حاضرة لها ، وظلت على ذلك إلى أن استولى الفاطميون سنة ٢٩٧ ﻫ على بلاد المغرب .

أما فى المشرق فقد ثارت خراسان على علىّ بن عيسى الوالى المعين عليها من قِبَل الرشيد ، لسياسة الظلم ، والعسف التى اتبعها . وأرسل كبار رجال خراسان إلى الرشيد يشكون إليه من تصرفات هذا الوالى ، فخرج إليه الرشيد بجيش كثيف ، عسكر به فى الرى ، ولكن الوالى قابل الرشيد بهدايا ثمينة ووزع مثلها على من صحبه من رجال دولته . فعاد الرشيد إلى بغداد ، واستمر هذا الوالى فى ظلمه وجبروته ، حتى انتهى الحال بقيام ثورة عنيفة ضده فى خراسان ، هجم الأهالى خلالها على قصره واستولوا على مافيه ، ولما بلغ ذلك الرشيد ، تحقق من استبداده ، وأنبه على سياسته العقيمة وتحديه شعور الأهالى ، وقرر عزله[١] . وأرسل إليه القائد هرثمة بن أعين ، فقبض عليه هو وأتباعه وصادر أموالهم ، وبعث بهم إلى الرشيد ، وهدأت الفتنة فى خراسان واستقرت الأحوال[٢] .

---

(١) راجع خطاب هارون الرشيد لعلى بن عيسى فى الطبرى ج ١٠ ص ١٠٢ .
(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٥٨ .

البرامكة :

ينتمي البرامكة إلى أسرة فارسية ، دفعت النهضة العلمية إلى الأمام، وشجعت الفنون ، وصار لها اليد الطولى في إدارة شئون الدولة العباسية ، وما لبثت أن سقطت في ظروف خاطفة غامضة . وجد هذه الأسرة هو « برمك » [1] وكان رجلا فارسياً عالماً بالطب والتنجيم ، قدم إلى دمشق في عهد بني أمية سنة ٨٦ هـ ، حيث داوى مسلمة ثم هشام ابني عبد الملك بن مروان .

ويُعد خالد بن برمك ممن شاركوا في بناء الدولة العباسية ، عيّنه السفاح وزيراً له ثم ولاه المنصور على طبرستان ثم الموصل ، وكان حسن التدبير يصرف الأمور بحكمة وروية .

وظهر من بعده يحيي بن برمك الذي تولى في زمن المهدي تربية ابنه هارون . وقويت الصلة بين هارون ويحيي حتى كان الرشيد يناديه وهو خليفة « يا أبي » ، ولما اعتزم الهادي نقل ولاية العهد عن الرشيد إلى ابنه جعفر نهاه يحيي عن عمل ذلك [2] ، وتولى الوزارة [3] في عهد الرشيد . واستعان في تصريف شئون الدولة بأبنائه الأربعة : الفضل ، وجعفر ، ومحمد ، وموسى ، وإن كانت مكانة الفضل وجعفر ومقدرتهما الإدارية قد فاقت مكانة ومقدرة محمد وموسى . وحين قلد الخليفة الوزارة ليحيي البرمكي ، قال لوزيره : « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقي إليك فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » . ثم دفع إليه خاتمه الخاص وسلمه خاتم الخلافة ، حتى صار بيده الحل والعقد في كل شئون الدولة ،

---

(١) صفة تطلق على كل من كان يلي في الزمن القديم سدانة معبد قريب من مدينة بلخ يقال له النوبهار ، والسدانة عبارة عن الكاهن الأول في المعبد . وهذا المعبد من المؤسسات الدينية الكبيرة التي أنشئت في الزمن السابق للاسلام ، ويظهر أنه كان يتخذ في الأصل للعبادة البوذية أي الديانة الهندية القديمة ، ولكن الفرس جعلوه بيتاً من بيوت النار للتعبد فيها حسب الديانة الزرادشتية القديمة .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٢ ص ٦١ .

(٣) كان يحيي وزير تفويض ، أي وزير تام السلطة يمثل للخليفة في كل شيء .

فانصرف الناس إليهم ، ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتغنى بكرمهم والإشادة بجودهم .

وفى عهد جعفر بن يحيى قبض البرامكة على أمور الحكم ، وصار بيدهم الدخل والخرج . حتى كان هارون يطلب البسيط من المال فلا يصل إليه إلا عن طريق البرامكة ، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه ، فعظمت آثارهم وبعُد صيتهم ، وعمروا مراتب الدولة وخططها بالرؤساء من ولدهم وصنائعهم ، واحتازوها لأنفسهم عمن سواهم من وزارة وقيادة وكتابة ، وانصرفت نحوهم الوجوه وخضعت لهم الرقاب وتخطت إليهم من أقصى التخوم هدايا الملوك ، وأفاضوا على رجال الشيعة العطاء » .

بذلك سيطرت الأسرة البرمكية على الدولة العباسية ، سياسياً واقتصادياً وإدارياً وأدبياً ، وأصبحت مقصد العلماء والشعراء والأدباء ، وتجمعت الوفود على أبوابهم أكثر من وقوفهم على باب الخليفة ، لما عرف عنهم من الجود والكرم والحماسة فى النهوض بالعلوم وترقية المعارف ، وعظم ثراء البرامكة إذ كان الخليفة يغدق عليهم الأموال الوفيرة فوق ما كانوا يستحوذون عليه من مال . وزاد سلطان الأسرة البرمكية فى أيام الرشيد . حتى أن صاحب الفخرى روى : « أن عبد الملك بن صالح العباسى طلب إلى جعفر البرمكى أن يخاطب الرشيد فى ثلاث حوائج هى : أن يقضى عنه ديناً مقداره ألف ألف درهم ، وأن يولى ابنه إحدى الولايات ليرفع بذلك قدره ، وأن يزوج هذا الإبن من ابنة الخليفة ، فقضى له جعفر هذه الحوائج الثلاث من فوره »[1] .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٨٥ — ١٨٦

نكبة البرامكة :

اختلف المؤرخون فى العوامل التى دفعت الخليفة هارون الرشيد إلى التنكيل بالبرامكة : قيل إنه غضب عليهم لأن جعفراً البرمكى أطلق سراح يحيى بن عبد الله العلوى بعد أن كان الرشيد قد أمره بحبسه . وقيل إن استبداد البرامكة بالملك وجمهم الأموال استمال الناس إليهم مما أوغر صدر الرشيد عليهم وحمله على الإيقاع بهم ، وساعد على إشعال نار العداوة والبغضاء سعاية الفضل بن الربيع وكراهية زبيدة أم الأمين للبرامكة ، أضف إلى ذلك ما اتصل بعلم الرشيد من أن عبد الملك ابن صالح العباسى كان يدعو لنفسه وأن البرامكة يساعدونه ، كذلك أظهر البرامكة الدالة على الرشيد مما لم تحتمله نفسه ، كما أنهم عاشوا عيشة البذخ والإسراف وأغدقوا الأموال على الشعراء والعلماء مما أثار عوامل الغيرة فى نفوس أعدائهم وحسّادهم .

على أن أهم عامل أفاض المؤرخون فى القول عن أهميته فى حدوث نكبة البرامكة ، ما قيل عن وجود علاقات بين جعفر بن يحيى و بين العباسة أخت الرشيد . فإن العباسة يقترن اسمها بإسم رجل من أقطاب أسرة البرامكة ، هو جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى الذى كان مقربا من نفس الرشيد ، لما عرف عنه من رجاحة العقل والحزم وحسن تصريف أمور الدولة ، وكان الرشيد لايبت فى أمر دون مشورته ، حتى لازمه جعفر فى غدواته وروحاته ، ولم يستطع الرشيد أن يجتمع فى مجلس من غير وجوده فيه . وكان الرشيد يعمل فى نفس الوقت بمشورة أخته العباسة . فقد كانت ذات ثقافة عالية ، وذكاء نادر ، كما كانت حلوة الحديث ، لطيفة المعشر ، ولذا كانت دائما تحضر مجلس الرشيد ، شأنها فى ذلك شأن جعفر البرمكى .

وكان حرص الرشيد على أن تحضر العباسة مجالسه كما يحضرها جعفر ، داعيا إلى تفكيره فى طريقة شرعية تبيح لجعفر أن يجلس فى حضرة الرشيد مع

وجود العباسة . وللوصول إلى ذلك ، اجتمع الرشيد يوما بجعفر البرمكى وقال له : ويحك ياجعفر ! ليس فى الأرض طلعة آنس إلىّ وإليها أميل سوى رؤيتك ، وإن للعباسة أختى منى موقعا ليس أقل من ذلك ، وقد نظرت فى أمرى معكما ، فوجدتنى لا أصبر عنك ولا عنها ، ورأيتنى ناقص الحظ والسرور يوم أكون وحدى معها وكذلك يوم وجودى معك دونها ، وقد رأيت رأيا يجتمع لى به السرور ويزداد به الأنس ، فرد عليه جعفر : وفقك الله ياأمير المؤمنين . وأخذ الرشيد عليه عهد الله أن لايظله وإياها سقف بيت إلا والرشيد ثالثهما ، فحلف له جعفر على ذلك ، ورضى به ، وظلوا يجتمعون على هذه الحالة وجعفر صارف بصره عنها ، هيبة لأمير المؤمنين ووفاء بعهده له . وتضاربت الروايات بعد ذلك فى حقيقة ما روى عن العباسة وجعفر وما ذاع عن عقد قرانهما .

على أن بعض المؤرخين الذين يعتد برواياتهم قد نفى حدوث ذلك ، على اعتبار أنه أمر يستبعد حدوثه كل البعد ، لما هو معروف عن نسب العباسة وحسبها ودينها : فهى بنت الخليفة المهدى بن المنصور وهى قريبة عهد ببداوة العرب وسذاجة الدين[1] ، إذ كيف يقبل الرشيد مع ما عرف عنه من بُعد النظر وعلو الهمة والإباء والشمم أن يزوج أخته مولى من موالى دولته . وأين قدر العبّاسة ابنة المهدى ، وحفيدة المنصور ، وأخت الهادى ، وأخت الرشيد ، وسليلة الخلفاء ، من جعفر ! كما أن مسألة قبول الرشيد أن تجتمع أخته مع رجل فى مجلس واحد لا تصدر عنه : لأن حرص العربى على عرضه أبقى لديه من كل ما يملك من متاع وسلطان ، وكان الرشيد فقيها يعلم المدى الذى يصل إليه فى الأمور التى تتصل بشرف الأسرة ومكانتها .

ويمكن القول أن مثل هذه الحادثة لايمكن أن تؤدى إلى الفتك بالأسرة كلها ومنع الشعراء من رثائها ومصادرة أموالها . فقد كان السبب الرئيسى فى نكبة البرامكة هو نفوذهم الذى بلغوه فى الدولة وتحدث عنه الشعراء والكتاب ،

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ص ١٤ .

فقد كان نفوذا غير محدود واستئثارا بالأموال إلى درجة أخافت الخليفة[1] . ولذا أعرض عنهم الرشيد ، وقسا فى معاملتهم ، وتتبعهم بالتشريد والتقتيل ، فقضى عليهم بعد العز ونضرة الأيام وتشردوا بعد اجتماع الشمل وعظمة الملك . أما ما قيل عن مسألة العباسة أخت الرشيد وزواجها سراً من الوزير جعفر البرمكى ، فلا يوجد فى التاريخ ما يؤيدها ولا تنهض مبررا لإيقاع الرشيد بوزرائه من البرامكة[2] .

و يظهر أن نكبة البرامكة أصبحت منذ تجمع هذه العوامل محتملة الوقوع ، بدليل ما رواه صاحب الفخرى عن بختيشوع الطبيب ، قال : « دخلت يوما على الرشيد وهو جالس فى قصر الخلد ، وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر و بينه و بينهم عرض دجلة . قال فنظر الرشيد فرأى اعتراك الخيول وازدحام الناس على جانب باب يحيى بن خالد ، فقال : أجزى الله يحيى خيراً ، تصدى للأمر وأراحنى من الكد ووفر أوقاتى على اللذة . ثم دخلت عليه بعد أوقات وقد شرع يتغير عليهم ، فنظر فرأى الخيول كما رآها تلك المرة ، فقال : استبد يحيى بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا إسمها ، فقلت إنه سينكبهم ، فنكبهم عقب ذلك »[3] .

و يمكن القول أن سقوط أسرة البرامكة كان نتيجة حوادث متتابعة ، دفعت الرشيد ، لا إلى الحد من نفوذ هذه الأسرة فحسب ، بل إلى القضاء عليها ومحو آثارها والقسوة فى معاملة رجالها : فأمر بقتل جعفر وحبس يحيى و بقية أولاده . ومات يحيى والفضل فى السجن ، وظل به الباقون حتى عفا عنهم الأمين . وهذه النكبة كانت ضر بة موجهة إلى الأمة الفارسية ، كما أنها تبين لنا إلى أى حد

---

(١) ابن خلدون مقدمة ص ١٤ .

(٢) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٥ — ٨٦ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٩٠ .

كانت سلطة الخليفة سلطة استبدادية : وتظهر كذلك جانب الغدر والجحود في الرشيد .

العلاقات الدولية في عهد الرشيد

كان للدولة العباسية في عهد الرشيد علاقات دولية منها علاقته بدولة بني أمية في الأندلس ، والدولة البيزنطية ، وبشارلمان ملك الفرنجة :

١ — علاقة العباسيين *بدولة بني أمية في الأندلس* ، لم تكن علاقة عدائية ، إلا أنها في الوقت نفسه كانت خالية من المظاهر التي يصح أن تعد ودية .

٢ — وكانت هناك علاقة للدولة العباسية *بالدولة البيزنطية* . وقد بدأت تلك العلاقة منذ عهد الخليفة المهدي العباسي (١٥٨ — ١٦٩هـ) فقد عزا المهدي حدود آسيا الصغرى الشرقية . ولما ولي هارون الرشيد الخلافة ، سار بنفسه في سنة ١٨١ هـ على رأس جيش كبير إلى آسيا الصغرى ، وحارب البيزنطيين ، وانتصر عليهم في كثير من المعارك . وظل يتابع فتوحه حتى وصل إلى القسطنطينية ، فسارعت إريني Irene إمبراطورة الدولة البيزنطية إلى طلب الهدنة مقابل دفعها الجزية ، ولكن الإمبراطور نقفور الذي اعتلى العرش بعدها ، نقض في سنة ١٨٧ هـ هذه الهدنة ، وطالب بالجزية التي دفعتها الإمبراطورة للرشيد .

غضب الخليفة من ذلك العمل ، ورد على طلب الإمبراطور بكتاب جاء فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم ، قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ما تسمعه » .

سار الرشيد بجيوشه عقب ذلك مخترقا آسيا الصغرى ، وتابع فتوحه حتى استولى على هرقلة ، واضطر نقفور إلى إبرام صلح تعهد فيه بدفع الجزية من جديد[١] . على أن البيزنطيين نقضوا هذه المدنة كما نقضوا سابقتها ، وأغاروا فى السنة التالية على حدود الدولة العباسية وهزموا المسلمين جنوبى آسيا الصغرى ، منتهزين فرصة التفات الخليفة إلى القضاء على الفتن الداخلية فى البلاد . ولكن الرشيد ما لبث أن استولى على المدن الكبرى فى الدولة البيزنطية ، وأسر من الروم عشرة آلاف ، وأخذ جزية قدرها عشرون ألف قطعة من العملة الذهبية[٢] . واتسع نطاق الحروب بين الرشيد والبيزنطيين حتى تمدت آسيا الصغرى إلى البحر المتوسط ، فقد غزا العباسيون جزيرة قبرص ، وأسروا ستة عشر ألف نفس ، من بينهم أسقف هذه الجزيرة نفسه[٣] .

٣ — وقامت أيضا علاقات ودية للرشيد بشارلمان Charlemagne ملك الفرنجة ، ويظهر أن التحسن فى العلاقات بين العاهلين ، كان مصدره عداوتهما للأمويين فى الأندلس والبيزنطيين ، وبلغ من تحسن العلاقات بينهما أنهما تبادلا السفراء والهدايا . وتودد هارون الرشيد إلى الإمبراطور شارلمان سعياً وراء مصلحة بلاده ، كما أن شارلمان من ناحيته خطب ود الرشيد وسعى إلى محالفته ، فأرسل إليه بعثة مؤلفة من رجلين من المسيحيين ورجل من اليهود رغبة فى تسهيل سبيل الحج إلى بيت المقدس وإنماء التجارة بين البلدين والحصول على علوم المشرق .

أدت هذه السفارات بين الرشيد وشارلمان إلى إرسال مفاتيح كنيسة بيت المقدس إلى إمبراطور الفرنجة ، وأصبح شارلمان بعد ذلك حامى المسيحيين الذين يحجون إلى هذه البلاد ، واكسب ذلك إمبراطور الفرنجة حق حماية

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٩٢ .

(٢) Muir : The Caliphate, . 488

(٣) الطبرى ج ١٠ ص ٩٩ — ٢١٣ .

الأماكن المقدسة فى فلسطين ، مما أدى إلى نتائج خطيرة فى المستقبل ، مع أن شارلمان لم ينظر فى ذلك الوقت بعين الاعتبار إلى مسألة إرسال مفاتيح تلك الكنيسة إليه . كذلك أدت هذه السفارات إلى تبادل الهدايا بين الطرفين ، وكان من ضمن ما أرسله الرشيد إلى شارلمان وأثار الإعجاب فى إمبراطورية الفرنجة ، ذلك الفيل الذى وصل إلى مدينة إكس لاشابل قاعدة إمبراطورية شارلمان ، وكان يسمى أبا العباس ، وتلك الساعة المائية الدقاقة التى ظن أهل الإمبراطورية أنها آلة سحرية ، وقد أفاضت مصادر الإفرنج فى وصف هاتين الهديتين .

تقدير الرشيد

رغم شهرة الرشيد وما نعمت به الدولة فى عهده من الهدوء والاستقرار ، أخذ عليه : عدم اهتمامه بما ظهر من ميل بعض الولايات إلى الاستقلال عن الخلافة ، وعقده ولاية العهد من بعده لأولاده الثلاثة ، واتصافه بالغدر والقسوة .

فى عهد الرشيد بدأت *ظاهرة التجزؤ* ، وهى محاولة بعض الولايات الخاضعة للدولة العباسية الاستقلال بالسلطة والنفوذ عن بغداد : فإفريقية ، ويقصد بها إذ ذاك تونس وجزء من طرابلس ، استقل بهما إبراهيم بن الأغلب وأسس دولة الأغالبة وتعهد بأن يدفع إلى الرشيد سنويا أربعين ألف دينار ، وبذلك خرج المغرب شيئا فشيئا عن حكم الخلفاء العباسيين . وانتهز الخوارج فى خراسان فرصة قيام بعض الولايات الخاضعة للعباسيين بالثورة والاستقلال وقاموا ضد الدولة ، ولكن قضى على تلك الفتنة على يد طاهر بن الحسين قائد علىّ بن عيسى ابن ماهان الوالى على خراسان . وظهرت بعد ذلك فتنة خطيرة فى خراسان :

قام بها رافع بن الليث ، وعجز عن قمعها الوالى علىّ بن عيسى والقائد هرثمة بن أعين ، واستفحل أمر الفتنة حتى خرج الرشيد بنفسه سنة ١٩٣ هـ ميمما شطر خراسان ، واستمر فى سيره حتى بلدة طوس . وهذه الفتن المتعاقبة فى المشرق والمغرب ، توضح أن بلاد الخلافة لم تكن كلها خاضعة خضوعاً تاماً للخليفة . وتنحصر مسئولية الرشيد فى أنه لم يقض بحزم وعزم على تلك الظاهرة الخطيرة ، ظاهرة الاستقلال فى بعض الدويلات عن الخلافة .

وعقد الرشيد الخلافة من بعده لأولاده الثلاثة ، وذلك سنة ١٨٦ هـ :

فقد كان للرشيد أربعة أولاد ذكور : محمد الملقب بالأمين ، وعبد الله الملقب بالمأمون ، والقاسم الملقب بالمؤتمن ، ثم المعتصم . وعهد الرشيد إلى الثلاثة الأول بولاية العهد من بعده ، الواحد بعد الآخر : أولا الأمين ، وثانيا المأمون ، وثالثا المؤتمن إذا قبل المأمون أن يوليه من بعده . وهذا الترتيب فى ولاية العهد تصرف غير طبيعى ، لأن ترتيب الرشيد الخلافة لأولاده من بعده على هذا النظام لا يكفى لإقراره والسير بمقتضاه تنظيم الخليفة له ، بل لا بد لنفاده من رضاء الإخوة وموافقة الأمة . وخرج الرشيد سنة ١٨٦ هـ حاجا ومعه أولاده إلى مكة ، وهناك أعلن البيعة لأبنائه على الحجاج فى ثلاث وثائق رسمية [1] ، هى عهد مأخوذ على الأمة كلها بأن تكون عند ما اشترط الرشيد لأولاده . ولم يكتف بذلك ، بل قسّم الدولة إلى ثلاثة أقسام ، القسم الشرقى وهو خراسان يعهد به إلى المأمون ويعتبر واليا لأخيه الأمين ، ويعهد بإقليم الجزيرة والعواصم إلى المؤتمن ، وتصبح سلطة الأمين مطلقة على مايلى ذلك من الأقاليم كالعراق والشام وغيرها . ولما حصل ذلك التقسيم وأعلن على الناس توقعوا من وراء ذلك شراً ، ورأوا أن

---

(١) تجد نصوص هذه البيعة فى الطبرى جـ٩ ص ٧٦ — ٧٧ .

الخليفة لم يكن بعيد النظر فى إجراء هذا الترتيب .

وتجلت فى الرشيد صفة الغدر التى دفعت به إلى الفتك بالبرامكة ، وصفة القسوة حتى أنه قتل أخا رافع بن الليث الذى قام بالفتنة فى خراسان قتلة شنيعة بأن أمر بتجزئ جسمه أجزاء وهو حى .

* * *

على أن تلك الصفات التى اتصف بها الرشيد وكان لها أثرها على بعض أعماله ، لاتمنع من وصفه بأنه كان حاكما نشيطاً شجاعاً إذا أحس بالخطر كما يتجلى فى نكبة البرامكة وقضائه على البيزنطيين ، وأنه كان حاكماً محباً للآداب والفنون، أجزل العطاء للعلماء والشعراء مما أطلق ألسنتهم بمدحه والثناء عليه والتغنى بجميل خصاله وجليل أعماله . وكان حبه للغزو ونجاحه ضد البيزنطيين وجوده وكرمه وإقباله على العلم وتشجيعه العلماء مصدر ذيوع شهرته .

وتوفى الرشيد فى طوس بعد مرض انتابه ثلاثة أيام ، أثناء خروجه إلى خراسان لقتال رافع بن الليث ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٩٣ هـ ، ودفن بها ولم تنقل جثته إلى بغداد .

٦ — الأمين

١٩٣ — ١٩٨ هـ = ٨٠٨ — ٨١٣م

ولى الأمين الخلافة بعد أبيه الرشيد ، ولم يعمر فى الخلافة طويلا ، لأن الرشيد كان قد عزم على تولية المأمون من بعده ، باعتباره أكبر أولاده سنا ، إلا أنه عاد فعدل عن ذلك وبايع ابنه الأمين ، بسبب تدخل أمه زبيدة فى

الأمر[1] , ولما آلت الخلافة إلى الأمين ، عوّل على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد . وشجعه على ذلك وزيره الفضل بن الربيع وحثه على تولية ابنه موسى العهد من بعده ، فولاه وسماه « الناطق بالحق » . ومن ذلك الحين بدأت الفتنة بين الأمين والمأمون ، وسببها فى الواقع نكث الأمين العهد والميثاق الذى أخذه على نفسه فى حياة أبيه ، مما أغضب الخراسانيين وغيرهم من أهالى الأمصار الإسلامية ، وتطورت الفتنة حتى أصبحت نزاعا بين الفرس أنصار المأمون والعرب أنصار الأمين .

الفتنة بين أنصار الأمين والمأمون :

ظل الأمين خليفة بالاسم دون الفعل مدة خمس سنوات ، لأن سلطته لم تكن تامة على جميع أقاليم الدولة الإسلامية . ووقع منذ اعتلائه العرش ، الخلاف بينه و بين أخيه المأمون ، ووجدت الدولة نفسها أمام فتنة داخلية ، صدّعت وحدة الخلافة ، وكشفت عن دور من أدوار النزاع بين العرب والفرس . وفيما سبق هذه الفتنة وما لحقها ، بذلت جهود جبارة من ناحية العنصر الفارسى فى سبيل استرداد نفوذ الفرس ، الذى كاد أن يتلاشى و ينمحى ، وكافح العنصر العربى فى الوقت نفسه فى سبيل الاحتفاظ بالمكانة التى كانت له وعدم إتاحة الفرصة لعودة النفوذ والسلطان الفرس .

كان الأمين شابا مولعاً بالصيد والموسيقى والشراب ، ووقف إلى جانبه فى نزاعه مع الفرس وزيره الفضل بن الربيع[2] وأشهر قواده على بن عيسى ابن ماهان وعبد الرحمن بن جبلة ، ولم يكن لهؤلاء ذكر فى التاريخ . أما المأمون

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٥٣ .
(٢) كان الفضل ممن دبر لدى الرشيد نكبة البرامكة .

فقد شغف بالعلم وتعمق فى الفلسفة ، واعتبر فى عداد أساطين علماء العصر أكثر من وضعه فى صفوف الدهاة السياسيين . ووقف إلى جانبه وزيره الفضل بن سهل السرخسى[١] ، وأطلق عليه لقب ذى الرياستين[٢] ؛ وعرف بالدهاء والكفاية فيما يتولاه من الأعمال . ومن قواد المأمون هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين[٣] وهما فارسيا الأصل .

بدأ النزاع بين الأخوين ، حين حاول الأمين خلع المأمون عن الخلافة ، فقد أمر بأن يدعى لموسى بن الأمين كى يلى الخلافة قبل المأمون والمؤتمن . ولما بلغ ذلك المأمون قطع صلته بأخيه ، فبعث الأمين رسلا تطلب إلى المأمون الرجوع إلى بغداد وأن يقدم موسى بن الأمين على نفسه فى الخلافة ، ولكن المأمون رفض العودة إلى بغداد أو تقديم موسى على نفسه . فبايع الأمين لولده موسى فى صفر سنة ١٩٥ هـ ولقبه « الناطق بالحق » ، ونهى عن ذكر المأمون والمؤتمن على المنابر ، وأحضر الوثائق الرسمية التى كتبها الرشيد وأودعها الكعبة بترتيب ولاية العهد من بعده ومزقها .

ولما تحرجت الأمور بين الأمين والمأمون على هذا النحو ، عهد المأمون إلى قائديه : هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين ، بالدفاع عن خراسان ، وتدفقت جموع الخراسانيين للعمل تحت إمرتهما ، وعهد الأمين إلى قائده على بن عيسى[٤] فى غزو خراسان . ودارت الحرب بين على بن عيسى قائد الأمين وطاهر بن

---

(١) نسبة إلى بلدة سرخس ، وهى مدينة قديمة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو سميت باسم رجل من الدعار فى زمن كيكاوس ، سكن هذا الموضع وعمره ثم تم عمارته ذو القرنين الإسكندر ، وقالت الفرس إن كيكاوس أقطع سرخس أرضا فبنى بها مدينة سماها باسمه وهى سرخس » . ياقوت : معجم البلدان .

(٢) رياسة القلم ورياسة السيف .

(٣) لقب طاهر باسم « ذى اليمنين » : لأنه كان يعمل بكلتا يديه .

(٤) كان على بن عيسى مبغضا لدى أهل خراسان ، منذ كان واليا عليهم .

الحسين قائد المأمون ، فانتصر جيش المأمون فى واقعة الرى وهزم جيش الأمين وقتل على بن عيسى ، و بعث طاهر إلى المأمون كتاباً قال فيه : « كتابى إلى أمير المؤمنين ، ورأس على بن عيسى بين يدى وخاتمه فى أصبعى ، وجنده مصرفون تحت أمرى والسلام » . وهزمت جيوش الأمين التى كان قد وجهها إلى خراسان وأخذت البيعة للمأمون فى ذلك الإقليم ، واستولى طاهر على الأقاليم الخاضعة للأمين إقليما بعد إقليم : فاستولى على إقليم الجبال جنوب بحر قزوين ، ثم سار إلى الأهواز فواسط والمدائن : حتى أصبح على مقربة من بغداد ، وأقيمت الخطبة للمأمون على منابر الحجاز فى مكة والمدينة . وعقب ذلك بدأت استعدادات المأمون لحصار بغداد .

حصار بغداد :

حاصر هرثمة بن أعين الجانب الشرقى من بغداد وطاهر بن الحسين الجانب الغربى منها ، وظل الحصار على الجانبين إثنى عشر شهراً ، مما ألحق ببغداد أذى يجل عن الوصف ، ودافع العامة عن الأمين ، وارتكبوا أثناء هذا الدفاع كثيراً من أعمال النهب والسلب ، واستخدمت المجانيق وآلات الحصار المختلفة ، حتى هدمت أسوار بغداد ، وخربت المبانى واستمرت النيران فى كل مكان ، وعزت الأقوات وانتشرت المجاعات . وسرعان ما نفدت أموال الأمين ، واضطر لبيع كل مافى خزائنه من الأمتعة وضرب مافى قصوره من آنية الذهب دنانير ودراهم لينفق منها على الجند ، ثم استولى طاهر بن الحسين على بعض أحياء مدينة بغداد وعلى أسواق الكرخ وقصر الخلد[1] .

ورغم ذلك لم يقدر الأمين الظروف السيئة التى أحاطت به و بدولته ، فقد استمر فى عبثه ولهوه ، واعتمد على قواده ، فى الوقت الذى صمم فيه طاهر قائد

(١) الطبرى ج ١٠ ص ١٧٤ — ١٧٦ .

المأمون على فتح بغداد ، وأمر جنده بحسن معاملة الأهلين ، مما كان له أثر يذكر في تحول كثير من رعايا الأمين إلى جانب قائد المأمون[1] . واشتد البلاء بأهل بغداد وساءت حالهم ، حتى خرج منهم كل من استطاع الخروج وأصبحت قاعدة العباسيين فى حالة يرثى لها ، إذ قوضت الفتنة كثيراً من معالمها بعد أن كانت كعبة العلوم والآداب ومركز التجارة وحاضرة الإسلام . ويقول الشاعر :

بكيت دما على بغداد لما فقدت غضارة العيش الأنيق
تبدلنا هموما من سرور ومن سعة تبدلنا بضيق
أصابتها من الحساد عين فأفنت أهلها بالمنجنيق
فلا ولد يقيم على أبيه وقد هرب الصديق بلا صديق[2]

وبذلك غدا مركز الأمين حرجا ،حتى فكر فى الهرب إلى الجزيرة والشام ، ولكن قواده اختلفوا فيما بينهم فى النتائج التى تترتب على تنفيذ الأمين لما اعتزمه ، ودخل عليه بعض من يثق فى صدق مشورتهم وقالوا له : لقد بلغنا الذى عزمت عليه ، فنحن نذكرك الله فى نفسك ، إن هؤلاء صعاليك ، وقد بلغ الأمر إلى ما ترى من الحصار ، وضاق عليهم المذهب ، وهم يرون ألا أمان لهم عند أخيك وعند طاهر وهرثمة ، لما قد انتشر عنهم من مباشرة الحرب والجد فيها ، ولسنا نأمن إذا برزوا بك وحصلت فى أيديهم ، أن يأخذوك أسيراً ، ويأخذوا رأسك فيتقربوا بك ويجعلوك سبب أمانهم[3] .

وأخيراً نصحه خلصاؤه أن يستسلم لأخيه المأمون وينزل له عن الخلافة ، فقبل

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ١٥٦ .
(٢) الطبرى ج ١٠ ص ١٨٢ — ١٨٣ .
(٣) الطبرى ج ١٠ ص ١٩٢ .

أن يسلم الأمين لطاهر : الخاتم والقضيب والبردة وهى مخلفات الرسول عليه السلام واعتبرت فى الدولة العباسية شارات الخلافة على أن يبعث بها للمأمون ، ويسلم الأمين نفسه إلى هرثمة . ولـكن طاهراً خشى ألا يكون الأمين جاداً فى تنفيذ ما اعتزمه ، فقرر الاستيلاء على بغداد . لذلك فإنه حين نزل الأمين فى زورق مع هرثمة ، هاجمه أصحاب طاهر وحاولوا إغراقه ولـكنه عبر النهر سباحة إلى الجانب الشرقى ، حيث قتل ، وأرسلت رأسه إلى المأمون [1] الذى حزن لقتل أخيه ، ولم يكن يرغب فى تطور الحوادث إلى هذا الحد ، وبعث طاهر بن الحسين إلى الأمصار الإسلامية بكتاب قال فيه :

« أما بعد ، فإن المخلوع كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة ، وقد فرق الله بينه وبينه فى الولاية والحرمة ، بمفارقته عصم الدين ، وخروجه من الأمر الجامع للمسلمين . يقول الله عز وجل حين اقتص علينا نبأ ابن نوح (إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) فلا طاعة لأحد فى معصية الله ، ولا قطيعة إذا كانت القطيعة فى جنب الله . وكتابى إلى أمير المؤمنين وقد قتل المخلوع ورداه رداء نـكسة وأحصد لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، وما ينتظر من صادق وعده حين رد به الألفة بعد فرقتها ، وجمع الأمة بعد شتاتها ، وأحيا به أعلام الإسلام بعد دروسها » [1] .

تقرير الأمين :

انتهت بمقتل الأمين الفتنة بين العرب والعجم . وكان كل من الرشيد والأمين ، مسئولا عن تلك النـكبة التى حلت بالخلافة العباسية ، وعن ظهور هذه الفتنة الجامحة التى قضت على الأمين .

فالرشيد أعطى الأمين الخلافة وهو أصغر سناً من أخيه المأمون ، وعهد

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

إلى المأمون بولاية خراسان فاستطاع أن يستقل بها ويناوئ فيها الأمين ويتغلب عليه ، كما أن الرشيد جعل ولاية العهد فى أبنائه الثلاثة مما أدى إلى قيام النزاع بينهم .

وأخطأ الأمين بتولية على بن عيسى الحرب فى خراسان ضد المأمون مع ما عرف عن هذا القائد من القسوة التى نفرت منه أهالى هذا الإقليم ، كما انصرف الأمين عن أمور الخلافة إلى اللهو والغناء وعيشة البذخ والترف مما أدى إلى سخط الناس ، ويؤخذ على سياسة الأمين رغبته فى حرمان أخيه المأمون من الخلافة ونكثه العهد الذى تركه أبوه الرشيد . وقد سبقه إلى ذلك المنصور حين حين حرم ولى عهده عيسى بن موسى من الخلافة بعده وجعلها فى ابنه المهدى ، وفعل ذلك المهدى وجعل الخلافة للهادى ، وجعل الهادى الخلافة لابنه جعفر يقصد حرمان هارون الرشيد .

وبمقتل الأمين ، انطلقت ألسنة الشعراء بذكره ، وكانت الطريقة التى قتل بها هى سبب رثائه ، إذ لم يكن شخصه إذ ذاك محل عطف أو موضع تقدير .

زبيدة أم الأمين :

حزنت السيدة زبيدة زوجة الرشيد على ابنها الأمين [1] ، وكان لها أكبر الأثر فى توليته الخلافة قبل أخيه الأكبر المأمون ، وبعثت إلى الخليفة المأمون بقصيدة ترثى فيها ابنها ، دلت بها تضلعها فى الأدب والشعر والسياسة وكشفت فيها عن حلمها على انتهاء حياة ابنها الأمين على هذا النحو [2] . وهاك بعض أبيات منها : —

---

(١) انتابت السيدة زبيدة العلل ، نتيجة هذا الحزن البالغ ، وقد أكرمها المأمون بعد وفاة الأمين وأسكنها قصر الخلافة عاملة بمظاهر الفخامة والأبهة ، حتى توفيت فى بغداد فى جمادى الأولى سنة ٢١٦ هـ .

(٢) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٤ .

لخير إمام قام من غير عنصر ... وأفضل راق فوق أعواد منـبر
ووارث علم الأولين وفخرهم ... وللملك المأمون من أم جعفر
كتبت وعينى تستهل دموعها ... إليك ابن عمى مع جفونى ومحجرى
أصبت بأدنى الناس منك قرابة ... ومن زال عن كبدى فقل تصبرى
أتى طاهر لا طهر الله طاهرا ... وما طاهر فى فعله بمطهـــــر
فأبرزنى مكشوفة الوجه حاسرا ... وأنهب أموالى وأضرب أدؤرى
يعز على هارون ما قد لقيته ... وما نالنى من ناقص الخلق أعور
فإن ما أســـدى لأمر أمرته ... صبرت لأمر من قدير مقدر[1]

٧ — المـأمون

١٩٧ - ٢١٨ هـ = ٨١٣ — ٨٣٣ م

عصر المأمون من العصور الإسلامية الزاهرة، ولم يكن المأمون شخصية سياسية بقدر ماهو شخصية أدبية : فقد شجع النهضة العلمية وحرية الفـكر ، ودفع حركة النقل والترجمة إلى الأمام ، ولـكنه كسياسى أصبح تحت سيطرة الفرس الذين نصروه فى نزاعه مع أخيه الأمين ، كما أن المأمون بعد وصوله إلى الخلافة لم ينتقل إلى أقاليم الدولة العباسية الغربية فى الشام والعراق بل ظل فى مرو عاصمة خراسان ، ملتفتاً إلى المسائل الفلسفية والعلمية دون الأمور السياسية والإدارية التى عهد بها إلى وزيره الفضل بن سهل ذى الرياستين ، وهذا أناب عنه فى العراق والشام أخاه الحسن بن سهل ، وهذان أدارا شئون الدولة حسب

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٦ .

نزعتهما الفارسية ، مما شجع العلويين على الظهور مرة ثانية والمناداة بأحقيتهم فى الخلافة . كما أن المأمون حاول نقل الخلافة إلى العلويين ، فدل فى هذه المسألة على أنه سياسى قصير النظر ، ولم يقدر العواقب الخطيرة التى تترتب على تنفيذ ما اعتزمه ، ولكنه عاد فعدل عن رأيه فى إقامة خلافة علوية تقوم مقام الخلافة العباسية ، مما أدى إلى استمرار النزاع بين العلويين والعباسيين ، ووقوع الدولة العباسية بين براثن العرب الساخطين على الدولة والعلويين الذين كانوا ينتهزون كل فرصة لإثارة الفتن كى يصلوا إلى الخلافة . كذلك كانت حروب المأمون مع الدولة البيزنطية لا تخرج عن كونها غارات لم تؤد إلى نتيجة حاسمة . ولا تعرف للمأمون إصلاحات مبتكرة .

سياسته إزاء العلويين :

ظهرت فى العراق فى سنة ١٩٩ هـ فتنة ضد العباسيين ، قام بها العلويون ، بقيادة القائد العربى أبى السرايا السرى بن منصور الشيبانى ، كى يصلوا إلى الخلافة ، وسيرت العراق الجيوش لمساعدته ، وتمكنت هى وجيش أبى السرايا من هزيمة جيش العباسيين ، حتى تمكن أبو السرايا من تولية الولاة من قبله على مكة والمدينة وسائر بلاد العرب ثم احتل الكوفة وسير جيوشه إلى البصرة وواسط وأقام فى العراق حكومة علوية . إلا أن الحسن بن سهل أمير العراق استقدم من خراسان هرثمة بن أعين أكبر قواد الدولة فى ذلك الوقت ، فقاتل أبا السرايا وهزمه هزيمة ساحقة ، وانتهى الأمر بفراره وقتله سنة ٢٠٠ هـ . وقضى بذلك على العلويين ، وعاد النفوذ والسلطان للعباسيين .

ولكن العلويين لم يفقدوا الأمل فى إقامة خلافة علوية ، فإن نفوذ الفضل ابن سهل كان قد وصل إلى الذروة عند المأمون وهو فارسى شيعى عمل على تحقيق ما تصبو إليه الشيعة منذ نشأتها ، وهو تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين .

ومن الغريب أن المأمون هو الذى أتم هذا التحول ، بأن أمر فى سنة ٢٠٠ هـ بأن يحصى بنو العباس جميعاً كى يتبين أجدرهم بالخلافة من بعده ، فيسند إليه ولاية العهد ، فلم يجد هذا الشخص ، فأعلن فى سنة ٢٠١ هـ أنه تمثل فى العلويين فى شخص على الرضا ، الإمام الثامن من أئمة الشيعة الإثنى عشرية ، ابن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسن بن على ابن أبى طالب .

كان على الرضا واسع العلم والمعرفة ، صحيح الفكر ، متزن العقل . قيل لأبى نواس : علام تركت مدح ابن موسى والخصال التى تجمعن فيه ؟ فقال : لا أستطيع مدح إمام كان جبريل خادما لأبيه ، والله ما تركت ذلك إلا إعظاما له ، وليس قدر مثلى أن يقول فى مثله :

قيل لى أنت أحسن الناس طرا   فى فنون من الكلام النبيه
لك من جيد القريض مديح   يثمر الدر فى يدى مجتنيه
فعلا ما تركت مدح ابن موسى   والخصال التى تجمعن فيه
قلت لا أستطيع مدح إمام   كان جبريل خادماً لأبيه

ثم أنشد :

مطهرونَ نقيات جيوبهم   يجرى عليهم ثناء أينما ذكروا
من لم يكن علويا حين تنسبه   فما له فى قديم الدهر مفتخر
الله لما برا خلقا فأتقنه   صفاكم واصطفاكم أيها البشر
فأنتم الملأ الأعلى وعندكم   علم الكتاب وما جاءت به السور[1]

وقصد المأمون من إسناده ولاية العهد لعلى الرضا ، إنصاف العلويين مما حاق

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

بهم من ظلم واضطهاد منذ مقتل الحسين بن على بن أبى طالب ، وقيل إن الخليفة « هم بخلع نفسه ، وبأن يفوض الأمر إليه . . . وضرب الدراهم باسمه ، وخطب له مع الخليفة على المنابر ، وزوجه ابنته » . ولما نبهه الحسن بن سهل إلى سوء العاقبة فى حالة تولية على الرضا ولاية العهد ، قال المأمون : «عاهدت الله إن ظفرت بالمخلوع ، أخرجتُ من الخلافة إلى أفضل آل أبى طالب ، وما أعلم أحداً أفضل من هذا الرجل على وجه الأرض » . وفى جمع حاشد من أعيان الدولة وأمرائها أعلن المأمون بيعة الرضا وتلقب « الرضا من آل محمد » .

وقد صدق حدس الحسن بن سهل ، فإن المأمون ما لبث أن توجس خيفة من تولية على الرضا عهده ، حتى « أن الخليفة المأمون وجد فى يوم عيد انحراف مزاج أحدث عنده ثقلا عن الخروج إلى الصلاة بالناس ، فانتدب أبا الحسن عليا الرضا للصلاة بالناس ، فخرج وعليه قميص أبيض ، وعمامة بيضاء وهى من قطن وفى يده قضيب . فأقبل ماشياً يؤم المصلى وهو يقول : السلام على أبوى آدم ونوح ، السلام على أبوى إسماعيل وإبراهيم ، السلام على أبوى محمد وعلى ، السلام على عباد الله الصالحين . فلما رآه الناس هرعوا إليه وانثالوا عليه لتقبيل يده . فأسرع بعض الحاشية إلى الخليفة المأمون وقال : يا أمير المؤمنين تدارك الناس واخرج وصل بهم ، وإلا خرجت الخلافة منك الآن ، فحمله هذا الأمر على الخروج بنفسه ، وجاء مسرعا والرضا لم يخلص إلى المصلى ، لكثرة ازدحام الناس عليه ، فتقدم المأمون وصلى بالناس » .

ولكن المأمون عدل نهائياً عن فكرة تحويل الخلافة إلى العلويين ، بعد أن ثار عليه أهل بغداد وبايعوا إبراهيم ابن الخليفة المهدى بولاية العهد ، وما لبث المأمون أن صمم على الرحيل إلى بغداد .

وقبل رحيل المأمون إلى بغداد ، قضى على قائده هرثمة بن أعين . وتفصيل

ذلك أن هرثمة رأى أن يطلع المأمون على حقيقة أحوال البلاد واستبداد الفضل وأخيه الحسن بن سهل ، ولذا رأى الحسن أن يوغر صدر المأمون على هرثمة ، بالقول بأنه يتشيع للعلويين ، وأنه لهذا لم يقض على كل أتباع أبي السرايا زعيم العلويين فى ثورتهم ضد الخلافة العباسية رغم تمكنه من ذلك ، واستمع الخليفة لهذه الوشايات فأمر بحبسه ثم قتل . وبذلك يكون المأمون قد فتك برجل خدم الدولة العباسية أجل الخدمات ، كما ظل نفوذ الفضل بن سهل وأخيه الحسن على ما كان عليه . وزاد الحالة شدة ، أن البلاد كانت إذ ذاك تغلى كالمرجل نتيجة محاولة المأمون نقل الخلافة العباسية للعلويين ، وجاء مقتل هرثمة على هذا النحو ، دافعا لتحفز أتباعه ، وأصبحت بغداد مسرحا للفوضى مرة أخرى ، وانتهز العامة تلك الفرصة وقاموا بنهب الأموال والفتك بالسكان .

المأمون فى بغداد

سار المأمون فى سنة ٢٠٢ هـ من مرو حاضرة خراسان قاصدا العراق ، ولو أن المأمون انتقل إلى بغداد بعد اعتلائه العرش ، لتفادى ما جره بقاؤه فى خراسان من نكبات حلت بالخلافة . وقبل رحيله عين غسان واليا على خراسان .

اعتزم المأمون القضاء على مَن أقلقوا خلافته بالتخلص من الفضل بن سهل وعلى الرضا : أما الفضل فقد قتل فى الحمام فى مدينة سرخس على يد أربعة رجال. وتوفى على الرضا فى مدينة طوس سنة ٢٠٣ هـ وصلى المأمون عليه ، وأثارت وفاته هواجس الناس ، وقيل إنها لم تكن طبيعية لأنها جاءت فى وقت كان فيه العباسيون ثائرين فى العراق على المأمون لمحاولته نقل الخلافة إلى العلويين ، وردد الناسَ القول بأن المأمون قد دس له السم عند تناوله بعض العنب ، وكتب المأمون إلى الحسن بن سهل وإلى العباسيين فى العراق يعلمهم وفاة على الرضا ويدعوهم للرجوع إلى طاعته .

وزاد من طمأنينة المأمون عند ما اقترب من بغداد ، اختفاء إبراهيم ابن الخليفة المهدى ، لأن أهل بغداد كانوا قد بايعوه بالخلافة بدلا من المأمون عند ما حول ولاية العهد إلى على الرضا العلوى ، وظل إبراهيم مختفيا ثمانى سنوات ثم شفع فيه لدى المأمون وعاد إلى الظهور . وكذلك اختفت شخصية من الشخصيات التى أوقدت نيران الفتن ضد المأمون ، وهى شخصية الفضل بن الربيع ، وظل مختفيا مدة ثم صفح عنه المأمون ، ولكنه لم يظهر له الرضاء عنه ولم يعمر طويلا ثم مات .

وهكذا خدم الحظ الخليفة المأمون ، لأنه قبيل دخوله بغداد ، كان الفضل ابن سهل وعلى الرضا قد توفيا ، واختفى أيضا إبراهيم بن المهدى والفضل ابن الربيع . وكلهم من الشخصيات التى سببت الثورة والفتنة فى العراق وأقلقت خلافة المأمون .

دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ ، و بمجرد وصوله إليها عمل على إرجاع الحال إلى ما كان عليه : فبدأ بإقرار الخلافة للعباسيين ومنعها عن العلويين ، وزاد على ذلك أن أمر بلبس الملابس السوداء شعار العباسيين . وتقدم المأمون إلى الأمام خطوة أخرى ، ظنها تؤدى إلى إعادة سلطانه على الدولة ، إذ أمر سنة ٢٠٥ هـ بتولية طاهر بن الحسين على خراسان . وكان الفضل بن سهل قد استبد بأهالى هذا الإقليم ، وأضعف شأن المأمون حتى أصبح إشراف الخليفة على هذا الإقليم إسمياً ، وثار الأهالى على خلافة المأمون و إمارة الفضل . ولكن خاب ظن الخليفة فى الوالى الجديد ، فإنه فعل ما لم يفعله الفضل فى عنفوان سطوته ، إذ أنه لم يجعل نفوذ الخليفة إسميا فحسب كما كانت الحال أيام ولاية الفضل ، بل إنه عمد إلى حذف اسم المأمون من على المنابر فى خراسان . وتفصيل ذلك أن كلثوم بن ثابت صاحب البريد العباسى [1] فى خراسان ، لاحظ أنه حين حضرت صلاة الجمعة ، صعد المنبر

(١) مهمة صاحب البريد : التجسس على كبار الموظفين وانهاء أحوالهم إلى الخليفة .

وقطع اسم الخليفة المأمون[1] ، فأبلغ كلثوم ما حدث للخليفة ، ولـكن طاهراً توفى سنة ٢٠٧ هـ بالحمى ، قبل أن يصل أمر الخليفة بتدبير قتله ، ومن ذلك يتضح أهمية صاحب البريد فى إقليمه ، وولى على خراسان من بعده طلحة بن طاهر ابن الحسين .

وبذلك تأسست فى خراسان دولة وراثية ، عرفت باسم « الدولة الطاهرية » ، وابتدأت عملية تجزىء الدولة العباسية فى الظهور فى المشرق ، كما ظهرت من قبل فى المغرب ، وتسبب عن ذلك استحالة الدولة العباسية إلى دويلات عديدة لا تتبع بغداد إلا فى الإسم ، إذ أن كلا من أمراء هذه الدويلات تشبه بالخلفاء ، وتقلص بذلك نفوذ الخليفة العباسى على الولايات التابعة للدولة وضعفت السلطنة المركزية .

ثورات العرب ضد المأمون :

كثيراً ماثار العرب ضد العباسيين لإهدارهم حقوقهم وإيثار الفرس عليهم ، وقد ثاروا فى عهد المأمون بزعامة نصر بن شبث العقيلى ، من زعماء العرب ، من بنى عقيل الذين أقاموا شمال حلب ، وكان للخليفة الأمين العربى الأبوين بيعة فى عنقه . لذلك غضب أشد الغضب حين علم بمقتل الأمين ، وقام بفتنة جامحة ضد المأمون الفارسى الأم ، واستفحل أمره واشتد خطره وكثر أتباعه من العرب ومن العلويين الساخطين على العباسيين ، وتغلب على ما جاوره من البلدان ، ثم حاصر مدينة حران شمال الشام . ولـكن حين رغب إليه بعض العلويين أن ينضم إليهم، رفض ذلك بشدة ، وقال : إن هواى مع بنى العباس ، وإنما حاربتهم محاماة عن العرب .

---

(١) عدم ذكر اسم الخليفة فى خطبة الجمعة معناه : استقلال الوالى بإقليمه وخروجه على الخليفة .

بذلك يمكن القول إن حركة نصر كانت ثورة من العرب ضد العجم ، وليست خروجا على الحكومة العباسية . على أن هذه الثورة انتهت بالفشل فإن عبد الله بن طاهر الذى ولاه المأمون بعد رحيله سنة ٢٠٤ هـ إلى بغداد على الجزيرة والشام ومصر ، قاتل زعيم حركة العرب نصر بن شبث وهزمه وقبض عليه وأرسله إلى المأمون . وكان عبد الله من طراز أبيه طاهر بن الحسين فى المقدرة السياسية والمهارة الحربية ، فقد استمع لنصائح أبيه التى ضمنها كتابه إليه ، الذى أوضح فيه آداب السياسة وأساليب الإدارة .

والتفت عبد الله بن طاهر إلى فتن العرب فى مصر ، وكان أخطر ما واجهه من مشاكلهم ، مسألة مهاجرى الأندلس الذين كانوا قد ثاروا فى وجه الحكم ابن هشام الخليفة الأموى فى الأندلس ، فأمر بنفيهم من الأندلس فخرجوا منها آلافا إلى فاس بالمغرب الأقصى ، ثم يمموا بعد ذلك شطر مصر وهاجموا الأسكندرية ودخلوها ، فتصدى لهم عبد الله بن طاهر والى مصر ليحملهم على الخروج، فطلبوا إليه أن يمدهم بالمال والسلاح ويرحلوا إلى جزيرة كريت فأجابهم الوالى إلى طلبهم ، وساروا من الأسكندرية إلى تلك الجزيرة وغلبوها على أمرها وكان ذلك سنة ٢١٠ هـ . ويعد هذا التاريخ بدء دخول العرب والإسلام فى كريت.

ولكن الفتن عادت إلى مصر بعد رحيل عبد الله بن طاهر عنها عقب تعيينه واليا على خراسان ، فتقدم المعتصم بنفسه إلى مصر لإخماد ثوراتها ومعه أربعة آلاف جندى ، فقضى على الفتنة وقتل زعماءها ، وعاد إلى الشام ، ولكن الفتنة لم يقض عليها نهائيا بخروج المعتصم ، بل عم السخط البلاد وبلغ من خطورة الحالة فى مصر ، أن حضر المأمون إليها بنفسه سنة ٢١٧ هـ . ولبث فى مصر أكثر من شهر ، وعاد إلى بغداد ، بعد أن قضى نهائيا على هذه الفتنة ، وارتكب

فى سبيل ذلك كثيراً من أعمال الاضطهاد والعسف ، ودفعه إلى ذلك إساءته الظن بكل العرب وتقريبه للفرس دون سواهم .

علاقة المأمون بالبيزنطيين :

فى عهد الأمين ، لم تقع حروب بين الدولتين العباسية والبيزنطية ، لانشغاله بالفتن الداخلية . أما فى عهد المأمون ، فقد عادت المشادة بين الدولتين إلى أشد مما كانت عليه فى عهد الرشيد ، فقد لجأ كل من المأمون والإمبراطور البيزنطى تيوفلس Theophilus إلى الحيل السياسية ، بأن شجع كل منهما الثائرين على خصمه . فإن المأمون شجع توماس الصقلبى الذى ثار فى آسيا الصغرى على الإمبراطور ، لا بالمال والرجال فحسب ، بل بالعمل على تتويجه إمبراطوراً على الدولة البيزنطية نفسها ، ولكن سرعان ما انكشف تدبيره ولم يتم له ماأراد . واتبع الإمبراطور هذه السياسة نفسها نحو الخليفة ، فجعل بلاد الروم موئلا للخرمية أتباع بابك الخرمى الفارسى الذى سار سنة ٢٠١ هـ على المأمون واعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية فى منطقة حران شمال الشام واستقل عن الدولة العباسية إثنتين وعشرين سنة (٢٠١ – ٢٢٣ هـ) ، نشر خلالها مذهبه فى الإباحية[(١)] . إلا أن إمبراطور الروم سئم فى النهاية هذه المحاولات السياسية ، وعرض على المأمون الهدنة فرفضها وطمع فى فتح القسطنطينية نفسها ، وخرج بنفسه لقتال الروم فى سنة ٢١٨هـ ، ولكن وفاته حالت بينه و بين تنفيذ ماعتزمه .

بوران زوجة المأمون :

بعد أن استقر الأمر للمأمون فى بغداد ، أسند الوزارة إلى الحسن بن سهل وطلب الزواج من ابنته بوران ، فرحب الوزير بهذه المصاهرة . ولما زار المأمون

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٤ ص ١٨٩ .

وزيره الحسن بن سهل ليزف إلى ابنته بوران ، ركب من بغداد زورقا حتى وصل إلى باب الحسن ، وكان يصحبه ابنه العباس فتلقاه الحسن خارج عسكره فى موضع اتخذه على شاطىء دجلة ، وكان وصول المأمون وقت المغرب فى شهر رمضان سنة ٢١٠ هـ ، فأفطر هو والحسن والعباس . وفى الليلة الثالثة تزوج المأمون ، بوران وزفت إليه فى مدينة فم الصلح بالقرب من بغداد ، فلما جلس معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب ، وجمع المأمون تلك الدرر فى الآنية ووضعها فى حجرها ، وقال : هذه غلتك ، فاسألى حوائجك ، فأمسكت ، فقالت لها جدتها : كلى سيدك واسأليه حوائجك فقد أمرك ، فسألته الرضا عن إبراهيم بن المهدى فقال : قد فعلت ، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج فأذن لها ، وتزوجها فى نفس الليلة ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر ، فيها أربعون مناً .

و بذل الحسن بن سهل على زفاف ابنته للمأمون كثيراً من الأموال ، حتى لقد قدر بعض المؤرخين نفقات الزواج بخمسين مليون درهم ، وأسرف فى هذا الزواج ونثر من الأموال مالم ينثره وما لم يفعله ملك فى جاهلية أو إسلام . ذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب بنادق مسك ، فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوارى وصفات دواب وغير ذلك ، فكانت البندقية إذا وقعت فى يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، ونثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك و بيض العنبر . وأنفق على المأمون وقواده وعلى جميع أصحابه ، ومن كان معه من جنوده أيام مقامه عنده وعلى المكارين والخدم والملاحين وكل من ضمه العسكر من تابع ومتبوع مرتزق عنده ، فلم يكن أحد من الناس يشترى شيئا فى عسكر المأمون[1] .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب . جـ ٣ ص ٣٣٠ .

النهضة العلمية فى عهد المأمون :

كان عصر المأمون من أزهى عصور العلم فى الدولة العباسية : لميل المأمون نفسه إلى تحصيل العلوم والمعارف ونشر المعرفة بين أفراد الأمة الإسلامية ، وقد تجلى ذلك فى إمداد « بيت الحكمة » فى بغداد الذى وضع أساسه الرشيد بالكتب فى مختلف العلوم والفنون ، مما جلبه من بلاد الهند والروم والفرس وغيرها ، حتى أصبح أشبه بجامعة علمية ، تحوى داراً للكتب ، يجتمع فيه العلماء للترجمة والتأليف والدرس ، وبه أماكن خاصة للنساخين لنسخ الكتب لأنفسهم ولغيرهم بأجور معينة ، وأشرف عليه موظف عرف باسم « صاحب بيت الحكمة » ، كان الخلفاء يختارونه ممن اتصف بسعة العقل والأمانة العلمية[1] .

وكان المأمون مثقفا ثقافة فارسية ، لأن أمه كانت فارسية ، وكان يميل إلى حرية الفكر والبحث ، مما دفعه إلى إيجاد « مجالس المناظرة » حتى يتمكن عن طريقها من إزالة الخلاف بين العلماء فيما يدلون به من آراء علمية . فقد روى عن القاضى يحيى بن أكثم أنه قال : أمرنى المأمون عند دخوله بغداد أن أجمع له وجوه الفقهاء وأهل العلم من بغداد ، فاخترت له من أعلامهم أربعين رجلا وأحضرتهم ، وجلس لهم المأمون ، فسأل عن مسائل ، وأفاض فى فنون الحديث والعلم . فلما انفض المجلس الذى جعلناه للنظر فى أمر الدين ، قال المأمون : يا أبا محمد . . . إنى لأرجو أن يكون مجلسنا هذا ـ بتوفيق الله وتأييده ـ سببا لاجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين » .

كان المأمون يجلس للمناظرة يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، يقول المسعودى :

---

(١) قضى هولاكو زعيم التتار على هذه المكتبة ، عند إغارته سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) على بغداد وتخريبها .

« فإذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر أهل المقالات أدخلوا حجرة مفروشة ، وقيل لهم : أنزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد ، وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن خُفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها . فإذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا : ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ، ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها وأبعدها من مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك إلى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون ، قال : فإنه يوما لجالس إذ دخل عليه على بن صالح الحاجب فقال يا أمير المؤمنين ، رجل واقف بالباب عليه ثياب بيض غلاظ مشمرة ويطلب الدخول للمناظرة ، فقلت : إنه بعض الصوفية فأردت بأن أشير أن لا يؤذن له ، فبدأ المأمون فقال : ائذن له ، فدخل عليه رجل عليه ثياب قد شمرها ونعله فى يده ، فوقف على طرف البساط فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فقال المأمون : وعليك السلام ، فقال : أتأذن فى الدنو منك ؟ قال : إدن فدنا ، ثم قال : إجلس ، فجلس ثم قال أتأذن فى كلامك ؟ فقال : تكلم بما تعلم أن لله فيه رضا ، قال . أخبرنى عن هذا المجلس الذى أنت قد جلسته أباجتماع من المسلمين عليك ورضا منك أم بالمبالغة لهم بالقوة عليهم بسلطانك ؟ قال لم أجلسه باجتماع منهم ولا بمغالبة لهم ، إنما كان يتولى أمر المسلمين سلطان قبلى ، أحمده المسلمون إما على رضا وإما على كره ، فعقد لى ولآخر معى ولاية هذا الأمر بعده فى أعناق من حضره من المسلمين ، فأخذ على من حضر بيت الله الحرام من الحاج البيعة لى ولآخر معى ، فأعطوا ذلك إما طائعين وإما كارهين ، فمضى الذى عقد له معى على هذا السبيل التى مضى عليها ، فلما صار إلىّ علمت أنى أحتاج إلى اجتماع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها على الرضا ، ثم نظرت فرأيت أنى متى تخليت عن المسلمين اضطرب حبل الإسلام وانتقضت أطرافه وغلب الهرج والفتنة ووقع التنازع ، فتعطلت أحكام الله سبحانه وتعالى ، ولم يحج أحد بيته ، ولم يجاهد فى سبيله ، ولم يكن له سلطان

يجمعهم ويسوسهم ، وانقطعت السبل ، ولم يؤخذ لمظلوم من ظالم ، فقمت بهذا الأمر حياطة للمسلمين ، ومجاهدا لعدوهم ، وضابطا لسبلهم ، وآخذا على أيديهم ، إلى أن يجتمع المسلمون على رجل تتفق كلمتهم على الرضا به ، فأسلم الأمر إليه وأكون كرجل من المسلمين . . . »[1]

اشتغل الناس فى عهد المأمون بعلوم الدين والحديث ، وظهر المجتهدون الذين يحاولون تفسير ما هو محل الاختلاف ، واجتهد المأمون فى بحث مسألة القرآن وخلقه ، وعقد لهذا الغرض مجالس للمناظرة ، يتناقش فيها فى حضرته العلماء من القضاة والمحدثين ، وكثر الجدل والنقاش فى هذه المسألة ، بعد أن بعث المأمون فى سنة ٢١٨ هـ إلى إسحق بن إبراهيم بن مصعب كتابا مطولا يقيم فيه الدليل على صحة الرأى الذى ذهب إليه المعتزلة فى القول بأن القرآن مخلوق ، أى أن كلام الله سبحانه وتعالى ليس قديما ، ويتوعد فى هذا الكتاب كل من يخالف القول بذلك من الموظفين بإقالته من وظيفته . ومما جاء فى هذا الكتاب : « قد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة ، ممن لا نظر له ولا روية ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه ، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه ، وقصور أن يقدروا الله حق قدره ويعرفوه كنه معرفته ويفرقوا بينه وبين خلقه ، ذلك أنهم ساووا بين الله وبين خلقه وبين ما أنزل من القرآن على أنه قديم لم يخلقه ولم يخترعه . . . فاجمع من بحضرتك من القضاة واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين وامتحنهم فيما يقولون واكشفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وإحداثه وأعلمهم أنى غير مستعين فى عملى بمن لا يوثق بدينه » .

وظهر فى عهد المأمون جماعة من كبار العلماء على رأسهم ابن الهزيل وابن سيار والجاحظ وغيرهم من رؤساء الاعتزال ، وهؤلاء تعمقوا فى بحث مسألة خلق

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٣٤٢ — ٣٤٣ .

القرآن ليصلوا هل هو قديم أم حادث ، وليثبتوا أن ما وصل إليه المأمون من أن القرآن مخلوق هو الصحيح ، وتناولوا بالبحث صفات الله سبحانه وتعالى ووصلوا فيما وصلوا إليه أن الله لا يرى جهرة يوم القيامة .

وتناقش العلماء فى تلك المجالس فى مسألة الخلافة ومن يستحقها شرعا بعد الرسول عليه السلام وعمد العلماء إلى حض الناس على عدم ذكر معاوية بالخير ، وعلى تحبيذ القول بأن عليا هو خير الناس بعد النبى ولم يصادف المأمون شيئاً من النجاح فى بحث هذه المسائل وفيما وصل إليه من نتائج ، فقد عاب الناس عليه تدخله فى الأمور الدينية البحتة وتفضيله عليا بن أبى طالب على سائر الخلفاء الراشدين واعترافه بأحقية العلويين فى الخلافة حتى جعل ولاية العهد لعلى الرضا ، مما أساء إلى العباسيين .

ويظهر أن المأمون كان يرمى من عقد هذه الاجتماعات أن يصل إلى الاتفاق على رأى واحد فى مسألة خلق القرآن وموضع الخلافة حتى تتفق كلمة الأمة فى تلك الأمور ، التى كانت مصدر شقائها و بلائها ، ولكن لم يكتب له التوفيق فيما رمى إليه[1] .

ونهض المأمون بالبلاد نهضة علمية جديرة بالتقدير والإعجاب ، فقد اهتم بحركة الترجمة من اللغات الأخرى وخاصة اليونانية والفارسية إلى اللغة العربية . وقويت تلك الحركة بفضل تشجيعه للعلم وبما بذله من الأموال الضخمة فى هذا السبيل . وأرسل لذلك البعوث إلى القسطنطينية ، لنقل ما فيها من الكتب إلى العربية ، ورحل كثير من العلماء إلى بلاد الدولة البيزنطية ، ومن بينهم حنين بن إسحق ، فأحضروا الكتب الفريدة فى الهندسة والموسيقى والطب[2] ، وبعث المأمون فى طلب كتاب أرسطاطاليس فى الفلسفة على وجه السرعة . وممن مهر

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٢٥٧ .
(٢) ابن النديم : كتاب الفهرست ص ٣٣٩ — ٣٤٠ .

من العلماء فى عصر المأمون فى الترجمة إلى العربية : بختيشوع ، والحجاج بن مطر وثابت بن قرة ، وذلك عدا حنين بن إسحق . ووجد بين العرب أنفسهم كثير من العلماء ألفوا كتباً هامة فى العلوم الفلسفية ، وعلى رأسهم الكندى ، وحذا فى تأليفه حذو أرسطو ، وترجم كثيرا من كتب الفلسفة وأوضح ما فيها من النقط الغامضة .

تقدير المأمون :

توفى المأمون سنة ٢١٨ هـ فى شمال مدينة طوس بالحمى ، وذلك أثناء رحيله لفتح القسطنطينية ، وهو فى الثامنة والأربعين من عمره ، بعد حياة حافلة بجلائل الأعمال ، فقد كان أديبا ، عالما ، شجع العلم ، وقرب الأدباء ، وأغدق عليهم الهبات حتى عد عصره من عصور الأدب الزاهرة فى الإسلام . كما اتصف بكثير من الصفات الحميدة ، فقد كان يكره الانتقام من أعدائه ويميل إلى العفو عند المقدرة فقد عفا عن إبراهيم بن المهدى الذى جلس على كرسى الخلافة نحواً من سنتين أقلق خلالها خلافة المأمون .

وكان المأمون من الخلفاء الذين عرفوا بالكرم ، فقد أمر بمنح وزيره الحسن ابن سهل والد زوجته السيدة بوران عشرة آلاف درهم وأطلق له خراج فارس وكور والأهواز مدة من الزمن . ولما أراد أن يصعد فى دجلة إلى مدينة السلام قال للحسن بن سهل : حوائجك يا أبا الحسن ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، أسألك أن تحفظ علىّ مكانى من قلبك ، فإنه لا يتهيأ لى حفظه إلا بك . فقال فى ذلك الشعراء فأكثروا وأطنب الخطباء وتكلموا . ومما استظرف مما قيل فى ذلك من الشعر ، قول محمد بن حازم الباهلى :

بارك الله للحسن ... ولبوران فى الختن
يا إمام الهدى قد ظفر ... ت ولكن ببنت من

فلما نمى هذا الشعر إلى المأمون ، قال : والله ما ندرى خيراً أراد أم شراً[1] .

وعرف عن المأمون أنه رغب فى أن تستمر الخلافة العباسية من بعده فى اتباع آرائه ومعتقداته التى نادى بها فى خلافته ، فقد أوصى خلفه إسحق ابن هارون الرشيد الذى تولى الخلافة وتلقب بالمعتصم ، بأن يطارد القائلين بعدم خلق القرآن ، وأن يحسن معاملة العلويين .

اتصف المأمون بالغفلة وعدم تقدير العواقب ، فقد لبث السنوات الأولى من حكمه فى خراسان ، وكان الأوفق أن يعجل بالخروج إلى بغداد ، ولكن غلب عليه الفضل بن سهل ذو الرياستين واحتبسه فى خراسان وجعله شبه سجين بها تقضى الأمور دونه ولا يطلع إلا على ما يسمح به الفضل ، حتى فسد أمر المغرب وقامت الفتن فى كل الأنحاء : فتنة نصر بن شبث ومن تبعه من الأعراب ، وفتنة العلويين أو الطالبيين بزعامة أبى السرايا وعجز الحسن بن سهل أمير العراق عن مكافحتهم ، وما صحب الفتن العربية والعلوية من الشوائب . وأعجب من ذلك وأقطع فى الدلالة على إغفال المأمون أحوال البلاد ، أن هرثمة بن أعين حين عزم مخلصاً على أن يطلع المأمون على مجرى الأحوال ودرجة انتشار الفساد فى البلاد تمكن الفضل بن سهل والحسن بن سهل من أن يكيدا له لدى المأمون حتى أمر بقتله . وهذا يبين لنا أنه رغم تقدير ما اتصف به هذا الخليفة من الكرم والميل إلى العفو ومن الإقبال على العلم وتكريم العلماء ، فقد أخذ عليه استئثار بعض الشخصيات ، ممن عرف عنها الجور والعسف ، بالنفوذ والسلطان ، وذلك أفسد على المأمون إدارة الدولة فى حزم وعزم ، يمكناه من القيام بأعمال الإصلاح التى كانت البلاد ترجو أن تتم فى عهده .

---

(١) أحمد بن طاهر بن طيفور : كتاب تاريخ بغداد ص ٢٠٦ — ٢١١ .

٨ – المعتصم

٢١٨ – ٢٢٧ هـ = ٨٣٣ – ٨٤٢ م

بويع المعتصم بن الرشيد يوم وفاة أخيه المأمون فى ١٩ رجب سنة ٢١٨ هـ وهو فى غزوته الأخيرة لبلاد الروم ، ورفض الجند أن يقدموا له الطاعة فى مبدأ الأمر وأرادوا تولية العباس بن المأمون ، ولكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه فحذا الجيش حذوه بعد ذلك .

سار المعتصم على سياسة أخيه المأمون ، فى حمل الناس على القول بخلق القرآن ، فقد أوصاه المأمون قبل وفاته بقوله : « يا أبا إسحق (المعتصم) أدن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك فى القرآن[1] . وزاد على ذلك أن ألحق الأذى بكل من يعترف بغير ذلك من العلماء وأهل الرأى ، فأهان أحمد بن حنبل إهانة بالغة وسجنه[2] ، وأصبح كل عالم أو قاض هدفاً لأن يضرب بالسياط والتعذيب إذا لم يأخذ برأى المعتزلة فى القول بخلق القرآن .

سياسته إزاء العلويين :

تابع المعتصم إزاء العلويين نفس سياسة الشـــدة ، التى تبعها الخلفاء العباسيون قبله عدا المأمون . فقد تخلص المعتصم من محمد الجواد بن على الرضا الذى كان المأمون قد زوجه ابنته أم الفضل ، حتى لا تحدثه نفسه بالمطالبة بالخلافة على

---

(١) الطبرى ج ١٠ ص ٢٩٤ .

(٢) كان لتمسك ابن حنبل أحد كبار المحدثين برأيه فى القرآن ، وقوله إنه كلام الله ، فلا هو قديم ولا مخلوق ، أكبر الأثر فى علو شأنه بين الناس واحترام العلماء والمحدثين له ، واضطر المعتصم بعد أن كان قد أمر بحبسه أن يفرج عنه ويسترضيه للرأى العام .

أساس : أن أولاده من سلالة المأمون ، وأن أباه عليا الرضا قد ولاه الخليفة المأمون العهد قبل وفاته وبذلك تؤول الخلافة إليه بعد وفاة أبيه[١] . كذلك خرج محمد بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب على المعتصم ، وكان قد علم أن الخليفة يضمر له الشر ، ورحل عن الكوفة إلى خراسان ، حيث انضم إليه خلق كثير وحارب جيوش الخليفة فى عدة مواقع ، إلا أن عبد الله بن طاهر والى خراسان قبض عليه وأرسله إلى المعتصم فحبسه فى سامرا حتى مات ، ويزعم أتباعه أنه حى لم يمت وأنه المهدى المنتظر ، وأكثر هؤلاء بناحية الكوفة وبلاد طبرستان وجبال الديلم[٢] .

اعتماده على الأتراك :

اعتمد المعتصم لأول مرة فى تاريخ العباسيين ، اعتماداً كلياً على الأتراك ، بعد أن كان اعتماد من سبقه من الخلفاء على الفرس ، ولا عجب فى ذلك إذ كانت أمه تركية : فأسقط العرب من ديوان العطاء ، وأهمل العنصر العربى والفارسى معاً ، وأسند إلى الأتراك مناصب الدولة ، وكان المعتصم يرى أن دولته الواسعة لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك ، وكانوا يجلبون من أسواق الرقيق فى بلاد ماوراء النهر . واتخذ من حسن هندامهم وجمال منظرهم وشجاعتهم وتمسكهم بأهداب الإسلام ، سبباً للاعتماد عليهم : فولاهم حراسة قصره ، وأسند إليهم أعلى المناصب ، وقلدهم الولايات الكبيرة ، وخلع عليهم الهبات والأرزاق وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء[٣] .

أخذ هؤلاء الأتراك ، الذين كانوا بعيدين عن الحضارة والعلم ، يندمجون

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٤٨ .

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٣٠٥ ، المسعودى : نفس المصدر والجزء ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٣) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٩٩ .

فى طبقات الأمراء المثقفين : فتعلموا العربية ، ووقفوا على أحكام القرآن ، ودانوا بالإسلام ، ودرسوا العلوم والآداب ، وكان كل من يصل منهم إلى مرتبة خاصة من التهذيب والتثقيف يتولى المنصب الذى يتناسب مع كفايته ومواهبه ، ومن ثم تمكن كثير منهم من الوصول إلى أعلى المراتب ، فاندمجوا فى سلك البلاط وتقلدوا ولاية الإمارات ، وعظم نفوذهم واشتد ، حتى أصبح فى أيديهم تولية الخليفة وعزله أو حبسه ونفيه أو قتله ، وما لبث عددهم أن زاد حتى أربى على الخمسين ألفا[1] . ، فقويت شوكتهم ، وتدللوا على الخليفة حتى ألبسهم حلل الديباج والمناطق المذهبة والحلى . فداخلهم الغرور وارتكبوا كثيرا من أعمال العسف والشدة ، حتى أنهم كثيراً ما آذوا السكان وداسوهم بخيولهم فى الأسواق والطرقات ، مما أثار غضب العامة وحنقهم عليهم .

وكانت نتيجة إهمال المعتصم للعرب واستعانته بالأتراك وإجزاله العطايا لهم دون غيرهم ، أن دب فى نفوس العرب دبيب الغيرة والحسد ، وقام عجيف القائد العربى بثورة على قواد الترك الذين أساءوا معاملة العرب ، بل عزم على التخلص من المعتصم نفسه ، وأغرى العباس بن المأمون بالخروج على عمه والمطالبة بعرشه ، واشترك قواد العرب فى هذه المؤامرة واتفقوا على قتل المعتصم ، إلا أن خبر هذه المؤامرة قد تسرب إلى المعتصم ، فمنع الماء عن العباس حتى مات ولحق به عجيف[2] . وثار العرب على المعتصم فى بلاد الشام ، كما أثار الأكراد الفتنة ضده فى الموصل ، ولكن هذه الثورات باءت بالفشل فى مهدها ، على أن المعتصم بعد أن تمكن من إقصاء قواد العرب والفرس تدريجياً وأسقطهم من ديوان العطاء وقع فى أيدى الأتراك ، وهؤلاء كانت الرغبة فى انتزاع السلطة من الخليفة قد

---

(١) Gibbon: Decline anb Fall of the Roman Empire,. Vol.IV, P. 47

(٢) الطبرى ج ١٠ ص ٣٤٤ . حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٧ .

تغلبت على نفوسهم ، إذ لم يكونوا جادين فى إخلاصهم للخليفة ، وفى سبيل ذلك عملوا على حصر السلطة فى أيديهم . وعد عهد خلافة المعتصم وخلافة الواثق من بعده ، فترة انتقال إلى حكم الأتراك الفعلى فى بغداد ، وسلطان الخلفاء الإسمى منذ وفاة الواثق ، واتضح بجلاء فى العصر العباسى الثانى خطر اعتماد العباسيين على الأتراك .

سامرا :

لم يكن بد من أن يعمل المعتصم على تلافى الشر قبل وقوعه ، بعد أن استفحل خطر الارتزاق ، وأثاروا سخط العامة وآذوا أهل بغداد . لذلك عول على اتخاذ موضع يبنى فيه مدينة جديدة ، تسع جنده من الأتراك ، فبنى فى سنة ٢٢١ هـ مدينة سامرا التى عاشت حوالى الستين عاما .

وهكذا بنيت سامرا شرقى نهر دجلة ، على مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، وتبعد عنها ستين ميلا من الشمال ، وتقع فى مكان طيب الهواء جيد التربة . يسهل منه الوصول إلى بغداد براً وبحراً ، وشيد فى طرفها مسجداً جامعا للمسلمين ، وأفرد سوقا لأرباب الحرف والصناعات ، ونقل إلى حاضرته الجديدة الأشجار والثمار وغرس الحدائق والبساتين ، وشيد المتنزهات ، وأقام المبانى الشاهقة والقصور الفخمة التى قيل إن عددها بلغ سبعة عشر قصراً [1] .

أصبحت سامرا مدينة عامرة زاهرة ، حتى سميت « سر من رأى » . وصفها ابن المعتز بقوله : « إنها معشوقة السكنى ، حبيبة المثوى ، كوكبها يقظان وجوها عريان ، حصاها جوهر ، ونسيمها معطر ، وترابها مسك أذفر ، يومها غداة ، وليلها سحر ، طعامها هنىء وشرابها مرىء ، تاجرها مالك ، وفقيرها فاتك » . ووصفها الحسين بن الضحاك فقال :

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، لفظ سامرا.

سر من رآ أسر من بغداد فاله عن بعض ذكراها المعتاد
جنداً مسرح لها ليس يخلو أبداً من طريدة وطراد
ورياض كأنما نشر الزه ر عليها مجد الأبراد
واذكر المشرف المطل من الت ل على الصادرين والوراد[1]

وظلت مدينة سامرا فى أوج عظمتها ، محتفظة برونقها وبهائها منذ بنائها سنة ٢٢١ ﻫ إلى نهاية خلافة المعتضد ، فانتابها الخراب والدمار ، بعد أن تقوضت معالمها عام ٢٨٩ ﻫ ، حتى كان الناظر إليها يستوحش منها « بعد أن لم يكن فى الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ، ولا آنس ولا أوسع ملكا منها فسبحان من لا يحول ولا يزول » .

ومنذ ذلك الحين ، أطلق عليها « ساء من رأى » ، ثم اختصر فقيل « سامرا » ، يقول ابن المعتز :

قد أقفرت سر من رآ وما لشىء دوامُ
فالنقض يحمل منها كأنها آجام
ماتت كما مات فيلٌ تسل منه العِظام

النحل الدينية : البابكية والجوسية :

فى عهد المعتصم ، ظهرت بجلاء خطورة الحركة التى قادها منذ عهد المأمون الرجل الفارسى بابك الخرمى[2] ، الذى اعتصم بالأقاليم الجبلية الشمالية الشرقية فى منطقة حران منذ سنة ٢٢١ ﻫ وحصنها ، فقد ادعى بابك أن روح جاويدان

---

(١) ياقوت معجم البلدان .
(٢) المقدسى : البدء والتاريخ ج ٥ ص ١٣٤ .

قد حلت فيه ، وجاويدان كان زعيما نسب إليه أتباعه صفات الألوهية ، وزاد بابك على ذلك أن نشر مبادىء الإباحية وأخذ فى العبث والفساد وجنح إلى الوحشية والفوضى ، وكلها من تعاليم المجوس ، كما أن هذا الرجل كثيراً ما أثار البيزنطيين على الدولة العباسية وعقد محالفات مع الروم ضد الدولة ، ولذا تمكن من المقاومة مدة طويلة ، وساعده على ذلك أيضاً أن المأمون كان مشغولا بالقضاء على الفتن الداخلية فى أنحاء البلاد و بقتال البيزنطيين . ولكن المعتصم دفع كل قوات الدولة للقضاء على بابك ، وعهد بذلك إلى الإفشين قائد الخليفة ، الذى حاصره مدة طويلة فى مكمنه فى حران ، ثم أطبقت جيوشه عليه واضطرت بابك إلى التسليم وحاول الفرار ، ولكن قبض عليه وسيق إلى سامرا ، حيث لاقاه المعتصم هو ومن حمل معه من الأسرى ، وقتل بابك أشنع قتلة وطيف برأسه فى الأقطار ليكون عظة لمن يحاول أن يقوم بمثل حركته ، وكافأ الخليفة قائده الإفشين ، فعقد له على السند وأدخل عليه الشعراء يمدحونه . وقضى بذلك على حركة كانت ستصبح خطراً جسيما على كيان الدولة ، وخاصة أنها كانت ترمى إلى التحرر من كل نظام اجتماعى والعودة إلى الإباحية .

وظهر فى زمن المعتصم ، فى إقليم طبرستان ، رجل يعرف باسم « مزيار المجوسى » . وحدث خلاف بين مزيار و بين عبد الله بن طاهر والى خراسان ، فإن مزيار كان لا يؤدى الأتاوة المفروضة على إقليمه لعبد الله بن طاهر ، باعتبار أن طبرستان خاضعة من الناحية الإدارية لخراسان ، بل كان يؤديها للخليفة المعتصم مباشرة متخطيا والى خراسان ، وكان المعتصم بدوره يرسلها لهذا الوالى . وانتهز الإفشين قائد المعتصم تلك الفرصة ، وعمل على اتساع هوة الخلاف بين عبد الله بن طاهر ومزيار ، وكان الإفشين بعد ولائه المجيد فى واقعة عمورية وانتصاره على البيزنطيين وقضائه على بابك الخرمى وتقدير المعتصم له بعد هذه الخدمات ، قد علا صيته وزادت مطامعه ، فعمل على أن يتولى إمرة

خراسان بدلا من واليها . لذلك كاتب مزيار سراً ، وحرضه على عبد الله بن طاهر ، وانتهى الأمر بقطع الأتاوة التى كان يدفعها مزيار . وكان من نتيجة ذلك العمل أن ابن طاهر حارب مزيار بأمر المعتصم . ورغب الإفشين فى أن يتولى قيادة الحملة ضد مزيار ، توصلا إلى غرضه فى عزل ابن طاهر عن خراسان ، ولكن ابن طاهر استطاع بواسطة قواده الآخرين القضاء على مزيار وقبض عليه وأرسله إلى المعتصم . وهناك أفشى مزيار إلى الخليفة أمر الرسائل التى بعث بها الإفشين إليه يحرضه فيها على الخليفة ووالى خراسان . وعلى أثر ذلك تنكر المعتصم للإفشين وأمر بحبسه ، وعقد له بعد ذلك مجلسا لمحاكمته ، وكان ذلك فى سنة ٢٢٥ هـ وتولى أمر محاكمته محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وأحد شخصيات العباسيين البارزة . وانتهت المحاكمة بإعادته إلى السجن ، وظل به حتى مات سنة ٢٢٦ هـ ثم أحرق بالنار[١] . ووجدت فى حوزته عدة أصنام وبعض كتب المجوس التى تشرح ديانتهم ، واتضح أنه كان يسر المجوسية ويظهر الإسلام . وبذلك يتصل تاريخ حياته بموضوع النحل الدينية القديمة التى ترجع فى أساسها إلى الفرس وحاولت الظهور فى عهد العباسيين ، وهى فى عهد المعتصم تتعلق بمحاولة نشر الإباحية كما ظهر فى حركة بابك الخرمى وبنشر المجوسية التى كان يعتنقها سراً الإفشين وافتضح أمره[٢] .

علاقته بالدولة البيزنطية :

فى زمن المعتصم ، عادت العلاقات بين الدولة العباسية والدولة البيزنطية إلى أسوأ مما كانت عليه . ولكن المعتصم كان بعيد النظر ، فوجه كل همته إلى القضاء على فتنة بابك الخرمى أولا ، وانتهز الإمبراطور البيزنطى تلك

---

(١) الطبرى جـ ١٠ ص ٣٦٥ — ٣٦٧ .
(٢) Muir : The Caliphate, pp. 518—519

الفرصة وأغار على مدينة زِبطرة وأحرقها وأسر من فيها ، وعاث فساداً فى بعض بلاد سورية ، وأعمل فيها السلب والنهب والتخريب والتقتيل ، حتى ثار الناس واستغاثوا . وكان المعتصم إذ ذاك قد قضى على بابك ، فسار إلى أنقرة فى جيش ضخم بقيادة الإفشين وأشناس وهزم الإمبراطور البيزنطى واستولى على أنقرة ، ثم عزم على تخريب مدينة عمورية فى آسيا الصغرى ، وكان الإمبراطور تيوفلس قد نشأ فيها ، وعسكر المعتصم غربى دجلة ، حيث التف حوله جنده وعلى رأسهم نخبة من مشاهير قواده من الترك أمثال الإفشين وأشناس وبغا الكبير ، ومن العرب أمثال عجيف بن عنبسة ومحمد بن إبراهيم . وبلغ جيش المعتصم خمسمائة ألف مقاتل أو مائتى ألف فى رواية أخرى . وخرج بهذا العدد ، وتابع السير فى أراضى آسيا الصغرى ، حتى وصل إلى عمورية سنة ٢٢٣ هـ فحاصرها ، وأسرف فى قتل الأهلين ، حتى قيل إنه قتل ثلاثين ألفا من سكانها ، وتركها للنهب والسلب والتهام النيران لها من كل جانب ، أربعة أيام كاملة(١) .

ولما عاد المعتصم إلى سامرا ، بعد ذلك النصر الحاسم فى عمورية ، احتفل باستقباله احتفالا باهراً ومدحه أبو تمام الشاعر المشهور ، بقصيدته التى مطلعها :

السيف أصدقُ إنباء من الكتب ... فى حدِّه الحد بين الجد واللعب(٢)

تقدير المعتصم :

توفى المعتصم فى ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ ، وهو نفس الشهر الذى مات فيه الإمبراطور البيزنطى تيوفلس عدوه القديم ، بعد أن حكم المعتصم البلاد حكما استبدادياً مقرونا بالعطف وحسن التدبير ، وبعد أن ثبت له أنه لم يكن بعيد النظر حين استخدم الأتراك ، فقد شكا منهم ومن تغلغل نفوذهم فى أخريات عهده .

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢١٠ — ٢١١ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٢٣ .

والمعتصم من شخصيات العباسيين الجليلة ، تتمثل فيه روح الجندية ، فقد كان من أبرز صفاته : الصراحة وحب البساطة . وظهرت مقدرته الحربية فى قضائه على الخرمية ، وعلى مزبار والإفشين ، وعلى البيزنطيين ، وتغلبت عليه الصفة الحربية حتى اشتهر بها .

٩ — الواثق

٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٨٤٢ — ٨٤٧ م

ولى الواثق الخلافة بعد أبيه المعتصم ، وكانت أمه رومية . وشارك أباه فى ميوله وآرائه الفلسفية وزاد عليه . وكانت تشوب إدارته مظاهر الضعف أحياناً والاستبداد أخرى ، فقد اشتد على كتاب الدواوين حين تبين له تفشى الرشوة والفساد بينهم ، واستولى منهم على مبالغ تتراوح بين أربعة عشر ألف دينار ومليون دينار .

وفى عهد الواثق ، استمرت الحروب بين العباسيين والبيزنطيين ، وسببها وجود جماعة من النصارى المتحنفين فى آسيا الصغرى لا يرون عبادة الصور ، فكانوا لذلك محل اضطهاد الحكومة البيزنطية مما دفعهم إلى الاحتماء بالخليفة الواثق والهجرة للالتجاء إليه ومعهم زعيمهم قربياس Karbeas ، وهؤلاء قاتلوا مع جند العباسيين ضد الروم ، وانتهى الأمر بهزيمة البيزنطيين والإمبراطور البيزنطى ميشيل الرابع هزيمة شائنة فى سنة ٢٤٥ هـ ، فى عهد المتوكل الذى خلف الواثق على عرش الخلافة العباسية .

سياسته إزاء مسألة خلق القرآن :

غلا الواثق فى نشر آرائه الدينية الخاصة بمسألة خلق القرآن ، جرياً على السياسة التى سار عليها أبوه . فأثار خواطر أهل بغداد مما دعاهم إلى

التآمر على حياته وعلى حكومته وكان أحمد بن نصر رأس هؤلاء الساخطين الذين أنكروا القول بخلق القرآن ، وحملوا على الواثق حملة شعواء ودعوا إلى عزله ، والتف حوله كثير من أنصاره ، وعينوا يوما ينفذون فيه مؤامرتهم على أن يضربوا الطبل فى الليلة السابقة لذلك اليوم . إلا أن الرجلين اللذين عهد إليهما تنفيذ هذا الأمر أكثرا من شرب الخمر فى تلك الليلة ، وأخذ الفريق الذى رابط على الجانب الشرقى يدق الطبل ، فلم يجبهم أصحابهم الذين فى الجانب الغربى ، وكشف المؤامرة قبل أن يستفحل خطرها .

وعقب ذلك ، قبض على أحمد بن نصر وأعوانه وسيقوا إلى الواثق فى سامرا قاعدة خلافته . وهناك عقد لهم الخليفة مجلساً للمناظرة ، ولم يكترث لمسألة الشغب الذى أحدثوه وخروجهم على الخلافة ، بل اهتم بمناظرة أحمد ابن نصر فى مسألة خلق القرآن ، فقال له : يا أحمد ! ما تقول فى القرآن . قال : كلام الله ، قال : أمخلوق هو ؟ قال : هو كلام الله . قال : فما تقول فى ربك ، أتراه يوم القيامة ؟ قال : يا أمير المؤمنين ! جاءت الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر . فقال الواثق لمن حوله : فما تقولون فيه ! فقال القاضى عبد الرحمن بن اسحق : هو حلال الدم ، وقال غيره : اسقنى دمه يا أمير المؤمنين . ووافقه الحاضرون إلا ابن أبى دؤاد قاضى القضاة ، فإنه قال : يا أمير المؤمنين ، كافر يستتاب لعل به عاهة أو تغير عقل . ولكن الواثق دعا بالصمصامة ـ وهو سيف عمرو بن معدى كرب الزبيدى[1] ـ وضرب به على عنقه وحز رأسه وحمله إلى بغداد وصلب ، ووضعت فى أذنه رقعة فيها : هذا رأس الكافر المشرك الضال أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين ، بعد أن قام عليه الحجة فى خلق القرآن ، ونفى

(١) عمرو بن معدى كرب الزبيدى : هو ذلك الفارس العربى الذى ذاع صيت سيفه واشتراه الخليفة المهدى العباسى وورثه خلفاؤه .

التشبيه ، وعرض عليه التوبة ، ومكنه من الرجوع إلى الحق فأبى ، والحمد لله الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه [1] .

تقدير الواثق :

كان الواثق يعطف على أهل بيته ، ويتفقد أحوال الرعية ، أفرد فى قصره مكانا للمناظرة والجدل ، ولذا أطلق عليه « المأمون الأصغر » ، وشغف بالوقوف على آراء العلماء ، حتى أنه طلب من حنين بن اسحق أن يؤلف كتابا يذكر فيه الفرق بين الغذاء والدواء ، فأتمه وسماه « كتاب المسائل الطبيعية » ، وعاش فى أيامه الشاعر أبو تمام صاحب ديوان الحماسة ، الذى أجزل الواثق العطاء له ولكثير غيره من الشعراء الذين زخر بهم عصره ، فقد كان الواثق نفسه شاعراً يقول الشعر . ونبغ فى عهده الكندى فيلسوف العرب ، وحنين ابن اسحق فى الطب ، واليعقوبى والبلاذرى وأبو حنيفة الدينورى وهم من فطاحل المؤرخين . وكان الواثق يتقن فن الغناء والموسيقى إتقانا لم يسبقه إليه خليفة أو ابن خليفة ، وقد وضع بعض الأصوات والأنغام الجديدة . على أنه ينبغى أن نشير إلى أن حكم الواثق كان فترة ركود فى تاريخ العصر العباسى ، إذ جعل الترك يشعرون بأهميتهم ويتدخلون فى شئون السياسة ، حتى فتح لهم باب التدخل فى آخر مراحل السلطة وهى اختيار الخليفة ، فكانت هذه سابقة جرت الويلات على العباسيين .

حكم الواثق الدولة العباسية أقل من ست سنين ، ولم يول عهده أحداً ، وسئل فى مرض الموت أن يوصى بالخلافة لولده فلم يقبل ، وقال : لا أتحمل أمركم حياً وميتاً ، وتوفى سنة ٢٣٢ هـ ، بعد أن أثار خواطر الأهالى : لتمسكه بهذه البدع الدينية . وتوغل العنصر التركى فى الإدارة الحكومية ، وكان ذلك من أقوى عوامل انحطاط الدولة العباسية وسقوطها فى النهاية .

---

(٣) الطبرى جـ٢ ص١٧ — ١٨ .

ثانياً — العصر العباسى الثانى

٢٣٢هـ — ٦٥٦هـ = ٨٤٧ — ١٢٥٨ م

خلفاء العصر العباسى الثاني :

عدد	السنوات الهجرية	أسماء الخلفاء	السنوات الميلادية
١	٢٣٢	المتوكل	٨٤٧
٢	٢٤٧	المنتصر	٨٦١
٣	٢٤٨	المستعين	٨٦٢
٤	٢٥٢	المعتز	٨٦٦
٥	٢٥٥	المهتدى	٨٦٩
٦	٢٥٦	المعتمد	٨٧٠
٧	٢٧٩	المعتضد	٨٩٢
٨	٢٨٩	المكتفى	٩٠٢
٩	٢٩٥	المقتدر	٩٠٨
١٠	٣٢٠	القاهر	٩٣٢
١١	٣٢٢	الراضى	٩٣٤
١٢	٣٢٩	المتقى	٩٤٠
١٣	٣٣٣	المستكفى	٩٤٤
١٤	٣٣٤	المطيع	٩٤٦
١٥	٣٦٣	الطائع	٩٧٤
١٦	٣٨١	القادر	٩٩١

عدد	السنوات الهجرية	أسماء الخلفاء	السنوات الميلادية
١٧	٤٢٢	القائم	١٠٣١
١٨	٤٦٧	المقتدى	١٠٧٥
١٩	٤٨٧	المستظهر	١٠٩٤
٢٠	٥١٢	المسترشد	١١١٨
٢١	٥٢٩	الراشد	١١٣٥
٢٢	٥٣٠	المقتفى	١١٣٦
٢٣	٥٥٥	المستنجد	١١٦٠
٢٤	٦٦٦	المستضىء	١١٧٠
٢٥	٥٧٥	الناصر	١١٨٠
٢٦	٦٢٢	الظاهر	١٢٢٥
٢٧	٦٢٣	المستنصر	١٢٢٦
٢٨	٦٤٠ — ٦٥٨	المستعصم	١٢٤٢ — ١٢٥٨

* * *

يُعد العصر العباسي الثانى فى بغداد والذى يمتد أكثر من أربعة قرون ، عصر ضعف وانحلال ، كان فيه الخلفاء العباسيون تحت سيطرة الأتراك وبنى بويه ثانياً ثم السلاجقة أخيراً . وكان الخلفاء بذلك كالريشة فى مهب الرياح ، يتوقف بقاء كل منهم على العرش حسب رغبة المسيطرين عليهم من الأتراك وسلاطين البويهيين والسلاجقة : وكثر التغيير والتبديل فى وظائف الحكومة ، وانتشرت الرشوة فى سبيل الوصول إلى المناصب الكبرى ، وشمل الضعف معظم مظاهر الحياة فى بغداد ، وزال بقيامه سنة ٢٣٢ هـ ، العصر الزاهر فى الدولة العباسية .

عهد سيطرة الأتراك

الخلافة العباسية منذ وفاة الواثق إلى أن استولى بنو بويه على بغداد .

٢٣٢ — ٣٣٤ هـ = ٨٤٧ — ٩٤٦ م

كان الخليفة فى هذه الفترة من العصر العباسى الثانى ، كالأسير فى يد الأتراك إن شاء أبقوه أو خلعوه أو قتلوه ولذلك كان الخلفاء العباسيون ضعافا ليس لهم نفوذ ولا سلطان ، ويتوقف بقاؤهم فى الخلافة على مقدار رضا الأتراك عنهم وكانت عهود الخلفاء فى تلك الفترة عهود فتن وقلاقل واضطرابات .

تدخل النساء فى أمور الدولة :

وقد ترك النساء يتدخلن فى أمور الدولة ويصرفن شئونها ، وكانوا يرجعون إلى أقوالهن ويأخذون بآرائهن ، ومن نساء العصر العباسى الثانى ، من كانت لهن السطوة على أولادهن من الخلفاء حتى كن يشرفن على شئون الدولة ويشركن فى تدبير أمور الحكم ، وكان لهن أكبر الأثر فى سير الحوادث فى بغداد .

كان الخليفة العباسى المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) مدمنا على شرب الخمر ، أهداه ابن طاهر هدية فيها مائتا وصيفة ووصيف ، وفى الهدية جارية يقال لها محبوبة ، كانت لرجل من أهل الطائف ، وقد أدبها وثقفها وعلمها مختلف صنوف العلم ، فحلت من قلب المتوكل فى أسمى مكان . ولم يكن أحد يعدلها عنده ، وأعجب بها وتزوجها ، وأطلق عليها « قبيحة » لحسنها وجمالها ، كما كان يسمى الأسود كافوراً . وفى سنة ٢٣٥ هـ ولى المتوكل العهد أولاده : محمداً وسماه المنتصر ،

وأبا عبد الله بن قبيحة ولقبه المعتز ، وإبراهيم وسماه المؤيد .. على أن المتوكل قد رأى أن يقدم ابنه المعتز على أخويه : المؤيد والمنتصر ، فى وراثة العرش ، رغم أحقيتهما عنه ، لتقديره لقُبيحة أم المعتز . غضب المنتصر لذلك ، باعتباره صاحب الحق الأول ، ودبر مع الأتراك مؤامرة اغتيل فيها المتوكل .

وصل المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ هـ) إلى عرش الخلافة ، وعلى الرغم من أنه كان يعطف على الأتراك قبل قتل أبيه ، إلا أنه لم يلبث أن غضب عليهم وصار يسبهم ويقول : هؤلاء قَتَـلة الخلفاء . ففكروا بدورهم فى قتله ، وأغروا طبيبه ابن طيفور وأعطوه ثلاثين ألف دينار ، فمات مسموما وهو فى السادسة والعشرين من عمره فى ٥ ربيع الآخر سنة ٢٤٨ هـ .

وبموت المنتصر ، بويع المستعين بالله (٢٤٨ — ٢٥٢ هـ) ، لأن العباسيين لم يؤمنوا جانب الأتراك ، فعملوا على تولية الخلافة من يطمئنوا إليه من أمراء البيت العباسى ، فلم يولوا أحداً من أولاد المتوكل . وفيه يقول صاحب الفخرى : « واعلم أن المستعين كان مستضعفا فى رأيه وعقله وتدبيره ، وكانت أيامه كثيرة الفتن ، ودولته شديدة الاضطراب »[1] ، ولما رأى الأتراك تنكر المستعين لهم ، خلعوه .

واعتلى عرش الخلافة من بعده المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) ابن المتوكل وولد قُبيحة ، وله من العمر تسع عشرة سنة . وأُخرج المستعين ، الخليفة المعزول ، إلى بلدة واسط ، واختار الأتراك أحمد بن طولون ليصحبه ، فأحسن إليه وأطلق له الحرية فى التنقل والصيد . وعلى الرغم من ذلك الفوز الذى أحرزه بخلع المستعين

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢٠ .

ونفيه ، فإنهم أوجسوا شرا من بقائه حيا ، وأوعزوا إلى للمعتز أن خلافته لن تثبت إلا إذا قتل المستعين ، ووافقتهم على ذلك قَبيحة أم المعتز فقد خافت على حياة ولدها أن تمتد إليها يد الأعداء . فكتبوا إلى ابن طولون يطلبون إليه قتل المستعين ويمنونه بولاية واسط ، فلم يرض ابن طولون أن يقتل خليفة له فى رقبته بيعة فلذلك أرسلوا سعيدا الخادم أحد حجاب القصر ، فى شرذمة من الجيش إلى بلدة واسط ، فتولى بنفسه قتل المستعين[1] .

وليس أدل على مدى تغلغل الأتراك فى أمور الدولة وتسلطهم على حياة الخلفاء أنفسهم ، من هذه العبارة : « لما جلس المعتز على سرير الخلافة ، قعد خواصه وأحضروا المنجمين ، وقالوا لهم : أنظروا كم يعيش وكم يبقى فى الخلافة ، وكان بالمجلس بعض الظرفاء فقال : أنا أعرف من هؤلاء بمقدار عمره وخلافته فقالوا : كم تقول إنه يعيش وكم يملك ؟ قال : ما أراد الأتراك ، فلم يبق بالمجلس إلا من ضحك » .

وما لبث الأتراك أن قبضوا على الخليفة المعتز وقتلوه . ويصف ابن الأثير قتل الخليفة فى هذه العبارة : «فدخل جماعة منهم ، فجروه برجله إلى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس ، وخرقوا قميصه وأقاموه فى الشمس فى الدار ، فكان يرفع رجلا ويضع أخرى لشدة الحر ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده وأدخلوه حجرة وأحضروا ابن أبى الشوارب وجماعة أشهدوهم على خلعه ، وشهدوا على صالح بن وصيف أن للمعتز وأمه وولده وأخته الأمان ، وكانت أمه قبيحة قد اتخذت فى دارها سردابا فخرجت منه هى وأخت المعتز ، وكانوا قد أخذوا عليها الطريق ومنعوا أحدا يجوز إليها . وسلموا المعتز إلى مَنْ يعذبه ، فمنعه الطعام والشراب ثلاثة أيام

(١) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٩٣ — ٩٥ .

فطلب حسوة[1] من ماء البئر فمنعوه ، ثم أدخلوه سردابا وحصحصوا[2] عليه ، فمات »[3] .

اختفت قبيحة بعد موت ابنها المعتز خوفا على حياتها من شر صالح بن وصيف وأخفت ما عندها من المال وقدره ١٫٨٠٠٫٠٠٠ دينار ، عدا كثير من الجواهر والحلى والزمرد واللؤلؤ والياقوت الذى لا تعرف له قيمة . ومن الغريب أنها عرضت ابنها للقتل ، ورفضت أن تدفع للثائرين من الأتراك الذين تأخرت رواتبهم خمسين ألف دينار[4] . وقد رثى الشعراء ، المعتز ، بقصائد تبين مدى تغلغل نفوذ الأتراك فى الدولة العباسية وانتهاكهم حرمة الخلافة ، ومن ذلك :

قتلوه ظلما وجوراً فألفو ٭ كريم الأخلاق غير جزوع
أصبح الترك مالكى الأمر والـ ٭ عالم ما بين سامع ومطيع
وترى الله فيهم مالك الأمو ٭ ر سيجزيهم بقتل ذريع

الخليفة ألعوبة فى أيدى الأتراك :

بعد وفاة المعتز ، ولى المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦ ﻫ) بن الواثق الخلافة ، وكان من أحسن الخلفاء سيرة وأظهرهم ورعا وأكثرهم عبادة . وكان يتشبه بعمر ابن عبد العزيز ويقول : « إنى استحى أن يكون فى بنى أمية مثله ، ولا يكون مثله فى بنى العباس » . وكان يجلس للمظالم . فيحكم بين الناس بالقسطاس المستقيم . وكان كغيره من الخلفاء الذين جاءوا بعد المتوكل ألعوبة فى يد الأتراك .

---

(١) حسوة : جرعة .
(٢) حصحصوا عليه : جعلوه فى بيت وسدوا بابه .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٧ ص ٦٨ — ٦٩ .
(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٣٢ — ٣٣ .

وليس أدل على ما وصل إليه الخليفة من ضعف وما بلغته الخلافة من انحلال ما ذكر عن أن المهتدى « رفع يده إلى السماء ، ثم قال : اللهم إنى أبرأ اليك من فعل موسى بن بغا . . . اللهم تول كيد من كايد المسلمين . . . » . وسرعان ما اجتمعت كلمة الأتراك على قتله ، وعلى أثر ذلك ، قام بعض الموالى بثورة ضده ثم أسروه وخلعوه من الخلافة ، ولم يكتفوا بذلك ، بل عذبوه حتى مات .

ويتمثل ضعف الخلافة العباسية المطلق فى العصر الثانى ، فى خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) بن المتوكل . وفى عهده غلب عليه أخوه الموفق ، حتى لم يبق له من الخلافة إلا اسمها . يقول صاحب الفخرى : « كان المعتمد مستضعفا ، وكان أخوه الموفق طلحة هو الغالب على أموره . وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع ، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين فى الخلافة ، ولأخيه طلحة الأمر والنهى وقيادة العساكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء »[1] .

تقسيم أملاك الدولة :

صار الموفق صاحب الأمر والنهى فى بغداد ، إذ كان الموفق لا يرى أخاه المعتمد أهلا للخلافة . وزاد حقد الموفق على المعتمد تقديمه ابنه المفوض عليه فى ولاية العهد ، وقسم الخليفة المعتمد أملاك الدولة بينه وبين ابنه المفوض وأخيه الموفق : على أن يخص المفوض الأملاك الشرقية وتضم إليه البصرة والكوفة ، ويخص الموفق الأملاك الباقية وهى القسم الغربى من الدولة العباسية . ووضع المعتمد تلك الشروط فى الكوفة ، ونص فيها على أنه إذا حدث فى القسم الخاص بأحدهما ما يستدعى إنفاق شىء من المال ، فإن نفقته تكون من مال خراج

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٢٦ .

ذلك القسم ، وكانت مصر من القسم الذى يشرف عليه المفوض ابن الخليفة[١] .

ولما بدأ الموفق قتاله مع صاحب الزّنج[٢] ، وطلب إلى ابن طولون الأموال التى يستعين بها فى قتاله ، أرسلها إليه ابن طولون على أساس أنها تساعد على صيانة الدولة العباسية وتحافظ على كيانها ، ولكن حين استقل الموفق المبلغ المرسل إليه ، كتب إليه ابن طولون ينبهه إلى أنه ليس تابعا له وأن مصر ليست من القسم الذى يشرف عليه أو يحق له جباية الأموال منها وأنه لم يرسل تلك الأموال تلبية لطلبه أو تنفيذا لأمره بل ليبعد الخطر الذى يهدد سلامة الدولة العباسية . ومن هنا اشتد العداء بين الموفق وابن طولون[٣] ، حتى كانت مهمة الموفق اقصاءه عن ولاية مصر ، ولكنه فشل فى كل محاولاته ضده .

الخليفة يستجير بولاته :

اتجه الموفق ناحية الخليفة المعتمد وضيّق عليه ، وغلّ يده عن كثير من أعمال الدولة ، دون أن يترك له شيئا من حرية التصرف . ذلك أن حال الخليفة المعتمد بلغت من الضعف حدا لا يمكن تصوره ، حتى قيل إنه احتاج مرة إلى ثلثمائة دينار فلم يجدها ، فقال :

---

(١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(٢) الزنج : هم طائفة من عبيد إفريقية ، أثاروا الرعب والفزع فى حاضرة الخلافة العباسية ، وهددوا كيان الدول . وكان مسرح هذه الثورة العنيفة فى المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط . قاد هؤلاء الزنوج رجل فارسى يدعى على بن محمد ، ادعى أنه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على ، ولكنه لم يجهر بعقائد المذهب الشيعى على الرغم من إدعائه النسب الى على وفاطمة ، ولكنه جهر بعقائد مذهب الخوارج الذين جعلوا الخلافة أمرا مشاعا بين المسلمين للأحرار والأرقاء على السواء . قدم صاحب الزنج العراق ودعا إلى تحرير العبيد فى البصرة وضواحيها واستمال قلوبهم حتى أنهم تركوا مواليهم وانضموا إليه ، فعظم شأنه وقويت شوكته ولقيت دعوته قبولا ، ثم سار الى بغداد سنة ٢٥٤ هـ ، فعهد الخليفة المعتمد الى أخيه الموفق بقتالهم .

(٣) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٤٠ و ٤١ .

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قــــلّ ممتنعا لديه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما ذاك شىء فى يديــــه

إليه تحمل الأمـــوال طرا ويمنع بعض ما يجبى إليه ؟

شكا المعتمد حاله إلى ابن طولون ، فرد عليه بكتاب يشير فيه عليه بالحضور إلى مصر . وارتاح الخليفة إلى فكرة ابن طولون ، وكتب إليه يخبره بعزمه على المسير إلى مصر . وانتهز المعتمد فرصة غياب أخيه الموفق وانشغاله بحرب صاحب الزنج ، وخرج من سامرا ، واستقر فى الرقة سنة ٢٦٩ هـ . وما لبث الموفق أن علم بمسير الخليفة إلى مصر ، فعمل على إحباط المشروع ، وعهد بذلك إلى ابن كنداج ، عامله على الموصل والجزيرة . . وفى الرقة كثر الجدل بين أتباع كل من الخليفة وابن كنداج على النتائج التى تترتب على تنفيذ المشروع الذى اعتزمه الخليفة . وبعد أن اشتد النقاش ، أمر ابن كنداج بالقبض على كل من حضر مع المعتمد من سامرا ، وعنف الخليفة بشدة على ترك ملكه وفراقه أخاه وهو منشغل بحرب صاحب الزنج والاحتماء بأحد ولاة الدولة العباسية وهو ابن طولون ، ثم أمر بأن يكبل كل من الخليفة وأتباعه بالقيود ويعودوا من حيث أتوا .

فشلت بذلك محاولة الخليفة الاستقرار فى مصر ، وأحبط مشروع ابن طولون وهو نقل مقر الخلافة إلى الديار المصرية ، وما يتبع ذلك من تقوية مركزه الدولى ورفع شأن مصر بين الأمم . واستاء ابن طولون من عمل الموفق وعامله على البصرة ، فأرسل إلى أهل مصر كتابا قرىء عليهم وفيه « أن أبا أحمد (يقصد الموفق) نكث بيعة المعتمد وأسره وحرّش عليه وأنه يبكى بكاء شديداً »[1] .

وخطب الخطيب بمصر يوم الجمعة ، فذكر ما آل عليه أمر المعتمد وقال : اللهم

(١) الكندى : كتاب القضاة ص ٢٢٦ .

فاكفه من حصره ومن ظلمه » وبعد موت ابن طولون سنة ٢٧٠ هـ ، تحسنت الملاقات بين الموفق أخي الخليفة المعتمد وبين خمارويه بن أحمد بن طولون ، وأصبح خمارويه بموافقة الخليفة العباسى واليا على مصر والشام هو وأولاده من بعده مدة ثلاثين سنة . ومات الموفق وابن كنداج سنة ٢٧٨ هـ ، وتوفى الخليفة المعتمد بعدهما سنة ٢٧٩ هـ ، بعد أن بقى فى الخلافة ثلاثا وعشرين سنة ، وكان عهده عهد فتن واضطرابات ، وأيامه أيام محن وخطوب ، رغم ازدهار عصره بطائفة من العلماء كالبخارى ومسلم ومحمد بن عبد الحكم المؤرخ المصرى والقاضى بكار .

ازدياد خطر التجزؤ :

زاد حالة الخلافة العباسية سوءا ، أن نفوذ الدولة قد تقلص عن جزء كبير من ولاياتها ، مما فتّ فى عضدها ، وعد استمرارا لظاهرة التجزؤ ، التى انتابت الخلافة ، إذ استقل عن الدولة العباسية قبل ذلك العهد : الدولة الأموية بالأندلس (١٣٨ — ١٩٧ هـ) زمن عبد الرحمن الأول الملقب بالناصر ، وتأسست دولة الأدارسة فى المغرب الأقصى (١٧٢ — ٣١٢ هـ) ودولة الأغالبة فى تونس (١٨٤ — ٢٩٦ هـ) وفى مصر كانت السيادة للطولونيين (٢٥٤ — ٢٩٢ هـ) .

وقام فى المشرق فى بلاد الفرس و بلاد ما وراء النهر عدة دويلات يرجع قيامها إلى انتعاش الروح القومية التى ظهرت منذ أقام المأمون ؛ فقد قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥ — ٢٥٩ هـ) فى خراسان على يد طاهر بن الحسين فى عهد المأمون ولكنها كانت تعترف بسلطان الخليفة العباسى وامتد نفوذهم إلى بلاد الهند ونقلوا قاعدتهم إلى نيسابور حيث بقوا بها حتى سنة ٢٥٩ هـ . ومنها انتقلت السلطة إلى أسرة جديدة هى الدولة الصفارية (٢٥٤ — ٢٩٠ هـ) التى قامت على يد يعقوب بن الليث الصفار ، والدولة السامانية (٢٦٦ — ٣٨٩ هـ) على

يد نصر أحمد بن السامانى فى بلاد ما وراء النهر ، وتفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٦٦ — ٥٧٩ ﻫ) لأن ألبكتين مؤسس هذه الدولة كان من بين الموالى الأتراك الذين استخدموا فى البلاط السامانى . وتفاقم خطر هذه الدويلات ، بتقويت شوكة بنى بويه (٣٣٤ — ٤٤٧ ﻫ) وكانوا من الشيعة الغلاة ، وامتد شرهم إلى حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم الذين أصبحوا من الضعف ، بحيث لم يعد الخليفة قادرا على الدفاع عن بغداد نفسها ، وبعد أن كانت بغداد مركز الحضارة فى العالم الإسلامى ، ظهرت مراكز أخرى تنافس حاضرة العباسيين ، مثل قرطبة والقاهرة وبخارى ، وأصبح كل منها قبلة العلماء والأدباء والشعراء [١] . تلك كانت حالة الخلافة العباسية فى العصر الثانى .

على أن عهد المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ ﻫ) يتميز بخروج عمرو بن الليث الصفار ، أحد زعماء الصفارية واستيلائه على كثير من بلاد الفرس . فقد تمكن يعقوب مؤسس الأسرة الصفارية من الاستحواذ على ولاية خراسان وبلاد فارس وشرطة بغداد وسر من رأى وعقد له على كرمان وسجستان والسند وطبرستان وجرجان والرى وأذربيجان وقزوين ، وذلك بموافقة الخليفة العباسى ، ولم يكتف يعقوب بذلك بل قصد بغداد نفسها ولكنه هزم فى سنة ٢٦٢ ﻫ فى خلافة المعتمد . وبوفاته سنة ٢٦٥ ﻫ ، أقر الخليفة المعتمد عمرو بن الليث على ما كان يتولاه أخوه يعقوب من البلاد . ولكن العلاقات لم تلبث أن ساءت بين الدولة الصفارية والخلافة العباسية ، وعزل المعتمد عمرو بن الليث الصفار عن البلاد التى ولاه إياها ، وقلد محمد بن طاهر بن الحسين بلاد خراسان وأمر بلعن عمرو على المنابر . ولكن محمد بن طاهر آثر البقاء فى حاضرة الخلافة وأناب عنه رافع بن هرثمة على خراسان . ولما ولى الخلافة المعتضد ، عزل رافع وأعاد عمرو بن الليث الصفار إلى

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ١٤١ — ١٤٢ .

ولاية خراسان . ولم يكتف بذلك بل طلب من الخليفة ولاية ماوراء النهر وكانت تحت إمرة إسماعيل بن أحمد الساماني ، فرفض إسماعيل تسليمها له وحاربه وأسره وشتت شمل جيشه . وكانت هذه الموقعة من المواقع الحاسمة ، فقد كانت عاملا هاما فى سقوط الدولة الصفارية وقيام الدولة السامانية على أنقاضها سنة ٢٨٧ هـ[1] .

وبذلك يكون مؤسس الدولة السامانية فى بلاد ماوراء النهر ، نصر بن أحمد السامانى قد خرج كذلك على المعتضد . وتنسب هذه الدولة إلى أسرة فارسية عريقة فى المجد ، ونال السامانيون حظوة كبيرة عند الخليفة المأمون ، فولاهم بلاد ماوراء النهر ورفع من شأنهم . وكان لأحمد سبعة أولاد ، واشتهر منهم نصر بن أحمد بن أسد بن سامان و إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان . وفى عهد إسماعيل ، ظهرت الدولة السامانية بمظهر القوة ، وقامت بدور خطير فى إزالة الدولة الصفارية ، وقضى على هذه الدولة سنة ٣٤٣ هـ على أيدى الغزنويين وخانات تركستان ، رغم ما كان لأمراء السامانيين من فضل كبير فى تشجيع العلم والأدب وبخاصة الأدب الفارسى . من ذلك : كتاب الشاهنامه للفردوسى ، والكتاب المنصورى الذى ألفه أبو بكر الرازى وهو من أشهر كتب الطب فى ذلك العصر وقد أهداه إلى أبى صالح منصور بن إسحاق السامانى الذى ولى سجستان نيابة عن السامانيين . وقد روى ابن سينا الفيلسوف المشهور أنه رأى فى مكتبة مدينة بخارى حاضرة الدولة السامانية من طرائف الكتب مالم يسمع بمثله من قبل .

وكان ضعف الخلافة العباسية فى بغداد من عوامل ظهور الدولة الغزنوية (٣٥١ — ٥٨٢ هـ = ٩٦٢ — ١١٣٦ م) فى بلاد الأفغان والبنجاب ، وذلك على النحو الذى ظهرت به الدولة الصفارية فى خراسان والدولة الصفارية فى خراسان والدولة السامانية فى بلاد ماوراء النهر . ويرجع سبب تأسيس الدولة

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٧ ص ١٧٨ ــ ١٧٩ .
Browne : Lit, Hist. of Persia, Vol. 1. P.345.

الغزنوية ، إلى أن ألبكتكين حين أقصى عن مناصبه الكبرى في الدولة السامانية عاد إلى غزنة (شمال غرب الهند) حيث خلف أباه في حكمها ، واستطاع أن يناوىء سادته من سلاطين سامان . و بعد موته خلفه ابنه إسحق ، وكان لإسحق هذا مملوك يدعى سبكتكين آلت إليه السلطة (٣٦٦ — ٣٨٧ هـ) : فضرب النقود باسمه ، ومدّ سلطانه في الشرق حيث أسس دولة حاضرتها بشاور وانتشر نفوذه في فارس حيث استولى على خراسان ، فمكنه ذلك من الاستيلاء على أجزاء في الهند بعد حروب طاحنة ، ثم اتسعت رقعة ولايته حتى استعان ابن أسد الساماني بسبكتكين الذي يعتبر أعظم سلاطين الغزنويين . وخلف سبكتكين ابنه محمود الذي ظهرت فيه قوته فجأة ، وغزا الهند اثنتي عشرة مرة ، وضم إلى مملكته بلاد البنجاب وأخضع بلاد ماوراء النهر ، ووالى ضرباته لبني بويه ، وانتهى الأمر باستيلائه على أصبهان ، وخضعت له خراسان وعين أخاه نصرا على جيوشها فاتخذ نيسابور مركزاً له وخطب للخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ هـ) . وبذلك زالت الدولة السامانية من خراسان على يد محمود الغزنوي ، الذي كان أول من اتخذ لقب أمير ، ولقبه الخليفة القادر بالله : يمين الدولة وأمين الملة ، وظهرت هذه الألقاب على السكة التي كانت تظهر باسمه : ومن أهم سلاطين الدولة الغزنوية ابنه مسعود (٤٢١ — ٤٣٢ هـ) ، ثم السلطان مودود بن مسعود (٤٣٢ ـ ٤٤١ هـ) ، ومن بعده تداعى سلطان الغزنويين في الهند وانقسمت دولتهم إلى أسرات إسلامية مستقلة .

بذلك نرى أن قيام الدويلات كان شراً مستطيراً على الخلافة العباسية . ولم يعد الأمر مقصوراً على ظهور دويلات تتمتع بجميع مظاهر الاستقلال ، وتقلل من نفوذ الخليفة العباسي وسلطانه ، بل أن الدولة العباسية حرصت على أن تخطب ود الدول القوية التابعة لها . وأكبر دليل على ذلك ، مسألة زواج الخليفة العباسي

المعتضد من قطر الندى ابنة خمارويه بن أحمد بن طولون والى مصر مع أن مصر لم تعد فى ذلك أن تكون ولاية من الولايات التابعة لها .

وتفصيل ذلك أن العلاقات بين الطولونيين والعباسيين كانت عدائية ، على أثر ذلك الخلاف الذى قام بين أحمد بن طولون والموفق طلحة أخى الخليفة المعتمد ، مما سبب قيام الحرب فى بدء ولاية خمارويه على مصر بينه وبين الموفق ، وانتهت بانتصار خمارويه وعقد الصلح بينهما . ولكن على أثر وفاة الموفق سنة ٢٧٨ هـ ثم الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ هـ ، أصبحت العلاقات ودية بين الطولونيين والعباسيين ، حتى أن الخليفة العباسى المعتضد أقر خمارويه على ولاية البلاد الممتدة بين العراق شرقا وبرقة غربا مدة ثلاثين سنة ، ولأولاده من بعده ، ابتداء من سنة ٢٧٩ هـ . وكان من أثر سياسة حسن التفاهم « أن رسول الخليفة قدم على خمارويه يحمل إليه إثنتى عشرة خلعة وسيفا وتاجا ووشاحا »[1] وعرض خمارويه زواج أسماء التى تعرف باسم « قطر الندى » من ابن الخليفة العباسى ، ولكن الخليفة المعتضد اختارها لنفسه ، وبذل خمارويه الأموال الطائلة فى تجهيز ابنته إلى الخليفة ، وغالى فى ذلك الجهاز . وبعد إعداد الجهاز ، خرجت قطر الندى من القطائع قاصدة بغداد ، وبلغ الموكب شاطىء بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ ، وشهدت بغداد أياما كلها حبور وسرور ، وسارت السفن تمخر عباب نهر دجلة ، وأخذت بغداد زخرفها وازينت ، وجليت قطر الندى على عروسها فى يوم الثلاثاء ٥ ربيع الآخر من ذلك العام . ولم تطل حياتها ، فقد توفيت بعد قليل من زواجها ولحق بها الخليفة المعتضد عام ٢٨٩ هـ[2] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٧٨ .

(٢) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٧٢ — ٧٣ .

واعتلى المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) عرش الخلافة العباسية . وفى عهده ظهر ضعف الخلافة العباسية بجلاء ، وزادت ظاهرة اقتطاع أجزاء من أراضى الدولة العباسية : فقد أصبح السامانيون أصحاب النفوذ المطلق فى فارس ، وتفاقم شر القرامطة حول بغداد والبصرة وفى سورية واليمن بزعامة زكروية ، وألقوا الرعب والفزع فى قلوب الأهلين . وكان الخليفة مبذرا كثير البذل والإنفاق . وكان اعتلاؤه العرش إيذاناً بزوال سلطان الطولونيين عن مصر ، فقد بعث قائده المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر ، فنزل الفسطاط وسار منها إلى القطائع عاصمة الطولونيين سنة ٢٩٢ هـ (٩٠٤ م) ، وأشعل فيها النار فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة أثراً بعد عين .

ويصف المقريزى فى « الخطط » كيف أزال محمد بن سليمان معالم الطولونيين فى القطائع وما ارتكبوه فيها وفى الفسطاط من الفظائع ، فى هذه العبارة : « دخل محمد بن سليمان يوم الخميس أول ربيع الأول ، فألقى النار فى القطائع ونهب أصحابه الفسطاط وكسروا السجون وأخرجوا من فيها وهاجموا الدور وهتكوا الرعية . . . وساقوا النساء وفعلوا كل قبيح من إخراج الناس من دورهم وغير ذلك . وأخرج ولد أحمد بن طولون وهم عشرون إنساناً وأخرج قوادهم ، فلم يبق منهم أحد يذكر ، وخلت منهم الديار وعفت منهم الآثار وتعطلت منهم المنازل وحل بهم الذل بعد العز والتطريد والتشريد بعد اجتماع الشمل ونضرة الملك ومساعدة الأيام ، ثم سيق أصحاب شيبان إلى محمد بن سليمان وهو راكب ، فذبحوا بين يديه كما تذبح الشاة ، وقتل من السودان سكان القطائع خلقاً كثيرا »[1] . وتقلد محمد بن سليمان عقب ذلك ولاية مصر مكافأة له على مايفعله من جهود فى سبيل إعادة مصر إلى سيطرة العباسيين المطلقة .

(١) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٣٢٢ .

ظهور أم المقتدر على المسرح العباسى :

وقد أدى تدخل النساء فى أمور الدولة فى العصر العباسى إلى ضعفها وحرمانها من وزرائها الأكفاء واستهتار العامة بها ، ووضحت تلك الظاهرة فى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) حين أصبح الأمر والنهى بيد أمه ، وكانت تسمى « السيدة » وهى سيدة رومية ، بلغ من ازدياد نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أو قهرمانتها[1] من أحد الوزراء أصبح مصيره العزل لا محالة .

وليس هذا كل هذا ما كانت تتمتع به السيدة من نفوذ ، فقد اتسعت سلطتها إلى حد أنها استطاعت أن تعين فى ٣٠٦ هـ قهرمانتها « ثومال » صاحبة المظالم ، وبذلك تعدى الأمر جلوس الوزراء المظالم إلى جلوس بعض النساء ، إذ كانت ثومال تجلس فى الرصافة وتنظر فى رقاع الناس كل جمعة وتحضر القضاة والأعيان وتبرز التواقع وعليها خطها ، وكان من أثر هذا التعيين أن استهزأ العامة بالخلافة ونظروا إلى أحكامها نظرة احتقار وازدراء . ولم تكن محكمة المظالم تنظر فى قضايا الأفراد وحدها ، بل تعدى اختصاصها إلى الفصل فى شكاوى الشعب عامة .

وفى ذلك يقول الفخرى : « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير لصغر سنه ، ولاستيلاء نسائه عليه فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء ، فخربت الدنيا فى أيامه وخلت بيوت الأموال ، واختلفت الكلمة ، فخلع ، ثم أعيد ثم قتل »[2] .

---

(١) القهرمانة : المسيطرة على من تحت يدها .

(٢) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٤٠ .

واستأثرت السيدة أم المقتدر بنفوذ كبير في الدولة العباسية . وليس أدل على عظم نفوذها وتدخلها في شئون الدولة وتمتعها بنفوذ أقوى من نفوذ الخليفة ، من ذلك الكتاب الذي بعث به إليها الوزير المصلح على بن عيسى ، يتنصل فيه من التصرفات التي نسبتها إليه في إدارة شئون الدولة المالية ، وكان مصير هذا الوزير العزل رغم ماقام من إصلاح .

وفي ذلك يقول ابن الأثير : « ولما كان آخر ذي القعدة سنة ٣٠٤ ، جاءته أم موسى القهرمانة لتتفق معه على إصلاح مايحتاج إليه حرم الدار والحاشية من الكسوات والنفقات ، فوصلت إليه وهو نائم ، فقال لها حاجبه : إنه نائم ولا أجسر أن أوقظه ، فاجلسي في الدار ساعة حتى يستيقظ ، فغضبت من هذا وعادت ، واستيقظ على بن عيسى في الحال وأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر ، فلم تقبل منه ، ودخلت على المقتدر وتخرصت[1] على الوزير عنده وعند أمه ، فعزله عن الوزارة وقبض عليه ثامن ذي الحجة »[2] .

كذلك عملت السيدة على عزل الوزير أبي العباس أحمد بن عبد الله بن أحمد ابن الخصيب ، وصودرت أمواله سنة ٣١٤ هـ ، وفي عهد الوزير حامد بن العباس ازداد نفوذ السيدة على حين كان الخليفة قابعا في داره[3] .

وقد قص الصولى الذي تتلمذ عليه الراضي بن المقتدر وهو أمير ، قصة تبين لنا عدم اهتمام السيدة وقهرماناتها بتنشئة الأمراء تنشئه قوامها التوافر عن العلم وتوجيههم وجهة صالحة في الإلمام بنظم الحكم والوقوف على أحوال الدولة وعلاقاتها بغيرها من الدول ، بل على العكس من ذلك لم يأبهن أن يكون الأمير أو ولى العهد متعلماً مثقفا ، إنما يرونه ضعيفاً غير ملم بشئون الحكم[4] .

---

(١) تخرصت : كذبت .

(٢) الكامل في التاريخ جـ ٨ ص ٣٧ .

(٣) حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ١٦٠ .

(٤) على ابراهيم حسن : نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب .

وفي ذلك يقول الصولي : « وإني لأذكر يوما في إمارته وهو يقرأ على شيئا من شعره بشأنه ، وبين يديه كتب لغة وكتب وأخبار ، إذ جاء خادم من خدم جدته السيدة ، فأخذ جميع ما بين يديه من الكتب ، فجعلوه في منديل كان معهم وما كلمونا بشيء ومضوا ، فرأيته قد وجم لذلك واغتاظ . . . ومضت ساعات أو نحو ذلك ، ثم ردوا الكتب بحالها . . . وقالت السيدة ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهم قد رأينا كل ما نحب فيه وليس بعالم فاعمل على ذلك . . . »[1] .

ازدياد شوكة الأتراك :

في عهد الخليفة المقتدر أيضا ، بدأت ظاهرة جديدة في العصر العباسي ، هي كثرة تولية كبار الموظفين وعزلهم ، حتى قيل إنه عيّن في يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد منهم رشوة . وساءت الأحوال في عهد المقتدر واضطربت أمور الدولة من جراء السياسة التي اتبعها في تعيين وزرائه وعزلهم ، فقد ولي الوزارة في عهد إثني عشر وزيرا ، وكان لكل وزير أتباع ومحاسيب يرتفع ذكرهم وتتحسن أحوالهم بتولية الوزارة ، فإذا ما عزل عزلوا .

ورغم ما عرف به المقتدر من الضعف وما كانت عليه الخلافة من تفكك ووهن ، فقد ظهرت الدولة العباسية في عهده بمظهر القوة حين علم أن رسول إمبراطور الروم في طريقه إلى بغداد لطلب الهدنة وتبادل الأسرى . فقد أنشأ لذلك داراً لاستقبال رسول الإمبراطور ، عرفت بدار الشجرة ، وفيها قيل إنها « فرشت بالفروش الجميلة ، وزينت بالآيات الجليلة ، ورتب الحجاب وخلفاؤهم والحواشي على طبقاتهم ، على أبوابها ودهاليزها وممراتها ومخترقاتها وصحونها ومجالسها ،

(١) الصولي : الأوراق ص ٢٤ — ٢٥ .

ووقف الجند صفين بالثياب الحسنة وتحتهم الدواب بمراكب الذهب والفضة ، وبين أيديهم الجنائب على مثل هذه الصورة »[1] . ووصف السيوطى احتفال الخليفة بالإمبراطور ، فقال : « وفى سنة ٣٠٥ هـ قدمت رسل ملك الروم بهدايا وطلبت عقد هدنة ، فعمل المقتدر موكبا عظيما ، فأقام العسكر وصفهم بالسلاح وهم مائة وستون ألفا . . . وبعدهم الخدام وهم سبعة آلاف خادم ، ويليهم الحجاب وهم سبعمائة حاجب . وكانت الستور التى نصبت على حيطان دار الخلافة ثمانية ألف ستر من الديباج ، والبسط إثنين وعشرين ألفا ، وفى الحضرة مائة سبع فى السلال ... »[2] . ووصف صاحب تاريخ بغداد استقبال الخليفة للإمبراطور فقال : « ووصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى التاج مما يلى دجلة ، أن لُبِّس بالثياب الديبقية[3] المطرزة بالذهب على سرير آبنوس قد فرش بالديبقى المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلة ، ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار ، وبين يديه خمسة من ولده : ثلاثة يمنة وإثنان يسرة . ومثل الرسول وترجمانه بين يدى المقتدر بالله . . . ووقفا ساعة ... وناوله المقتدر بالله من يده جواب ملك الروم ، وكان ضخما كبيرا ، فتناوله وقبله إعظاما له » . على أن المقتدر بعد أن أجاب رسول ملك الروم إلى ما طلب « سيرّ مؤنسا الخادم ليحضر الفداء ، وجعله أميرا على كل بلد يدخل يتصرف فيه على مايريد إلى أن يخرج عنه ، وسيرّ معه جمعا من الجنود وأطلق لهم أرزاقا واسعة ، وانفذ معه مائة وعشرين ألف دينار لفداء أسارى المسلمين ، وسار مؤنس والرسول ، وكان الفداء على يد مؤنس » .

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ١٠٠ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٣ .

(٣) الديبقية : نسبة إلى ديبق ، بلدة فى مصر .

ومما يدل على مدى اضطراب الدولة العباسية فى عهد المقتدر ، أن مؤنساً الخادم أحد القواد خرج على الخليفة فى سنة ٣١٧ هـ ، وبايع هو وغيره من الأمراء محمد بن المعتضد بالخلافة ولقبوه « القاهر بالله » ، وطالب الجند أرزاقهم فى الوقت الذى قامت فيه الاحتفالات بتقليد الخليفة الجديد الخلافة وحملوا المقتدر على أعناقهم وردوه إلى دار الخلافة ، وعزلوا القاهر ، فأخذ يبكى ويقول : « الله الله فى نفسى » ، فاستدعاه المقتدر وقبله وقال له « ياأخى ! أنت والله لا ذنب لك ، والله لاجرى عليك منى سوء أبداً » [1] غير أنه لم يمض على عودته إلا قليلا حتى خرج عليه مؤنس مرة ثانية (سنة ٣٢٠ هـ) وحاربه بجنده من البربر ، وانتهى الأمر بقتل الخليفة . ودفن فى الموضع الذى مات فيه فى شوال سنة ٣٢٠ هـ .

ولى الخلافة من بعده ، أخوه « القاهر بالله » (٣٢٠ — ٣٢٢ هـ) . وفى عهده انتشرت الفتن ، وشغب عليه الجند . وعوّل كبار رجال دولته وقائده مؤنس ووزيره ابن مقلة على خلعه ، فهجموا عليه وقتلوه ، ثم حبس إلى أن مات فى جمادى الأول سنة ٣٣٩ هـ .

وفى عهد الراضى (٣٢٢ ـ ٣٢٩ هـ) ازداد ضعف الخلافة العباسية ، بسبب ازدياد شوكة على بن بويه فى فارس والحسن بن بويه فى الرى وأصبهان ، واستقل بنو حمدان بالموصل وديار بكر وديار ربيعة ومضر ، واستقل الإخشيد بمصر والشام ، واستقل نصر بن أحمد السامانى ، بخراسان ، وتلقب عبد الرحمن الثالث الأموى (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) بالأندلس بلقب أمير المؤمنين ، وأصبح فى العالم الإسلامى ثلاث خلافات : العباسية فى بغداد، والفاطمية فى بلاد المغرب، والأموية فى الأندلس .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٥٤ .

وأهم ما يتميز به عهد الراضي ، أن علاقة الإخشيد بالخليفة العباسي ظلت ودية ، وأصبحت مصر تعترف في الخطبة بسيادة العباسيين عليها . ولكن تبدلت صلة الوفاق التي سادت بين الإخشيد والخليفة العباسي ، بمسير رجل من رجال الدولة العباسية يدعى محمد بن رائق الخزري إلى الشام يريد أخذ مصر . فأثار هذا العمل حنق الإخشيد حتى ألغى الدعاء للخليفة العباسي في خطبة الجمعة ، وأمر بذكر اسم الخليفة القائم الفاطمي مكانه وفي رمضان سنة ٣٢٨ هـ . وقعت الحرب بين الإخشيد وابن رائق ، فبعث ابن طغج بأحد رجاله ويدعى عمران بن فارس على رأس جيش كبير إلى بلاد الشام لملاقاته ، ورغم ذلك استولى ابن رائق على دمشق بعد أن هزم واليها عبد الله بن طغج ، واستولى على حمص وحلب ودخل الرملة . على أن الإخشيد استعمل مع ابن رائق الأناة والصبر حتى لا يغضب الخليفة العباسي . لذلك كتب إلى علي بن أحمد العجمي نائبه في بغداد ، يطلب إليه أن يخبر الخليفة الراضي بمسير ابن رائق ويستوضحه حقيقة الأمر ، وجاء في حديثه : « فإن كان أمير المؤمنين قلده ، سلمت له أو يأمرني بالقتال ، فإني صالحته وراضيته فما رضي » ، ولما عرض ابن العجمي ذلك الأمر على الخليفة ، لم يبد رأيا في الموضوع ، ولكي يحكم قال : « مَنْ حارب بالسيف وهزم صاحبه، فالعمل له » . فكتب ابن رائق يبلغ ذلك الرأي إلى الإخشيد [1] .

أعد الإخشيد العدة لقتال ابن رائق ، فاستخلف أخاه الحسن على مصر ، وخرج بنفسه سنة ٣٢٨ هـ ، ونزل الفرما التي كانت قد اقتربت منها جيوش ابن رائق . ويظهر أنه لم يكن للإخشيد وابن رائق رغبة جدية في القتال ،لأنه على أثر وقوع مناوشات بسيطة ، عقد الصلح بينهما على أن تكون الرملة للإخشيد وطبرية ومافي شمالها لمحمد بن رائق ، وعاد الإخشيد بعد ذلك إلى دمشق سنة ٣٢٨ هـ ، وما لبث ابن رائق أن نقض شروط الصلح ، وسار من دمشق

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب في حلى المغرب ص ٢٦ — ٣٦ .

فى ذلك العام ، ميمما شطر الديار المصرية . فلما بلغ ذلك الإخشيد غضب غضبا شديداً ، وغادر البلاد على رأس جيوشه إلى الرملة ، ودار القتال بين الفريقين ، فانتصر الإخشيد أولاً فى العريش ، وعاد بن رائق منهزما إلى دمشق ، وذهب الإخشيد إلى الرملة و بعث منها بجيش تحت قيادة أخيه الحسين ، ولـكن ابن رائق هزمه هزيمة كبرى وقتل قائد الحسين ، ورغم ذلك تصافح الفريقان مرة أخرى ، وفى ذلك الصلح تعهد الإخشيد بأن يدفع لابن رائق جزية سنوية قدرها ١٤٠٫٠٠٠ دينار ، وأن يتقلد ابن رائق من الإخشيد ولاية الأراضى الشامية شمالى الرملة[1] . وكان قبول الإخشيد لعقد الصلح على هذا النحو ، هو خوفه من دوام تهديد الخلافة العباسية لملـكه .

إمرة الأمراء (٣٢٤ — ٣٣٤ هـ)

واختلت أمور الدولة فى أوائل عهد الراضى الذى أسند الوزارة إلى رجال لم يقوموا بأى عمل فى سبيل إصلاح شئون البلاد و إقالتها من عثرتها ،لإزدياد نفوذ كبار القواد وتدخلهم فى أمور الدولة ، مما دعا الخليفة الراضى إلى استمالة ابن رائق الذى كان يلى واسط والبصرة ، وسلّم إليه مقاليد الحكم ولقبه أمير الأمراء ، فازدادت سلطته وعلت على مرتبة الوزير وقلده الإمارة ورئاسة الجيش ، ورد إليه تدبير أعمال الخراج والضياع ، وفوّض إليه تدبير المملكة . وأمر بأن يخطب له على جميع المنابر فى الممالك ، و بطل يومئذ أمر الوزارة ، ولم يكن للوزير غير اسم الوزارة فقط» . ثم تغير الخليفة الراضى على بن رائق ، وتقلد بجكم إمرة الأمراء ، ولـكن ابن رائق مالبث أن عاد إلى إمرة الأمراء ودخل بغداد فى صفر سنة ٣٢٧هـ واشتد الضعف فى عهد ولاية كل من ابن رائق و بجكم . روى الصولى فى كتابه « الأوراق » ، أن الراضى عبّر عن ألمه من هذا الحال ، فقال : كأنى بالناس

(١) على إبراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤٦ — ٢٥٠ .

يقولون ، أرضى هذا الخليفة أن يدبر أمره عَبْد تركى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى . ثم دبر الأمر ابن رائق فدبّره أشد تسحبا فى باب المال منهم وانفرد بشر به ولهوه . ولو بلغه و بلغ الذين قبله أن على فرسخ منهم فرسانا قد أخذوا الأموال واجتاحوا الناس ، فقيل لهم أخرجوا إليهم فرسخاً ، لطلبوا المال وطالبوا بالاستحقاق . وربما أخذوه ولم يبرحوا ، ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل : أو أكثر مافيه أن يسألنى كاتب من كلابهم فلا أملك رده ، وإن رددته غضبوا و يجمعوا وتكلموا . . . وكان الأجود أن يكون الأمر كله لى كما كان لمن مضى من قبلى ، ولكن لم يجر القضاء بهذا ! » .

ومما يبين ما امتاز به الراضى ، تلك العبارة التى أوردها صاحب الفخرى ، حيث يقول « ختم الخلفاء فى أشياء منها : أنه آخر خليفة دُوِّن له شعر ، وآخر خليفة انفرد بتدبير المُلْك ، وآخر خليفة خطب على منبر يوم الجمعة ، وآخر خليفة جالس الندماء ووصل اليه معلماء ... » (١) قال الصولى : سئل الراضى أن يخطب يوم جمعة ، فصعد المنبر بسُرَّ من رأى ، فحضرت أنا واسحاق بن المعتمد ، فلما خطب شنف الأسماع وبالغ فى الموعظة » (٢) .

ولم تستفد الخلافة العباسية من نظام إمرة الأمراء شيئا ، بل على العكس من ذلك ازدادت أحوالها سوءا حتى لم يتمكن الخليفة الراضى أن يدفع أرزاق الجند أو يحصل على ما يكفيه . ولم يكن تاريخ الراضى سوى سلسلة منازعات بين رجال الدولة على الاستئثار بالسلطة والنفوذ .

وكذلك كان عهد الخليفة المتقى (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ) عهد اضطراب ، فقد

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى ص ٢٦١ .
(٢) الأوراق ص ٢٣٣ .

ظهرت الفوضى خلاله بسبب قيام النزاع على منصب إمرة الأمراء ، إذ قام نزاع بين ابن رائق وأبى عبدالله البريدى صاحب الأهواز ، ثم خرج بجكم على ابن رائق وانتزع من يده إمرة الأمراء سنة ٣٢٧ هـ وظل فيها الى أن قتل سنة ٣٢٩ هـ ، ثم دخل البريدى بغداد ولحق به منافسه ابن رائق . وانتهى الأمر بخروج ابن رائق ومعه الخليفة المتقى الى ناصر الدولة بن حمدان بالموصل الذى قتل ابن رائق حتى لا يقف فى وجهه ولا يحول بينه وبين منصب إمرة الأمراء . وسرعان ما دخل ابن حمدان بغداد ومعه الخليفة العباسى ، وتقلد أعباء هذه الوظيفة فى مستهل شعبان سنة ٣٣٠ هـ . على أن أيام الحمدانيين (٣٣٠ — ٣٣١ هـ) لم تطل فى بغداد ، ولم تكن حال بغداد فى عهدهم بأحسن منها فى عهد مَنْ سبقهم من أمراء الأمراء ، فقد طردهم منها توزون التركى رئيس الشرطة فى شهر رمضان سنة ٣٣١ هـ ، وطارد جيوشهم الى الموصل ، وتقلد إمرة الأمراء .

لم يدم الصفاء بين توزون والخليفة المتقى ، بسبب تآمره على توزون وعمله على صرفه: واستنجد المتقى ــ بعد أن اتضحت نوايا توزون السيئه ازاءه ــ بالإخشيد أقوى ولاته فى ذلك الوقت . وسار الإخشيد إلى الشام فى سنة ٣٣٢ هـ ، ولقى الخليفة فى مدينة الرقة الواقعة على الطريق بين الشام والعراق . وفى تلك المدينة قدم الإخشيد الى المتقى عدداً من التحف والهدايا ،فقيل « إنه حمل اليه من العين والورق والكسوة والجوهر والطيب والفرش والكراع والبغال ما مبلغه مائتان وخمسون ألف دينار » عدا ما قدّمه إلى أتباع الخليفة وخاصته ، مما يدل على وفاء الإخشيد ، إذ كان الخليفة فى ذلك الوقت لا يملك من الأمر شيئا . وفى الرقة عرض الإخشيد على الخليفة البقاء معه فى الشام ، أو الذهاب الى مصر وهو الاقتراح الذى سبق أن عرضه أحمد بن طولون فى نفس هذا المكان على الخليفة المعتمد وقال له الاخشيد : « يا أمير المؤمنين ! أنا عبدك وابن عبدك ، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله فى نفسك ،وسر معى إلى الشام ومصر ، فهى لك

وتأمن على نفسك »[1] . فلم يقبل الخليفة ذلك العرض ، حتى لا يترك بغداد عاصمة مُلكه ومقر أسرته ، ولو قَبِل ذلك لتغيّر مجرى الحوادث ولأصبح لمصر مركزا ممتاز بين الأمم الإسلامية . وسار الإخشيد بعد ذلك إلى مصر[2] .

رجع المتقى إلى بغداد بعد أن تعهد توزون بحمايته ، إذا ما عاد إليها ، إلا أن توزون لم توف بعهده ، فإنه قبض على الخليفة فى شهر صفر سنة ٣٣٣ هـ ونهب أصحابه معسكره وأخذ الخاتم من يده[3] « وكُحِّل[4] المتقى لله فصاح ، فأمر أصحاب الدبادب[5] فضربوا بها ، فصاح فلم يسمع صياحه بعد أح خام نفسه . . . فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرا »[6] . ويقول المسعودى « فبكى المتقى ، وصاح النساء والخدم لصياحه ، وأُدخل إلى الحضرة مسمول العينين ، وأخذ منه البردة[7] والقضيب[8] والخاتم وسلمها إلى المستكفى بالله »[9] .

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٢٥٥ .

(٢) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .

(٣) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم: النظم الاسلامية ص ٧٩ .

(٤) كحل : كناية عن سمل عينه .

(٥) الدبادب : جمع دبدب ، وهو الطبل .

(٦) الصولى : الأوراق ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٧) البردة : هى بردة النبى صلى الله عليه وسلم ، التى اعتاد الخلفاء لبسها فى المواكب . وهى شملة مخططة ، وقيل كساء أسود مربع فيه صغر . وقد اختلف فى وصولها الى الخلفاء : فقيل أن النبى قد وهبها لكعب بن زهير حين امتدحه بقصيدته التى أولها : بنت سعاد ، ثم اشتراها معاوية بن أبى سفيان منه أو من ورثته بعشرين ألف دينار ، وقيل إن النبى أعطاه أهل إيلة أمانة لهم فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أوفى عامل مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية على ايلة ، وبعث بها اليه ، فظلت فى خزانته حتى آلت الى أبى العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية . القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٣ ص ٢٦٩ .

(٨) بقى القضيب والبردة عند خلفاء بنى العباس فى بغداد الى أن انتزعها السلطان سنجر السلجوقى من الخليفة المسترشد بالله ، ثم أعادها الى المقتفى بالله عند توليته الخلافة سنة ٥٣٥ هـ ، فاحتفظ بها من جاء بعده من خلفاء بنى العباس حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ هـ القلقشندى : نفس المصدر جـ ٣ ص ٢٧٠ .

(٩) مروج الذهب جـ ٣ ص ٥٢٢ .

ويعد المستكفى (٣٣٣ — ٣٣٤ هـ) آخر خلفاء العصر العباسى الثانى ممن وقع تحت سيطرة الأتراك خلال حكمهم فى بغداد واشتهر بالصلاح والتقوى وعدم شرب النبيذ . وكان — كغيره من خلفاء ذلك العصر — ألعوبة فى أيدى الأتراك ، حتى أن توزون الذى أقره الخليفة فى إمرة الأمراء واستبد بالسلطة دونه « ضم إليه غلاماً تركياً من غلمانه ، وذلك حتى يقف هذا الغلام على أسرار الخليفة وما يجرى فى دار الخلافة » . وفى منتهى الدلالة على مدى الضعف الذى كان عليه الخليفة والهوة التى انحدرت إليها الخلافة العباسية إذ ذاك . ويقول الصولى إنه « لما جلس على السرير[1] . وبايعه الناس باقى يومه وأياما بعد ذلك ، وكل مَنْ بايعه أحلف على طاعته ونصيحته وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه »[2] .

وفى أوائل عهد المستكفى مات توزون ، تخلفه فى إمرة الأمراء أبو جعفر ابن شيراز ، فلم يكن أقل عنتا ممن سبقوه . ولا غرو فقد أصبح فى يد أمير الأمراء حبس الخليفة وخلعه وقتله ، فكان هذا تعديا على سلطة الخليفة الدينية وما لها من حرمة فى النفوس . فقد اجتمعت السلطة كلها فى يد أمير الأمراء ، وفوض الخليفة إليه أمر تدبير المملكة حتى لم يعد للخليفة من الأمر شىء سوى سلطته الدينية ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشه على السكة ، ولم يكن هذا إلا لأغراض سياسية غايتها احتفاظ هؤلاء الخلفاء بمراكزهم أمام الجمهور . ولم يكن عند الخليفة من سبيل يأمن به فى نفسه الأذى ، إلا هروبه من معسكر أحد الأمراء ، فكان إنقاذه تحولا عما فيه من مذلة إلى مذلة أخرى ، حتى دفعه اليأس إلى دعوة بنى بويه إلى معاونته وتخليصه ، فإذا ماوقع تحت رحمتهم صار ألعوبة فى يدهم .

---

(١) سرير الملك أو عرش الملك : هو من رسوم الملك وآلاته ، متخذ من رخام ، وأول من اتخذ ذلك فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان ، ثم اتخذه من جاء بعده من خلفاء بنى أمية وبنى العباس . القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ص ٦ .

(٢) الأوراق ص ١٨٧ .

ولم تكد فترة التنافس على إمرة الأمراء تنتهى ، حتى كان الضيق قد استحكم بأهل بغداد ، فصاروا يأكلون الكلاب والقطط وانتشر النهب والسلب بينهم ، وأدى الجوع بهم إلى نهب الحوانيت والحصول على مافيها من البضائع وفر كثير منهم من بغداد إلى البصرة ، ولكن أغلبهم كان يموت جوعا من شدة الضعف والفقر . وكان من أثر التنازع على إمرة الأمراء ، أن استعان بعضهم ببعض ذوى النفوذ ، مما أدى إلى الفوضى والاضطراب ودخول معز الدولة ابن بويه سنة ٣٣٤ هـ مدينة بغداد واختفاء ابن شير زاد أمير الأمراء . ومنذ ذلك الحين ، أصبحت الخلافة العباسية فى قبضة بنى بويه .

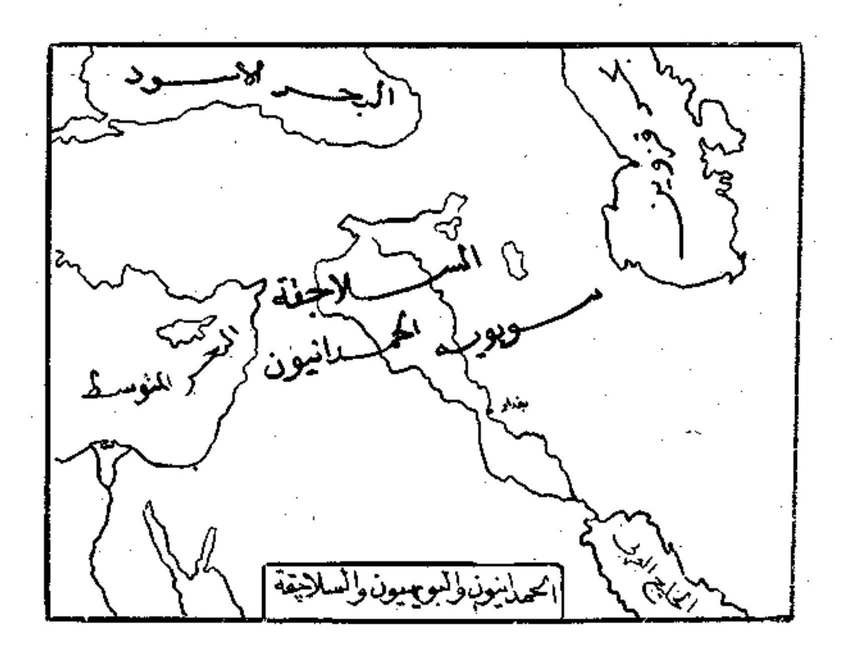
٢ — الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه

٣٣٤ – ٤٤٧ هـ = ٩٤٦ — ١٠٥٥ م

سلاطين بنى بويه فى العراق :

سنة هجرية	أسماء السلاطين	سنة ميلادية
٣٢٠	معز الدولة ـ أبو الحسين أحمد	٩٣٢
٣٥٦	عز الدولة بختيار	٩٦٧
٣٦٧	عضد الدولة (فى فارس)	٩٧٧
٣٧٢	شرف الدولة (فى فارس)	٩٨٢
٣٧٩	بهاء الدولة أبو نصر فيروز	٩٨٩
٤٠٣	سلطان الدولة (فى فارس)	١٠١٢

ينتسب بنى بويه إلى بهرام بن يزدجرد من ملوك آل ساسان ، وكان أبوهم أبو شجاع بويه فقيراً معدماً من أهالى بلاد الديلم . وكان بنو بويه من الشيعة



الحمدانيون والبويهيون والسلاجقة

الغالين ، ولذا كانوا لا يعترفون بحق الخليفة العباسى فى السيادة على جميع العالم الإسلامى وقد عمل سلاطين بنى بويه على أن يكونوا مطلق التصرف فى العراق ، ولم يتورعوا عن التعدى . على أشخاص الخلفاء العباسيين وانتقاص حقوقهم ، ولم يقل استبداد بنى بويه بالسلطة فى بغداد عن استبداد الأتراك حتى أصبح خلفاء العباسيين فى عهدهم لا قيمة لهم[١] .

كان أول من تولى الحكم فى بغداد من بنى بويه ، علىّ بن بويه ، الذى استولى على العراق سنة ٣٣٤ هـ فى عهد الخليفة العباسى المستكفى ، ولُقب « معز الدولة بن بويه » أحد سلاطين البويهيين الذين استحوذوا على السلطنة فى بغداد ، وقوى أمره واشتد نفوذه وخلع الخليفة المستكفى وسمل عينيه . وفى ذلك يقول السيوطى : ثم إن معز الدولة تخيل من المستكفى فدخل عليه فى جمادى الآخر سنة أربع وثلاثين (وثلاثمائة) ، فوقف ـ والناس وقوف على مراتبهم ـ فتقدم إثنان من الديلم إلى الخليفة ، فمد يديه إليهما ، ظناً أنهما يريدان تقبيلها ، فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعمامته ، وهجم الديلم دار الخلافة إلى الحُرم ونهبوها فلم يبق فيها شىء ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفى ماشيا إليه وخلع وسملت عيناه يومئذ ، وكانت خلافته سنة وأربعة أشهر[٢] .

* * *

وخلف المستكفى الخليفة « الطائع » (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) وقدر له معز الدولة مائة دينار فى كل يوم . ويتميز عهد الطائع ، بذلك الصفاء الذى ساد بين الخلافة العباسية ومصر ، حتى تمكن كافور الإخشيدى من أن يحتفظ بمبدأ وراثة

---

(١) Arnold : The Caliphate, P. 68.

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

العرش ، على النحو الذى وضعه الإخشيد ، وذلك بأن حصل على موافقة الخليفة المطيع العباسى على تولية الأمير أنوجور بن الأخشيد على مصر بعد أبيه ، وأصبحت مماكته تشمل مصر والشام والمدينتين المقدستين (مكة والمدينة) ، واستطاع كافور بعد ذلك أن يضم إلى حكم مصر كل بلاد سورية بما فى ذلك دمشق وحلب وأنطاكية وطرسوس والمصيصة[1] وغيرها من المدن والثغور[2] . ولكن كافورا حين وجد أن مصلحته الشخصية تتعارض مع مبدأ وراثة العرش فى أسرة الإخشيد ، استغل فرصة صغر أولاد الإخشيد وتقدير الخليفة العباسى له ، وتمكن من أن يستصدر قراراً من دار الخلافة فى ٢٦ المحرم سنة ٣٥٥ هـ بتوليته على مصر وما يقع تحت سيطرتها من البلاد ، على الرغم من أنه لا يمت بأية قرابة إلى الأسرة الإخشيدية الحاكمة ، وتخطى أحمد بن على بن الإخشيد .

الشروع فى إقامة خلافة فاطمية فى بغداد :

اتبع بويه إزاء خلفاء بنى العباس ، سياسة تنطوى على الأثرة والأنانية ، بل وفكر معز الدولة فى وضع حد للخلافة العباسية وإقامة خلافة علوية أى فاطمية مكانها . ولكن بعض خاصته أشاروا عليه بالعدول عن هذا الرأى ، وأبانوا له أن الخليفة العباسى فى بغداد ضعيف جداً ومن الممكن حبسه أو قتله متى خرج عن طاعة البويهيين ، أما خلفاء الفاطميين فإن فى استطاعتهم الاستبداد بالسلطة فى بغداد والقضاء على معز الدولة متى أرادوا[3] . واقتنع بنو بويه بهذا الرأى وعدلوا عن مسألة نقل الخلافة من العباسيين إلى الفاطميين ولو تم ذلك ، لتحقق للعلويين أملهم فى الخلافة ، الذى ظلوا يناضلون من أجل تحقيقه منذ قيام الخلافة الأموية

قتل معز الدولة سنة ٣٦٣ هـ على يد عضد الدولة ، وذلك فى عهد الخليفة الطائع

---

(١) المصيصة : تقع بين أنطاكية وبلاد الروم ، بالقرب من طرسوس فى بلاد الشام .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٣٢ — ٤٣٣ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ١٦٢ .

العباسى ، فانتقلت سلطة بنى بويه فى بغداد إلى عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢هـ)، وخلع عليه الخليفة الطائع خلعة السلطنة وقلده سيفا وعقد له لواءين أحدهما مفضض على رسم الأمراء والآخر مذهب على رسم ولاة العهود . ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغير عضد الدولة ، وكتب له الخليفة عهداً وقرىء بحضرته[1] . ولم يكتف عضد الدولة بذلك ، بل عمل على ذكر اسمه فى الخطبة ، وحمل الخليفة على أن يمنحه تفويضاً كالذى يعطيه الخلفاء لولاة عهودهم . وأمر عضد الدولة بأن يقرأ هذا التفويض على ملأ من الناس ، مع مخالفة ذلك لتقاليد الخلافة ، إذ كان الخليفة يعطى التفويض لولى عهده مغلقاً ، ويقول له : « هذا تفويض منحته لك ، وعليك أن تعمل على مايقضى به » . لذلك اضطر الخليفة الطائع إلى أن يخرج لاستقبال عضد الدولة ، عند عودته إلى بغداد من إحدى رحلاته ، وهذا يبين لنا مدى نفوذ بنى بويه فى بغداد وسيطرتهم على الخليفة العباسى وأمور الدولة العباسية ، ويتضح ذلك جليا من أنه حين ساءت العلاقة بين الخليفة الطائع وبين عضد الدولة ، أمر الأخير بحذف اسم الخليفة من الخطبة فى بغداد وغيرها من المدن ، وظل الحال على ذلك مدة شهرين ، وأرغم الخليفة على أن يصدر أوامره بضرب الدبادب أمام داره ثلاث مرات فى اليوم : فى وقت الصبح والمغرب والعشاء ، مع أن ذلك كان من الأمور التى انفرد بها الخليفة دون غيره فى بغداد[2] .

ويظهر أن خلفاء بغداد اعترفوا بإمامة الفاطميين ، رغم ذلك العداء المستحكم بين الدولتين . يدل على ذلك ، الكتاب الذى بعث به العزيز سنة ٣٦٥هـ إلى عضد الدولة سلطان بنى بويه فى بغداد . وفيه يقول : « من الإمام العزيز بالله إلى عضد الدولة الإمام ، نصير ملة الإسلام . . وبعد فإن رسولك وصل إلى حضرة أمير

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ .
(٢) السيوطى : نفس المصدر ص ٢٧٠ .

المؤمنين مع الرسول المنفذ إليك ، فأدى ما يحمله من إخلاصك فى ولاية أمير المؤمنين ومودتك ومعرفتك بحق إمامته ، ومحبتك لآبائه الطائعين الهادين المهديين ، فسر أمير المؤمنين بما سمعه عنك » . ورد عضد الدولة على كتاب العزيز بكتاب يعترف فيه بفضل أهل البيت، ويقول للخليفة : « إنه من أهل تلك النبعة الطاهرة وإنه فى طاعته » ووجه الغرابة فى أمر هذه المراسلات ، أن عضد الدولة أرسل خطابه هذا الذى يعترف فيه بإمامة الفاطميين بعلم الخليفة الطائع العباسى ، مما يوضح لنا عظمة الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من تاريخها وعجز العباسيين عن الوقوف أمامها .

على أن عضد الدولة — رغم قوته وضعف الخليفة — كان يظهر أمام الناس بأنه إنما يستمد نفوذه من الخليفة ويتمتع برضاه ليكتب بذلك ثقة الأهلين وطاعتهم إياه . وفى ذلك يقول السيوطى « فى سنة تسع وستين (وثلثمائة) ورد رسول العزيز صاحب مصر إلى بغداد ، وسأل عضد الدولة للطائع أن يزيد فى ألقابه : تاج الملة ، ويجدد الخلع عليه ، ويلبسه التاج ، فأجابه . وجلس الطائع على السرير ، وحوله مائة بالسيوف والزينة ، وبين يديه مصحف عثمان ، وعلى كتفه البردة ، وبيده القضيب ، وهو متقلد بسيف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وضربت ستارة بعثها عضد الدولة ، وسأل أن تكون حجاباً للطائع ، حتى لا يقع عليه أحد من الجند قبله . ودخل الأتراك والديلم وليس مع أحد منهم حديد ، ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين ، ثم أذن لعضد الدولة فدخل ، ثم رفعت الستارة ، وقبل عضد الدولة الأرض ، فارتاع زياد القائد لذلك ، وقال لعضد الدولة ماهذا أيها الملك ؟ أهذا هو الله ؟ فالتفت إليه وقال : هذا خليفة الله فى الأرض ، ثم استمر يمشى ويقبل الأرض سبع مرات ، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم وقال : استدنه ، فصعد عضد الدولة فقبل الأرض

مرتين ، فقال له : ادن إلى ، فدنا . . وأمره فجلس على الكرسى . . . فقال له الطائع : قد رأيت أن أفرض إليك ماوكل الله إلى من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها ، وتدبيرها فى جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى ، فتقول ذلك . فقال : يعيننى الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته ، ثم أفاض عليه الخلع وانصرف » وقد علق السيوطى على هذه العبارة بقوله « انظر إلى هذا الأمر وهو الخليفة المستضعف ، الذى لم تضعف الخلافة فى زمن أحد ماضعفت فى زمنه ، ولا قوى أمر سلطان ماقوى أمر عضد الدولة »[1] .

و بوفاة عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ ، تتابع على السلطة من بنى بويه فى بغداد ، ثلاثة إخوة هم : صمصام الدولة (٣٧٢ — ٣٧٦ هـ) وشرف الدولة (٣٧٦ — ٣٧٩ هـ) وبهاء الدولة (٣٧٩ — ٤٠٣ هـ) الذى انتقلت السلطة فى النهاية وخلع عليه الخليفة الطائع سبع خلع وعمامة سوداء[2] ، ومشى الحجاب بين بين يديه ، وقرىء عهده ، ولقبه الطائع : بهاء الدولة ، وضياء الملة . إلا أنه مالبث أن قبض سنة ٣٨٢ هـ على الخليفة الطائع ، لأنه حبس رجلا من خواصه « فجاء بهاء الدولة وقد جلس الطائع فى الرواق ، متقلداً سيفاً ، فلما قرب بهاء الدولة ، قبل الأرض وجلس على كرسى ، وتقدم أصحاب بهاء الدولة فجذبوا الطائع من سريره ، وتكاثر عليه الديلم فلفوه فى كساء ، وأصعد إلى دار السلطنة وارتج البلد ، ورجع بهاء الدولة وكتب على الطائع إيماناً بخلع نفسه وأنه سلم الأمر إلى القادر بالله[3] .

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٢) كان أول من لبس العمامة السوداء هو النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم لبسها جماعة من الصحابة ، وتبعهم الخلفاء العباسيون . وهى عبارة عن عمامة مدورة من حرير بعذبة قدر ذراع ترسل بين الكتفين : القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٢٧٦ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٧٢ .

كان القادر — على ماوصفه به الخطيب البغدادى — «أنه من الستر والسيادة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات»[1]. على أن نفوذ بهاء الدولة قد ازداد فى عهد الخليفة القادر (٣٨١ — ٤٢٢ ﻫ) واستبد بالسلطة دون الخليفة ، وتعصب المذهب الشيعى دون السنة مذهب العباسيين ، وأضمر كل منهما للآخر العداوة والبغضاء ، ونادى بذلك السلطان بهاء الدولة بن بويه سنة ٣٩٨ ﻫ فى زمن الخليفة القادر . ولكن تحويل الخلافة إلى الفاطميين كان معناه القضاء على سلطان بنى بويه فى بغداد الذين جعلوا الخليفة ألعوبة فى أيديهم ، فعند ماتعرض نفوذهم فى العراق للخطر سنة ٤٠١ ﻫ — حين أمر قرواش بن المقلد أمير بنى عقيل الذى آلت إليه السيادة فى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة بإقامة الخطبة للخليفة الفاطمى الحاكم — سارع بهاء الدولة رغم ميوله الشيعية بإرسال جيش اضطره إلى رد الخطبة للخليفة العباسى فى بغداد ، قاصداً بذلك الاحتفاظ بسلطان بنى بويه فى العراق[2]. وبذلك فشلت المحاولة الثانية التى بذلت فى سبيل إقامة خطبة فاطمية فى بغداد ، وكانت الأولى فى عهد البويهيين أيضاً زمن معز الدولة بن بويه ، حين كان خلفاء الفاطميين لا يزالون فى المغرب ولم تكن دولتهم قد تأسست بعد فى مصر .

تشهير الخلفاء العباسيين بنسب الفاطميين :

لجأ الخليفة العباسى القادر بعد تلك الحادثة — حادثة محاولة إقامة الخطبة للحاكم فى بلاد الخلافة العباسية — إلى سياسة التشهير بنسب الفاطميين . ذلك أن الخليفة القادر ، أمر فى ربيع الثانى سنة ٤٠٢ ﻫ بكتابة محضر يقدح فى أنساب الخلفاء الفاطميين وعقائدهم ، على أن يقرأ فى بغداد وينشر فى الأمصار ،

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظام الإسلامية ص ٨٩ .

وجاء فيه : « وهم (أى الفاطميون) منسوبون إلى ديصان بن سعيد الخرمى ، إخوان الـكافرين ونطف الشياطين ، شهادة يتقربون بها إلى الله ومعتقدون ماأوجب الله على العلماء أن ينشروه للناس ، فشهدوا جميعاً أن الناجم بمصر ، وهو منصور نزار الملقب بالحاكم ، هو ومن معه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليه وعليهم اللعنة ، أدعياء خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب وأن ذلك باطل وزور . . وأن هذا الناجم بمصر هو وسلفه ، كفار ، فساق ، فجار زنادقة ، عطلوا الحدود ، وسفـكوا الدماء ، وسبوا الأنبياء ، ولعنوا السلف ، وادعوا الربوبية »[1] . ويقول أبو المحاسن تعليقاً على موقف الحاكم إزاء عمل الخليفة القادر أنه « لما بلغ الحاكم ذلك قامت قيامته ، وهان فى أعين الناس ، لـكتابة هؤلاء الأعلام فى المحضر »[2] .

وسار الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ) عن القادر على سياسة أبيه فى الطعن فى نسبهم تحقيراً لهم وصرفاً للمسلمين عن أن يولوا وجوههم شطرهم . واستكتب علماء بغداد سنة ٤٤١ هـ محضر يماثل المحضر الذى كتب فى عهد أبيه طعناً فى الفاطميين .

إلا أن خطة الخليفة القادر والخليفة القائم فى محاربة الفاطميين بسلاح التشهير بنسبهم لم يؤد إلى الغرض المقصود ، وهو إضعاف نفوذ الفاطميين وحث الخاضعين لسلطانهم على الثورة عليهم ، بل على العـكس ما كان عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى ينتهى ويتولى عرش الخلافة الفاطمية المستنصر ، حتى امتد سلطان الفاطميين فى الشطر الأول من خلافته ، فشمل الشام وفلسطين والحجاز وصقلية وشمالى إفريقية بما فى ذلك مصر ، وأصبح إسمه يذاع على كافة منابر البلاد الممتدة من المحيط الأطلسى غرباً إلى البحر الأحمر شرقا ، كما أذيع اسمه على منابر

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٢٢٩ — ٢٣٠ .

(٢) أبو المحاسن : نفس المصدر والجزء ص ٢٣٠ .

اليمن والحجاز والموصل ، وفى ذلك الاتساع أكبر دليل على تقلص سلطان الخليفة العباسى وعلى أن الدولة الفاطمية اتسعت على حساب العباسيين .

وعلى الجملة ، أصبح الخلفاء العباسيون فى عهد بنى بويه ، لا قيمة لهم ، فى الوقت الذى أصبح فيه غيرهم أكثر قوة ونفوذاً ، وأصبحوا يديرون العالم الإسلامى دون أن يحفلوا بمن يدعى أنه أمير المؤمنين . وأصبح هؤلاء الخلفاء ألعوبة فى أيدى سلاطين بنى بويه يجلسونهم على العرش ويعزلونهم عنه متى شاءوا وشاءت أهواؤهم . ولم يعد للخليفة العباسى شىء فى عهد سيطرة بنى بويه سوى معاملته الدينية ، ممثلة بذكر اسمه فى الخطبة ونقشته على السكة ، وقد احتفظ بنو بويه للخلفاء بهذين المظهرين احتفاظاً للخليفة بمركزه أمام الجمهور ، على اعتبار أنه لا يزال محتفظا بالسلطة الروحية على رعاياه ، رغم أنه مسلوب السلطة السياسية . ومع ذلك ، فينبغى أن نذكر أن بنى بويه راعوا مظاهر احترام الخليفة العباسى فى الحفلات ، باعتباره الرئيس الأعلى لجماعة المسلمين ، فكان الخليفة يستقبل السفراء ويلبس بردة النبى عليه السلام ويضع أمامه مصحف عثمان توكيداً لسلطته الدينية .

٢ — الخلافة العباسية فى عهد سلاطين السلاجقة

ينسب السلاجقة ، الذين استولوا على السلطة فى بغداد بعد بنى بويه ، إلى سلجوق بن تقاق أحد رؤساء التركمان ، وموطنه الأصلى بلاد ماوراء النهر . وقد غزا طغرلبك السلجوقى بلاد خراسان ، واستولى على الولايات الغربية للدولة الغزنوية ، كما أدخل تحت سلطانه أملاك بنى بويه ، ودخل بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ .

ذكر اسم الخليفة الفاطمى على منابر بغداد :

كان ضعف الخليفة العباسى أمام السلاجقة واضحاً للعيان . ومما أوضح مدى الضعف الذى وصلت إليه الخلافة العباسية فى العصر الثانى ، ذلك الأمر الخطير الذى حدث إذ ذاك وهو ذكر الخليفة المستنصر الفاطمى على منابر بغداد حاضرة العباسيين . فإن الأمير الحارث أرسلان البساسيرى[1] ، انتهز فرصة ضعف الخليفة العباسى القائم بأمر الله وانشغال طغرلبك أول ملوك السلاجقة بفتح بعض بلاد العراق واشتباكه مع إبراهيم ينال الذى شق عصا الطاعة عليه ، ودخل البساسيرى بغداد فى اليوم الثامن من ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ حاملا الرايات المستنصرية ، فرحب به أهل الكوخ وكانوا شيعيين ، وازداد نفوذهم فى بغداد وأدخلوا فى الأذان عبارة « حى على خير العمل » ، كما انضم أهل السنة إلى الخليفة القائم بأمر الله[2] .

ودار القتال بين كل من السنيين وعلى رأسهم الخليفة العباسى و بين الشيعيين تحت قيادة البساسيرى . وانتهى الأمر بانتصار البساسيرى وأتباعه ، وخطب يوم الجمعة ١٣ ذى القعدة سنة ٤٥٠ هـ على منابر بغداد للمستنصر الفاطمى بجامع المنصور . وانتهز بعض الأهالى هذه الفرصة ونهبوا دار الخلافة العباسية .

ولما استتب الأمر للبساسيرى فى بغداد قبض على الوزير أبى القاسم بن المسلمة ، وقال له « مرحباً بمدمر الدولة ومهلك الأمم ومخرب البلاد ومبيد العباد . فقال له ابن المسلمة : « أيها الأجل ! العفو عند المقدرة » . فقال له البساسيرى :

---

(١) هذه النسبة إلى بلدة فى فارس تسمى « بسا » ، وهو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله ، مقدم الأتراك فى بغداد .

(٢) على ابراهيم حسن : مصر فى العصور الوسطى ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

قد قدرت فما عفوت ، وأنت تاجر صاحب طيلسان ، ولم تبق على الحريم والأموال والأطفال . فكيف أعفو عنك وأنا صاحب سيف ، وقد أخذت أموالى وعاقبت أصحابى ودرست دورى وسببتنى وأبعدتنى »[1] ، ثم أمر البساسيرى بحبس الوزير أبى القاسم .

أما الخليفة ، فحمل إلى معسكره راكباً وعلى كتفه البردة وبيده سيف وعلى رأسه اللواء . ولما رأى ما حلّ به من الإهانة امتنع عن الطعام والشراب ، فألح عليه قريش أحد أتباع البساسيرى ، حتى حمله على تناول الطعام ، وسار به إلى قلعة الحديثة حيث ظل مسجونا بها . وعندما وصل الخليفة العباسى إلى الأنبار ، شكا البرد وبعث يطلب من واليها بعض الملابس ، فأرسل إليه جبة ولحافا .

وسار البساسيرى فى حكم أهل بغداد سيرة طيبة . فقد أحسن معاملتهم وبذل الأموال للفقهاء ، وأفرد لوالدة الخليفة دارا وعيّن لها راتبا شهريا ، وحبّب إليه — بحسن سياسته وعدم تعصبه — كل من السنيين والشيعيين . ولما استقر الأمر للبساسيرى ، وأصبح مطلق التصرف فى بغداد ، أرسل إلى المستنصر بالله يبشره بامتداد نفوذه إلى بلاد العراق ويبلغه أن اسم الخليفة الفاطمى الشيعى فى مصر قد ذكر فى الخطبة على منابر بغداد ، مقر الخلافة العباسية . وفى الوقت الذى كان منتظراً فيه أن يحمد المستنصر للبساسيرى عمله ، فإنه لم يجبه إجابة تنم عن تأييده لعمله ولم يمده بالأموال الكافية . وكان ذلك بتأثير الوزير أبى الفرج محمد ابن جعفر المغربى الذى كان يحقد على البساسيرى ، فاستطاع أن يوغر صدر المستنصر عليه ويخوفه من عاقبة اتساع نفوذ البساسيرى فى العراق .

إلا أن البساسيرى لم يقابل السياسة التى اتبعها المستنصر إزاءه بسياسة مثلها ، بل على العكس واصل فتوحه فى بلاد العراق واستولى على البصرة وواسط

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٩ .

وخطب على منابر جوامعهما باسم المستنصر الفاطمى . وظلت الخطبة تقام باسم المستنصر على منابر بغداد نحوا من سنة أى أربعين أسبوعاً . واشتد نفوذ البساسيرى فى بغداد واتصل بالخلافة الفاطمية فى مصر ، حتى أنه فى أثناء السنة التى أقيمت فيها الخطبة باسم الفاطميين فى بغداد ، أخذ عمامة الخليفة العباسى وعرشه وخلعته[1] ، وأرسلها إلى المستنصر حيث حفظت فى قصر الخلافة الفاطمية حتى عرضت للبيع فى أثناء الشدة العظمى التى حلت بمصر فى عهد ذلك الخليفة .

ومن أطراف ماروُى فيما يتعلق بإقامة البساسيرى الخطبة للمستنصر فى بغداد ، أن مغنية علمت بتوغل البساسيرى فى أراضى الدولة العباسية ، يفتتحها باسم المستنصر ، فأنشدت :

يا بنى العباس صدوا　　ملك الأمرَ معدُّ
ملككم كان معارا　　والعوارى تسترد

وطرب المستنصر لتلك الأغنية ، ووهبها أرضا بمصر تعرف الآن بأرض الطبالة ، نسبة إلى هذه السيدة التى غنت هذه الأبيات بدف فى يدها . وأرض الطبالة تحد اليوم من الشمال والغرب بشارع الظاهر ، ومن الجنوب بشارع الفجالة وسكة الفجالة ، ومن الشرق بشارع الخليج المصرى .

على أن الخليفة العباسى لم يقف مكتوف الأيدى إزاء ما قام به البساسيرى من نشر سلطان الفاطميين فى بلاد العراق ، فكتب إلى طغرلبك أول ملوك السلاجقة يطلب منه القدوم إلى بغداد وإخراج البساسيرى منها ، وكان الخليفة

---

(١) قيل إن الخليفة العباسى لما رجع إلى داره لم ينم بعدها إلا على فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام ، وأنه لما سجنه البساسيرى كتب قصته وأنفذها إلى مكة ، فعلقت فى الكعبة وفيها يشكو إلى الله فعل البساسيرى ويطلب إليه أن يجازيه على بغيه وعدوانه . حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٩٢ .

بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار ، وقد لبى طغرلبك طلبه وسار بعساكره إلى بغداد ، ففر البساسيرى منها ، إلا أن طغرلبك ظفر به وقتله شر قتلة سنة ٤٥١ هـ ، ثم أطلق سراح الخليفة القائم وأعاده إلى بغداد وخطب له على منابرها . وحين ذاك يصدق المثل الذى ذكرناه ، فإن الخليفة تخلص من سلطان البساسيرى والفاطميين ليقع تحت سلطان السلاجقة ، ويصبح حاله تحت إشرافهم أشد هوانا ومذلة مما لو استمر سلطان البساسيرى فى بغداد .

حالة الخلفاء العباسيين :

على أن حالة الخلفاء العباسيين فى أيام السلاجقة لم تختلف اختلافا كبيرا تحت سيطرة السلاجقة عما كانت عليه فى أيام بنى بويه : فبينما كان أمراء بنى بويه يقيمون فى بغداد ويجمعون كل السلطة فى أيديهم ، كان نواب السلاجقة العسكريون يحكمون العراق ويستأثرون بالسلطة . ولم يكتف السلاجقة بما حل بالبساسيرى ، بل عمدوا إلى استعادة نفوذ الخليفة العباسى أو على الأصح نفوذهم على الأقطار التى فقدتها الدولة العباسية ، نتيجة سياسة الفاطميين الخاصة بتوسيع رقعة إمبراطوريتهم على حساب العباسيين . وتنفيذا لتلك السياسة التى رسمها طغرلبك ، أرسل السلطان السلطان ملكشاه أول سلاطين السلاجقة فى بغداد ، الجيوش إلى الشام سنة ٤٦٢ هـ ، فتمكنت من فتح الرملة وبيت المقدس ، ولكنها عجزت عن فتح دمشق ، فعادت إليها ثانية سنة ٤٦٧ هـ حيث نجحت فى فتحها وحذفت اسم المستنصر من الخطبة وأحلت اسم الخليفة المقتدى العباسى محله . ولم يكتف بذلك ، بل سارت جيوش العباسيين بأمر ملكشاه إلى مصر ، وكان وزيره إذ ذاك بدر الجمالى ، ولكنها هزمت فعادت ثانية إلى دمشق ، وكانت الجيوش المصرية قد احتلتها فعادت تلك الجيوش إلى مصر سنة ٤٧٠ هـ .

كان الخلفاء العباسيون يعيشون فى أيام السلاجقة من إقطاعات مقررة يديرها

عمال على رأسهم الوزير وكاتب الإنشاء كما كانت أيام بنى بويه ، ولم يكن لهم من الأمر شىء سوى ذكر اسمهم فى الخطبة . ومما يدل على ضعف الخلفاء العباسيين أن الناس فى بغداد قاموا فى أيام الخليفة القائم « وأنكروا كثرة المغنيات والخمور ، فقطع بعضهم أوتار عود مغنية كانت عند جندى ، فثار به الجندى الذى كانت عنده فضربه ، فاجتمعت العامة ومعهم كثير من الأئمة . . . واستغاثوا إلى الخليفة ، وطلبوا هدم المواخير والحانات وتبطيلها ، فوعدهم أن يكاتب السلطان فى ذلك » .[1] وكان الخلفاء يقضون أوقات فراغهم فى الإشراف على بناء القصور وترميمها[2] .

تحسن العلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة :

إلا أن معاملة السلاجقة للخلفاء كانت أفضل بكثير من معاملة بنى بويه لهم . يدل على ذلك :

١ — عامل سلاطين السلاجقة الخليفة العباسى فى المناسبات المختلفة بالاحترام والإجلال اللائقين بمقامه ، يدل على ذلك أن طغرلبك لما عاد إلى بغداد فى سنة ٤٤٩ هـ ، على أثر إخضاعه الموصل ، حضر عند الخليفة القائم « لخمس بقين من ذى القعدة . . . والخليفة على سرير عال من الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه بردة النبى صلى الله عليه وسلم وبيده القضيب الخيزران » . فقبل السلطان الأرض وقبل يده ، وأجلس على كرسى . فقال الخليفة لرئيس الرؤساء : قل له إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك ، حامد لفعلك ، مستأنس بقربك ، وقد ولاك جميع ما ولاك الله من بلاده ، ورد عليك مراعاة عباده ، فاتق الله فيما ولاك ، واعرف نعمته عليك فى ذلك ، واجتهد فى نشر العدل وكف الظلم وإصلاح

---

(١) ابن الأثير جـ ١٠ ص ٣٨ .

(٢) Le Strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate, P.327 .

الرعية ، فقبل الأرض . وأمر الخليفة بإضافة الخلع عليه ، فقام إلى موضع لبسها فيه ، وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه ، وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب ، وأعطى العهد وخرج »[1] .

٢ — تجلت تلك العلاقات الطيبة التي سادت بين الخلفاء العباسيين وسلاطين السلاجقة ، في الخلع التي كانوا يتبادلونها ، فقد كان الخليفة إذا ما ارتقى عرش الخلافة يبعث في طلب السلطان السلجوقي لأخذ البيعة وحمل الخلع السلطانية والهدايا ، كما كان السلطان السلجوقي يلتمس بعد توليه السلطنة التفويض من الخليفة العباسي .

٣ — وظهرت تلك العلاقات الطيبة جلية من ارتباط البيتين السلجوقي والعباسي برباط المصاهرة . فقد تزوج طغرلبك (في سنة ٤٥٤ هـ) من ابنة الخليفة القائم ، وتزوج المقتدي بن القائم من ابنة السلطان ألب أرسلان (سنة ٤٦٤ هـ)، وتزوج الخليفة المستظهر من ابنة السلطان ملكشاه (٥٠٢ هـ) وتزوج الخليفة المتقي من فاطمة بنت محمد ملكشاه وأخت السلطان محمود بن محمد ملكشاه[2] .

٤ — زاد تلك العلاقات وثوقا بين البيتين العباسي والسلجوقي ، أن السلاجقة كانوا يعتنقون المذهب السني ، مذهب الخلفاء العباسيين وقيل إن السلاجقة كانوا يحترمون الخليفة العباسي ، لا لمركزه السياسي بل لأنه خليفة الله .

النزاع بين العباسيين والسلاجقة :

على أن هذه الروابط الوثيقة بين العباسيين والسلاجقة ، لم تحل دون قيام النزاع بينهم . يدل على ذلك .

١ — أن سلاطين السلاجقة تعدوا على سلطة الخلفاء وانتهكوا حرمتها .

---

(١) ابن الأثير جـ ٩ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ .
(٢) ابن الأثير جـ ١ ص ٨ر٢٩ر١٩٩ .

فلما غضب السلطان ملكشاه على الخليفة المقتدى بسبب تدخله فى شئون الحكم أمره بالخروج من بغداد والإقامة فى البصرة .

٢ — واتخذ سلاطين السلاجقة لقب « ظل الله » وهولقب كان يحتفظ به الخلفاء العباسيون لأنفسهم ، واتخذ ملكشاه لقب أمير المؤمنين ، وهو لقب لم يطلق إلا على الخلفاء فقط [١] .

٣ — أخذ السلاجقة من الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) بردة الرسول التى كان يلبسها الخلفاء عند توليتهم الخلافة أو حضورهم الحفلات الدينية [٢] .

٤ — لقب ملكشاه نفسه بلقب « أمير المؤمنين » وهو اللقب الذى لم يطلق إلا على الخلفاء أنفسهم .

محاولة الخلفاء العباسيين استعادة نفوذهم :

إلا أن هذه الأعمال العدائية لم تصدر عن السلاجقة إلا فى القليل النادر ، وكانت معاملة السلاجقة لخلفاء بنى العباس بالحسنى ، عاملا من عوامل إحياء الأمل فى نفوسهم باعادة ما كان للخلافة العباسية من نفوذ وسلطان حتى استطاعوا فى أواخر عهد السلاجقة أن يظفروا بشىء من السلطة ، وبخاصة عند ما قام النزاع بين أفراد البيت السلجوقى . يستدل على ذلك من :

١ — محاولة الخليفة المقتدى التدخل فى شئون الحكم . يقول ابن خلكان : « كان للخليفة ولدان : أحدهما المستظهر بالله ، والآخر أبو الفضل جعفر ابن بنت السلطان ... وكان الخليفة قد بايع ولده المستظهر أكبر أولاده بولاية العهد ، فألزم السلطان الخليفة أن يخلعه ، ويجعل جعفراً ولى العهد بدله ، ويسلم بغداد

---

(١) Camb. Med. Hist. Vol. IV. P. 307

(٢) Arnold : The Caliphate, P. 80.

إليه ويخرج هو إلى البصرة . فشق ذلك على الخليفة ، وبالغ فى استنزال السلطان عن هذا الرأى فلم يفعل، وطلب المهلة عشرة أيام ليتجهز فأمهله ، فقيل إن الخليفة فى تلك الأيام جعل يصوم ، واذا أفطر جلس على الرماد للإفطار ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى على السلطان ، فرض السلطان فى تلك الأيام ومات وكفى الخليفة أمره [(١)] » . وبموته اعتلى عرش السلطنة محمود بن ملكشاه ولقب « ناصر الدنيا والدين » ،وفى اليوم التالى مات الخليفة المقتدى .

٢ — محاولة الخليفة المسترشد (٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ) إعادة ما كان لخلفاء بنى العباس الأول من نفوذ وقوة . ولكنه فشل فى هذا السبيل ، رغم أن السيوطى وصفه بأنه « كان ذا همة عالية وشهامة زائدة وإقدام ورأى وهيبة شديدة ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب وأحيا رسم الخلافة ونشر عظامها وشيد أركان الشريعة وطرّز أكامها وباشر الحروب بنفسه [(٢)] » . وقد خرج الخليفة المسترشد سنة ٥٢٠ هـ على السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه وهزم قواته ، وكاد يستقل بأمور الخلافة لولا مساعدة زنكى والى البصرة للسلطان . ولما مات محمود حرض المسترشد بعض أمراء البيت السلجوقى على الخروج على السلطان الجديد ، ثم حارب زنكى وشتت جيوشه وطاردها حتى الموصل (٥٢٧ هـ) حيث حاصره ثلاثة أشهر ، ثم سار بجيشه وبصحبته سلجوق أحد أمراء البيت السلجوقى ، والتقى مع جند مسعود على مقربة من همزان [(٣)] ولكن المسترشد هزم وأسره جند مسعود وقتلوه .

وحاول الخليفة الراشد (٥٢٩ ـ ٥٣٠ هـ) بن المسترشد الخليفة المقتول الثأر لأبيه ، ولكن مسعودا سار إلى بغداد وحاصرها وأرغم الخليفة على الهرب

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) السيوطى ج ٢ ص ١٦٤ .

(٣) ابن الأثير ج ١ ص ٢٧١ — ٢٧٢ و ٢٨٩ .

إلى الموصل والاحتماء بعماد الدين زنكى ، وإذ ذاك جمع مسعود القضاة والشهود وكتب محضراً بخلعه . ولم يلبث أن قتل الراشد على باب أصبهان وذلك فى سنة ٥٣٢ هـ ومات السلطان مسعود سنة ٥٤٧ هـ . وبموته أفل نجم البيت السلجوقى ، فقد خلفه سلاطين قضوا وقتهم فى اللهو واللعب والإدمان على شرب الخمر .

وتصادف أن كان على عرش الخلافة فى ذلك الوقت ، خليفة عباسى على جانب كبير من الشجاعة والشهامة يدعى المقتفى (٥٣٠ ـ ٥٥٥ هـ) ، وفيه قال السيوطى أنه قليل المثل فى الأئمة ، لا يجرى فى دولته أمر وإن صغر إلا بتوقيعه ، جدد معالم الإمامة ، ومهد رسوم الخلافة ، وباشر الأمور بنفسه ، وغزا غير مرة ، ولم ير مع سماحته ولين جانبه ورأفته بعد المعتصم خليفة فى شهامته وصراحته وشجاعته مع ما خص به من زهده وورعه وعبادته .

وكان السلطان مسعود قد تنبأ قبل وفاته بما سيكون للخليفة المقتفى من عظم الشأن فقال : « لقد اجلسنا فى الخلافة رجلا عظيما ، فالله تعالى يكفينا شره »[1] . وسار السلطان مسعود فى سنة ٥٥١ إلى بغداد وحاصرها ولكنه عاد منهزماً . وكان ذلك نهاية العهد السلجوقى فى العراق .

ويمكن القول بوجه عام أن الخليفة العباسى فى العصر الثانى قد أصبح ألعوبة فى أيدى الأتراك وبنى بويه والسلاجقة ، يسجنونه أو يعزلونه أو يقتلونه ، وصار عاجزا عن التصرف فى شئونه . ولكنه رغم أن فقد سلطته الزمنية ، فقد تمتع بسلطته الدينية ، ممثلة فى أن يحصل أمراء المسلمين على تفويض من الخليفة يجعل سلطانهم شرعيا ، باعتباره خليفة للنبى صلى الله عليه وسلم . على أن الخليفة لم يكن من القوة بحيث يستطيع أن يعارض فى شىء ، بل كان يقابل هذه المطالب

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٩٢ .

بالارتياح والقبول ، على أساس أنها اعتراف بسلطته النظرية[1] . يؤيد ذلك ما رواه السيوطى من أنه « فى سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، أرسل يوسف ابن تاشفين صاحب سبتة إلى المقتدى يطلب أن يسلطنه وأن يقلده ما بيده من البلاد ، فبعث إليه الخلع والأعلام والتقليد ولقبه أمير المؤمنين ، ففرح بذلك وسر فقهاء المغرب »[2] .

وتقاسم ملك السلاجقة دول شتى تعرف باسم دول الأتابكة . وكان أقوى الدول منافسة للسلاجقة هى دولة خوارزم[3] إحدى دول الأتابكة[4] التركية .

وفى عهد الخليفة المستضىء بالله العباسى (٥٦٦ — ٥٧٥ هـ) تمكن علاء الدين تكش أخو سلطان شاه بن إيل أرسلان بن أتسز ، من الاستيلاء على بلاد خوارزم والاستقلال بها ومن القضاء بعد ذلك على ملك السلاجقة بالعراق ، واتسع ملك علاء الدين تكش حتى امتد من أقاصى بلاد ما وراء النهر شرقاً إلى بلاد الرى التى استولى عليها بعد قضائه على السلاجقة .

ولكن مُلك علاء الدين فى الرى لم يكن ثابتاً ، فقد عوّل الخليفة الناصر لدين الله العباسى (٥٧٥ — ٦٢٢ هـ) على أن تكون له سيادة الرى بعد رحيل خوارزم شاه عنها ، فأرسل إليها جيشاً استردها من عامل علاء الدين تكش ، فعاد هذا إلى الرى واستردها من جند الخليفة . و بعد وفاة علاء الدين تكش ،

---

(١) Arnold : The Caliphate, P. 83.

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٢٨١ .

(٣) أسس هذه الدولة محمد بن أنوشتكين ، وكان أبوه مملوكا لأحد أمراء البيت السلجوقى . فنشأ نشأة طيبة وعرف بالأدب وتوفر على العلم ، كما كان عالى الهمة فعينه حبشى قائد بركيا روق على بلاد خوارزم ولقبه خوارزم شاه . وبموته سنة ٥٢١ هـ خلفه ابنه أتسز ، فاكتسب محبة السلطان ورسخت أقدام هذا البيت .

(٤) الأتابكة : يعبر عن صاحبها « أتابك العساكر » ، وأصله أطا بك ومعناه « الوالد الأمير » . وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ، حين فوض إليه المملكة سنة ٤٦٥ هـ ولقبه بعدة ألقاب ، من بينها هذا اللقب .

خلفه سنة ٥٩٦ هـ ابنه قطب الدين خوارزم شاه محمد ، فطلب إلى الخليفة أن يأمر بذكر اسمه فى الخطبة بدل السلاجقة ، فرفض الخليفة ذلك ، واشتدت العداوة بينهما حتى حذف خوارزم شاه (أى ملك خوارزم) قطب الدين محمد اسم الخليفة من الخطبة على منابر بلاده . وقد بقى قطب الدين محمد فى الحكم إلى سنة ٦١٧هـ (وهى السنة التى بدأت فيها فتوح المغول) وجاء من بعده جلال الدين منكبرتى إلى سنة ٦٢٨ هـ وهو آخر شاهات هذه الأسرة .

٤ — سقوط بغداد وزوال الخلافة العباسية

كان من أثر إزدياد العداوة بين الخليفة العباسى وخوارزم شاه أن استنجد الخليفة الناصر بالتتار أو المغول [١] ، ليشغل بهم خوارزم شاه حتى يأمن شره ، ويحول بذلك دون ما قد يحدق ببلاده من خطر هجوم جيوش خوارزم شاه .

وليست هذه أول مرة يستنجد فيها خلفاء العباسيين بغيرهم : فقد راسلوا بنى بويه ليخلصوهم من استبداد الأتراك ، وكتبوا إلى طغرلبك السلجوقى لينتشلهم من تحكم البساسيرى ، وأوفدوا الرسل إلى خوارزم شاه ليقيهم شر السلاجقة ، ثم استنجدوا أخيراً بالتتار ليمنعوا أذى خوارزم شاه عنهم . ومن ثم فقد عاش خلفاء العصر العباسى الثانى تحت كنف الأتراك وبنى بويه والسلاجقة وخوارزم شاه والتتار .

---

(١) ظهر المغول فى عالم التاريخ حوالى نهاية القرن الثانى عشر الميلادى ، فى الجهات الشمالية من بلاد الصين ، فى الأراضى التى نبتت فيها أصول قبائل الهون والترك ، وهم يمتون إليهم بصلة قوية . وقد اختلفت تسميتهم باختلاف العصور . ويظهر أن الشعوب التى كانت مغولا فى الأصل واللغة ، كانت تسمى باسم « التتر » أو « التتار » ، إلا أن تلك التسمية قد غيرت رسميا بعد جنكيزخان — وهو الثامن من سلالة مؤسسى هذه الأسرة — بكلمة « مغل » Moghol أو Moghul فى بلاد منغوليا وفى أواسط آسيا ، وكذا فى بلاد الهند فيما بعد . حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام بين المغول ، صحيفة الجامعة المصرية ، مايو ١٩٣٣ . على ابراهيم حسن : دراسات فى تاريخ المماليك ص ١٠٩ .

ولم يكن الخليفة يتوقع وقت دعوته للتتار أنهم يستطيعون الوصول بسهولة إلى بلاده لبُعد الشقة ووقوف جند خوارزم شاه فى سبيلهم .

وقيل إن سبب غزو التتار لبلاد خوارزم أنه فى سنة ٦١٢ هـ ، أرسل جنكيزخان من قِبَله رسلا من كبار المسلمين الذين كانوا يقيمون فى بلاده إلى خوارزم شاه ، يطلب منه عقد معاهدة بين البلدين ، وأرسل إليه هدايا نفيسة ، فأجاب خوارزم شاه طلب جنكيزخان ، وتمت المعاهدة بينهما ، وأخذ التجار يترددون على البلدين ، مما وجه أنظار التتار إلى البلاد الإسلامية .

فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الدولة ، ظهرت بجلاء مطامع التتار ، فقد أغاروا على بخارى وسمرقند قصبة بلاد ما وراء النهر وكعبة العلماء ومعين الثروة والرخاء ، ثم استولوا على نيسابور والرى وهمذان وأذربيجان ، وغزوا جرجان وأرمينيه الكبرى مرتكبين أقسى الفظائع وأشدها هولا ، وقضوا بذلك على دولة خوارزم وامتدت فتوحهم إلى أوربا .

وكان استعداد التتار للهجوم على بغداد ، فى عهد الخليفة العباسى المستعصم (٦٤٠ — ٦٥٦ = ١٢٤٢ — ١٢٥٨ م) ، آخر خلفاء العباسيين فى بغداد . وكان ضعيف الرأى ، غير ملم بأحوال دولته ، منصرفاً إلى اللهو واللعب . لذلك لم يستمع إلى نصح وزيره مؤيد الدين بن العلقمى حين حذره بالاحتياط والاستعداد لمواجهة خطر المغول ، فلم يزد إلا استهتاراً بقوة العدو [1] . قال صاحب الفخرى : « كان المستعصم رجلا خيرا متدينا ، لين الجانب سهل العريكة ، عفيف اللسان ، حمل كتاب الله تعالى . . . وكان سهل الأخلاق ، وكان خفيف الوطأة . إلا أنه كان مستضعف الرأى ، ضعيف البطش ، قليل الخبرة بأمور المملكة ، مطموعا فيه ، غير مهيب فى النفوس ولا مطلع على حقائق الأمور ، وكان زمانه ينقضى

(١) الفخرى ص ٢٩٤ .

أكثره بسماع الأغانى والتفرج على المساخرة ، وفى بعض الأوقات يجلس بخزانة الكتب جلوساً ليس فيه كبير فائدة ، وكان أصحابه مستولين عليه وكلهم جهال من أراذل القوم ، إلا وزيره مؤيد الدين محمد بن العلقمى فإنه كان من أعيان الناس وعقلاء الرجال ، وكان مكتوف اليد مردود القول يترقب العزل والقبض صباح مساء . . . » ثم يقول : « وفى آخر أيامه قويت الأراجيف بوصول عسكر المغول صحبة السلطان هولاكو ، فلم يحرك ذلك منه عزماً ، ولم ينبّه منه همة ، ولا أحدث عنده هما . وكان كلما سمع عن السلطان من الاحتياط والاستعداد شيء ظهر من الخليفة نقيضه من التفريط والإهمال ، ولم يكن يتصوّر حقيقة الحال فى ذلك ، ولا يعرف هذه الدولة — يسّر الله إحسانها وأعلى شأنها — حق المعرفة . وكان وزيره مؤيد الدين بن العلقمى يعرف حقيقة الحال فى ذلك ، ويكاتبه بالتحذير والتنبيه ، ويشير عليه بالتيقظ والاحتياط والاستعداد ، وهو لا يزداد إلا غفولا . وكان خواصه يوهمونه أنه ليس فى هذا كبير خطر ، ولا هناك محظور ، وأن الوزير إنما يعظّم هذا لينفق[1] سوقه ولتبرز إليه الأموال لتجند بها العساكر ، فيقتطع منها لنفسه »[2] .

بعد أن قضى هولاكو على طائفة الحشاشين ، أرسل إلى الخليفة المستعصم من مدينة همذان التى اتخذها مركزاً لقيادته كتابا ينذره فيه بالحرب ، إذا لم يقدم نفسه ويسلم حاضرة ملكه إلى المغول ، « فوقع التعيين من ديوان الخليفة على ولد أستاذ الدار ، وهو شرف الدين عبد الله بن الجوزى ، فبُعث رسولا إلى خدمة الدركاة السلطانية بهمذان ، فلما أن وصل وسمع جوابه ، علم أنه جواب مغالطة ومدافعة ، فحينئذ وقع الشروع فى قصد بغداد وبث العساكر إليها »[3] .

---

(١) نفقت السلعة : غلت ورغب فيها .
(٢) الفخرى ص ٢٩٤ — ٢٩٧ .
(٣) الفخرى ص ٢٩٧ .

سار هولا كو — بعد شهرين — بجنده إلى بغداد فى شهر نوفمبر عام ١٢٥٧ م (٦٥٥ هـ) فى عهد كوبيلاى خان (٦٥٥ — ٦٩٣ هـ) إيلخان (إمبراطور) المغول فى فارس ، و بصحبته كثير من أمراء المسلمين ، وعسكر حول منتصف المحرم سنة ٦٥٦ هـ (يناير ١٢٥٨ م) على مقربة من بغداد من ناحية الشرق . وسهل على المغول هذا الحصار ، تلك المؤامرات التى كان يدبرها الشيعة لأهل السنة داخل أسوار المدينة .

و يصف صاحب الفخرى فتح بغداد على يد التتار ، فيقول : «أجفل الناس من دُجيل والإسحاقى ونهر مَلَك ودخلوا إلى المدينة بنسائهم وأولادهم ، حتى كان الرجل أو المرأة يقذف بنفسه إلى الماء ، وكان الملاح إذا عبّر أحداً فى سفينة من جانب إلى جانب يأخذ أجرته سواراً من ذهب أو طرازاً من زَرْكش أو عدة من الدنانير . فلما وصل العسكر السلطانى (أى جند هولا كو) إلى دُجَيل ، وهو يزيد على ثلاثين ألف فارس ، خرج إليه عسكر الخليفة صحبة مقدم الجيش مجاهد الدين أيبك الدّويدار ، وكان عسكراً فى غاية القلة ، فالتقوا بالجانب الغربى من بغداد قريباً من البلد ، فكانت الغلبة فى أول الأمر لعسكر الخليفة ، ثم كانت الكثرة للعسكر السلطانى ، فأبادوهم قتلا وأسرا . وأعانهم على ذلك ، نهر فتحوه فى طول الليل ، فكثرت الوحول فى طريق المنهزمين ، فلم ينج منهم إلا مَنْ رمى بنفسه فى الماء أو من دخل البرّيّة ومضى على وجهه إلى الشام . ونجا الدوَيدار فى جمعية من عسكره ووصل إلى بغداد ، وساق باجو حتى دخل البلد من جانبه الغربى ووقف بعساكره محاذى التاج ، وجاست عساكره خلال الديار ، وأقام محاذى التاج أياما . وأما حال العسكر السلطانى ، فإنه فى يوم الخميس رابع المحرم من سنة ٦٥٦ هـ ثارت غبرة عظيمة شرقى بغداد على درب يعقوبا بحيث عمت البلد ، فانزعج الناس من ذلك وصعدوا إلى أعالى السطوح والمنابر يتشوفون ، فانكشفت الغبرة عن عساكر السلطان وخيوله ولفيفه وكُراعه . وقد طبّق

وجه الأرض وأحاط ببغداد من جميع جهاتها ، ثم شرعوا فى استعمال أسباب الحصار ، وشرع العسكر الخليفى فى المدافعة والمقاومة إلى اليوم التاسع عشر من شهر المحرم ، فلم يشعر الناس إلا ورايات المغول ظاهرة على سور بغداد من برج يسمى « برج العجمى » من ناحية باب من أبواب بغداد يقال له « باب كلواذى » وكان هذا البرج أقصر أبواب السور ، وتقحّم العسكر السلطانى هجوماً ودخولا فجرى من القتل الذريع والنهب العظيم والتمثيل البليغ ، ما يعظم سماعه جملة فى الظن بتفاصيله »[1] .

وأمر المغول الخليفة المستعصم وأودعوه هو وأسرته فى معسكرهم ، ثم استقر هولاكو فى قصر المأمونية فى شرق بغداد . وقد ذبح المغول السواد الأعظم من الأهلين كما تذبح الشاة ، وأضرموا النيران فى المدينة ، فأتلفت مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم ومقابر الخلفاء فى الرصافة ، كما خربت معظم الشوارع والطرقات والبيوت ، حتى أصبحت المدينة أثراً بعد عين . واستأنفت جموع المغول سيرها لمواصلة الفتح والنهب ، فخربوا المساجد ليحصلوا على قبابها المذهبة ، وهدموا القصور بعد أن جردوها مما بها من التحف الفارسية والصينية النادرة ، وخربوا المكاتب وأتلفوا الكتب التى بها إما بإحراقها أو برميها فى دجلة ، كما قتلوا معظم أهل المدينة دون أن يستثنوا امرأة أو طفلا أو يعطفوا على مريض أو يقدروا عالما . وأمر هولاكو قبل رحيله بتجديد بناء مسجد الخليفة وضريح موسى الكاظم .

انتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة المستعصم وأولاده ، وسقوط بغداد فى أيدى التتار بعد أن ظلت زهاء خمسة قرون حاضرة للدولة العباسية ومركزاً للعالم الإسلامى ومهبطا للعلماء . ولم تعد تلك المدينة الزاهرة منذ ذلك الحين حاضرة الإسلام ، وإن كانت لم تزل أهم بلاد العراق العربى . و بسقوط الدولة

---

(١) الفخرى ص ٢٩٧ .

العباسية ، انتهت الخلافة بنظامها القديم واختل نظامها حتى أصبح فى مقدرة كل أمير قوى متغلب على جهة إسلامية أن يستجيز لنفسه لقب الخلافة .

وبعد مقتل المستعصم ، خيّل للمسلمين أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب ، وصاروا يؤولون كل ظاهرة على أنها تعبير عن سخط الله ، واتخذوها أدلة على ما سيحدث فى العالم من انقلاب سيء لخلوه من خليفة ، لأن الناس كانوا يرون ضرورة وجود خلافة تُبارك العالَم وتجعل سلطان الولاة شرعيا[1] .

٥ — الخلافة العباسية فى القاهرة والقسطنطينية

بمقتل المستعصم سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨ م) انتهت الخلافة العباسية فى بغداد ولم تقم لها قائمة حتى أحياها بيبرس سلطان المماليك فى مصر . ذلك أنه فى سنة ٦٥٩ ﻫ (١٢٦٠ م) استدعى بيبرس الأمير أبا العباس أحمد الذى كان قد بايعه « قطز » فى دمشق ، غير أنه لم يحضر ، وسبقه الأمير أبو القاسم أحمد إلى القاهرة بعد فراره من وجه التتار المتغلبين على بغداد . وصل أبو القاسم أحمد إلى القاهرة فى ٨ رجب سنة ٦٥٩ ﻫ فأعد السلطان العدة لاستقباله ، وخرج للقائه ، ومعه الوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وقاضى القضاة تاج الدين بن بنت الأعز وجميع الأمراء والجند وأعيان القاهرة ومصر والمؤذنون والشهود واليهود يحملون التوراة والنصارى يحملون الإنجيل . وساروا جميعاً إلى المطرية لمقابلته ، ولما وقع نظر الظاهر بيبرس على هذا الأمير العباسى[2] ترجل إجلالا ، وتقدم فعانقه . وركب معه السلطان يتبعهما الجيش حتى وصلا إلى القلعة[3] . وهنا تأدب

---

(١) السيوطى : تاريخ : الخلفاء ص ٣٠٩ .
(٢) شعار العباسيين هو السواد .
(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ القسم الأول ص ٦٣ . المقريزى : السلوك ج ١ ص ٤٤٩

السلطان الظاهر ولم يجلس على مرتبة ولا فوق كرسي [١] بحضرة الخليفة. وفي يوم الاثنين ١٣ رجب سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦٠ م) عقد الظاهر بيبرس مجلساً في قاعة الأعمدة بالقلعة دعا إليه القضاة والعلماء والأمراء وشيخ الإسلام عز الدين ابن عبد السلام وسائر أرباب الدولة، والعرب الذين قدموا إلى مصر مع أبي القاسم أحمد [٢]، وذلك لإثبات نسبه وتقرير بيعته، لأن الخلافة قد شغرت منذ مقتل المستعصم بالله، فسر السلطان باتصال أسبابها وتجديد أثوابها وإقامة منارها وإظهار شعارها، لتكون ثابتة الأساس متصلة في بني العباس، كما سبقت الوعود النبوية بأنها خالدة في هذه الذرية » [٣].

ولما انتظم عقد المجلس جلس بيبرس بين يدى الإمام أبي القاسم أحمد، واستدعى العربان الذين قدموا معه من بغداد، سُئلوا عنه في ذلك المجلس: هل هذا هو الإمام أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر محمد بن الناصر أحمد ؟ فأجابوا بنعم. وشهد جماعة بالاستفاضة عند القاضي تاج الدين بن الأعز بذلك ». فأقر ذلك أيضاً بعض الفقهاء والقضاة، فقبل قاضي القضاة شهاداتهم وحكم بصحة نسبه وبايعه بالخلافة. ثم قام بعد ذلك الملك الظاهر بيبرس وبايعه « على كتاب الله وسنة رسول الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذ الأموال بحقها، وصرفها في مستحقها » [٤]، وبايعه بعد السلطان شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، ثم الأمراء وكبار رجال الدولة ثم الناس على اختلاف طبقاتهم. وتلقب أبو القاسم أحمد بلقب « الخليفة المستنصر بالله » [٥].

---

(١) المقريزي : الخطط ج ٢ ص ٣٠١ .
(٢) ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار (مخطوط) ج ٦ القسم الثالث ص ٦٠٥
(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٩ .
(٤) المصدر السابق ورقة ٢٩ . المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٥٠ .
(٥) يعد المستنصر بالله الخليفة الثامن والثلاثين من خلفاء بني العباس وصار بينه وبين العباس أربعة وعشرون أبا . ولقب بالمستنصر لقب أخيه . ولم يتفق أن لقب خليفة بلقب أخيه سواه . المقريزي : السلوك ج ١ ص ٤٥١ .

ولما تمت البيعة قلد الخليفة المستنصر بالله السلطان الملك الظاهر « البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها ، وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار »[1] . وكتب السلطان إلى النواب والحكام فى سائر الولايات التابعة لمصر بأخذ البيعة للخليفة المستنصر بالله ، والدعاء له فى خطبة الجمعة على المنابر[2] ، والدعاء للسلطان من بعده ، وأن تنقش السكة باسمهما .

ثم دعاه السلطان ليخطب ويصلى بالناس صلاة الجمعة . فاجتمع القضاة والعلماء وسائر الأمراء ، وخطب الخليفة أبو القاسم أحمد خطبة أثنى فيها على فضل الملك الظاهر ، الذى رد الخلافة إلى بنى العباس ، استهلها بقراءة سورة الأنعام ، ثم صلى على النبى صلى الله عليه وسلم ، وترضى عن الصحابة ، وذكر شرف بنى العباس ، ودعا للملك الظاهر »[3] ، فامتدح الناس خطبة الخليفة ، وزادت عناية السلطان به .

وفى ٤ شعبان سنة ٦٥٩ ﻫ (١٢٦٠ م) ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وكبار رجال الدولة إلى خيمة أقيمت خارج القاهرة ، وهناك ألبس الخليفة السلطان الملك الظاهر بيبرس خلعة السلطنة . وعلى أثر ذلك ، عقد اجتماع تلا فيه فخر الدين بن لقمان ـ صاحب ديوان الإنشاء ـ تفويض الخليفة العباسى للملك الظاهر بيبرس ، وذلك تقوية لعرشه على أعدائه من أمراء المماليك ، وإثباتا لأحقية المماليك فى تولى شئون مصر ، وفى هذا التفويض اعتبر الخليفة نفسه حاكما على أراض لم تحكمها الدولة العباسية منذ قرون ، بل ادعى لنفسه السيادة الشرعية على العالم الإسلامى . ولما فرغ فخر الدين بن لقمان من قراءة هذا التفويض سار السلطان وعليه الخلعة يتقدم موكب السلطنة ، عائداً إلى القاهرة

(١) المقريزى : الخطط ج ٢ ص ٣٠١ .

(٢) كان أول من دعى له على المنابر مع الخليفة : عضد الدولة بن بويه فى خلافة الطائع بالله (٣٦٣ — ٣٨١ ﻫ و ٩٧٤ — ٩٩١ م) .

(٣) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠١ .

حتى وصل إلى باب النصر ، ثم سار فى طريق مفروش بالبسط يمتد من باب النصر إلى القلعة ، ومر بشوارع القاهرة الرئيسية ، وتقدم السلطان الموكب وتلاه الخليفة ، فالوزير الصاحب بهاء الدين بن حنا يحمل التقليد ، على رأسه وتبعهم الأمراء وسار الناس مشاة . وبعد أن خرج الموكب من باب زويلة ، سمح للأمراء بالركوب ، واستمر الموكب فى سيره حتى وصل إلى القلعة . وهناك جلس بيبرس على عرش ملكه . وهكذا تمت مراسيم اعتلاء بيبرس على عرش السلطنة المصرية بصفة رسمية تؤيدها الصفة الشرعية التى نالها من قبل الخليفة ، فأمن بذلك جانب أعدائه ومنافسيه فى الداخل والخارج . وازدهرت الخلافة العباسية فى مصر ، بعد أن قُضى عليها سنة ٦٥٦ هـ .

عزم السلطان بيبرس بعد ذلك على إعادة الخليفة إلى بغداد ، ولم يتضح تماما الغرض الذى كان يرمى إليه هذا السلطان من ذلك ، وكان بيبرس قد عزم على أن يرسل مع الخليفة عشرة آلاف فارس ويجهزه بالمال والسلاح لمعاونته فى إعادة الخلافة العباسية وإقامة نفسه خليفة فى بغداد ، وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق . غير أن أحد أمراء الموصل أسرّ إلى السلطان أن يعدل عن هذا الرأى وقال له : « إن الخليفة إذا استقر أمره ببغداد نازعك وأخرجك من مصر »[1] ، فخاف بيبرس عاقبة هذا الأمر ، ولم يجهز الخليفة إلا بثلثمائة فارس ، سار على رأسهم إلى بلدة الرحبة الواقعة على نهر الفرات ،حيث انضم إليه أربعمائة فارس من عرب العراق الذين لجأ إليهم عقب هربه من بغداد بعد مقتل الخليفة المستعصم ، وتقدم الخليفة إلى مشهد علىّ ، حيث التقى بأبى العباس أحمد يقود سبعمائة فارس من التركمان ، فاتفقا معا على إعادة الخلافة العباسية فى بغداد ، واتجها نحو الحَديثة الواقعة على نهر الفرات يريدان هيت حيث أحاطت بهم جنود التتار وهزموهم وقتلوا معظمهم ، ولم ينج

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٦٢ .

منهم سوى الأمير أبى العباس أحمد ونحو الخمسين فارسا [١] . أما الخليفة أبوالقاسم أحمد فلم يقفوا له على أثر . ولما علم بيبرس بمقتل الخليفة المستنصر بالله تأسف غاية الأسف ، لأن ما بذله فى سبيل إقامة خلافة عباسية فى القاهرة « قد راح فى البارد » ، على حد تعبير ابن إياس [٢] ، إذ أنه بقتل هذا الخليفة قد فقد الأمل فى استمرار قيام خلافة عباسية فى مصر ، تجعل سلطانه ، وسلطان خلفائه شرعيا .

وسرعان ما تبددت هموم بيبرس وسنحت له الفرصة بقيام الخلافة العباسية فى مصر فى شخص أبى العباس أحمد الذى كان قد بايعه قطز فى دمشق واستدعاه بيبرس عند جلوسه على العرش ، ولكن أبا قاسم أحمد كان قد سبقه إلى مصر . وأحضر السلطان أبا العباس أحمد راكبا إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل ، حيث أجلسه ، وجلس بجانبه ، وقرىء نسبه ولُقِّب بالحاكم بأمر الله أمير المؤمنين . ثم أمر السلطان بأن يخطب باسم الخليفة واسمه على منابر مصر وأعمالها [٣] ، وأن يقدم اسم الخليفة فى الدعاء يوم الجمعة على المنابر قبل اسمه ، ورتّب له ما يكفيه هو وأولاده [٤] . وفى يوم الجمعة ١٠ المحرم سنة ٦٦١ هـ (١٢٦٢ م) خطب الخليفة وصلى بالناس بالقلعة ، ثم ألقى خطبة ثانية . وفى الخطبتين ذكر الجهاد والإمامة ، وتعرض إلى ماحدث من زوال الخلافة العباسية وفَضْل الظاهر بيبرس فى إقامتها بعد زوالها ، وخاصة أنه رأى فى تلك الآونة ضرورة استمرار قيام الخلافة العباسية بمصر ، إذ أنه لم يفكر بعد مبايعة الحاكم بأمر الله فى إعادة الخلافة العباسية فى بغداد كما فعل مع سلفه المستنصر بالله .

قصر بيبرس سلطان هذا الخليفة على الأمور الدينية دون سواها وضيّق

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جـ ١ ص ٤٦٢ .

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور جـ ١ ص ١٠٢ .

(٣) خطب للحاكم بأمر الله فيما بعد على منابر دمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس .

(٤) ابن إياس : نفس المصدر والجزء ص ١٠٢ .

حدود سلطته حتى جعلها لا تتعدى ذكر اسمه فى الخطبة فى مصر والأقطار التابعة لها [١] . وقد شملت مدة خلافة الحاكم بأمر الله عهود السلاطين : بيبرس وابنيه بركة خان وسلامش ، وقلاوون وابنيه خليل والناصر محمد (فى عهد سلطنته الأولى) ، وكتبغا ولاجين والناصر محمد (فى عهد سلطنته الثانية) ، وظل فى الخلافة حتى توفى سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠١ م) . فكانت مدة خلافته أربعين سنة ، وهو أول من دفن بمصر من الخلفاء العباسيين ، وظل الخليفة الحاكم بأمر الله مقيما كالسجين بالبرج الكبير فى قلعة الجبل منذ سنة ٦٦١ ﻫ (١٢٦٢م) أى مدة ثلاثين سنة . وبقى لا يجتمع بأحد من أهل الدولة إلى أن أفرج عنه السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وأعاد إليه خطبة الجمعة ، وكان قد حرم حتى من القيام بهذا الواجب [٢] ، ثم عهد إليه بالدعوة إلى الحث على قتال التتار واستخلاص بلاد العراق من أيديهم [٣] . وفى عهد السلطان لاجين نقل الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٦٩٦ ﻫ من البرج الكبير بالقلعة إلى القصر المعروف باسم « مناظر الكبش » ، التى أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب حوالى سنة ٦٤٠ ﻫ على جبل يشكر بجوار جامع ابن طولون وأصبحت بعده فى المنازل الملوكية . وأذن له بالخروج من القصر للنزهة كيفما شاء ، كما سمح له بأن يخطب يوم الجمعة بجامع القلعة ، وسار يركب مع السلطان فى المواكب ، ثم أذن له بالذهاب إلى القلعة مرة فى كل شهر ليهنىء السلطان بحلول الشهر الجديد [٤] .

فى ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٠١ ﻫ (١٣٠١ م) أوصى الخليفة الحاكم بأمر الله ـ بحضور القضاة ـ بولاية العهد من بعده لابنه أبى الربيع سليمان . وتوفى

---

(١) وبذلك قلل بيبرس نفوذ الخليفة الحاكم بأمر الله ، مع أنه أمر بنقش اسم الخليفة المستنصر بالله على السكة .

(٢) المقريزى : السلوك ج ١ ص ٦٨٨ . السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٤٨ .

(٣) ابن أيبك : كنز الدرر ج ٨ القسم الثالث ص ١٤٧ .

(٤) ابن إياس : بدائع الزهور ج ١ ص ١٠٢ .

الحاكم بعد ذلك بيومين ، فاستشار السلطان الناصر قاضى القضاة تقى الدين ابن دقيق العيد فى أمر تولية سليمان الخلافة بعد أبيه فأفتى بصلاحيته . وعلى أثر ذلك استدعى السلطان أبا الربيع سليمان إلى القلعة وعقد مجلساً حضره القضاة والأمراء وبايع أبا ربيع بالخلافة ولقبه المستكفى بالله ، وأمره بأن يقيم فى قصر الكبش وبأن يمنح ما كان مقرراً لوالده الحاكم من الرواتب[1] ، كما حدد له اختصاصاته على نحو ما كان متبعاً فى أيام أبيه . وأقام الخليفة المستكفى بالله بمناظر الكبش حتى نقل إلى القلعة فى ٢٣ ذى القعدة سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٠ م) حيث أقام أبوه الحاكم من قبل ، ولكن الناصر حد بعد ذلك من حريته وأمر برحيله إلى مدينة قوص فى أواخر سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م)[2] وقيل فى سنة ٣٣٨ هـ (١٣٣٧ م)[3] ، فوصل إليها هو وأولاده وسائر أفراد أسرته الذين بلغ عددهم نحو مائة نفس . وفى هذا منتهى الدلالة على أن الخليفة العباسى فى مصر كان خاضعاً لأهواء السلطان من رضاء وغضب ، وتوفى الخليفة بمدينة قوص .

بموت المستكفى بالله ، اعتلى عرش الخلافة ، الخليفة إبراهيم الذى ينتهى نسبه إلى الخليفة الحاكم بأمر الله ثانى خلفاء العباسيين فى مصر ولقبه الواثق ، وفى عهده اضمحل شأن الخلافة وانحطت قيمتها مما كانت عليه . فقد اتصف الخليفة الجديد بسوء التدبير وانصرف إلى اللهو واللعب ومخالطة السفلة من الناس ، وكان يستدين المال دون أن يرده إلى صاحبه .[4] وحرم الواثق حتى

---

(١) كانت هذه الرواتب عبارة عن خمسمائة دينار فى الشهر وثمانى أرادب قمح وثلاثة أرادب شعير . وفى كل يوم أربع جرايات خبز وعشرين رطلا من اللحم ، عدا الكسوة Zetterstéen: تاريخ سلاطين المماليك ص ٧٠١ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٢ .

(٣) Zetterstéen : تاريخ سلاطين المماليك ص ١٩٤ .

(٤) حكم فى بغداد فى نهاية العصر العباسى الأول: الخليفة الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ = ٧٤٢ — ٧٤٧ م) بن المعتصم . ولذا فإن السيوطى (تاريخ الخلفاء ص ٣٢٥ =

ذكر اسمه فى الخطبة لأن السلطان الناصر اتفق هو وقاضى القضاة على أن يقتصر الأمر على اسم السلطان ، وبذلك « رحل بموت المستكفى اسم الخلافة عن المنابر كأنه ماعلا ذروتها وخلا الدعاء للخلفاء من المحاريب كأنه ما قرع بابها ومروتها »[1] . ولما دنا أجل السلطان الناصر أوصى بتحويل الخلافة إلى أحمد ابن الخليفة المستكفى بالله وندم على تولية الواثق بالله إبراهيم . ولما ولى السلطنة أبو بكر بن الناصر ، أقر وصية أبيه .

ولم يعهد الخليفة أحمد بن المستكفى بالله بالخلافة لأحد بعد موته ، فأمر الأمير شيخو ، وكان يومئذ أتابك العساكر وصاحب السلطة الفعلية فى الدولة فى عهد السلطان الصالح صلاح الدين صالح (٧٥٢ – ٧٥٣ هـ) – أن يجتمع القضاة والأمراء والأعيان المشاورة فيمن يلى الخلافة . فوقع اختيارهم على أخى الخليفة أحمد المتوفى واسمه أبو بكر ، فبايعوه سنة ٧٥٣ هـ ، ولقب المعتضد بالله ، وكنى أبا الفتح ، وضم إلى اختصاصاته نظر المشهد النفيسى[2] وكان المعتضد بالله « عارفا ، مهابا ، واسع الفكرة ، محبا لأهل الخير والعلم » . وقد ظل خليفة على مصر حتى توفى سنة ٧٦٣ هـ (١٣٦١ م) .

وتولى الخلافة من بعده ابنه أبى عبد الله محمد الذى تلقب « المتوكل على الله » . وقد حدث لهذا الخليفة حادث يعد الأول من نوعه فى تاريخ الخلافة العباسية فى مصر ، إذ عرض عليه أمراء مصر أن يضم إلى خلافته عرش

= قد أتى بمقارنة لطيفة بين الخليفتين العباسيين فى بغداد والقاهرة اللذين كان يطلق عليهما هذا الاسم . ومنها نتبين أن هذا المؤرخ قد نزل بالواثق العباسى فى مصر إلى الحضيض : يقول السيوطى : « أين هوصاحب هذا الاسم الذى طالما سرى رعبه فى القلوب وأعيت هيبته مضاجع الجنوب ، وهيهات لا تعد من النسر التماثيل ولا الناموسة وإن طال خرطومها كالفيل ، وإنما سوق الزمان قد ينفق ما كسد والهر يحكى انتفاخا صورة الأسد » .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٢٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٥٨ .

السلطنة ، ذلك أنه فى سنة ٧٧٨ هـ (١٣٧٦ م) سافر السلطان الأشرف شعبان لحج بيت الله الحرام ومعه الخليفة المتوكل والقضاة والأمراء . وفى الطريق اتحد الأمراء ضد الأشرف وأرادوا الغدر به ، ولكنه عاد خلسة إلى القاهرة ، فلم يتمكن الأمراء من تنفيذ ما اعتزموه من قتله . وعلى أثر هربه استقر رأى الأمراء على عرض السلطنة على الخليفة المتوكل على الله ، وقالوا له يا أمير المؤمنين « تسلطن ونحن بين يديك » . فامتنع الخليفة من قبول السلطنة ، وقام الأمراء بذلك العرض دون أن يكونوا قد علموا بوصول المنصور علىّ إلى العرش [1] . وعلى الرغم من أن هذا الحادث قد عد غريباً فإن وقوعه لم يكن مستبعداً ، لما اتصف به هذا الخليفة من جميل الصفات وحميد الخلال . وظل المتوكل على الله فى منصب الخلافة إلى أن قُتل الأشرف شعبان ، وأقيم بعده المنصور علىّ . ونظر الصغر سن ذلك السلطان ، كان أينبك البدرى هو المهيمن على شئون الدولة على نحو ما كان متبعاً فى عصر السلاطين الأطفال .

وكان هذا الأمير يحقد على المتوكل موقفه من خلع الأشرف شعبان وقتله وما كان من عرض السلطنة عليه من طريق بعض الأمراء ، فبعث إلى عباسى آخر اسمه زكريا وأقامه خليفة سنة ٧٧٩ هـ بغير مبايعة ولا إجماع ولقبه « بالمستعصم بالله » [2] وأمر بنفى الخليفة المتوكل إلى قوص ليبقى بها بقية حياته [3] كما فعل الناصر محمد مع الخليفة المستكفى بالله . ولكن شفع فى الخليفة بعض الأمراء لدى أينبك . فلم يرحل إلى قوص ، بل اكتفى بخلعه و بقى مقيما فى داره بالقاهرة ، ثم عاود الأمراء كلامهم مع أينبك فى أمر عودة الخليفة المتوكل إلى منصبه ، فعاد إليه وعُزل زكريا . و بذلك كانت مدة خلافة زكريا خمسة

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة (طبعة كاليفورنيا) جـ ٥ الفصل الأول ص ٢٣٣ . السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٥٩ .

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٣٣٤ .

عشر يوما ، أو على حد تعبير ابن إياس : « مثل سِنة من النوم أو يوم أو بعض يوم »[1] . ولكن المتوكل مالبث أن عزل على يد برقوق مؤسس دولة المماليك البرجية سنة ٧٨٥ هـ وحبسه بقلعة الجبل ، وعقد البيعة للإمام أبى حفص عمر الواثق بالله ، فظل خليفة إلى أن توفى فى ١٧ شوال سنة ٧٨٨ هـ ، وعيّن برقوق مكانه أخا محمد زكريا الذى ولى الخلافة مدة يسيرة فبويع ولقب « المستعصم بالله» ، واستمر فى منصبه إلى ٢ جمادى الأولى سنة ٧٩١ هـ ، وإذ ذاك ندم برقوق على مافعل بالمتوكل وأخرجه من حبسه وأعاده إلى كرسى الخلافة وخلع زكريا . واستمر المتوكل فى الخلافة إلى أن مات سنة ٨٠٨ هـ فكانت مدة خلافته خمسة وأربعين سنة ، بما تخللها من خلع وحبس .

* * *

واستمرت الخلافة العباسية بمصر ، إلى أن فتحها العثمانيون على يد السلطان سليم الأول سنة ١٥١٧ م . وقد قيل إن السلطان سليم أخذ معه الخليفة المتوكل ، آخر خلفاء العباسيين بمصر ، إلى القسطنطينية . ونزل له هذا عن الخلافة ، وسلمه شاراتها ، أى مخلفات الرسول وهى : البردة التى كان يلبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وبعض من شعر لحية النبى صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب .

وقد أسهب المؤرخون المعاصرون فى ذكر ما آل إليه أمر الخليفة المتوكل بعد فتح مصر ، إلا أننا لا نقف من ثنايا هذه المعلومات على أية إشارة تتضمن انتقال لقب الخلافة إلى سليم ، حتى بعد أن رحل الخليفة العباسى إلى القسطنطينية. والأدلة على ذلك :

---

(١) بدائع الزهور ج ١ ص ٢٤١ .

١ — أنه لم يرد عن « الخليفة » أية إشارة أو ذكر فى ذلك الكتاب الطويل الذى بعث به السلطان سليم إلى ابنه سليمان ، والذى وصف فيه مدى انتصاراته التى انتهت بفتح مصر ، وأظهر سروره لفتحه الحجاز والمدينتين المقدستين : مكة والمدينة ، مما جعل له الحق فى تسمية نفسه « خادم الحرمين » ، ذلك اللقب الذى كان يتلقب به سلطان مصر من المماليك لا الخليفة العباسى من القاهرة

٢ — أن سليم ورد إسمه فى الخطبة التى أقيمت له فى مساجد القاهرة ، فى اليوم الذى أحرز فيه النصر الأعظم — وهو ٢٣ يناير سنة ١٥١٧ م — مصحوبا بلقب « سلطان » . وكان هذا اللقب وحده هو الذى تكرر فى هذه الخطبة .

٣ — أن السلطان سليم لم ينقش على السكة التى ضربت باسمه لقباً آخر من الألقاب غير لقب السلطان ، كما كانت الحال بالنسبة إلى من جاء قبله أو بعده من السلاطين . على أن أحداً من العثمانيين لم يلقب نفسه على العملة بلقب خليفة أو إمام أو أمير المؤمنين .

٤ — أن سليمان لم يذكر فى مراسلاته مع أبيه سليم لقب الخلافة ، ولا أى لقب آخر يتصل به ، كما لا نجد فى رسائله إلى كبار الموظفين بعد اعتلائه العرش ، أن أباه كان خليفة بالمعنى الإسلامى القديم ، وإنما أشار إليه باعتباره سلطانا فحسب ، فيقول : السلطان ، الخاقان ، خادم البحرين وغيرها من الألقاب .

٥ — أن السلطان وجد أن لقب الخلافة قد أصبح شائع الاستعمال مبتذلا وأن هذا اللقب كان يطلق فى ذلك العصر على صغار الأمراء ، حتى لم يعد له شىء من مظاهر التقديس والاحترام ، التى كانت له فى العصور الوسطى . وكان يعلم أن منافسه الذى كان يضمر له الكراهة والبغضاء — وهو الشاه اسماعيل الصفوى —

قد عين أحد الخصيان أميرا على بغداد بعد استيلائه عليها سنة ١٥٠٨ م ، وأسند إليه منصب الخلافة ولقبه « خليفة الخلفاء » .

٦ — أن السلطان سليم وأسلافه كانوا يتمتعون منذ زمن طويل بمثل ما كان للخلفاء من نفوذ وسلطان ، فرأى فى أخذه التنازل من الخليفة المتوكل العباسى أمرا لا معنى له ، حتى لا يكون عالة على شخص ليس له نفوذ كالخليفة العباسى فى القاهرة ، الذى فقدت الخلافة القديمة مع أسرته كل ما كان لها من هيبة ونفوذ ، وذلك على أثر ما أصاب الخلافة من الانحطاط فى غضون قرنين ونصف قرن من الزمان ، خضعوا فيها لأهواء المماليك وتقلباتهم .

وقد حذا متأخرو السلاطين العثمانيين حذو من سبقهم من السلاطين ، فلم يحفلوا بألقاب « الخليفة » و « الإمام » و « أمير المؤمنين » ، حتى أننا لا نرى ذكراً لها فى المكاتبات الرسمية ولم نلاحظ أن سلاطين العثمانيين تلقبوا بلقب الخلفاء ، إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى ، إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة بشكل جديد فى معاملاتهم الدولية مع المسحيين . وكان ذلك لأغراض سياسية ، غايتها أن يكون لهم شيء من النفوذ الدينى على العالم الإسلامى ، الذى كان كثير منه تحت سلطان الدول المسيحية . فنى معاهدة « كجوق كينارجى » ، التى أبرمت بين السلطان عبد الحميد الأول وكترين الثانية قيصرة روسيا سنة ١٧٧٤ م ، اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة .

وإن اتخاذ سلاطين العثمانيين لقب الخلافة بالمعنى القديم - الذى يُقصد به السيطرة على كافة المسلمين - لم يظهره إلا فى القرن التاسع عشر ، وذلك فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى . فقد ظهر هذا اللقب بصفة رسمية فى دستور مدحت باشا الصادر فى ديسمبر سنة ١٧٨٦ م ، حيث تنص الفقرة الثالثة منه على أن السلطنة العثمانية العظمى ، التى آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى ، سوف

تؤول إلى أكبر أبناء البيت المالك . وتنص الفقرة الرابعة على أن حضرة صاحب العظمة السلطان ، بصفته خليفة المسلمين ، قد أصبح حامى الدين الإسلامى . ولكن من المؤكد أن سلطة الخليفة العثمانى على العالم الإسلامى كانت ضعيفة ، إذ زالت فعلا و بقيت إسما .

وقد سار البيت العثمانى على نظام التوريث فى الخلافة ، فكان من المقرر أن يرث الخليفة أكبر أفراد أسرة آل عثمان سنا . ولهذه الطريقة معايبها : فكثيرا ما كان ولى العهد يتعجل موت الخليفة ، فيرتكب جرما بقتله . وكثيرا ما كان الخلفاء منهم يتخلصون من إخوتهم وذوى قرباهم الأقربين ، إما خوفا منهم ، و إما لفتح طريق العرش أمام أبنائهم ، مما أدى إلى ارتكاب الجرائم و إراقة الدماء ومخالفة الشريعة .

وقد بقيت الخلافة العثمانية ضعيفة الجانب إلى أن زالت ، نهائيا فى سنة ١٩٢٤ م ، إذ رأى الأتراك أن بقاء الخليفة قد يثير حوله حركات رجعية ، وأن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى الإسلام لا يتفق ونظام الخلافة ، فألغوا الخلافة فى ٢ مارس سنة ١٩٢٤ م ، على يد « مصطفى أتاتورك » رئيس الجمهورية التركية السابق . ومنذ ذلك الحين لم يُجمع المسلمون أمرهم على شىء بهذه الخصوص ، وأصبحوا اليوم بلا خليفة أو خلافة .

الباب الخامس

نظم الحكم والحياة الاجتماعية

فى الجاهلية — فى الدولة العربية — فى الدولة العباسية

نظم الحكم[1] هى مجموعات القوانين والمبادىء والتقاليد التى تقوم عليها الحياة فى الدولة ، فمنها : النظم السياسية ، والإدارية ، والقضائية ، والحربية ، والمالية .

ويقصد بالنظام السياسى : الخلافة من حيث كونها نظاما للحكم ، ومن حيث نشأتها وارتقاؤها وضعفها . أما النظام الإدارى . فيقصد به إدارة الأقاليم من حيث بيان مدى سلطة الولاة فى ولاياتهم ودواوين الدولة وموظفيها ، والبريد ، والحجابة ، والكتابة ، والوزارة وعلاقتها بالهيئة العليا الحاكمة . ونعنى بالنظام الحربى : الجيش والأسطول وما بلغه كل منهما من عظمة وسؤدد ، والآلات الحربية المستعملة وأثرها فى القتال . أما النظام القضائى : فيبحث فى القضاء والحسبة التى تعتبر وسطا بين القضاء والمظالم . ويقصد بالنظام المالى : موارد بيت المال ومصارفه ، ونظام الضرائب وطرق جبايتها .

أما الحياة الاجتماعية : فهى بيان طوائف السكان ومكانة المرأة ، والملابس والطعام والشراب ، والأعياد والمواسم والمواكب ، ومظاهر الفخامة التى تحيط بكل منها ، والرياضة والألعاب والغناء والموسيقى .

---

(١) للمؤلف ، بالإشتراك مع الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن ، كتاب النظم الإسلامية (٣٨٤ صفحة) . ولمن يريد الاستزادة من موضوع « نظم الحكم » الرجوع إليه .

أولا — عند العرب قبل الإسلام

١ — نظم الحكم

حكومة القبيلة :

لم يكن فى بلاد العرب قبل الإسلام حكومة جامعة ، يخضع لها سُكان البلاد جميعا ، بل كانت هناك حكومات متعددة ، هى حكومات القبائل . والقبيلة أسرة كبيرة تفرعت منها عدة فروع ، تسمى البطون والأفخاذ والعشائر ، وكان رئيس حكومة القبيلة أحد أشياخها ، ويراعى فى اختياره أن يكون من ذوى السن والتجربة والشجاعة وسداد الرأى والبلاء فى خدمة القبيلة وأن يكون جوادا يطعم الفقراء من ماله وخاصة فى الأزمات . ومن هذا نرى أن شيخ القبيلة كانت تراعى فى اختياره عدة اعتبارات أدبية ، تجعل الحكم فى متناول أى إنسان يتحلى بأحسن الصفات فى المجتمع العربى . ويُسهل اختياره على هذا النحو أن القبيلة كانت بمثابة أسرة كبيرة ، يرتبط بعضها مع بعض برابطة النسب والدم فى الغالب ، وأنها كانت تجتمع كلها فى صعيد واحد فى أكثر الأحوال .

وكانت حكومة القبيلة ديموقراطية ، وسلطة شيخها سلطة أبوية مشوبة بالعطف والحدب . وكان يجمع من حين إلى آخر رؤساء العشائر ، وهم الذين كان يتألف منهم شبه مجلس شيوخ القبيلة للتشاور والفصل فى الأمور المهمة كإعلان الحرب أو إقرار السلم أو التى تخص نظام القبيلة . وبذلك قامت عند العرب فكرة الشورى قبل الإسلام .

ولم يكن للقبيلة قانون مكتوب تسير عليه ، بل كانت تحكم حسب « العُرف » وهو مجموعة العادات والتقاليد التى اصطلح عليها القوم من قديم

الزمان . ولم تتدخل القبيلة فى حربة أفرادها ، إلا إذا وقع من أحدهم ما يخشى منه على سلامة القبيلة . وفى كل ذلك تختلف القبيلة عن الدولة الحديثة .

ولم يكن عند العرب فى الجاهلية سلطة تشريعية تسن لهم القوانين ، بل سادت عندهم العادات والتقاليد التى كان شيخ القبيلة يحكم بين أفرادها وَفق هذه العادات والتقاليد التى كانت تستمد إما من تجاربهم أو معتقداتهم أو ممن جاورهم من الأمم من الفرس والروم أو ممن اختطلوا بهم كاليهود والمسيحيين .

نظام القضاء:

وكان للعرب فى الجاهلية ثلاثة أنواع من القضاء :

١ — الحكومة : وكان بنو سَهْم أصحاب الحكومة فى قريش قبل الإسلام . وكانت هذه الحكومة شيئا يشبه القضاء ، إذ كان القرشيون وغيرهم ممن يفد على مكة من العرب ، يحتكمون إلى زعماء بنى سهم فيما يقع بينهم من الخصومات . وممن تولى القضاء بين العرب فى الجاهلية : هاشم بن عبد مناف وأبو لهب بن عبد المطلب وأكثم بن صيفى .

٢ — الاحتكام : وهو احتكام العرب إلى الكُهّان والعرّافين . والكاهن هو الرجل الذى يعتقد أن له تابعا من الجنّ يطلعه على كل شىء . والعراف هو الذى يعرف الأمور عن طريق الفراسة والقرائن ، وذلك بملاحظة نبرات صوت الشخص وملامحه وحركاته عند التكلم . كذلك يحتكمون بالقرعة التى أقرّها الإسلام كما كانوا يعتمدون فى إثبات الواقعة على شهادة الشهود .

٣ — النظر فى المظالم : كذلك أدخل العرب فى الجاهلية النظام الذى عُرف

فى الإسلام باسم « النظرف المظالم » . ويظهر أنهم اتخذوه عن الفرس ، وذلك على أثر الخلاف الذى وقع بين العاص بن وائل ورجل من زبيدة ببلاد اليمن ، اشترى منه العاص سلعة وماطله فى الدفع . فلما عيل صبر الرجل جاهر بظلامته حول الكعبة بين رجال قريش . فاجتمعت قريش بدار عبد الله بن جدعان ، وتحالفوا على أن ينصروا المظلوم من الظالم ، فسمى هذا الحلف «حلف الفضول» ، وقد شهده النبى عليه الصلاة والسلام .

سلطان شيوخ العشائر :

كان تقسيم العرب إلى قبائل ، نتيجة من نتائج البداوة التى عمت أرجاء الجزيرة العربية ، حيث كانت بعض العادات تقوم مقام القانون (١) .

كان كل بطن من العرب يجتمع حول رئيس ، تستند سلطته أولا على حق البكرية ، وكان هذا الرئيس يحمل لقب «شيخ» أو « سيد » وفى بعض الأحيان كان يتلقب « بالأمير » ، وكان هو الذى يقود جماعته فى الحرب وهو الذى ينزلهم منازلهم ، ويرحلهم عنها ، ولا ينزلون ولا يرحلون إلا بأمره . ولم يكن لرئيس العشيرة ولا لشيوخها وهم رؤساء بيوتها أى سلطان أو قوة حقيقية ، بل كان سلطانهم معنويا مستمداً من شجاعتهم وهيبتهم الشخصية وما لهم من شرف النسب ونبل الأخلاق وسعة الثروة وحكمة الرأى وكمال التجربة .

ولم يعمد شيوخ العشيرة إلى فرض أوامرهم أو إنزال العقوبات برجالها ، إذ كان كل منهم ولى نفسه وسيدها ، وله الحق فى أن يقتص ممن يناله بسوء (٢) وكانت سلطة شيخ القبيلة محدودة للغاية حتى أنه لم يكن فى مأمن من الثأر أو فى

---

(١) Sedillot : Histoire Generale bes Arabes, Vol. I. p. 20.

(٢) Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 83.

حمى من مبدأ القصاص الفطرى أو الدية[1] . ومن العجب أن نجد شيخ القبيلة لا يجد من القوة المادية ما يستطيع به إنفاذ حكمه إذا ما احتكم إليه[2] . وكان الشيخ لا يستطيع أن يجبر أحداً ـ حتى أبناءه ـ على قبول حكمه أو نصيحته ، بل كان يستعين بفتيان[3] الحى ومشيخة العشيرة .

من ذلك يتبين لنا أن سلطان شيوخ العشائر فى القبائل العربية إنما كان سلطاناً معنوياً فقط ، لأن السلطة الحقيقية كانت لا تزال بيد العشيرة ، جملة وموزعة بين أفرادها . وبذلك يمكن القول أن مشيخة العشيرة كانت فى الواقع طرازاً من الحكم الديموقراطى بالمعنى القديم[4] ، حيث كان شيخ القبيلة ينصب لرأى باقى الشيوخ قبل الفصل فى الأمور الهامة[5] .

وكان الرئيس فى الجاهلية يفصل فى الأمور التى تمس حياتها : كالقتل ، والغزو والدية ، وطلب الثأر . كما يقضى فى مسائل الزواج ، والطلاق ، والنزاع على الماء والكلأ .

وكان لشيخ العشيرة عدة حقوق هامة أخرى ، مثل : المرباع[6] ، والصفايا[7] ،

---

(١) Sédillo : Histoire Generale des Arabes, Vol. I. P. 21.

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ٣ ص ١٩ — ٢٠ ، جـ ٢ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٣) يراد « بفتيان الحى » أو « فتيان القبيلة » : شبانها الأبطال ، فيقولون فتيان قريش وفتيان تميم

(٤) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٧٧ .

(٥) Sedillot : Op. Cit. P. 21.

(٦) المرباع : ربع الغنيمة التى يستولى عليها الجيش .

(٧) الصفايا : جمع صفية ، وهى الأشياء التى كان يصطفيها الرئيس لنفسه من خيار ما يغنم.

والنشيطة(١) ، والفضول(٢) ، والنقيمة(٣) والحكم(٤) . قال الشاعر :

ملك المرباع منها والصفايا وحكمك والنشيطة والفضول

واجبات رؤساء العشائر :

وفرضت على رؤساء العشائر فى الجاهلية واجبات من أهمها : إيواء الغريب وحماية الحمى ، والذود عن النساء ، وإجارة المجير ، وكان يحسب الرجل منهم أن يستجير بقبر أب الرجل أو قبر ابنه حتى يظفر من صاحبه بحق الجوار . قال عمير بن سُلمى :

قتلنا أخانا للوفاء بجارنا وكان أبونا قد تجير مقابره(٥) .

وكانت العرب فى الجاهلية « تمتدح بالذب عن الجار فيقولون : فلان منيع الجار حامى الذمار ، حتى كان فيهم من يحمى الجراد إذا نزل فى جواره »(٦) . وكان عميد العشيرة يضطر أحيانا إلى مجازاة أحد أفرادها لخصال لا تقره عليها نظم العشيرة وآدابها ، فيخلعه عن ذمته ويقطع صلته به(٧) . فكانت العشائر إذا ما خلعت رجلا من رجالها ، أشهدت على ذلك فى الأسواق والمجتمعات العامة ، وبذلك لاتحمل عنه جريرة ولا تطالب له بقصاص ولاتحميه من عدوان ، فكانت كمن يحكم عليه بالإعدام .

(١) النشيطة : ماأصابه الجيش فى طريقه قبل أن يصل إلى مقصده .

(٢) الفضول : ما فضل ، فلم ينقسم ، واصطفى النبى صلى الله عليه وسلم سيف منبه بن الحجاج ذا الفقار يوم بدر .

(٣) النقيمة : كان للرئيس فى الجاهلية ، النقيمة . وهى بعير ينحره قبل القسمة ، فيطعمه الناس وقد سقط فى الإسلام .

(٤) الحكم : هوأن يبارز الفارس فارسا قبل التقاء الجيش فيقتله ويأخذ سلبه ، فالحكم فيه إلى الرئيس

(٥) المبرد : الكامل فى اللغة والأدب ص ١١٠ — ٢١١ .

(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ١٥٩ (نشر احمد أمين) .

(٧) على عبد الواحد وافى : الأسرة والمجتمع ص ١١ .

كذلك كانت العشيرة إذا أجارت رجلا ، فعلت ذلك علانية ، وكانت أحيانا تعطيه براءة بذلك ، فكانت تدفع إليه سهما كتب عليه « فلان جار فلان » كما كان يفعل بنو غنم بن عوف بن الخزرج فى المدينة[١] وكما كان يفعل أيضا بنو حنيفة بالسواقط[٢] .

وقد كان للرجل أن يرد الجوار إذا شاء . فقد ذكر ابن هشام أن عثمان ابن مظعون لما رأى ما فيه أصحاب رسول الله من البلاء وهو يغدو ويروح فى أمان من الوليد بن المغيرة ، عز عليه ذلك ، وقال للوليد يا أبا عبد شمس ! وفت ذمتك وقد رددت جوارك ، قال ، فانطلق إلى المسجد ، فرد علىّ جوارى علانية كما أجرتك علانية »[٣] .

وإذا لم يجد الخليع[٤] من يجيره من رؤساء العشائر أو عمداء الأسر ، راح يجمع حوله عصابة من شذاذ القفر الخارجين عن نطاق قبائلهم من أولئك «الصعاليك» و «اللصوص» و «الذؤبان» الذين خلعتهم قبائلهم «رسميا» ، فتبرأت من جرائرهم وتخلصت من تبعة أعمالهم[٥] ، حتى يتمكن الخليع من أن يغير على الأحياء الهادئة ويلقى الرعب فى أنحاء الجزيرة بما يقوم به من أعمال العنف والبطش .

وكانت واجبات رؤساء العشائر متعددة وعلى جانب عظيم من الأهمية ، فقد كان عليهم فى وقت الحرب أن يضحوا بما تملكه أيديهم فى خدمة القبيلة ، وإغاثة المعوزين من أفرادها ، والمحافظة على وحدة القبيلة التى كثيرا ما عرضتها المصالح الشخصية لأعظم الأخطار[٦] .

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ١٥١ .

(٢) السواقط : من ورد اليمامة من غير أهلها .

(٣) ابن هشام : السيرة ص ٢٤٣ .

(٤) يتصف الخليع بالجرأة والبطش .

(٥) Lammens : La Berceau de l'Islam, Vol. I. PP 193—194.

(٦) Breckelmann : History of the Islamic Peoples, P. 15.

٢ — الحالة الاقتصادية

التجارة فى جزيرة العرب :

تقع جزيرة العرب فى موقع متوسط بين أعظم الدول وأقدم الحضارات : ففى شمالها الشرقى تقع فارس ، وفى شمالها الغربى بلاد الروم ، وفى جنوبها الغربى بلاد الحبشة . فلموقع بلاد العرب المتوسط بين هذه الأمم الفضل فى اتساع تجارتها ، كما كان من ناحية أخرى السبب فى تطلع الفاتحين لغزوها والاستيلاء عليها . وكانت بلاد العرب ضروزية للفاتحين الذين يرغبون فى امتلاك شواطىء الفرات ، وعلى ذلك طمع فيها قديما ملوك الفرس وبابل ونينوى ومصر .

وقد مارس سكان الجزيرة العربية التجارة ، يساعدهم على ذلك : موقع بلادهم بين أمم اشتهرت بالتجارة منذ زمن بعيد ، وكثرة الطرق التجارية التى تخترق جزيرتهم من الجنوب إلى الشمال ومن الشرق إلى الغرب[١] . وكان العرب واسطة بين سكان أوربا القدماء وأهل الشرق الأقصى . ولم تقتصر تجارة العرب على منتجات بلادهم ، بل كانت تشمل السلع التى كانوا يجلبونها من إفريقية والهند ، وكانت النفائس كالعاج والعطور والأفاوية والحجارة الكريمة والتبر والأرقاء هى أهم ما يتاجر به العرب[٢] .

وكانت حركة التجارة فى المحيط الهند بين سواحل الجزيرة الشرقية والهند

---

(١) Sepillot : Histoire Générale des Arabes, Vol. I. P. 26

(٢) Gustave, Le Bon : La Civilisation des Arabes, P. 89.

منظمة منذ زمن بعيد ، وتحمل السفن التوابل والمنتجات الموسمية والحيوانات النادرة من الهند إلى ساحل عمان[١] .

واستعان العرب بالفينيقيين زمنا طويلا لبيع سلعهم ، فكان الفينيقيون يخزنون سلع العرب فى مدنهم الكبيرة كمدينة صور ، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها . وتنافس العرب والبابليون فى الاتجار مع الهند . فكان البابليون يصلون إلى الهند بطريق البر أو بطريق البحر ، أما العرب فكان اتصالهم الوحيد بهذا القطر الغنى عن طريق البحر فقط . ولدينا من النصوص التاريخية ما يثبت أن العرب قد خرجوا بتجارتهم عن نطاق الجزيرة العربية وتعاملوا مع غيرهم من الأمم جاء فى كتاب الأوائل أن عمر بن الخطاب قال : خرجت فى جماعة من قريش إلى العراق فى تجارة ، فلما دنون من الأرياف خرج قوم فقطعوا علينا الطريق[٢] .

بذلك لم تقتصر تجارة العرب على جزيرتهم فقط و إنما تعدتها إلى غيرها من البلاد ، فإن منتجات الجزيرة متعددة ، وهى ضئيلة فى الشمال ، ولكن فى المناطق الخصبة منها ، الكثير من الأشجار والمزروعات كالمشمس والتين والعنب والقمح والدخن والفول والابن والألبان[٣] . وكانت المواصلات التجارية فى جزيرة العرب عديدة ، إلا أن أهمها طريقان . أحدهما يبدأ من حضرموت ويتجه إلى عمان حيث كانت تنقل بضائع اليمن والهند إلى العراق ثم يتجه الطريق غربا إلى البادية الواقعة فى شمال جزيرة العرب وينتهى به المطاف فى سوريا العليا ، وثانيهما يبدأ من حضرموت ويسير مخترقا الجزيرة العربية من الجنوب إلى الشمال حتى ينتهى عند غزة المطلة على البحر الأبيض .

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, b. 24.

(٢) العسكرى : الأوائل (مخطوط) من ١٨ — ١٩ .

(٣) Le Bon, Gustave : La Civilisation des Arabes, P. 6.

وكانت مكة مدينة تجارية من الطراز الأول ، وذلك على الرغم من وقوعها فى واد غير ذى زرع ومن تعرضها للفح السموم ، لأن مكانها من الحرم كان يجلب إليها عدداً من شذاذ الفقر الخارجين عن نطاق قبائلهم ومن بينهم الخلعاء والفتاك والصعاليك فينفقون أموالهم التى لم يبذلوا الجهد فى تحصيلها فى حوانيت مكة المكتظة بالبضائع . وأنشأ القرشيون قوة عسكرية من بدو تهامة للمحافظة على جمهوريتهم التجارية .

وشغلت دول العرب القديمة ، مثل تدمر ومعين وسبأ ، المراكز الممتازة فى تجارة الشرق ، حتى ذكرتهم التوراه ووصفت ثروتهم وتجارتهم . وحمل أهل تدمر إلى مصر وجنوب أوربا منذ القـــدم صادرات بلاد العرب والعراق والهند ، وأطنبت المصادر التاريخية فى موقع تدمر العظيم على البحر الأحمر واعتبرتها مركزاً تجاريا هاما[1] . وكانت مملـكة معين من القوة والغنى ما يفوق مملـكة سبأ التى اشتهر أمرها فى التاريخ . أما سبأ فلم يكن غناها وتجارتها محل شك ، وذكرت التوارة أن مملـكة سبأ « قدمت إلى سليمان مائة وعشرين قنطاراً ذهبا وأطياباً كثيرة وحجار كريمة ، كما كانت قوافلها العديدة التى ذهبت إلى سليمان تحمل هدايا ملـكة سبأ إلى عاهل أورشليم العظيم[2] . ولقد حل أهل حمير محل السبئيين واستولوا على مفاتيح التجارة فى الجزيرة العربية ، واستخدموا عرب الحجاز فى نقل تجارتهم إلى أن تخلص أهل الحجاز منهم وصاروا هم نقلة التجارة فى الجزيرة قبل البعثة .

أما القوافل التى تحمل تجارة العرب ، فقد كان طريقها مقرراً : فنى هذه المراحل الفسيحة من الصحراء الرملية مما كان رجال القوافل يجتازون ، حبت الطبيعة المسافر بضعة أماكن مبعثرة فى جدب البادية يتخذها موئلا لراحته ، وهناك فى ظلال أشجار النخيل وإلى جانب المياه العذبة التى تجرى من حولها ،

(١) J . Hell : The Arab Civilisation, P. 4.

(٢) J. Hell : Op. Cit.

يستطيع التاجر ودابة حمله أن ينهلا من طيبها ما أحوجهما إليه العنت الذى لقياه [1] . وكانت القوافل التى تذهب من بلاد العرب إلى الشام ، تنزل فى أسواق معروفة ، عينتها لهم الحكومة الرومانية لتحصل منهم الضرائب المفروضة على الصادرات [2] .

وقد مارس اليهود تجارة القوافل بنشاط ، حتى أصبحت يثرب تنافس مكة ثراء ، فقد كانت التجارة بنوع خاص من أهم مرافق الحياة عند يهود الحجاز ، حتى صار لبعضهم فيها شهرة عظيمة وصيت بعيد ، كأبى رافع الخيبرى الذى أرسل بضاعته بواسطة القوافل إلى الشام واستورد منها الأقمشة المختلفة [3] .

وكانت مفاتيح التجارة فى أيدى اليمنيين ، وعلى أيديهم كانت تنقل غلات حضرموت وظفار ومنتجات الهند إلى شمال الجزيرة العربية ، حيث كانت تنقل إلى بلاد أوربا الجنوبية . وظل اليمنيون قابضين على ناصية التجارة حتى القرن السادس الميلادى ، عندما قام الرومانيون بمنافستهم فى البحر الأحمر ، وأدت هذه المنافسة التجارية إلى سقوط سبأ على ما يقول بعض المؤرخين . على أن أهل الحجاز قد قاموا بعد السبئيين بنقل تجارة الجزيرة إلى غيرها من الممالك [4] ، ونشأت فى مكة نفسها سوق خاصة لبيع العبيد الذين كانوا يجلبون من الحبشة واليمن وآسيا الصغرى ، وظلت السوق قائمة فى مكة إلى عهد قريب ، فقد شاهده إلدن رتر ، أحد الرحالة الأوربيين الذين زاروا جزيرة العرب [5] . وبذلك صار المكيون — ومدينتهم مكة الواقعة على الخط التجارى الكبير الممتد من جنوب الجزيرة إلى شمالها — هم وحدهم المسيطرون على شئون التجارة .

---

(١) محمد حسين هيكل : حياة محمد ص ٣٣ .

(٢) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١٦ .

(٣) ولفنسون : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ص ١٨ :

(٤) Hell : The Arab Civilisation P, 11.

(٥) E. Rutter : Holy Cities of Arabia, P. 134.

واستفادت قريش من اشتغالها بالتجارة فوائد معنوية وأدبية : فإن كثرة أسفار القرشيين إلى الشام والحبشة ومصر وغيرها ومخالطتهم لأقوام مختلفين مثل الفرس والروم من ذوى المدنيات القديمة ، قد ساعدتهم على معرفة أحوال هذه الأمم الاجتماعية والأدبية ،[١] كما وقفوا على العلاقات بين فارس والروم وبين اليمن والحبشة ، وألموا بالحساب التجارى ، وكل مايتعلق بالمكاييل والمقاييس[٢].

ومما يدل على توسع العرب فى المسائل الاقتصادية ، كثرة الألفاظ الدالة على المال ، فإن منها بضعة وعشرين اسما لكل منها معنى من المعانى الاقتصادية التى ترجع إلى الاستثمار وغيره . فالتلاد المال الموروث ، والركاز المال المدفون ، والتالد المال القديم[٣]. ويقول صاحب أسواق العرب : «ولنا أن نستأنس بشىء له خطره فى الدلالة على ما شغلت التجارة من حياة العرب وأفكارهم واهتمامهم ، وذلك هو اللغة والأشعار والأمثال ، فإنها تكشف لنا إلى حد بعيد عما كان عليه القوم من عادات وأحوال . وأول ما نلاحظ فى هذا الباب ، غنى اللغة بالألفاظ التى تتعلق بالأسفار وما عليها من حط وترحال ونزول على الماء ووصف لدواب السفر وضروب سيرها . ولسنا مبالغين إذا قلنا أن أكثر القصائد فى الجاهلية والإسلام يفتتحها صاحبها بذكر رحلته وما لاقى فيها هو وراحلته من التعب والشقاء والضيق والعطش والجوع ، عدا ما هناك من ألفاظ كثيرة تتعلق بالبيع والشراء والصفقة الرابحة والخاسرة . ولما كانت الخلافة ، لم يجد العرب لفظا يدلون به على بذل الطاعة للخليفة غير المبايعة ، فاشتقوا لهذه الحال المستجدة كلة من كلمات التجارة التى كانت الشغل الشاغل لهم »[٤]

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ص ٧٨ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : نفس المصدر ص ٨٠ .
(٣) جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ٣١ .
(٤) سعيد الأفغانى : أسواق العرب ص ٢٧ — ٢٨ .

ومن ذلك نرى مدى اهتمام العرب فى الجاهلية بالتجارة ، ومبلغ حبهم لجمع المال واستثماره بشتى الوسائل . يقول الله تعالى (وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما) .

معاملات العرب التجارية :

تعامل العرب فى الجاهليـة بالنقود الكسروية والرومية من الدراهم[1] والدنانير[2] ، وبقى هذا حالهم إلى عهد الخليفة عمر بن الخطاب الدرهم وجعل وزنه من الفضة أربعة عشر قيراطا[3] ثم ضرب دراهم أخرى جعل وزن الواحد منها إثنى عشر قيراطا وكان يضربها على صورة الدراهم الكسروية ويزيد فى بعضها عبارات إسلامية مثل عبارة التوحيد أو عبارة الجدلة .

ووجد فى الجاهلية دراهم مختلفة : طبرية ، وخوارزمية ، وبغلية . فالطبرية منسوبة إلى بلدة طبرية ،والبغلية منسوبة إلى ملك يقال له رأس البغل . وكانت زنة الدرهم الطبرى ثمانية دوانيق[4] وقيل أربعة ، وزنة الخوارزمى أربعة دوانيق ونصف ، وزنة البغلى أربعة دوانيق وقيل ثمانية . وكان الدرهم الطبرى والدرهم البغلى ، هو غالب ما يتعامل به من أنواع الدرهم فى صدر الإسلام[5] .

---

(١) الدرهم : مأخوذ من Drachme اليونانى وكان معروفا فى الجاهلية مقدرا بالدوانيق .

(٢) الدينار : لفظ لاتينى مأخوذ من كلمة Deni أى عشرة ، والأصل فيه الدلالة على قطعة من الفضة تساوى عشرة آسات ، والآس درهم من دراهم الروم . جرجى زيدان : تاريخ التمدن الإسلامى ج ١ ص ٩٧ .

(٣) القيراط : تعريب اللفظ اليونانى Keration (أنستاس الكرملى : النقود العربية ص ٢٨ حاشية ١) وهو نصف الدانق . إيلياً المطران : مقاله فى المكاييل والأوزان ص ٣ مخطط بدار الكتب المصرية رقم ٣٤١ رياضيات بالمكتبة التيمورية) .

(٤) الدانق ، من الفارسية : دانة ، أى حبة . ويقول ابن الرفعة . أن الدنق من حبات الشعير الموصوف ثمان حبات وخمسا حبه (الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص٨) .

(٥) ابن الرفعة . الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص ٨ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣١٢ رياضيات بالمكتبة التيمورية) .

وكان العرب فى الجاهلية يتعاملون بالمثاقيل[١] ، ويتبايعون بأوزان كان أول ماعمل منها هو صنج المثاقيل[٢] ، فجعل المثقال ستين حبة ووزن كل حبة منها مائة حبة من حبوب الخردل البرى المعتدل[٣] الذى يعد ضبط الأوزان به أحسن من ضبطها بحب الشعير لقلة التفاوت فيه[٤] . أما أوزان الدراهم فإنها رتبت على أن كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم ، وكل درهم ستون حبة ، وبذلك أصبحت كل حبة من حبوب الخردل[٥] . وأما المكيال ، فقد كان المألوف منه فى عصر النبي عليه السلام : المد والصاع والعرق والفرق . والمد زنته رطل وثلث بالبغدادى[٦] ، والصاع أربعة أمداد فيكون خمسة أرطال وثلث البغدادى ، والعرَق ستون مدا — خمسة عشر صاعا ، والفرَق ستة عشر رطلا بغداديا . وأما الأردب فلم يعرفه العرب فى جاهليتهم وإنما هو من مكاييل مصر ، يستدل على ذلك بما أخرجه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال الرسول : منعت العراق درهمها وقفيزها ، ومنعت مصر أردبها ودينارها ، وعدتم من حيث بدأتم »[٧] .

وألف العرب فى جاهليتهم أنظمة متعددة من نظم البيع والشراء ، وظلت بعض هذه الأنظمة إلى قبيل الإسلام . ولما جاء الرسول عليه السلام نهى عن

---

(١) المثقال : هو درهم ودانق ونصف وهو أربعة وعشرون قيراطا وهو خمس وثمانون حبة . الشيرزى : نهاية الرتبة فى طلب الحسبة ص ١٦ . وهو أقدم وحدة للوزن عند العرب ، ويقال له Solidius عند الرومان . ولم يختلف المثقال فى جاهلية أو إسلام .

(٢) المقريزى : شذور العقود فى ذكر النقود ص ٣ .

(٣) إيليا المطران : مقالة فى المكاييل والأوزان ص ٢ .

(٤) ابن الرفعة : الإيضاح والتبيان ص ٧ — ٨ .

(٥) إيليا المطران : نفس المصدر ص ٣ .

(٦) اختلفت النقلة فى الرطل البغدادى : فقيل إنه مائة وثمانية وعشرون درهما ، وقيل مائة وثمانية وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم ، وقيل مائة وثلاثون درهما .

(٧) ابن الرفعة : الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان ص ٩ — ١٤ .

بعضها لأنه رأى فيها غبنا للبائع أو المبتاع ، ولم تكن هذه النظم تتخذ فى جميع الأسواق بل منها ما تمتاز به سوق دون سوق وجماعة دون جماعة .

الأسواق .

لم يتفق مؤرخو العرب على عدد الأسواق وتحديد أزمنتها . وقد كان لما حدث فى هذه الأسواق من وقائع وأحداث ، أثر ملحوظ فى التاريخ العام للجزيرة العربية ، واهتم هؤلاء المؤرخون بالأسواق العامة ولم يأبهوا بالأسواق الضئيلة التى كانت تقام فى القرى ، بل إن عدم الإفاضة فى بحث أمر الأسواق العامة الكبرى ، فلم يذكروا عنها إلا شذرات مبعثرة .

وقد قسم صاحب « كتاب الأسواق » هذه الأسواق التى كانت تقام فى الجاهلية إلى ثلاثة أقسام : أسواق خاضعة لنفوذ أجنبى تدار بنظم خاصة وتتضاءل فيها الصبغة العربية ، وأسواق أنشأها العرب أنفسهم بحكم الحاجة ، فصارت مع الزمن تمثلهم أصدق تمثيل فى عاداتهم فى البيع والشراء والدين والزواج والحقوق ، وأسواق ذات صبغة مختلفة لموقعها الجغرافى وهى الواقعة على البحر[1] .

أما أسواق القسم الأول فتمثلها سوق هجر والبحرين وعمان . وتمثل أسواق القسم الثانى سوق عكاظ الذى يعتبر مرآة العرب فى الجاهلية حيث لا أثر فيه للنفوذ الأجنبى الذى سيطر على غيره من الأسواق ، وتقع عكاظ فى الجنوب الشرقى من مكة على بعد عشرة أميال من الطائف وتمثل أسواق القسم الثالث : عدن وصحار ودبى . ومن أشهر الأسواق العربية الأخرى : سوق دومة الجندل[2] ، وسوق المشقر[3] ، وسوق حباشة[4] .

---

(١) سعيد الأفغانى : أسواق العرب ص ١٨١ — ١٨٢ .

(٢) تقع دومة الجندل فى موقع متوسط بين الشام والخليج الفارسى والمدينة على منتصف الطريق الواصل بين العقبة والبصرة تقريبا .

(٣) المشقر : حصن بالبحرين لعبد القيس ، وهو قريب من هجر .

(٤) حباشة : سوق كانت للعرب فى تهامة .

٣ – الحياة الاجتماعية

أفراد القبيلة :

وكان أفراد القبيلة يعملون كجماعة واحدة يرحلون سويا ويقاتلون سويا ، وإذا ارتكب أحدهم جناية حملتها قبيلته ، وإذا غنم غنيمة فهي للقبيلة ينصرون أخاهم ظالما أو مظلوما وهم يد على من سواهم .

لا يسألون أخاهم حين يناديهم   في النائبات على ما قال برهانا[1] .

وكان البدو يحتقرون الزراعة والتجارة والصناعة والملاحة ، ولذا اكتفوا بما تنتجه ماشيتهم : يأكلون لحومها ، ويشربون ألبانها ، ويلبسون أصوافها ، وإذا اشتد بهم الضيق أكلوا الضب والعقارب والحيات .

ولم يكن البدوي يؤمن إلا بتقليد قبيلته التي كان يعتز بها ويفخر ، وتعد وطنيته بذلك وطنية قبلية لا وطنية شعبية . وهذا الشعور بارتباطه بقبيلة يحميها وتحميه ، هو المسمى بالعصبية ، وفي ذلك يقول المستشرق بروكلمان : « البدوي كائن فردي النزعة مفرط الأنانية ، ومع ذلك فالجميع متساوون ضمن إطار القبيلة في الحقوق والواجبات التي تنبثق عن العصبية القبلية »[2] .

مكانة المرأة في الجاهلية :

قد يكون في ندرة الأخبار عن المرأة في العصور السابقة للإسلام ، بعض الدلالة على ما خسرته المرأة العربية من مزية الظهور في ميدان الحياة العامة .

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ص ١١ .

(٢) Brockelmann : History of the Islamic Peoples, P. 4.

وقد يكون تغير الأحوال الاجتماعية الناشيء عن الاتصال بالأمم والممالك المجاورة سبباً فى حرمان المرأة العربية النفوذ والمزايا التى تمتعت بها أختها فى العصر القديم. ولا يعنى ذلك أنها أصبحت فى تلك الحقبة عديمة النفوذ ، فقد كانت تمثل دور الزوجة الصالحة والأم الطيبة ، وظهرت أشد ماتكون قوة وأكثر ما تكون حرية.

وكان احترام الرجال للنساء وبطولتهم من أجلهن قوياً . وقد انعكست صورة من الأغانى والقصص والتاريخ . ولم يقتصر ظهورها فى الشعر عند الشعراء الغزليين ، على أنها موضوع للغزل ، يتغنون بها فى شعر عاطفى رقيق ، بل تعدى ذلك إلى جعلها حكما بين الشعراء . فقد روى الأصفهانى أن امرأ القيس بعدأن قتل أبوه نزل على بنى طيء وتزوج واحدة من نسائهم تعرف باسم «أم جندب» وكان امرؤ القيس معاصراً للشاعر المشهور علقمة بن عبدة ، فتنازعا إمارة الشعر ، ولم يعترف أحدهما بصاحبه . واقترح علقمة أن تكون أم جندب حكما بينهما ، ورضى امرؤ القيس بذلك ، فدعتهما أم جندب لينظم كل منهما قصيدة من وزن واحد وقافية واحدة ، يصفان بها الجياد . ولما فرغا من عمل القصيدتين ،حكمت أم جندب لعلقمة على زوجها امرىء القيس ، فغضب وطلقها فتزوجت علقمة[1].

كان حرص المرأة العربية على شرفها واعتدادها بكرامتها فى الجاهلية ، من الأمور التى استفاضت بها المصادر التى عنيت بحوادث ذلك العصر . ذكر صاحب الأغانى أن فاطمة بنت الخرشب كانت إحدى ثلاث عرفن «بالمنجبات» وكان لها سبعة أبناء . ثلاثة يسمون « الكملة » وهم ربيع وعمارة وأنس . وفى ذات يوم ، أغار حمل بن الفزارى على قبيلة بنى عبس التى تنتمى إليها فاطمة ، وأسرها . فلما ابتعد بها عن الحى وأهله ، صاحت به . أى رجل ضل حلمك ، والله لئن أخذتنى فصارت هذه الأكمة التى أمامنا بى وبك ، لا يكون بينك

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ٧ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

و بين بنى زياد صلح أبداً ، لأن الناس يقولون فى هذه الحال ما شاءوا ، وحسبك من شر سماعه . قال : إنى ذاهب بك حتى ترعى إبلى . ولما أيقنت أنه ذاهب بها، رمت بنفسها من البعير على رأسها، فماتت خوف أن يحلق بينها عار منها[1] .

وقد ظهرت فى الجاهلية طبقة من النساء ، كان لهن شأن عظيم ، من بينهن الكاهنة والعرافة وربة البيت والمتنبئات[2] ، وفى مكة نفسها ، كان مفتاح الكعبة بيد امرأة هى بنت خليل الخزاعى استودعته مدة طويلة حتى تنازلت عن ملكيته لقصى[3] وفى زمن الفتح كان المفتاح فى حوزة أم عثمان بن طلحة ، ولقد مانعت كثيراً فى إعطائه للنبى صلى الله عليه وسلم[4] .

ولم يكن النساء يتأخرن عن مرافقة الرجال إلى الحرب . هذا الفند الزمانى البطل المشهور يدخل حرب بكر وتغلب و إلى جانبيه ابنتاه « شيطانتان من شياطين الإنس . . حتى إذا احتدمت المعركة تقدمت إحداها فخلعت ثيابها ورمتها وسط المعمعة »[5] ، فتقتدى بها أختها وتتقدم بين الصفوف ، لتبث فى رجال قبيلتها الشجاعة والإقدام ، وفى هذه الحرب ، قام عوف بن مالك البكريين ، ورفع ابنته على جمل وسيره ، ثم ضرب عرقوبى الجمل ونادى . لا يمر بى رجل من بكر بن وائل فرّ من القتال ، إلا ضربته بسيفى هذا[6] .

وقد يتبادر إلى الذهن أن النساء فى العصر الجاهلى لم يكن يحفلن بملابسهن ، لحالة البداوة التى كن يعشن فيها ولكثرة الحروب الطاحنة التى كانت تنشب بين

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٦ ص ٢٢ .

(٢) ابن هشام : سيرة الرسول ص ١٣٢ و ٧٩٧ .

Perron : Femmes Arabes, avant et depuis L'Islamisme, P. 166.

(٣) الأزرقى : أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار ص ٦٢ .

(٤) صحيح مسلم جـ ١ ص ٥٠٩ وجـ ٣ ص ٥٨٧ .

(٥) Perron : Femmes Arabes, P, 50.

(٦) الأصفهانى : نفس المصدر جـ ٣٠ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

كل قبيلة وأخرى وتستمر أعواما طويلة ، مما يؤدى بطبيعة الحال إلى إهمال شأن المرأة . ولكن المرأة العربية فى هذا العصر ارتدت ضروباً من الثياب مختلفة أشكالها وفنونها ، مما أخرجته مناسج اليمن والعراق والشام وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند . والآثار الشعرية واللغوية مفعمة بذكر ما كان النساء يتخذنه من الملابس التى تزيد فى حسنهن .

ولم يقتصر لبس المرأة فى الجاهلية على الملابس القطنية والصوفية ، بل لقد اتشحت بالحرير والديباج والدمقس والسندس والاستبرق والخز . قال اليشكرى .

الكاعب الحسناء ترفـ ـل فى الدمقس وفى الحرير

ومن أزيائها مارق نسجه ودق خيطه وكانت تسميه المهلل ، أما ما كثف حوكه فكانت تدعوه « الصفيق » و « الحصيف »[1] . وما حيك نسجه بخيوط من الذهب كانت تسميه « المذهب » . وفيه يقول سلمى بن ربيعة :

والبيض يرفلن كالدمى فى الريط والمذهب والمصون

وقد أولعت النساء بالحلل الشفافة والثياب المطرزة بالذهب والمزينة بأنواع النقوش . أما ما تضمه المرأة على جسدها : فالدرع وهو قميص المرأة الكبير والجول قميص المرأة الصغيرة وهما قميصان لا أكمام لهما[2] . وكان للمرأة العربية ثوب تسميه النطاق تشده إلى وسطها وترخى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل ، ومن فوقه البت يحيط بجسمها ويستر جزءاً من وجهها ورأسها ، ويغلب على هذا الثوب أن يكون أخضر اللون رقيقاً . أما أبهج وأغلى ما لبسته النساء فى هذا العصر فهو الحبرة وهى برد موشى من برود اليمن ، وقد أكثر الشعراء

---

(١) عبد الله عفيفى : المرأة العربية فى جاهليتها جـ ١ ص ٢٢٥ — ١٣٢ .

(٢) Dosy : Dictionnaire des Noms des Vetements, P. 133.

من الكلام عن المرط[1] ، ووصفوا لنا النساء وهن يمشين فيها ، فمن ذلك قول امرىء القيس فى معلقته :

خرجت بها أمشى تجر وراءنا على إثرنا ذيل مرط مرحل

وقد فطنت المرأة الجاهلية إلى ما تسميه أختها المتحضرة « المريلة » تصون بها غالى ثيابها عند مزاولة عملها وكانت تسميها « الميدع » .

أقدمـــة قدام نفسى وأتقى به الموت إن الصوف للخز ميدع

على أن هنالك ثوبا خاصا يسمى « الإزار » وهى ملاءة واسعة تغطى بها المرأة . وقد فسر علماء اللغة كلمة « الإزار » بأنه « كل ما يستر »[2] . ومن الإزياء التى انتشرت عند نساء الجاهلية زى « جر الذيل » وهو إرسال ذيول الأزياء النفيسة فى الأعياد والمـآدب ، وأول من اخترع هذا الزى هى هاجر امرأة ابراهيم عليه السلام[3] . ومما يدل على شيوعه ، وصف عنترة العبسى « عبلة » وقد خرجت تجر وراءها ثوبها الحريرى .

وتظل عبلة فى الخزور تجرها وأظل فى حلق الحديد المبهم

وقد تشبه الرجال بالنساء فى الزى وكانوا يفتخرون بإرسال ذيول أزرهم و يرون أنه من علامات السيادة والقوة . ولما بعث النبى ، حارب هذه البدعة فى الرجال وقال « من جر ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة » ، فقال له أبو بكر « يارسول الله إن أحدى شقى إزارى ليسترخى ، إلا أن أتعاهد ذلك منه » ، فقال له النبى « لست ممن يضمه خيلاء »[4] .

---

(١) المرط : ملاءة ذات شقتين مصنوعة من الحرير .
(٢) ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ص ٧٥ .
(٣) ابن الجوزى : الأذكياء ص ١٠ .
(٤) أبو عبيد الله البكرى : سمط اللآلىء ج ١ ص ١٦٤ — ١٦٥ .

أما حرص النساء على التحلى ، فقد بدا فى اتخاذهن الجواهر النفيسة ، حتى كن جميعاً حاليات إلا من نكبها الدهر فى عزيز لديها . فقد تحلين : « بالإكليل » وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحيط به جبينها ، والقرط وهو ما علق فى أسفل الأذن ، والشنف وهو ما علق فى أعلاها ، واتخذن للمعصم سواراً وللساعد جبرة ، وللعضد دملجا ، ولبسن الخاتم وهو ما له فص ، والفتخ وهو ما لا فص له وذلك فى أصابع أيديهن وأرجلهن[1] .

واشتركت المرأة فى المسائل السياسية فى ذلك العصر ، فقد عارضت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان ، النبى والدين الجديد ، واشتركت فى غزوة أحد التى بين قريش والمسلمين ، وعمدت خلالها إلى إيذاء المدافعين عن الإسلام لأنها وزوجها أبا سفيان وابنها يزيد وأخاه معاوية لم يسلموا إلا يوم فتح مكة ، وفى هذه الواقعة مثل نساء قريش بقتلى المسلمين ، وفاقتهن هند زوجة أبى سفيان ، إذ أنها بقرت بطن حمزة بن عبد المطلب عم الرسول عليه السلام بعد أن قتل وأخذت قطعة من كبده فلاكتها فلما لم تسغها لفظتها ، وكان ذلك تشفياً وانتقاما من المسلمين[2] . على أن الباحثة نابية أبوت تقول إنه من الصعب أن يصدق الإنسان أن هند بنت عتبة — وهى السيدة الشريفة بمكة — قد ذهبت فى الانتقام المروى عنها مذهب البرابرة الغلاظ الأكباد ، وذهب ميور إلى أن مؤرخى السيرة قد بالغوا فى تصوير هند بهذه الصورة ، أما الأب لامنس فذكر أن حادثة تمثيلها بحمزة لم تكن إلا من مخترعات العباسيين ويعزز ذلك ما ذكره ابن سعد صاحب الطبقات من أن تلك حملات قاسية على هند المسكينة[3] .

وهكذا ظفرت المرأة العربية فى الجاهلية بمكانة سامية جديرة بها فى المجتمع

---

(١) الدكتور على ابراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ١٢٥ .

(٢) على ابرهيم حسن . نفس المصدر ص ٥٦ .

(٣) نابية أبوت : المرأة والدولة فى فجر الإسلام ص ٢٢ .

القبلى حتى أن نيكلسون ذهب إلى أن الإسلام لم يرفع منزلة المرأة وإنما مستواها الأدبى فى الحضارة إلى حد عظيم[١].

زواج الجاهلية :

الزواج رباط اجتماعى وعقد بين طرفين يترتب عليه حقوق وواجبات تختلف باختلاف الشعوب . وعرف عند العرب فى الجاهلية : زواج المشاركة وزواج الأسر ، وزواج المبادلة أو الشغار ، والزواج بالميراث ، وزواج المتعة ، كما عرف نظام تعدد الزوجات .

ويقوم زواج المشاركة : حين يشترك عدة إخوة فى الزواج بامرأة واحدة ، أو حين تقترن المرأة بعدد عديد من الرجال لا تجمعهم صلة القرابة . ويُعرف النوع الأول باسم زواج المشاركة الأخوى ، والنوع الثانى باسم زواج المشاركة غير الأخوى[٢] . وقد أخذت بعض قبائل العرب فى الجاهلية بزواج المشاركة حتى ظهور الإسلام ، ولكن لم يكن يصح أن يزيد عدد الرجال عن عشرة[٣] ، وربما كان هذا النوع من الزواج مقصوراً على بعض القبائل ممن كانوا يمارسون وأد البنات فى جزيرة العرب أو ممن كانت لهم ظروف اقتصادية خاصة ، وهذه العادة قد تكون دخيلة على العرب إما من إفريقية أو عن طريق الفرس زمن حكمهم بلاد العرب[٤] .

ووجد نوع آخر من الزواج عند عرب الجاهلية هو زواج الأسر ، وكان أسر النساء من العادات الشائعة إذ ذاك ، وكان الرجل العربى يخشى أن تتعرض

---

(١) Nicholson : Literary History of the Arabs, P. 90.

(٢) Smith, R : Kinship and Marriage in Arabia, P. 158.

(٣) على عبد الواحد واف : الأسرة والمجتمع ص ٧٩ .

(٤) محمد محمود جمعه : النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب ص ٢٧ .

نساء للسبى ، وقد أطلق على المرأة المأخوذة إسم « النزيعة » أى التى انتزعت من أهلها كرها ، وتعتبر ملكا خاصا لسيدها إن شاء تزوجها أو زوجها أو باعها بيع العبيد ، وقد ترجع عادة زواج الأسر إلى كراهية الزواج من الأهل وذوى القربى مخافة أن ينتج ذلك نسلا ضعيف الجسم والعقل . يقول الشاعر :

تجاوزت بنت العم وهى حبيبة   مخافة أن يضوى على سليلى

وكان الزواج بالأسر مرغوبا لأنه زواج لامهر له ولأن العرب كانوا يعتقدون أن أبناء السبايا من خيرة الفتيان ، وظل معمولا به إلى ظهور الإسلام ، ولم يكن معناه إذلال المرأة كما قد يتبادر إلى الذهن :

ما زادها فينا السباء مذلة   ولا كلفت خبزاً ولاطبخت قدراً

ولكنا خلطناها بخير نسائنا   فجاءت بهم بيضاء وجوههم زهرا

أما زواج المبادلة فكان قائما على أساس أن يزوج الرجل ابنته أو أخته على أن يزوجه هو الآخر ابنته أو أخته وكان يحدث عادة إذا تعذر على الرجل أن يتزوج بامرأة من قبيلته أو قبيلة خارجية لأسباب اقتصادية كارتفاع مهرها أم نحو ذلك ، ولا يتم هذا النوع من الزواج عادة إلا بين الأسر المتساوية فى الحسب والنسب[1] ويعرف ذلك الزواج أيضا باسم « زواج الشغار » ، بدليل ما كان يقوله الرجل للرجل فى الجاهلية : شاغرنى ، يقصد زوجنى أختك أو ابنتك أو من تلى أمرها حتى أزوجك أختى أو من ألى أمرها ولا يكون بيننا مهر .

وكانت الفتاة عند عرب الجاهلية تعطي لمن يقدر ثمناً عالياً ، وعدوا من الشرف ألا تعطى المرأة إلا للكفء ، حتى قال قيس بن زهير : إن لم تجدوا

---

(١) على عبد الواحد وافى : الأسرة والمجتمع ص ٣٥ .

الأكفاء لبناتكم ، فخير أزواجهن القبور[1] . وكان المهر هو ثمن الشراء ، ولذلك عرف هذا الزواج باسم « الزواج بالشراء » . ويدل هذا النوع على السيادة المطلقة إذ فيه تفقد المرأة حقها فى الطلاق وتهجر قبيلتها وتتبع زوجها إلى داره وقبيلته ، ولذا اقترح بعض المؤرخين أن يطلق عليه اسم « زواج السيادة »[2] . على أن هذا الزواج القائم على المهر أو الشراء ظل شائعا فى الجاهلية إلى قبيل ظهور الإسلام ، فأبدل بالصداق وهو الهبة التى تعطى للمرأة نفسها ، بخلاف المهر فكان هو المال الذى يعطى لوالد المرأة أو أهلها عوضا لهم عن ذهابهم إلى عشيرة زوجها .

أما « الزواج بالميراث » فكان يحدث حيث كان الرجل يرث أرملة أخيه بعد موته أو يرثها أقرب الرجال إلى زوجها[3] . وقد نجمت عادة الزواج بالميراث لتصور الزواج كعقد بين الجماعات لا بين الأفراد ، و بذلك فإن العقد متى انفصمت عروته بموت الزوج وجب على أهل المتوفى البحث لأرملته عن زوج غيره من عشيرة زوجها السابق . وكان العامل الأساسى فى هذا النوع من الزواج هو الاحتفاظ بالثروة داخل الأسرة والعشيرة ولضمان استقرار الأسرة والمحافظة على أموال الأسلاف فى داخلها[4] .

وعرف فى الجاهلية « زواج المتعة » وهو أن يتزوج الرجل المرأة إلى أجل مسمى ، على ألا ميراث بينهما و يعطيها ما اتفقا عليه ، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل . وقد فسخ الإسلام هذا النوع من الزواج[5] .

ونشأ فى الجاهلية ، نظام « تعدد الزوجات » وساعد على زيادة النسل وحل مشكلة العقم الذى قد ينشأ فى حالة الزواج الفردى ، وقد يرجع وجود

---

(١) محمد محمود جمعة : النظم الاجتماعية والسياسية ص ٤٤ .

(٢) Smith : Kinship and Marriage in Early Arabia, P. 75.

(٣) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن جـ ٥ ص ٩٤ .

(٤) محمد محمود جمعة : نفس المصدر ص ٦٠ ــ ٦٢ .

(٥) القرطبى : نفس المصدر والجزء ص ١٣٢ .

هذا النظام إلى كثرة الحروب التى استعر لظاها بين القبائل العربية إذ ذاك ، وذهبت بالعدد الكبير من الرجال مما أخل بالتوازن بين عدد الذكور والإناث فى القبيلة الواحدة وجعل الكثرة العددية فى جانب الإناث . وعلى الرغم من أن وجود هذا النظام لم يكن دليلا على انحطاط المرأة فكثيراً ما كانت الزوجة فى ذلك العصر تشترط على زوجها أن لا يقترن بغيرها . ولما جاء الإسلام تقبل هذه الحياة الزوجية ولكنه جعلها متكافئة مع مبادئه ووضع لها بعض القيود التى تجعلها صيغة للغاية (١) .

وأد البنات فى الجاهلية :

عادة وأد البنات عند العرب فى الجاهلية ، من أشد وأشنع عاداتهم الاجتماعية المستهجنة . وهى أن يعمد الرجل إلى وليدته وقد بدأت تستقبل الوجود ، فيقذفها فى حفرة من الأرض ويهيل التراب على جسمها ثم يدعها فى غمرة الموت بين طيات الأرض .

ولم تكن عادة وأد البنات متبعة عند جميع العرب فى الجاهلية بل كانت مقصورة على بعض قبائل من ربيعة وكنده وطىء وتميم . وكان الزوج يحفر بجوار الموضع الذى اختير لولادة الأم حفرة عميقة ، فإذا ظهر أن المولود أنثى ، قذف بها خية بعد ولادتها وهيل عليها التراب . وكان بعضهم يلجأ إلى وأد بناته فى أمكنة خاصة بعيدة عن المنازل ، وأشهر مكان كان يجرى فيه الوأد هو جبل أبى دلامة . ولقد تنبه الإصلاح إلى بشاعة هذا العمل ، فنهض كثير من ساداتهم إلى محاربته والتخفيف من آثاره ، بما بذلوا من مال جم وسعى حميد ، وكان من هؤلاء صعصعة جد الفرزدق ، فقد كان يشترى البنات ويفديهن من القتل (٢) وكذلك زيد بن عمر بن نفيل (٣) .

---

(١) محمد محمود جمعه . النظم السياسية والاجتماعية ص ٧٤ .
(٢) الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ٢ ص ٩٦ .
(٣) عبد الله عفيفى : المرأة العربية فى جاهليتها ص ٥٠ .

واختلف الباحثون فى العوامل التى حملت هذه العشائر على اتباع هذا النظام وانقسموا إلى فريقين : فريق يعلله بالفقر ، وآخر يتلمس أسبابه فيما جبل عليه العربى من شدة حرصه على صيانة عرضه . فقد قيل إن عادة وأد البنات أحياء فى الجاهلية ، ترجع إلى المجاعات الكثيرة التى كثيراً ماتصيب بلاد العرب نظراً لقلة سقوط الأمطار و إلى محافظة موهومة على الشرف ، إذ كانوا يخشون أن يجلبن لهم العار إذا سبين فى حرب[1] . كما أن حياة الشظف التى كانت تعانيها الدهماء من العرب بسبب جدب أرضهم وضآلة دخلهم ، هى السبب الذى اضطرت من أجله هذه القبائل إلى وأد البنات .

على أنه من الثابت أن نظام الوأد لم يكن معمولا به فى الطبقات الفقيرة وحدها ، بل كان عاما عند الفقراء والأغنياء فى العشائر التى أخذت به . وحدّث التاريخ عن بعض من وأدوا بناتهم فى العصر الجاهلى ، وذكر من بينهم عدداً من علية القوم ومنهم عمر بن الخطاب نفسه . هذا إلى أن قصر الوأد فى العشائر السالفة الذكر على البنات دون البنين ، دليلا على أن الدافع إليه شىء آخر غير الفقر . إذ لو كان الفقر هو الدافع إليه للحق جميع الأولاد بدون تمييز بين الذكور والإناث . ولم يرد مطلقاً ذكر للفقر فى أى آية من الآيات الكريمة التى نزلت فى وأد البنات . أما الآيات التى ورد فيها قتل الأولاد مقرونة بخشية الإملاق والتى يزعم أصحاب هذا المذهب أنها تؤيد وجهة نظرهم ، فهى لا تتحدث عن النظام الذى نحن بصدده ، بل تتحدث عن نظام آخر كان متبعاً عند بعض عشائر العرب ، وهو قتل الأولاد على الإطلاق بدون تمييز بين ذكورهم و إناثهم تحت تأثير الفقر وعدم القدرة على تربيتهم[2] .

---

(١) Nicholson : Literary Hstrery of the Arabs, P. 09.

(٢) على عبد الواحد وافى : وأد البنات عند العرب فى الجاهلية — عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه . بحث مستخرج من مجلة الرسالة ، العدد ٤٠٠ ، ٣ مارس ١٩٤١ .

وقيل إن نظام الوأد يرجع إلى المحافظة على الشرف بصيانة الأعراض واتقاء مايحتمل أن يصيب الفتاة من مكروه . ويروى أنصار هذا المذهب قصة يدعون أن حوادثها كانت السبب الأول فى توجيه المشائر العربية هذا الاتجاه . فهم يرون أن عظيما من عظماء العرب يدعى قيس بن عاصم قد سبيت ابنته فى غارة شنتها عشيرة معادية على عشيرته ، ثم عقد بين العشيرتين صلح كان من شروطه أن ترد السبايا فى مقابل فدية مالية . غير أن ابنة قيس آثرت البقاء عند من وقعت فى يده ، ولم تقبل الرجوع إلى أبيها وعشيرتها . فآلى أبوها على نفسه ليئدن كل بنت تولد له ، وسارت عشيرته على سنته ، واقتدى بها بعض المشائر الأخرى . على أن هذه القصة تبدو عليها علامات الاختلاق وأمارات الأساطير : فإن قيساً هذا قد شهد الإسلام ومات حوالى السنة العاشرة بعد الهجرة ، فلا يعقل أن يكون هو الذى قد سن نظام الوأد عقب حادث وقع لابنت كبيرة له . فإنه يترتب على ذلك أن نظام الوأد لم يظهر إلا قبيل الإسلام ببضع سنين مع أنه سابق لبعثة الرسول بعهد طويل وكان على وشك الانقراض قبيل الإسلام ، كذلك لم ترد إشارة ما لسبب من هذا القبيل فى أى آية من الآيات الخاصة بالوأد ، ولو كان هذا السبب هو الباعث الحقيقى عليه لعنى القرآن بإظهاره وتقبيحه[١] .

أنواع التسلية عند العرب :

شغل العرب فى الجاهلية أوقات فراغهم ببعض ضروب التسلية : كالصيد وسباق الخيل . ولعب الكرة والأل والجاح ، والمدحاة والأرجوحة ، والخذروف ووضاح ، وولعوا بلعب الميسر وكان لهم فيه باع طويل . وهذه الألعاب عرفها العرب فى جاهليتهم . وظل بعضهم يمارسها فى جزيرة العرب حتى بعد ظهور الإسلام[١] .

---

(١) على عبد الواحد وافى : وأد البنات عند العرب فى الجاهلية مجلة الرسالة العدد ٤٠٤ مارس ١٩٤١ .

١ — الصيد وسباق الخيل .

كلف العرب بالصيد ، وأضحى من أنواع تسليتهم المفضلة ، فقد كانت الطبيعة البشرية مهيأة له تماما . ولا مراء أن الصيد كان يرمى قبل كل شيء إلى : تعويد العرب الفروسية ، وإدمانهم للرمى بالنشاب ، والضرب بالسيف والدبوس ، واعتياد القتل والسلطنة ، وتقليل المبالاة بإراقة الدماء وغضب النفوس (١) .

أما السباق ، فقد كان من الأمور التى ألفها العرب فى جاهليتهم ، وكانت إحدى حلباته داعياً لحرب ضروس بين عبس وذبيان ، هى حرب داحس والغبراء ويقول ابن عبد ربه : « إن العرب كانت تراهن فى السباق على شيء معلوم « فكان الرجل يراهن صاحبه فى المسابقة ، هذا رهناً وهذا رهناً . فأيهما سبق فرسه أخذ رهنه ورهن صاحبه » ثم يقول « وهذا القمار المنهى عنه ، فإن كان الرهن من أحدهما بشيء مسمى على أنه إن سبق لم يكن له شيء ، وإن سبقه صاحبه أخذ الرهن فهذا حلال لأن الرهن إنما هو من أحدهما دون الآخر ، وكذلك إن جعل كل واحد منهما رهناً وأدخل بينهما محللا وهو فرس ثالث يكون مع الأولين ، ويسمى أيضاً الدخيل ولا يجعل لصاحب الثالث شيء ، ثم يرسلون الأفراس الثلاثة فإن سبق أحد الأولين أخذ عنه رهن صاحبه فكان طيباً ، وإن سبق الدخيل أخذ الرهنين جميعاً ، وإن سبق هو لم يكن عليه شيء... ولا يكون الدخيل إلا جواداً رائعاً لا يأمنان أن يسبقهما وإلا فهذا قمار لأنهما كأنهما لم يدخلا بينهما محللا (٢) .

٢ — لعبة الكرة :

كان لعب الكرة ، من أنواع التسلية عند العرب فى الجاهلية ، وكانوا يتدافعون الكرة بالصوالجة . والقلة والمقلى وهما عودان يلعب بهما الصبيان ،

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٥٤ .

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ١ ص ٢٠٧ (نشر أحمد أمين) .

فيرمى الصبي بالقلة في الهواء ، ثم يضربها بمقلى في يده وهي خشبة طولها ذراع فتستمر القلة في حركتها ، وإذا وقعت كان طرفاها مجافيين للأرض ، فيضرب أحد طرفيها فتستدير وترتفع ، ثم يعترضهما بالمقلى فيضربها في الهواء فتستمر ماضية[1] .

روى الفاكهي أن عمر بن الخطاب قدم مكة ، فرأى الكرك تلعب به ، فقال : لولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرك ما أقررتك ، لعب قديم كان أهل مكة يلعبون به ، ولم يزل كذلك حتى كانت سنة عشر ومائتين : وأن أهل مكة كانوا يلعبون به في كل عيد ، وكان لكل حارة من حارات مكة كرك يعرف به يجتمعون له ويلعبون به ، ويذهب الناس فينظرون في تلك المواضع ، ثم قال الفاكهي : قدم رجل من أهل مكة ، فقال له عليّ : كيف تركت قريشاً والناس بمكة ، فقال : تركت فتيان قريش يلعبون بالكرة بين الصفا والمروة .

٣ — والأل والجُمّاح :

قال امرؤ القيس :

لِمَنْ زُحْلُوقَةٌ زُلُّ ... بها العَيْنَان تَنْهَلُ

ينادى الآخر الأُلُّ ... ألا حُلّوا ألا حُلّوا

وقال المفضل في قول امرىء القيس : ألا حُلّوا ، أن هذا معنى لعبة للصبيان ، يجتمعون فيأخذون خشبة ، ويضعونها على قوزٍ من رمل ، ثم يجلس على أحد طرفيها جماعة وعلى الآخر جماعة ، فأى الجماعتين كانت أرزن ارتفعت الأخرى فينادون أصحاب الطرف الآخر : ألا حلوا ، أى خففوا

(١) ابن سيدة : المخصص جـ ١٣ ص ١٧ و ١٩ .

من عددكم حتى نساويكم فى التعديل . وهذه هى التى تسميها العرب : الدَّوْدَاة والزحْلُوقة[1] .

والجُمّاح تمرة تجعل رأس خشبة يلعب بها الصبيان ، وقيل إنها سهم صغير بلا نصل مدور الرأس يتعلم به الصبيان الرمى ، وقد يرمى به الطائر فيلقيه ولا يقتله حتى يأخذه راميه .

٤ — المِدْحَاة والأرجوحة :

الدَّحْو هو رمى اللاعب بالحجر والجوز ونحوها ، والمِدْحاة خشبة يدحى بها الصبى فتمر على وجه الأرض لا تأتى على شىء الا اجتحفته . وفى حديث أبى رافع : كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما بالمَـداحى وهى أحجار أمثال القَرَصَة كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار ، فإن وقع الحجر فيها غَلَب صاحبها وإن لم يقع غُلب .

أما الأرجوحة فهى خشبة تؤخذ فيوضع وسطها على تل ، ثم يجلس غلام على أحد طرفيها وغلام آخر على الطرف الثانى ، فترجح الخشبة بهما ، ويتحركان فيميل أحدهما بصاحبه الآخر . ويقال للحبل الذى يرتج به : الرجاحة والنُّواعة والنُّواطة والطواحة[2] .

٥ — الخُذْروف ووضاح .

الخذروف هو شىء يدوره الصبى بخيط فى يده ، فيسمع له دوى ، وقيل إنه عود أو قصبة مشقوقةُ يفرض فى وسطه ، ثم يشد بخيط ، فإذا امِر ، دار وسمع له حفيف ، وهو من ألعاب الصبيان ، المعروفة باسم النعار .

ووضاح هى لعبة صبيان الأعراب ، يعمدون إلى عظم أبيض فيرمونه

---

(١) أحمد عيسى : ألعاب الصبيان عند العرب ص ٥٨١ . بحث مستخرج من مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، الجزء الرابع ، ١٩٣٧ .

(٢) أحمد عيسى : ألعاب الصبيان عند العرب ص ٥٨١ .

فى ظلمة الليل ثم يتفرقون فى طلبه ، فمن وجده منهم ، فله الغلبة . وفى حديث المبعث أن النبي عليه السلام كان يلعب وهو صغير مع الغلمان بعظم وضاح[١] .

ولقد عرف صبيان العرب عدة ألعاب ، أخرى ، مثل : الجِمَرى[٢] . وَحِبِى جُعَل[٣] والمِخْرَاق[٤] والأنبُوثة[٥] وغيرها من الألعاب[٦] .

٦ — لعب الميسر .

كان الميسر ، من ألعاب العرب المفضلة التى مارسوها طوال جاهليتهم ، حتى حذقوا لعبه ، وكان لهم فيه باع طويل . وهى تلك اللعبة المستهجنة التى نهى الإسلام عنها بعد أن سطع نوره فوق الجزيرة العربية . قال الفيروز أبادى : الميسر اللعب بالقداح ... أو هو الجزور التى كانوا يتقامرون عليها أو النرد أو كل قمار[٧] ، وقد يقال للقداح الأزلام ، واحدها زُلم وزَلَمَ ، وهى سهام كانوا يقتسمون بها فى الجاهلية . يقوم الجوهرى : الأزلام كانت لقريش فى الجاهلية ، مكتوب عليها أمر ونهى وافعل ولا تفعل ، وقد زُلِّمت[٨] ووضعت فى الكعبة ، يقوم بها سدنة البيت ، فإذا أراد رجل سفراً أو « زواجا » أتى السادن وقال : أخرج لى زلما ، فيخرج وينظر إليه ، فإذا خرج قِدْح الأمر مضى على ما عزم إليه ، وإن خرج قدم النهى قعد عما أراده[٩] .

---

(١) أحمد عيسى : ألعاب الصبيان عند العرب .
(٢) تعرف هذه اللعبة عند صبيان العامة الآن فى مصر باسم « مقعد السلطان » .
(٣) هى لعبة معروفة الآن عند العامة ، حيث يضع الصبي رأسه على الأرض ثم ينقلب على الظاهر .
(٤) منديل أو نحوه يلوى ، فيضرب به أو يلف فيفزع به .
(٥) كان الصبيان يحفرون حفيراً ويدفنون فيه شيئا ، فمن استخرجه فقد غلب .
(٦) أحمد عيسى : نفس المصدر .
(٧) البقاعى : لعب العرب بالميسر فى الجاهلية الأولى ص ٢٩ — ٣٠ .
(٨) زلت : سويت .
(٩) الزبيدى : نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح . ص ٤٤ .

ومما هو جدير بالذكر ، أن العرب فى الشتاء ، عند شدة البرد وتعذر الأقوات على أهل الضُر والمسكنة ، كانوا يتقامرون بالقداح على الإبل ثم يجعلون لحومها للفقراء منهم وذوى الحاجة . وفى ذلك يقول الأعشى :

المطعمو الضيف إذا ما شتوا والجاعلون القوت على الياسر[1]

ثانيا — من ظهور الإسلام إلى سقوط الأمويين

١ — النظام السياسى

حكومة الرسول :

فى القرن السابع الميلادى ، ظهر الدين الإسلامى الحنيف فى شبه جزيرة العرب ، على يد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وقد قام النبى بالدعوة إلى الدين الجديد سراً وجهراً ، ونزل عليه القرآن مشتملا على الشرائع التى فرضت على المسلمين ، فكانت مهمة النبى من هذه الناحية مهمة القائم بالتشريع ، يفهم الناس معنى القرآن ، و يشرح لهم ما غمض عليهم منه بأحاديثه النبوية ، ومن ذلك الحين أصبح القرآن والأحاديث دستور المسلمين .

وكان لظهور سيدنا محمد أثره السياسى كذلك ، فقد نجح فى تكوين أمة واحدة تخضع لحكومة واحدة ، بعد أن كانت القبيلة هى الوحدة السياسية التى قام عليها المجتمع العربى قبل الإسلام . وقام الرسول بالإشراف على تلك الأمة خير قيام ، فوضع الأسس العامة لسياسة الدولة الجديدة ، وشرع لها القوانين . وتلك كانت مهمة شاقة ، إذ لم يكن العرب قبل الإسلام يسيرون على قانون خاص .

كانت حكومة الرسول حكومة دينية ، تعتمد إلى حد كبير على اعتقاد الناس

(١) الياسر : هو الذى يلى قسمة جزور الميسر ، وجمعه أيسار .

أن النبي إنما يصدر فى أحكامه وتصرفاته عن وحى الله وأمره . وكانت هذه الحكومة تقوم على أساس إحلال الوحدة الدينية محل الشعور القبلى ، مما سهل على القبائل المختلفة طاعته والانضمام تحت لوائه .

ولكن بجانب ذلك ، كانت كل مظاهر الحكومة السياسية فى يد النبى : فكان يقود الجيوش ، ويفصل فى الخصومات ، ويجبى الأموال . وفى كل الأمور التى لم يتعرض لها الوحى ، كان النبى — على مثال شيخ القبيلة — يستشير كبار المهاجرين والأنصار ، من أمثال أبى بكر وعمر وعلى ، وكان يقول : أشيروا علىّ الناس ، أما المسائل التى نزل بها الوحى فلم يكن للنبى ولا أصحابه رأى فيها .

انتخاب الخلفاء الراشدين :

تعد خلافة[1] الخلفاء الراشدين ، شورية انتخابية : ففى انتخاب أبى بكر ، رشح الأنصار سعداً ورشح أبو بكر أبا عبيدة وعمر ، وسارع عمر إلى مبايعة أبى بكر فبايعه[2] الحاضرون ، وأقر هذه البيعة عامة المسلمين ، وحضر الاجتماع أكثرية الصحابة بصرف النظر عن كونهم أنصارا أو مهاجرين . وفى انتخاب عمر لم يستبد أبو بكر برأيه ، ولم يرغم جماعة المسلمين على قبول خلافة عمر ، بل استشار الصحابة فيه ، فأجمعوا على حسن هذا الاختيار ، وأعطت هذه السنة التى سنها أبو بكر من الشورى وعدم التوريث ، الحرية للخليفة فى انتخاب من يخلفه من غير قيد ولا شرط . وطريقة انتخاب عثمان أقرب إلى الشورى ، فقد تعدد المرشحون للخلافة ، وكان للمجتمعين فى مسجد المدينة من الصحابة وغيرهم أثر كبير فى توجيه الانتخاب وحصر الخلافة فى واحد من اثنين وهما : عثمان وعلى .

(١) الخلافة : مصدر « خلف » يقال خلفه ، وكان خليفته وبقى بعده ، والخليفة السلطان الأعظم ، والجمع خلائف وخلفاء ، وهو نظام من أنظمة الحكم ، خاص بالإسلام .

(٢) البيعة مصدر باع ، لأنها تشبه فعل البائع والمشترى ، وهى العهد على طاعة الخليفة ومعاهدته على التسليم له بالنظر فى أمور المسلمين .

وبايع على أهل المدينة ، فصار خليفة بمقتضى هذه البيعة ، وإن لم يبايعه جمهور المسلمين فقد بايعته الأكثرية . وبذلك لم يتم انتخاب علىّ على الصورة التى تم بها انتخاب سبقه من الخلفاء : فقد انتخب أبو بكر عن رضى من الصحابة الذين اجتمعوا بالمدينة وإن كانوا قد اختلفوا فى بادىء الأمر ، وبعد وفاة أبى بكر لم يكن ثمة اختلاف فى الرأى لأنه قد عهد عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته . ولما توفى عمر انتخب عثمان على أساس قانون الشورى الذى سنه عمر .

وكانت سلطة الخلفاء الراشدين مطلقة ، فلم تكن هناك حدود مرسومة تحدد واجباتهم بالدقة . والواقع أن سلطة الخليفة كانت تحدد بوجه عام بالشرع ورضاء الأمة ، فإذا لم يحكم حسب حدود الشرع ، سقط حقه فى الخلافة ووجب عزله على يد أهل الحق والعدل فى الأمة التى ولته . ويبين لنا التاريخ أن كل خليفة من الخلفاء الراشدين كان يتوخى أن يحكم وفق الحدود الشرعية ، إذا استثنينا عثمان بن عفان الذى رماه أعداؤه بأنه يقرب الأصهار ويبعثر الأموال ولا يحكم بالعدل . ويمكن القول أن الخلافة الحقيقية المستوفاة للشروط الشرعية لم تعد عهد الخلفاء الراشدين .

مميزات الخلافة الأموية :

صحب تحول الخلافة من الخلفاء الراشدين إلى الأمويين ، عدة مظاهر ليست من مقتضيات الخلافة ، كمظاهر الأبهة والجبروت . وكان معاوية يرمى إلى جعل الخلافة ملكا ، وليس أدل على ذلك من قوله : « أنا أول الملوك » ، وابتدع فى الدولة أشياء لم يسبقه إليها أحد ، ومنها أنه :

١ — اتخذ السرير[1] أو « العرش » ، وهو مألوف عند الأعاجم ، واعتذر إلى الناس بأنه قد سمن واحتاج إليه ، ويعد السرير من شارات الملك .

(١) السرير : هو أعواد مرتفعة عن الناس ، بحيث يكون الملك ظاهرا .

٢ — اتخذ المقصورة فى المسجد ، بعد كان الخليفة يصلى مع الناس ولا ينفرد دونهم ، فأصبح معاوية ومن جاء بعده يترفعون على مخالطة رعيتهم ، واعتذر معاوية عن ذلك بأنه اتخذها بعد حادثة الخوارج الذين أرادوا اغتياله .

٣ — سن سُنة الجلوس أثناء الخطبة ، بعد أن كان النبى عليه السلام والخلفاء الراشدين من بعده إذا خطبوا الناس خطبوهم وهم وقوف .

٤ — أحاط نفسه بحرس خاص ، وبذلك ظهرت فى الخليفة صفة الحاكم السياسى ، وأصبحت الخلافة الأموية ذات نزعة سياسية بجانب صفتها الدينية .

٥ — عمل معاوية على تلافى الاختلاف بين المسلمين عند انتخاب الخلفاء ، بأن عهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد ، وأوجد بذلك لأول مرة فى التاريخ الإسلامى نظام ولاية العهد . واستعمل معاوية فى أخذ البيعة لابنه يزيد كل أنواع الحيل والدهاء وخالف شروط الخلافة وانتقل بها من خلافة شورية انتخابية إلى ملكية وراثية ، وتحولت الخلافة إلى ملك آل إلى صاحبه بقوة السيف السياسة والكيد(١) .

وكان للوسط والبيئة أثر فى هذه المظاهر التى تجنح إلى الملك ، فقد كان معاوية يحكم الشام على حدود الدولة البيزنطية التى ألفت الترف والأبهة . وعندما توجه عمر إلى الشام سنة ١٦ هـ لقيه معاوية فى حرسه وخيله ، فدهش عمر لذلك وقال : أكسروية يا معاوية ؟ فقال : إننا بإزاء قوم يجب أن نتباهى أمامهم حتى يكونوا هائبين .

---

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٥٠ — ٥١ .

٢ — النظام الإدارى

الدواوين :

بعد أن توالت الفتوح الإسلامية وأثرت الدولة العربية بما ملكته من كنوز الفرس ، رأى عمر بن الخطاب توزيع هذه الأموال على المسلمين . ولذا دوّن الدواوين[1] : فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء ، وجعل لكل واحد من المسلمين عطاء ، مراعياً فى ذلك السَّبق إلى الإسلام ونصرة الرسول ، ورتب الناس طبقات مبتدئين بالعباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ثم بنى هاشم ثم بمن بعدهم ، وأنشأ بعد ذلك ديوان الخراج والجباية لتدوين ما يرد إلى بيت المال .

وكان سبب تدوين عمر للدواوين ، أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين ومعه مال ، فقال عمر ماذا جئت به ؟ قال : خمسمائة ألف درهم . فقال عمر : أتدرى ما تقول ، قال : نعم : مئة ألف درهم ، ومئة ألف درهم ، ومئة درهم ، ومئة ألف درهم ومئة ألف درهم . فقال عمر : أطيِّب هو[2] ؟ قال : لا أدرى . وصعد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم نعده عدا ، فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين قد رأيت هؤلاء الأعاجم يدوّنون ديواناً لهم ، فقال : دوّنوا الدواوين[3] .

وفى عهد بنى أمية ، كانت دواوين الدولة العربية هى :

١ — ديوان الخراج : ولصاحبه الإشراف على جباية الخراج وطرق إنفاقه .

---

(١) الدواوين : مفردها ديوان ، وهى كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، وأطلق الديوان من باب المجاز على المكان الذى يحفظ فيه الديوان .

(٢) يريد : أحلال هو !

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٦ — ١٧ .

٢ — ديوان الرسائل : وكان لصاحبه الإشراف على الرسائل التى ترد من الولاة .

٣ — ديوان المستغلات أو الإيرادات المتنوعة .

٤ — ديوان الخاتم : وقد أنشأه معاوية بن أبى سفيان ، وهو أكبر دواوين الحكومة ، وكان فيه نواب مهنتهم نسخ أوامر الخليفة وإيداعها هذا الديوان ، بعد أن تخزم بخيط وتختم بالشمع بخاتم هذا الديوان ، كما هو الحال اليوم فى قلم السجلات . وما زال ديوان الخاتم معدودا من الدواوين الكبرى من خلافة معاوية إلى أواسط الدولة العباسية ، ثم ألغى لتحول الأعمال إلى الوزارة والسلاطين وغيرهم . يقول الجهشيارى « وكان للأكاسرة أربعة خواتيم : فكان على خاتم الحرب والشرطة الأناة ، وعلى خاتم الخوارج والعمارة التأييد ، وعلى خاتم البريد الوحاء (العجلة والإسراع) ، وعلى خاتم المظالم العدل »[1] .

٥ — ديوان الطراز[2] : اقتدى المسلمون بالأكاسرة والقياصرة ، فاتخذوا الطراز عن الروم ، ولكنهم لم يستحسنوا اتخاذ الصور لتحريمها فى الإسلام ، بل استعاضوا عنها بكتابة أسمائهم وكلمات أخرى تجرى مجرى الفأل والدعاء . وارتقى نظام الدواوين فى عهد عبد الملك بن مروان (٦٥ — ٨٦ هـ) ، فقد كانت السجلات فى أوائل عهده تكتب باليونانية فى الشام ، وبالفارسية فى فارس ، فأمر بتعريبها . وكان لتعريب الدواوين أثر عظيم ، فقد أصبحت لغة الدواوين هى اللغة العربية ، مما ساعد على تقلص نفوذ أهل الذمة والمسلمين من غير العرب ، بعد أن انتقلت مناصب هؤلاء إلى أيدى المسلمين من العرب ، وأصبحت اللغة العربية لغة التدوين ، فنقل إليها كثير من الاصطلاحات الفارسية والرومية ،

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٣ .

(٢) هو أن ترسم أسماء الملوك والسلاطين أو علامات تختص بهم فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباج . مقدمة ابن خلدون .

وابتدأت من ذلك الوقت تظهر طبقة الكتاب ، ونقل الحجاج بن يوسف الثقفى لما ولى بلاد العراق دواوينها من الفارسية إلى العربية[1] . وقد ظلت الدواوين تدون باليونانية فى مصر إلى أن انتقلت الخلافة إلى الوليد بن عبد الملك ، فسار على سياسة أبيه فى تعريب الدواوين ، وحول ديوان خراجها إلى العربية ، وقام بتنفيذ هذه السياسة وإليه على مصر عبد الله بن عبد الملك ابن مروان وذلك سنة ٨٧ هـ .

وقرر عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ هـ سك عمله عربية إسلامية بعد أن كان العرب إلى ذلك الوقت يتعاملون بالدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية ، وبنى داراً لضرب النقود فى دمشق ، وأمر بسحب العملة المستعملة فى جميع أنحاء الدولة وضرب بدلها عملة جديدة مصنوعة من الذهب والفضة ونقشت عليها بعض الآيات القرآنية . ولما رأى الروم أن الأموال التى تؤدى إليهم قد كتبت عليها بعض الآيات القرآنية ، استاءوا من ذلك واعتبروه إهانة لهم ، مما أدى وقوع الحرب بين العرب والروم .

الكتابة :

كان من أكبر أعوان الخليفة بعد الوزير ، هو الكاتب . وقد كان السواد الأعظم من العرب لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان الخليفة يختار كاتبه من بين الذين يجيدون الخط ، وممن يعبرون عن رأية بأبلغ العبارات وأفصحها ، وعرف من الكتاب فى صدر الإسلام من الصحابة : عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب وزيد بن ثابت ومعاوية بن أبى سفيان ، وهؤلاء كتبوا للنبى عليه السلام القرآن وحرروا الكتب التى أرسلها إلى الملوك والأمراء . ومن كتاب

---

(١) الجهشيارى : الكتاب والوزراء ص ٣٨ .

الرسول كذلك : عثمان بن عفان وسعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة[1] ، ولما ولى بكر الخلافة اتخذ عثمان بن عفان كاتبا له ، كما اتخذ عمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الأرقم كتابا له . وفى عهد خلافة عثمان كان مروان بن الحكم من أبرز الكتاب ، وصار عبد الله بن الأرقم كاتبا له ، وفى عهد خلافة عثمان كان مروان بن الحكم من أبرز الكتاب ، وصار عبد الله بن أبى رافع لعلى بن أبى طالب ، وهو الذى قال له الخليفة : ياعبد الله ! ألق[2] دواتك ، وأطل شباه[3] قلمك ، وفرج بين السطور وقرمط[4] بين الحروف[5] .

ولما انتقلت الخلافة إلى بنى أمية ، تعدد الكتاب ، لتعدد مصالح الدولة ومن ثم أصبح الكتاب خمسة : كاتب الرسائل ، وكاتب الخراج ، وكاتب الجند ، وكاتب الشرطة ، وكاتب القاضى . وأهم هؤلاء فى الرتبة : كاتب الرسائل . وكان الخلفاء لا يولون هذا المنصب إلا أقرباءهم وخاصتهم ، وظلوا على ذلك إلى أيام العباسيين[6] .

الحجابة :

الحاجب موظف كبير يشبه كبير الأمناء أيامنا ، وكان يشغل منصباً سامياً فى البلاط ، ومهمتة إدخال الناس على الخليفة ، مراعياً فى ذلك مقامهم وأهمية أعمالهم . ولم توجد هذه الوظيفه فى عهد الخلفاء الراشدين ، لأنهم كانوا يسمحون للناس بالدخول عليهم دون حجاب .

ولما انتقل الحكم إلى بنى أمية ، اتخذ معاوية بن أبى سفيان ومن جاء بعده

(١) الجهشيارى : كتاب الكتاب والوزارة ص ١٢ — ١٤ .
(٢) أصلح موادها .
(٣) سنة .
(٤) راعى الدقة فى الكتابة ودقق بين الحروف .
(٥) الجشهيارى : نفس المصدر ص ٢٣ .
(٦) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلامى السياسى ج ١ ص ٣٤٩ .

من الخلفاء ، الحجاب ، بعد تآمر الخوارج على حياة على ومعاوية وعمرو بن العاص ، خوفا على أنفسهم وتلافيا لازدحامهم على أبوابهم وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة[1] . ولكنهم كانوا يبيحون الدخول لثلاثة فى أى وقت شاء : المؤذن للصلاة ، وصاحب البريد ، وصاحب الطعام . قال عبد الملك بن مروان لحاجبه : قد وليتك حجابة بابى إلا عن ثلاثة : المؤذن للصلاة فإنه داعى الله ، وصاحب البريد فأمر ما جاء به ، وصاحب الطعام لئلا يفسد[2] وقال لأخيه عبد العزيز بن مروان واليه على مصر : انظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يقف أحد ببابك إلا أعلمك مكانه لتكون أنت الذى تأذن أو ترده[3] .

البريد[4] :

يرجع نظام البريد إلى أيام أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، على أن مقاديره أو مسافاته لم تكن ثابتة بل كانت متفاوته . وكان معاوية بن أبى سفيان أول من أدخل نظام البريد فى الإسلام ، أخذه عن الروم أثناء حكمهم فى الشام ، ولما تولى عبد الملك بن مروان خلافة الأمويين أدخل على البريد عدة تحسينات حتى أصبح أداة هامة فى إدارة شئون الدولة .

---

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ١٨٦ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٧ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١١٥ .

(٤) البريد فى الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ، ركب غيره فرسا مستريحا ، وكذلك فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة . وأما معناه اللغوى : فهو مسافة معلومة مقدرة باثنى عشر ميلا . ابن طباطبا الفخرى ص ١٠١ — ١٠٢ .

٣ – النظام القضائى

(١) القضاء فى عهد الرسول :

لم يكن للمسلمين فى عهد الرسول قاض سواه ، لقلة عدد القضايا المرفوعة إليه وضيق رقعة الدولة . وكان يحكم بين الناس على أساس أحكام القرآن ، فيحضر المتخاصمان إليه مختارين ، فيسمع كلام كل منهما . وكانت طرق الإثبات عنده البيّنة[1] ، واليمين وشهادة الشهود ، والكتابة والفراسة والقرعة . ثم أذن عليه السلام لبعض أصحابه بفض الخصومات طبقاً : للكتاب وهو أحكام القرآن ، والسُّنَّة وهى ماصدر عن النبى من قول أو فعل . وكان الحبس فى عهد الرسول لا يتعدى منع المتهم من الاختلاط بغيره ، وذلك بوضعه فى بيت أو مسجد وملازمة الخصم أو من ينيبه عنه ، له .

فى عهد الخلفاء الراشدين :

وسار أبو بكر سيرة النبى عليه السلام واهتدى بهديه وترسم خطواته وفعاله وقد أسند أبو بكر القضاء إلى عمر بن الخطاب ، فظل سنتين لا يأتيه متخاصمان، لما عرف عنه من الشدة والحزم . على أن عمر لم يطلق عليه لقب قاض طوال خلافة أبى بكر .

ولما ولى عمر بن الخطاب الخلافة واتسع نطاق الدولة ، وكل أمر القضاء إلى أشخاص سموا « قضاة » وبذلك كان عمر أول من عين القضاة فى الولايات الإسلامية ، فولى : أبا الدرداء قضاء المدينة . وشريحا بن الحارث الكندى قضاء الكوفة . وأبا موسى الأشعرى قضاء البصرة ، وعثمان بن قيس بن أبى العاص

---

(١) البيّنة فى الشرع : اسم لما يبين الحق ويظهره ، بمعنى أن المدعى ملزم بإظهار مايبين صحة دعواه ، فإذا ظهر صدقة بإحدى الطرق ، حكم له .

قضاء مصر ، وجعل قضاء الشام مستقلا . وسن عمر لهؤلاء القضاة دستورا يسيرون على هديه فى الأحكام ، ويعتبر الكتاب الذى تضمنه أساساً للقضاء فى الإسلام[1] ، وبعث عمر بهذا الدستور إلى أبى موسى الأشعرى وغيره من القضاة .

وكان القضاة يعينون من قِبَل الخليفة ، ويراعى فى اختيارهم : غزارة العلم ، والتقوى ، والورع ، والعدل ، والذكاء . ولقد كان القاضى فى عهد الخلفاء الراشدين مستقلا ، محترم الجانب . وكان اختيار القضاة فى الولايات يفوض أحيانا إلى ولاة الأمصار[2] ، وأصبح الاجتهاد[3] مبدأ يعتد به فى الأحكام القضائية . ولم يكن للقضاء كاتب أو سجل تدون فيه الأحكام ، لأنها كانت تنفذ على أثر صدورها ، ويقوم القاضى يجلس للحكم فى منزله ، ثم أصبح يعقد جلساته فى المسجد .

فى عهد بنى أمية :

وفى عهد الأمويين ، كان القاضى يحكم بما يوحيه إليه اجتهاده ، إذ لم تكن المذاهب الأربعة التى تقيد بها القضاء فيما بعد قد ظهرت ، فكان القاضى يرجع إلى الكتاب والسنة للفصل فى الخصومات . ولم يكن القاضى فى ذلك العصر متأثراً بالسياسة . فقد كان القضاة مستقلين فى أحكامهم لا يتأثرون بميول الدولة الحاكمة ، وكانوا مطلقى التصرف وكلمتهم نافذة على الولاة وعمال الخراج .

وكان القضاة من خيرة الناس ، شريفى النفوس ، موفورى الكرامة ،

---

(١) يوجد نص هذا الكتاب فى كتاب « البيان والتبيين » للجاحظ جـ ٢ ص ٢٣ .

(٢) يقصد بالأمصار : الأقطار الإسلامية .

(٣) الاجتهاد : هو اتفاق مجتهدى الأمة على حكم شرعى لم يكن قد صدر فيه نص من القرآن أو السنة .

يخشون الله ، ويحكمون بين الناس بالعدل . وكان الخلفاء بالمرصاد لمن شذ منهم عن الطريق السوى ، فقد أمر الخليفة هشام بن عبد الملك بصرف يحيى ابن ميمون الحضرمى عن قضاء مصر لأنه لم ينصف يتيما احتكم إليه . ومن قول عمر بن عبد العزيز ، نتبين الشروط التى كان يجب أن تتوافر فى القاضى : « إذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل : علم بما كان قبلة ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم على الخصم ، واقتداء بالأئمة ، ومشاركة أهل العلم والرأى » .

وظهرت الحاجة فى ذلك العصر إلى وجود سجلات تدون فيها الأحكام التى يصدرها القضاة ، ولم يعرف هذا فى عهد الخلفاء الراشدين ، إلا أن تناكر الخصوم أدى إلى إيجاد هذه السجلات .

مرتبات القضاه :

كان عمر بن الخطاب أول من خصص راتبا للقاضى : ففرض للقاضى سليمان بن ربيعة خمسمائة درهم فى كل شهر ، وجعل لشريح قاضى البصرة مائة درهم ومؤونته من الحنطة . واستمرت رواتب القضاة على هذا النحو زمن الخلفاء الراشدين ، ثم ارتفعت رواتب القضاة فى عصر الأمويين ، تبعا لزيادة موارد الدولة . وكان راتب القاضى يزيد إذا أسندت إليه أعمال أخرى : فقد كان عبد الرحمن بن حجيرة قاضى مصر فى ولاية عبد العزيز بن مروان يتقاضى مائتى دينار[1] على القضاء ، ومائتى دينار على القصص ، ومثلها على بيت المال ، كما كان عطاؤه مائتى دينار ، وجائزته كذلك ، فكان يأخذ ألف دينار فى السنة . ولكن معظم القضاة فى زمن عمر بن عبد العزيز لم يتناولوا راتبا أصلا ، لأنه رأى أن القاضى لا يجوز له أن يتناول راتبا مقابل قيامه بهذه الخدمة الدينية . وبلغ راتب القاضى فى زمن مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية عشرة دنانير فى الشهر ،

(١) الدينار = ٥ر١٠ قرشا تقريبا .

كما ثبت من براءة وجدت فى ديوان مروان كانت قد صدرت إلى خازن بيت المال بإعطاء عبد الرحمن بن سالم القاضى رزقه الشهرى فى ربيع الأول سنة ١٣١ ﻫ .

(ب) ديوان المظالم :

لم يجلس للمظالم أحد من الخلفاء الراشدين ، لأن الوازع الدينى فى عهدهم كان له سلطان على نفوس المسلمين الذين كانوا يجدون من أنفسهم زاجرا يمنعهم عن الظلم والاستهتار بحق الناس . غير أن على بن أبى طالب اضطر إلى النظر فى المظالم فى عهد خلافته ، ولكنه لم يعين لذلك يوما معينا ولا زمنا محدودا ، بل كان ينظر فى شكاية من يأتيه من المتظلمين ويعمل على نصافه .

ولكن تطور الأحوال وتغير طباع الناس واتساع الملك فى أيام بنى أمية ، دفع بعض خلفائها إلى تخصيص يوم للنظر فى مظالم رعاياهم وأول من فعل ذلك ، عبد الملك بن مروان ، الذى كان يستعين بقاضيه ابن إدريس الأزدى فيما أشكل عليه ، فكان ابن إدريس هو المباشر وعبد الملك هو الآمر ، وقد أفرد يوما يتفصح فيه قصص المتظلمين[1] .

وديوان المظالم هيئة قضائية عالية ، تشبه محكمة الاستئناف فى الوقت الحاضر ، ولذلك كانت سلطة صاحب المظالم ، أعلى بكثير من سلطة القاضى . قال ابن خلدون عن ولاية المظالم : « وهى ولاية ممتزجة من سطوة السلطة ونصفة القضاء ، وتحتاج إلى علو يد وعظيم رهبة ، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعتدين ، وإليها النظر فى البينات والتقرير ، واعتماد الأمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق ، وحمل الخصم على الصلح ، واستحلاف الشهود ، وذلك أوسع من سلطة القاضى » .

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٥٢ — ٣٥٣ .

وكان من اختصاص هذه الهيئة ، أن تنظر فى ظلامات الشعب ، وقد تكون هذه الظلامات من قضاة لم ينصفوا المتقاضين ، أو من ولاة استبدوا بالأمر وظلموا رعاياهم ، أو من جباة أموال حادوا عن الطريق المستقيم ، أو من أبناء الخلفاء أو أهل الجاه وأصحاب النفوذ ممن اغتالوا أموال الناس وأملاكهم ظلماً وعدواناً ، أو ماشابه ذلك من الشكاوى التى ربما لا يستطيع القضاة تنفيذ أحكامهم فيها . ولم يقتصر اختصاص صاحب المظالم على النظر فى تظلم أصحاب الأرزاق إذا نقصت أرزاقهم أو تأخر ميعاد دفعها لهم ، وتنفيذ مايعجز القاضى عن تنفيذه من الأحكام ومراعاة إقامة العبادات كالحج والأعياد والجمع والجهاد[1] . ولهذا كانت تسند رياسة ديوان المظالم لرجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم « قاضى المظالم » .

وكانت محكمة المظالم تعقد برياسة الخليفة أو الوالى أو من ينوب عن أحدهما . وكان صاحب المظالم يعين يوما يقصده فيه المتظلمون ، إذا كان من الموظفين ، ليتفرغ لأعماله الأخرى ، أما إذا انفرد بالمظالم ، نظر فيها طوال أيام الأسبوع . وكانت المحكمة تعقد فى المسجد ، ويحاط صاحبها بخمس جماعات ، لا ينتظم عقد جلساته إلا بحضورهم ، وهم :

١ — الحماة والأعوان : وكانوا من القوة ، بحيث يستطيعون التغلب على من يلجأ إلى العنف ، أو يحاول الفرار من وجه القضاء .

٢ — الحكام : ومهمتهم الإحاطة بما يصدر من الأحكام لرد الحقوق إلى أصحابها ، والعلم بما يجرى بين الخصوم : فيلمون بشتات الأمور الخاصة بالمتقاضين ، وكانت القضاة يستفيدون من وراء حضورهم هذه الجلسات إذا كانوا يستطيعون تطبيق الأحكام على مايعرض أمامهم من القضايا فى جلساتهم .

---

(١) الأحكام السلطانية ص ٧١ — ٧٢ .

٣ — الفقهاء . وكان يرجع إليهم صاحب المظالم فيما أشكل عليه من المسائل الشرعية .

٤ — الكتاب : يقومون بتدوين أقوال الخصوم ، وإثبات مالهم وما عليهم من الحق .

٥ — الشهود : ومهمتهم إثبات مايعرفونه عن الخصوم ، والشهادة على أن ماأصدر القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل .

(حـ) الشرطة :

وبجانب هذه السلطة القضائية ، الممثلة فى القضاة وصاحب المظالم ، كانت توجد سلطة أخرى تتمثل فى صاحب الشرطة .

والمقصود بالشرطة ، الجند الذين يعتمد عليهم الخليفة أو الوالى ، فى استتباب الأمن وحفظ النظام والقبض على الجناة والمفسدين ، وما إلى ذلك من الأعمال التى تكفل سلامة الجمهور وطمأنينتهم . وكان عمر بن الخطاب أول من أدخل نظام العسس فى الليل ، وفى عهد على بن أبى طالب نظمت الشرطة وأسندت إلى رجال من علية القوم ومن أهل العصبية والقوة .

وكانت الشرطة تابعة للقضاء فى أول الأمر ، وتقوم على تنفيذ الأحكام القضائية ، وتمهيد الطريق لإقامة الأدلة على المتهم لإثبات الجريمة . وكان بعض القضاة يجمع بين ولايتى القضاء والشرطة .

(د) الحسبة :

كان من واجب الخليفة أن يعاقب من يحيدون عن مبدأ الرفق بالحيوان ، ويتسببون فى تعطيل حركة المرور ، سواء كان التعطيل بإقامة بناء على الطريق ،

أو بمجرد الجلوس فيه . وهذه الأعمال التى تهم الجمهور ، ويقوم بها فى عصرنا جمعية الرفق بالحيوان ورجال الشرطة وغيرهم من الهيئات ، كان يقوم بها الخليفة فى أول الأمر ، ثم صارت من واجب القاضى ، فلما كثرت وتنوعت عين للقيام بها موظف خاص يسمى « والى الحسبة » .

وكان والى الحسبة يعرف عند المتأخرين باسم « المحتسب » . وهو الذى ينظر فى الأمور التى تتعلق بالنظام العام ، كما كان يقضى فى الجنايات التى يستدعى الفصل فيها السرعة ، حتى أن القضاء والحسبة كانا يسندان فى بعض الأحيان إلى رجل واحد ، مع مابين العملين من التباين : فعمل القاضى مبنى على التحقيق والأناة فى الحكم ، وعمل المحتسب مبنى على الشدة والسرعة فى الفصل[1] .

والحسبة منصب دينى يتصل بالقضاء . ومما يذكر عن عمر بن الخطاب أن بعضهم رآه يضرب جمالا ويقول : حمّلت جملك مالا يطيق ، وأن بعضهم رآه يضرب التجار إذا اجتمعوا على الطعام (يقصد به القمح) بالسوق حتى يبعدهم عن طريق المارة ويقول : لاتقطعوا علينا سابلتنا ، وأنه دخل السوق وهو راكب فرأى دكانا قد أحدث فكسره . وبذلك كان عمر أول من أدخل هذا النظام عند ما استعمل عبد الله بن عتبة على السوق . قال ابن القيم فى كتاب « الطرق الحكمية » : وأما الحكم بين الناس فيما لا يتوقف على الدعوى ، فهو المسمى بالحسبة ، والمتولى له والى الحسبة . وقد جرت العادة بإفراد هذا النوع بولاية خاصة .

وكانت مهمة المحتسب الإشراف على نظام الأسواق . فكان له نواب يطوفون فيها : فيفتشون الفنادق العامة ، ويشرفون على السقائين للتحقق من تغطيتهم القرب ولبسهم السراويل ، كما كان يحول دون بروز الحوانيت حتى

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧١ — ٧٢ .

لا تعوق نظام المرور ، وكان له أن يمنع النـاس من حمل مازاد على طاقتهم ، أو تحميل الحيوانات أو السفن أكثر مما ينبغى ، وكان له أن يشرف على نظافة الشوارع والأزقة ، ويحكم بهدم المبانى المتداعية وإزالة أنقاضها ، ومنع معلمى الكتاتيب من ضرب الأولاد ضرباً مبرحاً ، كما كان المحتسب يكشف عن صحة الموازين والمكاييل .

وارتقى نظام الحسبة فى الإسلام رقيـاً كبيراً ، وكان ينال قسطاً وافراً من عناية الخلفاء والفقهاء ، فعملوا على توسيع دائرة المحتسب ، حتى جعلوها تشمل : الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والنظر فى مراعاة أحكام الشرع ، والإشراف على المساجد للتحقق من إقامة الصلاة فى ميعادها وأن الأئمة يؤدون أعمالهم وفق الأوامر الشرعية .

٤ — النظام الحربى

الجيش : نظام الجيش :

لم يكن للعرب فى الجاهلية نظام خاص للجند ، لأنهم كانوا على حالة البداوة الأولى ، فكان رجال القبيلة يذهبون للقتال مشاة وفرساناً إذا دعا داع حاملين أسلحتهم المعروفة فى ذلك الوقت وهى : السيف والرمح والقوس ، فإذا ما انتهى القتال عادوا إلى مساكنهم وانصرفوا إلى أعمالهم .

ولما جاء الإسلام ، بدأ العرب يقاتلون فى سبيل نشره بالغزو والفتح ، وكان عمر بن الخطاب أول من جعل الجنـد فئة مخصوصة ، وأنشأ ديوان الجند للإشراف عليهم بتقييد أسمـائهم ومقدار أرزاقهم وإحصـاء أعمالهم ، وكان القتال فى عهد عمر قائماً على العاطفة الدينية والرغبـة فى نشر الإسـلام فى كثير من الأقطار . ولمـا تمكنت جيوش المسلمين من فتح العراق والشام وفلسطين ومصر ، أقام الجنود فى هـذه الأمصار فى معسكرات خاصة بهم ،

واشتغلوا بالزراعة . وعمدوا إلى تكوين الثروة وامتلاك العقارات الثابتة ، وبذا فترت الروح العسكرية ، ففطن عمر إلى هذا الخطر وأمرهم بأن ينصرفوا إلى الجهاد وضمن لهم أرزاقهم . وإليه يرجع الفضل فى إقامة الحصون والمعسكرات الدائمة لراحة الجنود ، بعد أن كانوا يقطعون المسافات الطويلة على ظهور الإبل ولا يرتاحون أثناء الطريق إلا فى أكواخ مصنوعة من سعف النخل ، ومن ثم أنشئت العواصم وأقيمت الحاميات فى عدة أماكن لصد هجمات الأعداء المفاجئة . وكان عدد جنود العرب عند فتحهم حصن نابليون يتراوح بين ١٢٫٠٠٠ و ١٦٫٠٠٠ ، ولما حدثت الفتنة التى أدت إلى انقسام المسلمين على أنفسهم فى عهد عثمان ، أصبح القتال فى سبيل الدفاع عن الرأى الذى يراه كل مسلم صالحاً لاستقامة الأمور فى ذلك الوقت وليس فى سبيل نشر الدين كما كان الحال فى عهد أبى بكر وعمر .

وبلغ عدد رجال الجيش فى عهد معاوية بن أبى سفيان أربعين ألفاً ، من الجنود المرتزقة والمتطوعة . وأدخل عبدالملك بن مروان نظام التجنيد الإجبارى ، وكان الجيش فى عهده من العنصر العربى ، ولما ملك الأمويين شمال إفريقية وبلاد الأندلس استعانوا بالبربر فى الجيش .

أسلحة الجيش :

كان الجيش يتألف من الفرسان ويتسلحون بالدروع والسيوف والرماح ، ومن الرجالة وأسلحتهم الحراب والأقواس والسهام . وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والحلاة بريش النسور ، بينما يرتدى الرجالة أقبية قصيرة متدلية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالا وكانوا يقفون فى صفوف متراصة يتقدمهم حاملو الرماح لصد هجمات الفرسان .

وكان العرب يجيدون استعمال الأقواس والرمى بالنبال . وكان الرسول أول من رمى فى الإسلام بالمنجنيق ، وهو أداة ترمى بها الحجارة على الأعداء ،

واستعمله لأول مرة فى قتال الطائف[1] . وكذلك سَيّر الرسول إليهم الدبابات وهى من آلات الحرب ، يدخل المحاربون فى جوفها إلى جدار الحصن فينقبونه وهم فى داخلها ، يحميهم سقفها وجوانبها من العدو ، واستعمل الرسول الضُّبور ليتقى بها المسلمون النبل الموجه إليهم من علٍ وهى بمنزلة السيارات المدرعة اليوم[2] .

ويرجع السبب فى تفوق العرب على أعدائهم : إلى أسلحتهم التى استعملوها ، وإلى ما امتازوا به من النشاط ، والخفة ، وسرعة الحركة ، والمثابرة ، والصبر على تحمل الشدائد ، والحماس ، وبذل النفس فى نصرة الدين .

إمرة الجيش :

كان الرسول عليه السلام قائد جيوش المسلمين ، ومن بعده أسندت قيادة الجيش إلى الخلفاء الراشدين . ولما تعددت الجيوش المقاتلة فى البلدان المختلفة ؛ اختار الخليفة لقياداتها قواداً عرفوا بالشجاعة والنجدة والإقدام واشتهروا بالذكاء وحسن التدبير ، وإذا اجتمع أكثر من قائد واحد فى مكان واحد ، عين الخليفة أحدهم للصلاة بالناس فيصبح هذا القائد بمثابة قائد القواد . ومتى انتهى الفتح ووقف القتال ، أصبحت مهمة هؤلاء القواد مقصورة على النظر فى أمر الجند وتدريبهم وتحسين معداتهم وأسلحتهم .

وكان ديوان الجند الذى استحدثه عمر بن الخطاب أكبر مساعد على تحسين نظام الجند وضبطه فى الإسلام . وأخذ المسلمون أيام النبى يقفون للقتال صفوفاً كما كانوا يفعلون فى الصلاة ، ثم يسيرون لملاقاة العدو متضامنين ، ليس لأحدمنهم

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٢٠٢ .
(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ١٨٢ .

أن يتقدم من الصف أو يتأخر عنه ، عملا بقول الله تعالى (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص)[1] .

البحرية :

لما فتح العرب بلاد الشام ، شاهدوا سفن الروم فتطلعت نفوسهم إلى مجاراة أعدائهم وركوب البحر مثلهم ، وألح معاوية بن سفيان على عمر بن الخطاب أن يأذن له بغزو بلاد الروم بحراً لقربها منه ، فكتب عمر إلى عمرو بن العاص والى مصر يسأله أن يصف البحر ، فكتب إليه عمرو يقول : « ياأمير المؤمنين ! أنى رأيت البحر خلقا كبيراً ، يركبه خلق صغير ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق » . فلما جاء الكتاب إلى عمر ، كتب إلى معاوية يقول « لا ، والذى بعث محمداً بالحق ، لا أحمل فيه مسلماً أبداً » .
ومما يدلنا على مبلغ كره العرب لركوب البحر ، أن عمَرا بعد أن تم له فتح مصر ، أرسل إلى عمر بن الخطاب ، يستأذنه فى اتخاذ الأسكندرية حاضرة لولايته ، فسأل الخليفة رسول عمرو : هل يحول بينى و بين المسلمين ماء؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ! إذا جرى النيل ، فكتب إلى عمرو : إنى لا أحب أن تنزل بالمسلمين منزلا يحول الماء بينى و بينهم فى شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بينى و بينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حين أقدم عليكم قدمت ، وأشار عليه باتخاذ مدينة أخرى غير الأسكندرية .

ويرجع الفضل إلى عثمان بن عفان فى إنشاء أول أسطول إسلامى للدولة العربية ، فقد أذن لمعاوية بن أبى سفيان فى غزو الروم بحراً ، على ألا يحمل أحداً على ركوب البحر كرها ، بل يجعل الأمر اختياريا ، ونجح معاوية فى غرضه ،

(١) آية ٤ ، سورة الصف .

فتشجع المسلمون وأقدموا على ركوب البحر وتفوقوا على الروم وغيرهم . وكثر عدد السفن وأتقن تسليحها ، وكان لهذه القوة البحرية أكبر الأثر فى اتساع رقعة الدولة الإسلامية .

وعنى معاوية بعد أن تولى الخلافة بإنشاء السفن الحربية ، ورتب « الشواتى » و « الصوائف » ، بما يكفل استمرار الحرب بينه وبين الدولة البيزنطية شتاء وصيفاً . واستمرت البحرية الإسلامية فى عظمتها طوال العصر الأموى ، حتى بدأت الدولة الإسلامية فى الشرق والغرب فى الانحطاط ، وإذ ذاك بدأت القوة البحرية فى الضعف .

إمرة الأسطول :

اهتم العرب بإنشاء الأساطيل ، وأصبح وجود بحرية إسلامية لصيانة الموانى ومنازلة الأعداء أمراً ضرورياً . وبنيت السفن فى معظم الموانى البحرية السورية والمصرية . وكانت السفن العربية أضخم من البيزنطية ولو أنها كانت فى الغالب أقل منها سرعة ، ولقيت التجارة البحرية تشجيعاً كبيراً ، فقد كان بكل مرفأ منارة تدعى « الخشب » . ولم يكن الأسطول مؤلفاً من السفائن التى ابتنتها الحكومة للمهام الحربية فحسب ، وإنما كان لزاماً على كل مقاطعة أو ثغر، تقديم عدد خاص من السفن إذا ما طلب منها ذلك . وكان لكل سفينة حربية قائد (أو مقدم) له القيادة فى كل ما يختص بسفينته فى البحر ، ومهمته تدريب الجند وتجهيز الحملات . وكان قائد الأسطول يدعى أمير الماء أو أمير البحر[١] . ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولكن العرب الذين فطروا على الشجاعة وحب المغامرة ما لبثوا أن أصبحوا أساتذة أوربا ، حتى أن بعض الاصطلاحات البحرية المستعملة فى أوربا تحتفظ بعربيتها إلى اليوم ، ولا تزال كثير من الاصطلاحات العربية البحرية شائعة على ألسنة البحارة فى جنوب أوربا[٢] .

---

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٣٩ — ٢٤٠ .

(٢) Von Kremer : Orient under the Caliphs, P. 356.

٥ — النظـــام المالى

كان بيت المال عند العرب بعد الإسلام بمثابة وزارة المالية فى وقتنا هذا : ففيه بيان شامل بمصادر الإيرادات المختلفة و بيان آخر بمصروفات الدولة بجميع أنواعها . ولم تـكن الإيرادات كلها نقداً ، بل كان بعضها نوعاً (أى من أنواع المحصولات) كالأقمشة والغلال والأسلحة . وكان لبيت المال نصيب فى الفىء والغنيمة ، و إليه ترد ضريبة الخراج والجزية والعشور والزكاة وما شا كل ذلك . وكان بيت المال يسمى « الديوان السامى » لأنه أصل الدواوين ومرجعها ، وهو عبارة عن عدة بيوت تحفظ فيها أنواع الإيرادات ، يودع كل نوع فى بيت خاص : فـكان هناك ديوان الخزانة للقماش ، وديوان خزائن السلاح والذخائر . ومن إيرادات بيت المـال ، تصرف أرزاق الجند والقضاة والولاة ، وتشترى الأسلحة والذخائر ، وتنفذ المشروعات العامة المفيدة مثل كرى الأنهار و إصلاح مجاريها وحفر الترع .

وأهم موارد بيت المـال : الخراج ، والجزية ، والعشور ، والزكاة ، والفىء ، والغنيمة .

موارد بيت المال : (ا) الخراج

كلة « الخراج » فى معناها ثلاث ضرائب : ضريبة الأرض الخراجية ، والجزية ، والعشور . وخراج الأرض عبارة عن الضريبة التى كان يجبيها المسلمون على الأرض التى كانوا يستولون عليها عنوة أو صلحا وتبقى فى يد أهلها[1] .

وكان الخراج : إما شيئاً مقدراً من مال أو غلة كما صنع عمر بن الخطاب

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٣١ .

فى أرض السواد بعد فتحها . وقد بلغت ضريبة الفدان المنزرع قمحاً فى هذه الأراضى فى عهده أربعة عشر درهما ، وإما حصة معينة ممـا خرج من الأرض وهذا ما يسمى بالمعاملة أو المزارعة ، كما عامل النبى صلى الله عليه وسلم ، أهل خيبر على أساس تقديم نصف ما يخرج من الأرض قليلاً أو كثيراً .

ولم يكن مقدار الخراج معروفاً تماماً فى عهد الخلفاء الراشدين ، واختلف مؤرخو العرب فى تقديره : فقصره بعضهم على جزية الرؤوس التى كانت على أهل الذمة ، وقصره البعض الآخر على ضريبة الأرض ، وجمع آخرون بين الضريبتين ، وربما أدخلوا فى حسابهم كذلك العشور ونحوها . كذلك لم يكن مقدار الخراج ثابتاً ، فقد كانت ضريبة الأرض ، تقل وتـكثر حسب التعمير وتحسين وسائل الرى ، كما أن جزية الرؤس كانت تتناقص بتوالى دخول أهل الولايات الإسلامية فى الإسلام . وكان الخلفاء يعينون فى العـادة عمالاً مستقلين عن الولاة والقواد للقيام بجباية الخراج ، فيدفعون منه أرزاق الجند وما تحتاج إليه المرافق العامة من ضروب الإصلاح ، ويرسلون الباقى إلى بيت المـال ليصرف فيما خصص له .

وكان عهد الخلفاء الراشدين عهد عدل وتسامح ، لم يشتد فيه الولاة فى جمع الضرائب . إلا أن بعض الجباة كانوا يسيئون استعمال سلطتهم ويرهقون الناس ، فـكان حسن اختيارهم وفرض الرقابة على أعمالهم أمراً ضرورياً .

وكان الخلفاء يشرفون بأنفسهم على جبـاية الخراج ويحاسبون الولاة وعمال الخراج حساباً عسيراً . وسن عمر بن الخطاب لذلك نظاماً ، يقضى بعمل إحصاء دقيق لثروة الولاية قبل توليتهم ، ثم إلزامهم عند اعتزالهم أعمالهم بدفع نصف الأموال التى جمعوها لأنفسهم فى أثناء ولايتهم ، تبين له أن رواتبهم لا تسمح لهم بادخار هذه الأموال كلها . على أن الولاة وعمال الخراج استطاعوا برغم ذلك جمع الثروات الضخمة ، واحتالوا لذلك بوضع الأموال التى كانوا يجمعونها

أمانة عند أصدقائهم أو ذوى قرباهم[1] . أما الأمويون فقد سنوا نظاماً دقيقاً للإشراف على جباية تلك الأموال : ففى عهد عبد الملك بن مروان كان يعمل تحقيق مع الجباة وموظفى الخراج عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية ، وكانوا يعذبون أحياناً حتى يقروا بأسماء من أودعوا عندهم ودائعهم وأموالهم ، ويردوا إلى بيت المال ما أخذوه من الأموال .

وكانت هناك ثلاث طرق لجباية الخراج ، وهى : نظام المحاسبة ، ونظام المقاسمة ، ونظام الالتزام .

ويقضى نظام المحاسبة : بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض أو مقدار غلتها ، وكانت هذه الضريبة نقداً أو نوعاً ، أو نقداً ونوعاً معاً وهى عبارة عن مقادير معينة من المال والغلة ، تجبى كل عام على أساس مساحة كل قطعة من الأرض ، بحسب نوع غلة الأرض .

أما نظام المقاسمة : فيقضى بتخصيص مقدار من المحصول يؤدى لبيت المال . بمعنى أن يقدر لذلك ثلث المحصول أو ربعه وهكذا ، كما يفعل بعض أصحاب الأراضى الزراعية فى مصر الآن عند تأجير أطيانهم للفلاحين ، حيث يؤجر الفدان نظير استيلاء مالكه على نصف محصوله أو ثلثه . واتبع بعض الخلفاء طريقة المقاسمة . وهذه الطريقة ، وإن كانت أقرب إلى صالح الفريقين ، إلا أنها متعبة مربكة للحكومات .

أما نظام الالتزام : فهو أن يتعهد شخص من ذوى الغنى والنفوذ ، بدفع مال سنة عن خراج إقليم من الأقاليم أو خراج إحدى المدن أو القرى ، ويقوم هو بجمع الخراج بنفسه من هذه الجهة . وكان الكثيرون يتنافسون فى الحصول على هذا الامتياز ، وقد تحدث مزايدة بين المتنافسين ، فيحصل على الالتزام

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٨٧ .

أكثرهم عطاء . وفى هذه الطريقة ضمان كاف فى تحصيل الضرائب ، وبطريقة عاجلة . وكان الصحابة فى صدر الإسلام يكرهون طريقة الالتزام هذه ، وينهون عن اتباعها . غير أنه بمضى الزمن وتطور الأحوال ، واختلاط العرب بالرومان لجأوا إلى اتباعها بعد أن اقتبسوها منهم ، لأنهـا كانت شائعة فى الدولة الرومانية . وهذا النظام قديم ، يرجع إلى اليونان ، ولم يلبث العرب أن أدخلوا نظام الالتزام فى القضاء والحسبة والشرطة .

على أن نظام الإقطاع[1] لم يخل من العيوب ، إذ أن المقطع أو الملتزم يعمل على الإثراء وجمع الأموال الضخمة ولا يتردد فى إرهاق الأهالى وإثقالهم بأنواع الضرائب المختلفة ، ليستطيع أن يؤدى إلى الحكومة ما عليه من مال الخراج ، ويحفظ ما زاد لنفسه ، والأهالى من ذلك مغلوبون على أمرهم ، فلما تصل شكاياتهم إلى السلطة المركزية .

(ب) الجزية

والجزية مبلغ معين من المـال ، يوضع على الرؤوس ، ويسقط بالإسلام ، وثبتت الجزية بنص القرآن فى قوله تعالى : (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، ولايدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)[2] . والفرق بين الجزية والخراج : أن الخراج يجبى على الأرض ، ولايسقط بالإسلام ، وثبت بالاجتهاد . وليست الجزية من مستحدثات الإسلام ، بل هى قديمة ، فرضها الإغريق على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد نظير حمايتهم من

---

(١) يقال اقتطع طائفة من الشىء أخذها ، وأقطعنى إياها أذن أن يقطعه إياها . والإقطاعية طائفة من أرض الخراج يقطعها الجند فتجعل لهم غلتها رزقا .

(٢) آية ٢٩ سورة التوبة .

الفينيقيين ، كما وضع الرومان والفرس الجزية على بعض رعايا الدول التى أخضعوها ، وكانت سبعة أمثال الجزية التى وضعها المسلمون ، والظاهر أن العرب أخذوا هذا النظام عن الفرس .

وكانت الجزية فى أيام النبى وأبى بكر غير محدودة ، فكان أمر تقديرها متروكا لهما ، حسب ما يراه كل منهما من ظروف الأحوال ، أو بالتراضى مع أهل الجزية . ولما كثرت الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر رأى تحديد قيمتها ، وكتب إلى أمراء الجند بما قرره فى ذلك ، وساروا على طريقة التحديد ، غير أن القيمة تغيرت ، وقدرت حسب درجات الناس ومقدرتهم ، فجعلت فى السنة :

(١) ٤٨ درهما تفرض على الأغنياء .

(٢) ٢٤ درهما تفرض على متوسطى الحال .

(٣) ١٢ درهما تفرض على الفقراء الذين يستطيعون الكسب .

وفى مصر ، فرض عمرو بن العاص دينارين فى كل سنة على كل رجل من أهل الذمة ، واستثنى من ذلك النساء والصبيان والشيوخ .

وكانت الجزية لا تؤخذ من مسكين يتصدق عليه ، ولا ممن لا قدرة له على العمل ، ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون وغيرهم من ذوى العاهات ولا من المترهبنين فى الأديرة إلا إذا كانوا من الأغنياء[1] ، ولا تجوز إلا على الرجال الأحرار العقلاء ، ولا تجب على امرأة أو صبى ، ولا تقبل الجزية من عبدة الأوثان من العرب ولا من المرتدين فأولئك كانوا يخيرون بين الاسلام والسيف ، والحكمة فى ذلك الرغبة فى توحيد الأمة العربية .

وقد فرضت الجزية على الذميين ، فى مقابل فرض الزكاة على المسلمين ،

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٦٩ — ٧٢ .

حتى يتكافأ الفريقان : لأن الذميين والمسلمين رعية لدولة واحدة ، وينتفعون بمرافق الدولة بنسبة واحدة . لذلك أوجب الله الجزية للمسلمين ، نظير قيامهم بالدفاع عن الذميين وحمايتهم فى الأقاليم الإسلامية التى يقيمون فيها . وفرضت الجزية على أهل الذمة ، نظير إعفائهم من القتال فى جيوش المسلمين ثم حمايتهم من الأعداء والدفاع عنهم وعن أملاكهم ومنحهم حرية العبادة .

(ج) العشور والزكاة :

أما العشور فهى ضريبة تفرض على السفن التى تمر ببعض الثغور وكذلك على التجارة عند مرورها من إقليم إلى إقليم ، وقيمتها عشر حمولة السفن وثمن المتاجر ، وهى تشبه الضرائب الجركية فى الوقت الحاضر . وأول من فرض العشور عمر بن الخطاب .

والزكاة[1] والصدقة شىء واحد ، وهى المال الذى يؤخذ من أغنياء المسلمين ويوزع على فقرائهم ، وكانت تجبى من المسلمين فى كل سنة ، ولها فى مركز الخلافة ديوان خاص ، وله فروع فى الجهات المختلفة . وقد خص الله سبحانه وتعالى بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراج سهم يؤدونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيا ضمنه بقوله : (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها)[2] . وقد سميت الزكاة بهذا الإسم ، لأن إخراج شىء من مال الإنسان والتصدق به كفيل بتنمية هذا المال وإنزال البركة فيه ، ولأن إخراج شىء من المال يطهره ، ويبعد عن صاحبه نظرة الحقد والحسد من الفقراء ، ويذهب عن نفس صاحبه الشح والأثرة ، قال تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)[3] . وكانت أموال الزكاة توزع على ثمانية

---

(١) من أزكى الشىء ، يزكيه إذا نماه ، أو من زكاه تزكية إذا طهره .

(٢) آية ٦ سورة هود .

(٣) آية ١٠٣ سورة التوبة .

أصناف من الناس وهم الذين ورد ذكرهم فى قوله تعالى : (إنما الصدقات للفقراء ، والمساكين[1] ، والعاملين عليها[2] ، والمؤلفة قلوبهم[3] ، وفى الرقاب[4] ، والغارمين[5] ، وفى سبيل الله[6] ، وابن السبيل[7] فريضة من الله والله عليم حكيم)[8] .

ويلاحظ أن ما خص الفقراء والمساكين من صدقة مدينة ما ، وجب توزيعه على أهل هذه المدينة نفسها ، ولا يجوز توزيعه على أهل مدينة أخرى ، وللخليفة أن يتصرف فى الباقى كما يرى ، ولكن فى حدود الوجوه التى أوضحها .

(ء) الفيء والغنيمة :

والفيء[9] هو كل مال وصل من المشركين للمسلمين عنوة من غير قتال ، ولا بإيجاف[10] خيل ولا ركاب[11] ، فهو كمال الهدنة والجزية والخراج . وخمس الفيء يقسم على خمسة أسهم : سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ينفق منه على نفسه

(١) اختلف علماء اللغة وأصل الفقه فى الفرق بين الفقير والمسكين ، وفى حد الفقر الذى تجوز معه الأخذ من الصدقة .

(٢) العاملون عليها : هم السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة .

(٣) المؤلفة قلوبهم : هم قوم كانوا فى صدر الإسلام ممن يظهرون الإسلام ، ويتألفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم ، وقد انقطع هذا الصنف بعد توطيد دعائم الإسلام .

(٤) الرقاب : الرقبة تعتق وولاؤها للمسلمين .

(٥) الغارمون : هم الذين ركبهم الدين ، وليس عندهم ما يوفونه به .

(٦) المراد بقوله تعالى : (فى سبيل الله) الغزاة موضع الرباط ، يعطون ما ينفقون فى غزوهم سواء أكانوا فقراء أم أغنياء .

(٧) المراد بقوله تعالى (ابن السبيل) : الذى انقطعت به الأسباب فى سفره عن بلده ومستقره وماله ، فإنه يعطى من الصدقة وإن كان غنيا فى بلده .

(٨) آية ٦٠ سورة التوبة .

(٩) الفيء : من فاء يفيء ، إذا رجع .

(١٠) الإيجاف : سرعة السير .

(١١) والركاب : الإبل التى يسافر عليها ، لا واحد لها من لفظها أى فى تحصيله خيلا ولا إبلا ، بل حصل بلاقتال .

وأزواجه ويصرفه فى مصالحه ومصالح المسلمين ، وقد سقط بموته صلى الله عليه وسلم .
أما أربعة أخماس الخمس : فسهم لذوى القربى ، والمراد بهم قربى الرسول ، واختلف فيهم فقيل : إنهم قريش كلها ، وقيل بنو هاشم خاصة . وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين . وسهم لابن السبيل عملا بقوله تعالى : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)[1] وبقوله صلى الله عليه وسلم : « مالى مما أفاء الله عليكم إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم » . وكانت أربعة أخماس الفىء الباقية تقسم فى صدر الإسلام بين الجند فى الأعمال الحربية لشراء الأسلحة وغيرها من معدات الحرب حتى دوّن عمر الدواوين وقدر أرزاق الجند .

وإذا جمعت « الغنائم »[2] لم تقسم حتى تنجلى الحرب ، ليعلم بانجلائها تحقق الظفر واستقرار الملك ، ولئلا يتشاغل المقاتلة بها فيهزموا ، كما حصل لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة أحد . فإذا انجلت الحرب كان تعجيل قسمتها فى دار الحرب ، وجواز تأخيرها إلى دار الاسلام بحسب ما يراه أمير الجيش من الإصلاح[3] . ويبدأ الإمام بإخراج الخمس من جميع الغنيمة ، فيقسمه بين أهل الخمس على خمسة أسهم وهم من ذكروا فى قوله تعالى : (واعلموا أنما غنمتم من شىء فإن لله خمسة وللرسول ولذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل)[4] ثم أربعة الأخماس ملك للغانمين ، غير أن الإمام إن رأى أن يمن الأسرى بالإطلاق فعل ، وبطلت حقوق الغانمين فيهم ، وللإمام أن يقتل جميع الأسرى ، وكان لرسول الله صلى الله عليه وسلم سهم كسهم الغانمين ، حضر أو غاب ، وسهم الصفى يصطفى سيفا أو خادما أو دابة[5] .

---

(١) آية ٦ سورة الحشر .
(٢) الغنيمة فى اللغة : ما يناله الرجل والجماعة بسعى .
(٣) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن جـ ٤ ص ٣٤ ، وما بعدها .
(٤) آية ٤١ سورة الأنفال .
(٥) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

نظام الضرائب فى عهد الأمويين :

كان عهد الخلفاء الراشدين والأمويين عهد عدل وتسامح ، لم يشتد الولاة فيه فى جمع الجزية إلا قليلا . على أن الضرائب قد زادت فى عهد بنى أمية عما كانت عليه فى عهد الخلفاء الراشدين ، إذ لم يتبع الخلفاء الأمويون القواعد التى قررها أسلافهم ، بل تجاوزوا حدود الضرائب التى فرضوها . وقد كتب معاوية إلى وردان عامله على مصر : أن زد على كل امرىء من القبط قيراطا ، فكتب إليه وردان : كيف أزيد عليهم وفى عهدهم ألا يزاد عليهم ؟ وفى عهد عبد الملك عمل إحصاء جديد للسكان عامة وكلف كل شخص يسدد ما فرض عليه الضريبة ، وزادت جزية كل شخص ثلاثة دنانير عما كانت عليه من قبل[1] ، وفى العراق زيدت الضرائب الاستثنائية ، مع ما كان يثقل الأهلين من الضرائب المقررة . وكان يعمل تحقيق دقيق مع الجباة عند اعتزالهم أعمالهم الإدارية ، وكانوا يرغمون على رد ما سلبوه من الأموال[2] . وذلك لأنه لم يكن الرؤساء وحدهم هم الذين يثرون على حساب بيت المال ، بل كانت هنالك طائفة من صغار الموظفين لا همّ لها إلا الإثراء من أموال الدولة ، ولم تكن إمرة إحدى الولايات إذ ذاك سوى وسيلة للحصول على الثروة وجمع المال . وكان من أثر تلك الصعوبات التى اعترضت الحكومة فى سبيل استرداد تلك الأموال ، أن فكر عبيد الله بن زياد والى العراق ، فى أن يستبدل بأولئك العمال من العرب غيرهم من الفرس ، ومن ذلك الحين كان يعهد إلى الدهاقين[3] بجباية الخراج ، لأنهم كانوا « أبصر بالجباية ، وأوفى بالأمانة » .

---

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ص ٤٣ .

(٢) فان فلوتن : السيادة العربية ، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٢٧ — ٣٣ .

(٣) هم كبار ملاك الأرض .

ولم يطمع الخلفاء فى كثرة المال إلا فى أواخر بنى أمية ، فإنه فى خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) اشتط أسامة بن زيد صاحب الخراج فى جمع المال حتى جبى اثنى عشر ألف دينار[١] . فلما تولى عمر بن عبد العزيز ، بعث إليه واليه فى مصر أيوب بن شرحبيل الأصبحى[٢] يشكو كثرة دخول الناس فى الإسلام ، ويذكر له أثر ذلك فى الخراج ، فبعث يستأذنه فى فرض الجزية على من أسلم ، فرد عليه عمر بكلمته الخالدة : قبّح الله رأيك ! إن الله بعث محمداً هاديا ولم يبعثه جابيا ، فضع الجزية عمن أسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم فى الإسلام على يديه . وقد أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج ألا يأخذوا من الأهالى من الدراهم ما زاد وزنه على أربعة عشر قيراطا ، وهو ما أمر به عمر بن الخطاب . ورأى أن العمال كانوا يأخذون دراهم أثقل وزنا من تلك الدراهم التى فرضها عمر بن الخطاب ، مما كان يزيد مقدار الضرائب التى كان يدفعها الأهالى ، وكانوا يدفعون : عدا الضرائب المقررة ، نفقات سك النقود وضربها ، ونفقات العقود الرسمية ، ومرتبات عمال الإدارة .

مصارف بيت المال :

كان المال الذى يأتى من الموارد المتقدمة ، ينفق على مصالح الدولة على النحو الآتى :

١ — دفع أرزاق القضاة والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين . ولا يصرف للولاة والقضاة شىء من أموال الصدقة ، وكانت زيادة رزق الوالى أو القاضى من حق الخليفة .

٢ — دفع أعطيات الجند ، وهى رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام . وكانت فى أيام الرسول عليه السلام غير محدودة ولا معينة ، وإنما كانوا يأخذون من أربعة أخماس الغنيمة ، وما يرد من خراج

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ٩٩ .

(٢) قيل إنه حيان بن شريح : خطط المقريزى .

الأرض التي بقيت في أيدي أهلها كما كانت تقسم بينهم بالسوية . ولما ولي أبو بكر سوى بينهم في العطاء قائلا : هذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة . ولكن عمر بن الخطاب جعل العطاء بحسب السبق إلى الاسلام ، فكان : لأزواج الرسول ولعمه العباس ۰۰۰ر۱۰ درهم إلا عائشة فقد أعطاها ۰۰۰ر۱۲ لمكانتها ومكانة أبيها من الرسول [1] ، ولمن شهد بدرا والحسن والحسين ۵۰۰ درهم ، ولمن كان إسلامه كإسلام أهل بدر لم يشهدوها ۰۰۰ر٤ درهم ، ولعبد الله بن عمر ولبعض أبناء المهاجرين والأنصار ۰۰۰ر۳ درهم ، ولأبناء المهاجرين والأنصار ۰۰۰ر۲ درهم ، ولأهل مكة ۸۰۰ درهم ، ولسائر الناس مبالغ تتراوح بين ۳۰۰و٤۰۰ درهم ، ولنساء المهاجرين والأنصار مبالغ تتراوح بين ۲۰۰ ر ۳۰۰ ر ٤۰۰ ر ٦۰۰ درهم ، ولأمراء الجيوش ۷۰۰۰ر۸۰۰۰ر۹۰۰۰ درهم بحسب الأعمال التي يقومون بها ، فضلا عما كان يدفع لنسائهم وأولادهم وما فرض لكل منهم من الحنطة وهو ما يخرج عن مساحة جريبين [2] . وظلت أعطيات الجند على هذا النحو أيام الخلفاء الراشدين ، ولكن في عهد الأمويين زاد معاوية أعطيات جنده ، وذلك رغبة منه في استرضاء العرب في بدء قيام دولته ، ولكن بعد أن توطدت دعائم الدولة الأموية أنقص خلفاؤها المبلغ الذي كان يصرف على تلك الأعطيات إلى أقل من النصف .

۳ — حفر الترع وكرى الأنهار وإصلاح مجاريها وخاصة المجاري التي كانت تأخذ من الأنهار الضخمة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضي البعيدة ، وكذلك الانفاق على المعدات الحربية وعلى مايلزم المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، وغيرذلك مما يستلزمه بذل العطايا والمنح للأدباء والعلماء [3] .

(۱) بدر الدين بن جماعة : تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام . العدد ۷ ص۳۸٤ ، من مجلة Islamica، سنة ۱۹۳٤

(۲) الجريب من الأرض والطعام : مقدار معلوم ، وقيل إنه ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، وقيل إنه عشرة آلاف ذراع .

(۳) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ۱۹٤ — ۱۹٦ .

الحياة الاجتماعية

طبقات الشعب :

كان ظهور الإسلام فى الجزيرة العربية وانتشاره منها إلى أمم الأرض المختلفة ، أعظم انقلاب شاهده القرن الأول الهجرى ، وكان من نتائجه انقلاب اجتماعى آخر لا يقل عنه خطورة ، ونعنى به المساواة التامة بين معتنقى الدين الجديد .

كانت المساواة بين الناس ، مبدأ من أهم مبادىء الحكومة الإسلامية الأولى التى أنشأها النبى عليه السلام ، يوم دخوله المدينة المنورة واستقر بها زعيماً للأوس والخزرج ومن هاجر إليهم من قريش . وكانت الحكومة عربية خالصة فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين ، ونظر الأمويون إلى غير العرب من أهالى الأقطار المفتوحة نظرة السيد للمسود برغم اعتناقهم الإسلام ، وهؤلاء اصطلح على إطلاق كلمة موالى عليهم ، أما الذين رفضوا اعتناق الدين من النصارى واليهود فهم أهل الذمة وكانت لهم الحرية التامة فى إقامة شعائر دينهم بشرط أن يدفعوا الجزية للمسلمين .

وقد حرم على « المولى » بعض الحقوق والامتيازات التى تمتع بها إخوانهم العرب مما أثار روح القومية فى نفوسهم ، فثاروا على الحكم الأموى ، وانتهزوا الفرص كلما لاحت لهم للقضاء على الدولة الأموية[1] : فانضموا إلى عبد الله بن الزبير الخارج على الدولة وأيدوه فى مطالبته بالخلافة ، واشتركوا فى ثورة المختار

---

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٠٨ .

التى يراها البعض أول حركة قوية استغلها الموالى لكى ينتقموا لأنفسهم ويحققوا مأربهم بإرجاع السيادة القومية لهم وتحطيم السيادة العربية[1] . كذلك اشترك الموالى فى ثورة ابن الأشعث ضد الحجاج والدولة الأموية ، وكانت هذه الثورة ذات أثر كبير فى إضعاف الحكومة القائمة ، وهى وإن فشلت فى النهاية فى القضاء على ابن الأشعث ، إلا أنها أيقظت الآمال فى نفوس الأحزاب المعارضة ، فاستسلموا للهدوء حيناً من الدهر ريثما تحين لهم الفرصة المناسبة[2] .

هذا إلى أن العنصر العربى نفسه لم يكن متحد الكلمة بسبب اشتعال العصبية القبلية التى حاول الإسلام القضاء عليها ، وكان تفاقم روح العصبية فى خراسان خاصة من أهم العوامل التى ساعدت على نجاح الدعوة العباسية على أيدى الموالى الذين سخطوا على الحكم العربى ، كما ساعد اشتعال العصبية فى الأندلس على قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن الداخل الأموى فى هذه البلاد[3] .

ولم يختلف الحال مع أهل هذه البلاد التى فتحها العرب ، كالشام ومصر والعراق ، فمنهم من أسلم عقب الفتح الإسلامى . وهؤلاء أصبحوا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون . أما أهل الذمة فقد فرضت عليهم الجزية كفاء حمايتهم وتأمينهم على نفوسهم وأولادهم وأموالهم ، على أن ترفع عنهم الجزية متى أسلموا . وقد أحسن العرب معاملة أهل الذمة فى الشام ومصر وبلاد الأندلس ، فسمحوا لهم بمزاولة التجارة وشتى الحرف التى يجيدونها .

---

(١) النجار : الموالى فى العصر الأموى ص ١٠٧ .
(٢) النجار : نفس المصدر ص ١١١ — ١١٢ .
(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٠٨ .

المرأة :

ببزوغ شمس الإسلام ، أخذت المرأة العربية تنعم بمطالع عهد سعيد . ذلك أن الإسلام حبا المرأة بالكثير من التقدير ، وأعلى من مركزها ، ورفعها إلى المكانة السامية الجديرة بها فى المجتمع ، كذلك أحاط المرأة بسياج من الحماية ، وكفل لها حياة راضية مرضية .

وقد حرصت المرأة العربية على بساطتها البدوية ، وعلى الحرية التى درجت عليها أيام الجاهلية ، برغم انتشار اللهو والترف فى عهد الأمويين ، لذلك لا نعجب إذا افتخر الآباء بأسماء بناتهم ، فكان الرجل لا يتحرج عن أن يكنى بابنته ، فينادى بأبى ليلى وأبى بثينة ، وكانت نساء العرب يستقبلن الرجال ويتحدثن إليهم كما كن يعرفن قيمة أنفسهن ، فكان المجتمع يقدرهن أحسن تقدير .

وممن اشتهر من نساء ذلك العهد ، عائشة أم المؤمنين التى ضربت بسهم وافر فى الفقه والحديث ، حتى كان الأئمة يقولون عنها : حدثتنى الصديقة بنت الصديق البريئة[1] ، والسيدة سكينة بنت الحسين وهى من أبرز نساء العرب اللاتى حزن قصب السبق فى العلم والمعرفة فى ميدان الأدب والشعر[2] ، وعاتكة بنت يزيد ، وفاطمة بنت عبد الملك ، وعائشة بنت طلحة ، وزينب بنت موسى الجمحية ، وأم البنين زوجة الخليفة الوليد بن عبد الملك التى اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة .

ومما رواه المؤرخون عن شهيرات ذلك العصر ، وبخاصة أحاديثهن فى مجالسهن ومواكبهن إذا سرن إلى حج وصداقهن إذا تزوجن وحديثهن فى الزواج ممن يشأن ، نلمس علو مكانة المرأة العربية فى هذا العصر من عصور الإسلام .

خطب عمر بن الخطاب ، أم كلثوم أخت عائشة أم المؤمنين وكانت صغيرة ،

---

(١) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٣٤ .

(٢) على إبراهيم حسن : نفس المصدر ص ٦٦ .

فأرسل إلى عائشة فى ذلك ، فلما ذكرت ذلك عائشة لأم كلثوم قالت لها : لاحاجة لى فيه ، فقالت عائشة : أترغبين عن أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم إنه خشن العيش شديد على النساء[1] . وكانت عائشة بنت طلحة لاتستر وجهها من أحد ، فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير فى ذلك ، فقالت : إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنت لأستره ، والله مافىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد[2] .

أما عن صداق النساء الكريمات فى ذلك العهد ، فحدث عنه ولا حرج ، فقد روى الرواة أن مصعباً بن الزبير لما تزوج عائشة بنت طلحة بعد وفاة زوجها الأول ، أمهرها خمسمائة ألف درهم وأهدى لها مثل ذلك[3] . ولما تزوج مصعب من سكينة بنت الحسين أمهرها ألف ألف درهم ، فقال أحد الشعراء :

أبلغ أمـــير المؤمنين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا

مهر الفتاة بألف ألف كامل ... وتبيت سادات الجنود جياعا

لو لأبى حفص أقول مقالتى ... وأبث ما أبثثتـــكم لارتاعا

فلما سمع عبد الله بن الزبير ذلك ، قال : صدق والله ، لو تقال هذه المقالة لأبى حفص ، لارتاع من تزويج امرأة على ألف ألف ، ثم عزله عن البصرة[4] . ولم تغفل المرأة العربية فى ذلك العصر نصيبها من الدنيا ، فنراها تبتكر وتتفنن فى ملبسها وزيها وحليها ، مما صار فى كثير من الأحوال نماذج تحتذى وأمثلة يقتدى بها وطابعا ذائع الانتشار[5] . ومما يشير أيضا إلى مكانة المرأة ، أنها

---

(١) ابن عبد ربه . العقد الفريد جـ ٣ ص ٢٧٥ .

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١ ص ٥٤ .

(٣) الأصفهانى : نفس المصدر جـ ١٠ ص ٦٥ .

(٤) الأصفهانى : نفس المصدر جـ ١٤ ص ١٦٨ — ١٧١ .

(٥) راجع ما كتبناه عن ملابس المرأة فى العصر الأموى ، فى كتابنا « نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب » ص ١٢٨ — ١٣٠ .

لم تكن تنكر التشبيب بها ، ولا تتأثر أو تغضب إذا ذكرها الشعراء ، بل كان من النساء الشريفات كأم البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، من كن يرغبن فى أن يذكرن فى شعر الشعراء . وفى حديث عبد الله بن الزبير مع أمه أسماء بنت أبى بكر واستشارته لها ونصيحتها له حين سار الحجاج إلى مكة وحاصرها وضرب الكعبة بالمجانيق ، ما يدل على بسالة نساء العرب وشهامتهن فى ذلك العصر .

الغناء والموسيقى :

كانت العرب فى جاهليتها تعرف الغناء ، ولم يكن هذا الغناء — على مايظهر واسع الانتشار فى أنحاء الجزيرة العربية ، بل اقتصرت حفلاته على بعض المدن ، كالمدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة . ولما دان العرب بالإسلام واحتلت جيوشهم بلاد فارس والروم وشمالى إفريقية ، ناشرين دينهم الجديد ، اتصل العرب الفاتحون بسكان هذه الأقاليم ، فتعلموا منهم الغناء الجزأ المؤلف بالفارسية والرومية ، وغنوا بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير[1] .

وكان أول من غنى فى الإسلام الغناء الرقيق ، طويس ، وهذا علمّ ابن سريج والدلال ونؤمة الضحى[2] . واختلف الغناء فى العهد الأموى عما ألفه العرب أيام جاهليتهم ، إذ أصبح فناً منظما له رجاله وأصحابه ومعلموه ، وملك هذا الفن الجديد على شباب العرب قلوبهم وعقولهم ، فاتخذوا له أندية خاصة ، يذهب إليها مغنون أخصاء يطربون الحضور من الرجال والنساء .

ولقد ازدهر الغناء فى العهد الأموى ازدهارا عظيما ، حتى حفلت كتب الأدب والتاريخ بذكر أخبار المغنين كابن سريج وحنين الحيرى ، ومن المغنيات جميلة وعزة الميلاء وقد اتخذت كلتاهما المدينة مقاما لإقامة حفلاتهما الغنائية ،

(١) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٢٤١ .
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٢٤١ .

وصارت حبابة ورفيقتها سلامة أشهر المغنيات فى العصر الأموى قاطبة وكان لهما شأن كبير عند الخليفة يزيد بن عبد الملك .

وأصبح الحجاز إبان العصر الأموى هو موطن الغناء ، ومنه انتشر إلى الشام والعراق ، ويرجع السبب فى ازدهار الغناء إلى إقبال خلفاء بنى أمية عليه ، واستحضارهم المغنين من الحجاز لإقامة حفلات الغناء فى دمشق . وقد أثر هذا الغناء فى نفوس فتيان العرب من أهل هذا العصر ، فرقق من طباعهم ولطف من مزاجهم ، ودفع بعضهم إلى اللهو والعبث ، كما شارك الخلفاء الأمويون المتأخرون عامة الناس فى هذا الضرب من اللهو ، حتى لقد ذهب الجاحظ إلى القول بأن بعض خلفاء بنى أمية « لم يكونوا يتحاشون أن يرقصوا ، ويتجردوا »[1] .

الطعام :

كانت العرب لا تعرف كثرة الألوان فى أطعمتهم ، إنما كان طعامهم اللحم يطبخ بالماء والملح[2] ، وقلما يعرف البدوى رفاهة العيش والناعم من الطعام ، والإبل عندهم أفضل الذبائح ، ولأهل البدو اللباء والسلاء والجراد والكمأة ، والخبز فى الرائب والتمر بالزبد ، والخلاصة ، والحيس ، والوطيئة[3] .

وكان العرب يراعون قواعد الصحة ، فلا يدخلون الطعام على الطعام ، ولا يسرفون فى الأكل ، كما كانوا يغسلون أيديهم قبل الطعام وبعده . ولما خالط العرب الأمم الأخرى عقب الفتوح الإسلامية ، تغيرت أطعمتهم وتعددت ألوانها ، واستحدثوا فيها طرقا غير طرق الأولى[4] ، فصاروا يأكلون الأوز والدجاج والفالوذج والخشاف واللوزنيج فى العهد الأموى ، كما حليت موائد الخلفاء الأمويين بأطايب الطعام والشراب .

---

(١) الجاحظ : التاج ص ٣٣ .

(٢) الابشيهى : المستطرف فى كل فن مستظرف جـ ١ ص ١٦٢ .

(٣) محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية ١ ص جـ ١٢٨ .

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ ص ٤١٧ .

وروى أن مائد سليمان بن عبد الملك كانت غنية بألوان الطعام ، فنزل عليه مرة أعرابى ، فلما أتى بالفالوذج جعل يسرع فيه ، فقال سليمان : أتدرى ما تأكل يا أعرابى ؟ فقال : بلى يا أمير المؤمنين ! إنى لأجد ريقا هنيا ومزدردا لينا ، وأظنه الصراط المستقيم الذى ذكره الله فى كتابه[1] . وقد اشتهر سليمان بن عبد الملك ، بحبه الطعام وتفننه فى اختيار ألوانه حتى قيل إن الطاهى كان إذا أتاه بشواء ، لا يصبر حتى يبرد فيتلقاه بأكامه[2] .

أنواع التسلية :

تعددت ضروب اللهو عند العرب فى الجاهلية ، وظل بعضها يمارس بعد الإسلام كالصيد وسباق الخيل . أما الصيد فقد ولع به بعض شباب الأشراف فى العصر الأموى ، وشاركهم فيه بعض خلفاء بنى أمية ، كيزيد بن معاوية الذى كان من أشد الأمويين كلفا بكلابها ، فكان يقيم على كل كلب من كلاب صيده عبداً يتعهده ويقوم على خدمته ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب والجلال المنسوجة منه[3] . وكان الصيد من أحب ألعاب الشباب .

أما السباق ، فكان من الألعاب التى ألفها العرب فى الجاهلية وازداد به بعد الإسلام ، حتى قيل إن هشاما بن عبد الملك أقام حلبة سباق اجتمع له فيها من خيله وخيل غيره أربعة آلاف فرس . وظهرت هواية جمع الخيل فى العصر الأموى ، وبخاصة بين الخلفاء وأشراف ذلك العهد ، وقد بلغ التنافس أشده بين كبار الأشراف على اقتناء الخيول الجيدة ، ويشهد على ذلك اهتمامهم الزائد وكلفهم الشديد بتربية الخيل والعناية بها .

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٢ ص ١٢٧ .
(٢) ابن طباطبا : الفخرى ١٠٩ — ١١٠ ، طبعة الأستاذ على الجارم .
(٣) ابن طباطبا : نفس المصدر ص ٥٤ .

ثالثا ــ فى العصر العباسى

١ ــ النظام السياسى

تأثر نظام الخلافة بانتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين . فمن الوجهة النظرية ، أصبح العباسيون يعتقدون أن الخلافة حق شرعى لهم ، ورثوه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان هذا من العوامل التى ساعدت على إطالة عمر دولتهم ، فظلت فى الحكم أكثر من خمسمائة سنة . وقد خطب أبو العباس السفاح ، بعد أن أخذت له البيعة فى مسجد الخلافة ، خطبة أشار فيها إلى أن الخلافة حق شرعى لأسرته ، كما نوه بفضل آل سيدنا محمد ، وحمل على الأمويين لاغتصابهم الخلافة منهم .

أما من الناحية العملية ، فقد تطور نظام الخلافة بقيام الدولة العباسية ، لأن تلك الدولة قامت على أكتاف الفرس الذين سخطوا على الأمويين لعدم مساواتهم بالعرب فى الحقوق السياسية والاجتماعية ، مع منافاة ذلك لمبدأ المساواة الذى أقره الإسلام .

وكان من أثر ميل الخلفاء العباسيين للفرس ، أن أصبح نظام الخلافة مماثلا لما كان عليه فى بلاد الفرس أيام آل ساسان . وكما اتخذ أكاسرة الفرس الوزراء والسيافين واحتجبوا عن رعيتهم مبالغة منهم فى العظمة والجبروت ، كذلك صار الشأن فى الدولة العباسية ، فأصبح الخليفة لا يخاطب الناس إلا من وراء حجاب ، واتخذ وزيرا وسيافا ، وأحاط شخصه بالقداسة والرهبة ، وعاش معيشة الأكاسرة ، وظهرت الأزياء الفارسية ، واحتفل بالأعياد الفارسية القديمة .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل اعتقد الخلفاء العباسيون أنهم يحكمون

بتفويض من الله لا من الشعب ، لأن الخلافة العباسية أوجدها الفرس الذين يقولون بنظرية الملكى المقدس ، بمعنى أن كل رجل لا ينتسب إلى البيت المالك ويتولى الملك يعتبر مغتصباً لحق غيره . وتتجلى هذه الظاهرة من العبارة التى قالها أبو جعفر المنصور : « إنما أنا سلطان الله فى أرضه » . وهذا يخالف ما كانت عليه الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين الذين استمدوا سلطانهم من الشعب ، ولا أدل على ذلك من قول أبى بكر عقب توليته الخلافة : « أيها الناس ! إنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ... » ، وقول عمر بن عبد العزيز : « لست بخير من أحدكم ، ولكنى أثقلكم حملا » . ولذا ظل الخليفة فى العصر العباسى مصدر كل قوة ومرجع جميع الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة .

كذلك كان الخلفاء العباسيون يرتدون بردة النبى ، عند توليتهم الخلافة وفى الحفلات الدينية ، على اعتبار أنهم ينوبون عنه فى حكم المسلمين .

وتلقب الخلفاء العباسيون بلقب « إمام » توكيداً للمعنى الدينى فى خلافة العباسيين ، أى أنهم أصبحوا أئمة الناس ، بعد أن كان ذلك اللقب لا يطلق فى عهد الخلفاء الراشدين والأمويين إلا على من يؤم الناس فى الصلاة ، بينما كان الشيعة يطلقونه على أفراد البيت العلوى الذين يعتقدون بأحقيتهم فى الخلافة .

واستبد الخلفاء العباسيون بالسلطة : فتسلطوا على أرواح الرعية ، وتتبعوا أعداءهم من الأمويين والعلويين فى قسوة وغلظة ولم يلبثوا أن غدروا بهم بعد أن أمنوهم . على أنه مما يخفف من حدة أعمال العنف التى ارتكبوها أنها كانت محصورة فى دائرة الملك ، وفيما عدا ذلك كانوا أحسن الناس حكما . فأدخلوا كثيراً من الإصلاحات فى دولتهم ، كما بذلوا كثيراً من الجهد للعمل على ترقية شعوبهم .

أما فى العصر العباسى الثانى ، فقد أصبحت الخلافة العباسية منحلة ، وأصبح الخلفاء مسلوبى السلطة لازدياد نفوذ الأتراك فى الدولة واستحواذ سلاطين بنى بويه أولا وسلاطين السلاجقة من بعدهم على بغداد . يقول الفخرى : « إن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء ، فكان الخليفة فى أيديهم كالأسير ، إن شاءوا أبقوه وإن شاءوا خلعوه وإن شاءوا قتلوه » . أما بنو بويه فلم يقنعوا بأخذ السلطة من الخلفاء العباسيين فحسب ، بل شاركوا الخلافة فى امتيازاتها الأخيرة : فى الخطبة والسكة .

على أن ضعف الخلافة العباسية فى عهد بنى بويه ، لا يرجع إلى ضعف الخلفاء أنفسهم فحسب ، بل يرجع كذلك إلى تلقيبهم سلاطين بنى بويه بتلك الألقاب الضخمة التى رفعت شأنهم وقللت من هيبة الخلفاء . مثل : تاج الله وضياء الملك وغياث الأمة وغيرها ، وتلقب محمود الغزنوى بألقاب السلطان ويمين الدولة ويمين الملة ، وتلقب السلطان المعظم مالك الأمم ، وعدل عنه ولقب نفسه مالك الدولة[1] .

وظل الخلفاء العباسيون فى العصر العباسى يلقبون بلقب أمير المؤمنين ، وكان الخليفة فى نظر الناس إذ ذاك « ظل الله الممدود بينه وبين خلقه » . وعلى الرغم من ضعف الخلافة ، فقد استمر الخلفاء يولون العهد أبناءهم ، وكانوا يهتمون بأن يتم تولية أبنائهم العهود فى احتفال رائع .

ويتضح لنا مدى ما وصلت إليه الخلافة العباسية من ضعف ووهن ، من أن بنى بويه كانوا يودون تحويل الخلافة من العباسيين إلى العلويين ، ولولا خوفهم من ضياع نفوذهم لما تورعوا عن ذلك . كما أن الخليفة المطيع عبر

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٢٨ .

عن شعوره بما وصلت إليه الخلافة من ضعف وعما يجيش فى نفسه من ألم ، بهذه العبارة التى خاطب بها بنو بويه : ليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفائى ... وأنما لكم منى هذا الإسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعتزل عن هذا المقدار أيضاً تركتكم والأمر كله[1] .

ووصف البيرونى موقف الخلفاء العباسيين من بنى بويه فى هذه العبارة : وإن الدولة والملك قد انتقل فى آخر أيام المتقى وأول أيام المستكفى من آل العباس إلى آل بويه ، والذى بقى فى أيدى اولادة العباسية إنما هو أمر دينى اعتقادى لا ملك دنيوى[2] .

٢ ـ النظام الإدارى

الإمارة على البلدان :

لم يكن ولاة العباسيين ، على الأمصار التابعة للدولة ، من الشخصيات البارزة بعكس ولاة الأمويين كزياد بن أبيه والحجاج بن يوسف ، واقتصر عمل الوالى على الصلاة وقيادة الجند ، بعد أن اشتد نفوذ صاحب المال وصاحب البريد والقاضى .

وقد وضع المنصور النظام السياسى الذى سارت عليه الدولة العباسية ، وهو على النحو الذى كان يحكم به آل ساسان قبلهم . وظل نظام الحكم فى الدولة العباسية استبداديا منذ قيام الدولة إلى عهد الرشيد ، فقد كان الخليفة هو مصدر كل قوة ومرجع كل الأوامر المتعلقة بإدارة الدولة . وأصبح الوزير ساعد الخليفة الأيمن ، ولكن ظهر بتوالى الأيام مدى إرهاق الوزير بهذا المنصب الخطير ،

---

(١) مسكوية : تجارب الأمم ج ١ ص ٣٠٨ ــ ٣٠٨ .

(٢) البيرونى : الآثار الباقية عن القرون الخالية ص ١٣١ .

مما أدى إلى تعيين موظفين يعاونونه فى الإشراف على الدواوين المختلفة وإدارة شئونها .

وكان الخليفة يختار بنفسه ولاة الأقاليم ، ولكن سلطاتهم كانت ضئيلة ، فلم يكن يترك العامل فى ولايته إلى زمن طويل ، وإذا ما عزل عن منصبه طلب إليه أن يقدم بياناً مفصلا عن شئون ولايته ، وكان أقل شك فى بيانه كافياً لمصادرة أملاكه جميعاً . ولم تكن سلطة الوالى فى عهد المنصور أكثر من سلطة صورية ، ومع ذلك فقد اكتسب بعض الولاة امتيازات خاصة ، حيث كانوا يقطعون هذه الولايات نظير اعترافهم بالسيادة للخليفة وتقديم بعض المساعدات المادية[1] . يقول الأستاذ كرد على « لم يبتدع المعتصم ولا ابنه الواثق شيئاً جديداً فى الإدارة لم يعرفه المأمون والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذى وضعه المنصور . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث الهجرى تلك الروعة التى كانت لها فى عهد الخلفاء الأول ، وقل بعد المأمون ، الخلفاء النادرون بذكائهم وتجاربهم ، فأصيبت الخلافة بعد عظائمها بفتور وأعمالها بقلة الرواء والاتساق ، ومن أهم الدواعى إلى هذا الانحطاط فساد الإدارة واختلال أحوال القضاء ، فنشأ عن ذلك شراهة نفوس العمال والوزراء وإضاعة الحقوق »[2] .

وكان على رأس كل مصلحة فى الولايات الكبيرة ، عامل مهمته موافاة الخليفة بجميع الشئون الهامة ، بل والإشراف على أعمال الوالى ، كما كان مندوبا أولته الحكومة المركزية ثقتها . وعلى الرغم من ذلك ، فقد بدأ الولاة يستقلون بولاياتهم الكبيرة ، ويولون من قبلهم الولاة ، حتى أن مقاليد الأمور فى حاضرة الدولة نفسها سرعان ما خرجت من أيدى الخلفاء[3] .

---

(١) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم . النظم الإسلامية ص ٢٠٤ — ٢٠٧ .
(٢) محمد كرد على : الإدارة المصرية فى عز العرب ص ١٦٧ .
(٣) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٥٤ — ٢٥٧ .

ومن وصف ابن الأثير لحالة الدولة العباسية فى عهد الراضى (٣٢٣ — ٣٢٩ هـ) ، نقف على أسماء الولايات التى كانت تتألف منها هذه الدولة المتداعية واستبداد كثير من الولايات واستقلالها عن الدولة ، فهو يقول : « لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها ، والحكم فى جميعها لابن رائق وليس للخليفة حكم : فكانت البصرة وخوزستان ، وفارس وكرمان ، والرى والجبل وأصبهان ، والموصل وديار بكر ومضر ومصر والشام ، والمغرب وإفريقية ، والأندلس وخراسان وما وراء النهر ، وطبرستان وجرجان والبحرين واليمامة »[١] ، وكلها تحت سيطرة ولاة مستقلين .

الوزارة :

لم تكن الوزارة [٢] معروفة فى الدول الإسلامية قبل عصر العباسيين . ويذكر صاحب الفخرى عن تاريخ الوزارة أنه « لم تتمهد قواعدها وتتقرر قوانينها إلا فى دولة العباسيين ، فأما قبل ذلك فلم تلك مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية ، فإذا حدث أن استشار ذوى الحجى والآراء الصائبة ، فكل منهم يجرى مجرى الوزير ، فلما ملك بنو العباس تقررت قوانين الوزارة ، وسمى الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً »[٣] .

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١١٢ — ١١٣ .

(٢) كانت « الوزارة » موجودة قبل الإسلام بزمن طويل ، عرفها المصريون القدماء وبنو إسرائيل والفرس وغيرهم . وكان الأعوان المقربون للرسول عليه السلام وللخلفاء الراشدين والأمويين يعملون عمل الوزير ، ولكن لم يطلق عليهم هذا الاسم . والوزر هو الثقل : لأن الوزير يحمل أعباء الحكومة . أو من الوزر وهو الملجأ والمعتصم بمعنى أنه يلجأ إليه ويرجع إلى رأيه وتدبيره .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى ص ١٣٦ — ١٣٧ .

وكان أول وزير فى العصر العباسى هو أبو سلمة الخلال الذى كان يلقب بوزير آل محمد ثم اغتيل على يد السفاح ،واستوزر بعده أبا الجهم ثانى وزراء الدولة العباسية ، ثم استوزر السفاح خالد بن برمك جد البرامكة الذين نبغوا فى ذلك الوقت وعظم شأنهم إلى أن انقضت سطوتهم فى أيام الرشيد .

وإذا ما رشح شخص للوزارة ، أرسل إليه الخليفة اثنين من الأمراء يحملان كتاب الخليفة إليه ، فيسير إلى دار الخلافة ثم يمثل بين يدى الخليفة ثم ينصرف إلى حجرة أخرى ليرتدى لباس التشريف ، ثم يمثل به أمام الخليفة فيقبل يده وينصرف ، فإذا بلغ الباب ألفى حصانا مزينا فى انتظاره فيمتطيه ويذهب به إلى دار الوزارة وقد سبقه كبار الموظفين والقواد ورجال البلاط وحجاب القصر والموالى ، فإذا وصل ترجل وسط مظاهر الاحتفال ثم يقرأ سجل تعيينه .

وكانت حكومة الخليفة تعرف باسم « ديوان العزيز » ، وكان الوزير أو بعبارة أدق رئيس الوزراء يشرف على هذا الديوان ، ويلقب بلقب وزير ديوان العزيز. وكان رؤساء الدواوين المختلفة يلقبون أحياناً بالوزير ولكنهم كانوا على الدوام تابعين لهذا الوزير الذى كان على رأس الحكومة .

وانقسمت الوزارة فى عهد العباسيين إلى قسمين :

١ ـ وزارة التنفيذ : وهى التى تكون فيها مهمة الوزير تنفيذ أوامر الخليفة وعدم التصرف فى شئون الدولة من تلقاء نفسه ، بل كان يعرض أمور الدولة على الخليفة ويتلقى أوامره فيها ، ولم يكن الوزير إلا سيطاً بين الخليفة ورعيته [١] .

---

(١) ابن طباطبا . الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١ .

٢ ـ وزارة التفويض : وهى أن يعهد الخليفة بالوزارة إلى رجل ، يفوض إليه النظر فى أمور الدولة والتصرف فى شئونها دون الرجوع إليه ، ولم يبق للخليفة بعد ذلك إلا ولاية العهد وسلطة عزل من يوليهم الوزير .

وكان الوزير فى الدولة العباسية واسطة بين الخليفة والرعية ، وعليه تنفيذ رغبات الخليفة وأوامره وإمداد النصح إذا ما استأنس برأيه فى أمر من أمور الدولة ، والمحافظة على سمعة الخليفة عند رعيته . ومن هنا نقف على مبلغ ضعف الوزير أيام الخلفاء العباسيين فى العصر العباسى الأول ، كما نقف على خطورة مركز الوزراء إذ كانوا معرضين للقتل إذا ما تغير عليهم الخليفة ، على رغم ما كان يظهر به الوزير فى عيون الناس من هيبة ونبل .

وكان الوزراء فى العصر العباسى الأول ، يخافون على أنفسهم من بطش الخلفاء بهم ، فكان كل منهم يتجنب أن يسمى وزيراً بعد أن مات أبو الجهم وزير السفاح على يد المنصور ، لأن المنصور كان يحقد عليه ، فلما أحس أبو الجهم بالسم، قام لينصرف، فقال له المنصور : إلى أين ؟ قال : إلى حيث بعثتنى يا أمير المؤمنين . واستوزر المنصور بعد خالد البرمكى ، أبا أيوب الموريانى وكان من أهل موريان[1] ، اشتراه المنصور صبيا قبل أن يلى الخلافة فثقفه وعلمه ، واتفق أن أرسله مرة إلى أخيه السفاح ومعه هدية له ، فلما رآه أعجب بهيئته وفصاحته ، فأبقاه عنده وأعتقه وجعله من أخص رجاله المقربين إليه وأدر إليه عطاءه وصلاته ، وظل على ذلك حتى ولى المنصور الخلافة ، فقلده الوزارة وكان مصيره القتل. وبعد قتل هذا الوزير استوزر المنصور ، الربيع بن يونس ، وكان نبيلا حازما عاقلا ، فطنا خبيرا بالأمور الحسابية ، ملما بشئون الدولة ، محبا لفعل الخير ، عارفا بآداب الملوك . رأى المنصور يوما فى بستانه شجيرة من شجر يسمى الخلاف ، فلم يدر ما هى ، فقال : ياربيع ! ما هذه الشجرة ؟ فقال الربيع : إجماع ووفاق ، وكره أن يقال خلاف » . ولم يزل

(١) قرية من نواحى خوزستان .

الربيع متقلداً منصب الوزارة إلى أن مات المنصور ، فقام الربيع بأخذ البيعة للمهدى بن المنصور ، وظل على ذلك إلى أن قتله الهادى فى خلافته . وبلغ نفوذ الوزير منتهاه فى عهد هارون الرشيد حين قال لوزيره يحيى بن خالد البرمكى : « قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب » . وفى عهد ابنه جعفر بن خالد بن برمك ، قبض البرامكة على أزمة الحكم وصار بيدهم الدخل والخرج ، واشتد نفوذ البرامكة حتى انصرف الناس إليهم ونظموا القصائد الرائعة فى مدحهم والتغنى بكرمهم وجودهم الذى أصبح مضرب الأمثال ، وكان كل ذلك مدعاة لنكبتهم المعروفة .

على أن ضعف الخلافة فى العصر العباسى الثانى ، أدى إلى ازدياد نفوذ الوزراء واشتداد المنافسة على الوزارة ، ومن ثم تفشى الدس وانتشرت الرشوة ابتغاء الوصول إلى كرسى الوزارة . واشتهر من وزراء العصر العباسى فى عهد المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) عبد الله بن يحيى بن خاقان ، وعبيد الله بن سليمان بن وهب ، والقاسم بن عبيد الله . وظهر من الوزراء فى عهد المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠) أبو الحسن على بن محمد بن الفرات سنة ٢٩٦ هـ ، وكان لبنى الفرات ما كان للبرامكة وبنى وهب من الشهرة فى العصر العباسى ، وفيهم يقول صاحب الفخرى : « وبنو الفرات من أجل الناس فضلا وكرما ونبلا ووفاء ومروءة »[١] .
ومن أشهر وزراء المقتدر : الوزير المصلح على بن عيسى ، وكان من كبار الكتاب. اشتهر بالورع والزهد ، وفيه يقول الصولى : « ما أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبه على بن عيسى فى زهده وعفته وحفظه للقرآن وعلمه بمعانيه وكتابته وحسابته وصدقاته ومبراته » : وخلفه فى الوزارة حامد بن العباس ، وكان كريما موفقا فى استخراج الأموال واضطربت أمور الدولة العباسية فى عهد المقتدر ، بسبب هذه السياسة التى اتبعها فى تعيين وزرائه وعزلهم ، حتى تقلد الوزارة

(١) الفخرى ص ٣٣١ ، ٣٣٣ .

فى عهده نحو اثنى عشر وزيراً ، عزل بعضهم مراراً ، كما أنه اعتمد على وزراء ضعاف كأبى على محمد بن مقلة الذى تدخل فى أعمال الدواوين تدخلا شائنا ابتغاء زيادة ثروته . وعجز الوزراء فى عهد الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ ﻫ)عن إدارة الدولة بسبب ازدياد نفوذ القواد، واضطر هذا الخليفة إلى تقليد بن رائق شئون الدولة كافة وتلقيبه « أمير الأمراء » ، ولم يبق للوزراء شىء من النفوذ ، واقتصرت أعمالهم على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام المواكب مرتدين السواد ، متقلدين السيوف والمناطق وغيرها من شعار الوزارة ، وأصبح تعيين الوزراء وعزلهم بيد أمير الأمراء .

ولما استولى بنو بويه على بغداد سنة ٣٣٤ ﻫ ، قضوا على نفوذ الخلفاء ، وزال نفوذ الوزراء ، لأن بنى بويه حلوا محلهم . ويقول صاحب الفخرى : « اضطربت أحوال الخلافة ، ولم يبق لها رونق ولا وزارة ، وصارت الوزارة من جهتهم والأعمال إليهم »[1] . واتخذ بنو بويه لأنفسهم وزراء استعانوا بهم فى إدارة شئون الدولة ، ومن أشهر وزراء بغداد فى عهد سيطرة بنى بويه أبو الفضل بن العميد والصاحب إسماعيل بن عباد .

الدواوين :

كانت أهم دواوين الحكومة العباسية هى : ديوان الدية ، وديوان الجند ، وديوان الموالى والغلمان لتسجيل فيه أسماء موالى الخليفة وعبيده ، وديوان البريد ، وديوان النظر فى المظالم ، وديوان الأحداث والشرطة ، وديوان العطاء ، وديوان المنح أو المقاصاة ، وديوان الأكرية للإشراف على القنوات والترع والجسور وشئون الرى ، وديوان الخراج ومهمته جمع ضرائب بلاد العراق وتقديم حساب للضرائب فى الأقاليم الأخرى وجمع الضرائب النوعية المسماة بالمعادن ، وديوان

(١) الفخرى ص ٢٣٥ .

الرسائل ومهمته إذاعة المراسيم والبراءات وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة ، وديوان الأزمة والزمام ويشبه ديوان المحاسبة اليوم وأوجده الخليفة المهدى ويقصد به أن الدواوين تجمـــع لرجل يضبطها بزمام يكون له على كل ديوان .

واستمر نظام الدواوين فى العصر العباسى قائما على هذا النحو ، إلى أن ولى الخلافة المعتضد (٢٧٩ هـ) ، فضم كل دواوين الدولة بعضها إلى بعض ، وكون منها ديوانا واحد وأطلق عليه « ديوان الدار » أو « الدار الـكبير » . وبلغ نظام الدواوين فى عهده حد الـكمال ، ويقوم هلال الصابىء : « وسمعت مشايخ الـكتاب يقولون إنه لم يجتمع فى زمن من الأزمنة خليفة ووزير وصاحب ديوان وأمير جيش مثل المعتضد بالله »[1] . وقسم المعتضد الديوان أقساما ثلاثة : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد (يعنى العراق) ويتولى الوزير ولايته بنفسه . وفى القرن الرابع الهجرى ، كانت إدارة الدولة تنقسم إلى ما يشبه وزارتين : إحداها للداخلية وهى ديوان الأصول ، والأخرى للمالية وهى ديوان الأزمة . وكان كل ديوان كبير ينقسم أقساما كثيرة ، تسمى دواوين أيضا ، لأنه كان لـكل ناحية ديوانها . ولم تصل الإدارة فى الدولة العباسية إلى تعيين الحدود الفاصلة بين الدواوين بدقة ، وكان أصحاب هذه الدواوين على ثلاث طبقات : الطبقة الأولى ، والطبقة الثانية ، والطبقة الثالثة[2] .

الـكتابة :

كان مركز الـكاتب لا يقل عن مركز الوزير ، فقد كان يرأس ديوان الرسائل الذى يعد من أهم وأخطر دواوين الدولة العباسية . ومهمة صاحبه :

(١) تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء ص ١٨٩ .
(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٥٦ .

إذاعة المراسيم والبراءات ، وتحرير الرسائل السياسية وختمها بخاتم الخلافة بعد اعتمادها من الخليفة ، ومراجعة الرسائل السياسية ووضعها فى الصيغة النهائية وختمها بخاتمه . كذلك كان يتولى مكاتبة الأمراء والملوك عن الخليفة ، وكان الوزير يتولى ذلك أحيانا ، وكثيرا ما كان يتولى الخليفة ذلك بنفسه ، فقد أثر عن المنصور العباسى أنه لما جاءه كتاب محمد بن عبد الله بن الحسن العلوى هم كاتبه أن يجيبه ، فقال المنصور : لا بل أنا أجيبه ، إذا تقارعنا على الأحساب فدعنى وإياه » . كما كان الكاتب يجلس مع الخليفة فى مجلس القضاء ، للنظر فى المظالم وختم الأحكام بخاتم الخليفة ويتسلم الشاكى أو المدعى صورة من الحكم وتحفظ الصورة الأصلية فى دار السجلات .

وكان الخلفاء يختارون كتابهم من رجال الأدب ومن أعرق الأسر ، ممن عرفوا بسعة العلم ورصانة الأسلوب ، لحرصهم على أن تدون الرسائل بأسلوب شائق بليغ . واشتهر من الكتاب فى العصر العباسى الأول : يحيى بن خالد البرمكى والفضل بن الربيع فى عهد هارون الرشيد ، والفضل والحسن ابنا سهل وأحمد بن يونس فى عهد المأمون ، والحسن بن وهب وأحمد بن المدبر فى عهد المعتصم والواثق[1] . وفى العصر العباسى الثانى ، اشتهر محمد بن عبد الملك الزيات وكان يلى ديوان الرسائل فى عهد الواثق وهو الذى كتب البيعة بولاية المتوكل العهد .

وكثيرا ما كانت الكتابة سبيلا إلى الوزارة : واتخذ بعض الخلفاء من الكتاب قوادا يعتمدون عليهم فى الغزوات . ولم يكن اتخاذ الكتاب مقصورا على الخلفاء وحدهم ، بل كان الأمراء وسلاطين بويه وعمال الأقاليم يتخذون كتابا يعاونونهم فى الإدارة : فقد كان الكوفى كاتبا لبجكم الذى تقلد إمرة الأمراء

(١) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ١٨٠ — ١٨١ .

فى عهد كل من الراضى والمتقى ، وكان أبو جعفر شيرزاد كاتباً لتوزون الذى تقلد وظيفة أمير الأمراء فى عهد المتقى [١] . وكان ملوك الفرس يسمون كتاب الرسائل : تراجمة الملوك . وكانوا يقولون لهم : لاتحملكم الرغبة فى تخفيف الكلام على حذف معانيه وترك ترتيبه والإبلاغ فيه وتوهين حججه [٢] .

الحجابة :

اتخذ العباسيون الحجاب ، وصار بين الناس و بين الخليفة داران : دار الخاصة ودار العامة ، يقابل كل طائفة فى مكان معين . يقول ابن خلدون : « هذا اللقب كان مخصوصا فى الدولة العباسية بمن تحجب السلطان عن العامة ، و يغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره فى مواقيته ، وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مدروسة لها ، إذ الوزير متصرف فيها بما يراه » [٣] . ومن أبرز حجاب العصر العباسى الأول : الفضل بن الربيع الذى أوقع بالبرامكة عند الرشيد وكان له أثر فى إحداث الخلافة بين الأمين وأخيه المأمون .

وتطور نظام الحجابة فى العصر العباسى الثانى ، فاتخذ حجاباً ثالثاً أشد من الأولين . ولم تقتصر مهمة الحاجب فى ذلك العصر على حراسة الخليفة ومنع الناس من الاتصال به ، بل تعداه إلى التدخل فى أهم شئون الدولة حتى استبد بعضهم بها دون الوزراء . وكان أصحاب الدواوين يرجعون إليهم فى المسائل المتعلقة بدواوينهم ولا يفصلون فيها إلا بعد الرجوع إليهم . وكثيراً ما كان الحاجب يصبح هدفاً لدسائس الوزير إذا زاد نفوذه وعظم استبداده بأمور الدولة، ومن أحسن الأمثلة على ذلك تدبير الوزير أبى على بن مقلة مؤامرة انتهت بالقبض على محمد بن ياقوت الحاجب [٤] .

---

(١) الدكتور حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٤٩ .
(٢) الجهشيارى . كتاب الوزراء والكتاب ص ٣ .
(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٠٨ — ٢٠٩
(٤) راجع تفاصيل هذه المؤامرة فى ابن مسكويه : كتاب تجارب الأمم ج ١ ص ٣١٨ — ٣١٩ .

البريد :

كان ديوان البريد فى مدينة بغداد ، وهو يشبه مصلحة البريد الآن ، وكان مزوداً بمحطات على طول الطريق . وقد ظل الحمام الزاجل يستخدم فى نقل الرسائل حتى ولى الخلافة المعتصم . وكان البريد خاصاً بأعمال الدولة وليس لنقل رسائل الجمهور ، ومن ثم كانت مصلحة البريد من مصالح الدولة الخاصة .

وكانت مهمة صاحب البريد أول الأمر هى توصيل الأخبار إلى الخليفة من عماله فى الأقاليم ، ثم توسعوا فيه حتى جعلوا صاحبه عيناً للخليفة ينقل أوامره إلى ولاته ، كما ينقل أخبار ولاته إليه . واستخدم المنصور ولاة البريد عيونا له وعونا فى الإشراف على أمور دولته ، ووقف بواسطتهم على أعمال الولاة وعلى مايصدره القضاة من الأحكام وعلى مايرد لبيت المال من الأموال ، كما كانوا يوافونه بأسعار الحاجيات من قمح وحبوب وأدم ومأكولات . وكان عماله يوافونه بذلك مرتين فى كل يوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بماحدث طول النهار وإذا صلى الصبح كتبوا إليه بما جرى فى الليل من الأمور ، وبهذا كان يقف على كل مايحدث فى الولايات الإسلامية . وكان بذلك شديد الاتصال بولاته ، فيقف القاضى عند حده إذا ظلم ، ويرجع السعر إلى حالته إذا غلا وإن رأى تقصيراً من أحد ولاته وبخه ولامه وعزله عن عمله .

وفى العصر العباسى الثانى ، اهتم الخليفة بشئون البريد ، فكان الخلفاء العباسيون يكتبون لصاحب البريد عهداً عند توليته ، ويرسمون له فيه الطريقة التى يجب أن يسير عليها . فقد ذكر قدامة بن جعفر أنه يجب على صاحب البريد « أن يعرف حال عمال الخراج والضياع فيما جرى عليه أمرهم ، ويتتبع ذلك شافياً ، ويستشفه استشفافاً بليغا[1] وينهيه على حقه وصدقه . . . وأن يعرف

(١) أى يبذل أقصى الجهد ، للوقوف على حقيقة أمره .

حال عمارة البلاد وما هى عليه من الكمال والاختلال . وما يجرى فى أمور الرعية فيما يعاملون به من الإنصاف والجور والرفق والعسف ، فيكتب به مشروحاً ... وأن يعرف ما عليه الحكام فى حكمهم وسيرهم وسائر مذاهبهم وطرائقهم . . . وأن يعرف حال دار الضرب وما يضرب فيها من العين والورق ، ويكتب بذلك على حقه وصدقه »[1] . ولم يقتصر عمل صاحب البريد على ذلك ، بل كثيراً ما كان ينقل أيضاً إلى الخليفة الأخبار الطريفة .

ولما استبد بنو بويه بالسلطة ، اهتموا بشئون البريد اهتماماً بالغاً ، حتى أنه لم يعد يخفى عليهم شىء من أمور الدولة « فلم يخف عندهم أخبار الأقاصى والأدانى ، وحال الطائع والعاصى »[2] . وبلغ نظام البريد فى عهد بنى بويه مبلغاً عظيما من الدقة والسرعة . وكانت الدولة توقع أشد العقوبة بكل من يتوانى فى أداء واجبه من موظفى البريد . كما كانت المراسلات البريدية تفض فى حضرة السلطان ، فيأخذ منها الرسائل الهامة ، ويرسل سائر الرسائل إلى ديوان البريد ، فتوزع على أربابها . وكان لبنى بويه أثر فى ترقية البريد ، وأدخل معز الدولة نظام السعاة وكان يقال لهم الفيوج ، واعتمد الخلفاء العباسيون فى العصر الثانى كذلك على حمام الزاجل فى نقل الرسائل .

٣ — النظام القضائى

فى العصر العباسى، ضعفت روح الاجتهاد فى الأحكام لظهور المذاهب الأربعة ، وأصبح القاضى إذ ذاك ملزما بأن يصدر أحكامه وفق أحد هذه المذاهب : فى العراق كان القاضى يحكم وفق مذهب أبى حنيفة . وفى الشام والمغرب وفق مذهب

---

(١) آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، ترجمة أبى ريدة جـ ١ ص ١٢٩ .

(٢) البندارى : تاريخ دولة آل سلجوق ص ٦٢ .

مالك ، وفى مصر وفق المذهب الشافعى . وإذا تقدم متخاصمان على غير المذهب الشائع فى بلد من البلاد ، أناب القاضى عنه قاضيا يدين بعقائد مذهب المتخاصمين . وتأثر القضاء كذلك بالسياسة ، لرغبة الخلفاء العباسيين فى إكساب أعمالهم صبغة شرعية ، حتى امتنع كثير من الفقهاء عن تولى القضاء خشية حملهم على الإفتاء بما يخالف الشريعة الإسلامية ، ولهذا السبب اعتذر أبو حنيفة النعمان عن تولى منصب القضاء فى عهد أبى جعفر المنصور(١) . ورغم هذا ، نقض الخلفاء العباسيون العهد مع بعض القواد والعلويين بعد أن أعطوهم الأمان ، وذلك عن طريق فتاوى القضاة : فقد تسلم ابن هبيرة من أبى جعفر المنصور كتاباً يحمل إمضاء الخليفة السفاح يعطيه فيه الأمان ولكن لم تمض أيام حتى قتل ابن هبيرة ، وغدر المنصور بعمه عبد الله بن على وأبى مسلم الخراسانى ، وكتب الرشيد بخطه أمانا ليحيى بن عبد الله أخى محمد النفس الزكية وكان قد ثار فى بلاد الديلم ولكنه لم يلبث أن حبس ونقض الأمان .

وكان « قاضى القضاة » فى العصر العباسى يقيم فى بغداد ، وأول من لقب بهذا اللقب هو أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب كتاب الخراج وذلك فى عهد هارون الرشيد . وأصبح فى كل ولاية قضاة ينوبون عنه ، فصار يولى أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة ، ينظر كل منهم فى النزاع الذى يقوم بين من يدينون بعقائد مذهبه . وصار اختصاص القاضى : النظر فى الخصومات المدنية والجنائية ، والفصل فى الدعاوى والأوقاف ، وتنصيب الأوصياء ، وقد تضاف إليه الشرطة والمظالم والحسبة ودار الضرب وبيت المال(٢) .

وكان القاضى فى مصر فى عهد الدولة العباسية يتقاضى ٣٠ ديناراً ، وتقاضى

---

(١) جرجى زيدان : التمدن الإسلامى جـ ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ .
(٢) حسن ابراهيم وعلى ابراهيم : النظم الإسلامية ص ٣٣٦ .

القاضى ابن لهيعة مثل هذه الراتب ، وفى زمن المأمون كان عيسى بن المنكدر قاضى مصر يتقاضى ٢٧٠ دينارا فى الشهر .

وبعد أن كان الالتزام مقصورا على الخراج ، بمعنى أن تعهد الدولة بالخراج إلى أشخاص يجبونه على أن يؤدوا لبيت المال مبلغاً معيناً ، تعدى هذا النظام إلى القضاء على أن يؤدى لبيت المال أيضاً مبلغاً مقابل ما يجبيه من رسوم القضايا وقد التزم عبد الله بن الحسن بن أبى الشوارب لمعز الدولة بن بويه على ٢٠٠ر٠٠٠ درهم فى السنة عن قضاء بغداد ، ولكن الخليفة المطيع لم يوافق على تقليد هذا القاضى ، وفيه يقول ابن الأثير : « وهو أول من ضمن القضاء ، وكان ذلك أيام معز الدولة ، ولم يسمع بذلك قبله ، فلم يأذن له الخليفة المطيع بالله بالدخول عليه ، وأمر بأن لا يحضر الموكب لما ارتكبه من ضمان القضاء[1] .

على أن كثيراً من القضاة نزهوا أنفسهم عن هذه العيوب ، حتى أنهم كانوا يقبلون هذا المنصب بعد تردد وبعد أن يشترطوا شروطاً تكفل استقلالهم ، وتحفظ لهم هيبتهم وكرامتهم[2] . فإن الخليفة المطيع (٣٣٤ — ٣٦٣ هـ) « قلد القضاء أبا الحسن محمد بن شيبان الهاشمى بعد تمنع ، وشروط لنفسه شروطا منها : ألا يرتزق على القضاء ، ولا يشفع إليه فيما يخالف الشرع ، وقرر لكاتبه فى كل شهر ثلثمائة درهم ، ولحاجبه مائة وخمسين ، وللعارض على بابه مائة ، ولخازن ديوان الحكم والأعوان ستمائة » .

وكتب الخليفة لابن شيبان عهداً بتوليه القضاء ، بين فيه الأقطار التى سمح له ببسط نفوذه القضائى عليها ، فهو يقول : « هذا ما عهد به المطيع لله أمير المؤمنين إلى محمد بن صالح الهاشمى ، حين دعاه إلى ما يتولاه من القضاء ، بين أهل

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٣ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٤٩٤ .

مدينة المنصور والمدينة الشرقية من الجانب الشرقى والجانب الغربى ، والكوفة وواسط ، وطريق الفرات ودجلة ، وطريق خراسان وحلوان ، وديار مضر وديار بكر ، والموصل والحرمين واليمن ودمشق وحمص ، وجند قنسرين والعواصم ، ومصر والإسكندرية ، وجند فلسطين والأردن .

ولا يكتفى المطيع فى عهده للقاضى بذكر ذلك ، بل وضح الاختصاصات التى ضمن له بمباشرتها ، فهو ينص على أنه يتولى : « قضاء القضاة ، وتصفح أعمال الحكام ، والاستشراف على ما يجرى عليه أمر الأحكام من سائر النواحى والأمصار » .

زاد الخليفة على ذلك ، أن رسم للقاضى الحدود التى يتوخاها عند إصدار أحكامه ، وهى على ما ورد فى هذا العهد : « كتاب الله صلى الله عليه وسلم منارا يقصده ومثالا يتبعه ، وأن الإجماع ، وأن يقتدى بالأئمة الراشدين ، وأن يعمل اجتهاده فيما لا يوجد فيه كتاب ولا سنة ولا إجماع » . ونصحه فى عهده إليه بالمساواة التامة بين الخصوم ، فينص على « أن يسوى بين الخصمين إذا تقدما إليه ، فى لحظه (نظرته) ولفظه ، ويوفى كلا منهما عن إنصافه وعدله ، حتى يأمن الضعيف حيفه وييأس القوى من ميله »[1] .

٤ — النظام الحربى

عناصر الجند :

كان يتألف جيش العباسيين من : الجنود النظامية ، والجنود المتطوعة من البدو وطبقة الزراع وسكان المدن الذين اشتركوا فى الحروب مدفوعين بعوامل مادية أو دينية . وبلغ راتب الجندى أيام قوة العباسيين عشرين درهما[2] . وكان

---

(١) ورد هذا العهد كاملا فى السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .
(٢) الدرهم = ٤ قروش تقريبا .

تقسيم الجند تابعاً لجنسية أفراده : فمنهم الحربية وكانوا من جند العرب وهم الفرسان الذين كانوا يتسلحون بالرماح ، والمشاة وكانوا من الفرس ولا سيما الخراسانيين وليس من عجب إذا تغلغل نفوذهم فى جسم الدولة التى قامت على أكتافهم .

وبانقضاء العصر العباسى الأول ، دخل فى الجيوش العباسية عنصر الأتراك الذى آل إليه النفوذ ، وهو عنصر جديد كون القسم الرابع من الجيش العباسى . ذلك أنه لما ولى المعتصم الخلافة سنة ٢١٨ هـ ، رأى أن دولته لابد أن يقوم بحراستها جيش قوى ، فاستكثر من الأتراك لأن أمه كانت تركية وكانوا يجلبون من بلاد ما وراء النهر ، وولاهم حراسة قصره وأسند إليهم أعلى المناصب وقلدهم الولايات الكبيرة وآثرهم على الفرس والعرب فى كل شىء . واشتد خطرهم ، فآذوا الأهلين لما كانوا يرتكبونه من الفساد والعنف وعدم الاكتراث بالصبيان والضعفاء الذين كانوا يدوسونهم بخيولهم فى الأسواق والطرقات مما أثار غضب العامة وحنقهم ، فعمل المعتصم على تلافى هذا الشر وبنى مدينة سامرا شرق دجلة واتخذها حاضرة لدولته .

ولقد استفحل خطر هؤلاء الأتراك ، ولكن قوة شكيمة المعتصم اضطرت هؤلاء الأتراك إلى التزام حدودهم ، فلما ولى الخلافة بعده ابنه الواثق أخذ هؤلاء الأتراك يتدخلون فى أمور الدولة حتى أصبح الخليفة مكتوف الأيدى مسلوب السلطة . ولما ولى المتوكل الخلافة حاول أن يكف يدهم فقتلوه ، وصار ابنه المنتصر الذى اشترك معهم فى قتل أبيه طوع بنانهم ، وأصبحت الدولة العباسية ميدانا للفوضى والدسائس ، وغدا فى أيدى هؤلاء الأتراك أمر تولية الخليفة وعزله أو حبسه وقتله ، ومما زاد الحالة سوءا وقوع التنافس والتشاحن بين القواد . وقد أثر اشتراك الجند العربى فى الفتن والثورات التى قامت زمن الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وانحيازهم إلى فريق دون آخر فى مجرى الحوادث أيما تأثير .

ولم يقتصر الخلفاء العباسيون على استخدام عناصر العرب والفرس

والأتراك فى جيوشهم : فإن الخليفة المعتز (٢٥٢ — ٢٥٥ هـ) اصطنع المغاربة والفراعنة دون الأتراك ، واستعان الخليفة الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) بالقرامطة وأدخلهم فى صفوف جيشه . ولما استبد بنو بويه بالنفوذ فى الدولة العباسية منذ سنة ٣٣٤ هـ ، تألف الجيش من الديلم والأتراك والعرب والأكراد والفراعنة والمغاربة وغيرهم من المرتزقة .

أشهر القواد :

وكان من أكبر القواد المعروفين فى أول عهد الدولة العباسية : أبو مسلم الخراسانى وكان تحت إمرته جند المشرق الخراسانية ، وعبد الله بن على العباسى وكان على جند المغرب وأكثرها عربى من بلاد الجزيرة والشام . فلما خرج عبـد الله بن على على المنصور وانتصر عليه أبو مسلم الخراسانى بجنده ،كان هذا الانتصار انتصاراً للفرس على العرب ، ومن ثم رجحت كفة الخراسانيين فى الجيش .

بيد أن المنصور خشى شر أبى مسلم وشر جنده فقضى عليه ، ورأى عدم الاعتماد على الخراسانيين لأن العصبية كانت لا تزال فى قوتها . فاصطنع كثيرين من العرب وسلمهم قيادة جنده ، كما استعان ببعض أهل بيته ومن أعظمهم عيسى ابن موسى الذى انتصر على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن العلوى الملقب بالنفس الزكية وأخيه إبراهيم .

وقد ظهر من قواد العرب معن بن زائدة الشيبانى ، وكان من قواد الأمويين ، واشتغل تحت إمرة يزيد بن عمر بن هبيرة أمير العراق وحارب معه فى واسط ، ولما سلم ابن هبيرة اختفى معن حتى كان يوم الهاشمية الذى ثار فيه الراوندية على المنصور ، فظهر معن وقاتل عن الخليفة وهو ملثم ، وأوقع برجال هذه الطائفة ، ثم كشف للخليفة عن نفسه ، فأمنه ووصله بعشرة آلاف درهم وسماه « أسد الرجال وولاه بلاد اليمن ثم سجستان ، فبقى فيها حتى قتله الخوارج سنة ١٥١ هـ .

ومن أعظم قواد المنصور عمرو بن العلاء ،وقد وجهه المنصور سنة ١٤١ هـ لإخضاع أهل طبرستان وكانوا قد خرجوا عليه فنازلهم ابن العلاء طويلا وفتح بلادهم من جديد ، ولم يزل ممتعاً بعطف المنصور وابنه المهدى حتى مات فى خلافة المهدى .

تنظيم الجيش :

كان الخليفة العباسى يرغب دواما أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ، فكانت تصف الجنود أمامه فى ثلاثة أقسام : عرب الشمال (مصر) ، وعرب الجنوب (اليمن) والخراسانيون[1] . ولما ولى المتوكل الخلافة ، أمر الجنود بتغيير زيهم القديم وألبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يحملوا السيوف على أعناقهم بل يضعونها فى مناطق حول وسطهم .

وقد وجد نظام الجاسوسية عند العباسيين ، واستخدموا فى ذلك الرجال والنساء الذين كانوا يرحلون إلى البلاد المجاورة ، متنكرين فى أزياء التجار والأطباء وغيرهم لجمع الأخبار إلى دولتهم .

ولكى يحمى العرب أنفسهم من غارات الإغريق ، أقاموا الحصون (أو الثغور) على تخوم دولتهم ، وهذا ضرب من الفنون الحربية التى تدل على نشاط العرب وولعهم بالحروب ونبوغهم .

وكانت حدود سورية المقابلة لآسيا الصغرى ، مصدر الخطر بالنسبة إلى العرب ، وكانت هذه الثغور وهى : طرسوس ، وأدنة ، والمصيصة ، ومرعش ، وملطية ، تقع طورا فى أيدى العرب وطورا فى أيدى الروم . ولما استولى المنصور على هذه الثغور حصنها وأحكم بناءها من جديد ، وأنشأ

(١) حسن إبراهيم وعلى إبراهيم : النظم الإسلامية ص ٢٣٢ — ٢٣٥ .

هارون الرشيد فى خلافته ولاية جديدة سميت ولاية الثغور وجعل لها نظاماً عسكريا خاصاً وأقام فيها المعاقل ، كما أمدها بحاميات دائمة ومنح الجند علاوة على أرزاقهم أرضاً قاموا بتعميرها وزراعتها هم وأسراتهم . فازدهرت هذه الثغور على الرغم من الحروب المتواصلة ، وأصبحت أحوالهم فى يسر ورخاء إلى أيام الواثق ثم أخذت بعد ذلك فى الأفول . وطالما كان العلماء والشعراء الذين يؤثرون حياة الراحة والدعة يلجأون إلى هذه الثغور للتفرغ للبحث والدرس .

وفى عهد الأمويين والعباسيين ، اختلط العرب كثيراً بالفرس وأخذوا عنهم نظام التعبئة أى تقسيم الجيش إلى كتائب : تكون إحداها فى الوسط تحت إمرة القائد العام وتسمى « قلب الجيش » ، وتوضع واحدة على يمينها وتسمى « الميمنة » ، وأخرى إلى يسارها تسمى « الميسرة » ، ثم تكون أمامها كتيبة تسمى « ساقة الجيش » . ولذلك تركوا نظام الصفوف ، وبعد تقدمهم فى المدنية تفننوا فى طرق تعبئة الجيوش . وكان القواد يحافظون على حسن سلوك الجند ، ويشددون العقاب على كل من يعبث بالنظام أو يتعرض لأهالى البلاد المفتوحة بسوء . ومما ساعد على حسن سلوكهم تحريم الخمر ، كما كان الجندى لا يمكث أكثر من أربعة أشهر إذا كان بعيداً عن أسرته . وكان الجند يكبرون ويتلون الآيات القرآنية أثناء سيرهم للغزو والجهاد وفى أثناء المعارك الحربية ، كما كانوا يدقون الطبول ويقرعون الصنوج لبث الحماس فى نفوسهم واتصفوا بالتفانى فى القتال لاعتقادهم بأن من يموت فى سبيل الله يكون مصيره الجنة .

٥ — النظام المالى

عنى الخلفاء العباسيون بشئون الزراع والتخفيف عنهم : فألغى الخليفة المنصور الضريبة النقدية التى كانت تفرض على الحنطة والشوفان وأحل محلها ضريبة نوعية فرضت بنسبة خاصة من المحصول مع بقاء الضريبة النقدية على النخيل والفواكه وأشباهها ولكن الخليفة المهدى ما لبث أن عمم النظام الذى أدخله المنصور وجعل الضرائب تجبى دواما بالنسبة للمحصول لما رآه من اشتطاط الجباة فى جمع الضرائب النقدية ، على أن يقدم زراع الأراضى الممتازة الخصب نصف أراضيهم ، وفى حالة صعوبة ريها يدفعون ثلث غلتها أو ربعها أو خمسها تبعاً لحالة الأرض ، ولكن غلة الكروم والبساتين والنخيل تقوم بالمال ويدفع عنهاالنصف أو الثلث . وفى عهد المأمون العباسى خضعت ضريبة الأرض مرة أخرى ، فأصبح يجبى الخمسان بدلا من النصف حتى على أكثر الأرض إنتاجا . وفى العراق والجزيرة وفارس ، حيث كثر عدد كبار الملاك والمزارعين ، كانت تدفع ضرائب محددة ، على النحو الذى حددته شروط الصلح التى عقدت وقت فتح هذه الأقطار ولم يكن من الممكن تغيير النظام الذى حددته المعاهدات ، وأصبح هؤلاء الملاك بذلك فى مأمن من كل اغتصاب ، وتمتع أهالى شمال فارس وخراسان بنفس هذه الامتيازات . ويسمى نظام دفع الضرائب بنسبة خاصة من المحصول باسم نظام المقاسمة ، تمييزاً له عن نظام المحاسبة الذى كان متبعاً ويقضى بأن تجبى الضريبة بالنسبة لمساحة الأرض .

وفى عهود اليسر والخصب ، زاد مقدار دخل الدولة العباسية زيادة كبيرة . وكانت خزائن العباسيين تفيض بالأموال التى كانت تجبى من الضرائب ، حتى بلغت فى أيام هارون الرشيد مايقرب من إثنين وأربعين مليون دينار ، عدا الضريبة العينية التى تؤخذ مما تنتجه الأرض من الحبوب ، وقيل إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة المارة ويقول : اذهبى

وانظرى حيث شئت ، فسيأتى خراجك . وبلغت نفقة المأمون ستة آلاف دينار كل يوم أى ٢٫١٩٠٫٠٠٠ دينار فى السنة . وفى العهود التى سادها الجدب والعسر ، أعفيت بعض الأراضى من دفع الضرائب ، كما حدث حين تجاوز الخليفة المعتضد عن ربع الضريبة .

وقد ناط هارون الرشيد بالقاضى أبى يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة النعمان ، أن يضع كتابا يبين فيه الطريقة المثلى لتنظيم جباية الخراج وغيره من الموارد ، فوضعه وسماه « كتاب الخراج » . وفيه تناول الكلام على موارد بيت المال ، وطرق جبايتها ، والواجبات التى يقوم بها بيت المال ، وقسم موارد الدولة إلى ثلاثة أقسام : خمس غنائم الحرب ، والصدقات ، والخراج . ويدخل تحت الخراج ما يسمى وظيفة الأرض الخراجية ، ثم جزية أهل الذمة ، والعشور وقد حدثت فى عهد عمر بن الخطاب ولم يرد لها ذكر فى القرآن الكريم . وحد أرض الخراج : كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فلم يقسمها الإمام وأبقاها بأيدى أهلها أو صالحهم عليها وصيرهم ذمة ، ويخرج من ذلك أنواع من الأرض لا يوضع عليها الخراج وإنما تكون أرضا عشرية : وهى كل أرض للعرب غير بنى تغلب ، وكل أرض الأعاجم أسلم عليها أهلها طوعا ، وكذلك كل أرض من أراضى الأعاجم ظهر عليها المسلمون عنوة فقسمها الإمام بين الفاتحين .

وسار خلفاء العباسيين على نظام إقطاع بعض أعيان دولتهم ، قطائع من الأرض يعمرونها و يسكنونها مكافأة لهم على ماقدموه من خدمات جليلة . وسرعان ما عمرت هذه القطائع واتسع نطاقها وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطيعة تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها : ومن بينها قطيعة العباس ابن محمد بن عبد الله بن العباس ، وقطيعة الربيع بن يونس وكان بها تجار خراسان من البزازين (بائعى الثياب) ، وقطيعة صالح بن المنصور . وظهر ذلك

النظام جليا فى عهد المنصور العباسى ، فكان كبار رجال الدولة يقطعون الولايات على أن يؤدوا لدار الخلافة مبلغاً من المال عدا الهدايا والطرف ، كما كان متبعاً فى نظام الإقطاع الذى شمل أوربا فى القرنين العاشر والحادى عشر الميلاديين وسار عليه الخلفاء العباسيون من بعد المنصور : فولى الرشيد مصر صلاتها وخراجها لعبد الملك بن صالح ، وولى المأمون هذه البلاد على هذا النحو الإقطاعى لعبد الله بن طاهر بن الحسين ، وحذا المعتصم حذو الرشيد والمأمون فى تلك السياسة فولى أشناس التركى مصر (٢١٩ — ٢٢٩ هـ) وقلد الواثق ولاية هذه البلاد لإيتاخ (٢٣٠ — ٢٣٥ هـ) ، وساد هذا النظام حين تولى الأتراك حكم الدولة العباسية .

على أن دخل الدولة العباسية قد أخذ ينقص شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) أقل من جزء من واحد وعشرين جزءاً عما كان عليه فى عهد هارون الرشيد ، وأصبحت الحروب عبئاً ثقيلا لا يحتمل، مما أنهك قوى الدولة بعد أن بلغ ما حمل إلى الرشيد فى كل سنة نحواً من خمسمائة ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب .

وكان المال الذى يأتى من المواد المتقدمة ، ينفق على مصالح الدولة فتدفع منه : أرزاق القضاة والولاة وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين وتدفع منه أعطيات الجند أى رواتبهم التى يستولون عليها فى أوقات معينة من العام ، كما ينفق منها على كرى الأنهار وإصلاح مجاريها والترع التى تأخذ من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، وحفر الترع للزراعة والنفقة على المسجونين وأسرى المشركين من مأكل ومشرب وملبس ، والمعدات الحربية والعطايا والمنح التى يمنحها الأدباء والعلماء .

وكانت الجزية التى تؤخذ من أهل الذمة من أهم مصادر بيت المال ،

وقد قسم أهل الذمة طبقات : طبقة دنيا ويدفع الشخص منها ١٢ درهما في السنة ، ووسطى ويدفع ٢٤ درهما ، وعليا ويدفع ٤٨ درهما « ولا تؤخذ الجزية من النساء ، ولا ممن لم يبلغ الحلم ، ولا من ذى سن عالية ، ولا من ذى عاهة بادية ، ولا من فقير معدم ، ولا من راهب متبتل ، ويعطى لمن دفع الجزية براءة تثبت أداءه لها[1] . ومن مصادر بيت المال : مايؤخذ من تركة من يموت دون أن يترك وارثاً له حيث يؤول ميراثه إلى بيت المال ، وكان هذا مقصوراً على المسلمين . ولذلك أصدر الخليفة المقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) في سنة ٣١١ هـ كتاباً يأمر فيه برد من يموت من أهل الذمة دون وارث إلى أهل ملته لا إلى بيت المال ، وأنشىء لهذه التركات في عهد المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) ديوان أطلق عليه « ديوان المواريث »[2] . وكانت مصادرات الأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة ، مصدراً من مصادر بيت المال كذلك[3] .

الحياة الاجتماعية

طوائف المجتمع :

كان يقيم بين المسلمين ببلاد الدولة العباسية عدد كبير من أهل الذمة . وقد أوجدت الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغي أن يكون فيها من وفاق بين المسلمين واليهود والنصارى ، نوعا من التسامح . ومما يدل على تسامح الخلفاء العباسيين الديني مع غير المسلمين ، أن الحكومة الإسلامية لم تتدخل في الشعائر الحكومة الدينية لأهل الذمة . وكانت الأديرة منتشرة في كل أجزاء بغداد ، يقيم فيها النصارى واليهود حيث يمارسون شعائرهم في أمن وطمأنينة . بل أكثر من

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجرى ج ١ ص ٧٤ — ٧٨.

(٢) هلال الصابىء : تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ص ٢٤٦ — ٢٤٩.

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ٣ ص ٢٨١ .

ذلك أن بعض الخلفاء العباسيين كانوا يحضرون مواكب أهل الذمة واشتركوا في إحياء أعيادهم ومواسمهم ، ولم يكن يوجد في المدن الإسلامية أحياء رسمية مخصصة للنصارى أو اليهود بحيث لا يتعدونها وإن آثر أهل كل دين أن يعيشوا متقاربين ، وقد ألزمهم بعض الخلفاء اتخاذ ملابس خاصة يعرفون بها ، كما منعهم البعض الآخر من تعلية بيوتهم على أبنية المسلمين ، ولم يتصاهر المسلمون مع غير المسلمين ، ولم يكن يجوز للمسيحي أن يتهود ولا لليهودي أن يتنصر ، واقتصر الدين على الدخول في الإسلام ، ولم يكن النصراني يرث اليهودي ، ولا اليهودي يرث النصراني ، كما لم يكن اليهودي أو النصراني يرث المسلم ، ولا المسلم يرث غير المسلم يهودياً أونصرانياً [1] . وقد أصدر الخليفة المقتدر (كتابا في المواريث أمر فيه بأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً ، إلى أهل ملته ، على حين أن تركة المسلم ترد إلى بيت المال .

واعتمد الخلفاء العباسيون على الفرس دون العرب ، مما كان من عوامل نقمتهم على العباسيين وثوراتهم عليهم . ولما ولى المعتصم الخلافة ، ظهر العنصر التركي الذي استأثر بالنفوذ دون الفرس والعرب ، على أن بعض الخلفاء العباسيين في العصر الثاني ، أدركوا خطر الأتراك فاستعانوا بالمغاربة والفراعنة ، وغيرهم من الجنود المرتزقة كالأكراد والقرامطة . ولما انتقلت السلطة في بغداد إلى بني بويه ، قامت المنافسة بين الأتراك والديلم الذين كان البويهيون ينتسبون إليهم ، وأصبح الديلم خطراً يهدد كيان الدولة العباسية ، وانقسم المسلمون في هذا العصر إلى شيع وطوائف : فهناك السنيون وكانوا يكونون الغالبية العظمى من السكان ويتمتعون بقسط وافر من الحرية في عهد نفوذ الأتراك وعهد إمرة الأمراء ، وهناك الشيعيون وقد قاسوا كثيراً من المحن في هذا العهد حتى استولى بنو بويه على العراق فتمتعوا بالطمأنينة في

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي ج ٢ ص٣٠٦ .

ظلمهم ، ومن ثم قامت المنازعات بين السنيين والشيعيين .

وكان اتخاذ الرقيق منتشراً فى العصر العباسى ، ومن أكبر أسواقه سمرقند ، وكانت بيئة صالحة لتربية الرقيق المجلوب من بلاد ماوراء النهر . ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الرقيق نظرة امتهان وازدراء ، بدليل أن كثيراً منهم كانت أمهاتهم من الرقيق ، وقد أولع الخلفاء باتخاذ الإماء من غير العرب ، لأنهن كن فى الغالب أوفر جمالا ، وجرت العادة على ألا يرى الرجل من يريد التزوج رؤية تامة إلا إذا كانت من الحرائر إلا فى حدود ما يسمح به الشرع الإسلامى ، بخلاف الأمة فقد كان يستطيع أن يراها ويعرف طباعها وأخلاقها بحكم مخالطتها قبل أن يقدم على الاقتران بها ، وكثيراً ما كان أبناء الجوارى أحب إلى آبائهم من أبناء الحرائر ، ولم يكن ثمة فرق فى التوريث بين أبناء الحرائر والإماء ، وكان كثير من الخلفاء العباسيين من أمهات أولاد : فكانت أم المأمون فارسية ، وأم المعتصم تركية ، وشجاع أم المتوكل خوارزمية ، وأم المقتدر رومية وكذا كانت أم الخليفة المستكفى ، وكانت أم المطيع صقلية .

المرأة :

كان للمرأة فى عهد الدولة العباسية القدح المعلى فى الميادين الاجتماعية والسياسية ، فقد كانت امرأة مثالية ، لها وزنها وقدرها فى توجيه المسائل العامة ، ومن أبرز الشخصيات النسائية فى بغداد فى العصر العباسى : الخيزران وزبيدة والعباسة وقبيحة والسيدة .

تدخل نساء بغداد فى شئون الدولة العباسية ، كالخيزران ، التى كانت كثيراً ما تسأل ابنها الهادى ليقضى حاجات المترددين على بيتها من المسلمين .

غير أن شدة غيرة الهادى على النساء ، حملته على أن يضع حداً لتدخلها فى أمور دولته ، فقال لها مهدداً متوعداً حين سألته ذات مرة فى قضاء مسألة لم يجد إلى قضائها سبيلا : « لئن بلغنى أنه وقف ببابك أحد من قوادى أو خاصتى أو من خدمى ، لأضربن عنقه ولأقبضن ماله » . ولما أحس الهادى بدنو أجله بعث يطلب أمه الخيزران ، فحضرت إليه وخاطبها بقوله : « أنا هالك فى هذه الليلة ، وفيها يلى أخى هارون ، وقد كنت أمرتك بأشياء ونهيتك عن أخرى مما أوجبته سياسة الملك لا موجبات الشرع من برك ، ولم أكن بك عاقا ، بل كنت لك صائناً و براً واصلا » .

وهذه السيدة زبيدة ، زوجة الخليفة هارون وأم الأمين ، تمتعت بقسط وافر من الحرية وتدخلت فى شئون الدولة ، حتى أن الأمين بن هارون الرشيد ولى الخلافة بتأثير أمه زبيدة ، إذ عدل الرشيد عن عزمه فى تولية ابنه المأمون من بعده باعتباره أكبر أولاده سناً و بايع الأمين .

ولعل من أبرز النساء اللاتى ظهرن فى العصر العباسى وأوسعهن شهرة وأظهرهن شخصية ، العباسة ابنة المهدى وأخت الرشيد ، فقد قيل إن الرشيد كان يعمل بمشورة أخته ، وكانت ذات ثقافة عالية وذكاء نادر ، حلوة الحديث لطيفة المعشر ، وكانت تحضر دائماً مجلس الرشيد[١] .

وتمثل بوران ابنة الوزير الحسن بن سهل وزوجة المأمون ، حياة الترف والنعيم التى عاشتها بعض نساء بغداد فى العصر العباسى ، وكانت من أجمل نساء بغداد وأغزرهن علماً وأوفرهن أدبا ، وبذل الحسن بن سهل فى زفاف ابنته للمأمون كثيراً من الأموال .

ومن نساء العصر العباسى الثانى ، من كانت لهن السطوة على أولادهن من الخلفاء ، حتى كن يشرفن على شئون الدولة ويشتركن فى تدبير أمور

(١) على إبراهيم حسن : نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب ص ٨٦ .

الحكم ، وكان لهن أكبر الأثر فى سير الحوادث فى بغداد ، ومن أبرزهن : « قُبيحة » أم الخليفة المعتز بن المتوكل ، التى تسببت فى قتل الخليفة المعزول المستعين ، وكان قد أخرج إلى بلدة واسط ، وذلك خوفا على حياة ولدها من أن تمتد إليها يد الأعداء إذا ظل المستعين على قيد الحياة .

وقد ظهر تدخل النساء جلياً فى شئون الدولة فى عهد الخليفة المقتدر ، يقول صاحب الفخرى « واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخليط كثير ، لصغر سنه ولاستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه ، فكانت دولة تدور أمورها على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته »[١] . فقد أصبح الأمر والنهى بيد أمه «السيدة» ، وبلغ من عظم نفوذها أنها كانت إذا غضبت هى أو قهرمانتها على وزير ، أقيل من منصبه : كما حدث لعلى بن عيسى ، فقد أمرت بالقبض عليه بسبب سوء استقبال حاجبه لقهرمانتها ، وليس هذا كل ما كان للسيدة من نفوذ ، بل أن سلطتها تعدت حدود ذلك فعينت قهرمانتها « ثومال » رئيسة للمظالم .

ولم تمطل مجالس النساء المثقفات إلا فى عهد الخليفة المتوكل رغم أن نجم « فضل » الشاعر المشهور قد تألق فى عهد هذا الخليفة .

الملابس :

تطور الزى فى الدولة العباسية عما كان عليه الحال قبل قيامها ، وذلك لظهور الأزياء الفارسية فى البلاط العباسى ، وقد قرر أبو جعفر المنصور بأن تلبس بصفة رسمية القبعات السوداء الطويلة المخروطة الشكل ، ويطلق عليها اسم القلانس .

وأدخل استعمال الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من

---

(١) الفخرى ص ٢٣٥ .

حق الخليفة ، يتبين ذلك من العملة التي ضربت في عهد الخليفة المتوكل ، حيث تظهر صورته مرتديا ملابس فارسية . ولما تولى المستعين الخلافة (٢٤٨ — ٢٥٢هـ) صغر القلانس ، بعد أن كانت طوالا ، وأدخل لبس الأكمام الواسعة التي لم تكن تعرف من قبل ، فجعل عرضها نحو ثلاثة أشبار ، وكانت هذه الأكمام تقوم مقام الجيوب يحفظ فيها الإنسان كل ما يرغب في حفظه ، فكان الكاتب يحفظ فيها الرقعة لعرضها ، والقاضي يضع فيها الكراسة التي يقرأ منها الخطابة يوم الجمعة .

أما الملابس العادية للطبقة الراقية في العصر العباسي ، فكانت تشتمل على سروالة فضفاضة وقميص ودراعة وسترة وقفطان وقباء وقلنسوة . وتشتمل ملابس العامة على إزار وقميص وسترة طويلة وحزام وينتعلون الأحذية والنعال .

وكان رجال الدولة يتميزون بملابسهم : فيلبس الكتاب الدرعات وهي ثياب مشقوقة من الصدر ، ويرتدي العلماء الطيالسة ، أما القواد فيلبسون الأقبية الفارسية القصيرة . وكان من المستحسن لبس الثياب البيضاء ، وفي القرن الرابع الهجري كانوا يرون أنه لا يجوز للرجال لبس الثياب ذات الألوان إلا في بيوتهم ، على حين أنهم أجازوا لبسها للنساء .

وقد اتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء للرأس منضداً بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة ، ويعزى ابتكار هذا الغطاء إلى « علية » أخت الرشيد . وكانت نساء الطبقة الوسطى يزين رءوسهن بحلية مسطحة من الذهب ويلففن حولها عصابة منضدة باللؤلؤ والزمرد ، كذلك كن يلبسن الخلاخل في أرجلهن والأساور في معاصمهن وأزنادهن ، ولم يكن يجهلن فن التجميل ، ومن الجلي أنهن أخذنه عن الفارسيات . ويعزى إلى السيدة زبيدة اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر ، وكانت فوق ذلك تسرف في شراء ملابسها وتزيينها ، فقد اتخذت ثوبا من الوشي الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار .

الطعام والشراب :

بلغ من تفنن العباسيين فى الطهى وإسرافهم فى الإنفاق عليه ، أن بعضهم كان يشترى مقادير كبيرة من السمك لتقديم ألسنته على المـائدة ، كلون من ألوان الطعام الشهية . فإن ابراهيم بن المهدى لمـا استضاف الرشيد فى الرقة ، قدم له لونا من الطعام ، فاستصغر القطع ، وقال لِمَ صغر طباخك تقطيع السمك . فرد عليه إبراهيم بقوله : ياأمير المؤمنين ! هذه ألسنة السمك ، وأخبره إبراهيم أنه كلفها أكثر من ألف درهم ، فاستكثر الرشيد هذا المبلغ » .

وبلغت نفقة المأمون فى اليوم على مطابخه مبلغاً كبيراً ، واعتاد أهل بغداد جلب ألوان الطعام كالسمك والحبوب والجبن من فارس وعمان والهـند ، ولم يسمح الخلفاء العباسيون بتناول النبيذ على موائدهم ، على الرغم من أنهم كانوا يشربونه أحيانا [1] .

الألعاب :

ذاعت فى العصر العباسى عدة ألعاب ، مثل لعب الشطرنج ، والنرد ، وسباق الخيل ، والصيد ، ومن بين الخلفاء الذين أقبلوا على لعبة الشطرنج ، الخليفة المـأمون بعد قدومه من خراسان إلى بغداد والخليفة المعتضد الذى اشتهر فى عهده نوع من الشطرنج يسمى الجوارحية أو اللعب بالجوارح لأن حواس الإنسان تعمل أثناء لعبها ، وانتشرت بين الناس لعبة النرد وكان يلعب بثلاثين حجراً وفصين على رقعة بها إثنا عشر وأربعة وعشرين منزلا .

---

(١) المقريزى : الخطط ج ١ ص ١٨٠ .

أما سباق الخيل ، فكان يعد تسلية الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى العصر العباسى ، وقد أباح الخلفاء هذه الرياضة بشرط ألا تلعب طلباً للمال . وكلف بعض الخلفاء بالصيد ، فقد حرص المهدى على القيام برحلات صيد منظمة ، وبين يديه فرسان من الحراس يتقلدون سيوفهم .

ومن الألعاب التى كان يتسلى بها أهل بغداد ، اللعب بالخيال ، فقد كان فى بغداد رجل يعرف بابن المغازلى ، يقف على الطريق ويقص على الناس الأخبار والنوادر المضحكة ، ويقلدهم على اختلاف طوائفهم ، وقد سمع الخليفة المتعضد بنوادره ، فأمر بإحضاره بين يديه ، ليقصها عليه ، فأعجب بها وأجزل له العطاء[1] .

الأعياد والمواسم والمواكب :

احتفل خلفاء بغداد بعيدى الفطر والأضحى احتفالا باهرا ، كما حرصوا منذ بداية القرن الرابع الهجرى على الاحتفال بمولد النبى صلى الله عليه وسلم ، واحتفلوا بيوم النوروز وهو أول أيام السنة عند الفرس وأحد مواسمهم القديمة وكان المسلمون قد أبطلوا الاحتفـــال بهذا العيد فى بلاد الفرس بعد الفتح الإسلامى ، غير أنه عاد فى الصدر الأول من أيام العباسيين ، وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا[2] .

وكذلك الحال فى عيد المهرجان ، وهو أول أيام الشتاء ، فكان الناس يتهادون فيه ، وقد جرت العاده أن يخلع الخلفاء فى هذا العيد ملابس الشتاء على القواد وكبار رجال الدولة . وكان اليوم الخامس من المهرجان من أعظم أيام الفرس ويسمونه رام روز . واهتم الفرس كذلك بعيد الرام ، ويقع فى اليوم الحادى والعشرين من المهرجان[3] .

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٣ ص ٥٣٥ .

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣٣٨ .

(٣) Browne : Literary History of Persia, Vol. l.pp.114,256,475

وبذلك احتفل العباسيون بأعياد الفرس وخاصة : النوروز والمهرجان والرام ، وأصبحت من أهم الأعياد الرسمية فى الدولة العباسية .

وفى أيام الجمع والأعياد فى العصر العباسى ، كان يسير فى مقدمة موكب الخليفة : الناس على اختلاف طبقاتهم حاملين الأعلام ، ثم أمراء البيت العباسى على الخيول المطهمة ، ثم الخليفة لابسا القباء الأسود وعليه قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة ومتمنطقا بمنطقة مرصعة بالجواهر ومتشحا بعباءة سوداء ، وبين يديه كبار رجال الدولة[1] . ومن أعظم مواكب العباسيين ، عدا موكب الخليفة ، موكب الحج حيث يجتمع فى بغداد الحجاج من مختلف الأمصار الإسلامية الشرقية .

مجالس الغناء والموسيقى فى بغداد :

بدأت الدولة العباسية على يدى السفاح ثم أبى جعفر المنصور ، والعهد عهد فتن وتنازع وتشيع وتحزب ، فطبع المنصور نفسه على اليقظة والسهر ، ولا شك أن خليفة مثل هذا جبل على الحرص وتنكب أسباب الشك ، يجفو الطرب ويصرف نفسه عن الاشتغال بالملاهى ، حتى لا يجد أعداؤه المتربصون به سبيلا إلى اقتحام ملكه . وكان اتصافه بالبخل واشتهاره به ، من الأسباب التى باعدت بينه وبين شعراء عصره حتى خرج الشعراء فى أيامه من الحضرة إلى غير وجهة » . وذكر صاحب العقد الفريد أن حاجب المنصور قال : إن الشعراء ببابك وهم كثيرون ، طالت أيامهم ونفذت نفقاتهم ، والغناء يطلب البذخ والترف ، فلم يكن فى عهد المنصور قبس من الأمل فى الارتقاء ، وكان المنصور ورعا يعير آل الزبير بحبهم للغناء ، وقد سمع ذات يوم ضرب طنبور فى داره ، فكسره على صاحبه ، ولم يسمح بالغناء إلا بعد إنشائه بغداد التى كانت فيما بعد موئل الفن

---

(١) سيد أمير على مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٦ — ٣٨٧ .

وكمبة الغناء ، بيد أنه يجدر ألا تنسى أن العرب فى خلافة المنصور ، عربوا كتابا لبطليموس فى الألحان الثمانية ، كان له فى الموسيقى إذ ذاك شأن كبير .

ولم تعدم الدولة العباسية فيما بعد خلفاء من أمثال المنصور فى إقبالهم على الغناء وزهدهم فى سماع الموسيقى ، كما فعل المأمون بعد عودته من خراسان ، فقد وجد الفوضى ضاربة أطنابها ، فأمر بمنع الغناء ، ولكن ذلك كان إلى حين ، وريثما صفا له الزمان واتسقت الأمور ، ثم ما لبث أن أغرق فى اللهو حتى صار يسمر عنده كل ليلة إسحق الموصلى وإبراهيم بن المهدى ، وكان يقول لهما : بكرا على قد اشتقنا إلى الصبوح[1] ، وتشبه الخليفة المهتدى العباسى بعمر بن عبد العزيز فى ورعه وتقواه ، فلما ولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ أمر بتحريم الطرب .

على أنه فيما عدا هؤلاء ، ترى الخلفاء العباسيين قد أقبلوا على الغناء ، وشارك الخلفاء فى ذلك الأمراء والعامة ، وأخذ الخلفاء يغدقون الهبات والهدايا على المغنين ، وساعدهم على ذلك ، تلك الثروة التى حفلت بها بغداد . وأكثر من ذلك أن كثيراً من الخلفاء العباسيين اشتغلوا بصناعة الألحان وبرزوا فيها وذاعت لهم أنغام رائعة ، ومن أشهرهم المهدى بن المنصور الذى كان قصره مجمع الموسيقيين ، ومنهم الواثق والمنتصر والمعتمد والمعتضد . وكان أول من دونت صنعته فى الغناء من أبناء الخلفاء : إبراهيم بن المهدى ، وأخته علية وأبو عيسى بن الرشيد ، وعبد الله بن موسى الهادى ، وعبد الله ابن محمد الأمين ، وعيسى بن المتوكل ، وعبد الله بن المعتز . وحفلت دور البرامكة بالجوارى المغنيات ، ويقال إنهم الذين كانوا يعلمونهن الغناء .

ولم تكن عناية بعض الخلفاء العباسيين فى بغداد برجال الأدب والشعراء ،

---

(١) الصبوح : الخمر التى تشرب صباحا ، أما الغبوق فهى الخمر التى تشرب فى المساء .

أقل من عنايتهم برجال الفن الجميل من المطربين والمغنين والموسيقيين ، فقد كان كل منهم معطاء للأموال ، حتى كان يغدق على هؤلاء جميعا الهبات ، مما حببه إليهم ، واتصف الخلفاء بحب الفنون والإقبال على تشجيعها والأخذ بناصر أصحابها .

وقد جرت عادة بعض الخلفاء العباسيين على الظهور فى مجالس الغناء مثل المهدى والهادى ، ولكن السفاح والمنصور لم يظهرا قط فيها على الرغم من محبتهم الغناء والطرب له . وفاق هارون الرشيد الخلفاء فى ولوعه بالغناء والموسيقى و إجزاله العطاء للمغنين والموسيقيين ، وهو أول من جعل المغنين مراتب وطبقات ، كان آخرها طبقة المضحكين وأهل الهزل والفكاهات . ولم يكن بينها رغم ذلك — على حد قول الجاحظ — « خسيس الأصل ولا وضيعه ولا ناقص الجوارح ولا فاحش القول ولا مجهول الأبوين ولا ابن صناعة دنيئة » .

على أنه إذا أظهر أحد المغنين براعة فى فنه ، أمر الخليفة بترقيته إلى الرتبة التى تعلو رتبته . فإن برصوما الزامر أعجب الرشيد ، فأمره صاحب الستارة أن يزمر على غناء ابن جامع المغنى المشهور ، فرفض ذلك برصوم ، وقال : إن كنت أزمر على الطبقة العالية رفعت إليها ، فإما أن أكون فى الطبقة الثانية وأزمر على الأولى فلا أفعل ، فقال الرشيد لصاحب الستارة : إرفعه إلى الطبقة الأولى[1] .

ولم يجتمع على باب خليفة من المغنين والموسيقيين ، ما اجتمع على باب الرشيد . وممن نبغ منهم فى عهده منصور زلزل الذى اشتهر بحسن الضرب على العود . حتى قيل إنه كان إذا جسه لم يملك أحد نفسه حتى يطرب ، وذاعت شهرة المغنى مسكين المدنى الذى فاق فى الغناء ابن جامع أشهر مغنى عصره ، فقد غنى ابن جامع يوما فى مجلس الرشيد فلم يطرب الخليفة ، و إذ

(١) الجاحظ : كتاب التاج ص ٣٨ .

ذاك قال صاحب الستارة لمسكين : بأمر أمير المؤمنين إن كنت تحسن هذا الصوت أن تغنى ، فاندفع فى الغناء وأعجب به الرشيد وطلب إليه أن يعيد على مسامعه ما غناه فأعاده بقوة ونشاط ، فقال له الخليفة : أحسنت وأجملت .

وحظى إبراهيم الموصلى وابنه إسحق برضاء الخلفاء العباسيين ، وكانا من رجال الأدب ، ولكن الغناء قد غلب عليهما بما وضعاه من الألحان ، وقد أبدع إبراهيم فى تنسيقها ، حتى توهم أن الأرواح هى التى تعلمه الصوت[1] .

ولم يقتصر مجلس الغناء على الخلفاء وحدهم بل جاراهم فى ذلك المضمار الأمراء والوزراء وسائر رجالات الدولة ، وكان المغنون يلبسون «الثياب المطبوعة ، وكانوا إذا جلسوا فى تلك المجالس لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر ، ثم جلسوا يشربون ودارت الكاسات » ، ولم تخل تلك المجالس من النوادر والطوائف التى تملؤها بهجة وسرورا . وكما ارتفع شأن الغناء ، ازدهرت الموسيقى ، وكثيراً ما اشتركت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية فى بغداد فى رحلات موسيقية خاصة[2] .

وحفلت مجالس الغناء بالأدباء والمغنين ، وأجزل لهم هارون العطاء مما جذبهم إليه . واشتهر من بينهم المغنى زرياب ، الذى أنجب حمدونة وعلية ، فتعلمتا الغناء على يدى أبيهما وأصبحتا من شهيرات المغنيات .

كان زرياب ، والد حمدونة وعلية ، مولى الخليفة المهدى العباسى ، فارسى الأصل وكان شاعراً مطبوعا وأديباً ملما بعلوم النجوم وأخلاق الشعوب وطبائعها وسير الملوك ، حافظ لكثير من الحكم والأمثال ، كما كان فصيحاً حلو الحديث حسن الصوت ، تعلم الغناء على إسحق الموصلى وتفوق عليه دون أن يشعر بذلك

٦

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١ .
(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٢ ص ٣١٥ .

وقد طلب هارون الرشيد من إسحق أن يأتى له بمغنى غريب قد حذق الغناء، وإن لم يكن قد اشتهر فى هذا الفن، فذكر له تلميذه زرياب، فلما كلمه الرشيد أعرب عن نفسه بأحسن منطق وأوجز خطاب، وسأله عن معرفته بالغناء: نعم! أحسن منه مايحسنه الناس، وأكثر ماأحسنه لايحسنونه مما لايحسن إلا عندك، فإن أذنت غنيتك مالم تسمعه أذن قبلك، فأمره الرشيد بالغناء، فجلس ثم اندفع فغناه:

يا أيها الملك الميمون طائره ... هارون راح إليك الناس وابتكروا

فأتم النوبة، وطار الرشيد طرباً وأنب إسحق على كتمانه أمر زرياب عنه. فسقط فى يد إسحق وخلا بزرياب وقال: ياعلى! إن الحسد أقدم الأدواء وأدواها والدنيا فتاكة، والشركة فى الصناعة عداوة ولا حيلة فى حسمها، فتخير فى ثنتين لابد لك منهما: أن تذهب عنى فى الأرض العريضة لا أسمع عنك خبراً، وأما أن تقيم على كرهى ورغمى مستهدفا إلىّ. فاختار زرياب الرحيل، ورحل أولا إلى المغرب ومنها إلى الأندلس فى خلافة عبد الرحمن الأوسط، الذى أحب زرياب حبا شديدا وقدمه على جميع المغنين[1].

تلك هى حياة زرياب الأولى، وقد ورثه أولاده فى الغناء وكانوا ثمانية ذكور وبنتين هما علية وحمدونة، وقد تعلموا جميعاً الغناء ومارسوا صناعة الغناء، وأصبحت أسرته كلها تحترف هذا الفن. وتزوجت علية بنت زرياب من الوزير هشام بن عبد العزيز، أما حمدونة فقد تفوقت فى فن الغناء على أختها علية، وتقدمت فى السن، حتى لم يبق من بيت زرياب على قيد الحياة سواها، وأخذ عنها الغناء على أصوله التى وضعها والدها.

ويرجع الفضل إلى زرياب فى تعليم الجوارى الغناء فقد كانت له جوار أدبهن

(١) المقرى: نفح الطيب ج ٢ ص ٧٥٠ — ٧٥١.

وعلمهن الغناء على العود . ومن أشهرهن غزلان وهنيدة اللتين كانتا تأخذان عودها بمجرد أن يهب زرياب من نومه ويأخذ هو عوده ، ثم يكتب الشعر ويعود إلى مضجعه . ومن بين هؤلاء الجوارى ، اشتهرت هنيد بفرط جمالها ، وقد أعجب بها الخليفة عبد الرحمن الأوسط فأهداها زرياب إليه ، وأصبحت من محظياته المقربات .

وكان لخلفاء العصر العباسى الثانى مجالس للطرب والغناء يحضرها الشعراء والأدباء والمغنون والمسيقيون والملهون ، فقد جمع بمجلس المتوكل أول خلفاء هذا العصر مرة بين الشعراء والأدباء والملهين ، وفرح فى ذلك اليوم فرحاً شديداً وسر سروراً لم ير مثله ، وزاد فى تكرمة الشعراء وأجزل لهم العطاء .

وكان الخليفة المعتمد مشغوفا بالطرب والغناء والموسيقى ، سأل مرة عبد الله بن خرداذبة والد أبى قاسم عبيد الله الجغرافى المشهور صاحب كتاب « المسالك والممالك » ، عن نشأة الموسيقى والغناء وما طرأ عليهما من تغيير . فأجاد فى وصفها فى البلاد الإسلامية منذ أقدم العصور ، فسر المعتمد وقال له : قد قلت فأحسنت ، ووصفت فأطنبت ،وأقمت فى هذا اليوم سوقا للغناء وعيداً لأنواع الملاهى ، ثم سأله المعتمد عن أنواع الطرب ، فقال على ثلاثة أوجه : طرب محرك ينعش النفس ودواعى الشيم (الـكرم) عند السماع ، وطرب شجن وحزن لا سيما إذا كان الشعر فى وصف أيام الشباب والشوق إلى الأوطان والمرثى لمن عدم من الأحباب ، وطرب يكون فى صفاء النفس ولطافة الحس . وسأله المعتمد :فما منزلة الإيقاع وفنون النغم ، قال إن منزلة الإيقاع من الغناء منزلة العروض من الشعر [1] ، « يقول المسعودى : ففرح المعتمد فى هذا اليوم وخلع على ابن خرداذبة وعلى من حضره من ندمائه ، وفضله عليهم ، وكان يوم لهو وسرور »

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ٣ ص ٦١٩ .

وكان الخليفة العباسى فى العصر الثانى يهتم بمجالس الطرب ، فقد تملك الراضى الهم لاستبداد بحكم بأمور الدولة وسكة النقود باسمه ، ولكنه أزال عن نفسه الهم وتمثل بقول المأمون :

صل الندمان يوم المهرجان بصاف من معتقة الدنان
بكأس خسروانى عتيــــق فإن العيد عيد خسروان[1]

وتعدت مجالس الغناء والطرب ، من الخلفاء إلى الأمراء وكبار رجال الدولة . ويرجع انتشار الغناء إذ ذاك إلى كثرة الجوارى ، وكان معظم القيان اللاتى يحترفن الغناء فى أوائل القرن الرابع الهجرى من الجوارى ، وقليل منهن من الحرائر[2] . وفى سنة ٤٢١ هـ أمر الخليفة القاهر بتحريم القيان والخمر ، وقبض على المغنين وكسر آلات اللهو كما فعل الحنابلة فى أوائل هذا القرن ، وأمر ببيع المغنيات من الجوارى ، مع أن هذا الخليفة كان مولعاً بالشراب وسماع المغنيات .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٢٩ — ٥٣٠ .
(٢) متز : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى جـ١ ص ٢٦٦ .

مصادر الكتاب

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولا — مصادر عربية مخطوطة

إيليا المطران :

« مقالة فى المكاييل والأوزان »

مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب رقم ٣٤١ رياضيات .

ابن الرفعة : أبو العباس نجم الدين أحمد بن محمد بن على

« الإيضاح والتبيان فى معرفة المكيال والميزان »

مخطوط بالمكتبة التيمورية بدار الكتب رقم ٣١٢ رياضيات .

ابن الضياء المكى : أبو التقا محمد بهاء الدين بن الضياء المكى العمرى .

« تاريخ مكة المشرفة »

مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٧٠ تاريخ .

العبيدى : أبو على محمد

« اصول الأحساب وفصول الأنساب »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٩ تاريخ .

العجيمى : حسن بن على

« إهداء اللطائف من أخبار الطائف »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٨٧ تاريخ .

ابن عراق : على بن محمد

« نشر اللطائف فى قطر الطائف »

مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٢٣٣ تاريخ .

العسكرى : أبو هلال الحسين على العسكرى

« الأوائل » . مخطوط بدار الكتب رقم . ٢٧٧٣ تاريخ
ابن قدامة المقدسي (٦٢٠ هـ) : أبو محمد عبد الله بن عبد الله بن أحمد
« الاستبصار فى أنساب الأنصار » مخطوط بدار الكتب ٤٣٩
النهروانى (٩٨٨ هـ) قطب الدين محمد بن أحمد المكى
« الإعلام بأعلام بيت الله الحرام » مخطوط بدار الكتب رقم ٨٤٧ تاريخ
مؤلفه غير معلوم
« خلاصة السيرة الجامعة لعجائب أخبار ملوك التبابعة » .
شرح لم يعلم مؤلفه ، على القصيدة الحميرية ، لأبى الحسن نشوان بن سعيد الحميرى

ثانيا — مصادر عربية منشورة

الأبشيهى : شهاب الدين أحمد .
« المستطرف فى كل فن مستظرف » جزءان
أبكاريوس الأرمنى :
« نهاية الأرب فى أخبار العرب » (مرسيليا ١٨٥٢ م)
ابن الأثير : (٦٣٠ هـ = ١٢٣٨ م) على بن أحمد بن أبى الكرم
« الكامل فى التاريخ » ١٢ جزء (بولاق ١٢٧٤ هـ)
« أسد الغابة فى معرفة الصحابة) ٥ أجزاء (القاهرة ١٢٨٥ هـ)
أحمد أمين :
« فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٢٨)
« ضحى الإسلام » ٣ أجزاء (القاهرة ١٩٣٣ — ١٩٣٦)
« عكاظ والمربد » (بحث مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٣٣)
« الفتوة فى الإسلام » ، (بحث فى مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٤١) .
« الصعلكة والفتوة فى الإسلام » ـ سلسلة إقرأ رقم ١١١
أحمد عيسى :

« ألعاب الصبيان عند العرب » ، بحث مجلة مجمع اللغة العربية ،
جـ ٢ ، ١٩٣٧ .
« تاريخ البيمارستانات فى الإسلام (القاهرة ١٩٣٩) م .
الأزرقى : الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد
« أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار » جزان
(المطبعة الماجدية بمكة ١٣٥٢ هـ ، نشر الأستاذ رشدى الصالح)
إسرائيل ولفنسون :
تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام (القاهرة ١٩٢٧م)
أحمد داغر :
« حضارة العرب » (القاهرة ١٩١٨ م)
إسماعيل أحمد أدهم :
« علم الأنساب العربية » (القاهرة ١٩٣٨ م)
الاصطخرى : أبو القاسم ابراهيم بن محمد الفارسى
« مسالك الممالك » (ليدن ١٨٧٣ هـ)
الأصفهانى : أبو الفرج على بن الحسين
« الأغانى » (بولاق ١٢٨٥ هـ) ، والجزء ٢١ ، طبع ليدن سنة ١٣٠٥هـ
والأجزاء التى نشرتها دار الكتب منذ سنة ١٩٢٧ م
الألوسى : السيد محمود شكرى
« بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » ٣ أجزاء سنة ١٩٢٤ م
البلاذرى (٢٧٩ هـ = ٨٩٢ م) : أحمد بن يحيى بن جابر .
« فتوح البلدان » (القاهرة ١٣١٨ م)
البغدادى : أبو الفوز محمد أمين
« سبائك الذهب فى معرفة قبائل العرب » (بمباى ، ١٢٩٦ هـ)
البغدادى : عبد القادر بن عمر

« خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب » (بولاق ، ١٢٩٩ هـ)

البقاعى : برهان الدين :

« لعب العرب بالميسر فى الجاهلية الأولى » (ليدن ١٣٠٣ هـ) .

البكرى : عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عمر

« معجم مااستعجم » أربعة أجزاء تحقيق الأستاذ مصطفى السقا —
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

بندلى سليبا الجوزى

« الأمومة عند العرب » ، (طبع كازان ١٩٠٢) وهو ترجمة كتاب
Wilken : Das Matriarchet bei den Alten Arabern, 1884,

البيرونى : أبو الريحان محمد أحمد الخوارزمى

« الآثار الباقية عن القرون الخالية » ليبسك ١٨٧٨ م)

التبريزى : أبو زكريا يحيى بن على محمد بن بسطام.

« شرح أشعار الحماسة »

نشر الأستاذ فريتاج Freytag ، طبع Bonnae ، ١٨٢٨ م

الثعالبى النيسابورى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل

« غرر أخبار ملوك الفرس ومصيرهم » (باريس ١٩٠٠)

الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد

« لطائف المعارف » (ليدن ١٨٦٧) نشر الأستاذ جونج Jong

جورجى زيدان

« تاريخ آداب اللغة العربية » (القاهرة ١٩١١ م)

« أنساب العرب القدماء » (القاهرة ١٩٢١ م)

« تاريخ التمدن الإسلامى » ه أجزاء (القاهرة ١٩٣١ م)

« تاريخ العرب قبل الإسلام » (القاهرة ١٩٢٢ م)
ابن الجوزى (٥٩٧ هـ) أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد
« سيرة عمر بن الخطاب »
الجهشيارى (٣٣١ هـ) أبو عبد الله محمد بن عبدوس :
« كتاب الوزراء والكتاب » (القاهرة ١٩٣٨) .
نشره الأساتذة مصطفى السقا و إبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى
الجاحظ (٢٥٥ هـ = ٨٦٩ م) : أبو عثمان عمرو بن بحر
« كتاب التاج فى أخلاق الملوك » .
حققه المرحوم الأستاذ أحمد زكى (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م)
ابن حجر العسقلانى (٨٥٣ هـ) شهاب الدين بن على
« الإصابة فى تمييز الصحابة » (القاهرة ١٩٢٣ م)
حسن ابراهيم حسن
« السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية » تأليف فان فلوتن (ترجمة إلى العربية)
«الدعوة إلى الإسلام» تأليف توماس أرنولد (ترجمة إلى العربية ١٩٤٧)
«تاريخ الإسلام السياسى» الأجزاء : ١ر٢ر٣ (القاهرة١٩٤٥ـ ١٩٤٨)
ابن عبد الحكم (٢٥٣ هـ) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله
« فتوح مصر والمغرب »
ابن أبى الحديد (٤٠٤ هـ) الشريف الرضى محمد بن أبى أحمد الحسنى
« كتاب شرح نهج البلاغة » ٤ مجلدات (القاهرة ١٣٢٩ هـ)
الحلبى (١٠٤٤ هـ) . على بن برهان الدين ابراهيم بن احمد
« إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون » .
ابن خرداذبة : أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن أحمد .

« المسالك والممالك » . (ليدن ١٣٠٦ هـ) .

الخطيب البغدادى (٤٦٣ هـ) : الحافظ أبو بكر أحمد بن على

«تاريخ بغداد أو مدينة السلام» ٤ أجزاء (القاهرة ١٣٤٩هـ=١٩٣٦ م)

ابن خلدون (٨٠٨ هـ) : عبد الرحمن بن محمد بن محمد جابر .

« العبر وديوان المبتدأ والخبر » ٧ أجزاء (القاهرة ١٣٨٤ هـ)

« المقدمة » (بيروت ١٩٠٠ م)

ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن ابراهيم بن أبى بكر

« وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » . جزءان (بولاق ١٢٨٣ هـ

والمطبعة اليمنية بمصر ١٢١٠ هـ)

ترجمه إلى الإنجليزية De Slane ـ (باريس ١٨٤٢ ـ ١٨٤٨)

ابن دريد : أبو محمد بن الحسن الأزدى .

« الاشتقاق » طبع جوتنجن Gotingen ، ١٨٥٤ م

دحلان : أحمد زينى

« السيرة النبوية والآثار المحمدية »

(على هامش السيرة الحلبية) ـ القاهرة ١٣٢٠ هـ

الدميرى : كمال الدين .

« حياة الحيوان » (القاهرة ١٣٠٥ هـ) .

الديار بكرى (٩٦٦ هـ) : حسين بن محمد بن الحسن .

« الخميس فى أحوال أنفس نفيس » ، جزءان (القاهرة ١٨٢٣ هـ)

رشاد أبو السعود ، وعبد المجيد هديس

« مختصر تاريخ العرب القديم » (طبعة الشام ١٢٩٠ م) .

الزبيدى : أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسينى .

« نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح » (ليدن ١٣٠٣ ﻫ)

زكى محمد حسن :

« مصر والحضارة الإسلامية » (الرسالة ١٥ من سلسلة الثقافة العسكرية التى تصدرها إدارة الشئون العامة فى وزارة الحربية) .

« الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٤٥) .

« دراسات فى مناهج البحث والمراجع فى التاريخ الإسلامى » . (مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٥٠) .

الزمخشرى : محمود بن عمر .

« الكشاف عن حقائق التنزيل » (كلكتا ١٨٥٦ م)

ابن سعيد : على بن موسى المغربى

« كتاب المغرب فى حلى المغرب » (ليدن ١٩١٨ — ١١٩٩ م)

ابن سعد (٢٣٠ ﻫ) : محمد .

« كتاب الطبقات الكبير » ٨ أجزاء (ليدن ١٣٢٢ ﻫ) .

السيوطى (٩١١ ﻫ) الحافظ جلال الدين عبد الرحمن

« تاريخ الخلفاء (١٣٥١ ﻫ) .

سيد أمير على :

« مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » .

ترجمه من الانجليزية الأستاذ رياض رأفت (القاهرة ١٩٣٨ م)

سعيد الأفغانى :

« أسواق العرب فى الجاهلية والإسلام » (دمشق ١٩٣٧ م) .

السمهودى (٩١١ ﻫ) : أبو الحسن على بن عبد الله بن أحمد .

« وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى ، القاهرة ١٢١٦ ﻫ) .

السهيلى : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله الخثعمى .

« الروض الأنف » جزءان (القاهرة ١٩١٤ م)

ابن سيدة : أبو الحسن على بن اسماعيل

« المخصص » (القاهرة ١٣٢١ هـ) :

سيدة اسماعيل كاشف :

« مصر فى فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٤٧) .

« مصر فى عصر الإخشيديين » (القاهرة ١٩٥٠) .

الشهرستانى : أبو الفتح محمد بن عبد الكريم .

« الملل والنحل » ، (لندن ١٨٤٦)

الشيزرى : عبد الرحمن بن نصر .

« نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » نشر الدكتور الباز العرينى :
(القاهرة ١٩٤٦) .

ابن طباطبا : محمد بن طباطبا ، المعروف بابن الطقطقى .

« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » القاهرة ١٩٢٣)

الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير .

« تاريخ الرسل والملوك » نسخة فى ثمانية عشر مجلداً ، طبع مطبعة بريل
بمدينة ليدن من سنة ١٨٧٩ إلى سنة ١٨٩٨ م .

الطرطوشى : محمد بن الوليد الفهرى .

« سراج الملوك » (القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

طه حسين :

« الفتنة الكبرى — عثمان » (القاهرة ١٩٤٨ م) .

« على وبنوه » (القاهرة ١٩٥٣) .

طيفور (٢٣٠ هـ = ٨٩٣ — ٨٩٤ م : أبو الفضـل أحمد بن أبي طاهر
« تاريخ بغداد » (ليبسك ١٩٠٨ م)
عبد الحميد العبادى :
« صور من التاريخ الإسلامى ، العصر العربى » (الأسكندرية ١٩٤٨)
« أحابيش قريش — هل كانوا عربا أو حبشا ؟ » بحث فى مجلة كلية الآداب ، مايو ١٩٣٣ .
ابن عبد ربه : أبو عمر أحمد بن محمد عبد ربه الأندلسى
« العقد الفريد »
نشره الأساتذة : أحمد أمـــين وأحمد الزين وإبراهيم الابيارى (القاهرة ١٩٤٠)
« بلوغ الأرب فى مآثر العرب » مطبعة الصفا فى لبنان ١٣١٩ هـ)
العمرى : ابن فضل الله
« مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » (القاهرة ١٩٢٤)
على إبراهيم حسن :
« النظم الإسلامية » (القاهرة ١٩٣٩)
« نساء لهن فى التاريخ الإسلامى نصيب » (القاهرة ١٩٥٠)
« مصر فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٥١)
على عبد الواحد وافى :
« الأسرة والمجتمع » (القاهرة ١٩٤٥)
« وأد البنات عند العرب فى الجاهلية ، عوامله الصحيحة وموقف الإسلام منه » (مجلة « الرسالة العدد ٤٠٠ ، مارس ١٩٤١)

فارس بن يوسف الشدياق :
« الساق على الساق فيما هو الفارياق ، أو أيام وشهور وأعوام فى عجم العرب والأعجام » (باريس ١٩٥٥ م) .
أبو الفداء : إسماعيل بن ، عماد الدين صاحب حماة .
« المختصر فى أخبار البشر » ٤ أجزاء (القسطنطينية ١٢٨٦ هـ والقاهرة ١٣١٥ هـ) .
ابن قتيبة الدينورى : أبو محمد عبد الله بن مسلم .
« المعارف » (القاهرة ١٩٣٤)
« اليسر والقداح » (القاهرة ١٣٤٢ م)
قدورة : زاهية .
« عائشة أم المؤمنين » (القاهرة ١٣٦٦ هـ = ١٩٤٧ م)
« الجامع لأحكام القرآن » القاهرة ١٩٣٧)
القلقشندى : أبو العباس أحمد
« صبح الأعشى فى صناعة الانشاء » ١٤ جزءا (القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٩)
الكاسانى الحنفى :
« بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع » ج ٢ (القاهرة ١٣٢٧ هـ)
الكرملى — الأب أنستاس مارى الكرملى
« النقود العربية وعلم النميات » (القاهرة ١٩٢٩)
ابن الكلبى : أبو المنذر هشام بن أبى النصر محمد بن السائب
« الأصنام » (بولاق ١٣٣٢ هـ) .
الكندى (٣٥٠ هـ) : أبو عمر محمد بن يوسف
« كتاب ولاة مصر »
نشره روفن جست باسم « كتاب الولاة وكتاب القضاة » لندن ١٩١٧ م)

الماوردى (٤٥٠ هـ = ١٠٥٧ م) أبو الحسن على بن محمد بن حبيب المصرى
« الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٨ هـ ولندن ١٩٠١ م)
متز : آدم
« الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى » .
ترجمة الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة
المسعودى (٣٤٦ هـ) : أبو الحسن على بن الحسين بن على .
« مروج الذهب ومعادن الجوهر » جزءان (القاهرة ١٣٠٣ هـ)
مصطفى بدر :
محنة الإسلام الكبرى — سقوط بغداد
أبو المحاسن (٨٧٤ هـ) جمال الدين يوسف بن تغرى بردى
« النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » (القاهرة ١٩٣٠ — ١٩٤٨)
المقرى (١٠٤١ هـ = ١٦٣٣ م) : شهاب الدين أحمد بن محمد
« نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » .
٤ أجزاء (بولاق ١٢٧٩ هـ = ١٨٦٢ م)
مسكويه (٤٢١ هـ)
« تجارب الأمم وتعاقب الهمم » ٣ مجلدات ، عنى بتصحيحها
أمدروز Amedroz (القاهرة ١٣٣٢ هـ = ١٩١٤ م)
المبرد : أبو العباس محمد
« الكامل فى الأدب » جزءان (القاهرة ١٣٢٤ هـ)
محمد جمال الدين سرور :
« قيام الدولة العربية الإسلامية فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم »
(القاهرة ١٩٥٢)

محمد الخضرى :

« تاريخ الأمم الإسلامية » ٣ أجزاء

محمد عبد المعيد خان

« الأساطير العربية قبل الإسلام » (القاهرة ١٩٣٧ م)

مولاى محمد على :

« محمد رسول » (القاهرة ١٩٤٨)

ترجمه إلى العربية الأستاذ مصطفى فهمى والأستاذ سعيد جودة السحار

محمد كرد على :

« الإسلام والحضارة العربية » جزءان (القاهرة ٩٣٤ — ١٩٣٦ م)

محمد نعمان الجارم :

« أديان العرب فى الجاهلية » جزءان (القاهرة ١٩٢٣)

محمد لبيب البتنونى

« الرحلة الحجازية » طبعة ثانية ، ١٣٢٩ هـ

المرزوقى : أبو على الأصفهانى

« الأزمنة والأمكنة » ، طبع مجلس دائرة المعارف بالهند ١٣٣٢ هـ

المقريزى . تقى الدين أبو محمد أحمد بن على

« النزاع والتخاصم فيما بين أمية وهاشم » (ليدن ١٨٨٨) م

« شذور العقود فى ذكر النقود » (المطبعة الحيدرية فى النجف ١٣٥٦هـ)

ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم

« لسان العرب » (بولاق ١٣٠٢ — ١٣٠٧ هـ)

نابية أبوت :

« المرأة والدولة فى فجر الإسلام »

بحث ترجمه الأستاذ محمد عبد الغنى حسن المجلة الأمريكيه للغات السامية وآدابها .

النجيرمى : إسحاق إبراهيم بن عبد الله

« إيمان العرب فى الجاهلية » (القاهرة ١٣٤٣ هـ)

ابن النديم : (٣٨٣ = ٩٩٣) محمد بن اسحق

« الفهرست » جزءان (ليبسك ١٨٧١ م)

النووى (٦٧٦ هـ = ١٢٧٧) . أبو زكريا محيي الدين بن شرف

« تهذيب الأسماء واللغات » جزءان (القاهرة)

ابن هشام : عبد الملك بن هشام بن أيوب الحيرى

« سيرة رسول الله » طبع جوتنجن ، ١٢٧٦ هـ – ١٧٦٢ م

الهمدانى : أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب

«الإكليل» جـ ٨ نشرة الأب أنستاس مارى الكرملى (بغداد ١٩٣١)

أبو هلال الصابىء (٤٤٨ هـ = ١٥٠٦ م)

« كتاب تحفة الأمراء فى تاريخ الوزراء » طبعة هـ . ف . أمدروز

هنرى لامنس :

« الأحابيش والنظام العسكرى فى مكة زمن الهجرة » (بحث فى مجلة المشرق الكاثوليكية ، ١٩٣٦)

« الحجارة المؤلهة ومظاهر عبادتها عند العرب الجاهلية » (بحث فى مجلة المشرق ، ١٩٢٨)

الواقدى (٢٠٧ هـ) : أبو عبد الله محمد بن عمر

« فتوح الشام » (القاهرة ١٣٠٢ هـ)

وستنفلد : فردنند

« تواريخ مكة المشرفة » ، (مدينة غتنفة ، ١٢٨٥ هـ)

وهب بن منبه :

« تاريخ ملوك حمير »

لويس شيخو

« النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » (بيروت ، ١٩١٢)

ياقوت : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى

« معجم البلدان »

اليعقوبى . أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب المعروف بابن واضح .

« تاريخ اليعقوبى » ٣ أجزاء (النجف (١٣٥٧ هـ)

يوسف رزق الله غنيمة :

« الحيرة ـ المدينة والمملكة العربية » (بغداد ، ١٩٣٦ م)

« نزهة المشتاق فى تاريخ يهود العراق » ، بغداد (١٩٢٤ م)

أبو يوسف (١٩٢ هـ = ٧٠٧ م) : يعقوب بن إبراهيم

« كتاب الخراج » (بولاق ١٣٠٢ هـ والمطبعة السلفية بمصر ١٣٤٦ هـ)

ثالثا — مصادر أوربية

Ameer : Sayed Ali.
A Short History of the Saracens. (London, 1939)

Brockelman : Carle.
History of the Islamic Peopes. (London, Rutledge & Paul, 1949).

Browne : E. G.
A Literary History of Persia (2 Vols. London 1902—1903).

Burckhardt : J. J.
1. Travels in Arabia. (London, 1819)
2. Arabic Proverbs (2 nd. ed. London, 1875)

Burton : R. F.
Personal Narrative of a Pilgrimage to Al-Madinah and Meccah. (2 Vols. London, 1898)

Causssin de Perceval ;
Essai sur L'Histoire des Arabes avant l'Islamisme. (3 Vols. Paris 1847—1848)

Doughty : C. M.
Travels in Arabia Deserta. (2 Vols. Cambridge, 1888)

Dozy : R.
Supplément aux Dictionnaire detaille des noms des Vetements chez les Arabes. (Paris, 1845)

Encyclopædia of Islam. (London and Leyden, 1913—193)

Freeman : E. A.
The History and Conquests of the Saracens (London1876).

Fresnel : E.
Lettres sur l'Histoire des Aarbes avant l'Islamisme, (Paris, 1836)

Gibb : H. A. R.
Arabic Literature. (London, 1928)

Gibbon : E

History of the Decline and Fall of the Roman Empire, 7 Vols.

Gilman : Arthur

The Saracens from the Earliest times to the Fall of Baghdad.

Hell, Joseph

Die Kultur der Araber, translated from the German by Khuda Bukhsh under the title «The Arab Civilisation»(London,1926)

Hitti, ph.

History of the Arabs, (London 1927)

Hogarth : N. G.:

The penetration of Arabia. (London, 1905)

Arabia. (Oxford 1922)

Huart, clément :

Histoire de Arabes. 2 Vols. (Paris. 1912—1913).

Kierman : R. H.

The Unveiling of Arabia. (London, 1937)

King : L. W.

A History of Babylon from the Foundation of the Monarchy to the Persian Conquest (London. 1919).

Lammens : Henry.

1. Le Berceau de L'Islam. (Romae 1914)
2. La Citè Arâbe de Taif à la Veille de L'Hegire. (Beyrouth 1922) (Méanges de L'Université Saint- Jseph, Beyruth, tome VII)
3. Fatima et les Filles de Mahomet (Romae. 1912)
4. Mahomet fut - il Sincére ?
   (Extrait des «Recherches de Science Religieuse» Nos 1. (Let 2. Paris, 1911)
5. Les Ahabis et l'Organisation Militaire de la Mecque au siècle de L'Hegire.

(Journal Asiatique, onziéme séreie, tome VIII, 1916)

6. La Republique Marchande de la Mecque vers L'an 600 de notre ère. (Extrait du Bulletin de L'institut Egyptien 5 serie)

7 La Mecque à la veille de L'Hegire. (Mélanges de L'Université Sait - Joseph, Beyrouth, tome (X)

Le Strange : Guy
1. Baghdad during the Abbasid Caliphate (Oxford. 1924).
2. A Greek Embassy to Baghdad in 917 A D. (J. R. A. S.).

Lane-Poole, S.
The Muhammadan Dynasties (Paris 1905)

Levy : R.
Persian Literature. (London 1923)

Lyall, ch,
Ancient Arabian Poetry (London, 1930)

Margoliouth
1 Mohamed and the Rise of Islam. (London & New York)
2. The Relations between Arabs Israelites prior to the Rise of Islam. (London 1924)

Muir, W.
1. Life of Mahomet. 4 Vols (London. 1858—1861)
2. The Caliphate, its Rize, Dicline and Fall, (Oxford, 1902)

Nicholson, Reynold
A Literary History of the Arabs. (London, 1907)

Noldeke, th,
1. Shketches from Eastern History Translated by J. S. Black. (London, 1892)
2. The Scope and Influenence of Arabic History (The Historians' History, of the World Vol. 8. London, 1908)

O L'eary de Lacy.
Arabia before Muhammad. (London, 1927)

Perron, M.

Femmes Arabes avant et depuis L'Islamisme. (Paris, 1858

Robertson Smith.

1. Kinship and Marriage in Early Arabia. (2 nd édition, London, 1903.)

2. Lectures on the Religion of the Semites. (London. 1894)

Rutter, Eldon.

Holy Cities of Arabia. (London 1949)

Sedillot, L. A.

Histoire Generale des Arabes : leur Empire, leur Civilisation, leurs écoles philosophiques, scientifique et littéraires. (Deuxieme édition. 2 Vols. Paris 1877)

Sykes, Percy

A History of Persia. 2 Vols. (London, 1915 - 1921).

Thomas : B

The Arabs. (London 1937).

Von Kremer

Orient under the Caliphs, 2 Vols, translanted by khuda Bukhsh (Calcutta, 1920 - 1927).

Zaki M. Hasan

Les Tulunides, (Paris, 1933).

كتب المؤلف

صفحة

١ — النظم الإسلامية [الطبعة الثالثة ١٩٦٢] ٣٨٤

بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة أسيوط السابق . يبحث في نظام الخلافة ، والوزارة ، والكتابة ، والحجابة ، وسلطة الولاة ، ودواوين الحكومة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت المال ، ونظام القضاء . ترجمه مولاى عليم الله خان صاحب صديق الى اللغة الأوردية ، لغة بلاد الهند الرسمية ، ونشرته ندوة المصنفين في دلهي .

٢ — نساء لهن في التاريخ الإسلامي نصيب [الطبعة الثانية ١٩٦٣] ١٤٨

يبحث في تاريخ النساء في الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومصر الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة في الإسلام .

٣ — سيرة القاهرة [الطبعة الثانية ١٩٥١] ٢٧٨

بالإشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن والأستاذ ادوار حلم ، ترجم من الانجليزية الى العربية عن Lane- Poole : The Story of Cairo

٤ — جوهر الصقلي [الطبعة الثانية ١٩٦٣] ١٢٨

يبحث في حياة جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي ، والدور الذى قام به المعز في تاريخ مصر .

تابع كتب المؤلف

صفحة

٥ — مصر فى العصور الوسطى [الطبعة الخامسة ١٩٦٣] ٥٦٠

من الفتح العربى إلى الفتح العثمانى

يبحث فى تاريخ مصر من الفتح العربى الى الفتح العثمانى ويشمل عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين فى مصر ، وعهود دول : الطولونيين ، والإخشيديين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك وذلك فيما يتعلق : بالتاريخ السياسى ، والعلاقات الخارجية ، ونظم الحكم ، والمنشآت ، والحالة الاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٦ — دراسات فى تاريخ المماليك البحرية [الطبعة الثالثة ١٩٦٣] ٤١٦

يبحث فى مميزات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفى عهده وعهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة ، وألقاب السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطانى داخل القصر وفى المواكب ، ونظام الخلافة العباسية فى القاهرة ، ودواوين الحكومة المملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش المملوكى ، والقضاء والمظالم والحسبة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٧ — استخدام المصادر وطرق البحث فى التاريخ [الطبعة الثانية ١٩٦٣] ٢٠٤

يبحث فى طرق البحث التاريخى ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ، ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة

٨ — التاريخ الإسلامي العام [الطبعة الثالثة ١٩٦٣] ٦١٢

يبحث فى تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة الأموية ، والعصر العباسى ، ونظم الحكم فى الجاهلية والدولة العربية والدولة العباسية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى بالقاهرة